AL-ITHNAINYA
الاثنينية

منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٣هـ – ١٩٨٢م

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

عبد الله عبد الرحمن الجفري

الجزء الخامس

إبداعات

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الاثنينية

(٣٢)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

عبد الله عبد الرحمن الجفري

الجزء الخامس

إبداعات

الناشر

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

جدّة

ⓒ عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجفري ، عبد الله عبد الرحمن

الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الله عبد الرحمن الجفري ./ عبد الله عبد الرحمن الجفري .- جدة ١٤٢٦هـ

(٦ مج ٤٢٢٠ ص) الجزء الخامس ٧٨٠ ص ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٣٢)

ردمك ٠-٨٢٧-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٧-٨٣٢-٤٧-٩٩٦٠ (ج٥)

١ - الأدب العربي - مجموعات ٢ - الجفري ، عبد الله عبد الرحمن

٣- الأدباء السعوديون أ - العنوان

ديوي ٨١٠,٩٥٣١ ١٤٢٦/٢٣٨١

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٢٣٨١

ردمك : ٠-٨٢٧-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٧-٨٣٢-٤٧-٩٩٦٠ (ج٥)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ — ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

جدة

فهرس المحتويات

إبداعات ....

أبواب . للريح والشمس ....

السؤال . . المقدمة! ....

الفصل الأول: الحب في عادية الأشياء ....

عودة الذاهب . . من جديد! ....

الحب جنوناً ! ....

الراحل . . إلى الإدراك ....

واحة الصبح المعزولة! ....

احترق «البايب» وبقي التبغ! ....

الآن . . . ما هو الثابت؟! ....

عندما تصبح الأشياء . . عادية! ....

قليل من الشمس . . في الماء البارد! ....

العودة للإنسان! ....

خرج من العين المفقودة؟! ....

العالم على ساقين متناقضين! ....

شهادة ميلاد ضائعة!! ....

البحث عن قضية!! ....

الفصل الثاني: الميلاد . . . والرحيل ....

الحكيم. . بين الأحلام والأوهام! ....
متى كان موعد الرحيل؟! ....
محمود درويش: توأم القمة الماردة! ....
خطوات. . في الغربة! ....
ميلاد. . يغني!! ....
اغتيال الغزالة! ....
كلماته. . تموت وهي حبلى! ....
الفصل الثالث: أصوات الأيام ....
أيام هذا الرجل!! ....
صوت. . من خارج الزمن!! ....
حوار. . في الحزن الدافئ ....
هذا الحوار ....
مقـدّمـة ....
أول الحوار! ....
كل وجه. . . كان حزني! ....
وجهان . . في الزحام ....
واحد إنسان. . . جداً ....
واحد شيطان. . . جداً ....
واحد قمر. . . جداً ....
واحد مجنون. . . جداً ....
واحد قاسي. . . جداً ....
واحد مضيء. . جداً ....
واحد صياد. . . جداً ....
واحد قلبه مزروع. . . جداً ....
واحد نايم. . . جداً ....

واحد كومبارس . . . جداً ....
واحد «ارتكاري». . جداً ....
واحد آخذ. . . جداً ....
واحد حزين . . . جداً ....
واحد مبسوط. . جداً ....
واحد صيفي. . جداً ....
واحد تراجيدي. . جداً ....
عصر: الكلمة/ العار ....
إهـــــــداء ....
مـدخــل ....
عصر الإنهيارات ....
المغامر. . بالوطن! ....
زعيم الفتنة! ....
ـ سيناريو. . الانفصام العربي ....
شواهد مخجلة! ....
ـ ناي. . قتيل الصدى! ....
الأرض. . والعقل! ....
المثقفون الثوريون! ....
محمد حسنين هيكل! ....
قُطَّاع الطريق السياسي ....
البيَّــاتــي ....
حميــد سعيـد ....
المثقفون المنخذلون ....
نـزار قبـانـي ....
الغائبون عن الوعي ....

أنيس منصور! ....
قالوا عن «ألوان» أنيس منصور! ....
فـؤاد مطـر! ....
المثقفون العراقيون البعثيون! ....
الأصوليون المتحزّبون ....
آية اللَّه الترابي ....
الجبهة الإسلامية السودانية ....
فـرق الاغتيـالات ....
«الفقير» من الحياء ....
الغنوشي المغالط! ....
الثقافة العربية.. إلى أين؟! ....
الزيدان زوربَا القَرن العشرين ....
مـدخـل ....
الكلمة: تتجرع الصاب ....
جبل «سَلْع».. ومَحْنِيَّ الضلوع ....
ما أدرانا بالحدس؟ !..
رسالتان متبادلتان ....
عبارة.. تتيَّم الزيدان ....
حــواراتـه ....
موقف الأديب من التراث ....
الحياة ما بين البداية والنهاية ....
الوجه الآخر... هو وجهه الواحد ....
دمعتــه !!..
مواقف له، وعنه، ومعه ....
الوطن في تعريفه وانتمائه ....

هدية من السعودية ....
«الشوبشة» !!..
رسالة. . لم يردّ عليها ....
كلمات. . شَهِدْتُ مولدها ....
حوار معه. . عن العاطفة الخيال ....
قالوا عنه ....
كتبوا عن الزيدان/ بعد وفاته ....
ياسين طه. . صديق العمر ....
من مشعل السديري. . ...
الزيدان. . الزيدان. . الزيدان !!...
عندما اكتمل نداؤه ....
مـن أقـوالـه ....
فهرس المحتويات ....

إبـداعات

أبواب . . للريح والشمس

السؤال . . المقدمة!

ما الذي يحدث الآن؟!

سؤال صعب جداً. . يطرحه المفكرون، ويطرحه الفلاسفة، ويطرحه الفنانون أيضاً والشعراء. . ولكنهم جميعاً لا يجدون الإجابة عليه، أو لعلّهم لا يمتلكون القدرة على وضع إجابة صحيحة، ودقيقة، وشافية!

كان الفنان يضع اللوحة أمام نفسه بيضاء. . لتنعكس عليها بعد ذلك الألوان والظلال والملامح، من العابرين أمامه، ومن المتأملين للبياض وللفراغ، ومن الضائعين في زحام التراكض!

فكان الفنان يرسم ويمنح قلبه نبضاً جديداً!

الآن. . أصبح الفنان يرسم، ويسقط قلبه، أو كأنه أخفى قلبه، وعامل الناس بالتحديق، وبالصمت الأبكم!

وكان المفكر يحلل، ويبدع وينسكب كقارورة عطر. . والآن أصبح يعيش الذهول، والنظرات الحائرة المبددة!

لقد بلغنا مرحلة التعبير الغارق في ترف الحزن تارة، والتعبير الغارق في حزن الأمل تارة أخرى. . وكنا نحيا بالتعبير الذي يشغله الألم، ويصهره، ويحرقه، ويجدده!

أو كأننا نحيا في زمن الراحة المخدرة، أو الراحة المنومة مغناطيسياً!

فهل نخرج من زمن هذه الراحة. . لنستطيع أن نجيب على هذا السؤال العصيب:

ـ ما الذي يحدث الآن؟!

إن الذين في استطاعتهم أن يجيبوا على هذا السؤال اليوم. . أصبحوا هم هؤلاء الذين يخترعون الأسلحة المدمرة، والذين ملأوا حياتنا التي كانت بسيطة بكميات هائلة من «الأزارير» التي يتحكم فيها أصبع واحد!

وهم هؤلاء العلماء الذين يخترعون الجديد للقضاء على الإنسان. . أكثر من اختراعهم للجديد الذين يدعون إنه يوفر الراحة والرفاهية للإنسان. . وهؤلاء يعطون إجابات غريبة لا يفهمونها. . ولكنك أنت تفهمها لاحتياجك إلى إجابة واحدة فقط على سؤال يحيرك!

أما إجاباتهم. . فهي مادية بحتة، ذات أرقام، ومثلثات، ومسافة، ومساحة. . إنهم لا أكثر من أناس يحققون لك الفرصة المؤقتة، لتموت بعدها فجأة بأي مرض حديث يقتحم أمانك، أو غرورك، أو ركضك خلف الطموح والضوء والثراء!

فالذين زهدوا في مغريات حياتنا الحاضرة. . هم ـ في الغالب ـ أولئك الذين أصابتهم الأمراض وعرفوا بها. . ففزعوا حيناً، واستسلموا بعدها. . كأمراض السرطان، واليأس، والشيخوخة النفسية!.

والذين لم يزهدوا في مغريات الحياة، ولكنهم يعيشون الخوف. . هم أولئك الذين يكتشفون ظهور أمراض جديدة وخطيرة، وربما مخجلة. . «كالإيدز» مثلاً الذي طلع ـ كموضة ـ ولكنها موضة تقضي على ما يسري

من مبالاة، ومن فقدان الحصانة الصحية، ومن انشغال بالمادة وبالعبث!

ولكنك ـ أيضاً ـ ستتعب من أجل العثور على من يتحدث مرتاحاً عن الغد!

* * *

ولا يعني هذا الاستعراض السريع للفواجع.. أن نجسد التشاؤم ونسقط فيه.. لكنه يعني الخوف من فقدان الامتلاك لشيء واحد واضح وحقيقي وثابت لا يتموه، ولا يتبدل، ولا يبهت!

والبعض يعالج خوفه بمزيد من الأحلام!

والبعض يحلم.. لئلا يفكر في الموت أو الفشل!

وبعض ثالث.. لا يفكر في اهتماماته، إلا بالقدر الذي لا يفقده شعوره بالانتظار للأماني، أو للغد!

إننا نتوق للتفاؤل دائماً.. ولكننا نتطلع أكثر إلى الدلالات التي تحقق ذلك التفاؤل، وتصنعه كمعايشة لهذا العصر الخطير والفاجع!

* * *

وخلاصة لهذا الاستقراء.. تبقى «الكلمة» في فعلها وتأثيرها وتسددها.. هي «الإجابة» على كل الأسئلة الصعبة.. هي هذه «الأبواب» المشرعة لـ «الريح والشمس».. ننفذ منها إلى الحقيقة، ويؤدي بنا إلى الرؤية الأرحب.

وهل هناك أبواب تؤدي هذا.. أكثر من «الكتب» التي تأخذنا في رحلة الوعي والفهم.. وتعيدنا إلى الحقيقة، وإلى نفوسنا، وإلى الصفاء؟!

لقد جمعت هذه «المطالعات» في عصر التعبير الغارق في ترف الحزن ـ كما قلت ـ وهي حصيلة لبعض ما قرأناه في جيلنا، فغذانا، وبهرنا، ولكز خاصرة الفهم والوعي فينا، ولعلّنا تعذبنا به أيضاً!!

وكأنني بهذا الكتاب. . أصر أن أواصل الحوار مرتاحاً عن الغد!!

وكل «غد» لا يشرق أبداً إلا بالكلمة. . بالكتاب!!

عبد الله

الفصل الأول

الحب في عادية الأشياء . .

عودة الذاهب. . من جديد!

عند شط الحروف سكنت. . .

قذفت دمعة النفس المحكومة بالمرونة مع لحظة فجائية. . واسترحت!!

كانت السكينة ـ لحظتها ـ لا تعني الخرس، وإنما هي بحث شامخ عن الزمن المتطاول تارة، المستضعف تارة أخرى. . بحث. . عن غذاء الليل والنهار بهذه الأنفاس التي يعطيها البشر لمسافات الحياة!. .

استقراء. . هذا الذي يحوط عالمي، ويشرد بي إلى أجواء مارسها صوت الإنسان، وهو أحياناً يفقد القدرة على الصراخ، فضاعت الأجواء منه، واحتقر الكلام، واحتفره الصمت، ونبذ حركة اللسان. . وطفق يحدث المسافات المستطيلة الشاسعة المسماة: زمناً!. .

يحدثها. . حديث السكون، والصمت ليلقى في أعطافها إقبالاً غير مسمى، غير مكنى. . مأخوذاً بالتفاعل النفسي. . مشدوداً بذلك البحث الدائب في الذهن. . في الأعماق!!

عند شط الحروف استرحت. .

الإنسان يقدر على الكلام حينما يريد، لكنه قد يعجز عن الصمت ثانية واحدة!

ومهمة الكاتب ـ غني الشعور ـ تبدو صعبة جداً يفتعل الصمت، أو عندما يتسنم عباراته ليسكت الآخرين من أجل أن يستمر في الكلام!

الكتابة ليست كلاماً. . كأنه قطرات حبر تجمدت على الورق. . ليكون ـ بعد ذلك ـ لزاماً على القارئ أن يجد لها المعنى، وأن يفهمها بحالة الكاتب، وأن يصفق بحرارة. . هذا لا يكون استنطاقاً للمعاني وإضاءة للأفكار. . بل هو نوع من التدليس الذي يقود ذهن القارئ إلى فقاعة صابون. . لا تنظف، وليست هي صابون (!!).

لهذا يتعرض الكاتب المحس لحالة «انتياب». . يجد نفسه في غمارها يرفض رؤية شباة أرقمه. . يدلق زجاجة الحبر على ثيابه، ويضحك بقرف. . يمزق مجموعة أوراق، ويبصق عليها، ثم يغمض جفني عينيه في إغفاءة التعب الضائع!!

الحروف. . هي تجسيد لانفعال النفس. . لاقتناع الذهن بصحوة فكرة تبدو قابلة للحياة، فإذا افتقد الكاتب هذه العوامل أضحت حروفه في نظره مجرد خطوط شوهاء تحجل على الورق بوقاحة، وبصفاقة مقيتة!

الحروف. . تتعرض لقسوة أصابع الكاتب. . يخنقها، يعجنها، يطوح بها من النافذة، داخل ورقة ممزقة كفؤاده القلق. . الحائر!!

متى كانت الأرض ثابتة تحت الأقدام؟!

هذا ليس سؤالاً. . إنه يعطي صورة لأديم شيء. .

الحروف ـ أيضاً ـ هي أديم الانفعالات، والتأثير. . لا تستقر دائماً على شكـــل ثابت معين. . الأقدام التي تطؤها هي نوازع النفس في حالات الاضطراب النفسي، وانبهات الفكرة، والضيق برأي يجعل من

الكاتب طبيباً يعالج الناس وهو عليل!!..

ليس جنوناً ذلك الذي يعتور راسم الكلمات.. إنه لمحة من رفض الاستمرارية المرغمة له!!

فنان هو.. وقد يكسر قلمه، وهو يمزق أوراقه، وقد يتطلع إلى كل الناس ببلاهة تأخذه بعيداً عن التفكير، وتدسه في غيابة الذهول. وقد يستشعر في هذا الاستغراق المتعة الحسية.. ليصفو ذهنه من الاعتكار.. لتشرق نفسيته بعد معاناة بلا دلالة!!..

وقد تعرض الشاعر الألماني (ريلكه) لحالة الانتياب ذاتها.. لكنه يوسع دائرة صراخه.. لم يلعن ثرثرته، وغوغائية صوت الإنسان من حوله.. لقد استرخى، ونعم ببلاهة مؤقتة!

ولم ينم.. كان يقظاً.. غير أنه يرتاد غيابة الذهول، وحينما صفا، وأضاءت جوانب أعماقه.. التقط قلمه، وكتب:

ـ «مبدع الحروف.. أشبه بالثمرة التي تتعرض للرياح، والشمس، والليل.. هو عبارة عن طفولة، وتجارب، ورحيل، واختبارات لا حدود لها، وذاكرة، ونسيان.. بعد أن يمر بهذه كلها صار قادراً عندئذ على الكتابة»!!

وهذه العوارض ليس شرطاً أن تعترض مرة واحدة.. بل إنها غالباً ما تكون شيئاً يعتاده الكاتب بين فينة وأخرى..

والكاتب أثناء مرورها، ومعاودتها، وأفولها يصنع ـ كما يقول ريلكه ـ عالماً له وللناس ببطء، ويمتلكه بعد ذلك!!

* * *

كيف ـ إذن ـ يمتلك الكاتب عالماً مليئاً بالمعاني، وبالأفكار، وبدواعي أثيرة وراسخة تبلور مفهوم أن نحيا، وأن نشعر، وأن نأخذ، وأن نعطي، وأن نفقد؟!

على بساط أبيض نقي من الورق.. هو يخط ملامح ذلك العالم، وأحياناً قد يفاجأ أنه يمزق تلك الملامح، ويقذفها في سلة المهملات ويصمت.. يدلج في ساعات من السكوت، والسكينة، ثم يفيق وهو يبحث عن الحركة في داخله.. عن الحيوية في ذهنه.. عن الكلام، والصراخ، والبوح في لسانه.. أو بواسطة أصابع يديه، ليكتب حتى يتصبب عرقه، ويستعيد إفاقة اليقظة من جديد!

***

مكلوم.. حائر.. قلق..

كانت هذه حالة الكاتب الفنلندي المعاصر «ميكاوالتاري».

كان يتطلع إلى السماء في منتصف ليلة فيها عطاء ذاته، ونفحات تأملاته.. لم ير لحظتها السماء التي تخيل على رقعتها في حدود بصره صورة حبيبته، والنجوم تحفها، وتزغرد لها بالضياء..

كان أمامه ظلام ليل لا أكثر..

كانت البهجة حرفة الواهمين.. لم يعرف دواعي هذا «الانتياب» إلا أن تكون كامنة في أيام مضت.. قضاها وحيداً عن مدينته التي تركها، والحرب العامة مشتعلة، وأمه عجوز لا تقوى على الحركة.. ربما تهدم المنزل الجميل، وتحول إلى خراب!.. وفتاته الغامضة حتى حينما تهمس في أذنه قائلة: «يا شبابي المجسَّد.. لا تتركني وترحل»، وحينما أنهى

إليها خبر رحيله إلى لندن لينقل أخبار الحرب بصفته مراسلاً حربياً لصحيفته قالت له:

ـ إذا عدت ولم تجدني.. عليك أن تبحث.. ليس عني، ولكن عن فتاة.. أنت متيقن أنها أكثر فتنة، وجمالاً مني!!

انتابته هذه التي لا يسميها أفكاراً، وإنما شيء كمدخل غابة انساق منه إلى كثافة غمرته، فإذا هو ضائع!

وتعاقبت ليالٍ أخرى بعد تلك الليلة.. لم يعثر فيها على إفصاح داخلي يدله على فهم لما اعتراه، وفي خلال هذه الليالي قد فرغ من قراءة خمس كتب: كتابين عن الحروب التي شهدها العالم، وعانى منها الإنسان، وروايتين.. إحداهما «الحرب والسلام»، ولم يستفد منها بفكرة عن السلام، وثانيتهما كانت رواية تقص بالرمز حياة أمة يعتقد أن تاريخها خيالي، وأن المؤلف ابتدع في لحظة سأم فصول رواية كان ينبغي أن لا تصدر في هذا الجيل! والكتاب الخامس كان ديوان شعر لشكسبير.

ويضيف «والتاري» قائلاً:

ـ اعتز بشكسبير كروح فنانة، حية.. لكنه أحياناً يرميني على عشب أخضر وحيداً، وهو يعرف أن الإنسان لا يحتمل أن يعيش وحده!!

وكان هذا الديوان الشعري قد قرأه «والتاري» للمرة الرابعة برغم الرأي الذي أبداه.. لكن الكاتب يعود إلى لحظات ذكرى.. حتى لو كانت خاصة بالآخرين.. ممن يحسنون صناعة تماثيل لثواني بهجتهم!!

وبقي «ميكا والتاري» ثلاث سنوات لا يخط حرفاً.. حتى الرسائل الخاصة كان يمليها على الآخرين.. كان يقرأ فقط ويتطلع إلى السماء

منتصف كل ليلة. . يترقب أن ينتهي هذا الظلام، وتعود صورة فتاته. . تفترش السماء، والنجوم من حولها تغني بالضياء!

* * *

مثل «عضل زهرة متوتر» كان يبدو مصطفى صادق الرافعي!

كان نهار يوم يذبل، والشمس تتوارى رويداً، وهو داخل شرفة منزله القديم. . يطارد الشمس. . يتأملها وهي تختفي، وتختلج أشعتها المنعكسة على صفحة النيل، وتسقط!

وشعر بدمعة تفر من حدقتي عينيه، فلم يمنعها، ولم يزل توهجها من وجهه. . كان في ساعة غروب الشمس يفكر في هذ «الانتياب» الفجائي. . فهو منذ أكثر من أسبوع زاهد في كتابة سطر واحد. . العبارات تافهة سخيفة. . الحروف أمامه «رأس فجل» كما صورها. . الورق ينام فوق مكتبه كما الأرض البور غير الصالحة للزراعة!

وأراد ـ بإصراره وعناده ـ أن يعثر على السبب بعد هذا التفكير المضني، وهذه المتابعة النفسية المرهقة، وتذكر أياماً خلت:

ذات يوم قريب كتب مقالاً مستفيضاً. . لم يشعر عندما كان يكتبه أنه دلق مشاعره فيه، وأن بوحه كان جناية على مكابرة. . عامل بها رفيقة الحرف «مي» فالتقطت هي الخيط، وكتبت خاطرة، ونشرتها فجذبته إليها، وبدا أمامها كأنه المتخلي عن نهجه المعتاد الذي أسقط كثيراً من إصراره، وجثا أمامها!

وعندما قرأ «العقاد» ذلك المقال، وكانت المنافسة شديدة بينهما، أعطى نواجذه للسطور، وفكر في حوار يحفظه موفد إلى «المازني» ليواجه

حالة الرافعي، وليحظى العقاد بعد ذلك بما أضاعه الرافعي، وبما غفل عنه ـ بالاندفاع ـ المازني!..

واحتجب الرافعي قرابة العام.. لا يكتب سطراً.. لا يفارق شرفة بيته القديم.. يئن بعض الليالي وهو يحس أن العبارة تلسع وجدانه، وأنه عليل بهجران الحرف!

كانت حالة «الانتياب» هذه.. ذات قسمات تأملتها «مي» شهوراً، ثم كتبت سطراً واحداً إلى الرافعي.. بعثته إليه مع خادمة بيتها، فقالت له:

ـ «افتقدناك.. فهلا رجعت لتروي ظمأ هذا القرطاس»؟!

وبعد هذا السطر.. كتب الرافعي مؤلفاً كاملاً.. أسماه «أوراق الورد»!!

* * *

عودة ـ هنا ـ إلى كلمات «ريلكه».

عودة الآيب من غيابة الذهول.. ليفيق على هذه الحروف القائلة:

ـ «كل شيء يريد التأرجح.. هنا ندور كالمثقلين..

نضع على كل شيء أنفسنا فرحين بالثقل!!

آه.. أي معلمين نحن بالنسبة للأشياء التي تسعدها الطفولة الأبدية!!

آه يا فم المنبع.. كم هذا بعيد بلا حدود..

كطائرات الورق المنطلقة.. نطارد نصف منتصبين بأطراف من الضحك، وفي الريح ممزقين»!!

عودة الذاهب من جديد.. يبحث عن شط الحروف، ليسكن عنده.. ليقذف دمعة النفس المحكومة بالمرونة مع لحظة فجائية.. ليستريح!!

الحـــب جنـونــاً !

ـ في الضجيج، والدهشة، واللامبالاة والاضطرابات الحسية والنفسية أصبح التركيز على العقل مرهقاً. . فلكي تستخدم عقلك لا بد أن تفكر بترو، وإذا فكرت بتروٍ فاتتك أشياء كثيرة. وأنت لا تقتنع بسهولة وأنت تتصرف باستعجال.

إن إنساناً دخل إلى بيته. . ولكنه خرج مسرعاً، وفي خروجه لم يتوقف وإنما انطلق. . بحثاً عن الحب، وعن القتل، وعن الصحة، وعن الانكسار!!

ويندر جداً في هذا العصر أن يتحدث المجتمع الإنساني عن قصة وفاء. . أو عن قصة حب لن تنتهي، فالحديث يتركز على النهايات، ولذلك. . فعندما خرج هذا الرجل إلى الناس بهذه الصفحات التي كتبها. . فاجأهم. تكلم معهم عن البداية في الحب. . كيف يبتدئ الحب بعد الموت، أو كيف يتغلب الوفاء على التسلية، وعلى الجحود، وعلى التلاعب بالمشاعر؟!

وكان الإنسان ظامئاً إلى طبائعه الأصيلة، أو إلى جوهره، فلم يكد يصدق أن كاتباً بنى قصة عن شابين بهذا العمق، وبهذا الوفاء، وفي وسط صخب الماديات، وفي عصر الاضطرابات النفسية، والخلخلة الحسية،

وفي أمريكا حيث تسود موجة الرفض، واللامبالاة، والهيبية، والمارجوانا وغيرها.

إن الصورة الدقيقة لإنسان اليوم.. هي فيما عبرت عنه، ورسمته الكاتبة الأمريكية «رشيل كارسون» التي حصلت على جوائز عديدة وقالت هذه العبارة الكاريكاتورية عن إنسان اليوم، أو حالته:

ـ (إن إنساناً ما قد جاء إلى هذا البيت ولم يجدني على مكتبي، فأطلق رصاصة على كلبي. إنه إنسان في غاية القسوة. لقد أراد أن يوجعني مرتين.. مرة على فقد هذا الحيوان المسكين الأمين، ومرة على ما وصل إليه حال الإنسان.. إنه يقتل لمجرد القتل)!

وهذه الحالة من التذبذب لم تدع للإنسان فرصة أن يصفو، وأن ينتقي. لأنه يسدر في متاهات مجنونة تؤدي به إلى الدمار النفسي، فكيف فكّر هذا الكاتب الأمريكي في تأليف قصة مغرقة في الرومانسية.. اسمها (قصة حب) وعلى غلافها يكتب هذه العبارة القائلة (الحب.. هو أن لا يكون لنا أن نقول أبداً إننا آسفون)!!

إنه (أريك سيجال.. الذي اعتبره النقاد ومؤرخو الأدب أهم كاتب أمريكي في السبعينات)!

طبع من هذه الرواية خمسة ملايين نسخة، وترجمت الرواية إلى معظم اللغات، وحولت فيلماً، وطالب طلبة الجامعات بأدراج هذه الرواية في برنامج الأدب المعاصر إلى جانب كبار الروائيين.. وصفتها دور النشر فقالت عنها: «إنها قصة حب تتحدث إلى قلوب جيل بكامله من الشباب.. قصة بسيطة كالماء الذي يجري.. غريبة كالحياة التي يواجهها حبيبان يسخران منها.. مؤثرة كجمع المصائر البشرية».

ولا بد أن «يتهوس» مستر «أريك» ويبلغ مرتبة الجنون، فلا شيء كاللهيب. . لا شيء كالحرير، ولا شيء كالشهرة. . لا شيء كالحياة. لقد مزق «أريك» صمت العالم، ونفذ إلى انفلاشات الناس بفجائية، وبهرهم. . إنه دخل إلى حياة الناس بكتابه هذا وكانوا يعانون أبعاد هذه الصورة التي التقطها أنيس منصور وعبر عنها بهذه السطور:

ـ (إنها أقسى معركة صمت عرفها الإنسان والحيوان والنبات في التاريخ. ونحن نموت معاً. . أما الفاعل الحقيقي، فهو الإنسان. إن الجميع يحملون السموم للجميع)!

وهكذا أصبح الإنسان هو الفاعل الحقيقي، وهو الفعل، وهو المفعول به. . لأنه لا يعرف ماذا يريد، ولأنه فقد الحب وتنازعته الأهواء، والبغضاء، والهزائم. ولأنه لا بد أن يشجب وأن يكون لهذا الفعل ردة فعل تبدو حيناً هزلية، وحيناً آخر مأساوية، وحيناً ثالثاً دامية.

فكيف يأتي كاتب مثل «أريك» ويعطي للناس قصة حب لا تصدق. . كأنهم يقرأون «غادة الكاميليا»، أو «تس»، أو «ماجدولين»، أو «روميو وجولييت»!!

شيء لا يصدقه عقل. . في هذه المرحلة من شهرة الاضطراب!!

وأصبح «أريك سيجال» الأستاذ في جامعة «بال» بإنجلترا. . أهم كاتب في السبعينات، وأشارت الأصابع إليه حتى ارتفعت أصابع يده متجمدة. . مذهولة. . معقوفة إلى ذاته. أصبح أشهر أديب و «أجن» أديب!

إن الرجل أصبح لا يطاق. . فهو مجنون «باستمارة» اسمها «قصة حب»، وشهرته معطوفة على «أوليفر باريت» و «جنيفر كافيللاري». . بطلاً قصته هذه، واللازمة المعروفة للحوار بين البطلين هي كلمة: إعدادي. .

أو لا بد أن يكون الحب من هنا «إعدادياً» لا يرقى إلى الثانوية العامة أو الجامعة (!!).

وأصبح الناس يتطلعون إلى هذا الأديب «المهبول» ويصفقون له في اللحظة التي يردفون قائلين: مسكين!!

لقد اهتزت شخصيته بسبب الشهرة، ولا بد أن يجن الرجل، فعندما يعرفك كل الناس فلن تصبح إنساناً عادياً، ولن تصبح سعيداً.. إنك تتحول إلى سخرية، وإلى حسد، وإلى ضعف، وإلى خوف، وإلى غرور!!

ويروون عن هذا الكاتب كمثال لتصرفاته.. هذه الحكاية:

ـ (أثناء حضوره إلى مهرجان «كان» السينمائي، وكانت روايته تعرض هناك، قال للصحفيين بدون أي تواضع: أنا عبارة عن زهرة مفكرة، وعندما قابل «ميشيل مورجان» الممثلة الفرنسية الشهيرة بجمالها رغم سنها المتقدمة، قال لها: إن جميع إذاعات العالم سألته إذا كان على علاقة بها، فأجاب: إن هذا السؤال من الصعب الرد عليه، فاندهشت «ميشيل مورجان» وقالت له ببرود: «ولماذا هذه الصعوبة في الرد؟.. كان يجب أن تقول بلا تردد: إنها في سن والدتي»!!

لقد أصبح الرجل مسخرة.. والشهرة مسخرة، لأنها نفاق ذاتي ومرهق، ولأنها مرض يزمن ويعل، ولكن «أريك سيجال» من الحتم عليه أن يتصرف هكذا.. فقد حملوه فجأة، وطافوا به العالم وهو في مكانه، وحملوه فجأة وطافوا به أذهان اناس وأعينهم، وانبهارهم. لقد قدم شيئاً غير منتظر، وغريباً، ولا يحدث اليوم بهذا العنف.

إن الحب لم يعد هو الرابط الوثيق الذي لا ينفصم.. إنه شيء

يتعاطاه الشباب ثم يعودون إلى الأرصفة، واللافتات، والليل، والصراخ، والمسدس.

إن القتل اليوم هو التعبير الذي يفعله الناس عن حبهم. . فقد قال زعيم الهيبيز الشاذ «مايسون»: لقد قتلنا شارون تيت لنطهرها، ونعيدها إلى الحب!

ولقد قال «إريك سيجال»: إن هذه الظاهرة الخطيرة الممرضة. . تدل على وحشية الإنسان وعودته إلى الغابة. . إن الحيوانات الفاتكة تبدو أكثر رحمة وحناناً من الإنسان!. .

إنك تتطلع إلى إنسان صامت ولا تعرف إن كانت في داخله نقمة، أو حقد أو غليان. إن الصمت سلاح إلى الدمار النفسي أولاً، ثم إلى الفيضان الكاسح.

ولا بد أن يصاب الإنسان بصدمة كهربائية، أو يصطدم بحادثة غريبة، أو ينبهر باكتشاف جوهر اندثر.

ولقد قدم «سيجال» روايته هذه ليعيد الإنسان إلى جوهره. . إلى الحب الذي لا يهون!

لكنه ـ فيما يلوح ـ لن يفلح. . فالصعوبة حقاً أن لا يكون الحب جنوناً، وأن يكون الجنون المطلق هو الجسر إلى الحب!

* * *

الراحل.. إلى الإدراك

راحل.. راحل.. يبحث عن الضياء الوليد في الزوابع والرياح!!

ينحدر في أودية النفس ـ زمناً ـ بعناد، ورغبة، واشتهاء مصير!!

يرتقي مرتفعات من شعاع حس.. هارباً من زمن يضاجع كهفاً!

لا يعترف بالعودة من نفس الطريق.. فكل الأشياء التي سقطت حين البحث، والرحيل، وخلف الخطوات.. ضاعت للأبد!

راحل.. راحل.. خلف هذا الغسق المنقوع في تساؤل مجروح.. مجروح «برواقية» سكان إسبارطة؟!

رائعة هذه القصة التي عنوانها: الراحل.. الباحث!

عن الهوى المرهف باحث هو.. تحركه إيماءة من مروحة فتاة إسبانية.. فتاة عتقها التاريخ، ومروحة خرمتها النسمة الغضوب الوافدة من دهور باعدتها حقيقة الوجود!

عن ما يعطي قيمة الترحال.. باحث هو..

باحث عن الخوف، والآلام والرغبة والمودة، والتمرد، والحقيقة، والنبع!!

يرفض هو أن تكون الحياة السرمدية لحظات ودقائق. وأياماً.. حياة محبة، وشجاعة، ومنح وجديد!

أين ذاك الصهر الذي يذيب حديدية أيامه؟!

أين ذاك «النمر» الذي ينشب مخالبه الجائعة في إحساسه، وإحساس كل الناس. . ليتعلم ـ والناس معه ـ كيف ينهزم النمر، وينطرح، ويموت رغم مخالبه المحاربة؟!.

أين انفعال الذهن، والشعور بمضمون قصة ذلك التلميذ الأسطوري حقاً. . (الذي دخل قاعة الدرس، وهو يخفي تحت ثيابه ثعلباً صغيراً. ولأن الثعلب لم يكن شديد الارتياح إلى تلك الإقامة فقد أخذ يعض بطن الصبي، ثم ينهشه، والصبي صابر جلود. . حتى أغمي عليه من شدة الألم)!.

إنها أقرب إلى الأسطورة، فلو كانت حقيقة لقيل إن الثعلب قفز، وعوى، ومزق ثياب التلميذ. . لكنهم يروونها مثلاً لرباطة الجأش، والشجاعة، وقوة الاحتمال!.

إننا لكي تنفعل بالحاجات مشاعرنا، وبلورة الفكرة الصبوح في أذهاننا. . نتوق جداً أن نمارس مع ذواتنا مرابط ضبط النفس، ورباطة الجأش.

إن هذا أحلى ما يظهر من مقدرة الشجاعة، وعظمة الاحتمال. . تفوقاً على أعصاب تتهور فيصطدم بها كل شيء!

لكنه ـ وهو يبحث طويلاً ـ كان يعنيه أن يصطدم بالكثير مما ينتصب أمامه، فهو قوي فكراً، ويقذف بما يعتمل في نفسه لخوض كل تجربة. . وإذا أحس بامتلاك هاتين القوتين فيما يرى، وفيما يشعر. . فهو لا يتحاشى الاصطدام!

فكر مرة أن «يجرب» الخوف أيضاً!.

ما باله عنيف الرغبة.. عنيف المودة.. عنيف الارتجاف؟!

وتطلع إلى «جغرافية» ومناخ المكان حوله..

أليس هذا مكاناً يصلح للاطمئنان على استمرارية النبض، ويؤكد واقع الرؤية من عينين حادتي النظر، ويعني «بقاء» معيناً.. لكيفية «ذات وجه» تعطي فرصة البقاء حياء في ذهن إنسان؟!

إنه يعاود الصراخ ثانية.. غريب.. غريب!!.

النبض لا يعني ـ دائماً ـ استمرارية الحياة..

النظرة الحادة قد تكون مصلوبة.. مرصودة.. ترتد أبداً، ولا تذاع.

والبقاء قد يكون واقعاً لكسيح.. مشلول يريد أن يمتلك وجوداً يتفاعل فيه!

ذات يوم من شهر يناير عام ١٩٣٦ صرخ الغريب، وهو يزمع الرحيل.. وهو يمتلك شجاعة الحياة العادية.. صرخ:

ـ «سجين في الكهف وحدي.. أرقد، وأنظر إلى ظل العالم.. قلب الهواء مليء بالبرودة.. في كل مكان شريط رفيع من ضوء الشمس حتى أنه يمكنك أن تقسمه بلسمة من ظفرك»!

أي انسحاق «متفائل هذا»؟!

سجين كهف.. يرقد، وينظر إلى «ظل» العالم، ويمكنه أيضاً أن يقسم شريطاً من ضوء الشمس بلسمة ظفر؟!

لا أتهمه بجنون المناخ!

ذلك إنسان يستلهم وجوداً من خلف سجف داكنة. .

إنه جلود داخل الكهف مع وحدته. .

إنه في تلك اللحظة اكتشف وعياً في شعوره. . ولقد واصل متعة جديدة تعطيه جوانب عظيمة من الرؤيا الحقة.

فطفق يفكر:

هل هو شجاع ليرحل. . لينحدر، وليرتقي، ويطير شعاعاً يمتزج بأنفاس الغيم، ويتساقط مذاباً في قطرة مطر؟!

هل هو شجاع؟!

ـ «من أنا. . وماذا أستطيع أن أفعل. . غير أن أدخل في حركة الأغصان والضوء. . أكون هذا الشعاع من ضوء الشمس الذي يحمل دخان سيجارتي بعيداً؟!. . هذه الرغبة الناعمة الرقيقة التي تتنفس في الهواء»!

لقد أحس أنه يمتزج بهذا الوجود الذي أبصره عبر شريط رفيع من ضوء الشمس. . حينما كان ينظر إلى «ظل» العالم!!

* * *

وارتفع إنسان مارد. . رغم وهدة المعايشة. .

إنسان عرفه الناس باسم «البير كامو». . وحينما امتدت يده لقرائه يصافحهم. . قال لهم: اسمي الغريب!

إنه زخم هائل من المعاناة، والقلق، والخوف، والحب، و«الاحتماء». .

المساحات أمامه لم تكن رحبة، رغم أن الوجود كله مساحات لا تتجزأ، ولا تصبح قطعاً. .

أمامه حدود ذات أسلاك شائكة، وهو قد تخلص من سجن الكهف.. فعندما يستطيع المرء أن يعبر، وأن يفهم الناس، ويفهم بهم.. فإنه ينال جانباً من الرؤية الصحيحة بالإحساس بالحياة..

أهم ما يحافظ عليه الإنسان كوجود:

أن يقدر على التعبير.. فإذا استطاع أن يعبر حتى بلسان حيرته، واضطرابه، وتساؤلاته.. فهو ممتزج.. ممتزج، وهو كما يقول ألبير كامو:

ـ «إذا كنت لا أزال أشعر بقدر من القلق، فإنه من أجل أن هذه اللحظة التي لا يقاس حجمها.. تتسرب من بين أصابعي ككرة من الزئبق»!!

هذه نتيجة، وليست حالة، أو نهاية حالة..

أنها نتيجة الرغبة، والشجاعة حين تتأكد الحياة، وكل الأشياء.. كلها ـ في نتيجتها ـ تبدو ككرة من الزئبق.. فأنت كإنسان لا يمكنك أن تحافظ على كل شيء!!

وأهم الأشياء حياتك، وأحلى الأشياء حيويتك وشبابك، وأكثر الأشياء رفاهية: شعورك الذي يشف محبتك.. كلها لا تتمكن أن تحافظ عليها.. لأن النتيجة دائماً «أن ما يعطي قيمة للترحال هو الخوف»!!

* * *

وثوان تمر..

ورؤيا تطول:

وصمت يتمدد أفقياً على وجه الشعور بالحياة..

وفي الاحتواء.. احتواء الثواني، والرؤيا والصمت لنا.. ثوانينا أحياناً شجاعة فكرة الحياة..

لحظتها.. قد ينساب «نغم» من الأعماق.. تلك أغنية الحياة!!

لحظتها.. أنت مضطرب، وقلق.. تتساءل:

هل أنت سعيد حقاً، أم إنها انتعاشة التعاسة؟!

تذكرت كلمة التعاسة التي ولدت لها تاريخاً!!

إجابة الغريب ـ ألبير ـ يضعها خلف هذه الصورة، ويقول:

ـ «لا أعرف ماذا يمكن أن أتمنى أكثر من هذا الحضور المستمر للنفس مع النفس!؟.. ما أريده الآن ليس السعادة.. بل الإدراك»!

الذين يناقشون أفكار «ألبير كامو» تذهلهم مفاجأة غير متوقعة:

ـ كيف استطاع أن يقود النتيجة إلى «الإدراك»؟!

ـ كيف حقق وجود الإدراك وسط صخب الحيرة، والاضطراب، واستمرارية الشعور بهما؟!

إنها سفسطة مرهقة ـ حين يناور الإنسان بالتحدث عن السعادة كمطلب «تقريري» أو كحياة تبتسم بغباء، ونحن نريد لها أن تدوم!

السعادة ليست مطلباً أبداً... الإدراك هو المطلب:

أن تدرك ماذا تفعل، وأن تدرك أشياء واجبة بالفهم وأن تدرك قدرك بأن تقتنع بالتصاق طرفيه ـ السالب، والموجب ـ ليصنعا لك الحيوية والاستطاعة!

لقد كان «ألبير كامو» يشعر بالسعادة بعض اللحظات حتى وهو في سجن الكهف.. كهف النفس المنغلقة، وكهف «البلاهة» البشرية عند افتقاد شجاعة أن نحيا!

لكن ذلك الشعور بالسعادة ماذا أعطاه.. ماذا منحه من حقائق؟!

منحه الكثير من الحقائق التي جعلته في النهاية «يدرك»!

لكنه لم يعطه شيئاً من خيالات السعادة التي يحلم بها المرء وهو مقدم على حالة يأس!

ينبغي أن تدرك أولاً.. لتستطيع بعد ذلك أن تتقن عملية التصاق السالب والموجب!!

وقامت فلسفة «ألبير كامو» على مبدأ الإدراك..

أدرك كثيراً، ورغب أن يحافظ حينذاك على «الحضور»؛ المستمر بين النفس والنفس..

ودفع بخطواته يسير بعيداً..

الصورة له.. لا تعكس نتيجة إنسان قلق.. تاه، وضاع..

الصورة عنه.. تعطي نتيجة «إدراك» احترمه صاحبه!!

وقد توقف دقائق ليعطي فرصة للصوت أن ينتشر، وتسمعه يقول لك:

ـ لقد أدركت الآن...

إنني راحل .. راحل.. أبحث عن الضياء الوليد في الزوابع، والأعاصير.

أليست الزوابع والأعاصير شجاعة وحياة؟!

* * *

واحة الصبح المعزولة!

يا خفق الشوق في الصدور النابضة. .

يا حنين المسافات، والزمن، والرؤية. .

يا دأب الوجع، وإصرار العافية، وأجراس الوحدة القاحلة. . في ليلة غاب عنها همسها، وضاع صدى موجها، وآمن الصمت فيها بالترقب المتعاقب!

ليلة. . ما تفاوتت فيها الأشياء وإنما تجمعت، وتألفت، وتمازجت. . فكانت العبارة. . عبارتها، والكلمات سطراً احتشدت فيه معاني الانصهار، والذوب. . كلمات تكوّنت من الأنفاس، والنبض، والرجفة. . فكان سؤال عقب ذلك. . ينهض على شفتين منفرجتين عن استفسار:

ـ في الريح احتجب الغمام. . في الغمام احتجب ضوء القمر. . على الأرض شوك الصحاري، وإنسان دثاره الريح، وأديمه الشوك. . فما هو سؤال الإنسان دائماً؟

في ليلة الريح. . كان وداع أخرس. . أهان النطق وجمَّد الوعد، وملأ الصدر بالشجن!

ولم تزل الأصابع القلقة المستفسرة أبداً تجول. . تندس في شعر الرأس. . تخطو مثلما العبارة الصامدة في الصدر. . تتوق أن يتضخم

صوتها، أن يكون لها الصدى!!

ليلة.. كان فيها كل شيء يرحل بعيداً..

الكلمات كانت ترحل.. النظرات.. خطوات الأصابع المتوارية داخل شعر الرأس.. ضجيج الخفق، احتجاج الاستفسارات التي تقضها فكرة الرحيل، ولا تملك إلا الإذعان لها!!

في كثافة الرحيل ذاك.. كنت أؤوب.. أتواجد.. أتشبث بمجدافين.. أشق بهما خرس الليل، وأرفض التساؤلات، وأستدني نتائج مرهقة.. لا يسمعها الليل.. لا تصغي لها الثواني.. لا يصمد أمامها خفق الشوق!!

يا أنت.. يا كل الشوق في حنايا هذا النوى.. هذا الفراغ المتمسك بورقة شجرة جافة هشة.. اسمها: الضرورة، عنوانها: الصحراء، زمنها: كل وقت يفرض الوداع!!

* * *

الزمن هو «الحالة»..

الاستشعار هو «الملابسة»..

الاقتناع لم يكن حصيلة استفتاء النفس، أو العقل.. إنما هو «الحاجة» إلى الاستقرار على شيء.. على رأي.. على كلمة.. على معايشة!

أنصتي ـ إذن ـ إلى لحن شرود.. يغذي هروب انتباهك.. يصاحب خطوات رحيلك إلى حالة لا يعترف بها ـ بيت شعر ـ.. إلى ملابسة لا

تقرها زحمة الأماني العطوفة في نفسك. . إذا ما حاولت العودة بها إلى الانتباه. . فالاقتناع إما أن يكون إرهاص إصرار، إما أن لا يكون اقتناعاً. . بل مداجاة أليمة لمعرفة كيفية زراعة الطيب!!

هذا «وليم فوكنر» يموت غير بعيد عن أيامنا التي نعاصرها. . إنه يسبل جفني عينيه، ويصغي إلى هدير البحر في نفسه. . إنه يسكن لحظة إلى «عنف» الأسئلة التي تصطرع في أعماقه.

هذه اللحظة لم يكن في حاجة إلى أي نوع من الإجابة. . هذه اللحظة هو يموت، وفي نفس اللحظة هو يتواجد كلياً، ويشعر بامتلاء دنيوي مشحون. . فيرفع نظراته ويحدق في كل الذين كانوا حول سريره، ولم يكن هناك أحد. . أبداً. . لم يكن حول سريره سوى امرأة لا يعرف أن عليها وجهاً كهذا. . تغضن. . تجعد. . حفرت عليه السنون أخاديد، وأحالته إلى قطعة جبس لم يكمل «المثَّال» حفر الصورة التي يريدها عليها!

مرة ثانية. . أغمض عينيه. .

إنه يستعيد صورتها الحقيقية. . وجهها الأصل يوم رآها أول مرة في مزارع بنسلفانيا، وأقترب منها بقلبه، وضاعت منه شهوراً. . كان خلالها يبحث عنها ليقول لها كلمة واحدة فقط. . لا يهمه أن ترفضها، أو تتقبلها بابتسامة مجاملة، أو ابتسامة وداد. . كلمة واحدة هي: أحبك!

وعثر عليها ذات مساء على ربوة معشوشبة. داكنة الليل، موغلة السكون. . يشعر بالضيق، فخرج يترصد خيالها، ويجسده هناك، فإذا هو أمام الحقيقة، وإذا هو يسمعها تقول له: أين كنت. . تعبت وأنا أبحث عنك!!

كان ثلاثيني العمر.. وكانت عشرينية الشباب!.. لكنه بعد أيام كان يرحل بعيداً عنها.. وفي كثافة الرحيل ذاك، جذف وخاض، ولم يفلح.. الانتقال من بنسلفانيا ضرورة تحتمها ظروفه المعيشية.. ولم يقتل الرحيل تلك الصبوة في نفسيهما.. كانا يتخاطبان بالعبارات المسافرة على الورق.. شهوراً طويلة.

وفكر أن يؤوب.. وحينما عاد إليها أفتقدها.. كانت قد رحلت دون أن تقول له: إلى أين رحلت.. ولماذا؟!

سنوات شاقة.. جافة.. هشة كورقة الخريف مرت عليه: عمراً، حالة، ملابسة.. ثم اقتناعاً.. اقتنع أن ما ذهب لا يعود.

إن الهروب عظمة الخائفين!!

إن إسقاط الإصرار على ما أردناه.. هو «الحاجة» إلى الاستقرار على شيء.. من أجل شيء آخر مفروض!!

ولحظة موته.. كان يشرع الجفن.. كانت حول سريره كله.. بل كانت تمثل امتلاء النظرة الأخيرة له إلى الحياة.. تماماً لحظة ما رآها أول مرة، وكانت تمثل النظرة الأولى له إلى الحياة واكتشاف الحياة!

وأراد أن يتكلم، فأمسكت يده.. خبأتها بين كفيها، وقالت له دموعها:

ـ قل إنك ستعيش!

وتكلم.. يقول لها:

ـ هذه اللحظة «اقتنعت» أنني سأحيا بالموت!

ورفعت رأسه إلى صدرها لتسقيه من كوب الماء الذي بجانبه.. شرب

بيدها، وآخر حركة في حياته كانت. . عندما أمسك بيدها، ووضعها على شفتيه ومات على قبلة، وابتسامة!!

***

ولم يكن هذا الجانب من حياة «فوكنر» مؤلف رواية: الصخب والعنف» الشهيرة هو الجانب الذي استأثر بصفحات كبيرة عن حياته.

كانت الصفحات التي تحكي وراء حياته الذي أمد فكره، وتأملاته بذلك الإلهام، والإبداع. . صفحات قليلة في منتصف كتاب عن هذا الروائي الأميركي الذي مات وهو ينادي: خفق الشوق، وحنين المسافات، والزمن، والرؤية ودأب الوجع، وإصرار العافية!!

لا تدعيني ـ هنا ـ أفلسف امتنان الصمت لهذه الوحدة المبتلة بالدموع. . المجروحة بالآهة. . المقرحة بحنين المسافات، والزمن، والرؤية!!

هنا أستعير عبارة طويلة. . لكاتب لم يشب حزنه إلا بمقدار حنين واحد فقط. . إما أن يكون حنين المسافة، أو حنين الزمن، أو حنين الرؤية!

أستعيرها وفي جوانحي الحنين كله. . بكل تلك الأشياء، والمعاني. .

وتصغين معي:

أبذرك في تربتي. . كما تبذر الآهة في صدر الكليم الضائع. .

بغير الآهة. . ما جدوى أن نحزن يا صغيرة؟!

بغير الحزن. . ما أسخف أن نضاجع ابتساماتنا البلهاء بكلمة فرح

منسربة.. لا تقوى على النهوض، والبقاء على الشفاه؟!

أزرعك على شفتي.. فقد أقتنعت أن المواكبة في الحياة.. لها قوائم من الألم، ومن المسرة.. هذا ليس بدهياً دائماً.. هذا يكون بمقدار الإحساس، وبعمق الانجذاب، وبرسوخ الصوت حينما يستطيع أن يكبر، وأن يتلاشى أيضاً!!

ذلك عالم.. تنتعش فيه محاورتك لعوامل التبدل، والتعرية في نفسي عندما لا أجدك، وأيضاً عندما أجدك في مواجهتي بدون سياج شفاف!!

إذن.. تصغين إلى عبارة الكاتب التي قرأتها:

ـ «أتركيني أزهر في الخرافة!.. أين يدك تدلني على الطريق.. أين أنت كلك من عالمي الذي يشهق؟؟ وجهك الزمن البعيد، وأنا عالم المسافات!!».

متى نوهت لك عن بادرة كانت؟ تفصلين المرغوب عن المتألق بالحزن!؟

تجادلين تكتكة الساعة حول معصمك.. وأنت لا تحبين متابعة خطوات عقربها؟!

من أغرق ماجدولين بالماء الذي روى شجرة الزيزفون؟!

من أحرق جان دارك، وهي شابة ترفض وتؤكد؟!

من أفنى بهجة غادة الكاميليا.. في عنفوان الامتلاك للحياة؟!

بدأتك بالتساؤل..

نسيت.. لقد بدأتني بالإجابة قبل أن أطرح السؤال!!

في أي زمن. . حدث هذ؟!

فواصل الأيام لا تتشابه مع فواصل الإحساس!!

الإحساس بلا فواصل. . هذا أعرفه. . غير أن الدمية التي تحدث عنها الكاتب الإيطالي «هفمان». . لا زالت تتحرك أمامي عروساً ممتلئة بالحياة. . ليست دمية من خشب!

وفي صدري امتلاء بالحياة. . لا أحب أن أقتنع بالنظرة التي تأتي من الداخل إلى الداخل!!

تذكرت أن «إبراهيم ناجي» تساءل مرة. . يقول لملهمته:

«أي سر فيك إني لست أدري.

كل ما فيك من الأسرار يغري»!

ذلك لم يكن تساؤلاً عن اقتناع بدمية من الخشب. . كان شاعراً وطبيباً. . نجح في الأولى، وفشل في الثانية. . لأن الزهرة لا نمسكها بالمبضع، ولأن تشريح الأشياء يفسد سرها، ويعري جمالها حتى القبح!!

وقد سألته ملهمته مرة. . تقول:

ـ أيا شاعر القيثارة قل لي: متى تحبني أكثر؟!

ـ وأجابها: عندما لا أفكر فيك. . أنت دائماً في خاطري بلا شك. . ملامحك قناع شفاف جميل لبسته فرأيت الحياة أجمل، وأروع. . لكني حينما أفكر فيك. . حينما أجلس وحدي واستدعي ملامحك، وجسدك. . أشرحك. . تتكالب عليَّ صور كل النساء!

وأنا لا أود أن أجلوك عن نفسي. . إني أحبك، والحب نظرة شفافة. . طيفية الرؤية!!

مسكين.. هذا شاعر (!!)

دائماً كان يشعر أن مسافات حنينه تتغير.. لكنه لا يخضعها للزمن، وللرؤية.. كل الأشياء المجردة حقيقة، والحب لم يكن حقيقة كاملة.. إنه مزيج من اللمس، ومن التخيل، ومن الهمس، ومن غنى الأحلام!!

التحولات لا تعنيني!!

منعكس أنا على موجة بحر في شروق يوم من أيام الصيف!

منساب خفقي في طيات غيمة بلا غبار.. تتفاعل مع البحر.. تسقط مطراً!!

أكره أن تصفيني بالغرور.. لو كنت هذ الموصوف ما عرفتك.. فزهوة جمالك لا ينافسها غرور آخر!!

ميلاد الحنين يوقظ في نفسي المسافات، والزمن، والرؤية!

دأب الوجع، وإصرار العافية، وأجراس الوحدة في ليلة غاب عنها همسها يجعلني كبخور العود.. أفوح بالكلمات تلك زرعتها، لكني أحترق.. أحترق حتى الترمد.. فهل ينفعني هذا الغرور؟!!

هنا في صدر الدنيا دعوة للحياة، ورغم هذا.. فالإنسان يبحث دائماً عن سؤال.. ويبحث عن سؤال آخر ليجيب عليه.. وهو ـ أيضاً ـ يطرح إجابات بلا أسئلة!!

فهل عرفت جدوى الرحيل؟!

إنني لا أضع سؤالاً.. إنني راحل.. إليك راحل!!

* * *

احترق «البايب» وبقي التبغ!

تمتلئ القامات، أو لا تمتلئ. .

تتزمّل الأجساد ـ حيناً ـ بالطنف، وتشمخر، وتتعلق في مساحة الحياة كلها متطوحة!!

تخسر ـ حيناً آخر ـ كل ألوانها، وإطاراتها، وتبقي أديم اللذة المطمور تحت الرغبة، ويحلو التيه عندما تصبح الرغبة هي سيدة المساحة الحياتية!

تختفي الوجوه في كثافة من «البحث»، وتضيع رؤيتها في زحام من البشر، أو الأضواء، أو التفاهة!

التفاهة التي تبدو «متناهية» في صحوة العقل، وتبدو «لامتناهية» وراء تكوين حصاد العقل، لأنها ـ وحدها ـ المنطلقة والصفيقة!!

وتنشق أكوام النفايات عن قامات. . لا يهمها أين تنام آخر الليل، ولكنها تلح بسؤال يقول: كيف تنام؟!!

تمتلئ القامات، أو لا تمتلئ. .

ليست هذه هي القضية، وإنما حياة الإنسان هي التي تعكس القضية!!

وهذه هي ـ القاعدة ـ التي أراد «كولن ويلسون» أن يجمع فوقها البشر، ويصنفهم ويحكيهم، ويستخلص بعد ذلك: دافع حياة الإنسان!

إن «البحث» المستمر، والمتمرد، والذي يستشرق ما فوق هامة المرء.. هو مفتاح الدوافع تلك، والإنسان بلا بحث يجوع، ويظمأ وينطفئ، ولا تتمكن رؤيته حينذاك من معرفة هامته، فلا يعنيه ـ بعد ـ ما فوقها!!

وعندما تختفي الوجوه في كثافة من «البحث».. يتبلور هذا البحث ليصبح عن الحياة..

وأحياناً يبدو الإنسان غير راغب في «حقيقة» معينة فما دام هو يغذ المسير، ويمارس «نفسه» داخل مساحة الحياة كلها، هذه التي تطوحه، فلا أهمية ـ هنا ـ للقضايا الإنسانية.. إلا أن يكون الانبهاج هو مصباح «ديوجين» يستخدمه ذاك المطوح به!!

وتسقط قيمة الحقيقة، لتنفرد «الرغبة» ولا سواها بالمعايير، وبالقيمة، وبالثمن الذي ندفعه قرباناً لهذا الانفراد!

إن القوة هي سبيل الإنسان، ويتضح هذا ـ بالذات ـ في غمرة كثافة البحث.. لكن العزلة «العادية» من تفاوت المجتمع تجعل المرء يعتقد في حالات أن «القوة» هي الحقيقة، ويرفض أن تكون الحقيقة قوة، ويلتحم «كولن ويلسون» بهذه الدراسة الانطباعية ليقول:

ـ «الحقيقة بسيطة، وهي أن القوة كانت العنف الطاغي للتاريخ»!!

إن «ديوجين» حمل مصباحه نهاراً، وكان عاقلاً، ورزيناً، وأكثر.. كان حكيماً، وفيلسوفاً.. غير أن الناس حينما رأوه وسألوه، وأجابهم: إنني أبحث عن الحقيقة.. أخرجوا له ألسنتهم، وتقارعت أكفهم أسفاً على رجل فقد عقله.. دون أن يسألوا: ما أسباب هذه الحالة، أو هذا المرض؟!

كان «ديوجين» بذلك يسخر من الذين أضاعوا أغلى حقائقهم، وقد وجد ـ هو ـ عبر ضياعهم هذا ـ جوهر الحياة، أو وجه الحقيقة. . إلا أنه لا يستطيع أن يثبت «رصد» دائرة لا تتحرك في عيون. . هي مزروعة على وجوه مغمورة في كثافة البحث المستطرد، أو مطوحة أجساد أصحابها في ساحة الحياة المحمولة على الرغبة وحدها!!

وذات يوم استطاع تلميذ من أتباع «ديوجين» أن يقتنع بالتفاهة التي تبدو لامتناهية، وكان منطلقاً، وشجاعاً، وبالرغبة في أن يتحول إلى «شحاذ» ضائع يعيش على النفايات. .

ذلك التلميذ هو الفيلسوف «جراتس» الذي حكى ويلسون تحوله، ووصفه فقال:

ـ «لقد تخلى ـ جراتس ـ عن جميع ممتلكاته، وأصبح شحاذاً. . لم يغتسل أبداً. كان جسده يلتصق بالجدران. . إنه يجعل الحياة بلا هدف»!!

لقد أكلت العزلة «فكر» جراتس، في الوقت الذي انفلت «ديوجين» من حصار العزلة ولو بتصرف، وصفه المجتمع بالجنون، وكان «جراتس» يخطو خلف أستاذه في الانفكاك من عزلة المجتمع الذي لم يقدِّر إرهاصات فكره، لكنه ضل المسير. . كان هناك مفترق أضاعه عن خط أستاذه. . فانكفأ، لأنه أضاع الهدف. . أضاعه بالحذر من أن يقول عنه المجتمع: مجنون!

وكما يقول ـ ويلسون ـ: «ليس الحذر إلا وسيلة فاشلة يتحصَّن خلفها الضعفاء».

لقد أراد ـ جراتس ـ أن ينفي عن نفسه شعور الكراهية للناس، ولكن بحذر الذي يخشى تلك الكراهية، فأصبح ضعيفاً إنسانياً، ومكروهاً ذاتياً. .

فهو يكره نفسه حينما غمسها في جسده، وأخفى جسده بعد ذلك داخل قذارة النفايات!!

إن محتوى فكره ـ كفيلسوف ـ يحمل الإنسان أن يقف عنده مذهولاً، ومعظماً.. غير أن الكلس الذي تجمع عليه من المجتمع جعله ضعيفاً، وقذراً (!)..

ويطرح «كولن ويلسون» هذه الدراسة الانطباعية؛ ويقلصها حتى يحيلها إلى «شاهد»، أو إلى شيء من محفوظاته الدراسية.. ليخوض التجربة العنيفة بشبابه، وبحبه لخوض مجهول يصر أن يبلوره ويكيفه ويبنيه حياة يرتضيها، ويخوضها بدراساته، وثقافته، وقد قلب الصورة التي تبرز ملامح «جراتس» وجعل وجهها إلى الحائط، وأطفأ مصباح «ديوجين».. فالحقيقة التي يبحث عنها لا يمنحها النهار، وإنما هي عطاء الليل، والزوايا، وهو يقول:

ـ «عندما يضيق الإنسان بالوحدة والعزلة.. ينتقل من مكان إلى آخر.. يكتشف نماذج بشرية لم يعرفها، ولم يلتق بها»..

إنه بهذه الخطوة يحشد البشر فوق ـ القاعدة ـ والقاعدة هي «القضية».. قضية الإنسان كحياة، فلا الحقيقة، ولا القوة، ولا الانخذال.. ولا حتى الشحاذة كفيل بكسب «القضية» لصالح الإنسان كحياة.

وهذا هو الذي عالجه، وأوضحه. ورسمه، وجعله حصيلة في روايته «ضياع في سوهو»!!

* * *

هذه الرواية.. أحدثت يوم ظهورها ضجة في الوسط الثقافي، وأطلقت عليه صفة «اللامنتمي».. الذي يقذف عن جسده الطنف، والاشمخرار، والتعلق في مساحة الحياة متطوحاً، والذي يتمرد على الرغبة حين يبصرها تريد السيادة عليه لتملأ مساحته الحياتية!!

لهذا فقد قال:

ـ «إن ظروف الحياة في كل المجتمعات كانت فريضة قاسية لم تترك مجالاً للتأمل في قوتها، وعلينا أن نروض حياتنا»!!

كان يريد أن يحيا، وأن يؤكد «قضيته» كإنسان ينفذ ما يفكر فيه، ويبدو عطوفاً، وفقيراً سخياً! ويمتلك ثم يعطي.. وأن يشعر بحرية الإنسان، وهو لا يعتبر أن جنون المادة، وطغيان الجسد فيما عايشه، ورآه في «سوهو» كفيل بتوفير الحرية الإنسانية.. كفيل بتحقيق «قضية» أصلية.. تعب الإنسان روحاً، وجسداً، ورؤية، وعدواً في البحث عنها.. فتلك حرية زائفة.. وصفها «يوسف شرورو» مترجم الرواية إلى العربية، وصديق ويلسون حينما تحدث عن الرواية فقال: «كتب ويلسون هذه الرواية عن الناس الذين يمثلون أنهم يعيشون حريتهم»!

وكان ويلسون بارعاً، ومجيداً، ومبدعاً في هذا العمل الأدبي، وهو يعكس معاناة جيل.. مكياجه من الرماد، وألوانه من بصاقه، وجروحه، وأمراضه الاجتماعية؛ وهذا الإبداع دفع الناقد الأدبي لمجلة ـ الصنداي تايمز ـ ليكتب قائلاً: «كنت ألهث، وأنا أقرأ رواية كولن، وكنت أسمع بإذني تنفس أبطاله كأنهم يعيشون معي في غرفة واحدة.. هذا عمل رائع»!!

والروعة الحقيقية أن «هاري بريستون» بطل الرواية هو نفسه المؤلف

الذي خاض التجربة، وامتلأ بلحظاتها، وأيامها ومارس البحث في أصولها وجذورها..

والرواية تنهض على أربعة أشخاص: هاري، وجيمس ودورين، وريكي.

كاتب وفيلسوف، ويقلقه البحث عن «قضية» الإنسان: هو هاري.

وممثل فقير سيء الحظ.. اعتاد على قرض الشلنات ليعاشر فتاته، وفتاته هي أي واحدة يقذفها رصيف «سوهو» ويعتقلها حواره، ومنطقه، وبراعته المبادأة بالحديث، فهو شخصية متناسخة، مكررة كطبعات الكربون، من أولئك الذين «يقتاتون كفأر صغير يريد أن يكون كبيراً»: هو جيمس..

وفتاة لا تحكمها الرغبة كل ساعاتها، وتشتاق إلى فضيلة ذات حدود تتكئ عليها، وتلتذ بنظرة. تريد الامتلاك للذات بعد الرجوع إلى عقل يفكر، ويحزن كالقلب: هي دورين..

ورسام فنان.. اتخذ من «موديلاته» في البداية «لحد» الرغبة، ثم أتخذها نقطة تأمل صامت كحدقات العاشق، ويفر بموهبته من حصار الشهرة، والمجتمع الذي ينزف من عينيه دائماً، ويعتبر أن «التعبير» لا يتعدى أن يكون «رغبة» فعلها الفنان على اللوحة بعد أن قاسى منها، أو استنفدها.. ذلك الرسام: هو ريكي!!

* * *

لقد برز «جيمس» في حياة «هاري» الكاتب، والفيلسوف.. ليشجعه على التخلي عن جنيهات قليلة، فاليوم نعيش، والليلة يذهب به إلى زاوية

النفايات لتجميع أوراق يضعاها تحت ملابسهما، ويناما عليها في قطار رخيص السعر. . بعد إفناء الليل في نقاش مع موجوعين، ومذهولين، وفاقدين، وفلاسفة. . يدفعهم فقرهم إلى ارتياد «المتحف البريطاني» نهاراً ليقرأوا بنهم، ويطرحوا في الليل مخاض الفهم. . والغد موكول بعابر طريق، أو قارضي شلنات معدودة.

وتعرف «هاري» على «دورين» بواسطة صديقه جيمس، ووجدها تائهة، تكاد تضيع نهائياً. . وتقاوم ذلك المصير. . لكنها لا ترفض «الرغبة» شريطة أن لا تستحوذ على كل حياتها!!

وفي لحظات رجوع «هاري» إلى نفسه وإلى بحثه الأصيل، وإلى تأملاته يستنجد بقراءاته. . باستنتاجاته. . بفلسفته، وهو يحب استطراده الفكري دائماً. . كفلسفة، وهو يضع توضيحاً، فيقول:

ـ «الفلسفة» إما أن تكون نتيجة حب، وإنما أن تكون نتيجة قلق، وفي الحالتين نستثني الاحتراف»!!

بهذا يدلل على وجود أصالة في تفكيره، وعلى نماء في وجدانه. .

إنه يرفض الحياة بلا حب، فالحب ألم، وعطاء وبلورة، وإيمان، وأسباب استمرارية الحياة.

وهو يعاني القلق. . من تناقضات يعايشها في الناس، وفي مسيرة البقاء عندما تتألب عليه الماديات، فالقلق ـ هنا ـ ضرورة لأنه تعبير عن الإحساس، واشتعاله، وحيويته.

والجيل المعاصر يبرر الحروب أحياناً بأنها أخذ من الحب، ونضال من أجل الحب، وعطاء له، واشتعال الحروب لا يعني ـ فقط ـ أن

جبابرة، وطغاة، وشواذاً عن الرحمة والإنسانية هم سببها، ولكن المحبين لأوطانهم، ولفتياتهم، ولأهلهم، ولتاريخهم، ولإنجازاتهم يشعلون الحروب أيضاً في حالة التمسك بأشيائهم، والدفاع عنها. وصد الطغاة دونها.. فيقبلون الاحترق بالحرب، ولا الاحتراق بالمذلة والرضوخ..

وهذا هو الذي ولد القلق في حياتهم..

إنهم قلقون من انقضاض الجبابرة، وعاهري التاريخ على ما يحبون..

إنهم قلقون من افتقاد حضارة بناها آباؤهم، وعرقهم، ولقد كانت الحرب الأولى، والثانية خندقاً عميقاً محفوراً في ذاكرتهم!

والشباب القلق.. يستخدم التمرد، والعنف «قلقاً».. وبهذا يعاملون «المفاجآت» بالمبادرة، وباللاهتمام!!

لقد ألح على هذا التأمل والحوار في مشوار البحث عن القضية مع ويلسون وجيل العصر.. ألح بصورة شاب تذكرته، وكنت قد التقيت به في رحلة إلى لندن!!

***

ليلة من ليال شتائية، ومجنونة، ومقرحة.. وفي زاوية نادٍ «دخلناه» ليلاً في حي «سوهو» من باب العلم بالشيء، والتعرف على كل.. كل شيء، وليس هذا تبريراً، ولكنه حقيقة..

في تلك الزاوية كان شاب استغربت أن أكتشفه إنجليزياً.

إنه من نفس طبعة الكربون تلك.. يلبس قميصاً، وينطلوناً غريبين مهلهلين، ويريح رأسه على فراغ خلف ظهره ليغرق في مزيد من

التطويح. . كان منظره مغرياً جداً، وسحنته عادية جداً، ونظراته مصوبة نحونا جداً. . والتفتُّ إلى صديق يدرس اللغة هناك. . لا زمنا «بالواجب» والضرورة، وقلت له:

ـ هل يمكنك أن تتولى ترجمة حديث أبدأه مع هذا الشاب المقذوف في الزاوية؟!

ـ قال صديقي: أتركه. . أنهم كثيرون، وقد يستغل بعض جنيهاتك!

ـ قلت: لا عليك. . تعال.

وتعرفنا على الشاب. . كان اسمه على ما أذكر «رودلف» أو هكذا قدم نفسه إلينا، وكنا كما أشعرناه من بلد عربي ـ لم يهتم كثيراً بمعرفة اسمه ـ بلد في الشرق الأوسط وكفى، وقال لحظتها:

ـ تجاورون إسرائيل؟

ونظر إليَّ صديقي قائلاً: ورطة مع يهودي!

ـ قلت لرودلف: أنت يهودي؟

ـ قال: لا. . لكني أعرف نزاع العرب مع إسرائيل، لقد زرت بلداً عربياً قبل سنوات. .

ـ قلت: ما اسم البلد؟

ـ قال: كنت أعمل على ظهر سفينة تجارية ألغيَ من فوق صاريتها علم القرصان، ووصلنا إلى الإسكندرية، ورأيتها.

ـ قلت: ولم تذهب إلى فلسطين؟

ـ قال مبتسماً: أنت دقيق العبارة، إن اسمها إسرائيل!!

ـ قلت: عندما استحوذ اليهود عليها أطلقوا عليها دولة إسرائيل.. لكنها أرض عربية!!

ـ قال: هذا لا يعنيني كثيراً قبل لحظات، لكني بعد أن تعرفت عليكما.. أحس أن الصداقة تجعلني أصغي للرأي منكما.

ـ قلت: عبر ترجمة صديقي: المشكلة كلها تنحصر في إصرار الصهاينة أن يجعلوا العرب أصحاب الأرض «أقلية»، وأن هذه الأقلية ـ بالتالي ـ مسلوبة الحق، ومعتسفة، وليس لها رأي!!

ـ قال: في جنوب إفريقيا يعتقدون أن «بايب هارولد ويلسون» هو المطفأ وحده.. إن مستر ويلسون رأيته يشعل تبغه بين لحظة وأخرى، ولا أدري هل هذا بسبب رداءة التبغ داخل «البايب» مما يجعله يطفأ سريعاً، أو الهواء لا يمكنه من إشعال الكبريت؟!

ـ قلت: التفرقة العنصرية هي مأساة هذا العصر، و «الملون» هو التبغ الذي يمكن أن يكون رديئاً، ذا نكهة حسب طريقة إشعال «البايب».. إن الإنسان ليس لوناً، وإنما فكر، وموهبة، وسلوك، ومع ذلك.. فهل يحق لنا أن نسأل مستر ويلسون عن تصرف «بلفور» مثلاً؟!

ـ قال: نحن نرتبط بكم «تاريخياً» يا عرب.. لكني كشاب، وأحب القراءة، والتفكير، والشعور بحرية فكرتي.. أقول: إن ذلك الارتباط يجعلكم مرضى بعقدة نفسية اسمها بريطانيا!!

ـ قلت: ذلك وضعنا تصفية الحساب معه من زمن.. إن المشكلة الآن ليست بريطانيا اليوم، وإنما بريطانيا الأمس والإصرار على التلويح بالأمس دائماً (!!)

ـ قال مبتسماً: أفهمك، فقد كان لي صديق هندي. . تسكع في «سوهو» سنوات، لكنه انتصر، وتحصل على الدكتوراة. . كان لا يحب الاستعمار البريطاني، ولكنه يحبني كصديق بريطاني!

ـ قلت: كم مرة حاول التاريخ الأوروبي أن يقضم، ويشوه تاريخنا نحن العرب؟

ـ قال: هذا ليس حديثاً في السياسة، لكني أقول لك، هنا ضائعون اجتماعياً، ونفسياً، وأنتم ضائعون تاريخياً (!!)

ـ قلت: قد نملك المحافظة على تاريخنا بالأسلوب الذي اتبعناه في الدفاع عن أرضنا. . لكن ساسألك: كيف تجدون نفوسكم وسط هذا «الفقد» الكبير لملامحك كإنسان؟. . أنت الآن مهلهل الثياب. . تختبئ في زاوية وتعب كل شيء حتى آهتك، وفي إمكانك أن تغير أيامك. .

ـ قال: داخل هذه الثياب، وفيها فقط أجد نفسي. . أحس أنني أمتلك متعة الانطلاق، فعندما تكون فقيراً لا أحد يتطلع إليك. . إلا بمقدار الزاوية الحادة في عينيه. . وأنا لا أدعي الفقر، فليس لي دخل ثابت، وهذا لا يقلقني، فمكاتب العمل تعطيني ما لديها من أعمال، ولا تسنح لي فرصة ممارسة العمل الذي أرغبه، وأنا حر.

ـ قلت: ولكنك ستجوع، ولن تجد كل ليلة من يدفع لك ثمن وجبة عشاء؟!

ـ قال: لا أحد يجوع. . حتى الكلاب. إن الفرق هو: إن الجميع ليسوا أحراراً داخلياً وخارجياً.

ـ قلت: وتحب أن تجلس في هذه الزاوية.. منعزلاً، تشرب الملل، والصمت؟!

ـ قال: أبداً.. إني أنتظر صديقة لي، يبدو أنها تأخرت.

ـ قلت: يبدو أنه...!!

ـ قال: أبداً.. الحرية تعطيك الاقتناع، والالتزام..

ـ قلت: أي التزام؟

ـ قال: لا تصدقني؟.. الالتزام هو أن تؤمن بفكرة.. بشيء، وتقتنع بفعاليتها فيك، ولك.

ـ قلت: والحضارة في داخل هذا «الاقتناع» الذي يشملك هذه اللحظة.. هل هي مكاسب، وأيديولوجية إنسانية؟

ـ قال: الحضارة نحن.. من أعماقنا. إن كثيراً من «العقد» النفسية جعلت بعض القادة العالمين صنّاع حرب، ودمار، وطغاة.. هذا لا يهمني، فالانغمار في الحضارة يصنع «الطفو»..

ـ قلت: قد تطفو كجسد غريق؟!

ـ قال: هذا لا يعنيني.. المهم أن أحاول تعمق المحيط، وسباحته.. فإذا هزمني التيار.. يقال حينذاك: هزمه التيار.. كان ضحية انغمار!!

ـ قلت: وسبب الانغمار.. أليس سقوط جوانب من قيم الحضارة؟

ـ قال: لا تملأ ذهني «بعقد» شبنجلر.. ذلك الذي أتعب نفسه في تأليف كتاب أسماه «سقوط الحضارة».. هذا خطأ.. كان ينبغي أن يقول: سقوط الإنسان، فالحضارة قائمة، والإنسان يشوهها!

ـ قلت: أأنت فيلسوف ومفكر.. أم من البولشيين الخنازير؟

ـ قال: أراك تجيد لهجتنا؟

ـ قلت: شبنجلر يقول: حذار.. إن الربيع فصل واحد!

ـ قال: هذا رأي يبدو صالحاً لكم كشرقيين!

ـ قلت: قد نمتلك رؤيته لنستمتع به..

ـ قال: ليس حقاً.. أن أريد من رؤيتي أن تمتلكني لا أمتلكها أنا.

ودخلت فتاة جذابة للوهلة الأولى.. طويلة، نحيلة، بيضاء، وسمعت صديقي الجديد يقول:

ـ إما أن تجلس لأعرفك وصديقك عليها، أو فارحلا الآن، فقد سئمت الكلام من طرف واحد!!

وتركناه مع صديقته.. ربما حتى هذا اليوم؛ وربما حتى بعد ساعتين فقط من تلك الليلة.. فذلك يرجع إلى نظرة الإنسان لحضارته!!

* * *

وتذكرت «رودلف» وأنا أقرأ رواية كولن ويلسون.. إنه قد يكون طبعة كربون «باهتة» من «جيمس» أحد أبطال الرواية.. إنهم قد يتشابهون.. لكن نقاشهم، وتناولهم للحياة كضرورة، وكقتال من أجل الشعور بالانعتاق من أشياء كثيرة.. يحيلهم إلى «نماذج» بشرية في نظرة التكتل الاجتماعي المقابل لهم!!

لقد جرب «ويلسون» الكاتب، حياة الضياع في سوهو.. وكان يصورها على أنها فلسفة وضجيج في النقاش.. لكن جوهر الحياة،

وجذور المطالب الإنسانية التي سببت الضياع.. هما «فقد» في ذات الإنسان المتلاشي في ـ سوهو.. ـ فالحرية عندهم زائفة.. و «مومس» محكومة بالرغبة.. لهذا فقد قيل إن «كولن» تزوج بعد ذلك من «دورين» التي استقر بها حياتياً وأنجب.. غير أن هذه النتيجة في قدر «اللامنتمي» تعني سقوط في ذهن «ويلسون»، وتعني تشويه الحضارة في ذهن شبنجلر!!

إن الحب، والقلق.. هما الفلسفة ـ كما قال ويلسون ـ وهما شعور في أن الإنسان ينبغي أن لا يشوههما الزيف ليتبلورا إلى حياة جديرة بأن يحافظ فيها الإنسان على عمره!!

لقد احترق «البايب»، ولما يحترق التبغ بعد!!

* * *

الآن. . . ما هو الثابت؟!

«الآن». . .

كلمة كان يبحث عنها في الشروق، وفي الغروب. .

ينبش الساعات، ويفتت الثواني ليخرجها ـ زمناً ـ يوحد فيه بين البشر، وعزلتهم. . بين عزلتهم، ومحسوساتهم. . بين محسوساتهم، ودهشاتهم، ونطاق عناصر الإنسانية!!

كان يغوص في أعماقه ليمتح كل ما فيها، ويتحدث عن الحياة ونماذجها المدهشة، ويردد «الحياة على الأرض غير مشروطة بالخلود»!

لكنه كان يعشق خلوداً معيناً. . تشرق في تضاعيفه أفكار تحارب التحليلات الإجرامية التي يتعقبها الناس ليتورطوا فيها، وكان يحب «خلوداً» له وجهه الفلسفي المضيء باللمسات الإنسانية . . تلك التي تتكشف أحياناً في نفسه إلى درجة الإرهاق والغيبية!!

وابتدأ «فرانسوا مورياك» رحلة طويلة في غابات البشر. . كان قد فتح نافذة كبيرة هي الرؤية الدقيقة، وعاش سنوات يكتب الرواية الطويلة، ويصوغ أشعاره المرهفة، ويكتب تحليلاته، وانطباعاته الصحفية. ويقف في داخل نفسه حائراً. . صارخاً. . يتواجد مرة، ويتشرد مرات في دروب شائكة، ومرعبة، وسئل عما في داخله، فأجاب:

ـ «أنا غيبي ـ ميتافيزيقي.. يشتغل في المحسوس»!!

وأهتم «مورياك» بأشياء الإنسان الداخلية التي تشكل جوهره ويحاول إخفاءها.. فجوهر الإنسان ليس احتفالاً معلناً تتردد في جنباته الأصوات العالية. إن الإنسان منعزل ومجرد.. غير أن احتكاكاته، واصطداماته تجعل منه طغياناً جباراً من الماديات على أصائل النفس، وجوهرها.

ومورياك يقول: «إن البشر كثافة إنسانية، وهذه الكثافة تتطور، وتعتمل من تلقاء نفسها»، لكنها في تطورها، واعتمالها تتوازعها أدوار البطولة الشريرة في التعامل البشري، وتعتسفها «مآسي الوصول للمستحيل».. بينما هي تعتسف كل محصولها من العلم.

إن الإنسان في غمرة هذا يعاني من عزلة النفس، وتواجد الروح!!

* * *

لقد مات «فرانسوا مورياك»..

وكان قبل موته بأيام قليلة يترقب الموت.. الذي فلسفه في كلمته الأخيرة: «الآن».

فكل امرئ يجري على طرقات الحياة ليموت.. إنه يعمل، ويشقى، ويحب، ويتعذب، ويفرح لأنه سيموت، والموت هو نتيجة تلك الكثافة، وذلك الاعتمال.

وفي حياته الطويلة الحافلة.. قدم «مورياك» أعمالاً أدبية ضخمة، وكتب الرواية الفرنسية المعاصرة التي صورت اضطراب الإنسان وهو يتساءل: كيف يقدم تميزاً للأشياء المنتصبة، والأشياء المنعدمة؟!

إن الإنسان مطحون باختلاط الانتصاب، والانعدام. . ومن خلال رؤية «مورياك» لهذا العالم المتفجع، والمنكفئ. . مارس حضوره، وغيبته، واستبقى في ذاته القلق الصاهر الذي انطلق كما جواد أصيل يرتاد به نفوس الآدميين، ويقتحهما، وقد قيل:

ـ «إن عالم مورياك كعالم بروست. . موجود فيما وراء وخارج روابطه. . مع عالم واقعي. . إنه التراب الذي تنبت فيه وترتفع مخلوقات لا تتوقف عليه فقط»!!

وكان «مورياك» خلف، وفي غمار تلك المخلوقات لا يتوقف فوق التراب، ولا يرحل عنه. . إنه يستبدل الإنسان أحياناً بالوردة المتفتحة، وأحياناً يستبدله بالمستنقع الآسن المولِّد للجراثيم، والأمراض الفاتكة. . ذلك أن المخلوقات تقتل نفسها بحدودها، وبخيالاتها وبواقعيتها، وبرغائبها.

إن الانعدام لا يبدو جزئياً كلما كان صوت الإنسان أعلى من مطالبه. . كذلك فإن المطالب الدنيوية تقسرك أن تصنع عملة توصلك إلى الخسارة!!

❊ ❊ ❊

وهناك عبارة قالها ـ جاك روبيشون ـ الفرنسي عن أدب مورياك. . تقول:

ـ «مورياك دجَّن الإنسان الآبد، وبأربعين سنة من التمرين. فإن الرواية المورياكية ـ نسبة إلى مورياك ـ هي الوحيدة في عصره التي تستطيع أن

تحملك على القول: هذا من مورياك، كما كان يقال في السابق: هذا من بلزاك. وعالم مورياك مغلق.. بل الأكثر إغلاقاً والأكثر خصوبة بين جميع الأكوان المختلفة»!!

إن «مورياك» أعطى في الرواية تعبيراً عن واقع، وحالة، ونفسية الإنسان.. ما بين الانغلاق، والخصوبة. وهو قد تسنم مكانة شامخة في الأدب العالمي المعاصر.. حتى منحوه عطاء بلزاك لحضارته وفكره.

إن أعماله الروائية اهتمت ـ كما قال هنري سيمون: «بجعل عالم الجسد محسوساً وواقعياً في كل مكان، ومتخلصاً من كل مقصد يشير إلى تصوير الوجود»...

كان يعني «مورياك» بما قدمه: إن الأشياء المترابطة والدالة على الحياة، والمؤثرة فيها لا يمكن تجزئتها، وفصلها.. إن ما نستطيع أن نقرر أنه عيب هو أصل في نوازع البشر، وأن الجدل أحياناً «يدوكر» العيوب حتى يستسيغها الإنسان كتعامل، وكاستعارة مسلكية في واقع مضخم بالتطورات، وبالانبجاسات!!

ولقد تأملت عبارات متعاقبة تنفس بها «مورياك» قبل أن يعلن عن قدوم موته.. فرأيته فيها: زوابع عصفت زمناً ثم انكسرت، وتلاشت بفعل السنين، ورأيته فيها: إحساساً غنياً أفرط في الإضافات الإنسانية نحو بشر استحقوا حماقة تكثفهم، ولكنه تشبث بالحب، والتزم بالمحاولات التي تبدأ بها الأنثى الداخلة حياة الذكر كأنما للمرة الأولى، ولا تعترف ولا يهمه فيها سوى الوقفة الفريدة التي تستمر طالما تواجد إحساس الرجل بعيداً عن انعداميته، وغيبته!!

رأيت «موريالك» الذي عاش طفولة حزينة، ومنعزلة، وتربى تحت وقع الصرامة. . وهو يتطلع من حوله، وكأنه يتساءل: هل كل الناس مثلي؟!

وإذا لم يكن كل الناس مثله. . فلأن المرء وحده لا يرى في غيره إلا نفسه، بالصورة المعاشة، وبالصورة المأمولة، والتي يحلم بها. ولأن «موريالك» هو ذلك الفنان الأصيل، والمأساوي، والضاج بالاحتجاج والرفض، فقد تناول ما حوله لحظة بحث مضنٍ عن الحب، والفرح. . لحظة فقدان عدمي. . لا يبدو «الوصول» فيه مشروطاً بالتحقق، ومن ثم بالخلود.

لذلك. . فقد تحدث «ناقد» عن هذا الجانب الصميمي في معاناة، وتفكير «موريالك» فقال يصفه:

ـ «يستطيع ـ موريالك ـ أن يفتخر بأنه وصف عشرين مرة ـ دون تطاول غيبي ـ مأساة الوصول المستحيل للنفوس خلال الأجسام، وبأنه وضع في قلب مبتدعاته العطش الذي لا يرتوي لقفر الحب»!!

وعبر هذه الرحلة الطويلة من الحياة، والتأمل، والتفكير، والاقتناع. . أعطى موريالك أدباً حياً، وأديباً مسعداً من تضاعيف التعاسة فيه، وأبدع في استنطاق مضامين الإنسان. واستشرافاته، وارتطاماته.

وفي النهاية، وقبل أن يتوقف نبض هذا الإنسان قال: «كل شيء مر كما لو أن الباب قد أقفل إلى الأبد في داخلي. الآن ـ في الساعة الأخيرة ـ لا أحد يستطيع أن يتكهن. . حتى التظاهر بالاستسلام للموت لا يثبت شيئاً»!!

«الآن». . . هذه الكلمة المتفاعلة، والمتحركة: ماذا تعني. . ماذا تثبت؟!

إن الإنسان لا يقدر أن يمتلك «الآن»..

إن كل شيء في «الآن» هو محكوم لما يأتي بعده فـ «الآن» وقفة دهشة، وانشغال مؤقت.. ثم لا يبقى بعد ذلك شيء!!

* * *

عندما تصبح الأشياء . . عادية!

هناك لحظة معرفة لماحة كومض البرق . . تضيء النفس حينما يغمر ظلام الخوف، والصدأ، والملل جوانب النفس . .

في هذه اللحظة نحصي خسائر الأماني، وقتلى الرغبة الإنسانية التي كانت تملأ النفس، وخنقتها التعاسة، أو سوء الطالع، أو المظاهر الجوفاء!

* * *

وحينئذ . .

في عمق الناس . . في كلماتهم، ورؤيتهم، وخفقهم . .

في مسافات يومهم . . ارتحالهم، وتوقفهم، وحيرتهم . .

حينئذ . . تتداعى حدود النفس . . تتهاوى الحواجز التي بنيناها عندما أردنا تقدير مسافات الأيام!!

تتضح دوافع الجري اللاهث الذي يفعله المرء . .

يعرف الإنسان أنه كان «يتحمل مجاعة نفسه من أجل الحقيقة»!!

يعـــرف أنه كـــان يبحث عن فضيلة الروح، وشرف الوجدان، وطهـــارة القلب . . وإن منتهـــى شقائه يتركز في طمس تلك الفضيلة،

وفي انحراف الوجدان، وفي تلوث القلب!!

إنه يردد صرخة نيتشه: «يا لشقاء الواهبين»!

لقد وهب عشقه لسأمه..

ووهب حبه لألمه.

ووهب ألمه للتنازلات التي يفرضها منطق التعايش مع الآدميين لتستطيل أيامه، ويعرض اسمه، وتتضخم مخلفاته على وجه هذه الأرض التي تواريه في النهاية!!

أين الوجهة إذن؟؟

لم تعد شيئاً مهماً في عمق الكلمات الخرساء، والرؤية المتجمدة، والخفق العادي!

لم تعد شيئاً ثميناً في مسافة كل يوم تشرق شمسه.. فخطوات الارتحال بلا ظل، والتوقف بلا توقيت.. بلا محطة، والحيرة تبدو آنذاك جمال الشوق الأبكم!!

الحديث عن الحب يخلو من بهجة القلب..

والقلب قد دثره خوف غامض، أو مرتقب، أو حتمي!

والخوف.. ليس مأساة، وليس أحيانياً.. الخوف يصبح «غالباً»، وسمة!!

ويتبلور النداء الداخلي.. من النفس إلى دخائلها:

ـ ماذا حدث؟

وكان هذا سؤال مرعب.. مرهق.. مفاجئ..

سؤال لاحقني ـ بالصدفة أولاً، وبالترسيخ بعد ذلك ـ كالحتميات المتعاقبة التي تبدو رؤوساً مجسدة لثمن الأشياء، ولملامح المعاني!!

سؤال بالصدفة. . اعترضني، فكان أولاً!

توقفت عنده وأنا أقرأ دراسة مضغوطة لأدب «جان كرواك» أديب الغضب كما أسموه، وهو من كتاب أمريكاً في هذا العصر، ومات فجأة. . كالسؤال المعترض!. . مات ومعه خمسة وأربعون عاماً لم يكن كلها حافلاً. . وقليل منها كان تافهاً، ومعلقاً بلا قاعدة!!

و «جان كرواك» أشعل مفاهيم الشباب في أمريكا. . وكان يخاطبهم من داخل أعماقهم. . من اللاحدود في نفوسهم. . فكان بمثابة (حينئذ) في معنى الكلمة نفسها. . عباراته غاضبة . . احتجاجه عار بلا تفسخ (!!)

كان كرواك «يتحمل مجاعة نفسه من أجل الحقيقة». . وكانت الحقيقة في ذات الوقت متوقفة!

إنها حالة. . تعكس وصول الخطوة الإنسانية إلى الإحساس بأن كل شيء أضحى عادياً. .

كل شيء مليء بالخوف. . وكل الخوف هو في محاولة اتقاء طوفان المأساة القادم ليغمر إنسانية العالم. . روحاً، ووجداناً وقلباً!

إن التعامل بين الناس أصبح تعاملاً بـ «اللاشيء». .

و «اللاشيء» هذا. . هو تفسير «العادي». .

لقد اعتاد العالم كله على لعبة صراع الديكة، وبعد هذا اعتاد على «التعود» ذاته، وكل الصراخ، وكل النداء، وكل الضوء ينبغي أن لا يتخطى هذا التعود!!

وأقام «جان كرواك» جزيرة نائية بين دفتي كتاب، ودعا الناس أن يسكنوها، وكانت الدعوة بأسلوب انفعالي.. أخذ المفجوئين به، وصلب الذين قدموا متأخرين! (ووصفه الكثير من النقاد بأنه كاتب «لا اعتباري».. إنه لا يقيم وزناً لطبيعة «التعود» .. فصدم مشاعر الناس)!

ولم يعط «كرواك» حيثيات دعوته، ولم يأخذ شيئاً..

كان يقف في وسط زمن.. كل شيء فيه يخضع للتعود.. كل شيء فيه تحول إلى «عادي»! رحل «كرواك»..

وبعد رحيله.. قذفت المطابع كتاباً له بعنوان: من أنت أيها الإنسان اليوم؟

وبعد أن فرغت من قراءة الدراسة المضغوطة عنه.. كتبت عبارة شهيرة أحفظها لنيتشه، وخبأتها بين أوراق الدراسة.. عبارة تقول:

ـ (ويل لكل محب.. ليس في محبته ربوة)!!

***

ولاحقني السؤال القائل: ماذا حدث!!

لاحقني ثانية.. إذ اكتشفته ضمن رسالة حملها إلى البريد ذات يوم إليَّ من إنسان بلغت غلاوته في نفسي أكثر من نفسي!!

جاءتني الرسالة في لحظة معرفة لماحة كومض البرق.. كنت فيها أحصي خسائر أماني، وقتلي رغبتي الإنسانية التي كانت تملأ نفسي..

كنت إنساناً أتوق إلى تفسير حيرتي، وإلى التقاط عشقي من سأمي، وتخليص حبي من ألمي، وإنقاذ ألمي من التنازلات التي فرضها منطق

التعايش، والرضوخ لضرورة لا نعرفها، ولا نفهمها، ونحني لها الهامة امتثالاً . . لأنها وليدة زمن «اللاشيء» . . وليدة الـ «كل شيء عادي»!!

وقرأت الرسالة:

ـ «لم تحدث لي مأساة، لكن كل شيء عادي . . عادي . . عادي بدرجة مرعبة. كنت دائماً أشكو السأم . . لكن في حالة ـ العادية ـ هذه أصبح السأم، أو الزهق حقيقياً. أنا أخاف منه الآن . . أحس أنه سيقتلني . . إنني أخاف أحياناً كما عرفت عني . . أما الآن أصبح الخوف عندي غالباً»!!

هذا يعني أن الأشياء عندما تعيش بالسالب، ويتعطل فيها الموجب . . تبقى عادية . . يشيع حولها الخوف، تتسربل بالرهبة . . يبقى الإنسان في داخلها يتوقع ولا يحصل . . أو يحصل على ما لا يهمه!!

إنه حس «أن أشواقه حرام عليه!» . . غير أن أشواق الإنسان هي الموجب فيه . . هي الحرارة التي تؤثر في حيوية فؤاده، وذهنه، وموهبته!

إن أشواق الإنسان هي صحوة جروحه، وصدى ضحكاته، وإصغاء اللقاء الدائم في أعماقه!

والعالم يعيش اليوم بلا أشواق. والأشواق هي ريح الحنايا، لكن . . . (ما تهمني الريح المناسبة، وقل لمن لا يعرف وجهته أن يراقب مهب الريح)؟!!

وهي عبارة لا تصلح أن نجعلها تتفرس معاناة إنسان واحد . . بل هي عبارة إنسانية شاملة!

إن الصديق الذي خاطب لحظتي بسطوره . . موجود في لحظة كل

واحد.. إنه يمثل إشراقة الحب في الحياة، ويذكر بالاحتراق بنار الحيرة، والسأم، والمضي في (مدن واسعة الحيلة)!!

إن حدود العالم مسورة بالغضب وبالرفض، وبالسأم، والحيرة..

إن مسافات الأيام داخل هذا السور تنتهي إلى حيث تبدأ.. تعني أن كل شيء عادي.. عادي.. عادي حتى الرعب.. وإن على مشارف الصدى صوت شاعر يقول:

(شمس تضحك فوقك..

ليل يبكي فوقي..

فلماذا حين مضيت..

لم تأخذ ذاكرتي..

ولماذا تتركني..

أتمدد محترقاً..

تأكلني أسماك البحر الميت)!!

وبعد الاحتراق.. بعد المدن ـ واسعة الحيلة ! ـ تتراكض الأشياء كلها دفعة واحدة.. وتتحول بعد لحظات إلى منظر عادي ــ عادي.. كاعلان في الشارع عن فيلم جنسي مضى على بقائه عام بكامله!!

ولقد عايش الناس «عاديتهم» بكل التحديق.. بمنتهى السخف؛ وهم اليوم يمارسونها بكل الأنانية!!

* * *

قليل من الشمس. . في الماء البارد!

تمددت زرقة عينيها وجيدها متلع. . مشرئب نحو السماء.

اتحدت زرقة العينين الواسعتين. الحائرتين. . بزرقة هذ المدى الرحب.

تموّجت الرؤية لثوانٍ، ثم بدأت رحلتها الطويلة اللانهائية. . تبحث عن صدى شارد. . تطرد خلف غيمات متناثرة!

ومنذ ذلك اليوم. . قبل أعوام طويلة، لم تتوقف الرحلة الطويلة، ولم تعثر على الشارد المطارد. . المكثف في نفسها حزناً، ورغبة، ومجهولاً معشوقاً!!

إن السماء ـ وحدها ـ تعطي رحابة المسرى لهذه النظرات من «نن» أزرق. . نظرات موغلة في زرقة أخرى لانهائية. . فالضيق في النفس مما تكثف. . يتناوله انفراج باسم عبر السماء. . ذلك الانفراج كان حافز الاستمرار في الحياة على وتيرة لا تعترف بها، ولا تملك أن ترفضها. .

ذات يوم ـ قبل أعوام طويلة ـ كان ميلاد النضج الذاتي. . ميلاد شمس الذهن حينما تفتحت شرانقه على فكرة. .

كان إلهامها من وضوح العالم الصغير الذي نمت فيه، ووعت، وترعرع خفق قلبها. . وليس هناك في التعبير الإنساني أوضح من

الحزن.. دلالة، ورهافة حس، وزخم امتلاك لما تعطيه الحياة بالسلب!!

وعرفها الأدب العالمي يومها. فتاة أرادت أن تنهض بلا رتابة..

وأن تقول للناس: قد يكون الهمس صرخة مسموعة ذات صدى يبحث عن قرار.. وإن «العملة الذهبية من المشاعر» أثمن من العملة الصعبة المنصهرة بالحاجة الوقتية، وأن الثمن في التعامل الإنساني ينبغي أن يخضع لنكران البحث عنه!!

كانت الساحة يومها مليئة بالأقدام، وبالسيقان، وبالرؤوس، وكان النبض قد جمدته معركة المصارعة بدعوى انتظار القيم، والمثل، والركائز الإنسانية.. فسقط «سارتر» مضرجاً بقلقه، وإلحاده، ولعقت «بوفوار» ذلك سنوات طويلة، وقذف «همنجواي» بقامته من فوق سور الحياة بدوافع يأسه، وخيبته، وانتكاسة الانتظار الذي عاناه، ومهد له في رواياته، ومات «سومرست موم» بقضايا الأمل، والتفاؤل التي شيدها في رواياته الغرامية، واغتيل «باسترناك» بشفرة حادة صغيرة إسمها: دعوى الإنعاش الأممي، عن طريق استعباد الشيوعية للفكر وتكميمه، وخنقه بعد ذلك!

وتاه توفيق الحكيم لحظة دخوله «بنك القلق».. أرد أن يقتحم ذلك المكان، ولكي يعطي أهمية اللصوص له.. أسماه ـ بنكاً ـ فدخله ولم يستطع أن يسرق منه شيئاً، ولم يستطع أن يخرج منه حتى الآن!!

كان العالم يشهد زحف الافتئات، والقلق، والإلحاد، وإذابة الخفقة الإنسانية ليتكرس الإنسان لمادياته؛ ولتوسعه الجغرافي.

* * *

وكتبت روايتها الأولى التي اشتهرت بها: «مرحباً أيها الحزن»!

وكان الانبهار يتركز في البداية على إقدامها، أو اقتحامها لساحة الأدب. . تمشي في وسط تلك الأقدام، والسيقان والرؤوس، وتحاول أن تعثر على جزء مما فقدته كإنسانة في عالم جديد، غريب، مثير. .

وكان النقاد يتناولون قبل فكرة الرواية، وقبل تحليل أشخاصها: فكرة ظهورها فجأة، وتحليل نفسيتها، وذهنيتها، وإلحاحها. .

غير أن ناقداً واحداً فقط التقطها من هذا التيه الذي بادأها، وأبرز عبارة لها من روايتها الجديدة الأولى. . تقول فيها:

ـ أريد أن أتصور شيئاً. . من يستطيع أن يحقق هذا الذي فشلت فيه؟!

ـ وقال الناقد: هذه العبارة تعكس ضعف شخصية البطلة في رواية «مرحبا أيها الحزن». . هذا لا يعني إلا شيئاً واحداً، وهو: أن الضعف يكون في القوة أحياناً، وإن القوة ليست دائماً أخذ كل شيء، المنطلق في بناء الشخصية: أن نعترف بأشيائنا أولاً، ثم نعالجها.

وإن كانت «فرانسواز ساجان» ضعيفة في البناء اللغوي يوم أصدرت «مرحبا أيها الحزن» لكن تحديقها أصاب أهدافاً يؤكد أن الرؤية ناضجة، ومبصرة، وواضحة!!

لقد كانت ترحب بالحزن، وهي لا تؤكد الاقتناع به ـ بالضرورة ـ بقدر ما كانت تعطي قدرة المراس على رؤية الأبعاد، ومعايشتها، وأن تستلب منها بعد ذلك نظرة خاصة بها تعني الامتلاء الداخلي.

ثم جاءت، وفسرت ذلك في روايتها الثانية «ابتسامة ما». . فهي تكتب على لسان بطلة الرواية قائلة:

ـ «لم يحدث ما يستحق البكاء»!

والحـــزن ليس بكاء.. البكاء هو لحظة ضعف، والحزن اصطبار وكبح للضعف، وإذن.. فإن الاتهام الذي واجهته، والقائل بأن أبطال رواياتها يتميزون بشخصية ضعيفة.. هو اتهام كان بناؤه محكوماً بالنظرة المادية إلى سنهار، وتوالى عمرها الأدبي.. وقد سألتها ذات يوم كاتبة فرنسية تقول لها:

ـ «تعالى نتحدث عن الرجال في رواياتك، جميع أبطالك يتميزون بشخصية ضعيفة»!

ـ فقالت تجيب: «جيل لا يشبههم.. له شخصية ممتعة».

وعادت الكاتبة تحاورها قائلة:

ـ «ماذا يعني الرجل بالنسبة لك»؟!

ـ فأجابت: «صوت آلة الحلاقة في الصباح، وإنسان يقود السيارة، ويفتح الباب، و.. وجود نحتاجه»!!

لقد حاولت في البداية أن ترفض، وأن تهمل، وأن تمتهن أنوثتها بكلمات قد تكون مستقاة من ساحة الانتظار الذي اضطر «سيمون دي بوفوار» أن تلعق، وهمنجواي أن يندفع إلى يابسة.. لكنها تحاول أيضاً أن تتذكر معنى الإفاقة النفسية، واستشراف الوجود.. فأردفت تقول عن الرجل: «إنه وجود نحتاجه»!!

هذا أيضاً لا يقلل من قيمتها كأنثى تعرف جيداً هذه القيمة في عالم الرجل.. لكنها فزعة، مذهولة وهي تشاهد في عالمها اليوم مدى ابتعاد الرجل عن أنثاه.. أبعدته الماديات وارتباطات الحياة وارتباكها أيضاً،

وخطواتها العاجلة التي تضطره في زحامها أن يساير، وأن يفعل كما غيره، وإلا تحول إلى فقير هندي متألم، وبالتالي تهرول الأنثى إلى طريق معاكس. . تلوح لرجلها في بداية اليوم قائلة: باي. . باي، وتلوح له في نهاية اليوم قائلة: «هاي»، ويفتح كتاباً ليقرأه، وتفتح التلفاز لتنام متعبة في منتصف برامجه!!

هذا واقع الأسرة في الغرب، وفي أجزاء كثيرة أيضاً من الشرق اليوم. . حتى أن الأنثى أصبحت تقول العبارة التي نقلتها ـ ساجان ـ بهذا النص:

ـ «الزواج. . مراسم من أجل راحة الرجل. النساء متزوجات بطبيعتهن»!!

وهذه العبارة قالتها ـ ساجان ـ وعلى شفتيها ابتسامة باهتة . . فقد تزوجت، وأنجبت طفلين أشعراها أنها «أم»، وهذا ما تلح الأنثى على تأكيده بكل حرص، ومحبة، واستعطاف، واقتناع!!

و «فرانسوز ساجان» كانت قد بدأت محاولة أولى للنقاش في قضايا تهم المرأة المعاصرة في جيلها هذا المسور بالخوف. . الخوف الذي قالت عنه إن كل الناس تشعر به، وهي تقاومه بالمرح!

فهل كانت ـ ساجان ـ مرحة يوماً ما؟!!

* * *

في روايتها الأولى عكست الرغبة الأصيلة عندها في «كسب» المرح، والسعادة، فالذي لا يعرف الحزن. . لا يستكنه الفرح، والمسرة تأتي دائماً خلف الحزن. . ليست هناك فرحة مستنبطة، أو مأخوذة من فرحة قبلها. .

فهي تستقبل الحزن لأنها تود أن تشعر بقيمة اللحظة الآتية التي تفرح فيها، وتمرح!!

وفي روايتها الثانية: «ابتسامة ما» أرادت أن تطرد نفسها من داخلها.. أن تتناسى ما يشدها، وما يبلورها كإنسانة، وما يصيغ مفهوم الحياة في عالمها الصغير ذاك.. فتراءت لها وحدتها.. أرادت أن تخرج.. أن تصطدم.. أن ترتطم.. أن تقول للتجربة: أنا جاهزة.. سأحتمل.. سأبتسم ـ أي ابتسامة ـ لأرى الناس، لأذوب في أشيائهم، وفعلت كل ذلك في لحظة.. فالمرأة تقدر على «تصنيع» لحظتها بإغماضة خاطفة من عينيها وفتحها.. لترى أشياء أخرى. وترسبت في قاع نفسها كل التساؤلات التي كانت تضج، وقالت بعد ذلك هذه العبارة:

ـ «حتى يشعر الإنسان بالوحدة، لا بد له من التفكير في نفسه.. ولا وقت لدي لذلك»!

أرادت أن تقول: إن نفسها لم تعد قضية، أو تفكيراً ـ على الأقل ـ وهذا الرأي يقضم راياً سابقاً قالته من زمن، وهي تتحدث عن السعادة.. يوم كانت ترى الحزن قضية، وفكرة جديرة بالتأمل.. وكان بحثها يخلو من الملل الذي أحسته هذه الأيام.. ذلك أن الحزن يرفض الملل.. يغمره، ويطوعه بعد ذلك.. يوم سألوها:

ـ «إن أبطال قصصك يحاولون تعريف السعادة، أو يبحثون عنها.. ما هي السعادة في رأيك أنت.. كيف تجدينها، أو تتصورينها في حياتك»؟!

ـ فأجابت: «السعادة عندي نوعان.. نوع يصيب المرء فجأة، كالحادث، كأصيص زرع يسقط على رأسك من إحدى الشرفات مثلاً، ومن هذا النوع: الحب، والحب لا يسعد إلا إذا كان متبادلاً.. أما النوع

الثاني من السعادة، فمصدره هو نظرة الإنسان إلى الحياة. . أنا ـ مثلاً ـ أقبل على الحياة بحب ولكني لا ألتهم فاكهتها إلا بقدر الاقتصاد، والقناعة هنا حكمة»!!

هذا الرأي تخلت عنه. . ربما تعبت. . ربما شعرت أن الجيد المتلع المشرئب إلى السماء يرتقب، ويتأمل، يكاد أن يتصلب. . فانكفأت زرقة عينيها، ورأت البشر حولها، وخلفها، وأمامها، وقالوا لها: هذه هي الحياة. . فالحوادث التي تقع في هذا الزمن كلها من تدبيرنا. . قد تكون فيها فجائية، ولكنها فجائية يعلم عنها غيرنا. وليست هناك أصص زرع تسقط فجأة. . لا بد أن يداً تقذفها، وتترصد قبل قذفها. . لا بد أن الإصابة أيضاً قد عرف مبلغها، ومداها. . ولم يعد هناك على هذه الأرض من يمشي ويشرئب بعنقه إلى السماء. . الزحام قد اشتد. . والرؤوس تساوت بمقدار ارتفاع السيقان، والساحة لم تزل ملآى، والرؤوس فيها لا تتشابه مع رأس همنجواي، أو سومرست موم، أو فولتير، أو جورج صاند (!!).

إن عبارة أخرى حفظتها، واستظهرتها من رسالة جاءتني من أنثى مجلوة بالحزن. . ناصعة بالإحساس. . جعلتني أتأملها أياماً، وأخبئها شهوراً، وأتذكرها الآن عند الحديث عن السعادة في رأي «ساجان».

تقول العبارة:

ـ «لا أزال أبحث عن السعادة؛ ولا أتمنى أن أجدها. . لأنني لو تملكتها لأهان التملك غموضاً، ولأماتت بوجودها لذة الضياع في البحث عنها»!!

هذه العبارة في رأيي أكثر دسامة من خلخلة الرؤية عند «فرانسواز

ساجان». . وبرغم احتفاظ ساجان بالشهرة العالمية. . لكن المعنى يستقطب اهتمام المتأمل، والباحث. . المشارك في لذة الضياع. . ولا أزكي العبارة هنا بدافع من نفاق عاطفة. . فالفكر لا يمتهنه النبض، ولا تتسلط عليه الأحاسيس إلا في حالة واحدة فقط: حالة التزاوج بين الفكرة، وبين فهمها!!

* * *

إن «فرانسواز ساجان» قد فقدت الكثير مما استخلصته في وحدتها، وفي تأملها، وفي نقدها لعالم الضياع من حولها!!

لقد تأثرت بعد حادث السيارة «الذي اقعدها فترة، وأصيبت فيه بمرض عصبي، حتى أن روائية فرنسية أخرى اسمها «كلير جالوا» وصفتها، فقالت: «كانت تعوي وحيدة ـ بعد الحادث ـ ولا تجد من يشاركها الصراخ. . شعرت كأنها مطرودة من عالم الناس. . تسير في دروب الجنون، وليس في مثل هذه الحالة أي شيء إنساني»!!

وقرأت هذا الوصف، فوقفت عنده طويلاً. .

ربما إننا نظلم بعضنا البعض في أزمات التفوق، والطموح، والمنافسة. . فكلتاهما تكتب الرواية، وتريد المعاني، والتقييم لما تكتبه. . لكني قرأت بعد ذلك أحدث عبارة قالتها «فرانسواز ساجان» عن نفسها بهذا النص:

ـ «بإمكاني أن أكتب غداً ـ قصة عصرية ـ . . أحب الأحمر، والذهب، الوحدة. الأساليب التي تلجأ إليها لكسر الوحدة. نعم. . حكايات الوحدة. . حكايات الحب لن أتعدى حدودها»!

استنبطت ـ هنا ـ قلقاً وافداً إلى نفسيتها. . إلى زرقة عينيها. أصبحت هذه الزرقة كما السماء لحظة دكنتها بالغيوم، فهي تحب الذهب. . تحب الوحدة. . لا. . تلجأ إلى الأساليب التي تكسر الوحدة. . تعود فتحب الوحدة، وحكايات الحب. .

هنا. . عنف العصر الذي ترفضه، وتعيشه طولاً وعرضاً!!

وكان مخاض هذا الإحساس الوافد إليها. . الجديد فيها . . كتبت أحدث رواياتها بعنوان: «قليل من الشمس. . في الماء البارد»!!

هذه التي كانت بدايتها. . بداية نضوجها الذهني والشعوري وقفة طويلة بلا ملل. . تراقب إشراق الشمس. . تغوص في زرقة السماء. . فتتحد زرقة عينيها بزرقة السماء. . وتنسى تعب الجيد المشرئب، وتقوى على كبح الدمعة الحائرة، فتصدها. . تبكي اليوم. . تزرع دربها بالشك. . تقول في روايتها الجديدة:

ـ «من يقاسي الوحدة أكثر من رجل لازم المرح والسعادة واعتنق الشك في كل شيء»!!

لقد كانت تفلسف حزنها فتصفه «بالرجل»، وأنه ملازمة للمرح والسعادة!!

ثم أرخت أهداب عينيها، وتطلعت إلى زرقة البحر ـ في محاولة لمزج جديد ـ لم تقو على رفع راسها طويلاً. . كانت تحب الشمس. . كل رقعتها اللانهائية الممتدة، وأتعبتها المحاولة المضنية، واستقرت آخر الأمر على رأي:

قليل من الشمس ـ قليل فقط منها ـ في الماء البارد، وبهذا المعنى أصبحت حياة ساجان (!!)

إن «فرانسواز ساجان» في روايتها الأخيرة.. في نظرتها الجديدة هي كما وصفها أحد النقاد:

ـ (تعيش حياتها نصف يقظة، ثم تزهد في الدنيا عندما تجد أن الفشل هو نهاية نواياها الطيبة)!!

* * *

العودة للإنسان!

في منتصف ليل نخره التعب . . أسحب خطواتي نحو حدود التخلي!

رأسي يقرع . . كطبل إفريقي الصدى والإيقاع . .

صدري . . واجهة اعتراضاتي، أما رأسي . . فهو اعتراض واجهاتي الإنسانية!

مرة أخرى . . أتثاءب، وأدندن الحزن، كأنه «النغم الضائع» في الفرح الأبله . . في السعادة المعوقة!

أردد الآن: (كلما أمطرت السماء . . ذابت ألوان لوحتي)!

إن الإنسان يغرق في الليلة الأخيرة . . يسقط في الكلمة الأخيرة . . يموت في الأمل الأخير!

إن الإنسان قد تحول في ركضه وطموحاته وقفزاته المجنونة، إلى صورة مضادة لحالة النفس الإنسانية!

إنه القسر، والتناسي لهذا الضجيج الذي يغرق همس الروح في أمواج من صخب المعايشة اليومية . .

فلا بد أن تهفو أرواحنا إلى نجوى الوجدان . . في تصلب العواطف من شراسة ما تتلقاه، وما يسقطها في الاحتداد والانفعال!

فلا الوجدان أصبح في راحة التأمل التي تمنحه الصفاء، ونقاء الخفق، ونظافة الشعور وشجاعة الحق.

ولا الفكر قادر على تجاوز الصدمات والسقطات.. ليرتفع إلى مستوى قضايا الإنسان المعاصرة التي تطحن طموحاته وتفاؤلاته بين رحاها!

من الصعب أن يخرج الإنسان اليوم من زمانه.. تقدماً إلى زمن مؤمل، ومتوهج بالحلم!

ومن الصعب أن يرتد إلى زمن قديم بسيط في تركيبه الاجتماعي، وفي احتياجاته المادية!

ذلك.. لأن الإنسان مرجوم بهذه الانفلاشات النفسية، وبهذه الخلخلة المجلوبة بالتمدد المادي ليشمل هذا التمدد أكثر مواقف الإنسان!

وذلك هو ما جعلني استطرد خلفه.. حتى سكنت عند بضع سطور من كتاب.. خلته وكأنه يقف حائلاً بيني وبين الإنصراف عن أي شيء، وإلى أي شيء!

لكن الانبهار.. يتحول أحياناً إلى سخرية مريرة!

كان عنوان الكتاب، هو: «مالاتستا».. للكاتب المسرحي الفرنسي «هنري دي مونترلان».. ذلك الذي نشر عبارته الشهيرة فوق شفاه المتزاحمين على رؤية مسرحياته آنذاك، فقال:

ـ «إن عدم الاستقرار وعدم الثبات.. هما الحياة نفسها»!

وأرسل من خلال هذه المسرحية دعوته المنادية إلى: «العودة للإنسان»!

وتأملت. . كيف يواصل الإنسان حياته الدرامية، ويوحد بين الحدث والرغبة. . وبين الشجب والاضطرار؟!

إن «مونترلان» يقول: إنني أفزع من الناس الذين تتملكهم الثقة!

بمعنى: أنه لا توجد نسبة كبيرة نعتز بثقتها. . والكثير من البشر يسحقون الثقة بالتوتر، أو بالتكلف، أو بالأكاذيب التي يعتبرونها براعة وذكاء!

إننا ـ إذن ـ نعاني من «مآزق» الضعف ـ العاطفي. . لأننا تثقفنا بعطاء العصر المضطرب!

* * *

حزنك العميم ـ يا أيها الإنسان ـ زاخر ببواعث الهوى، والحنين إلى الأمل، ويفيض بالثقة التي نمارسها بالتقسيط!

رأسك الكبير ـ يا أيها الإنسان ـ بكل الانتصابات التي فيه. . هو كفاءة حياة. . أنت من أجلها تبحث وتضنى. . تعشق وتتبدد!

صدرك الذي يضيق باتساعه ـ يا أيها الإنسان ـ بكل الخفقات الصادرة عنه. . وثيقة إنسانية، لكنها ضائعة في الأحلام اللزجة!

* * *

إن «مونترلان» يصور المأساة الإنسانية، ويفضح الصراع مع عالم مضطرب: «حينما تكون مأساة حب الإنسان للفكرة التي يكونها عن نفسه، وعن عصره. . رغبة في فرضها على الآخرين»!

فكيف نفرض أفكارنا على الآخرين؟!

نحتاج ـ إذن ـ إلى امتلاك الثقة.. ولكننا نبددها في أولى لحظات الانتصار، ونهينها في أولى لحظات الهزيمة!

لذلك.. فقد توجب على الإنسان أن لا يستقر.. وإنما هو ينهي في كل ليلة استقراراً مؤقتاً.. وكل ليلة؛ هي الليلة الأخيرة؛ أو الكلمة الأخيرة؛ أو الأمل الأخير!

❊ ❊ ❊

خرج من العين المفقودة؟!

الوجود. عين مفقودة!

كانت هذه العبارة.. تبدو كحصاد أخير من حديقة عمره. أو كأنها الزهرة التي غرسها وسقاها وشذبها.. منذ نشر الحزن وشاحه الرمادي على حياته عام ١٩٧٠، عندما خسر جنونه الملهم، أو حبيبته التي أضاءت عمره حباً ووجوداً.. يوم ماتت «إلزا»!

بفقدها ذاك.. تحول الوجود في رؤاه ورؤيته إلى «عين مفقودة»، أو أن «إلزا» كانت هي عين وجوده التي اختطفها الموت منه، وإذا هي في عمره المتبقي من بعدها: «الحاضرة الجامدة» التي تركته في هذه الصورة التي صاغها بشعره:

«تركتني من كل الأبواب..

تركتني في كل الصحاري..

تركتني أيتها الحاضرة الجامدة..

في كل مكان.. تركتني بعينيك..

بالقلب.. بالأحلام؛ كجملة ناقصة»!

ورغم أن «لويس أراجون» صاغ آلاف الجمل المشعة، والمتكاملة،

والعبقرية.. لكن انسحاب هذه الأنثى من الحياة كلها، قد جعل الفرح ثلجاً، والضحكة غيمة، والذكرى ـ وحدها، هي الفردوس الذي يظلل عمره من هجير الوحدة والأسى!

ولم يكن موت «أراجون» شيئاً مفزعاً له، ولا اغتصاباً لحياته من الوجود.. لكنه كان يرتقب هذه اللحظة الفرح منذ اثني عشر عاماً.

كان يتكئ على الحصى البيضاء، ويتطلع إلى السماء الزرقاء، ويرقب موعده القادم مع «إلزا» في فجر يوم الجمعة من نهاية عام ٨٢.. وكانت العصافير في بدء انطلاقاتها، ورذاذ المطر يخترق السحب والأمل، ليبلغ بـ «أراجون» إلى الحلم الأجمل.. نهاية انتظاره للموعد الذي يلتقي فيه بجنونه وبحبه «إلزا»!

إنها نهاية «ديسمبر»: لوحة الخريف التي سقط القلب في ظلالها كورقة جافة.. هي ما تبقى من هذا الشاعر، الروائي، الناقد، الفنان.

وكعادة الأحياء مع المبدعين الذي أعطوا حشاشة قلبهم وخلاصة تجاربهم الإنسانية.. تسابقت الصحف والمجلات تنعي وتؤبن هذا الفقيد، وتسلط أقوى إضاءاتها على أعماله و«عظمته» وإبداعاته!

* * *

ولكن «أراجون» مات سعيداً!

ولعلّه كان يوسع من خطاه التي غادر بها العالم، بعد أن يئس من تحقيق أحلام الإنسان فيه.

وبموته.. فقدت دعوة السلام واحداً من أنصارها ومحاربيها ودعاتها.. فقد كان واحداً من أعداء الحروب وتسلط القوة.. مثلما كان

محارباً، مشاكساً، ومتألقاً، قلقاً، حائراً. . امتزجت في حسه ومداركه أضداد عديدة، جعلت منه ذلك الكاتب الواقعي، وهو في الوقت نفسه يأتي شاعراً رومانسياً يستغرق في البوح والإنشاد. . منغماً اسم «إلزا» الذي يشع في صدره إلهاماً، وراحة، وطفولة.

ومات «أراجون» وبقي التعريف الأكثر التصاقاً به، وهو: مجنون إلزا!!

وقيل عن هذه الأنثى التي استقطبت أجمل سنين عمره: «إنها الأنثى التي دخلت حياته، فبعثت فيه الحلم والروح»!

وهذا العشق الفريد في مجتمع الغرب. . جعل من «أراجون» ذلك الشاعر المتفرد، والمميز عن سائر الرجال الغربيين ـ وفي باريس بالذات ـ وإخلاصه والتصاقه بزوجته «إلزا» كانا بمثابة الظاهرة في مجتمع تغرب كثيراً عن مثل هذا الالتزام في العاطفة لأنثى واحدة. . لا يرى في النساء من تضاهيها أو تقدر على سرقة عواطفه من «إلزا» إليها. . فأطلقوا عليه صفة «المجنون» كما مجنون ليلى، وقالوا:

ـ لقد تأثر أراجون بالشرق. . حتى في العاطفة!

وتأثره بالشرق ثابت من خلال جولاته التي قام بها إلى هذا العالم المختلف عن طبيعة الغرب. وقارن بين «مجموعة شعراء الطربادور في فرنسا أثناء القرون الوسطى وبين الشعراء العرب، وقال: شدتني إلى أشعارهم ما وجدته من قرابة روحية وشبه في المحتوى»!!

ولكن هذه اللمحة التاريخية عن الشاعر الراحل، تبدو «تقريرية». . تتفوق عليها طبيعة النفس، والروح في البناء الإنساني للشاعر، وترتفع بعطائه إلى فلسفة الفن المتاح لتعبير النفس، ولتصوير أعماق هذه النفس

المثقلة بهموم العصر، وبضغوط الماديات، وبتحديات البقاء والوجود!

* * *

لقد كان «أراجون» في فترة من إدراكه ورؤيته.. أديباً يتخبط في شعارات.. ظن أنه بمناصرتها يخوض قضايا المعدمين والفقراء والموجوعين، ثم ما لبث أن اكتشف «عدمية» تلك الشعارات، وسقوطها في اللجاجة والغوغائية، فقال جملته التي كتبها عنواناً لواحد من كتبه: «لا بد أن نعرف الأشياء بمسمياتها»!

ثم هدأت صولاته في مضمار الفكر السياسي.. ليستقر في سؤاله الذي كان يحاوره عن: الوجود، وعن منطق الحياة.. فتحولت فلسفاته الفكرية إلى رؤى من الشعر الناضج، والأعمق.

عاد ذلك الشاعر المفتون بعطاء الشرق.

وكان منطلق عطائه المتبلور.. ينبع من «عيون إلزا»: الأنثى التي حفرت أصداء صوتها كل ضلع من ضلوعه، وسكنت همساتها كل خفقة من خفقات قلبه.. فكأنه هو ذاك المتيم بموعد اللقاء مع الحبيبة التي تركته في شوارع العمر.. يشاهد الناس وهم يصطادون العصافير.. ويحرقون الأشجار، ويسفكون الدماء باسم الحضارة والتاريخ والمستقبل!

وبعد موت «إلزا» فقدت الفراشات ألوانها، واندفعت إلى اللهب المتأجج في العالم لتحترق..

ومع احتراق العصافير والفراشات.. في هذا اللهب المندلع، كان «أراجون» يسترخي في لحظة تأملية، تعتاده ذكريات الحبيبة، وأصداء

معاركه ومشاكساته، وحصيلة من العطاء بالكلمة النافذة إلى سر الوجود؛ وطبيعة النفس الإنسانية.

فكأن ما تبقى من العمر ـ بعد إلزا ـ أصبح هو الفراغ؛ وهو «قبض الريح». . ذلك أن ما فقده كان يشكل في عمره قيمة تلك «العين» التي كان يبصر بها جمال الحياة، ويتأمل عمقها، فيرى إطلالة الصدق الذي يستخدم الصمت بوحاً يفسر معنى الوجود!

إنها تلك «العين» المفقودة. . التي رحلت عنه، وأخذته في أعماقها معها تحت الجفن!

أو كأنه في تأمله الأخير. . كان يرى العالم من حوله، هو هذا الوجود الذي فقد عينيه!!

* * *

العالم على ساقين متناقضين!

أحتاج إلى شجاعة..

شجاعة تدعم تأملاتي، وتتعاطف مع أفكاري، وتغذي نظراتي المنطلقة إلى أعلى.. إلى أبعد من مدار «أبوللو ٨».. إلى مدار الزهرة!

أفكاري.. تقف الآن بين ساقين طويلتين، هزيلتين، متناقضتين!

تأملاتي.. لا تريد أن تعبر هذا الممر.. حتى تأخذ الانطباع الموضوعي.. انطباعنا كبشر من أبناء هذ الجيل.. نحتاج إلى شجاعة مؤكدة عندما نقرر أن نتخطى هذين الساقين، أو الجانبين المتقابلين بلا تكافؤ!

نظراتي.. ترفض دعوة «الرؤية» لمحور الساقين (!).

لقد أضحى ذلك غير مجد. ما دام النقاش يستهدف فقط ـ الساقين ـ لأن الساقين فعلاً هما الموضوع!

وأعذروني..

مثلما بدا احتياجي إلى شجاعة مطلب مرغوب.. أيضاً فقد احتجت إلى هذه المقدمة التي تعكس لكم صورة الساقين، بالوصف ـ بتحديد نقطة الوقوف ـ وبهذا الإصرار الكبير على التناقض!

* * *

أحتاج إلى شجاعة فعلية. . ذلك أن هاتين الساقين تمثلان شطري هذا الجيل الشاب المعاصر. . الذي يملأ مدرجات الجامعات، ويتدفق إلى مراكز الأعمال باندفاع ضئيل، ويضيع في الطرقات، ذات الأضواء الخافتة وذات الظلال، وهو يصرخ تارة، ويئن أخرى، ويعلن قائلاً:

ـ أنا جيل هذا العصر. . أنا الزمن الحاضر!

وأنا ـ هنا ـ أتحدث عن الشباب في العالم كله. . وبالذات في مناطق العالم التي أصابت حظاً كبيراً من الحضارة والتقدم العلمي، وتخلصت من العقدة التي تعوقها عن أفكار الإبداع الإنساني!

إن الأمريكتين، وأوربا عامة. . يمثلون جانباً عظيم الوزن والقيمة من تعبير الإنسان عن رغباته، وحياته عامة، وأولئك الشباب ـ برغم هذه الهزات النفسية التي يتعرض لها، ويخوضها على اعتبار أنها تجربة من الضروري التعرف عليها ـ برغم ذلك فإن إقبالهم على العلم، وعلى الجامعات، وعلى التخصص العالي. . لم تؤثر فيه الهزات النفسية، أو ما أسميه «أثقال» الاقتناع بالحياة ككل. . بأشيائها الرائعة والجميلة، وأشيائها الرديئة والقبيحة!

إن شباب هذا العصر يتمثل في هاتين الساقين الواقفتين. . بكل الطول، وبكل الهزال، وبكل الانفعال، وبكل التناقض!

ـ الساق الأولى: دائمة الحركة والانفعال والاضطراب. . إلى درجة «الرفز!» أحياناً. وهي تمثل الشباب الغاضب جداً. . الرافض دائماً. . المنفعل لأبسط الأحداث والأقوال، وهو الجيل الذي ظهر في بريطانيا، وتشيكوسلوفاكيا، وفرنسا، وألمانيا، والمكسيك وبعض دول أمريكا اللاتينية!

ـ والساق الثانية: تحتاج إلى قوة تسحبها.. تجرها.. تخبط عليها لتخلصها من الخدر، و«التنميل»، لتوقظها وتدفعها أن تخطو لتواكب على الأقل الاستماع إلى صيحات الغضب، وهي تمثل الشباب الضائع، أو ما أسموه «الشباب المنهك».. أنهكته الخيالات، وطواحين الهواء في القرن العشرين!.. أضاعته الأشياء التي يتعاطاها لينسى أفكاراً لم تصل بعد إلى ذهنه، وقد عبرت عن هذه الفئة جماعة «الهيبيز» في أمريكا.. تلك التي ينام أفرادها على قارعة الطريق، ويلبسون عدة ألوان ومزق، ويمشون حفاة، ويتركون شعرهم تعبيراً عن الفوضى والاتساخ!

ومن أبعاد هذا الواقع في عالم اليوم.. كان لا بد أن تشارك الكلمة في التصوير، والتعبير، والحوار!

كان لا بد أن تثبت مرآة.. ليرى كل فريق نفسه، وليستمع إلى نقاش طويل من تصرفاته، وآرائه التي أعتنقها وأصبح يدعو إليها!

بعض المفكرين نظر إلى هذه «البركانية» على فوهة مجتمع الشباب المعاصر على أنها نتيجة حتمية ومتوقعة في عصر القلق والحروب والقتل الذي أصبح مهمة بسيطة وسهلة.. في عصر «تأمل» فيه الشباب قوانين مجتمعهم وأساليبه في استمرارية الحياة وامتهان «التفاعل» الصادق الذي تعطيه النفوس الشابة!

وبعض المفكرين ـ بعد إصغاء وترقب ـ قال: إن أساليب التربية ومفاهيم التعليم ينبغي أن تتغير، وأن تماشي عصراً جديداً وأن تعي جيداً هذا التناقض الفاضح في سلوك الشباب داخل العالم اليوم!

وظهر لكل فريق: مفكرون.. يعبرون عن حالته، ويصفون معناها، ويسبرون الأعماق.. حتى أن بعض أولئك الكتَّاب.. قيل عن ما كتب:

ـ إنها فضيحة للجيل المعاصر. . تخزي!

لكن ذلك لم يجعلهم يحجمون، بل إن بعض النقاد يصفون أدبهم. . بأنه أدب العصر، أو الأدب الجديد!

وقد جاء على قمة كتاب «الجيل الغاضب» في بريطانيا آنذاك. . كاتب شاب اسمه «جون أزبرن». . ذلك الذي أصدر قصصاً وروايات تعكس حالة الجيل الغاضب، وتحمل أفكاره وآلامه، وقام النقاد ـ في البداية ـ بحملة على هذا الكاتب. . لكن يبدو أن حموة غضبه لم تؤثر في مواجهته لهم بالمنطق وبالجدل المسكت!

ثم جاء على قمة كتاب «الجيل المنهك» أو الجيل الضائع. . كاتب أميركي شاب اسمه «جان كرواك»، وقد لاحظ أن نسبة الكتّاب المعبرين عن هذا الجيل الضائع أكبر من نسبة كتاب الجيل الغاضب في بريطانيا، ورغم أنه جيل منهك، ولم يعد يعرف نفسه ومناخه، فإن الكاتب «جان كرواك» أصدر: مجموعة من القصص والأقاصيص، وديوان شعر، وكتابات في الفلسفة، ومختارات من آثاره مسجلة على أسطوانات!

* * *

وبالاستقصاء، والبحث عن أسباب هذا الضياع والإنهاك اللذان أسلم جيل أمريكا المعاصر مقاليده لهما. . فقد قرأت استعراضاً كتبه الدكتور محمود السمرة. . أورد فيه رأي علماء الاجتماع هناك. . فقال:

ـ «دفعت هذه الحالة علماء الاجتماع لدراسة هذه الظاهرة، وانتهى العالم الاجتماعي في كتابه ـ الصفوة الحاكمة ـ إلى أن السبب في هذا كله يعود إلى أن أمريكا خرجت من الحرب العالمية الثانية منتصرة. . لتقع في

قبضة حفنة من رجال المال وكبار العسكريين.

وقد أكد هذه الحقيقة الرئيس أيزنهاور في مذكراته التي نشرها بعد انتهاء مدة رياسته! (C. Wright Mills).

وهناك فريق من الكتّاب الجدد المعاصرين.. اعتبرهم في رأيي في الوسط ـ في منطقة المحور ـ لا ينتمون إلى الساق الغاضبة، ولا يؤيدون الساق المنهكة الضائعة.. ومنطقة المحور هذه قد لا يستطيع الكثير من المتأملين، أو الواقفين، أو المستطلعين أن يرفع نظره إليها ليحدق فيها طويلاً؛ فهي علو.. بمقدار ارتفاع الساقين والتقائهما، وهي ـ على هذا البعد ـ تبدو منطقة غير مرئية كثيراً، وكان يمثل هذه المنطقة أو هذا الفريق الثالث: كولن ويلسون، ويوجين اونيسكو!

وقد يكون القصد: أن هذه المنطقة ـ اللامعقول ـ هي جامع النقيضين، أو منطقة التقاء رأسي الساقين.. برغم أن ممثليها قد لا ينتمون كما قلت إلى أحد فريقي الساقين!

إنها منطقة «اللامعقول» التي تشرف حيناً على انفعالات الغاضبين والصائحين، وتشرف حيناً آخر على المنهكين والمغذين في طريق الضياع!

من هذا الإشراف الفكري، أو «الخواطري» ما عالجه، وصوره كولن ويلسون في روايته «طقوس في الظلام»!

هذه الرواية هي استشراف لدور المرأة في الحياة، وبالتالي هي أيضاً «ربا» في مطالب هذا الرجل التي يريدها من المرأة!

إن بطل رواية طقوس في الظلام يدعى «جيرارد سورم» وقد وصفه أحد النقاد.. فقال عنه:

ـ «إنه نموذج إنسان القرن العشرين. . الذي تعذبه نفسه قبل أن يعذبه غيره. . تعذبه وحدته كما تعذبه معرفة الناس. . عانى من بعد المرأة، وقاسى من لقائها بعدما عرفها»!

والمرأة لم تعد هي مشكلة شباب هذا العصر، لأنها هي أيضاً استطاعت أن تجتاز بعض أدوار الحياة، وأن تتخطى الحواجز في المجتمعات الغربية!

إن من الإمكان أن نقول الآن: إن الرجل أصبح اليوم هو مشكلة المرأة!. . لقد فقدته كلمحة تختلف، وفقدته «كتغيير» في حياتها. . فأصبحت المشكلة اليوم في «التميز» سلوكاً وفكراً، ودوراً في الحياة!

إن «جيرارد سورم» بطل رواية ويلسون: طقوس في ظلام . . أضاعه عذاب النفس ذاك. . فاضطر أن «يجرب» العديد من أدوار الحياة، والعديد من «الممارسة» البشرية حتى تردى في الشذوذ وهو يصيح. . باحثاً عن المرأة!

ولكولين ويلسون رأي استمهلته حتى أهضمه وأفكر فيه، ثم لم أحتمله. . لأنه قال: «الرجل اكتشف الكثير من الحقائق الغامضة. . واكتشف أموراً كثيرة معقدة هداه إليها جهده وذكاؤه، لكن المرأة أقرب من إليه لم يعرفها. . بل ضاعفت من حريته»!

هذا الرأي ليس فيه أي خطل، ولا يحتاج لتصويب جذري. . غير أن مشكلة العصر اليوم لا تنحصر أبداً في المرأة وغموضها. . إنها مثلما تبدو غامضة، فهي أحياناً كقطعة البلور في يد ساحرة. . ترى عبر سطحها كل ما تريد!

إن «برنارد شو» تحدث من زمن بعيد قبل كولن ويلسون عن المرأة. .

وعن مشكلة الإنسان مع الحياة، أو مع التعايش في عصره!.

برنارد شو قال: «إن المرة هي التي صنعت الرجل.. لكي تجعل منه شيئاً أفضل منه ومنها، ولكنها أخطأت حينما جعلت لا هم للرجل سوى إنجاب الأطفال، غير أن الرجل تجاوز بعد ذلك.. فعندما كان وقت فراغه كبيراً ولا عمل له.. صنع الحضارة الإنسانية بدون أن يستشيرها»!

وكاتب إيطاليا الكبير «البرتومورافيا»لم يهتم أحد مثله بالمرأة والكلام عنها وفلسفتها، وفضحها، والانصياع لها.. لكنه في كل قصصه، وفي كل ما كتبه وقرأناه أو قرأنا عنه.. لم يحاول «مورافيا» أن يربط مشكلة العصر بالمرأة.. ذلك إنها ليست هي كل «المشكلة» وإن كانت بعض جوانبها!

إن الوقوف «تحت» ـ بين ساقي هذا الجيل ـ تحتاج فعلاً إلى شجاعة فكر يتأمل بحرص، ومثابرة، وتحتاج إلى دعوة فالحة.. تشد النظرات لترى ما فوقها.. ترى «المحور» حتى لو كان «لا معقول».. لكنه نقطة التقاء، ومكان الأضداد والتناقض!

إن شباب هذ العصر.. لا أعتقد أن كلمة ضياع، أو إنهاك تنطبق عليه بحذافيرها، وبهذا الجور في الحكم.. ورغم أن «جان كرواك» نفسه ـ قال: «أنا من جيل الضياع». لكن النظرة الفاحصة للأسباب الجوهرية التي تمخض عنها هذا الواقع للشباب.. هي أن يستخرج من دقتها الوصف الذي ينطبق على هؤلاء!

أما الشباب الغاضب.. فليس أكثر من «فترة» انتقال تمر بها أوروبا كلها بعد أن سئمت طيلة هذا الردح من الزمن الأساليب القديمة في «التفكير»!

ولا يمكن أن يكون هذا يعني «العطف» على أسلوب هذا الجيل المتناقض. . بقدر ما يعني محاولة لتبصُّر الأسباب. . فالحضارات تأكل كثيراً، وتحصد أكثر. . لكنها تنبت جديداً على أرض جديدة!

* * *

شهادة ميلاد ضائعة!!

من أين تبدأ خطوة الفهم..

ومتى يصل إلى الخطوة وعي الإنسان؟!

مناورة صعبة بين ذهن المرء، وبين معايشته.. والزمن صالح للمشاهدة، بينما صلاحية «الفعل» فيه تخضع في بعض الأحيان للأحلام!

«نوع من التمني العاجز.. الذي يقف قبل حدود الفعل»!

والأحلام ـ رغم اقتحام الماديات ـ ما زالت تتواصل، وتفترش وجدان المتعبين، الباحثين عن عبارة تطفئ في أعماقهم حرائق الإرهاق النفسي!

كل شيء له معنى.. بلا شك!

وكل المعاني أضحت عاجزة عن تفسير بعض الأشياء التي تحولت في حياة الناس إلى قاعدة سلوك، أو قاعدة مطامح، أو قاعدة فهم، أو قاعدة شعور!

فأين تستقر النقطة الضئيلة، لتعطي المعنى في كلمة؟!

إلى أين يا كلماتنا التي تزاحمت على شفاهنا، وفي حلوقنا، وعبر نظراتنا؟!

إلى النقاط.. وإلى اللغة الناطقة تحت جلد الأشياء المرفوضة!

هنا التراجيديا الباحثة عن ضياء الحقيقة في تبادل الأسماء والنعوت، وأحياناً: الملامح!

لن تتضح نقاط الكلمات التي تتدفق كأنهر فوق صفحات الجرائد اليومية، والكتب المكدسة. . لأنها تتآكل بفعل زيف المعاني!

ولعلّني واحد ممن يكتبون في انتظار أن يقولوا عبارة جيدة، وذات معنى أعمق، وخالية من الإجهاد وحافلة بالتفهم لها من الآخرين . . ذلك أن الاتـهام الذي أضحى شائعاً: إن العبارة أصبحت غامضة وضبابية، ومحشورة بالمعاني المغلقة!

ولا زالـت الأحـلام باقية، ومفترشة. . والناس كما أبطال مسرحية «الخدعة» التي كتبها المسرحي العالمي «آرتور اداموف» . . وقال فيها:

ـ «إنـهم يتبادلون السؤال عن الزمن. السائل لا ينتظر الإجابة، والمسؤول لا يعرفها. . وحركة الزمن متجسدة في الضيق التدريجي للأمكنة»!

لقد تحول كاتب هذا العصر إلى: متفرد!

إنه متهم بالكتابة لنفسه، وبالغموض. . ومتهم بالسلبية ضد الوضوح وبالانغمار في كثافة الأشجان! متهم ـ أيضاً ـ بالإرهاق النفسي. . فلم يعد قادراً على تحريك الوضوح، وتناوله لخدمة بساطة الإنسان، التواق إلى المعرفة المشاعة. . المعرفة الماخوذة، قبل أن تكون آخذة!

والكاتب في نظر القارئ البسيط، والقارئ المتحفز لتلقي المعرفة. . ينبغي أن تكون مهمته كما وصفها أحد الكتاب: «أن يحك كل الجلد الميت والمتآكل. . حتى يبدو الإنسان متألقاً في عريه الكامل»!!

وجلست أتأمل هذه الإرهاصات..

بدت في رؤايَ كأنها مشهد من مسرحية يصعب تكرار عرضها!

وعندما مات المفكر والمسرحي «آرتور أداموف» في فرنسا.. شيعوه بضجة جديرة بالعظماء، لكنهم وظفوا الكلمة دثاراً من الشتائم له ومن اللوم.. لأنه عانى الكثير من التذبذب بين «العبث والالتزام»!

إن «آرتور» نشر في عام ١٩٤٥ مذكراته ـ بعد اعترافات جان جاك روسو المشهورة بزمن طويل ـ غير أنه أصبح بعيداً عن تقبل القارئ، وفي ذات الوقت كان يمتلك أحاسيس هذا القارئ .. ذلك لأن المشكلة تكمن في الحيرة بين التقبل والرفض.. بين واجهة السلوك، وحقيقة الشعور!

وفي تلك الاعترافات التي كنت أقرأ فصولاً منها قبل عدة ليالٍ: «عبر آرتور عن إحساس قاهر بالاغتراب.. منفصم عن شيء كلي لا يعرفه، ولكنه يحسه.. لا مهرب إلا في الكتابة، ولا خلاص إلا في الأحلام.. لتبقى الأحلام فقط دعوة متجددة إلى الارتباط بالحياة»!

مناورة هي إذن.. يتعذب فيها الذهن، وتتموه المعايشة!

ولقد أراد هذا الكاتب أن يئد تلك المناورة في عمل مسرحي ناجح.. أستخلصه بعد انطباع عميق كسبه من مشهد حقيقي.. وصفه هكذا:

ـ «رأيت متسولاً ضريراً يعبر الطريق، وفتاتين جميلتين تمران من أمامه وهماً تردان مقطعاً من أغنية ذائعة، تقول كلماتها: حين أغمضت عيني، بدا لي العالم رائعاً»!

فهذه الصورة حافلة بالمعايشة. . غنية بالإحساس، فكيف تتآكل من فوق حروفها النقاط؟!

البعض من الناس يفعل، وينكر دائماً. . لأن «الخدعة» في يوم الإنسان اضطرته أن يعتبرها نوعاً من «السيكلوجية الخفية»!

إن كل ما هو زائف. . هو تجريد للارتطامات التي حدثت من قبل في ذات الإنسان.

وخلصت من قراءة تلك الفصول، ومن قراءة بعض ما كتب عن فكر ومعاني وأسلوب هذا الكاتب المسرحي الذي رحل قبل أكثر من عشر سنوات، والذي تحول من قوقازي إلى باريسي. . ورغم ذلك فقد كان شعوره بالاغتراب لا يحد. . وكانت الكلمات الحيارى في ضميره قد أضاعت شهادة ميلادها، وفقدت جواز سفرها إلى التعبير والحقيقة. . أثناء رحلتها في ذهن كل من قرأ لهذا المسرحي وحاول أن يفهمه!

ورجعت بعد هذا إلى رأي قديم للأديب «علي أدهم» نشره منذ سنوات في مجلة «العربي». . استعرض فيه ما قيل من آراء وحوار حول الوضوح والغموض في الأديب وأعماله، وارتكز على آراء مختلفة ومتناقضة، لكي يستخلص في النهاية «اقتناعاً» يريحه ويريح القارئ القلق المتسائل دوماً: هل هذا غموض. . أم فن؟!

ولكنه هو الآخر لم يصل إلى نتيجة!. . أو لعلّه لم يرد قفل الباب نهائياً، لأن الحوار كما الكلمات المتقاطعة!

ووجدت في إثره عبارة للناقد البريطاني «إيفور براون» قال فيها:

ـ «إن الشائع في هذه الأيام ـ في عالم الأدب ـ هو أن لا تعرف ماذا

تعني، فإذا تحداك إنسان فما عليك إلا أن تهز كتفك غير حافل وتقول: إنك تكتب ما تكتب وعلى القارئ أن يتبين المعنى، وأن ما يبديه الكاتب من الملحوظات يحمل الكثير من المعاني، والقارئ يقوم مقام القابلة التي تستولد هذه المعاني وليس من عمل المفكر والأديب أن يجعلا كلامهما واضحاً ومفهوماً»!

وحتى هذه العبارة للناقد البريطاني، في غمرة الارتكاسات الفكرية، تبدو دفاعاً من وجهة نظر القارئ.. لا يحمله على الاقتناع؛ فالقارئ يقول: ليس عندي الوقت لأسبر أغوار كل كاتب وأفتش سطوره بطريقة متتبع الأثر، فمن المريح لي أن أحل الكلمات المتقاطعة بدلاً من هذا الإرهاق الذهني!

غير أنه في الجانب الآخر الذي يقف فيه الكاتب.. تتمثل رؤية جديرة بالوقوف والالتفات، وهي: أن الكاتب يعاني وفي الوقت نفسه مطلوب منه أن يعالج وأن يطرد المعاناة من نفسيته ونفوس الناس، وهذا يقحمه لتحدي الخدعة في يوم الإنسان.. تلك الخدعة التي اضطرته أن يعتبرها نوعاً من «السيكلوجية الخفية»!

ذلك ما تناوله وأحتفل به «الرافعي» في كتابه «السحاب الأحمر» وذلك ما عاناه وحاول تفتيته «السياب» وهو يصوغ بعض قصائده وأكثرها، وذلك ما واجهه بجرأة.. الشاعر «ت. س. إليوت» عندما قال:

ـ «ليس هناك ما يوجب على الفنان أن يكون واضحاً.. فإن شأنه أن يبرز أفكاره ومشاعره وتخيلاته.. وعلى جمهور القراء أن يبذل جهده ويكد ذهنه في استبانة معانيه واستيضاح أهدافه»!

ولكن هذه العبارة لا تقدم ـ بالضرورة ـ تبريراً للذين يزاولون رصف

الكلمات الغامضة بدون خلفية لمعنى يقوم بين السطور، ولا للذين يمارسون الكلمة مضاجعة بالإكراه، ولا للذين يصبغون قوس قزح كله باللون الأسود ليثبتوا أن الحياة جريمة، وأن الأحياء أشرار!!

فما أروع الكلمات إذن. . لكن هناك شفاه لا تحسن التقبيل . . وهناك أقلام لم تمتلئ بالحبر، بل بالصديد!

وما زالت النقطة الضئيلة جداً. . هي النطق لكثير من الحروف العديدة!!

* * *

البحث عن قضية!!

أبحث عن «قضية» تستقطب أوجاع، وأوهام، وانخذال، وتعثر إنسان هذا العصر!

أبحث.. فمن يدل هذا الإنسان، المطحون بين رحى الحروب الصغيرة، والاعتداءات التعسفية، والمد التبعي.. هذا الذي يركز على سطحية المجتمع العربي، ويعمل هدماً في أعماق نفسية الإنسان، وفي جذور التراث واللغة؟!

إنه هذا المد الخطير.. الذي يستخدم الانبهار اللفظي، ويتسلل عبر تسليات عاطفية.. تسدد إلى ضمير الإنسان وإيمانه وملامح انتمائه!

إن الفكر العربي.. يتخبط الآن في تموجات غريبة ومتمردة.. أو سافلة ومتقاعسة!!

لكن التمرد انفعال.. لا يدل على قضية، ولا يعكس فكرة أو رؤية..

لكن السفالة بالكلمة، والتقاعس في الفكرة.. لا يصنعان إلا مجتمعاً متخبطاً، متباغضاً، متنازعاً.. بمعنى إن المرء يحارب نفسه!

إن التمرد يبدو ذاتياً، أو نفسياً، وليس فكرياً؛ ولو من واقع رؤية وهدف واضح.. وهو يفترش نفسية الكاتب العربي والمفكر والفنان؛ بقدر

مساحته التي يحتلها من القلق؛ ومن فقدان الثقة في ربط النظرة المتفائلة بالمعايشة الباهتة!

حتى معاناة الفكر.. أضحت خافتة، مليئة بالشرح.. لكنها منعدمة التأثير والفعالية والقدرة على التواصل!

وربما كانت «الرواية» أو القصة.. هي التي تمثل الصمود أمام هذا السقم، وهذه الأزمات التي تحدث في الذهنية العربية، حتى حولتها إلى ما يشبه «فاتورة» تخضع الآن لحساب وتدقيق آلة حاسبة!

وعندما كنت أفكر: كيف يخلص المفكر والكاتب إلى موقف يحدد به خطوته، ويعالج هذا الفراغ، أو هذا «التفريغ» لقضية عصره.. توقفت عند «شرح» أسهب فيه أحد المنظرين.. ممن تخبطوا فكرياً، وصهلوا بعض الوقت، وتمزقوا.. ثم ضاعوا، وما زال يتحدث عن مسار جديد للقضية العربية، وعن تناول مغاير للمخاطبة الثقافية.. التي ينبغي بالضرورة أن تتحول إلى رأي عام، وتبلغ فهم وإدراك سواد الناس، والتاثير فيهم!

وقد قال ذلك الكاتب «الشاعر» قولاً طويل الشرح.. لمست فيه ترمد التحدي، وإن جاءت محاولته منصبة على إيجاد تعبير أخاذ، يستلهم قضية الإنسان اليوم!

* * *

حينئذ تساءلت: ما هي القضية.. بالنسبة للإنسان العربي والمسلم، وبالنسبة للإنسان الحضاري الذي تكثفت الصراعات في داخله، وبالنسبة للموجه بالكتابة وبالرأي؟!

هل القضية.. هي الأرض!!

هل القضية.. هي العقيدة، والزيغ الفكري؟!

هل القضية.. هي الضعف من داخل الإنسان؟!

هل القضية.. هي التفكك والمحاور السياسية؟!

هل القضية.. هي طعن المبادئ والفضائح الأخلاقية، واضطراب الضمائر؟!

إن العالم كله.. تحزمه وحدة الاحتياج إلى الغذاء الصحي، وإلى الرأي الصحي أيضاً، وتحزمه وحدة الالتزم بالتماسك الاجتماعي في مطالب الرفاهية، والالتزام بالمحافظة على القواعد الحضارية في مسيرة منجزات العلم!

كذلك.. إن العالم كله تخلخله أطماع القوة العسكرية والنووية.. ففي كل بقعة من العالم، يوجد ما يربط كثيراً من أشيائها بأشياء بقعة أخرى.. والإنسان لا يتجزأ كعصر وكأدوات يستخدمها، وكتعاون على صعيد الخبرات والمؤهلات والأدوات الحضارية التي يبغى من ورائها تحسين الواقع الحضاري المطلوب!

* * *

وإذا كان الفلاسفة القدامى، قد أمسكوا بإذن الإنسان في ذلك الوقت ليعي من خلال ما يسمع ويتلقى، وشدوها حتى الأحمرار للانتباه إلى الأخطاء الفكرية وإلى الاضطراب الوجداني.. فإن إنسان اليوم يفتقر إلى فلسفة واضحة، أو إلى من يشد أذنه لتبصيره بأخطاء أفدح.. رغم تفاهتها وسقوطها، ولكنها تعني أخطاء السلوك، وأخطاء الوجدان المضطرب،

وأخطاء النفس القلقة. . وانعدام الشعور النقي، الذي يمتلك المقدرة للعودة إلى الطبيعة الإنسانية!

ويتضخم هذا كله حتى الهلع. . لأن الأرض تنتهك وتسلب. . ولأن الإنسان يتعذب في سجون ومطاردات الاستعماريين والغزاة. . ولأن العقيدة تواجه جولة جديدة من أرباب الصليبية بأيدي عملاء لها، وبتخريب من الضائعين والمتخبطين في قلق روحي بالغ التشوه.

ولأن القيم ذاتها. . أصبحت معرضة للمتظاهرين فوق الأرصفة، ممن يسوقهم الخداع، وتضخيم المعاناة إلى أبعد من تصور التغلب عليه. فلا بد أن تحدث البراكين من داخل النفس ويحترق العقل وتتضخم العواطف!!

ولقد كان المجتمع الصناعي في مقدمة المجتمعات التي أكلتها نيران هذا الاضطراب الخلقي والنفسي، وهذا التفكك الأسري. . ثم امتدت ألسنة اللهب حتى أتت على حوافز الإنسان النبيلة ذات الهدف والقيم!

حتى المفكر والكاتب. . لم ينجحا في الابتعاد عن هذا «السوق» حتى لأفكارهما ولتطلعاتهما، والكتب التي تصدر في العالم لا تدل على عمق قضية الإنسان، والكتب التي صدرت في العالم العربي ـ كظاهرة ـ كانت مثل نشر الغسيل القذر. . مذكرات عن فترات سياسية، في الغالب لا يستطيع صناعها أن يجيبوا!

وهذه الكتب «تشرح» فقط كيفية المعاناة، ومراحل السقوط بدون حلول، وحتى بدون قدرة على التأثير!

وهناك عوامل أخرى غير مباشرة. . تنميها الصهيونية والشيوعية

والاستعمار وتجار السلاح.. للقضاء على يقين الإنسان واستقراره المؤقت.. فشوهت الكثير من القيم، واعتدت على الفلسفات وعلى الرؤية الصحيحة.. لأن الإنسان يسقط في ممارسة الاحتياجات اليومية والمصلحية!

ولا يمكن أن ننفي وجود «قضية إنسانية».. ولكننا نشك في إيجاد وعي لنصرتها، وفي تواجد إخلاص لتحقيق الحلول للقضاء على الامتهانات الموجهة إلى هذه القضية!

إنه يوجد وعي «احتياجي».. لكنه لا يتخطى المعاناة المجزأة والعاجز.. أيضاً..

فالإنسان يشكو ولكنه عاجز..

والإنسان متعب ولكنه لا يقدر على توفير الراحة.

والإنسان محتاج ولكنه لا يتنازل عن احتياجه الذاتي!

ولقد فشل الإنسان أن يبدع خطوة جديدة تفك قيوده المصنوعة من مطالبه وضعفه ونزواته، وبلادته التي تعوَّد عليها!!

* * *

الفصل الثاني

الميلاد . . والرحيل . .

الحكيم . . بين الأحلام والأوهام!

الوقفة موحية، وجذلة الأصداء، وغنية المعاني . .

البحر يتأمل صامتاً خفر الشمس الحزين . . أمواجه في لحظة الوداع هذه ساكنة مغضية . .

والشمس تغرب، وتتوارى، والكون يتلفع بغلالة رمادية غزلها الصمت، ونسجها الانتظار!!

في هذا التاريخ القريب ـ البعيد . .

في أحضان هذه اللوحة الناطقة . . في مثل هذا الوقت من كل صيف مع إيذان الشمس بالأفول . . بجانب هذا السياج المطل على البحر، وفي كل عام . . يتكئ كف يده اليمنى على عصاته الشهيرة، والفصيحة، والوفية . . وملء خطواته حيوية، وبحث عن خاطرة، وتأمل مستطرد، وقلق يتساءل، ويرفض، ويحتج، ويصر، وعبارة منقوعة في وسط أحد مؤلفاته الكثيرة تقول:

ـ (. . إنها دائماً حالة القلق، والبحث، والتنقيب!!)

هذا الإنسان: كاتب، فنان . . يتوخى التجديد . . يفتش عن الصورة الجديدة، والأسلوب المعبر، والحوار المستكنه من صميم البيئة . .

اشتهر بأسلوبه السهل العميق. . المغري. . الجاذب. . وبروعة الحوار الذي يسلسله في مسرحياته، أو في «رواياته» التي يتناولها القارئ، وتغذيه روحياً، وفكرياً، ولا تسبب له التخمة، أو القرف!

وعرفت معه «عصاته» التي خلدها في كتاب له. . جعل عنوانه: «عصا الحكيم»، ولازمها بوفاء. . وشهدت أمتع لحظاته وهو محلق بالفكرة، وفي صوره الفنية، وشهدت معاناته، وساعات حزنه، ومخاض مشاعره، وتدفقها على الورق!

وفي كل تجواله في الحياة. . كان يعمل على إضاءة الجوانب المعتمة. . كانت مهمته واجباً يلح عليه أن يعطي الضوء، وأن يملأ ذهن القارئ العربي بأمتع الصور الحسية. . بارع في صياغة الحوار عندما يبني أحداث مسرحياته، ويتملكه الإرهاق غير أن دفق الفن في شرابينه وفي وجدانه، يشحذه بقبس جديد من ضوء الكلمة. . وتنساب عبارته الثانية القائلة:

ـ (إني بطبيعتي أحب الضوء، وأكره الغموض. . وإني لأقوم أحياناً بمحاولات يائسة كي أغمر في النور أفكاراً أو موضوعات طبيعتها الغموض)!!

إنه يصنع عبارته هذه، ويردفها بما يكملها، ويبلور معناها فيقول:

ـ (إن من واجب الكاتب عندما يفتح عيناً على الماضي الغائر، والحاضر المستقر أن يفتح العين الأخرى على المستقبل الآخذ في التكوّن عند الأفق)!

* * *

ـ اتكأت يده اليمنى على عصاه، ودفع بخطواته إلى شاطئ البحر، ووقف صامتاً صامتاً.. يتأمل الغروب، يقف مبهوراً.. مذاباً.. منتشياً، فالوقفة موحية، وجذلة الأصداء، وغنية المعاني..

في كل عام ـ كهذا الوقت ـ تجده هارباً من ضجة المدينة.. من زحام المدينة.. من تصادم البشر، واختلاط الآراء والأفكار.. يهرب إلى حيث الهدوء، والصمت، والإيحاء.. ليجلس بعد دقائق مريحة، ويمسك الورق والقلم، ويكتب مسرحية جديدة ـ مأخوذة بأشياء الناس.. آخذة بإعجابهم وإطرائهم بعد ذلك!

وكان مما أبدعه.. حصيلة غروب شمس صيف ـ «مسرواية» إسمها ـ بنك القلق ـ.. كان يصور فيها الزمن المعاش، والناس، والحقيقة العلمية، ووقفات الإنسانية بعد لهاث عاصف، ويرسم الملامح الواضحة للقلق الذي استلب من الناس صفاءهم، وعفويتهم، وعبث بـ «زهرة العمر»!!

هذا هو أمامي تخيلاً: توفيق الحكيم!!

هذا هو تصوراً: عصفور من الشرق.

العصفور الذي حمل معه شبابه في ازدهاره، ورحل إلى باريس طلباً للعلم ونهل من الثقافة، ودفعه نبضه، ورقته إلى «غادة كاميليا» عصرية.. أعطته حباً جارفاً، وأخذت منه حساً مرهفاً، وشعوراً لا يخون، ودعته يعود بعد ذلك بذكريات ندية، وبآهة شاردة.. ضاعت معها الروح زمناً.. كتب فيه: أهل الكهف، وشهرزاد. ويوميات نائب في الأرياف، ثم كمن عثر على غال ـ أبصر إلهامه يعطيه إبداعاً جديداً فكتب أدسم رواياته «عودة الروح»!

وبعد هذه الرواية. . فكر أن يناقش مدى تيقنه من عودة الروح. . كان مضطرباً، وحائراً. . وفي ذات الوقت كان يتفاءل يخفق لم يعهده، وتراءى له خيط من الإمتاع. .

هل آن لهذا العصفور التائه أن يستقر!. .

وكانت التجربة مريرة، وقاسية. . تمخضت بعد ذلك عن عمل أدبي فني رائع. . في روايته: «الرباط المقدس»! كان قد وصل إلى منطقة وقور، وصريحة، ومليئة بالضوء الذي يغمر فيه دائماً كل الغموض، والمبهم، وكل ما يحيره. . وبكل هدوء، وإيمان قال:

ـ (نحن مثل العناكب. . تفرز خيوطاً تسير عليها كلما أرادت السعي في الحياة. . خيوطنا نحن التي نفرزها ونسير عليها في حياتنا هي: المنطق المنظم، والتسلسل المرتب للزمان والمكان).

وهكذا شمخ «توفيق الحكيم». . وأسهم في حركة التجديد في أدب الرواية والمسرحية العربية!

الفرق بين توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ شاسع. .

واتفاق النقاد، والقراء على أن توفيق ونجيب قمتان صنعا للرواية والمسرحية الكثير. . رأي لا يحتمل الجدل. .

والفرق الشاسع بينهما. . أن «توفيق» كان مبتكراً، وكان صانعاً لشيء لم يكن له وجود قبله. . أما نجيب فإبداعه ينحصر في دقة التقاطه وتصويره للبيئة، وللحياة الشعبية، وكتابة تاريخ فترة انتقال اجتماعية. . جعل النقد يلعب دوره بفن مع حركة الرسم للقسمات!

وكلاهما قمة. . لأن توفيق الحكيم. . اتفقوا على أنه الأب الشرعي

للمسرحية العربية، وأنه صانعها، ولأن نجيب محفوظ ترسم مبدأ الحكيم، ثم بلوره، واشتق درباً متفرداً اسمه الرواية الخالصة.. في إطار التعريف الذي وضعه قبل توفيق الحكيم، والقائل:

ـ (معنى التجديد.. ليس الإلغاء، وإنماء الإضافة، التجديد ليس الانفصال.. إنه تجديد الأوراق والزهور في شجرة غائرة الجذور)!!

* * *

وأقبل صيف هذا العام.. ولم يكن ذا شبه بالأعوام التي سبقت..

في هذا الصيف.. لم يقف توفيق الحكيم بجانب السياج المطل على البحر، وإنما اتخذ له مقعداً هناك، واحتضن عصاه الحبيبة، وأراح ذقنه على رأسها المعكوف، وأرسل بصره إلى قرص الشمس المخضب بالحمرة.. الملوح بالوداع، وجالت عيناه في مياه البحر الأزرق الداكن، وقد جلله السكون، والهيبة، وقال توفيق الحكيم بعد لحظات:

ـ ها قد شارفت على السبعين.. لم تعد «وقفة» موحية.. أضحت جلسة قانعة.. لكنها لم تتنازل عن الانتظار، فنحن ننتظر حتى قبل أن نشهد لحظة انطفاء شمعة العمر!!

سنوات طويلة من الفكر، والتأمل، والحب، والانتظار، والأعمال الجيدة، وشعر أبيض كله، ووجه تغضن، حفرته الأعوام.. والأمواج أمامه تنساب في دعة.. هدأت ثورتها.. خبا انفعالها.. لكنها لم تتوقف.. إنها تتحرك، وتسري!

وبجانب السياج المطل على البحر يتراخى «توفيق الحكيم».. يستمتع بنسمات المساء الوافدة وفي ذاكرته أبهج الصور، وبين اضلعه أمتع

اللحظات، وفي رؤاه عمر حافل غني. . تؤطره فلسفة الحب والسلام، وإهداء الناس ما استوحاه، وتعلمه، وأرغده فنمى في أعماقه رهافة الفنان، وحسن المفكر. .

توفيق الحكيم استقبل السبعين. . كموجة استقرت في وسط البحر، ولم تصل إلى الشاطئ لئلا ترتطم وتتكسر عليه. .

وفي لحظة غروب. . في صيف عام. . قال لصحفي سأله عن إحساسه تلك اللحظة:

ـ أنا يا ابني حياة فيكم. . أنتم يا فرحتي المتجددة حياة لعمري الذي رأيته اليوم يستقر عند السبعين!!

وامتلأ صدري بمثل آهته الشاردة تلك. . يوم كان عصفوراً هرب من الشرق إلى باريس، وعاد ليضيع، وليتواجد، وليكتب «عودة الروح»!. .

وامتلأ صدري، وأنا أبصر فناناً أعطى جيله كل إبداعه، وموهبته، وأهدى الجيل الجديد كل أفكاره، وتجاربه، وحبه، وعمره الحافل. .

وبهذا الامتلاء. . تخايلت في ذاكرتي صورة الفيلسوف اليوناني «هرقليطس» الذي عاش في جزيرة صغيرة «شهدت مولد مرحلة جديدة من مراحل تطوير الفكر الإنساني». . اسمها ـ أيونيا ـ ذلك الفيلسوف الذي قال عن نفسه هذه العبارة الشهيرة:

ـ (إنني أشبه العرافة التي تصدر في كلامها عن إحساس وإلهام، وترن في صوتها أصداء لحقائق سامية على مر العصور)!!

والوقفة ـ هنا ـ موحية، وجذلة الأصداء، وغنية المعاني. .

إنها وقفة.. تكون بعدها عودة الروح.. لأن الروح تبقى دائماً حياة في الحياة!!

إنها وقفة.. حتى ولو كانت على رصيف الصهد:

* * *

وعندما أحببت توفيق الحكم.. كانت بداية ذلك الحب روايته الوفية «الرباط المقدس». وعندما أشفقت على توفيق الحكيم كانت بداية تلك النهاية كتابه: عودة الوعي!

لكنني لا أستطيع هنا ـ في كلمات متشابهة، ومساحة مرهونة ـ أن ألغي عطاء توفيق الحكيم، وتأثرنا به. فقد استطاع طوال أكثر من ثلاثين عاماً أن يرفع عصاه «ويؤدب» أذهاننا، ويوسع من ضحكته ويشذب عواطفنا، ويرخي أهدابه ويدعنا نتساءل على مدى سنين عديدة!

توفيق الحكيم رائد المسرحية العربية بلا جدال!!

ومبتدع «المسرواية» بإبداع وتفوق..

و «مهدهد» الوعي في عقولنا.. حتى بلغ إلى اللاوعي!!

ولن نستطيع أن ننتقص منه، ولكننا ننتقده وهو معلمنا، وهو مبتدع الصمت، ومفلسف البوح، وناظم ملحمة اسمها: الاستفادة من القلق!!

ولا أظن أن توفيق الحكيم في روايته. أو في «مسرواية» التي أصدرها بعنوان: «بنك القلق» قد خذل مفاهيم الجيل الجديد، ولكنه توقف بعد تلك الرواية بنا عند محطة.. لها دلالة البحث عن الوعي الجديد!!

وأحاول الآن أن أحصر عباراتي لئلا تتحول هجوماً عليه.. لا أستطيع

ذلك، ولا أطيقه أيضاً. فقد أغنى مشاعرنا يوماً ما. وقد أثرى ذهننا في مرحلة ما. وقد امتلك وفاءنا دوماً!!

لكنني لا بد أن أفلسفه. . حينما لا أستطيع أن أتقبل منه!!

ولا بد أن أغار على «عمر» إبداع. . من شيخوخة الإبداع!!

إن توفيق الحكيم ـ فناناً، وأستاذاً، وشاهداً في محكمة الوجدان، وومضة في حكمة المعاني ـ من الصعب أن يسجن في ماضيه، أو أن تقيده سنوات عمره الماضي، لذلك نغار على إبداعه، ونشهد ضده من أجل براءة فكره، ونقاء مشاعره!!

ومن الممكن أن نتوقف عند نتيجة فنقول: هذا الفنان قد شاخ. .

لكن. . كيف يضيع عطاؤه طوال عمره الأدبي. . كيف يصبح مرحلة؟!

إن «الحكيم» يملأ دلواً ويفرغه، ويملأه مما أفرغه. . وليس لديه الآن غير ذلك. مع أننا كجيل تربى ونهل من فنه وأدبه. . نحتفظ «للحكيم» بقيمة هذه الأبوة، وبعالية تلك الأستاذية فيه لنا. . ولأننا نحبه، ويغمرنا حنانه، كلما استعدنا روائعه. . نتمنى أن يرتاح. . ويبقى شاخصاً في اللامدى. . يرهف سمعه لأصداء ما بناه، ويغمض عينيه سعيداً بضوضائنا!!

لقد دلنا بكلام جيد عن «الوعي». . وليس قدره أن يدافع عن الوعي. . بعد أن صنعه في جيل كامل، وإنما قدره أن يرتاح الآن!!

* * *

نأتي بعد ذلك إلى هذا السؤال المسبب.. والإجابة على خير ما يرام!

السؤال هو: كم عدد «الكتب» الجديدة التي تصدر كل شهر من داخل الدول العربية التي كانت مصدر إشعاع فكري، وملتقى مدارس أدبية حديثة، ومنابر للرأي وللإبداع، ومنتجعاً لحرية الرأي؟!

الإجابة هي: أن العدد في المليون، وأصبحت الكتب، والمواهب يخضعان للنظام السياسي الذي أحال الأديب والمفكر في تلك الدول إلى عجينة من صلصال يشكلها حسب أيديولوجيته وعلى الأقل حسب أهوائه.. ولا تملك المطابع هناك إلا أن تطبع هذه الإجابة: على خير ما يرام!

ولكن حرية الرأي، وحرية الفكر، وحرية الأديب في الدول التي كانت يوماً ما هي المصدر للكتب، وهي خلية النحل للطباعة وللترجمة وللتأليف وللحوار.. قد استحالت تلك الحريات إلى تروس في عجلة أنظمة الحكم تلك، التي اعتسفت الإبداع، ووجهت الرأي، وألقت القبض على الحرية!

وبهذه الحصيلة.. ساد العالم العربي ضباب، وغاز مخدر.. وانشغل الأديب والكاتب بالوظائف السياسية التي يوضع فيها، وأن انشغاله قد كان بسبب نفيه عن دائرة النطق والتعبير!

وبهذه الحصيلة أيضاً.. تمدد «العقل» العربي في الخوف تارة، وتبدد في الغرابة تارة أخرى.. فكانت هجرة الأقلام «ظاهرة» غير صحية.. تركت السطوع من وهج الكلمة، لتحترق في لهب الحروب الكلامية، الإعلامية!

وبهذه الحصيلة ـ ثالثاً ـ أصيب «العقل» العربي بشروخ وتصدعات.. لامست المنطق، ثم تسللت إلى العقيدة، وبالتالي زرعت القلق والزيغ في بعض تلك العقول التي كانت منارات للفكر وللأدب العربي.. فوقفنا نشاهد، بل ونتفرج على جرائم القلق والزيغ التي أعملت تهديمها في بعض عقول أصحاب الفكر والفكرة، فسقط ذلك البعض مفتولاً من الداخل.. وكان آخر من سقط في تنكره للأرومة، وفي زيغ العقل.. الكاتب الذي أصدر مسرحيات وروايات وقصصاً عظيمة: «توفيق الحكيم»!

وحتى هذا السقوط.. لا يريد المواطن العربي القارئ والمثقف أن يتقبله، ويحاول أن يذيبه، وذلك عبر البحث عن مبررات تحمل التخفيف في الحكم على الأديب الذي أحبه جيل كامل وتتلمذ على يديه، فقال:

ـ لقد بلغ الحكيم مربط الشيخوخة التي تعني إعفاءه من تحمل مسؤولية ما يقول.. ولقد تأثر الحكيم نفسياً بفقدان إبنه يوماً ما، فرمته قسوة الفقد وفراغ الأيام في أتون هذا القلق الحارق له!

وتصدى لتوفيق الحكيم رجال الدين، وهم على حق في تصديهم وشجبهم.. وتصدى بعض حملة الأقلام، وبعض السفهاء، وبعض طلاب الشهرة، وبعض الذين خافوا على «توفيق الحكيم» من نهاية تآكل كل حصاد عمره الأدبي وتذروه كرماد الجثث، فكان خوفهم حباً ما زال الباقي في نفوسهم له!

❊ ❊ ❊

ذلك كله.. يذكرني بالكاتب المسرحي الأمريكي الذي كان مبدعاً وشهيراً «إدوارد البي»!

والتذكر هنا لا يعني المقارنة، أو طرح المثال المشابه للموقف الذي اختنق «توفيق الحكيم» بداخله.. ولكن التذكر يأتي بمعنى المقارنة بدون إلحاح على المفاضلة، ويأتي بمعنى استدعاء الظروف وتفتيش التاريخ المعاصر الذي غطى الغبار بعض جوانبه!

ففي عام ١٩٦١م اصدر «إدوارد البي» مسرحيته بعنوان «الحلم والكابوس» وتعرض يومها لموجة نقد عنيفة، وكانت الصحف تصدر في الصباح مندّدة بهذا الكاتب.. ولكن قراءه الذين أحبوه رفضوا كل رؤوس «السونكي» التي سددت إلى الكاتب وأقبلوا على المسرحية، ونفذت الطبعات المتلاحقة!..

ولكن «البى» لم يتعرض إلى عقيدة الناس ورموز الإيمان في حياتهم كما هو حال «توفيق الحكيم»!

أما النظرة إلى ما حدث، فهي تتلخص في ثلاث وقفات:

ـ **أولاً**: إن كل ما يثير الضجة حوله، وتتكاثر ضده الانتقادات.. يتحول في انطباع الناس إلى أثر له قيمة، وقد يكون العمل لا يرقى إلى مستوى الإبداع والنفع، إلا أن (اللمة) دائماً تبتكر حدثاً، وتعكس علامات استفهام!

ـ **ثانياً**: إن كل ما يسدد إلى تعبنا وأمراضنا النفسية وحيرتنا، وكل ما يكتشف خداع الإنسان لحياته ولقيمه ولتناولاته فيعريها.. هو أمر على درجة بالغة من الأهمية، فالإنسان يستمع إلى الصراحة ويحب من يتصدى بها، ولكنه لا يجرؤ أن يمارسها.. والإنسان يرغب في تلمس جروحه وأخطائه ويعجز أو يخاف أن يعلن عنها.. فإذا كان الإعلان عنها خارجاً على ذاته فهو يصغي باهتمام ويتعاطف معها في داخله!

ـ **ثالثاً**: إن ما يمارسه الإنسان في يومه وليله.. لا يفصح عنه في الغالب، ويتجنب أن يوصف به.. فالازدواجية هي مشكلة الإنسان في هذا العصر، فهو في النهار «دكتور جيكل» وهو في المساء «مستر هايد» والذي يفرض على الإنسان هذا السلوك ـ حتى في صدوعه بالرأي ـ هو تعامله مع الآخرين ومصالحه المرتبطة بهم، ثم أحلامه الخجول أو الخائفة، المتوارية في شروره واضطراباته النفسية وعلله الأخلاقية العتيقة!

بعد ذلك.. تقدمت الأسئلة نحو المؤلف الأمريكي، تخدمها فكرة واحدة مستخلصة من هدف المسرحية، تقول:

«هذه المسرحية هي فحص للمنظر العام لإنسان اليوم، وهي هجوم على عملية تبني القيم الزائفة وإحلالها مكان القيم الحقيقية، وهي إدانة لما يلمسه الإنسان من نخر بالنفس، وسقوط الهمم، وهي ـ أخيراً ـ وقفة ضد الأكذوبة القائلة بأن كل شيء في العالم المنزلق هذا، هو على خير ما يرام»!

فماذا قال «إدوارد البي» وكيف دافع عن تعبيره ورؤيته؟!

قال: «إن كل عمل مخلص، إنما هو في عرف هذا العصر: عواء شخصي يصدر عن ذواتنا.. تعبيراً عن الألم أو السرور»!

* * *

وعند هذه النقطة، نعود إلى «توفيق الحكيم».. وقد كان مجمل الآراء التي تصدت بالنقد وبالشجب لهذا العمل الكتابي الذي ارتكبه.. يتلخص في أنه «عواء شخصي يصدر عن الذات، تعبيراً عن الألم أو السرور»!

وبلا شك.. فإن «الحكيم» لم يحصد «السرور» أبداً في عمره، رغم الهالة المشرقة والعظيمة التي أطرت أدبه وكللته حتى المرحلة التي بلغها، فكانت حافة مهينة بالسقوط!

وفي رأيي.. أن أي مؤلف ليس في حاجة إلى «مرافعة» عن أدبه، وعن أعماله الفكرية وآرائه، بقدر ما ينبغي أن يحمل ذلك الأدب، وتلك الأعمال والآراء وثيقة وجودها!

إن أعظم مرافعة، تتم في صالح فكرتك أو قضيتك.. هي أن يلتف الناس حولها وينتصرون لها، رغم كل ما يثار حولها من غبار وتسفيه!

ودائماً.. تكون مشكلة أحلام الإنسان كامنة في أوهامه.. أو هكذا حصد «توفيق الحكيم» خلاصة عمره الأدبي ما بين الحلم والوهم!

فنحن نخلط بين الحلم والوهم، ونحن أحياناً نركز الوهم على قاعدة تصرفاتنا الصميمة، وعلى قاعدة همومنا الحياتية، وعلى قاعدة أوجاعنا النفسية.. فيصبح التوتر فكرة، وتصبح الشروخ معايشة:

إن ذلك كله.. هو حصيلة شروخ العقل العربي، وحصاد التوتر في نفسية الفكرة داخل جمجمة العربي.. وكل ما يثير الضجة الآن، هو بين حالتين:

إما أنه مسدد إلى أخطائنا، وانفلاتاتنا وضعفنا، فنحتضنه ولكننا ننكر انتماءه إلينا!

وإما أنه حصيلة قلق نفسي.. يجعلنا نضطرب ونظلم أعماقنا، بإلقاء مزيد من العفونة والقش فوقه!!

* * *

متى كان موعد الرحيل؟!

عيناه رحلتا بالوميض، وبالحزن إلى الأبدية. .

فمتى كان موعد الرحيل؟!

إنه لم يرحل. . بل كان يحاول أعماقه. . بعد أن احتشدت الكلمات الخرساء في عالمه العربي، فكان ينبش هذه الكلمات محاولاً أن ينطق بعضها. . أن يزين أضواء المدينة بتلك الأوراق الملونة التي نسميها شعراً!

لقد بدأ رحيل «أمل دنقل» . . منذ شعر أن الأرض العربية تتفلح وهي تشرب الظمأ. .

بدأ رحيل «أمل دنقل» . . منذ أصبح كل شيء في المناخ العربي بارداً. . كل شيء في الكلمة العربية يغرق حتى يموت!

بدأ رحيله. . عندما اكتشف أن «بيت الشعر» تحول إلى حجر يدمي الأفئدة. . وإن «النغم» بيان انقلابي، يتحول إلى نشيد عسكري ينتظم النمل العربي في إيقاعاته!

«وكان يبكي وطناً. . وكنت أبكي وطناً.

نبكي إلى أن تنضب الأشعار. .

نسألها: أين خطوط النار؟

وهل ترى الرصاصة الأولى هناك.. أم هنا»؟!

وظل يسأل الإشعار ويكتبها.. ولم تزل الرصاصة المنطلقة مجهولة المصدر، ولكن العربي وحده.. بقي هو المستهدف بتلك الرصاصة!

وكان يتلفت في اندلاع الغضب بعد توقيع اتفاقيتي الكامب، ويشاهد الوجوه المهدودة بالألم، والوجوه اللامعة بالزيف.. وجوه مرتفعة هابطة، أشبه بأوراق العملة في السوق السوداء!

وبدون أن يسأل.. فهم أن ذلك هو مبدأ التعامل الإنساني الجديد، وهو تعريف الحضارة الحديثة!

وبدون أن ينتظر الإجابة.. كان هو والقهر والشوق يقبعون في زنزانة الأسى على ضياع الحق العربي.. ضياع الأرض.. ضياع الإنسان.. ضياع لغة فقدت معانيها!

وبدون أن يطرح أسئلة جديدة.. كان يجاهد البكاء والحنين في زمن اغتيال القمر.. في زمن «الأرض والجرح الذي لا ينفتح» وانتقل به الهم من زاوية لأخرى، وكأنه المحكوم بالانفرادية والانطواء وإعياء الغربة!

واستمر يغني بالشعر.. يتواصل بمشاعره في «بكائية الليل والظهيرة» ويردد:

«ندم الغبار يلح فوق وجوهنا..

ونلوذ بالجدران، نحفر فوقها أسماءنا.. لكنها تتفتت!

الجدران وهم.. والرجال الملصقون على مساحة صفحة الإعلان..

والصور الثمينة في المعارض، والنقوش على المعابد..

والوسام العسكري لأنبل الشهداء..

والزهو الذي يندمس في رحم النساء. .

تلك المرارة»!

واكتمل «أمل دنقل» شعرياً. .

كانت عيونه ـ على وجهه، ومن أعماقه، وتفكيره ـ ترحل كل يوم ألف مرة، تتفرس شوق الأحبة. . تهجر الهجرة، وتكسر أسوار المنفى، ولم يكن يدري موعد الرحيل متى!

كان يحس بفجائية موعد الرحيل. .

ولكنه الرحيل الذي لا يفزعه، فلم يكن يكتشف نبل الخطوة، ولم يعد يلتقي بصفاء الكلمة. .

فكأنه يغازل الرحيل، فيراه انتقالاً من دنيا تضيق بالأحرار وبالشرفاء وبالوطن، لتتسع بالعبيد وبالمستعمرين وبالأقوياء المتسلطين على مقدرات الأمم!

وأتذكر في موعد رحيله الذي لم يفاجئنا به. . عبارة قديمة للرافعي، قال فيها:

ـ «لا تتم فائدة الانتقال من مكان إلى آخر. . إلا إذا انتقلت النفس من شعور إلى شعور، فإذا سافر الهم معك، فأنت مقيم لم تبرح»!

ولعلّ هذه العبارة تبلور في النفس حوافز الإخفاق في التكيف أو التأقلم حتى مع الأسى. . في عالم مزين بالأوراق الملونة التي لطختها آثار العدوان على الأرض، وبصمات القهر للإنسان المحاصر بالقوة المتسلطة على حريته واستقلاله!

لكن «أمل دنقل» الشاعر الذي شعر أن كل الأوراق قد بهتت

ألوانها.. أخذ يصرخ محذراً من لعبة الاستعمار الجديد، فكان شعره يمثل قدرة الكلمة العربية المحدودة على تصوير هذا الانزلاق نحو هوة الصلح مع العدو المفترس..

وكانت قصيدته الأكثر شهرة وحداثة، بعنوان «لا تصالح» هي صوت الكلمة العربية النقي والمراهن عن العصافير والمطر والعشب..

واستمر يصرخ قائلاً:

«لا تصالح..

إلى أن يعود الوجود لدورته الدائرة.

النجوم لميقاتها.. والطيور لأصواتها..

والقتيل لطفلته الناظرة!

كل شيء تحطم في لحظة عابرة!

***

والذي اغتالني: مرضي لص

سرق الأرض من بين عيني

والصمت يطلق ضحكته الساخرة»!

***

واستقر الكيان الشعري لـ أمل دنقل» في هذا التوهج..

كأنه لن يقول قصيدة بعد هذه الصرخة المحذرة: (لا تصالح).. فقد تم الصلح، ودخل العدو الإسرائيلي إلى الفسطاط، وتجول أمام الأزهر،

وصفق له «عمرو بن العاص». . فلا بد إذن أن يموت الشاعر وإن استعصى عليه الموت، فإنه يفكر بالانتحار!

أو كأن القصيدة في شعر «أمل دنقل» قد تحولت إلى خنجر يشبه تلك الأداة القاتلة التي يستعملها الياباني عندما ينتحر بطريقة «الهاري كاري». . فأصبحت كل قصيدة يكتبها «أمل دنقل» هي خنجر يسدد إلى نبض الإنسان فيه!!

وفقدت القصيدة العربية ذاكرتها القديمة. . ذاكرة الغزل والغنائية والمديح والصورة الوصفية، والتشكل من خفق القلب. .

وأصبحت ذاكرة القصيدة العربية الجديدة تشتعل بهموم تطحن الإنسان، وتتلوّن بهذه «الكيَّات» العديدة كالوشم فوق جسد الأرض العربية!

وقبل أن تفقد القصيدة العربية ذاكرة الغزل والغناء. . كانت هناك عبارة قالها نزار قباني:

ـ «الشعر خنجر ذهبي مدفون في لحمي. . أكره أن يتركني، ولا أكره أن يذبحني!

العمل الشعري لا يكتمل إلا بالآخرين، وبغير الاخرين تبقى التجربة الشعرية في جبين الشاعر كالعطر المحبوس في أحشاء البراعم، لا ينتفع به حقل، ولا تفرح به رابية»!!

وبعد أن فقدت القصيدة العربية ذاكرتها الأصيلة والقديمة. . تبدلت هذه الصورة التي رسمها «نزار قباني» فأصبحت تنغل في وريد الشاعر والقارئ معاً بهذا التبدل الماثل في هذه الصورة:

ـ الشعر اليوم خنجر قاتل مدفون في وجدان الشاعر.. يذبحه كل يوم آلاف المرات!

العمل الشعري الذي لا يكتمل إلا بالآخرين.. أصبح ينادي الآخرين، ويستصرخ أحلامهم وأمانيهم.. بعد أن تحولت التجربة الشعرية في جبين الشاعر إلى دم مراق فوق الأرض العربية.

وتحولت الحقول إلى مستعمرات جديدة يبنيها العدو.

وتحولت الروابي إلى ثكنات ومراصد لجيش العدو ينطلق منها إلى إحراق ما تبقى من البيادر والحقول العربية!

* * *

وهكذا يستشهد «أمل دنقل» بطلقة قصيدة.. تأتي أعنف من طلقة رصاصة!

وقبله.. وقف «خليل حاوي» وهو يلقي قصائده على الأرض التي تسيل بدماء عربية، فكانت كل قصيدة من قصائده جراب رصاصة.. يشبه وردة سحقتها أقدام الغزاة، فلم يحتمل هذا الموت في الحياة، وأطلق الرصاص على رأسه ليستريح هو، ولكن أمته لا تستريح.. لأن الموت هروب بالانتحار.. بينما الموت حياة بالاستشهاد وبالنضال!

أما «أمل دنقل».. فإن الموت ذاته هو الذي أطلق عليه الرصاص.. أو أنه لم يفعل مثل زميله «خليل حاوي» لينتحر بالحياة.. لكنه انتحر بالموت، فهو شاعر عربي آخر ينتحر بالموت في كثافة مشاعر القهر والأسى والغربة!

وقبله.. أقدم «صلاح عبد الصبور» على الانتحار بالموت في كثافة

مشاعر القهر والغربة والأسى ايضاً. . فهنيئاً له بالموت الذي يحييه، وقد كان يعيش في الحياة التي تقتله!

* * *

وأخيراً. . رحل ذلك المنادي على «زرقاء اليمامة». . وعند رحيله، كان ما زال ينادي عليها، ومنطلقاً إليها، قائلاً:

ـ «جئت إليك مثخناً بالطعنات والدماء. .

أزحف في معاطف القتلى، وفوق الجثث المكدسة. .

منكسر السيف، مغبر الجبين والأعضاء»!

رحل الشاعر «المقتول» منذ أعوام: ساعده مقطوع. . وهو ما يزال ممسكاً بالراية المنكسة»!

رحل «أمل دنقل». . وهو ينعي الأمل في العصر «الإسرائيلي». .

أتعبته صرخاته التي أطلقها في وجه الانكسار العربي. . في وجدان الإنسان العربي الذي تيبست الخفقات بين أضلعه!

رحل مهزوماً بأخبث مرض ـ السرطان ـ ومقهوراً يلعق صديد قدمه في «قوافل الغبار»!

قتل القمر إذن. . بعد أن نزفت دماؤه أربعة دواوين من الشعر، أشهرها: «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة، العهد الآتي، مقتل القمر». . وعندما يغتال القمر في السماء العربية ينسحب الضياء، وتعم الحلكة. ويبدأ زمن الأقمار اللاسلكية التي ترفض ترديد قصائد الشعر!

رحل.. وقد شوهت النار عشقه، وأكل اللهب ضحكات الحب في عالمه وقال ملوحاً:

ـ «لم يبق من شيء يقال..

يا أرض.. هل يلد الرجال»؟!

إنها ـ إذن ـ رحلة الصدى في هذه الحياة التي أنشد فيها الحزن.

وغنى لأطفال المستقبل العربي وهو يتأمل وجه «بنلوب» الحزينة.. وهو خلف دورة الهضاب.. وهو يبكي على تل الرماد، «وتثنى الضوء من حد الحناجر»!

هذه الحناجر التي رثته، وقد كان نابضاً حياً يتمزق، ويتألم، ويبتسم لكلمة وفاء، وهو مسجى على السرير الأبيض في معهد السرطان بالقاهرة.. يرسل أشواقه من النيل إلى الفرات، إلى بردى، إلى الخليج.. يبتسم لكلمة وفاء، وقلبه يدمع نافراً صارخاً.. يردد: «لا تصالح».. فالعدو لن يتحول إلى صديق، وسيف العربي في غمده يأكله الصدأ، وقلبه مازال يلعن «كافوراً»!

قتل القمر إذن..

فكأن الشعر ينتحر..

كأن الحرف الذي يؤبنه هو شظايا قمر!

إن «أمل دنقل» لم يمت بالسرطان وحده.. لكنه مات أيضاً بذلك الثقب الغائر في وجدان الإنسان فيه!!

❊ ❊ ❊

محمود درويش
توأم القمة الماردة!

إنني أعرفهم. . أعرفهم!!

هؤلاء «المنزرعون» فوق أرضهم: نبتة إصرارية، يتحدون رياح الشوك والحنظل، وأعاصير القهر، وفيضانات الحقد!!

أعرفهم ـ أنا ـ يا تاريخنا الجديد الذي تكتب سطورك اليوم بدمائهم، وتملأ صفحاتك بكلماتهم المنطلقة من فوهات البنادق. . المنسابة ـ أيضاً ـ من صدور لم تنس نعمة الحب في طوفان الكراهية والأحقاد!

أعرفهم ـ أنا ـ يا يقظة الإنسان العربي. . معرفتي لهم جاءت يوم ولدت أنت ـ أيتها اليقظة ـ فامتلأت الساحات بأعلام الأمل. . غطتها خطوات النضال الراكضة!

انطلق صوتهم مع اللحظة التي تمزقت بأول طلقة من المقاومة العربية فوق ثرى الأرض السليبة. . فلسطين!

لقد خاضوا النكبة وراء أسوار الدخيل المستعمر ـ خاضوها ولم يعيشوها ـ وبقي وجههم عربياً، ولسانهم «مواطناً»، ووجدانهم عاشقاً للنضال حتى يزدهر البرتقال في بيارات يافا، وحيفا بأيديهم. . بعرقهم ـ

إنهم يروون تلك البيارات اليوم بدمائهم!

إنه صوتهم الواحد متحداً، هذا الذي نسمعه.. يحمل عبر تموجاته لحن الحب الكبير للثرى.. للنجم.. للقمر.. لنظرات الأطفال المشرعة ترقب قدوم الأمل:

«يا إخوتي..

أحبكم جميعكم..

أحب كل قبضة مهزوزة في أوجه الأنذال.

وكل جبهة شامخة في ساحة النضال..

وكل كلمة جريئة.. تقال!»

هذا هو الحب الجديد الذي علمنا إياه شعراء النضال.. الذين كانوا يقفون بإصرار على أرض فلسطين رغم الأسوار، والمدافع، والقتل الجماعي!

إن مبدأهم يقوم على الحب، فالكراهية ساقطة من صدورهم .. الحب لأرضهم، ولحريتهم، ولمعتقداتهم..

وأقسى قهر إنساني أن يحاول الظالمون طعن الحب في جوانحنا.

وبهذا المبدأ الكبير، والحافز.. عبر شاعر الأرض المحتلة «محمود درويش» فأصدر ديوانه بعنوان: عاشق من فلسطين!!

إنه لم يقل: «حاقد من فلسطين»، أو «كاره من فلسطين» .. بل قال «عاشق» وهذه دلالة رائعة على سمو أسباب النضال، وعظمة المقاومة للمستعمر.. المعتسف ذلك الحب!

لقد صرخت ـ ذات يوم ـ فدوى طوقان، وقالت:

ـ لقد علموني الكراهية!

إنها ـ بهذه العبارة ـ تعبر عن حب كبير لقضية بلدها، لأنها قالت هذه العبارة إثر مواجهة «دايان» لها!. . لكن أشعارها الجديدة الموفدة من وراء الأسوار، غنية بصور الحب. . حافلة بـ «آهة» الألم، ولن يكون انتصار الإنسانية إلا بالألم. . فالحب لم يكن نكتة تنفرج لها الشفاه. . لكنه عصف ألم تتفتح به الجوارح لتحيا الحقيقة، ولتلم أشلاء الكذب والخديعة!!

وأنا أعتبر الفترة التي ولد فيها هؤلاء الذين أعرفهم. . أعرفهم: شعراء الأرض المحتلة. . هي فترة يقظة للكلمة العربية . . فترة صحو للحرف العربي. . فترة ازدهر فيها التعبير بهذه الأماني. . الأماني التي أصبحت ـ ولا غيرها ـ في «نوال» الحياة الملامسة الصادقة للحقيقة، للألم، للحب. . بهذه المعايشة للمخاض المشرقة بالحب وبالكرامة!

هذه الفترة ازدهر فيها «الشعر العربي» مجدداً. . بل هو تعبير إرادة ينبغي نوال معطياتها. . ننالها بالدم، بالأظافر بالزحف على الشوك، والأسلاك الشائكة. .

فالصدور التي تجرحها نتوءات القهر. . يضمدها تراب الأرض!!

ولقد ولدا هذ الرعيل الشاب من الشعراء على قوائم، وأسس ذات منهج مدروس، ومثقف، وواعٍ، ووضعوا لأشعارهم وصايا ذكرها الكاتب الفلسطيني «إبراهيم أبو ناب»، وسردها خمس عشرة وصية نقلها بحذافيرها. . ومنها:

ـ «حرروا صناعتكم من «قفانبك، وسائق الأظعان». . إن عندكم اليوم الطائرات لتسمقوا إلى النجوم».

ـ «لا تعصروا قلوبكم كأن تتعلموا رقة الشعور، ولا تعقدوا أفكاركم كأن تتعدوا الغموض والإبهام».

ـ «لا تنسوا وطنكم في حبكم الإنساني، ولا تنسوا الإنسانية في نزعاتكم الوطنية!».

ـ «ارفعوا للناس وطنكم في حبكم الإنساني، ولا تنسوا الإنسانية في نزعاتكم الوطنية!».

ـ «ارفعوا للناس مشاعل الإباء والشرف والقوة والعدل والشجاعة والثبات والأمل والإيمان»!

وهكذا تدفق شعر هؤلاء قوياً. . ندياً. . ثائراً. . عاشقاً، وتخلص الشعر العربي في هذه الفترة ـ كما قال كاتب عربي ـ «من الاختناق في متاهات الرموز وانغلاقات النفوس القلقة، وشطحات الصور الغريبة»!

وجاء ـ محمود درويش ـ ليقرر حقيقة الحب في مقطوعة عنوانها «تحدٍ»:

«شدوا وثاقي

وامنعوا عني الدفاتر والسجائر

وضعوا التراب على فمي

فالشعر دم القلب. .

ملح الخبز. .

ماء العين. .

يكتب بالأظافر. .

والمحاجر، والخناجر!!

ساقولها في غرفة التوقيف. .

في الحمام. . في الإسطبل. .

تحت السوط. . تحت القيد. .

في عنف السلاسل:

مليون عصفور. .

على أغصان قلبي. .

يخلق اللحن المقاتل»!!

والقارئ المتأمل لشعر ـ محمود درويش ـ يلمس الحزن العميق من خلال صرخات القيد، وتنهدات عشقه لأرضه، ونداءاته لحبيبته المجلودة، المعذبة!

هنا رؤيا جديدة تنفتح. . لمشاهدة المعاناة الممارسة. . هي رؤيا قال عنها دارس لشعر هؤلاء:

ـ «رؤيا نابعة من معاناة وتطواف واحتراق، وعناق يشف حتى يحيل اللحظة إلى شعر خالص، حيث يزدهر السر الخفي، ويبيح نفسه لمن أراد اجتناءه، واللحظة في الشعر الجديد صوت، والموضوع كشف، والإيقاع نبض، والقافية تيار يتدفق ناراً، وألواناً لم تبصرها العين»!

إن هذه المسافة الممتدة الشخصية. . الموغلة في درب ثائر يرفض الجليد، ويتحدى الصقيع. . هي مسافة خطوات الحب الكبير الذي صنعه

الألم في وجدان الشعراء.. كما في وجدان هذا العاشق من فلسطين.. الذي قال:

«رأيت جبينك الصيفي
مرفوعاً على الشفق
و «شعرك» ماعزاً يرعى
حشيش الغيم في الأفق
تود العين لو طارت إليك
كما يطير النوم في سجني
يود القلب لو يحبو إليك
على حصى الحزن!
يود.. يود، لكني
وراء حديد شباكي
أودع وجهك الباكي
غريقاً فوق دم الشمس
مهدوراً على الأفق
فأحمل فوق جرح القلب جرحين»!

هذه المسافة الطويلة.. ترفض الانكماش، والاختزال.. إنها تمتد.. تمتد على شعاع نبيل من الحزن!

إن هذا الحزن الذي صوره الشاعر لا يعكس ـ معنوياً ـ مفهوم الانخذال، والضياع.. بل يعطي ملامح «المقاومة» الحقة والاستبسال

بالصمود الذي يمنح مقدرة أن يحمل «فوق جرح القلب جرحين»!

والشعر سلاح حاد، ونافذة، ويؤثر بإصابات مباشرة . .

وعن دور الشعر، وعطائه وتاثيره تأتي هذه السطور التي أوردها كاتب عربي :

ـ «في الهند تقام ليالي ـ المشاعرة ـ بانتظام في المدن الكبرى أو القرى النائية على السواء، وينشد الشعراء، ويتطارحون قصائدهم وملامحهم، وتتخللها الموسيقى والغناء، وتستمر طوال الليل، وفي تلك اللحظات يفيض الحنين والأسى، وتنهمر الدموع، وتتحول الليلة إلى مظاهرة إنسانية وقومية تتخطى كل حدود، وفوارق»!

وفي أيام العرب . . يذكر التاريخ دور «سوق عكاظ» في تحفيز الشعراء وإيجاد المنافسة بينهم، والإشادة بالمحلقين، والمبدعين، وقد أدى الشعر دوراً كبيراً بلا شك في تاريخنا الطويل!

والشاعر الفرنسي «بودلير» . . أثار ضجة ذات معترك بالقصائد التي كان ينشرها، والتي قيل إنها كانت من تأثير الشاعر الأمريكي «بو» عليه، وعلى آرائه . . حتى تعرض للنقد الساخن، وللشتائم . . وبصرف النظر عن محتوى أفكار شعره، واتجاهه فقد عرفنا أن «بودلير» أثار الناس، وأقام حواراً عنيفاً بما صاغه من شعر!!

وليس هنا وجه للمقارنة بين صميمية شعر «بودلير» وبين عطاء، ودور شعر هؤلاء المناضلين . . إلا أن يكون مجرد استطراد في حديث عن تأثير الشعر على القضايا، وعلى المجتمع، وعلى الأفكار!

* * *

وألتقط ـ بعد هذا ـ انعطافة ارتوائي بما قرأت من شعر محمود درويش.. من خلال ما تنشره الصحف، والمجلات، ثم نهلاً من ديوانه هذا الذي جسد «حقيقة الشاعر» الأصلية.. تلك التي تترجم الحزن الجم، والألم السامي المرتفع فوق كل المحن والأرزاء!

انعطافة إلى عطاء هذا الشعر الذي ذكرني بعبارة قرأتها في مقدمة لأحد دواوين «نزار قباني» الشعرية.. تقول: «ما كتب هذت الشعر ليقرأ، وإنما ليشم ويضم».

أتذكر هذه العبارة، واستل تحويراً مغايراً.. يبرق، ويضوي، ويلمع، وأنا أقرأ لمحمود درويش وهو يقول:

«لأجمل ضفة أمشي

فلا تحزن على قدمي من الأشواك

إن خطاي مثل الشمس

لا تقوى بدون دمي!

تعالوا يا رفاق القيد والأحزان

كي نمشي..

لأجمل ضفة نمشي.. فلن نقهر

ولن نخسر..

سوى النعش!!»

هنا تأتي العبارة المحورة التي أحب أن أقولها:

ـ ما كتب هذ الشعر ليقرأ، وإنما ليغمس بالدم!!

فهو الذي قال في آخر سطور في الديوان:

«لو أني . .

أفارق شوك مسالكنا الصاعدة . .

لقلت: أدفنوني حالاً . .

أنا توأم القمة الماردة!!»

* * *

خطوات.. في الغربة!

جيل القلق.. جيل الغربة، وافتقاد الشطآن!

جيل الزعزعة، والحيرة، والتشرد النفسي!

إنه جيل هذا العصر الذي نعيشه.. شبابه يعانون.. شبابه يستيقظون على كارثة.. على انغمار أماني.. شبابه ينامون بنكسة!

إنه جيل كل هذا العالم: جيل القلق، والحيرة، والانتقال الحضاري من مرحلة إلى مرحلة!

إنه جيل كل هذه المنطقة العربية: جيل الغربة، والنكسة، والازدراع على الشوك، وتحويل الأرض المزروعة إلى بركان يفجر نفسه، ويحرق بعد ذلك نفسه.. جيل «الممارسة» على الماء .. دون تقدير للعمق!

ولقد اتسعت الخطوات..

لقد كثرت الخطوات..

خطوات شابة تسقط بالعراقيل.. طموح تتعثر وتتكىء على وجهها بالمعوقات.. مغذة تفاجئها هوة.. لا تلبث أن تبتلعها، وتكفنها أغوارها!

وكانت خطوات في هذه الغربة الأليمة..

غربة ولدت الإحساس بالكآبة. . خلفت الانطفاء النفسي، والرماد على وجه «المخاض»!

جيل. . غذاؤه مخاضه هو الرماد!

أتعبه بريق الآل في مسراه. . أضنته وقدة الوجدان من حساسية المناخ النفسي. . فتعب حتى بعواطفه!

الحب أيضاً غذاء. . لكنه مغشوش بذلك الرماد. . ملوث بالكآبة. تشرد به انفعالات وافدة. . تدفع الإنسان أحياناً أن يمزق ما في يده. . حتى لو كان ذلك رسالة حب. . حتى لو كان معنى (الاحتواء) انتهال لحظات. . إنه يبدو شروداً. . هارباً لا يريد أن يعود إلى يده، إلى نظراته، إلى أشيائه في الداخل!

لكن هذا الذي يعطي صورة «التشاؤم» لحاضر جيل يعيش عصر قلق، وهزيمة وجدانية، وانفعالية قد لا يدري بواعثه. . هو الذي يعطي ـ كذلك ـ التفسير الصحيح للبواعث، ويخلص بنا إلى نتيجة. . هي الدراسة المضنية لنفسية شباب الحاضر هذا و«لظروف» الحاضر نفسه التي أحاطت به. . فأعطته هذا المعنى (!)

والتشاؤم هو نحت في الوجدان يصنع التفاؤل!

عبارة تدعو للتحديق طويلاً في شيء بلا ملامح. . مع أننا نقتنع جداً أن كل شيء لا يخلو من الملامح!

غير أنني هضمت هذا المعنى شريطة ألا نغالي في احترام تشاؤمنا دائماً!

إن التفاؤل دائماً وباستمرار يخلق الشعور بالاستهانة، وبالدعوة إلى

التفريط، والخديعة الذاتية.. فهو بهذا التناول الحياتي يذيب الجهد، ويتفه الأماني، ويسلب الانتظار ما فيه!

لكن جيل هذا العصر.. لم يصل بعد إلى ذروة التشاؤم.. فيرفض كل شيء.. حتى تحقيق أمانيه، وهو أيضاً قد مل المزيد من التفاؤل.. إنه يشرئب إلى حقائق تنتزع من ذات قضية العصر، فسقط بهذا السبب في قلق يفنيه.. يذره رماداً، واستلبت الحيرة منه كل أبوابه المفتوحة.. فهو بلا أبواب.. شيء محاصر بالأبعاد فقط، وبالزوايا، وبالظلال(!)

وهو أيضاً خلف الأبواب.. راح يعدو في متاهات.. عكست عليه الملل، والكآبة، والقتام.. زرعت في نفسيته المعاناة الرافضة لكل شيء.. حتى لرغباتها.. لنبضها.. لملامح البهجة المرادة حياة!

إن إنسان العصر ـ في كل العالم ـ يذرع دربه بخطوات مبتورة حيناً.. معلقة حيناً. إنه يشيح عن نفسه.. يلوي عنق فكرة «الاستيطان» داخلياً!.. غريب هو.. في عالم لا يعرفه!

وهذه المعاناة.. تناولها بالتصوير، والتعبير، والبوح شعراء هذا العصر بطريقة موغلة.. كأنها دقات مطرقة على رأس مسمار صلب.

إن المطرقة هي انفعالاتهم، ومعاناتهم، وقلقهم..

والمسمار تعبيرهم، وكلماتهم، وحروفهم.. تنفذ إلى أعماقهم .. تحت ضربات أعماقهم!!

ومن أولئك الشعراء.. شاعر عراقي شهير.. من رعيل: بدر السياب، والبياتي، والفيتوري، وأدونيس، ونازك الملائكة .. ممن استهوتهم حجارة المقبرة البيضاء.. باعتبار أن المقبرة هي الحقيقة الأكيدة التي لا تحتمل

اللغط، والقلق والغربة. . يقترب منها الواحد فيهم بكل قشعريرة، وهو يغني لها في ذات الوقت!!

ذلك الشاعر هو «بلند الحيدري». . الذي استهواني ـ في البداية ـ اسمه، وتساءلت:

ـ هل هذه الكلمة: «بلند» عربية أم أنها أعجمية. . ركبت وأصبحت فيما بعد «بطاقة» تعرف الناس بإنسان عربي؟!

وبحثت. . وعرفت أنها عربية. . من كلمة «بلندي» والبلندي: العريض، والبلندي، ـ والملندي: الكثير لحم الجنبين!

إذن اسمه: العريض الحيدري!

وحينما قرأت شعره تأكد عندي أنه متين التعبير، عريض . . شامخ المعاني، والثقافة!

تلقيت ديواناً شعرياً لهذا الشاعر من صديق حبيب إلى نفسي . . في ذاته وأعماقه هو شاعر بالناس أكثر من شعوره بذاته. . هو قارئ ذكي يشرب المعاني، والثقافة ليرتوي بها، وينضح بعد ذلك عبقاً!

وكان الديوان هدية لوقتي. . رغم أنه «بالإعارة!». . أمضيت رحلة عبر سطوره مدتها ثلاث ليالٍ، واستشفيت الكثير . . حتى جذبني وقع الخطوات. . فقد كان اسم الديوان: خطوات . . في الغربة!!

وقد كان وقع الخطوات يقول:

«أريد أن أغور في شوارع مزدحمة.

حكاية أو غنوة أو ملحمة. .

أريد أن أسأل من يحلم: عن أحلامه. .

أريد أن أسأل من يألم: عن آلامه

أريد أن أوقظ دنيا مظلمة.

أهتز مصباحاً هنا.. هناك

ملء نوره منى..

تنير ربوة، ومنحنى»!

وهذه الصورة التي تنقل زخم القلق في نفس الشاعر إلى تصور المتلقي لهذا الشعر، هي نفسها حكاية الجيل الصامت.. يستخدم صمته بالبوح الزافر المختنق.. مثل هذا البوح أيضاً:

«نسأل من أين ستأتي المنى

من أين؟.. لن تأتي!

ما قيمة إنسان يفنى..

ما قيمة آلاف تفنى..

ما قيمة روعة إنسان..

في زحمة أقدام تمشي؟!

ما قيمة لوعة إنسان»؟!

أما «فؤاد الخشن» فقال:

ـ «القصيدة عند بلند ثورة ألم مكبوت.. سيمفونية قلقة غريبة تصور ضجر العصر»!

إن ذلك الضجر يتلوّن.. فهو تارة يتحدى، وينفعل، ويغضب، ويمزق كل الأكفان.. وتارة أخرى يستسلم.. ينخذل بالدعة واليأس،

لكن.. لا تبقى نفسية الشاعر على حالة واحدة، أو لون واحد.. إن أمواجاً في داخله تتكسر.. تتعالى.. تتهدم.. وتترقرق عند الشط في نفسه.. إنه يقول:

«أتحداك.. لن تعود

فضجت كبريائي

وغمغت: مسكينة!

وتحسست ملء ذاتي

عملاقاً.. تهاوت

عواطف الناس دونه

مر بالمجد..

فاستهان ذراه

ورأى فجره فداس جبينه»!

خطوط لوحة اسمها: الانسحاق!

إنسان تتوازعه كل الأشياء بين التحدي، والاستهانة بذرى المجد.. ثم يستطرد في كيان القصيدة، ووحدة موضوعها.. فيقول بعد ذلك:

«ها هنا تلفت وجه

حملته السنون روحاً لئيمة

وهنا..

تبعث الظلال خريفاً

وبقايا من أمنيات عقيمة

وغداً.. يسرق الجدار هوانا

صحوه النابض السنا.. وغيومه»!

إن عنوان هذه القصيدة هو: «مدفن الظل» وقد عدا الشاعر بظله، فلم يخذله.. فأخذه مع كل شيء.. جعل له مدفناً.. وكل الانسحاق حقاً أن نختار مدفناً حتى لظلنا (!!)

***

لقد أطلق «أبو محمد» مارون عبود صفة على هذا الشاعر «بلند الحيدري» فقال بروعة الروعة:

ـ «أشهد أن ديوان بلند الحيدري ـ خفقة الطين ـ أحفل ما رأيت من دواوين الشباب بالشعر، ولعلّه الشاعر الذي تحلم به بغداد!».

إن «بلند» في صحوه، ومنامه كان يحلم ببغداد.. كان يتركها ويعود إليها، وفي روحاته، وأوبته لا يفتأ يغنيها.. وذلك الصمت الذي اتشح به.. لم يكن اغتراباً عن حاضره.. بقدر ما كان استغراقاً فيه.. إن مارون عبود يطرح عبارة أخرى فيقول: «ليس فينا من قدر الصمت، واستوحاه.. كما استوحاه هذا الشاعر، وقل في الأدب العربي من أوحت إليه الطريق ما أوحت إلى بلند الحيدري». وعندما يقول مارون عبود رأياً.. فهو دراسة، واستكناهاً، وتجربة بالاستقراء!

ثم يأتي دارس آخر.. تعمق نفسية هذ الشاعر، وفهم خطوط قصائده.. هو الدكتور «داود سلوم».. فقال عنه في كتابه ـ تطور الفكر والأسلوب في الشعر العراقي:

ـ «إن تغييرات نفسية كثيرة حدثت في دخيلة الشاعر خلال هذه السنوات»!

وبلند. . أول ما سطع كفنان يحترم حرفه، وكلمته. . كان يميل في صوره الشعرية، وتعبيراته إلى الرومانسية الحالمة، وصاغ شعراً نابضاً. . غير أن الشاعر في رحلته الثقافية، وفي مراحل نضجه. . قد تأثر بشعر «عمر أبو ريشة» ثم استهواه شعر «الياس أبو شبكة» وكان ديوان «أفاعي الفردوس» لأبي شبكة فتنة الحيدري فترة من حياته الفكرية والوجدانية!

ثم برز «الحيدري» كانطباع لجيل شاب معاصر. . يصوغ وجده ومجده، ويترجم انفعالاته بأسلوبه الجديد، وبكل الزخم في نفسه، وفكره، وتحدث الشاعر نفسه عن هذا الانتقال، أو التطور في الشعر. . فكتب مرة يقول:

ـ «إن الشعر الحديث كان تجربة لتطور شعرنا القديم على ضوء المفاهيم الأدبية العالمية التي أطلع عليها غالبية شعرائنا المحدثون عن كثب، والاستعانة بما يجد هنا، وهناك من مقاييس أدبية لتقييم القصيدة»!

إن ذلك التطوير نلمسه ـ فعلاً ـ في قصائد «بلند» من حيث البناء لشكل القصيدة. . نفس «الترسم» الذي برز أترابه به . . شعراء عصره: السياب، والبياتي، ونازك، والفيتوري وصلاح عبد الصبور!

وقد بدأ اهتمام هذا الرعيل بانعكاس التحديق في الواقع. . ليعطي صورة صارخة. . لا تحتمل الديباجة؛ أو المدخل. . إن الاهتمام ينصب كله على التفاصيل. . على القسمات. . وتأتي بعد ذلك ظلال اللوحة. . التي توضح الزوايا، وتجعل «الرمز» فهماً عالياً تكتمل به الصورة الشعرية. . كهذه الظلال في قصيدته «سميراميس»:

«ورأى الليل شمعة

تتلاشى. .

في دموع تمرغت بالنور!!»

وفي صورة أخرى يرسمها هكذا:

«كم تمنت. .

لو أن تلك اللآلي. .

وهي في صدرها:

شهادة زور»!!

وفي صورة ثالثة:

«وجحيماً. . يطل من كوة العين.

ويحبو. . في الغرفة الصماء!

هيه. . ماذا!؟

أراك تخشى رياحاً

أنا قطرت روحها من دمائي!!».

إن هذه الصورة المحلقة. . دلل بها أديب عراقي اسمه: «عبد الجبار عباس» على انعزالية «بلند الحيدري» وسلخ هذه الملامسة في الشاعر من الخضوع لفلسفة فكرية، وإنها «تخضع لمسببات اجتماعية». . لكن هذا ـ في رأيي ـ ينأى كثيراً. . فقصيدته عن «سميراميس» فيها استشراف تاريخي أسطوري ممزوج بملامح اجتماعية إنسانية. . فيها عمق الصورة المدروسة من كل جوانبها وألوانها القاتمة، والفاتحة.

إن الشاعر لم يحاول أن يفصل معاناته النفسية المتأثرة بمناخ اجتماعي عن إلمامه، وتشبعه بالفلسفة الفكرية.. التي تعبر به فواصل التاريخ، ويكون بعد ذلك قادراً على متعة مزج المعاناة بالفهم، والإحساس بالعقل، والواقع المعاش.. الذي يعتبر استطراداً لتاريخ طويل (!!)

إن «بلند» لا يفصل التاريخ ـ كفلسفة فكرية ـ عن المعايشة، والاندماج الآني، والمعاناة كحاضر يصرخ في وجهه، ويقوده إلى تأمل جو المقبرة.. كما صور ذلك في قصيدته «في الليل» فقال:

«في الليل.. إذ تدفن الموتى لياليها
وتتكىء الأنفس التعبي على أيد
لم يدر أي يد حاكت مآسيها
من كل ما فيها..
وإنني في سكون الليل اسيان
يصيح بي هاجس كالعقل مشدوهاً
يا رب: لم كانوا؟؟
لم كان للأرض تاريخ وأزمان؟!»

إن هذا الانفعال، والغضب على واقع.. لا يمكن أن نرصده في زاوية تخضع لمسببات اجتماعية بحتة، وإنما تشمل أيضاً السؤال الهام.. ذلك الذي يهز «محاولة» تستهدف انبعاث التاريخ.. بتساؤل قلق.. يعكس الحالة الخاضعة للمسببات الاجتماعية!!

* * *

وبعد. . .

إن في شعر «بلند الحيدري» مرارة داكنة. . والتجارب العديدة التي عبرت به. . صاغت منه صانع كلمة، وفنان ألم، وشاعراً لم تستنفده تجاربه، ومعاناته، ومعايشته، وإنما كل ذلك جعل منه الشاعر «الذي تحلم به بغداد» كما قال شيخ النقاد مارون عبود!

«بلند حيدري» هو عبير القلق. . إن كان للقلق عبق!!

ولكن. . .

هل استمر «بلند» خاصة بعد ديوانه «أغاني الحارس المتعب»؟!

يلوح لي أنه تعب، فترك حراسة الشعر، وحراسة القلق العربي ونام!!

* * *

ميلاد . . يغني ! !

ثم غاب القمر . . كان ذلك عنوان مسرحية كتبها من زمن «جون شتاينيك» .

وكان ينقل انعكاسات ضياء القمر على صفحة مياه النهر، وعلى وجه «المستنقعات» القذرة!

وكان «الحوار» المستمر النابض . . الذي يعلو تارة ويتأرجح ويخمد تارة أخرى ويترمد . . هو قوائم المسرحية التي وقفت عليها . . لم تكن هناك ـ بالمعنى الدقيق ـ أحداث تشد القارئ، وتجعله يلهث، ويعدو خلف سطور الكاتب!

ولا يشدني اليوم ومض فكري، أو حتى عارض ذهني للتحدث عن هذه المسرحية الشهيرة، فهي لكونها معروفة وقديمة . . لا تعطي (المعرفة) لها عوامل الانبهار والشد . . كذلك لم تفعل في نفسي يوم قرأتها إلا بعض الجيشان . . كالذي تناول وجبة لم يستكنهها، وأصيب بالضيق، لكنه لم يستطع أن يتجشأ بعدها ! !

لقد ذكرت هذه المسرحية . . وبين يدي أبهر ما كتبته الأديبة السورية «كوليت سهيل» بعنوان : كيان!

مسرحية «شتاينبك» أعطت لقارئها ـ المحلي! ـ انعكاسات توفرت على

التقاط زوايا قضية ترتبط بواقع ذلك القارئ، وتشير إلى زمن رفضت فيه الأشياء الثمينة في «اجتماعية» الإنسان.. فصور الكاتب لقارئه ضياء القمر، وقد جذبته وجوه مرحلة تطفو على صفحة المستنقعات، وقد يكون لهذا التصوير فلسفة وقتية.. ترتج اليوم في أوار حاضر اعتبر أن «شتاينبك» قد مات فعلاً.. وانتصب خلفه معبر آخر لجيل جديد من الكتاب!

ورواية «كوليت سهيل» التي اسمها: كيان.. هي ليست أكثر من أسطورة.. كما أصرت الكاتبة، وأثبتت ذلك الإصرار وأكدته عندما كتبت على ورقة ما بعد الغلاف: أسطورة!!

وقد يكون أجمل ما يهدى إلى الأطفال هي الحكايات، والحواديت، والأساطير، لتنويرهم.. لشدهم بما في الأساطير، والحكايات «المؤلفة» من غرائب، وأحداث خيالية لا يعترف بها الواقع المادي ـ بالنظرة المجردة ـ لكن وراء سطورها معانٍ عميقة نحن نقدمها للأطفال لتهيئتهم، وتطويع خيالهم، وذهنياتهم.

لهذا ربما هدفت الكاتبة إلى ذلك وهي تهدي أسطورتها هذه إلى ابنتها الغالية، وإلى جيلها: أطفال العرب في كل مكان!

إن الرواية ذات أسلوب أسطوري.. تفوقت فيه «كوليت» ونسيت ذاتيتها.

بذلك الأسلوب عادت إلى فترة من طفولتها ونشأتها داخل بيت عربي مقدمته: فارس الخوري (!!)

لقد شدت «كوليت» عواطفي بكل عنف، وقهر أيضاً!.. يوم قرأت لها روايتها التي شهرتها، وجعلت العيون تحملق في (معطياتها!) الإنسانية.. رواية «أيام معه» ومصدر الجودة في التعبير، والتصوير في

القصة يأتي من المعاناة الحقة، والرؤية الواضحة في الكاتبة لقضية نفسها، فجادت، وقال يومها الكاتب الصحفي حلمي سلام: إنني لم أقرأ عملاً أدبياً. . بقدر ما قرأت اعترافات جريئة، ومخلصة في العطاء!!

غير أن هذه الرواية (كيان) تختلف عن الرواية «الأولى». .

لقد كتبت «كوليت» نفسها، وإرهاصاتها، وتجربتها، ومخاض شعورها في رواية «أيام معه» وصمتت وسط ضجة في الصحافة العربية، وعندما هدأت. . قال جدها فارس الخوري: لقد كتبت كوليت، ومن الآن ستكون صريحة مع تجاربها!

أما في رواية «كيان». . فقد كتبت «كوليت» قومها: قضيتهم. . عقدهم. . آلامهم. . انفعالهم المخنوق بذهولهم!

فرواية «كيان» ليست إلا تصويراً دقيقاً لواقع العالم العربي! . . وإن كنا ـ كمنتمين إلى هذا المحيط الإنساني ـ نرفض أن تكون هذه الرواية «أسطورة». . لأننا نسعى ما أمكن لتقليص معايبنا، وتذويب أخطائنا، واستشراف «إفاقة» تنتعش بها أمانينا كأمة لها تاريخ مضيء بلا شك، وكأمة أحلى ما فينا هي أمانينا، وطموحنا!. . لنتخلص من كبوة أليمة!!

وأول ما لفت نظري في هذه الرواية ـ الأسطورة ـ اختيار أسماء أبطالها!

فبطلة القصة اسمها «كيــان»، وحبيبها اسمه: «صـــدام» ـ بتشديد الدال ـ، وصديقتها اسمها: «ريا»، وفتى صديقتها اسمه: «يزن»!. . والطفل الذي تقص عليه الحكايات، وتنشئه على صوتها المنغم الموسقي، وغنائها اسمه: «ميلاد»!!

والدقة في اختيار الأسماء: يتضح جداً عند ربط الأحداث بعضها ببعض، واقتران الأسماء!

وجغرافية الأسطورة.. هي قرية يسكنها فريقان: فريق يعيش في السهل، والآخر يعيش على الهضبة.. فريق السهل يسمع بوضوح.. حتى إذا شدت «كيان» الغناء فتحت كل النوافذ.. يسمع جيداً ويميز بسمعه.. لكنه لا يحب الكلام أبداً.. إنه ممثل في شخص «يزن» الذي يرسم دائماً على التراب ـ حتى كلامه ـ ويمضغ البقلة، ويشخص بنظراته إلى وجه «ريا» التي يحبها، ولا يريد أن يبوح لها!

وفريق الهضبة: يتكلم بثرثرة، لكنه لا يسمع أية نأمة.. وهو ممثل في شخص «صدام» الذي يشاهد «كيان» ويحبها، ويحدثها طويلاً.. لكنه يوم جاءته تطلب «الياسمين» للطفل «ميلاد» حتى لا يموت، لم يكن يسمع شيئاً مما تقوله!

والطفل «ميلاد»: كان يعيش على رائحة الياسمين، ويوم اختفى الياسمين من السوق، وجف النهر رقد طريح الفراش، وأشرف على الموت، وارتقت «كيان» الهضبة وهي تعاني مرضاً، وحادثت «صدام» طويلاً، فلما عجزت عن إيصال صوتها إليه.. هرعت إلى أشجار الياسمين وقطفت منها، وهرولت لتنقذ الطفل «ميلاد» من الموت برائحة الياسمين!!

لقد كانت «كيان» كما وصفتها المؤلفة: «مشعة كالكيان.. جريئة كالحرية.. تذكرني.. تذكرني بالإنسان»!!

وهذه العبارة وقعت في مسمعي عنيفة.. عنيفة!!

إن هذه الفتاة تذكر بالإنسان (!).. هذا يعني أن الإنسان أندرج في طيات النسيان.. انغمر في مرهقاتها كلها.. في قضية لم تنته، ولم يعرف

من أين بدأت. . اسمها: الانشطار. . بين من يسمع ولا يتكلم، وبين من يتكلم ولا يسمع. . كأنه هو الإنسان العربي اليوم!!

هذه «كوليت سهيل» التي ارتقت بتأملاتها أولاً. . أصبح «الكيان» في مفهومها ليس إرهاصاً ذاتياً. . ينبري لحظة الانفعال والرغبة، ويبحث عن الانفعال والرغبة في لحظات التيه. . إن «الكيان» هو مصير يحمل (التاريخ) كل ما فيه، ولا يتوانى عن الفصح!

إن «كوليت» تلتقط دهشتها بعد مسيرة ـ لا أسميها مسيرة ضياع النفس ـ بل هي من أجل النفس، وتتبلور الدهشة، وتتضح وتتعمق، وتتحول إلى «مفهوم». . مفهوم سيجعل أنيس منصور يعيد التفكير في الرأي الذي كتبه قبل سنوات عن هذه الكاتبة بالذات. . حينما قال: «لا تعرف الكاتبة ما الذي تريد أن تقوله، ولا كيف تقوله. . ولكنها تضع عبارات واندهاشات وتعبيرات ليس لها معنى واضح. . إنها تصرخ وأنت لا تعرف لماذا تصرخ، فهي تقفل على نفسها الباب وتلعن النوافذ»!

هذه العبارة لم تعد تليق بـ «كوليت» اليوم. . فقد كتبت شيئاً عرفته، وعانته، وقاسته قبل أن تنقله على الورق؛ وهي ذات أسلوب مشرق. . يكرس المعاناة والحزن؛ وأنت تبتسم بكل رضا!

وكوليت لم تعد تصرخ اليوم. . فالذي يجلس «ليفهم» الأطفال ويهدي إليهم نبراته. . ينشد لهم ويترنم ليفهموه. . ليقتربوا منه، فهو يؤدي عملاً!

إنها لا تخاطب الأطفال الذين شاخوا. . ولكنها تحضن الأطفال بكل ما في نفسها من جمال وأمل حتى لا يشيخوا!

وأنيس منصور كتب هذه العبارة قبل سنوات ـ ضمن مقال له أودعه في أحد كتبه، وعندما كتبها كانت هناك «نفرة» نسائية. . لكاتبات ملأن

المجلات والجرائد بالمقالات، والقصص والكتب المطبوعة.

كان هنالك صراخ بالفعل، وزحام، و«كعبله»! حتى استقامت أخيراً.. على جادة الأدب ـ بعض أقلام نسائية.. رسخت وأعطت صدقها، وتجربتها، وعكست وعيها، وثقافتها!

* * *

إن العودة ـ هنا إلى «كوليت»..

وبهذه العودة.. التزم بالتوقف عن الكلام.. لأني توقفت عند قفلة الرواية الأسطورية.. القائلة:

ـ «لا.. لن أموت يا حبيبي.. لن أموت!..

«ميلاد» يغني.. وسيظل للقرية ـ كيان ـ !!

* * *

اغتيال الغزالة!

ـ هو الرجل. . .

المنشد: الذي كان يغني لنا، ويغنينا. . فنردد أشعاره في خلواتنا وتوحد أرواحنا وحين تكون الفجيعة في واقعنا!

الذكر: الذي أشعل الرجولة عبر صوره الغزلية، فكانت قصائده بمثابة المنشور السري في غرف النوم العربية. . نتغنى بها في ظلال الأمسيات، ونلعنه بها في تفشينا تحت قرص الشمس الحارق!.

الشاعر. . . الذي قيل عنه يوم بزغ: «الشاعر الذي دخل غرفة نوم المرأة ولم يخرج منها»، فحمل هذا الوصف على ظهره كالصليب. . كصخرة سيزيف، وعبر بالحروف الخضراء، وبالكلمات الوردية العديد من اقبية «الانفصام» في الفهم وفي المشاعر العربية. . فكان لا بد له ـ كشاعر له وجه واحد ـ أن يقذف باللعنات جهاراً نهاراً، وأن يؤخذ بالأحضان مساء. . في انحناء ضوء الشموع!

الموال: الذي احتفينا بآهته وبأوجاعه، وعشقنا معه نساءه اللواتي ابتكرهن على الورق. . ثم كنا نبادر إلى طعن قوافيه وتفعيلاته وصوره الشعرية التي ركضنا وراء معانيها. . قافية إثر قافية، ومطلعاً بعد مطلع!

ـ هي المرأة. . .

الأنثى: التي أحالها إلى قصيدة تتمرد على دواوين الشعر، وبلورت بعطائها إلى أعماقه ـ حضوره في الحياة.. فأضافت إلى أنفاسه دفء القبلة، وأضافت إلى نبضه حيوية الفرح، وأضافت إلى فرحه بحياتها الحزن الصاهر والواقد.. ذلك أن الحزن هو الفرح ـ سمة لهذا العصر الذي نحياه ـ !.

الحبيبة: التي حققت في حياته المسافة ما بينه وبين قمة النشوة.. فكانت مقدار خطوة طفل سعيد!

الرفيقة: التي دعته إلى الخروج من قواميس التعب.. ليكتب في دفاتر الحياة وتحت شهادة ميلاد العمر: أسطورة العشق المكتوبة بقطرة ليس لها بديل أو مثيل.. قطرة الحنان!

الملهمة: التي أتى خلفها كل الغائبين الذين أحبوا الكلمة الساقية واللغة الشاعرة، فاضافت جمالاً إلى بهاء كلماته في نفسه!.

وفي لحظة مباغتة ـ اندلعت كحريق الغابات ـ تحولت الجنة إلى جحيم، والحديقة إلى «قبو»، وتساقطت الأشجار وتهدمت الغابة لتغتال الغزالة العربية.. بعود ثقاب عربي!

في لحظة.. ارتفع موال المنشد في صحراء الليل العربي:

«قتلوك في بيروت مثل أي غزالة

من بعد ما قتلوا الكلام!

بلقيس.. ليست هذه مرثية

لكن.. على العرب السلام»!

إذن.. لقد تحولت القصيدة العربية إلى دمعة. أصبحت هي رثاء

الحب العربي، وهي جراح العصر الحديث.

بلقيس ـ قبل أن تتحول غزالة اغتيلت ـ كانت أنثى مثل أية نثى معشوقة، جميلة، مثل أية أم منت من غرستها لأرضها العربية: زينب وعمر. . طفلان يتعمشقان ويطلعان ويتحولان إلى فيء للأرض وفوقها، وللإنسان وحوله!

بلقيس. . مليحة عربية، اختطفها شاعر فوق حصانه الأبيض، ومليحات كثر ما زلن يرددن أشعار هذا الفارس بعد اغتيال الغزالة المليحة.

نزار ـ الرجل ـ هو الذي أضاء أنوثتها. . هو الذي سكب العطر على شعرها. . هو الذي غزل لها بكلماته ثوب عرسها مع الوعد المعلن على الدنيا.

نزار ـ الرجل ـ هو الذي طرز ابتسامتها بالربيع. . فكان لا أنثى مثلها تبتسم في وجهه، وفي وجه حياته. فكان إنشاده عنها ولها هو «تعمير الأنجم»!

نزار ـ الرجل ـ هو الذي كان يقول:

أعبئ جيبي نجوماً، وأبني

على مقعد الشمس لي مقعداً!

ونزار ـ العاشق المنسكب أنفاساً وشعراً على جيد أنثى واحدة، رأى فيها كل النساء ـ استقر بعد أن استنبط ـ حبه منها ولها هذه الصورة التي روت عمره بعد عطشه:

«بلقيس. . يا كنزاً خرافياً. . ويا رمحاً عراقياً، وغابة خيزران. .

يا من تحديت الغيوم ترفعا..

من أين جئت بكل هذا العنفوان»؟!

***

اغتيال الغزالة.. يعني عند «نزار»: اغتيال العنفوان.

لقد ندرت الغزالة في الأرض العربية.. بعدما اصبحنا نركض خلفها فريسة: لجلاد!

وقيل الكثير عن نزار ـ الشاعر الذكر ـ، ولكن «نزار» قال الكثير عن: الذكر الشاعر، فهو لم يكن يمارس الحب بالماديات ـ ربما كان وصاله المادي هو معاناته! ـ لكنه كان يمارس الحب بالشعر.. ومن أجل ذلك ربما التصقت به دعاوى أو تهمة: الأدب الإباحي أو العاري، فرد على هذه التهمة يوم قال:

التزامي أنا بوجه حبيبي

أوليس الحب الكبير التزاما!

تهمة الحب.. ولا تزال ورائي

لا رآني ربي أرد اتهاماً!

فكيف يتمجد شاعر.. إذ كانت أكبر تهمة في عصره هي: الحب؟!

وكان «نزار».. هو ذلك المنشد الذي ارتفع مواله في غربة العصر، وتغريب الإنسان، فكأنه يبحث عن الحب، ولكن الحب لا يضيع منا.. وإن كان ضياعنا هو بحثاً عن الحب!.

إنها الكتابة في هذا الزمان: نحاول أن نتذكر بها رقة الأنثى وحنانها،

وشكل الوردة وعبقها، وغرستها وأشواكها. الكتابة لها ذلك المعنى والشكل والتأثير. .! إنها جمال، وعبق، وشوك!

الكتابة. . غازلها رسام قيل عنه إنه قطع أذنه من أجل أنثى، فقال: «الكتابة قطرة عرق. قطرة دم. قطرة دمع. قطرة راحة» . . ونحن نغتسل في هذه القطرات كلما انهدت أحلامنا، وأيضاً كلما برق شباب أمانينا. نحن فيها وطن، ونحن فيها وجدان، ونحن فيها إنسان فكرة ومبدأ، ونحن فيها طفولة تصد هموم العمر!

لكن «نزاراً» لم يقطع أذنه، وإنما هو حاول أن يخصي الانفصام في الفهم والمشاعر!

لقد تخللت حياة هذا الشاعر ثلاث مراحل:

ـ **مرحلة أولى**: وهي دخوله بالشعر إلى مخدع نوم الأنثى، أو مخدع الحب!

ـ **مرحلة ثانية**: وهي دخوله بالشعر إلى مخدع السياسة العربية!

ـ **مرحلة ثالثة**: وهي دخوله بالشعر إلى مخدع الخوف العربي!.

وكان حين دخوله إلى مخدع الأنثى، أو مخدع الحب يكتب ما شرحه وطرّزه وزرعه في كتابه «الشعر قنديل أخضر» وإن جاءت أغلب قصائده في هذه المرحلة الأولى: تحت قنديل أحمر!

وكان حين دخوله إلى مخدع السياسة العربية. . يكتب ما يردد أصداء «المشي على الحناجر» في الشوارع العربية. . مع بداية الغرق في الدماء والتجوف من الحميمية، فكان يكتب عن:

ـ «الذين حولوا حروف الهجاء العربية إلى طلقات رصاص»!

وصار يكتب قائلاً:

ـ ربما كان مطلوباً مني كشاعر أن أجعل مساحة القبح في العالم أقل، ولكن ماذا أفعل عندما تصبح مساحة القبح في العالم العربي إلى كل الذين وقفوا يشاهدون خروجه من مخدع الحب والأنثى إلى مخدع السياسة العربية، وقال لهم يومها:

ـ «إن القراء العرب الذين عرفوني ـ موشوماً ـ لمدة ثلاثين عاماً بشعر الحب، تعودوا على وجهي القديم وألفوه.. بحيث صاروا إذا رأوني ألبس وجهاً غير وجه الحب حسبوني متخفياً، وخابت آمالهم بملامحي الجديدة»!

ولو بقي «نزار» آبداً في مخدع الحب.. لاستمرت لعنات القراء العرب له جهاراً بالنهار، ولاستمرت أحضانهم وعاء لشعره في المساء. وعندما انطلق إلى مرحلته الثانية: لعنوه في الأمسيات ودقوا له الزار في النهارات المبتورة.. ذلك أن مشكلة شاعر الحب الذي يتحول إلى شاعر أرض وقضية، هي فضيحة قراءة. وعليه أن يحرر الأرض ويطرد المستعمر، فقال «نزار»:

ـ «إنهم يريدون مني أن أرجع إلى الأندلس، ولكن.. أين هي الأندلس؟.. إن الأندلس الأولى مسجلة في الدوائر العقارية باسم الملك خوان كارلوس.. أما بقية الاندلسيات ـ الضفة الغربية والجولان، وشرم الشيخ، والعريش، وغزة ـ إلى آخره، فلا تزال مسجلة في الدوائر العقارية باسم مناحم بيجن، ولديه صك تمليك رسمي بها، مصدق لدى موثق العقود في البيت الأبيض»!!

* * *

واغتالوا الغزالة . .

وناح المنشد . . ارتفع مواله ينادي النهار والرياح والجبال العربية. تحول إلى جرح يتمنى لو أنه يضيء الزمان المعتم بالحروب وبالهروب، وبالقتل، وبالحقد. . فدخل إلى المرحلة الثالثة: الدخول إلى مخدع الخوف العربي!!

فرغم أنهم اغتالوا الغزالة، ورغم أنهم «طمروا قمره ما بين الحجارة». . لكنه قرر: «لن يقرأ التاريخ بعد اليوم. .» لأن الشاعر دخل إلى مخدع الخوف العربي، فلن يتكلم بعد الآن، ولن يقرأ التاريخ. . لأن الدخول إلى مخدع الخوف العربي يمنعه أن يقول وأن يقرأ، فكأنها مرحلة انتحار لشجاعة!

لقد حاول أن يتكلم ويقرأ. . حاول أن «يرفع الستارة» ويقول:

ـ «إني أعرف الأسماء والأشياء. .

والسجناء، والشهداء، والفقراء والمستضعفين. .

وأقول: إني أعرف السياف قاتل زوجتي. . وجوه كل المخبرين.

سأقول في التحقيق: إني قد عرفت القاتلين.

وأقول: إن زماننا العربي مختص بذبح الياسمين»!!

ولكنه دخل إلى المرحلة الثالثة. . إلى مخدع الخوف العربي، فلم يفصح عن اسم السياف قاتل زوجته، ولم يدل على وجوه المخبرين، ولم يحدد من هم الذين عرفهم قتلة لزوجته بلقيس؟!.

أو كأنه قد ألمح إلى أن القتلة هم «كل» العرب. . لكن «كل»

العرب: تهمة شاملة.. بينما السياف قاتل زوجته معروف لديه، ولدى بقية العرب!!

لكن الدعوة إلى الحياة لا تموت، والطموح في الإنسان لا يقضي نحبه بطعنة.. بل إن الخطوة الأولى في الطموح: أن نخرج من الخوف، وأن نطعن الانهيار، ونجتاز الزجاج المكسور!

* * *

واغتالوا الغزالة..

فهل كانت هي الغزالة الأولى في تاريخ الحضارة والمدنية والثقافة وتوهج الوعي؟!

إن كانت مقتصرة على حياة الشاعر، وفي مساحة فرحه.. فهي الغزالة الحلم التي وصفها يوماً:

حلم مدهش أخاف عليه

فلكم كسروا لنا أحلاماً!

أما إن كانت «الغزالة» في تاريخ الحضارة، فقد اغتالوا قبل «بلقيس» الغزالة:

ـ الغزالة جان دارك. والغزالة زنوبيا. والغزالة «سمية» أم عمار بن ياسر. والغزالة «بنان» ابنة شيخنا على الطنطاوي، والغزالة «دلال المغربي» الفلسطينية، وكل يوم يغتالون غزالة في فلسطين، ويغتالون غزالة في لبنان. والغزالة «أشرف» زوجة مسعود رجوي الإيراني!

أما إن كانت «الغزالة» في تاريخنا العربي الطويل، فقد اغتالوا قبل

«بلقيس» الغزالة ـ سواء كان الاغتيال بالنصل أو بالضيم ـ اغتالوا:

ـ الغزلان: بنات الحسين اللواتي ساقوهن بعد مقتل أبيهن إلى الشام مع رأس الحسين كأنهن السبايا. . .

يومها وقف «يزيد» ينكت ثنايا الحسين بالخيزرانة، فقال له النعمان: أتنكت بقضيبك ثنايا الحسين؟. .

لكم رأيت شفتي رسول الله ﷺ على شفتيه يقبلهما. وقام علج من أهل الشام ينظر إلى فاطمة بنت الحسين قائلاً ليزيد: هبها لي. فقالت فاطمة بالأنفة العلوية الهاشمية أبنات رسول الله سبايا يا يزيد؟!. . فكان اغتيالهن بالضيم.

ـ والغزالة: زينب بنت علي. . جار عليها «مروان» فخافت البقاء في المدينة وهاجرت إلى مصر. . كأنما دار الهجرة قد ضاقت بها فهاجرت منها إلى غيرها. . فكان اغتيالها بالضيم!

ـ والغزالة: نفيسة ـ حفيدة الحسن وأستاذة الشافعي ـ تلك التي ضاقت بها الأرض في حجازها وبطحائها فهاجرت إلى مصر. . فكان اغتيالها بالضيم!.

ـ والغزالة: جميلة بوحيرد ـ الجزائرية المناضلة ـ التي كتبت بعذابها وهوانها أنصع صفحة في النضال العربي الحديث!!

* * *

واغتالوا الغزالة. . .

فنزل التشقق في أحداق الشعر. . فكل الصور تبدو ممزقة. صار

الشاعر يبيع حزنه للخوف، وللقهر، ويرتمي في القيظ حتى ينهد نوحه!.

أصبحنا الآن، كما قال واحد من الذين يكتبوا قطرة من عرق، وقطرة من دم، وقطرة من دمع:

ـ يجمعنا كل شيء.. ولا يفصل بيننا إلا الحب!!

* * *

كلماته . . تموت وهي حبلى!

من أجران الحزن والنزيف والتأوه . . يمتح أفراح التاريخ المسكوبة في الكلام الذي له عروق.

ترتجف السكينة في صدره وهو يتخطى الزمن ويجتاح المسافات، ويسمع (صوت الزمن القصيدة، وترجع الدنيا إلى الشفافة)!

يتشرد في الدروب المعادة وهو أصداء «كلمات تموت وهي حبلى»!

إنه ينادي شرارة الحجر . . ينادي صداقة العصفور . . ينادي «قاسيون»، وقمر الغوطة في آن واحد . . ينادي «صلاح الدين» في ذكرى الفتك الصليبي، وازدهار القهر الاستعماري.

إنه ينادي من الخرافة، ويتمرجح في ساحة الأساطير معلقاً في جدائل أنثى من هذا الشرق البخوري . . أنثى كان قد (سامرها . . غنى لها حتى غفا لها الكلام. لف عليها زنده وغطى . . ونام)!

إنه شاعر استوطن الغرابة، وزرع فيها حدائق زمن لم يأت!

عاشـر التشرد النفسي، وعاصر قسوة الخواء الضارب في أفكار جيل ما مات لكنه لم يحيا، وأنطلق بعد ذلك يحصد نجوم السماء في الظهيرة ويبعثر أشعة الشمس بحدقاته، حتى استطاع أن يجد صوت نفسه، وصوت فكره، وصوت إحساسه . . مجتمعة هذه الأصوات في بوح عشق يستشرف

الأرض، والأنثى، والزمن، والوعي!

ومن سنوات.. ارتقى «دونيس» صهوة الشواهد القائدة إلى إدراك ملامح الإنسان الجديدة الذي تصهره اليوم أحداث «تغير بنية المجتمع»!

ولدت شاعريته في صهد الإدراك.. في حرارة الشواهد، وأخذ يبحث عن رسالة الشعر الجديدة.. عن دوره في تغيير الواقع، وقال حينئذ:

ـ «إذا أدركنا أن ليس هناك انفصال بين اللغة والحياة.. يتضح لنا أن دور الشاعر لا يقتصر على تنقية اللغة وغسلها، وإنما يتجاوز ذلك إلى تنقية الفكر وبالتالي الإنسان والمجتمع».

وبهذا الإحساس أعطى «أدونيس» الكثير من فكره، ونبضه، ووجدانه ليسهم في إيجاد الكلمة المفتقدة والمطلوبة، وليجعل صوت الزمن هو القصيدة.

وبحث عن الإطار الذي يضع في داخله أفكاره ودعوته، واحتجاجه.. فكان «الرمز» هو ذلك الإطار، وقد رسم في داخله أبعاد وخطوط الألم الإنساني، وألوان النزيف، وتفاؤل الفرح الفجائي العابر شروخ النفس!

وربما قيل إن «بدر السياب».. هو أصدق متألم، وهو أتعس إحساس مات بسبب نضجه الشعوري، وقد تسنَّم السياب كل معاناته وسقط فوقها بعد أن هزمته ماديات الحياة، فلم يجد ملجأ للتعبير والإفصاح عن صدق روحه سوى الرمز، والخرافة، والأساطير، وقبل أن يتوقف نبضه قال السياب:

ـ «هناك مظهر مهم من مظاهر الشعر الحديث هو اللجوء إلى الخرافة والأسطورة والرموز، ولم تكن الحاجة إلى الرمز.. إلى الأسطورة أمسُّ

مما هي اليوم، فنحن نعيش في عالم تسوده قيم لا شعرية، والكلمة العليا فيه للمادة لا للروح، وراحت الأشياء التي كان في وسع الشاعر أن يقولها . . أن يحولها إلى جزء من نفسه تتحطم واحداً فواحداً، أو تنسحب إلى هامش الحياة».

و «أدونيس» يؤمن بهذا، وقد التجأ إلى الرموز، والخرافة، والأساطير. وضج ديوانه الذي أسماه (المسرح والمرايا) بالكثير من التصوير الرمزي، وبالكلام المنسق أسطورياً، وارتقى بالخرافة حتى الدهشة!!

إنه يعتني بمخاطبة النهر في داخله، وصوته ينساب في أحشاء ليل مدلهم، وصاغ شعره أحياناً في قالب تمثيلي، أو ديالوجي . . يحكي الخرافة التي تنوح الحقيقة في دمها، وصاغ شعره بالرؤيا المعاصرة التي شرحها «فوزي كريم» فقال عنها:

ـ «إن الإضافة الرائعة للشعر الجديد تمثلت دون شك بالرؤيا المعاصرة للعالم، وبتشكيل هذه الرؤيا في الطرق الفنية المطروحة والتي تمثلت بالبديل الموضوعي أو الرمزي أو الأسطوري».

وهكذا ابتدأ «أدونيس» رحلته بتصوير متحرك إلى الجوانب والزوايا، وعمق الصورة الإنسانية فقال:

(قشرة . .

غاية المدنية، رمل

حول رأسي، يداي، خاصرتي . .

رمحان، والأرض فوهة،

ويدي قبضة من الأرض

لا تحمل غير الأكمام والأحلام

غسلتها عيناي، لا ورق

التاريخ فيها،

ولا دروب الكلام.

هي بيتي، وجسري الأخضر

الطالع بين الأيام والأيام)!

ويستطلع بعض النقاد «الحدس» في شعر أدونيس، إنه مرتبط أيضاً بالرموز، وبأسطورة ويتلمس شرائق الكلمات في لحظة انبهارات موضوعية حميمة ذات التصاق بالواقع الإنساني اليوم: ماذا أراد الشاعر.. كيف عبر.. ما هي أبعاد الصورة فيما أبرزه ورسمه؟!

هناك ناقد عربي تتبع ارتحالات «أدونيس» واهتم بدراسة الحدس في الشعر، وقال عن الشاعر فيما بعد:

ـ «قدم أدونيس صياغات شعرية رائعة كمعطى لعملية الإضاءة الداخلية التي يمارسها في أعماقه الحسية، وحيث تومض الإشراقات الحدسية بنقلات سريعة ترسم طيفها المذهل أمام عيني المتلقي، بينما يسقط البعض من الشعراء في أحضان المخاطبة العقلية والتقريرية بفعل ارتباط شعرهم بالمناسبات. فالشعر الذي يتحجر فيه النبض الحدسي يكون أشبه بالسرد»!!

وتتوافر الإضاءة الداخلية حينما يقول:

(زمن يجري.. زمن يهرب مثل الماء

وأنا أجري..

كل نهار سكين في أحشائي..

والليل حراب

أشعر أن الشمس تعرى

ترقد فوق سريري مثل امرأة

حين يقال، قطعنا رأس)!!

* * *

واستطرد خلفه.. أجري لاهثاً مرة، ومتمشياً مرة أخرى ومتوقفاً أحياناً بدون تهيؤ. في صياغاته ابتكار الغرابة، وحنين الاستيطان في الزمن المشروخ.. المتسربة منه دفقات روحه، ومحسوس فكره.

إنه يعيش مع الإنسان المعاصر في حاضره.. لكنه يستشرف برؤاه انطلاقات صعبة، ومنتصرة خوالجه.. إنه كما يقول: «حتى تعيش في المستقبل من الصعب أن تكون مفهوماً في الحاضر.. خصوصاً إذا كان الناس جهلاء لا يفهمونك، ولا يقدرون أن يفهموك»!!

وعندما تضيع نظرته بعيداً.. تفتش عن المستقبل.. يروي حكايته:

(قلت: شعري هلة في جوف حوت

وأنا خطى قمر يموت

والشمس محبسي القديم

الشمس محبسي الجديد

والموت أغنية، وعيداً!

أسمعتني؟!

أنا غير هذ الليل..

غير سريره اللزج المضاء

جسدي غطائي..

رقع مزركشة لففت خيوطها

بدمي، وتهت، وكان في جسدي متاهي)!!

إني أنتقل ـ بتذكر ـ إلى حياة شاعر إيطالياً الكبير «أونجاريني» وقد كان يؤكد (بضرورة الانتباه لمعرفة الوضع الإنساني)، وكان يصوغ بالرمز، والحكايا الأسطورية إشراق المعاني، ويهتم بتجديد اللغة لتكون الصوت الجديد والمعبر مثلما يدعو إليه «أدونيس».. أي أن المطلوب هو هدم الانفصال الملحوظ بين اللغة والحياة، وتنقية اللغة استهدافاً «لتنقية الإنسان والمجتمع»، وقبل أن يموت «أونجاريني» قال عبارته هذه:

ـ «يجب أن نقول بأن ما فعله، وما قد صمم على فعله الشعراء والفنانون من الرومانتيكية إلى أيامنا الحاضرة واسع عظيم. لقد شعروا بعجز وتقادم عهد اللغة، أي بثقل آلاف السنين التي تجري في دمائهم.. كما أنهم أعادوا للذاكرة مقياس المعاناة، وفي الوقت نفسه وعبر جهود قاسية عنيدة امتلكوا قوة وهبتها الحياة بشكل تستطيع معه عتق نفسها بطريقة تؤكدها وتبرزها».

والمرأة في حياة «أدونيس» هي الطريق، وهي الوجه، وهي الأحلام.

إن الرجل ما زال يحلم بأنثى لم يجدها.. ذلك أن كثيراً من الارتكاسات المتغلغلة في شرايين المجتمع الإنساني تجعل الرجل دوامة، وتجعل الأنثى دوائر تكبر على سطح الماء ثم تتلاشى كلما ازدادت مساحتها!

والرجل يتطلب أنثى ذات سياج عاطفي معين له، وذات انطلاق

فكري بلا حدود، وذات شاطئ يلم الموج ولا يكسره!

إنه يقول في البدء:

(الطريق امرأة. .

وضعت راحة المسافر في راحة العشيق

ملأت راحة العشيق

بالحنين وأصدافه)!

حتى إذا ما تراءت له حلماً، ووجهاً. . بات عليه أن يناضل لغسلها، وتنقيتها من شوائب الارتكاسات، إن الشاعر يبحث عن امرأة، وفي ظله يمشي موت. إن عليه أن يجد الأنثى التي تفهمه لتبلور وجدانه وتقدمه للأحياء حياة. لكنه ماذا قال؟!

(سكنت وجه امرأة

تسكن في موجة

يقذفها المد إلى شاطئ

ضيع في أصدافه مرفأه!

سكنت وجه امرأة

تميتني. . تحب أن تكون

في دمي المبحر حتى آخر الجنون

منارة مطفأة)!!

إن اهتزازات نفسية تسبق هذا الانبلاج في رؤى الشاعر. .

إنه يحول أشياءه كلها: الكلمات، والاقتتال، والانفعال، والطموح،

والمرأة، والأرض، والزمن.. يحولها إلى عصارة رمز في كأس الخرافة.. باستكناه أسطوري. وقد قال ـ كونراد ـ:

ـ «إن الأدب كله بناء رمزي»!!

لكن هذا الرمز قد تبلور في ذات «أدونيس» فأصبح لغة تخاطب يرتقي بها الشاعر انفعالاته، ويقد من الزمن جوانبه اللينة.. لينحت شكلاً حلم به وفتنه، وصاغت معطياته، كل اندهاشات الذهن، وتأمل الروح!

إن «أدونيس» يغتسل في نهر الكلام ليموت كل يوم.. يموت لحظة، يطعم الجوع المستعر فيه!.. ولكنه في كل ذلك كان أيضاً يطعن اللغة العربية كتراث، وكقيمة من أجل الابتكار الأبكم!!

لقد وجد نفسه أخيراً في أجران الحزن، والنزيف، والتأوه.. وانساب في سمعه صوت الأنثى التي تشهد موته كل ليلة ـ حتى آخر الجنون ـ ويحيا في عينيها نهاية الليل، وهو يمتح أفراح التاريخ المسكوبة في الكلام الذي له عروق.

إنه يقدم واقعه.. واقع الإنسان العربي اليوم في هذه الصورة:

جاءني جائعاً.. مددت له حبي

رغيفاً، ودورقاً، وسريراً.

وفتحت الأبواب للريح، والشمس

وشاركته العشاء الأخيرا)!!

إنه يتشرد في الدروب المعادة، وهو اصداء كلمات تموت وهي حبلى!!

* * *

الفصل الثالث

أصوات الأيام . .

أيام هذا الرجل!!

أكتب لكم من داخل صدر هذا الرجل!!

صدر مليء بالأخاديد، والندوب، وترسبات التجارب المريرة، والقاسية..

من دائرة الصدى في صدره.. أمتشق لكم أحلى كلمات.. لا غيرها، لا سواها، لا بديل لها في حياته..

كانت له شمس ذات يوم، ونزفت اشعتها.. نزفت معاناة، ونزفت إرهاصات فكرية، ونزفت أياماً اتسمت بالطموح تارة، وبالماديات تارة أخرى، وبالأماني الشفافة جداً حتى الفضح، وبالرؤية الرومانسية حيناً، وبالرفض لأشياء كانت مثار جدال بين تصاعد سنوات عمره إلى الشيخوخة. وبين الانفعالات الشابة التي أخذت تتراكم في نفسه!

من داخل صدر هذا الرجل.. أنتقي لكم المناسبة التي وضع توقيتها هو، وجعل إطارها كلمة واحدة هي: أيامي!

في داخل صدره شواهد جيل كامل سمته، وميزته، وطابعه أنه قرر أن يعشق أيامه تلك بنهدة فكرية رغم صعوبة الأداة، والافتقار إلى انفتاح اجتماعي!

جيل يقول لنا دائماً، وفي كل حوار: كنا نقرأ على الشمعة، و«اللمبة

التنك»، و«القمرية»، وكنا نقتصد مبلغاً كبيراً لشراء الكتب لنلتهم محتواها بلذة، وتشهي، ورغبة. كان زحام الثقافة في العالم من حولنا يزداد، ولم تكن لنا قاعدة فكرية بالمعنى الدقيق. . قرأنا كل شيء في الوقت الذي جئنا فيه فلم نجد من يوجهنا، أو يتأستذ علينا، أو يدلنا على طريق الأدب الصحيح. . إنهم يمثلون النهج العصامي!

وخرج جيل من الكتاب: شعراء، وهم أقوى، وأمتن في ما قدموه من إنتاج. . وقصاصين كانوا يفعلون المحاولة بإصرار، وعناد. . وكتاب مقالة نقدية في طابع ملحوظ من تناول الذات والعراك «الديكي»، ثم تبلور النقد نوعاً. . فاستطاع كتّاب هذا اللون أن يساهموا في حدود مقدرة الفترة الفكرية تلك!

وحفلت جريدة «صوت الحجاز» ثم «البلاد السعودية» بزحام من أسماء الأدباء الذين برزوا فجأة، وأعطوا فجأة، وصالوا فجأة، واختفوا فجأة!

إن جيلنا المعاصر لم يعد يرى منهم إلا قلة. . وهذه القلة اعتادت أن تكتب اليوم شيئاً لا يعكس ابتداءهم، ولا يصر على تلك القوة التي سطعوا بها. الكثير لم يعد يكتب، والبعض لم يعد يقرأ أيضاً، والقليل مازال يساهم في إمداد الصحف بإنتاجه قطرات. . قطرات، وبغير الأسلوب الأصيل الذي عرفوا به، وبغير الأفكار الناضجة، والحياة التي تعاركوا من أجلها في عصرهم.

محفورون في دفاتر التاريخ الأدبي لهذا البلد. . والدفاتر مطبقة، وعلاها الغبار، وأصبحوا مجرد دعوة لدارس يأخذ نماذج قديمة، وينفض عنها الغبار، وهي مجرد أسماء محفورة لا أكثر!

* * *

إنني لا أرغب في سرد الأسماء، فيكفي أن تقول: تلك كانت حبيبتي.. من صورتها المعلقة على الدار.. من بسمتها المصلوبة على الورق تحكي تاريخ أيام غبرت.. من حزمة رسائل ترجع إليها كلما فاض شوقك لذكرياتك!

وأتمنى ألا يتهموا كلماتي هذه بالقسوة.. فعندما أرغب أن أنادي طيف حبيبتي الهاجر أقول: يا هاجرة.. يا قاسية!

إن الجيل الماضي حبيبنا.. قرأناه، وتعشقنا أفكاره، وحاولنا أن نقلد طريقته في الكتابة.. ثم ضعنا في وسط الطريق، عندما توقفوا في المنتصف، ورفعوا أذرعتهم ولوحوا لنا:

تقدموا إلى الأمام.. عليكم أن تعرفوا الدرب بإصراركم فقط، وبتنقيبكم!

أغلب أفراد الجيل الأدبي الماضي لم يترك لنا مؤلفاته لنرجع إليها..

بعضهم ـ أيضاً ـ تخلى عن افتتانه بالفكر.. تكالبت عليه أسباب العيش، ومات مخنوقاً بالغبار!

وعندما برز الجيل الجديد.. جاء ظهوره مهزوزاً، و«بالقطاعي»! وبالاجتهاد الشخصي البحت، وبلا ركائز تراثية، أو قومية، أو تاريخية.. اندفع إلى الكتب المترجمة. وقرأ ما تحصَّل عليه من مؤلفات عربية، وما زال ينادي: أين أدبنا المحلي.. أين نتاج أدبائنا الأوائل.. أين أصواتهم؟!

الأسف لا يجدي..

المواربة لا تمنح كل الرؤية!

المجاملة لا تعكس الحقيقة كلها!

إن الفكر جسر من الأذهان المتقد استمرارها على مر الأيام..

إننا ـ كجيل جديد ـ نمشي على الماء، ونصفق!!

(إن المأساة أن يعجب بك الذين يسيئون فهمك)!!

نحن لا ننكر أن من سبقونا أصحاب فكر، وإبداع، وفن وثقافة.. ولا نريد أن نسيء فهم ميزاتهم هذه.. فقط نود أن نلمسها.. أن نرجع إليها.. أن تكون ارتكازاً وقاعدة!

إن المحبة ضريبتها باهظة.. لكني كما قال أديب: «لا أعرف ما الذي أفتحه: فمي أو عقلي»!

إن رعيلنا الأول العزيز جداً تنطبق عليه عبارة الأديب الإيطالي ـ مباراته ـ إنه: (عبارة جميلة لها مبتدأ، وخبر، وعشرات من الصفات، وليست لها نقطة)!!

* * *

بعد هذا أتنفس.. كالذي كان يواصل السباحة أسبوعاً، ثم خرج إلى الشاطئ وألقى جسده، وأغمض عينيه، وصمت!!

إن كل كتاب تقذف به المطابع، ويحمل في رأسه اسم أديب أو شاعر، أو قاصّ من بلادي أتلقفه بنهم، وتعتصره يداي حتى أنهي قراءته، إلى أن وجدت فجأة شاطئاً جميلاً وجلست أتطلع إلى حركته، وأنفاس من فيه!

وعلى شاطئ العبارة «الشكولاتة» التي يكتبها هذا الرجل.. جلست أستمتع بنكهتها.. فهو صاحب أسلوب «شيكولاتي» تأكل بحسك ولا

تشعر بالتخمة، وأيضاً لا تشعر بالامتلاء!!

إن أسلوبه فريد، وماتع، وشاب، وينتزع شفتيك من بين أسنانك!!

ودخلت في صدر هذا الرجل، وهو ينادي بعنوان كتابه: أيامي!

إنه أستاذنا «أحمد السباعي»: المؤلف، والصدر المنادي.. إنه من القلائل الذين واصلوا الكتابة إلى حين، ومن الذين واصلوا طباعة كلماتهم وأفكارهم حينما تتيسر المادة، وانتزاع الفراغ من الوقت الفارغ!

إنه صاحب مطبعة، وهذا شغله الذي كان!

وصاحب محبة للحرف.. غير أنه كسول.. بطيء الأصابع وعندما يكتب فهو «أحمد السباعي» الذي قرأنا له من زمن بعيد: فكرة، و «أبو زامل»، والكجا، وصحيفة السوابق، وإن كنت أرى أحسن ما كتب هو قصته «فكرة» ـ رغم قدمها .. قدم فكرتها، وقدم طباعتها، وقدم معالجتها، وقدم «التناول» الكتابي في أسلوب القصة!

لقد أبصرت فجأة أن أمامي كتاباً مطبوعاً للأستاذ «أحمد السباعي» عنوانه «أيامي» وإن هذا الكتاب هو عجينة لأصل قديم له.. اسمه «أبو زامل».

إن الجديد في هذا الكتاب أنه وضع النقاط إلى الحروف، وكشف عن أبطاله، وأشخاصه، وماضيه.

لقد تحدث فيه عن نشأته، وعهد «الكتاتيب» والتربية بالعصا، ووصف الطموح في عهد «الأتريك، واللمبة»، والكفاح في الحياة على نحو مرهق، وصاهر!

وقرأته.. أعجبني فيه أسلوب الأستاذ السباعي الذي لم يطرأ عليه

تغيير . . وعرضه الشيق للأحداث، وتناولها بدون أن ينسج في صدرك الملل .

إن في هذا الكتاب نفس هذا الأديب، وشخصيته، وحياته الأولى، وهو على نسق «الأيام» لطه حسين، و«حياة قلم» للعقاد، وإن اختصر السباعي ملامح كثيرة، وغيبها، وهو يفتقر أيضاً إلى ركائز تفصيلية لجوانب أخرى من حياة الأديب . . فلم يفعل طريقة «باسترناك» في مذكراته، وتخلى عن قسمات معاشية، أو حياتية كتلك التي فصّلها «جان جاك رسو» في مذكراته أيضاً، أو التي اعتنى بها وتغنى بها «جوته» في كتابه آلام فرتر .

لقد تطلع الشيخ السباعي إلى نفسه في المرآة. فرأى الشيب قد خط فوديه، والتجاعيد ملأت وجهه، والهرم باد عليه . . لكنه أغفل تلك البسمة الشابة المتفائلة التي عرفناها على شفتيه دائمة. و «برشم» المعاناة، والانفعالات التي مازالت تجيش في صدره، وهو ـ بعد هذا ـ يذكرني بعبارة العقاد التي قالها في كتاب «حياة قلم»:

ـ (إن الإنسان يعرف نفسه بالتخمين لا بالتحقق، وإنه كثيراً ما يكون في تخمينه عنها غريباً يبحث عن سر غريب، ولا فرق في هذا بين البحث عن أعمالنا والبحث عن أعمال غيرنا لا في الدرجة والمقدار بحكم العادة والتكرار)!

* * *

بعد ذلك جلست القرفصاء، أو الكرفصاء ـ بقراءة عبد الله بن مسعود ـ وأخذت أتطلع إلى وجهين يفيضان حباً وعمراً وجهداً.

ـ الوجه الأول: هو يتشكل من هذه الحياة العريضة.. الحافلة بالعرق، وبالإبداع، و(الفكرة) وبالأماني التي حاول صاحب الوجه أن يحققها من انتمائه وإحساسه ببلده، وحاول أن يكون عطاؤه متفقاً مع أحلامه العظيمة التي أحب فيها بلده، وعشق أرضه، وأفنى عصارة عمره في السعي الدؤوب والمخلص.. ليكون مشوار (الأدب) درباً يوصل الخطوات إلى الفرح بالجهد، وإلى الفرح بالتطور، وإلى الفرح بامتلاك قيمة الإنسان في الإنسان!

والوجه الآخر: (يلذ لي!) أن أطالعه بلا نسيان.. كأني أتأمل (البوم) صور لملامح ولحياة أصيلتين.. وأركز نظري على صورة فيه، مألوفة.. تتضح من خلالها عادات البلد القديمة، وحكاياته!

والصورة (المطلع) في بداية هذا (الألبوم).. تتجسد قسماتها من خلال كتابه (أيامي) الذي روى فيه أهم جوانب كفاحه، وأحلامه، وتحدث عن حكاية شغفه بالأدب، وعشقه للحرف، وإقدامه على الكتابة.. فقال:

ـ (لعلّ في قصة إلحاقي بركاب الرعيل الأول من كتاب الحجاز ما يثير الضحك.. فقد تسامعت بخبر هذا النفر وكنت قد علقت الكتابة وتعشقت الأدب، فعن لي أن أجرب قلمي.. كنت يومها شاباً أشتغل بالتدريس، وليس بين الرعيل إياه من يعرف حتى اسمي، فأنشأت أجرب قلمي خفية، ولكن.. هل أنشر إنتاجه على السطح؟!.. تراءى لي أن أجمعه فيما يشبه المجلة أو الكتاب، واقتحم به هدوء الشيخ محمد سرور الصبان ـ أبرز الشلة يومها ـ وأعتقد أن الشيخ محمد سرور ضحك يومها ملء صدره من هذه الخبصة! ـ بعد أن قرأ بعض وريقاته».

إلى آخر ما رواه أستاذنا أحمد السباعي عن هذا البداية!

ثم كانت الصورة (المحبرة) التي عكس (السباعي) من خلالها أفكاره المتقدمة. . هي تلك القصة التي نشرها في بداية طلوعه الأدبي، وأسماها (فكرة). . وكانت أول قصة طويلة أصدرها وأحدثت ضجة في أوساط الأدباء والمثقفين يومها. . وهي قصة فتاة عاشت لآرائها الحرة في الحياة!!

وتوقفت عند قسمات (خالتي كدرجان) وهو اسم اختاره لمجموعة قصص (تضم أنماطاً من واقع بلا رتوش) كما قال.

ومن خلال مجموعاته القصصية وأدبه عامة. . تكتشف أن (أحمد السباعي) هو مصدر حريص ومبدع. . التقط عشرات (البوزات) لفترة أصيلة من تاريخ مجتمعنا، وتكتشف أن طريقة (أحمد السباعي) في الكتابة، تتسم بصدق النقل، ورقة الملامح وهو (شعبي). . استطاع أن يجعل قارئه يرى ويلمس أبرز ما كان يعتمد وتتصف به (جوانية) ابن البلد، وأي خالة وأم وفتاة في تلك الفترة. . واستطاع أن يصور أحلامها ويفضحها، وهي تلبس (المحرمة والمدورة) وغطاء الوجه الذي (يكعبل)!. . وفي نفس الوقت تهمس بحب: (تعال يا رفيق روحي. . ليتك تسمعني). . فكأنني أقرأ دقة في تسجيل ملامح مجتمعنا القديم بالبراعة التي اتصف بها (نجيب محفوظ) وهو رسم بالكلمة صورة المجتمع القديم!

إن الريشة التي يرسم بها (السباعي) هذه (التابلوهات) الاجتماعية الشعبية. . يغمسها في عدة أوعية، لكن (التابلوه) يعكس في نهاية العمل لوناً واحداً زاهياً!

شريط حياته:

إن (أحمد السباعي) هو أحد فرسان القصة القصيرة، أو هو أحد

(قدمائها) المؤسسين لها بروح البلد وعاداته وتقاليده، وقد ربى نفسه وفكره بركضه المستمر وراء كل ما كان يصدر من كتب، مثل دودة القز، فالتهم الكثير.. ولكن ذهنه كان يطوف به حول تنفيذ رسالة يحبها كثيراً، كانت رسالة المعلم، وحاول أن يعطي هذه المهنة إخلاصة، ومن خلاله أراد أن يصل إلى أذهان الشباب ليدلهم إلى مزيد من نوافذ المعرفة.. فلم يكن (معلماً) عادياً يمسك بيده (الخيزرانة) ويضرب، و(يمصع) الأذن، ويدلق وظيفته كشيء يريد أن يخلص منه.. بل كان من الرواد أصحاب الهدف والرسالة.. لذلك، فقد بدأ حياته بأول مؤلف أصدره، ويعتبر أول كتاب وطني وضع لتدريس القراءة العربية في المدارس السعودية، وأسماه: (سلم القراءة العربية) من ستة أجزاء!

وكان بشكل أو بآخر.. يرتبط بمهنته الأخرى التي مارسها توارثاً عن أبيه.. فعمل (مطوفاً) للحجاج واستفاد من هذه التجربة، فأصدر كتابين هما: «المرشد إلى الحج والزيارة»، وضمنه معلومات عامة عن المناطق المقدسة وآثارها التاريخية، والكتاب الآخر أصدره بعنوان: «مطوفون وحجاج».. وهو دراسات تبحث شؤون المطوفين وتدلى بآراء جريئة عن مهنتم!

ولعلّ من أطرف ما قيل عن كتبه هذه: أنه كان يكتبها بعد منتصف الليل.. لأن أسلوب هذا الكاتب يميل إلى الرومانسية، ورشيق العبارة والاستهلال!

وبرغم أن أستاذنا (السباعي) قد تعمقته الشيخوخة في أيامه الحالية.. لكنه ما زال حين يكتب ينطوي على روح شابة، وأفكار متطورة.. فقد كان صاحب فكرة إنشاء (المسرح الإسلامي) في مكة المكرمة، واستعد

لتنفيذ فكرته، وشيد المباني الخاصة بالمسرح. . لولا ظروف حالت بينه وبين حلمه هذا بعد ذلك!!

وأسلوب (السباعي) يتميز بالطابع القصصي. . حتى فيما كتبه من مقالات ودراسات تاريخية. . وله اهتمامات (بتاريخ مكة) وأصدر مؤلفاً هاماً بهذا العنوان. . ضمنه دراسات في حياة مكة المكرمة: سياسياً واجتماعياً وعمرانياً وعلمياً.

❋ ❋ ❋

مؤلفاته:

ومؤلفات (السباعي) ليست كثيرة، ولكنها متميزة بأسلوب يعرف به وينفرد، ويكاد البناء القصصي يغلب على الكثير من أعماله، فقد أصدر «فلسفة الجن» (وهو مقارنات بين عالمنا الأرضي ومثل الجن السامية وراء المجهول)، ثم كتاب «صحيفة السوابق» (وهو عرض للجريمة وتحليل للظروف التي تهيئ للإجرام، ومدى مسؤولية الناس عنها)، وأصدر كتاب «يوميات مجنون»، (وهو بحث في فلسفة الحياة، يتناول فيه ألواناً من غرائب المفارقات فيها. . كتب على لسان مجنون).

وكتاب «دعونا نمشي» الذي قال عنه: في هذا الكتاب الذي أقدمه للناس دعوة صارخة للعمل في نواحي الحياة بقوة الرجل المتوثب للنهوض فيها!

❋ ❋ ❋

وقفة هامة:

وفي تاريخ (أحمد السباعي) الأدبي وقفة هامة، تشير إلى أنه كان من المتحمسين لتعليم المرأة، فأنشأ يكتب محبذاً تعليمها، مما آثار عليه آنذاك حفيظة الكثر وتعرض للنقد اللاذع، وله في ذلك حكاية يرويها فيقول:

ـ شرعت أكتب بتوقيع فتاة: فصولاً متسلسلة، جعلت الفتاة فيها تصف نشأتها التعليمية وما نالها من عناية أبيها وأخيها .. حتى تذوقت معنى الحياة، وبدأت تنمو بافكارها إلى مستويات باتت محسودة عليها.

كتبت ذلك في بحوث مستفيضة، فلم ألبث أن وافاني تعليق لفتاة، لها شخصيتها المعروفة، وظن القراء أنه نقاش حاد بين شخصيتين.. لا يشك مرتاب في وجودهما.. وزارني في أحد الأيام عين من أعيان مكة يسألني أن أصارحه بأسمي.. الفتاتين. قلت: ولكن النظام لا يبيح لي هذا. قال: ولكني أنوي خيراً، فأنا قادم على الزواج.. ويسرني أن أجد الفتاة المتعلمة التي تسعدني!

ـ قلت له: أما والأمر ما ذكرت، فثق أني لسوء حظك أحد الفتاتين!!.. أما الثانية فهي من بيت فلان!!

* * *

ملامح من أدبه:

كتب (أحمد السباعي) القصة من وحي البيئة التي نشأ فيها وتعلم.. فكان يكتب القصة كما يصف أحد النقاد: (كأن القصة بتصوير بيئتها هي حقيقتها الزمانية والمكانية.. أي كل ما يتصل بوسطها الطبيعي، وبأخلاق الشخصيات وشمائلهم وأساليبهم في الحياة)..!

وهكذا فعل الأستاذ السباعي في كتبه. . كان يبحث عن سر غريب!!

إن صدره مليء بالأخاديد، والتجاعيد، والتجارب. .

لكنه أيضاً صدر غني بالحب، وبالتفاؤل، وبالشباب. .

وكنت قد أهديته عبارة راقصة قبل أن يموت. . أضعها في قفلة هذه السطور. . تقول:

«البجعة تغني قبل أن تموت»!!

صوت.. من خارج الزمن!!

هذ الصوت قادم من جديد.. قادم من خارج الزمن!!

عائد هو من تاريخ غرق العشق إلى ـ تاريخ ـ النسيان.. إلى الغربة!

عائد من «إرم ذات العماد» لحظة ظهورها على وجه الأرض ومعه الأمواج، والرياح، والنسمة، والشراع المثقوب، وخطوات لم تكد تهرع حتى تتباطأ، وحينما تتباطأ تشهد هروب القادمين إليها!

قادم هذا الصوت في بطء الزمن المحصول على حياة قلقة مسرعة الوقفة!!

ضاع الصوت.. اختفى خارج الزمن وهو ينادي على ما في عمق الزمان، واشتعل رأس صاحبه شيباً، ولم يزل القلب متوهج الخفق.. ذائب الوجيب.. مردداً مزامير العشق الغارق، وأناشيد الشراع الساري.. لقد وهنت الخطوة، وازداد اتقاد الآهة، وكان ذلك الاختفاء هو تبرير للذين استعذبوا النسيان له، وكان الاختفاء هو «الحكم» الذي أصدره ضد شراعه، وليله وأمواجه، وصوته!

غير أن للنسيان لحظات ذكرى، وللحظات الذكرى خفقة حنين، وفي وقدة الحنين جاء الصوت من خارج الزمن.. عاد من غرق العشق..

ليفرد على أيامنا هذه العبارة للعطش، وللمبتلة شفاههم بلحظة الذكرى. . فقال قبل أن يرحل:

ـ (أنني أقضي أيامي ولياليي كالناب في مبركها. . ترقب نشاط الإبل من حولها، ولا تطيق انبعاثاً إلا أن تدور بعنقها، وعينيها)!!

ويستطيل سؤال: ما مدى العافية التي تنشط هذه الإبل؟

وقبل الإجابة. . علينا أن نستعيد العبارة ثانية. . آتية بنبرة هذا الصوت. . صوت الشاعر المتقد آهة. . الواهن خطوة زمن. . الضاج بالحنين. . صوت «حمزه شحاته»!!

لقد سكب الشاعر حنينه في أنبوبة اختبار ضيقة هي ذكراناً له ـ نحن الذين نسيناه زمناً طويلاً ـ مشغولون بالنظرة إلى الداخل. . عيوننا «كعيون تماثيل الرومان نظرتها إلى الداخل»!. . وتركنا الخارج للعاصفة. . لخطوات تحدي «جلجامش». . لقرعات «أنكيدو» الذي حاول أن يهزم رفيقه!!

على الشريط الطويل بلا مقاس. . كان تاريخ أدبي، وكانت معارك فكرية قديمة توهجت، توهجت، وتكوّمت رماداً مع الأيام ومنذ أختفى «شحاته» بنفسه، غرق العشق وانطفأت جذوة التنافس، وعاطفة الحرف. . بقي فترة ـ بعده ـ السرحان، والقنديل، وطغت بعد ذلك النظرة إلى الداخل بعيون تماثيل الرومان!!

والشريط طويل، و«محنط» كمومياءات الفراعنة بلا توابيت!!

إن حمزة شحاته يشبه إنسان «فاليري» الذي قال عنه في هذه العبارة!

ـ (يتمتع بنظرة معينة تجعله يختفي بنفسه، وبجميع الأشياء، الأخرى، وهي تثبت نفسها في الزمن خارج الزمن)!

إن حمزة شحاته غرق من قديم في تاريخ كان هو غرق العشق؟؟ ثم

برز على السطح، وحاول أن يواصل رحلته بشراع ثقبته الأعاصير ومزق أطرافه غلو الحنين.. فإذا هو كحالة ـ أرم ذات العماد ـ التي وصفها عبد الوهاب البياتي قائلاً عنها: «كلما بعدت أبطأ المجدُّون في سيرهم إليها، وكلما اقتربت هرعوا مسرعين إليها»!!

فهل تطرحون الآن الإجابة على السؤال ـ أعلاه! ـ .. القائل: ما مدى العافية التي تنشط هذه الإبل؟!

لقد قدم صوت «حمزة شحاته» إلينا يحمل عبارته.. فغذا بنا أمام الشاعر هذا وهو «كالناب في مبركها لا تطيق انبعاثاً».. كما وصف واقعه في أيامه الأخيرة!

إنه عائد من خارج الزمن لا ليثبت نفسه، وإنما ليجعل الأعناق والأعين تلتفت إلى مكانه ـ إلى خارج الزمن ـ وحوله صدى هذه المعاني التي صاغها شعراً ذات يوم فقال:

«من لنفسي بالوهم فيك فألقاك — وتلقيني ألف قرار
فلقد طال بالحقائق للناس — افتقادي وفي الحياة عثاري
ويل لها من حقائق زلزلت — صرح خيالي، وقتلت أوطاري»

* * *

أيها الصوت القادم إذن:

ـ من أتى بك؟!

ـ من أزاح الستر عن مبرك صاحبك بهذا الانبعاث عندنا نحوه.. في اللاانبعاث عنده بسبب الأيام والليالي، والنسيان والحنين، والذكرى والوهن؟!

ـ ما هي تركة الأيام والليالي التي خلفتها لوجدان الشاعر في منتهى رحلته؟!

أكاد لا أطيق التمعن في الأجوبة المنتظرة. . فالشريط الطويل منحط في نفوس الذين يستمعون إلى الصدى هنا. . الذين يصيحون لعمق الصدى للصوت القادم!!

* * *

أيها الصوت العائد بخروجك:

الذي أتى بك هو معنى فلسفته عبارة حملتها منه. . تقول:

ـ (إن المتفقين في الكلمة. . أجدر بالرثاء من المختلفين عليها)!!

لقد جئت ـ أيها الصوت ـ ترشي الكلمة هنا. . فالاتفاق عليها لا يعني الفهم لها، أو الاقتناع بها، بقدر ما يعكس الإهمال للكلمة، وسجلها على الورق حتى الطمس!

والاختلاف على الكلمة اليوم أصبح شكلاً، والشكلية ذاتية والذاتية بعد عن استنهاض معاني الفكر، وتلوث بما في الداخل. . بما تراه عيون تماثيل الرومان!. . لم يعد اتفاق، أو اختلاف. . لأنه لم يعد كلمة. . هنا فقط حروف يتم تركيبها غالباً في أنابيب الاختبار، والذين قالوا إن الأدب مزدهر يجاملون «التجربة». . يخافون على آلية التوليد!

إن مفتاح الفكر هي الكلمة المليئة بالمعاني. . هي الكلمة التي تشق بطء التطلُّع ورتابة الفهم، وتضرب بلادة الرؤية!

أيها الصوت القادم باختفائك:

الذي أزاح الستر عن مبرك صاحبك. . هو الاحتجاج على حوار صاحبك هذا النافي لشاعريته. . المتبرئ من تاريخ وهج عشقه!!

إننا أمام «الناب» في مبركها لا تطيق انبعاثاً، وتاريخ حافل، وكلمة

حية حتى اليوم، وشعر نابض حتى الغد.. نتأمل ما قاله «شحاته» وهو يتبرأ من شاعريته.. من «أرم ذات العماد» التي ظهرت تحت سحابة نسيان مؤلمة.

نتأمل عبارة أخرى كتبها لأحد أصدقائه في رسالة عاتبة.. بابتسامة دامعة، فقال:

ـ (قال صديقي: لماذا لا تعترف بأنك شاعر ما دام الناس يقولون هذا؟!

ـ قلت: أخشى أن يقولوا غداً إني مجنون، أو حرامي!.. ولم يضحك صديقي لأنه لم يفهم)!!

ولم أضحك هنا، ولكني فهمت أن الإحساس اليوم، والمعاني والسمو الفكري تساووا بتصرفات المجنون، وبانحراف اللصوص.. أي أن الشعر في النظرة العامة، أو التعبير الفني، أو الفكري هو جنون، أو سرقة زمن!!

وفي انطباعي.. أن الجنون مادة وليس روحاً، وأن السرقة مسلكاً، أو حالة، وليست شعوراً أو ضميراً!!

واستطرد الحوار عنك بعد هذا.. بأسئلة همشرية متفوقة الغرض.. تقول كلاماً عن الشعر، وعن النقد، وعن المحتوى التاريخي لهذا البلد!!

وأردنا ـ إمعاناً من أجل الحب والإخلاص والعرفان ـ أن يمتد نفس الحوار.. فالوقت ليس كارثة، والزمن ليس حدوداً والمعرفة ليست وقفاً على أحد (!!)

وبصوت مسموع جداً.. قلنا كلمة مفهومة مقروءة مدروسة: «الأزمة

ليست قائمة في الشكل الشعري بقدر ما هي قائمة في وجود الشعر، أو عدمه!. . إن الناس لا تفهم الشاعر لأنهم لا يفهمون إلا الحقائق السطحية. . أما الضباب والجليد اللذان يرقد تحتهما زمن كامل فذلك شيء لا يفهمه الناس الذين لا يعترفون إلا بالحقائق الملموسة من قبيل ممنوع التدخين. . ممنوع البصق. . الوقت من ذهب»!!

هذه هي الأزمة في الداخل قريباً من العيون المقلوبة كعيون تماثيل الرومان!!

* * *

أيها الصوت القادم بغرق عشقك:

التركة التي خلفتها الأيام والليالي لوجدان شاعرك، لا تنحصر في البحث عن إطراء وثناء الناس عليه. . إنها تركة موزعة بالقسطاس على العمر، وعلى الشريط التاريخي الطويل للأدب هنا، وعلى الخروج خارج الزمن، وعلى اختفاء الأبعاد في ثواني غرق العشق القديم المتجدد!

التركة مخضت أصواتاً هلامية مغرقة في الجحود، مطموسة بالغرور، محقونة بالرفض الأجوف البعيد عن معنى الرفض احتجاجاً على عنت!

التركة هي هذا التفكك، والاضمحلال، والشيخوخة الذهنية وخواء الروح من معطيات للحياة!

التركة جعلتك أنت كالناب في مبركها لا تطيق انبعاثاً، وجعلت غيرك يقتات الاجترار، ويتناول الشذوذ الفكري، «يمارس» تأملاته بعيداً عن الأعين، والأسماع والأذهان الجديدة المقبلة على استيعاب مرغوب!!

وإذا التركة حقيقة هذه الحصيلة التي صورتها في أبيات تقول:

كم سرينا على سناها حيارى   نركب الوعر، والعواصف خرقاً
وانتشينا بها خيالاً من الرا   حة احنى مهداً وأنضر أفقا
فإذا نحن في كفاح مرير   بين سار على الكلال وملقى!

* * *

فماذا تبقى من تاريخ غرق العشق؟!

هل تبقى هذا الرفض:

لا تقولي أخشى عليك العوادي   أي شيء أبقت عواديك مني؟

أم هل تبقى هذا الاقتناع:

لا تقولي أهواك لست على   صحراء حسي اللاظي سوى ابن سبيل
عاثر الحظ، والخطى يخبط   الوعر بوعر من يأسه والغليل
ماله غاية وما غاية الحيران   تجري بين السرى والقفول

الذي تبقى حقاً، وفي الوجدان عمقه.. ما قاله «حمزة شحاته»:

أفلسنا والحب مطلب نفسياً   غريبين في سبيل الوجود
جمعتنا أسبابه مثلما تجمع   ضدين: صائداً بمصيد!
فمضينا على هوى يبطن الغاية   منه بين الظما والورود
وانتشينا بل انتشيت، فقد ضاع   نصيبي بين الأسى والجمود!!

أيها الصوت القادم ـ الآيب من جديد:

لا أتحدث هنا عن شاعرية صاحبك لأنني مقتنع بما قال: «إن

المتفقين في الكلمة أجدر بالرثاء من المختلفين عليها»!!

إنني أنظم هنا رثاء «منثوراً!».

ألمس به بطء الزمن المحصول على حياة قلقة.. مسرعة الوقفة.. يندلق امتلاؤها على فراغها، ويعيد الفراغ ذلك الامتلاء بكل قرف!!

إن تسليط الضوء الفاضح على الشريط الطويل المحنط.. مناسبته الصوت القادم، فالحديث كله عن «إرم ذات العماد».. مدينة العشق، وعن تاريخ غرق العشق!

الحديث عن أهل الكهف، وإن كان الاستطراد التاريخي ملحّ جدا!!

ـ حمزة شحاته.. أيها النابض على البعد في عشقنا.. أيها الفراغ الممتلىء..

أقول لك:

ـ دعنا نتفوق عليك مرة بحب كبير كبير.. تعرفه في رغباتك، ولعلّك عرفته الآن فينا!!

إن للنسيان لحظات ذكرى..

وللحظات الذكرى خفقة حنين..

وفي وقدة الحنين جاء صوتك من خارج الزمن.. عاد من غرق العشق، فدعه يغرق ثانية.. دعه، لأن الاستطراد التاريخي هذا لا يكافئه!!

لأن.. لأن دواعي العشق قاتلة ومقتولة!!

المشكلة هنا ليست موضوع الحب، وإنما هي وضع الحب!!

ـ وصال أخير:

يا سيد الكلمة المنفية إلى الأرض:

كانت فرصتك أن تكون شاعراً، فتملكت الفرصة لتجعلنا بها جيلاً كبر بأمانية.. مشى بالبداية.. حمل فوق كتفيه طريقه وسار إلى المستقبل!

أتيت من خارج الزمن.. لتموت في داخل الزمن!

قدم صوتك إلينا بإحساسك.. يدخل بطء الزمن المحمول على حياة قلقة مسرعة الوقفة!!

ومضيت عن هذه الحياة التي يبكينا موتها، ويضحكها موتنا.. لأن طبيعتها أن تأخذنا ولا تعيدنا. أن تأخذ منا ولا تعطي إلا ما متنا من أجله.. بعد أن نموت!!

هذه الحياة تعطيك الآن هذه «الزفة» التي يفعلها من أحبوك أو عاشروك أو زاملوك. كلهم تذكروك الآن وقد نسوك زمناً قاهراً. كلهم يردد هذا البيت في تأبينك:

(إذا ضحك الموت في شفتيك   بكت ـ من حنين إليك ـ الحياة)

ولم يكن الموت مفاجأة، وإنما المفجأة كانت أننا نعيش الحب.. كل بأسلوبه، وباحتماله، وبطاقته.. بينما أنت لم تشبع من الحب، فبقي صدرك يدور كرحلة السواقي القادرة على غناء الحزن وسط أشجار كثيفة تنتظر الرواء!

تقف في رؤيتي كالنبرة البهية.. كجذع شجرة تضرب عروقه باطن الأرض، وتتقاسم الطين والماء والهواء.

خلفك الظل يستطيل..

أمامك «الفيء» يتعاطف مع المحرورين من هجير نفوسهم!

ارتفعت بالحياة إلى حيث يقيم الصمت بيتاً له فوق رأس الخرافة. . فوق هامة الأسطورة، فلا شيء يعطيه الآخرون لنا. لقد أخذوا منك لغة الحنان، وفتيل الشمعة، وتاريخ الليل!

ـ ولقد كانت المشكلة: ليست أن نجعلك تحبنا، وإن كنا نتلمس ناصية نصل عبرها إليك. . زمنها: هذا البذخ في الحزن. هذه الوليمة في المعاناة. . هذا الضوء الباهر من الإصرار والعناد لكي لا يهزم الحب في داخل الإنسان.

المشكلة كانت: معرفتنا لزمن جديد يعيشه إنسان اليوم . . منذ بدأت قرعات «أنكيدو» حتى عصر الامتدادات لكل ما هو حاصل نتيجة انهزامات البطش النفسي، وانهزامات القوة المتميزة. . ووصولاً إلى فلسفة الحرص على البقاء، وبقاء الحرص على أصغر الأشياء في حياتنا!!

وكنا نتحدث عن الحب فنذكرك دائماً. لأننا أحببناك فكراً، وأحببناك لوحة أصيلة باهرة بكل ما فيها من صراخ الألوان، وأحببناك عطاء خذله بإعياء الشك في ما حول نفسك. فلو بقيت للشك صحته في داخلك لاستمر عطاؤك، وأحببناك حباً لا يخون، ولا يهون، وأنت تقول:

لست تدري، نعم، ولا أنا أدري   لم تهفو إلى لقائك روحي؟
ولماذا أكون فيك كما ترسف   في السجن فكرة المكبوح؟!

ولقد مضيت، وخلفك ـ في موكبك ـ عمر آخر. . ابتعته برحمة القسوة من دمعة الحنان الذي يكون أكبر من جفاف الأغصان الخضراء. . أكبر من شحوب الجمال الذي شوهته الأصباغ!

ولقد كنت أشهد لحظات النهاية. كان الدمع يترقرق في أعين الذين

عرفوك معاشرة، وصداقة، والتصاقاً، وفي أعين الذين أحبوك ببيت شعر، وأعجبوا بك وأنت تتسنم غرور ماديات الحياة، وأنت تقاوم المأساة والملهاة، وأنت تنغرز في عمق السخرية عند تسلطه على الكاذبين، وتكون المرارة التي تحز في نفسك.. هي من تكبر الأقزام الذين أردت أن تصنع منهم عمالقة!

كنت لا ترغب أن تنسى كل لحظة مرت في حياتك.. فكان الأرق هو فلسفتك، وهو تاريخ ابتدأ، وكانت الحياة هي مادة هذا الأرق، وكانت المقاومة عندك عراكاً مع العجز المباشر، وكان ما يتحقق لك يختفي وهو موجود.. لأنك قلت:

(إن كل شيء رائع من أحلامنا وأمانينا يختفي عندما يتحقق وجوده)!!

كنت تقتل ما تعطي.. فالقصيدة الجميلة التي تصوغها تخرج لسانك لها بعد ولادتها، والكلمة المشرقة التي تسكبها تطوح لها بعد لحظات مستهيناً.. فطموحك كان أكبر، واعتزازك بنفسك كان يواجه أخطاء الآخرين.. فآثرت العزلة، وأرهقت ذلك الطموح بنفي الموهبة عنك، وبالتنصل من عظمة ما فيك من فكر ومن رؤية، وكان هناك فارق لا بد أن يكون بين من يجد الدعائم لتبرير الغرور، وبين من لا يجد دعامة ترفه عنه من كرب الغرور!!

كان لا بد أن تجد الترفيه عنك من كرب الغرور، وحاولت أن توجده ـ لا تجده.

وحاولت أن توجده من خلال هذه الكلمات التي تيقنت من معانيها قبل عام عندما قلت:

ـ (إنني أضحك وأقهقه ساخراً بنفسي.. لأنني كنت الغبي الذي يتهمه

الناس بالفطنة. والضحك بهذا الأسلوب هو العزاء الوحيد الذي بقي لي)!!

لكن. . لم يكن هذا ضحكك قبل أكثر من عشرين عاماً. . لقد واجهت صراعاً نفسياً بين الوقوف، وبين الانسياب، وكانت قامة فكرك عملاقة. . طامنت بها أعلى خط بياني بين أقرانك. كنت تكتب في جريدة «صوت الحجاز» ثم «البلاد السعودية» تحت اسم مستعار هو «هول الليل»!. . تفكر أن تكون الجبار الحنون الذي يحتضن الخوف والطمأنينة في آن واحد!

وكان شعرك ينضح بالأسى كعمق الليل، ويتوهج بالمعنى كالنور المشع في الظلمة، وينسكب في الروح كإيحاء الليل.

وفي هذه اللوحة كانت تتضح ملامح الإنسان المفعم بالدهشة . . النابض بالآهة. . المشروخ بالسعادة عندما تكون أرق الحياة!

إنها صورة دقيقة تذكرني بفلسفتك التي لم تفارقك أبداً حينما قلت:

ـ (إنه انفجار جانبي من القهقهة الساخرة التي تعبر عن التعاسة وهي تتحول إلى شعور بالسعادة بواسطة الهذيان. إن تلمس الشعور بالسعادة على هذه الطريقة لا يقل أهمية عن طريقة برايل. . القراءة بواسطة الأصابع)!!

وكان هذا الهذيان هو أقصى ما يصل إليه الإنسان ليعتقد أنه سعيد، وإن الحياة يمشي دولابها، وأن «الفطنة» شيء لا ضرورة له في التعايش المتواصل مع الناس حتى لحظة الموت!

يا سيد الكلمات المتفوقة:

من عرفك حسدك على مشاكسة الحياة لك. . لأنك تبحث في

تضاعيف ذلك عن الانتصار وتفرضه، فلقد بدأت عملاقاً، وجعلت رعيلك يلتف حولك مصغياً وأنت تتحدث.. غابطاً وأنت تتألق.. غامطاً موهبتك وأنت تنصهر بالمعاناة، وتصهر في نفسك أسباب ارتباطنا بأشياء الحياة، فتضيئ أكثر، وتحترق في مزيد من اللهب.. لأنك تطلب من كل واحد أن يصبح متفوقاً.. لأنك تخاصم كل عيي محدود التفهم والنظرة.. كل متخاذل الشعور موطوء النفس.. كل العجز الذي يأتي به غباء الروح!

ولم تتخل عن هذا الأسلوب. خاصمت به وخاصموك. حددت به قيمة الإنسان في الحياة، وفهم البعض أبعاد ذلك التقويم والتحديد، وناوأك بعض آخر من أجل هذا، ولكنك استطردت حتى في عزلتك، وحينما سألناك كان صوتك ينفذ إلى داخل الزمن.. إلى رحم الفكر وأنت تردد:

ـ (من المحتمل أني أفكر بطريقة لا يعتبرها الآخرون مستقيمة، ولكن لي ظروفي التي تملي عليَّ نظراتي وأحكامي. عندما يتحمل الإنسان نتيجة خطئه فالمسألة طبيعية، وعندما يحمل أخطاء الآخرين فهذا شيء مختلف)!!

وأنت تعرف أن من أخطائك أنك آثرت العزلة وهي السلامة. لم تكن ترغب أن تحدث ذلك الانفجار الجانبي من القهقهة الساخرة التي تعبر عن التعاسة وهي تتحول إلى شعور بالسعادة. كنت تفضل أن تصمت بدل أن تهذي. كنت تقرأ أنصع الكلمات وأنبلها بضميرك، وبحسك بدل أن تقرأها بطريقة برايل!!

وكان خطأ الآخرين أن نفذوا لك رغبتك. تركوك وحيداً مع كل ما في نفسك، وما في أفكارك، ولم تترك الحياة رغم ترفعك الظاهر عن كثير من مباذل ابتساماتها، ولحظتها كنت بقامتك تتساءل ولا تردد حكمة. كنت كما «زارا» تفتش ولا تضع خاتمة. كنت تعرف أنه من المؤكد أن

من يفارق الأرض لن يعود إليها إلا ليحاكم على جريمة كبرى. . كأن يقتل إنساناً في أحد الكواكب!. . وقلت: «إن أية عقوبة لا تبلغ شدة النفي إلى الأرض»!

وهذا قرارك الذي أتخذته مع الناس فأحبوك وهم عاجزون أن يحبوك. وأحببتهم وأنت لا تعرف كيف أحببتهم. . كأي عاشق يتشبث بكل القيود التي تضعه في ارتباطات من يحب!!

أنت الشاعر الذي استوطن الغرابة بسبب الغربة، وزرع فيها حدائق زمن لم يأت!!

كنت تغتسل في نهر الكلمات لتموت كل يوم. . تموت لتطعم الجوع المستمر فيك، وقلت أثناء هذا الشريط الطويل:

كم سرينا على سناها حيارى   نركب الوعر، والعواصف خرقاً
وانتشينا بها خيالاً من الراحة   أحنى مهداً وأنضر أفقا
فإذا نحن في كفاح مرير   بين سار على الكلال، وملقى!

يا سيد الشعر:

القصائد تبكي سيدها، ومنشئها.

كل الجيل الجديد هذا يسمع عنك فقط. لم يقرأ قصائدك. لم يقرأ نثرك. . فإذا ما عكف أحدنا اليوم على تجميع كل شعرك وكل رسائلك، وإذا ما كان أصدقاؤك كرماء على التاريخ. . كرماء معك هذه المرة فقط. . فيمنحوننا هذه الثروة، وستكون الحصيلة دسمة. . نقدم من وراء سطورها فلسفة حمزة شحاته. . عمقه. . كروبه. . مواجهاته. . وأنت أوجزت الكثير من تنفس الحياة حولك في نفس طويل مليء بهذا المعنى:

ـ (إننا لا نعاقب الوحش أو الحيوان وما لا يحس ولا يعقل، على أي خطأ إلا إذا وصلنا إلى مستواه)!!

وأردفت عبارة أخرى لم تشخ بعد.. قلتها قبل عام واحد فقط.. تنضح بالمعاناة، بالصهد.. فقلت:

ـ (ماذا كان يمكن أن أكونه.. وماذا كان ينبغي أن أكونه؟! شيء. وماذا كنت في آخر جولة؟.. شيء آخر هو الذي يبدأ منه القول وينتهي إليه. النهاية هي التي تعطي البداية، أو تسلبها معناها)!!

والنهاية هنا تتمخض عن استعادة الناس لذاكرتهم.. ليجدوك وأنت مسجى، فيفقدك، ويؤبنوك، ويذكروا تاريخك الحزين المضيء.

وأتذكر هنا رأياً قاله ذات مرة الشاعر الرقيق الأمير عبد الله الفيصل حينما سألوه عن الشعر في بلادنا، فأجب قائلاً:

ـ حمزة شحاته، ثم حمزة شحاته، ثم حمزة شحاته، ثم حسين سرحان!!

ـ حمزة شحاته.. أيها النابض فينا فكراً، وإلهاماً، وترسماً، وعشقاً، وتاريخاً:

من أنت.. تركض في ساحات حزننا عليك نحو أعراسك في أعماق الناس.. فتشاهد بقايا أوهامهم، وبقايا قلوبهم؟!

من هم.. داخل تكرار اندماجهم في الطرقات ووراء المسافات المأهولة بالدهشة؟!

رأيتك كالضمير. أبصرتك تحمل حدقتيك وتزرعهما داخل صدرك لتنبت بين ضلوعنا، وتحمل سمعك وتحطمه بين ضلوعك.. لتستجلب غذاء من العشق المسجون في عيني الحياة!!

وينساب عشقك ينساب. . حتى يرتاح وأنت تردد:

لا تقولي أهواك. . فالحب قيد

ودواعي الحياة ضد القيود

وينساب ضياعك ينساب. . حتى يغرق وأنت تردد:

لا تقولي أخشى عليك العوادي

أي شيء أبقت عواديك مني؟!

وينساب اقتناعك الصعب ينساب. . وأنت تستطرد:

لا تقولي أهواك. .

لست على صحراء حسِّي اللاظي

سوى ابن سبيل. .

عاثر الحظ، والخطى

يخبط الوعر بوعر من يأسه والغليل

ما له غاية. .

وما غاية الحيران تجري

بين السرى والقفول؟!

وما تبقى. . .

ثمة حزن يجهض في أحشاء الكلمات. . وحب يتكوّن في رحم الحزن!

ثمة «حياة» تخوض بنا ساحة الغرق، وتأخذنا إلى شواطئ الرحيق.

وهناك في المنتظر. . . تلوح الصدفة كبيارق القوافل في الصحراء. .

هناك. . زمن يأتي، وشعور يتجدد. .

ورجل وامرأة يجففان دموع القصائد!!

حوار . . في الحزن الدافئ

هذا الحوار

ـ لا زالت في ذهني عبارة قديمة حفظتها يوم كان الناس يمتلكون نعمة «الحفظ».. تقول:

ـ أن نعرف.. تلك هي الخطوة الأولى التي يجب أن تتوفر لنا.. قبل أن نصدر أحكامنا على الآخرين، وعلى الأشياء!!

والكاتب حينما يكتب.. من مسؤوليته أن يعرف قبل أن يصدر أحكامه.

ولكن الرؤية في العالم اليوم قد تبدو مضطربة فلا تنصفه من نفسه، ولا تنصف الناس منه.

لذلك فكرت أن أتجه نحو الإنسان من خلال الرؤى، والظلال التي تعكسها نفسيته اليوم، في قالب «الحوار».. فأكتب صوراً ترتفع بالتأمل عن السقوط في المعرفة «العدم» التي ننساق إليها اليوم بمغريات المدنية، وبادعاء الحضارة..

إن «معرفتي» تقول: إن نبش أعماق الإنسان ليست مهمة سهلة، ولكنني أحاول فيما سأصوره ـ بالحوار ـ أن أقترب من الإنسان!!

عبد الله

مقــدّمــة

بقلم: رجَاء النقاش

عرفت عبد الله الجفري لأول مرة من خلال كتاباته في مجلة «أكتوبر» المصرية في أعدادها الأولى قبل أن تنقطع صلته بها، لأسباب لا مجال للحديث عنها هنا، ومنذ القراءة الأولى لهذا الكاتب شعرت بميل نفسي عميق إلى كتاباته، وحرصت على أن أعرف المزيد عنه وعن أدبه، فقد كان في كتابته ما يدعو إلى الحب والإعجاب.

إن عبد الله الجفري كاتب له «شخصية»، وقد تبدو هذه الملاحظة مثيرة للتساؤل: فهل هناك كاتب بلا شخصية؟... وأقول: نعم، ما أكثر هؤلاء الذين يكتبون دون أن يحددوا لأنفسهم شخصية واضحة، فأنت تقرأ لهم وتشعر أنهم بلا ملامح وأنهم ضائعون في زحام الشخصيات الأدبية والفكرية الأخرى، وكلما التقيت بهم وجدتهم يلبسون قناعاً لكاتب مختلف، فهم «عشرات الشخصيات» في وقت واحد، ومن أصعب الأمور أن يحدد الكاتب لنفسه شخصية واحدة تجدها دائماً أمامك في كل اللحظات، في لحظة القوة ولحظة الضعف، في لحظة النضج ولحظة البحث عن هذا النضج، في الكتابة السياسية والكتابة الأدبية، في الخطأ والصواب. وصعوبة تحديد الشخصية تعود إلى ضرورة توفر عناصر أساسية

للكاتب، فلا بد أن تجتمع الموهبة، بالصدق الكامل مع النفس، بالثقافة الدائمة التي بدونها يفقد الكاتب سرعة النبض، وتتحول دورته الدموية الروحية إلى الحركة البطيئة وما ينتج عنها من برود وافتعال في كل ما يصدر عن قلم الكاتب بعد ذلك.

وقد توفرت لعبد الله الجفري هذه العناصر الثلاثة: الموهبة الحقيقية، والصدق مع النفس، والمحاولة المستمرة لبناء ثقافته وتجديدها، ومن هنا استطاع أن يجعل لنفسه ككاتب له شخصية خاصة تعرفها حين تقرأ له بتوقيعه، وتعرفها حين تقرأ له بغير توقيع، فهو صاحب شخصية متميزة لا تختلط مع غيرها من الشخصيات.

على أن ظهور الملامح الواضحة المحددة لشخصية عبد الله الجفري فيما يكتب لا يكفي في مجال التحليل النقدي الصحيح لشخصية الكاتب، لأن ظهور الشخصية الواضحة للكاتب يكاد يكون أمراً بديهياً ينبغي أن يتوفر لكل كاتب له قيمة، وبدون هذه الشخصية الواحدة المحددة يفقد الكاتب قارئه ويفقد قيمته الدائمة المستمرة.

وهنا نتساءل: ما هي ملامح عبد الله الجفري ككاتب له شخصية؟. . . إن محاولتي للإجابة عن هذا السؤال لا تعتمد على قراءتي العابرة عندما التقيت بكتاباته لأول مرة منذ ما يقرب من ثماني سنوات، بل تعتمد على قراءتي المتصلة له منذ عرفت قلمه خلال هذه السنوات وحتى اليوم.

شخصية عبد الله الجفري الأدبية والفكرية تعتمد أول ما تعتمد على «الوضوح» فهي شخصية منبسطة لا تعقيد فيها، تستطيع وأنت تقرأ له أن تعرف تماماً أين تتفق معه وأين تختلف، وتحس أنه يخاطبك بكل ما في

قلبه وعقله دون أي خفاء أو التواء أو مكر أو دهاء، وهذا الصفاء في العطاء، وهو ما أسميه بالوضوح، ليس مجرد ظاهرة في تعبير الكاتب وطريقته في كتابة جملته وتنظيم أفكاره، بل هو «صفة نفسية» عميقة في شخصية الكاتب، وهي صفة تشعرك دائماً بأنه كاتب لا يكذب عليك ولا يخدعك، ولا يستخدم الألاعيب والسحر في سبيل السيطرة عليك، ولا يسعى أبداً إلى وضعك في حالة «تنويم مغناطيسي» يعطيك بعدها ما يريد وأنت مسلوب الإرادة والعاطفة والفكر، وما أكثر الكتّاب المعاصرين الذين يخرجون على هذا الوضوح النفسي العميق، فيضعون فاصلاً روحياً عميقاً بينهم وبين من يقرأونهم، ويستخدمون سحر الألفاظ، أو يستخدمون ما يحصلون عليه من ثقافة لكي يشعر القارئ أمامهم بالخوف والرهبة، وبأنهم أعلى منه وأرقى وأكثر ذكاء وأكبر قدرة.

عبد الله الجفري يعطيك نفسه بسهولة ويسر، ويدعوك إلى عالمه بغير افتعال أو تكلف، فإذا كان بعض الكتّاب يحصلون على الإعجاب وبعضهم يحصل على التقدير، وبعضهم يحصل على الحب، فإن عبد الله الجفري من المحبوبين، فقارئه يشعر معه بكل ما يشعر به المحب من الأمان والاطمئنان ومعرفة كل شيء حتى الخفايا، بأبسط الأساليب وأكثرها وضوحاً ونصاعة وصفاء وسهولة.

هذا الوضوح بمعناه النفسي العميق، يقودنا إلى الصفة الأخرى التي تحدد شخصية عبد الله الجفري الفنية والفكرية وهي الصدق، فالقارئ لا يحس مع هذا الكاتب أبداً بأنه يكذب عليه، أو يقول له ما لا يعتقده، أو يحاول أن يفرض عليه رأيه، ومن هنا فعبد الله الجفري، يكتب بهدوء بعيداً عن أي صخب أو عنف، وهو يهمس دائماً ولا يصرخ، ومهما

كانت الموضوعات التي يعالجها حادة أو «ساخنة» فإنه يؤثر على الدوام أن يعبر عنها «بالحسنى» فلا تكاد تشعر بأنه «يحتد» أو «يشتد» أو يضرب بيديه على «الطاولة» التي أمامه أو «يخطب» بصوت عالٍ وهو يمسك بقلمه. على الإطلاق. . إنه مثل الغدير النقي الصافي، وليس مثل الشلال الهادر الذي يكتسح ما أمامه في اندفاع لا يتيح لشيء أن يعترضه أو يقف في وجهه.

وفي كتابات عبد الله الالجفري تطلُّع دائم إلى المعرفة. فهو يبحث ويقرأ ويناقش ويفتش هنا وهنا، في النور والظلام، وكأنه يحمل مصباح «ديوجين» الشهير بحثاً عن الحقيقة، وقد أشاع عبد الله الجفري عن نفسه في حديث صحفي له «أنه لا يقرأ كثيراً» في هذه المرحلة من حياته، ولكن كتاباته تنفي هذه الشائعة وترد عليها، ولعلّه أشاع ذلك لأنه مصاب بمرض «عدم الرضا عن النفس» وهو مرض يتعرض له كل الأدباء إحساساً بأنهم ليسوا على مستوى الأحلام التي بدأوا بها حياتهم، وهي في العادة أحلام ثقافية نهمة، تريد لأصحابها أن يعرفوا الكثير. وأن يقتربوا إلى أبعد الحدود من نار المعرفة، التي أقترب منها «بروميثيوس» في الأساطير اليونانية، حتى أحترق بهذه النار أو أحترق فيها.

فعبد الله الجفري مندفع إلى القراءة والبحث بصورة تنعكس على كتاباته المليئة بقلق المعرفة القاسي العنيف، وهذا النهم الذي عنده للمعرفة والقراءة كانت له انعكاسات واضحة في شخصيته، وأهم هذه الانعكاسات هو أنه واحد من أبرز الأدباء السعوديين الذين انفتحوا في موضوعاتهم على العروبة والعالمية معاً، وخرج من الحدود الإقليمية الضيقة التي ما زال عدد كبير من الأدباء السعوديين يحصرون أنفسهم فيها، فعندما تقرأ

عبد الله الجفري قراءة دقيقة، تحس أنه قد كسر «الصدفة» المحلية، فهو يعرف ما يجري في العالم العربي كله ويشارك فيه ويعبر عنه، وليس لديه ـ عندما يكتب سواء تعمد ذلك أو لم يتعمده ـ أي إحساس بأنه يكتب للقارئ السعودي فقط، فهو يكتب دائماً وعينه على المساحة الفكرية للوطن العربي كله من الخليج إلى المحيط، وهذا سر من أسرار نجاح عبد الله جفري، وسر من أسرار نجاح أي كاتب عربي في هذا العصر وهذا الجيل، وأنا أشعر للأسف أن هذه نقطة غائبة عن عدد غير قليل من الكتّاب والأدباء في السعودية. إنهم يكتبون وعينهم على القارئ السعودي وحده، مما جعل صوتهم ـ على موهبتهم ـ خافتاً خارج الجزيرة، وجعل كتابهم أشبه بدار كبيرة جميلة مغلقة النوافذ والستائر والأبواب، فهي في داخلها تعاني من العتمة والهواء القليل.

ولا بأس من أن أستطرد هنا قليلاً في الحديث عن هذه الملاحظة، فأقول إن طبيعة الجزيرة العربية تاريخياً وحضارياً لا تسمح أبداً بإغلاق النوافذ والأبواب. فقبل الرسالة الإسلامية كانت الجزيرة العربية ممراً للحضارات، وكانت مفتوحة عن طريق التجارة لكل التيارات الوافدة من الحضارات الكبرى التي كانت قائمة في ذلك العصر: في فارس والهند ومصر والشام وبيزنطة. ولم يكن العربي في الجزيرة قادراً ولا راغباً في أن يعيش وراء أسوار تمنع عنه التأثر بالآخرين أو التأثير فيهم. لم يكن العربي، ابن الجزيرة، من أصحاب الحضارات التي يمكن أن تنعزل وتغلق أبوابها الخاصة على نفسها، كما حدث في بعض الحضارات القديمة مثل الحضارة الصينية، التي كان لديها من الأسباب الكثيرة ما يساعدها على العزلة ويدفعها إليها. ولذلك فقد بنت الصين سورها العظيم، لا من أجل

الحماية العسكرية فقط وإنما من أجل الحماية الحضارية أيضاً، فقد كانت الصين مكتفية بنفسها وخائفة على نفسها معاً، فاختارت العزلة الحضارية في عالمها القديم. أما العربي فكان بحكم الظروف والتكوين محتاجاً إلى الآخرين وراغباً في الاتصال بهم وتبادل الأخذ والعطاء معهم.

وعندما ظهرت الرسالة الإسلامية، كانت منذ لحظاتها الأولى ذات طبيعة عالمية، أي أنها لم تكن رسالة محلية خاصة بالجزيرة وحدها، ولم تكن هذه الطبيعة العالمية للرسالة الإسلامية من الظواهر التي كشفت عن نفسها في مرحلة متأخرة، بل كانت من الظواهر المبكرة التي صاحبت إعلان الرسالة، فكانت رسائل النبي ﷺ إلى الروم والفرس والمصريين والأحباش، وقد كانوا في ذلك الحين هم أبرز القوى الموجودة على المسرح العالمي، وبعد وفاة الرسول، حمل العربي السلاح لينشر الرسالة الإسلامية في شتى أنحاء الأرض، فانتشرت الدعوة والفتوحات في كل مكان.

هذه هي الطبيعة «الانفتاحية» للجزيرة العربية، على «العالم» من حولها، بل وعلى العالم كله أينما كان. ومن هنا لا أستطيع أن أفسر تفسيراً كافياً «انكماش» طائفة كبيرة من الأدباء السعوديين على أنفسهم مخالفين بذلك طبيعة مجتمعهم، وطبيعة حضارتهم، خاصة بعد أن استطاعت الرسالة الإسلامية أن توحد منطقة كبرى وحساسة من العالم هي ما نسميه الآن بالوطن العربي، وحولها دائرة أخرى أوسع هي دائرة العالم الإسلامي الكبير.

في ظني أن «الاكتفاء المادي» عند الأديب السعودي كان من العوامل الأساسية التي دفعته إلى الرضا بحالة «الانكماش» وعدم التفكير في الانطلاق خارج النطاق المحلي بتفكيره وتعبيره ومشاركته الروحية، وهذا

خطأ كبير، فالاكتفاء المادي، في أي حياة ثقافية سليمة يدفع دائماً إلى كسر «المحلية» والحرص على خلق دائرة أوسع في مجال التفكير والتعبير والتأثير.

* * *

أعود إلى عبد الله الجفري بعد هذا الاستطراد الذي أرجو أن يكون موضع مناقشة ودراسة وتأمل، لأقول إن عبد الله كان واحداً من أبرز الأدباء السعوديين الذين كسروا طوق المحلية وأدركوا أنهم عرب يكتبون للقارئ العربي في كل مكان، مما جعل عالم عبد الله الجفري مفتوحاً ومضيئاً ومليئاً بالهواء النقي المتجدد، والصداقات الأدبية الغنية.

وإذا تركنا عبد الله الجفري «كحالة أدبية عامة» ومكررة في هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وجدنا أنفسنا أمام ظواهر أكثر خصوصية من كل ما سبق أن ذكرناه، فلكل كاتب ناجح مدخله الخاص إلى قلب القارئ، فهذا كاتب يدخل إليك من باب الفكرة الجديدة، وهذا كاتب آخر يدخل إليك من باب الثقافة والمعلومات الغزيرة التي يملكها، وهذا كاتب ثالث يدخل إليك من باب الأسلوب الجميل.

ومدخل عبد الله الجفري إلى قلوبنا وعقولنا هو أجمل هذه المداخل جميعاً.. إنه يدخل إلينا من باب: الشعر. ولست أدري إذا كان عبد الله الجفري قد بدأ حياته شاعراً كما بدأ معظم الأدباء، أم لا. ولكن الذي لا شك فيه عندي أنه يملك الفطرة الشعرية الجميلة. فالروح الشعرية عنده واضحة في اهتمامه الذي لا افتعال فيه باختيار ألفاظ تقطر بالندى الشعري وفي حرصه على توفير جو من «الموسيقى الداخلية» لكتاباته حتى تبدو في معظمها وكأنها من «الشعر المنثور».

إن عبد الله الجفري يحمل قلماً، ولكن قلمه هو في نفس الوقت آلة موسيقية، وما قرأت له مقالاً قط، حتى مقالاته الصحفية القصيرة، إلا وشعرت بأن شيئاً يهتز في قلبي، من أثر الموجة العاطفية التي يثيرها الكاتب في القلب، حتى وهو يتكلم عن أكثر الأشياء موضوعية، أو أكثرها ارتباطاً بالحياة السياسية أو الحياة اليومية. هناك دائماً هزة عاطفية، مثل الهزة الكهربائية، يخلقها في النفس هذا الكاتب الحساس.

إن تكوين المقال ـ عند عبد الله الجفري، كما يشهد هذا الكتاب الذي بين يديك ـ يعتمد على الروح الشعرية، أو على ما يمكن أن نسميه «بالغنائية». فهو لا يفكر فقط ولا يكتفي بتقديم آرائه، وإنما هو إلى جانب ذلك كله «يتأمل» و «يعزف» تأملاته على وتر عاطفي محسوب، وليس في هذا العزف مبالغة أو إفراط يسيئان دائماً إلى الأدب، ويجعلان منه ما يسمى بالمصطلح المسرحي نوعاً من «الميلودراما» التي هي «فن» التطرف والإسراف في الحزن والحرص على إسالة الدموع. ولقد كان لهذه «الميلودراما الأدبية» عصرها ومجدها في ثقافتنا العربية في بدايات هذا القرن، نجدها في نثر المنفلوطي الذي لم يكن يكتفي من قارئه بإثارة دموعه، بل لا بد أن يظل وراءه: يؤلمه ويوجعه، حتى يعوي ويولول ويصرخ، وهنا يشعر المنفلوطي أنه أدى رسالة الكاتب وحقق هدف الفنان. كذلك نجد هذه «الميلودرامية الأدبية» على درجة أخف وأعذب في شعر «الشابي» الذي كان إذا تحدث عن الموت أو عن قلب الأم التي فقدت إبنها، جمع كل ما في الكون من مظاهر الحزن واللوعة في الطبيعة أو حياة الإنسان، ليجعل المأساة قائمة في كل ركن ومكان حول العين والقلب، ومن هنا كانت قصائد الشابي تقطر أسى، وتمطر حزناً ولوعة، بصورة عنيفة حادة.

ولكن عبد الله الجفري في شاعريته وغنائيته فنان عصري، يمتلك ذلك «الانضباط العاطفي» الضروري لمنع عواطفه وأحاسيسه من التحول إلى «ميلودراما أدبية» لم يعد يحتملها الذوق العربي، منذ نهايات عصر الرومانسية بعد الحرب العالمية الثانية. ولا شك أن عنصر «الانضباط العاطفي» من أثمن العناصر التي يمكن أن يملكها الكاتب أو الفنان، والتي تعطي للكتابة والفن أثراً أعمق وأقوى وأكثر قدرة على البقاء، ذلك لأن العاطفة الحادة غير المنضبطة تؤدي إلى الصراخ والاندفاع، مما يفقد الكتابة أي قدرة على التأثير والإقناع.

وإذا كنا لا نعلم هل بدأ عبد الله الجفري حياته بالشعر أو لا، فإن من الثابت أنه كاتب قصة يقف بين الطليعة من كتّاب القصة السعودية. وإذا كانت الروح الشعرية التي يملكها ـ سواء ـ كان قد كتب الشعر أو لم يكتبه ـ قد أكسبت كتاباته تلك الغنائية التي وفرت لهذه الكتابات إطاراً عاطفياً رقيقاً، وجمالاً في التعبير وخلفية موسيقية هادئة، فقد اكتسب عبد الله الجفري من «القصة» ذلك «البناء الفني» الواضح الذي يتوفر لكل مقال يكتبه، فالمقال عند عبد الله الالجفري «فن» ـ كما يشهد هذا الكتاب الذي بين يديك ـ وليس نوعاً من البحث المجرد وطرح المعلومات المباشرة، أو التعبير عن أفكار جافة خالية من الروح أو نضارة الحياة.

لقد سقط «فن المقال» في الأدب العربي المعاصر، ولولا عدد من كتابنا الموهوبين ـ وبينهم عبد الله الجفري ـ لأصبح المقال عندنا تعليقاً صحفياً سريعاً، أو بحثاً ودراسة «جافة» تعتمد على التقرير والمقدمات والنتائج والمعلومات مثلها في ذلك مثل بيانات وزارات الاقتصاد والشؤون الاجتماعية والبترول.

لقد كان الجيل الماضي يدرك الأهمية القصوى لجعل المقال فناً له أصوله وله تركيبه الخاص وبناؤه المستقل، وهذا ما نجده بدرجات متفاوتة وأساليب متغايرة عند المازني والزيات وزكي مبارك وطه حسين والعقاد والرافعي، حتى الذين كانوا يكتبون في مجال العلوم مثل أحمد زكي، كانوا يدركون هذه الحقيقة، فالمقال عندهم فن له «بناء» مثل القصيدة واللوحة والقطعة الموسيقية والقصة. ولقد كان هذا الحرص على «البناء الفني» للمقال عنصراً أساسياً عند كتاب هذا الجيل، مما ضمن لهم التأثير الواسع والبقاء الطويل في جيلهم وبعد جيلهم، وسوف يضمن لهم هذا البقاء أجيالاً بعد أجيال.

ولكن المرحلة الراهنة في حياتنا الأدبية العربية، شهدت «انهياراً» في «فن المقال» لا شك فيه، فقد اندفع الكثيرون إلى الكتابة المباشرة التي تقوم على عرض الآراء والمعلومات المجردة الخالية من الروح، ودخل دنيا الكتابة الأدبية من لا يفرقون بين بحث في «الجغرافيا» وتأملات في النفس الإنسانية، وامتلأت الساحة بهؤلاء الذين يكتبون المقالات في شكل البيانات والتقارير الرسمية.

وهذه ظاهرة من الظواهر «السيئة» في الأدب العربي المعاصر، لأنها تفقد الكثيرين من الكتّاب أي قدرة على التأثير الفكري والنفسي والوجداني. . . وبدون هذا التأثير لا يكون للأدب قيمته وجداوه.

وقد استطاع عبد الله الجفري أن يدخل الميدان الأدبي معتمداً على هذ الفهم الصحيح لفن المقال، فتجنب كل ما يجعل من مقالاته لوناً من ألوان التقرير المباشر وحرص كل الحرص على أن يوفر لمقاله بناء فنياً يقوم أحياناً على الحوار، ويقوم أحياناً أخرى على تجسيد الأفكار في

شخصيات محددة يعلن الكاتب من خلالها آراءه وأفكاره، ويقوم مرة ثالثة على التعبير الشعري الغنائي، الذي لا يغرق أبداً في الزخرف اللفظي المجرد، ولا في العواطف الحادة الصارخة التي تسكت صوت العقل.

ولولا أن عبد الله الجفري يميل إلى «الأسى والشجن» دون أن يمزج ذلك بلمسة من لمسات المرح والسخرية لقلت إنه امتداد في شخصيته الأدبية لشخصية من أبدع الشخصيات التي عرفها أدبنا الحديث وهي شخصية «المازني». فهناك كثير من ألوان التشابه في بناء المقال بين المازني وعبد الله جفري، لولا أن المازني كان يميل رغم حزنه وأساه إلى السخرية والتهكُّم. كما كان يميل إلى تعرية نفسه والبوح بأسرارها، حتى لو كانت أسراراً لا تليق من وجهة نظر الفضائل المزيفة مثل «التكبر» و«التظاهر» وما إلى ذلك مما يخفي حقيقة النفوس، ويعطي للناس صورة مختلفة ومغايرة للحقيقة.

وعبد الله الجفري يختلف عن المازني في ابتعاده عن النظرة الساخرة للحياة، وفي ميله إلى التأمل الذاتي، وميله إلى عدم البوح وتعرية النفس، ولعلّ ذلك يعود إلى تاثره بالبيئة المحافظة التي نشأ فيها.

ولا أدري إذا كان عبد الله الجفري يدرك وجه الشبه بينه وبين المازني أو لا يدركه، ولكنه لو أدرك هذا التشابه لحقق لنفسه خطوات أدبية أخرى تفوق ما حققه حتى الآن من تألق ونجاح وتأثير على القراء.

بقي أن نقول إن الكاتب مهما كانت قدرته الفنية على التعبير قوية وأصيلة، فإنه لا يحقق شيئاً له قيمة إذا لم تكن له أفكار أساسية يدافع عنها ويؤمن بها ويدعو إليها. وفي هذا الكتاب الذي بين يديك نلتقي بعبد الله الجفري الكاتب الفنان، ونلتقي إلى جانب ذلك بعبد الله الجفري

صاحب النظرة الخاصة للحياة والإنسان، وهذه النظرة الخاصة من أثمن ما يحتاج إليه الكاتب لكي يقدم شيئاً له قيمة وأثر، وبدون هذه النظرة الخاصة يتحول الكاتب إلى رفيق عابر ثرثار قد يفيد في قتل وقت القارئ، ولكنه لا يضيف شيئاً إلى نفس الإنسان وعقله ووجدانه. وفي مجال النظرة الخاصة نلتقي في هذا الكتاب بعبد الله الجفري، الداعية المؤمن إلى أبعد حد بأن يكون المنبع الأساسي في الحياة الصحيحة الراقية هو «الإنسان» وليس «الأشياء». . . الإنسان بقلبه وعاطفته وعقله وألمه وسجنه وأفراحه وصراعه مع تجارب الدنيا والأيام، وليس «الأشياء» بما تملكه من بريق وإغراء بالامتلاك، وهذه الأشياء في حقيقتها لا تكون ملكاً للإنسان، بقدر ما تصبح مالكة للإنسان.

ولم اقرأ في السنوات الأخيرة حملة أصدق ولا أنبل مما يقدمه هذا الكتاب الجديد من هجوم عنيف ضد امتلاك الأشياء للإنسان، ودفاعاً صادقاً عن سيادة الإنسان بعواطفه وأفكاره ومبادئه وقيمه. .

إن عبد الله الجفري مع كل ما هو إنساني، مجسداً في عازف البيانو والشعر وكاتب القصة وحارس الحديقة بما فيها من زهور وهواء نقي جميل، وما تؤكده هذه الحديقة من ارتباط بالغ العمق والعذوبة بين الإنسان والطبيعة.

إن الإنسان الذي يتحدث عنه عبد الله الجفري ويحلم به ويدعو إليه هو «الإنسان الوجداني» على حد تعبيره. . إنه الإنسان الذي ينظر إلى الحياة بوجدانه ويتعامل مع حقائق الواقع بهذا الوجدان.

ومن خلال صفحات هذا الكتاب وسطوره العذبة الجميلة، نشعر أننا أمام كاتب فنان تعيش في خياله مدينة فاضلة، هي مدينة القوة والصدق

والإقبال على الحياة ورفض القوى الشيطانية المدمرة في روح الإنسان وواقعه. كما أنها المدينة التي تقوم على «الحوار» وليس على الصراع الدموي العنيف.. وما أكثر ما يمتلئ به هذا الكتاب من محاورات وما أقل ما يفرضه عن غير طريق الحوار من رأي ووجهة نظر.

* * *

وبعد.. فهذه رحلة سريعة مع الكاتب والكتاب، وأرجو ألا أكون قد أطلت فحرمت القارئ من الالتقاء بكاتبه الفنان في تأملاته الصادقة، العذبة الجميلة، وفي دعوته القوية إلى أن يصبح الإنسان سيداً لكل الأشياء لا أن تصبح الأشياء قيداً على الإنسان وعلى ما فيه ـ إذا تحرر وانتصر ـ من ينابيع الخير والجمال.

رجاء النقاش

أول الحوار!

تتراكم الخفقات في صدور الناس وتهدأ. . كالحزن البارد في عمر الذين تحولت أشواقهم إلى رخام، وتطلعاتهم إلى ذاكرة صدئة!

يصبح توالد الأشياء أكثر صعوبة من تاكيد الصدق، ونقاء الفكر.

تكثفت الدهشة في وعي الإنسان حتى تحولت إلى اعتياد محترق. .

في الأذهان الآن. . لم تعد الروح هي الانبعاث الإنساني المتجدد. . الذي يصهر الشعور، ويتألق بالمعاني إلى ذوق العشق، والتأمل للحياة بما تنميه أواصر الإنسان بالإنسان!

ذلك محور فكري تعيس. . قبل أن يكون معطيات عاطفة إنسانية متألقة. .

ذلك يكون هو الصوت والصدى الذي يضيع في فلاة العمر. .

العالم لا يمارس العبث، ولكنه يبتكره. . ثم يضيع فيه!!

ولقد حاولوا أن يناقشوا أسباب غياب الفكر، وانسحاق الإبداع بالمعاني التي يطمح إليها الإنسان استشراقاً لحياة الفرح. .

فهل فقد الإنسان معطيات روحه؟!

هل ترمدت تطلعاته. . فلم يعد قادراً على التطلع والتعبير؟!

هل أصبحت الماديات وحدها هي التي تصب متاعبها في صدر الإنسان، وفي ترجمة لغته، وفي حضوره؟!

وكيف تتحدد مشاعر الناس.. متجاوزة غربة الروح.. متفرقة على ألوان الارتطامات النفسية بسبب الانشغال المريع بالماديات؟!

لقد اتحد الحزن في مشاعر رجال زحف العمر بهم إلى الشيخوخة، فالتقوا ذات مساء تحت سقف بيت ريفي: عازف بيانو، وشاعر، وكاتب قصة، ورسام، وممثل قديم في السينما، وحارس متقاعد كان يعمل من بداية المساء حتى الصباح حارساً في حديقة «الهايدبارك» قبل أن يضاجعها العنف بالقنابل، وعندما كانت ملتقى الحوار الديمقراطي .. فكان الحارس الذي يحافظ على العشب من عبث الواطئين عليه.

وابتدأ حوار غريب.. لكنه ممتع:

* * *

ـ قال عازف البيانو: كنت في عنفوان شبابي أدخل إلى الصالونات الفخمة، وبمثل ما ألحظه من ترف في الأثاث والديكور.. كان أيضاً هناك ترف ينضح من وجوه الذين اجتمعوا في الصالون.. كان التهذيب لمحة تطول في الانطباع.. حتى إذا بدأت العزف كان إصغاؤهم فناً يضاهي براعتي الفنية في العزف.. ذلك لأنهم يفهمون معنى أن يرتفع صوت «النغم» فيجذب اهتمامهم ويحلق بمشاعرهم، فكأن كل أذن لحظتها هي (ريكوردر) يحتفظ بالقطعة الموسيقية ويعيدها لأنها غذاء روحه. أما اليوم.. فإنني لا أطيق هذا الصراخ الذي يسمونه موسيقى، إن الإنسان يجن.. تسمعه يغني كأنه يشتم أذنك، ويوتر أعصابك، وأصبحت الجملة

الموسيقية لا أكثر من خناقة في منتصف حي «سوهو»!.. لقد أهدرت القيمة التي تعطيها الموسيقى لوجدان الإنسان!!

❊ ❊ ❊

ـ وقال الشاعر: أشعر أن كلماتي تتوهج في الصدر كالجمر، لكن.. لم يعد هناك من يسمعها.. من يشاركني احتراق الصدر.. ليس لأن كلماتي لم تعد تجذب إصغاء الناس، وإنما لأن آذانهم بعيدة جداً عن صدورهم، إن الناس اليوم أهملوا الإصغاء إلى الداخل.. وركزوا إنصاتهم لكل ما يدور في خارجهم ومن حولهم. إنني أقرأ لشعراء من الشباب، فأحس أنهم يضاجعون الكلمة دون أن يعرفونها.. كأن الكلمة لا أكثر من «مومس» تهدىء غرائزهم فقط في حدة الانفعالات، وقد كانت الكلمة هي فضيلة التفكير.. يهمس بها الشاعر فتلتئم جراح النفس. إن شعراء اليوم لا يبحثون عن التراث. لقد كنا نعتقد بعد انتهاء الحرب العالمية، وشبابنا في توجهه، إننا نبتكر غرابة لا يرضى عنها جيل آبائنا، وكنا نتطلع إلى عدة حركات تجديدية استقلالية في التعبير، وظهرت السريالية، والدادائية، والتكعيبية والمستقبلية. لكن ما نقرأه الآن هو «تصدع» في كل الحركات التجديدية، وفي نفسية الجيل ذاته. إنهم ينفلشون، ثم لا يجمعهم عمق، وإنني أتلفت حولي فأستغرب أن لا يطلع من تحت ركام القلق العالمي، ومن خلف التغرب النفسي شاعر مبدع يكسو الكلمة بمعنى من الحس، ومن التجربة، ومن الانصهار في أوجاع العالم، حتى دواوين الشعر قليلة، والصحف والمجلات المتخصصة تحاول ـ بركاكة ـ أن تصعد بموهبة جديدة.. ما تلبث أن تنطوي!

❊ ❊ ❊

ـ وقال كاتب القصة: أعتقد أننا نجنح إلى المغالاة قليلاً في التصور. فليس العالم كله من المجانين، والمرضى، والمذعورين من المفاجآت. صحيح أن أوروبا، وأمريكا يعاني جيليهما من حدة الرفض للموروثات والتقليد، ولكن هذه المواقف يستطيع الكاتب الفنان أن يعكسها. القصة مثلاً من الممكن أن نعتبرها الآن تعيش أزهى فترة «تحشيد».. ذلك لأن هذه الفترة التي نحياها تفيض رؤى وشواهد، وتحتوي على «مادة» جيدة لكتابة القصة. قد تقولون: نحن لا نختلف في هذا ولكننا نبحث عن كاتب القصة الجيد، وسأجيبكم: بأن القصة ربما كانت هي «الفن» المحفوظ الذي ما زال يتطور، وينضج كتّاباً مبدعين. إن في العالم بعض الذين أجادوا في هذ الفن، ولكن ربما تخلخلت الرؤية واهتزت عندهم لمظاهر العنف التي يتسم بها هذا العصر، ودورهم هو أن يصوروا هذه المعاناة.

ولكن كيف ارتفع بالإبداع. وأنتج أكثر.. إذا كانت الصحف تدلل الكاتب السياسي وتمنحه مكافأة أكبر.. لأن القراء يهمهم التحليل السياسي.. مفضلاً على القصة، أو القصيدة. إنهم بالضرورة يتلفتون إلى أوجاع الإنسان في هذا الزخم الهائل من الكوارث والحروب. والتفكك الاجتماعي!!

* * *

ـ وقال الرسام: ما قاله كاتب القصة يدفعني لمزيد من الإصغاء. هناك موقف أرغب أن أحدده، وهو ملتصق بالقارئ، أو الباحث عن الفكر والفن.. ذلك هو «الانغماس» الغامر في جنون البحث عن حقيقة، والركض وراء «الحدة» ذاتها، وأعطيكم مثالاً: فأنا أرسم لوحة لمنظر

طبيعي يبقى معلقاً على الحائط حتى يهن خيط الإطار. . بينما أرسم امرأة عارية وأطلب فيها المبلغ الذي أفرضه. لا أقول إن هذا هو الجنوح عن طبيعة الإنسان، ولكنني أرى أنه تفريغ اللذة من المعنى وحصرها في الممارسة الواقعية، وربما كان وجه المرأة الذي رسمت قبيحاً. . لكن الإثارة هي سمة العصر، فإذا أردت توضيح شيء، أو تعميمه فالوسيلة هي الإثارة. . أن تفضح ما تريد فيحدث الضجيج. بمعنى أن «الروح» في الإنسان قد تبلدت حتى أصبحت لا أكثر من نبض وشرايين. ذلك يعني ـ أيضاً ـ أن الفنان نفسه قد سقط في فخ قاتل. . بانسياقه وراء المطالب المادية، فإذا لم أقبض ثمن اللوحة ربما بقيت جائعاً، فلا بد أن أرسم ما تريده انفعالات الناس، وربما ـ أيضاً ـ أن الفنان في جيل ما قبلنا يحتمل فراغ جيبه ومعدته ولكن القسوة عليه أن يفرغ وجدانه من الحس، ومن الإصرار على تنبيه الناس إلى ما يحترق في أعماقهم!!

* * *

ـ وقال ممثل السينما: أعتقد أن الهجوم لا بد أن يتركز أغلبه على السينما. . فهي أقرب وسائل التوعية إلى أذهان ومشاعر الناس. لقد مثلت ما ينوف على المائة فيلم. . سقط القليل منها ونجح الأكثر، ولم يكن مرتكز أفلامنا العري كما نشاهد اليوم، فلا بد أن نخاطب عقول ووجدان الناس، ولا نخاطب غرائزهم بل نرتفع بها إلى معنى الترابط الإنساني. كما نمثل القصة العاطفية والتاريخية بنزاهة وبإحساس.

الآن «يمارسون» خصوصيات الإنسان علناً لمزيد من احتقار الإنسان!

وإلا. . . فهل ترضى أية امرأة أن تكون ـ فقط ـ متعة للغريزة. . هل هذا دورها الوحيد؟!!

السينما تشير إلى ذلك رغم سعي المرأة الحثيث إلى أن تكون رئيسة الدولة، ورئيس العمل، ومع ذلك فإنك تشاهد النساء في صالات عرض الأفلام يقبلن على هذا التشويه لوظائفهن الإنسانية. إنني أشير إلى فيلم «قصة حب» وكان متفوقاً.. متحديا لكل موجات الجنس والتقليعات الآن، ونجح الفيلم.. لأنه جاء هزة لضمير ووعي الإنسان. وحاربوه لأنه يفسد الحقيقة المادية البحتة. حتى الأفلام التاريخية تبدو خاضعة للسياسة فتشوه التاريخ لأن «الممول» للفيلم يقصد فكرة عقائدية. والشيء الذي يدعو إلى السخرية أكثر أن يحرص هؤلاء الذين يصنعون الأفلام على اختيار أنثى مثيرة للجنس بدل أن يختار قصة جيدة تعالج بعض ما يخذل تطلعات الإنسان ويسحقه!!

* * *

ـ وتنهد حارس حديقة «الهايد بارك» المتقاعد، وصمت قليلاً، ثم قال: يخيل إلي أنكم تبعثون من قبوركم!... كأن هذا العصر ليس عصركم، وإنكم خارج الزمن. إن كل ما ناقشتموه يبقى ـ في كل الأحوال ، مسئوليتكم، فإن العمل المبدع هو الذي يجذب إليه الإصغاء والتأمل والانتصار له.

لو ثابرتم على إعطاء مزيد من العمل الأدبي والفني المبدع فأنتم بذلك تحاربون كل هذه التشوهات. قبلنا جاءت أجيال مليئة بالأخطاء وبالتصدع.. وكان دور المفكرين والأدباء والشعراء والفنانين عظيماً ومؤثراً. إنني رجل أقرب إلى «الأمية» إذا قورن تفكيري بتفكيركم.. لكن عملي كحارس لحديقة «هايد بارك» جعلني أقرأ كثيراً في الكتب والصحف، وفي وجوه الناس. هل أذكركم بمن سمّوه في أمريكا

بـ «المواطن توم بين»؟!. . لقد جاء بعد صراع، وتصدع. . بعد الحروب الأهلية، وخلف «إبراهام لنكولن» وبعد أزمة العبيد وتحريرهم، أقسى زمن. . يفوق ما عانينا أثناء الحرب العالمية. . لكنه استطاع أن يؤثر في الناس بإصراره وثقافته وبراعته في الحوار والإقناع، وأصبحت كلمات «توم بين» شمعة أضاءت للأجيال. هذا دوركم، فلا بد أن يتعرض الناس لهزات، وإذا كانت المادة هي السائدة الآن، فلأن الماديين أذكياء ولأن الفلوس ذكية ولكن الفكر والفن هما أذكى من المادة إذا نجحا في شق عقول الناس. . بمعنى أن كل جيل يأتي بملامحه ومتطلباته، لكن الفكر والفن هما الوسيلة لصقل الإنسان وتهذيبه.

لقد عملت حارساً في حديقة «هايد بارك». وقبل ثلاثين عاماً. . كنت أفعل مثل هؤلاء الشباب، ولكن بوعي، وباعتبارات إنسانية وعقلانية تصهرني كإنسان. إنني معكم أن السياسة أحرقت صدور الشباب، وزرعت فيها القلق، والحيرة. مثلاً: ترى في الشارع فتى وفتاة يتعانقان بوقاحة، الحركة هي شيء طبيعي، ولكن ليس أمام الناس. . فهذا زمن الوقاحة، أو زمن وقح. . وكيف ينجح الأديب والفنان في التوعية؟!. . إنني رجل «أمي» لا أقدر أن أقول رأياً ناضجاً، ولكن أنتم من الممكن أن تقولوا في المعاناة لكل أشكال هذا العصر، إنني أرى اليوم شاباً متحمساً ومخطئاً يخطب في وسط الحديقة، ويدور الكلام كله عن السياسة، لم أسمع واحداً يتحدث عن الإنسان في مطحنة الحروب والتصدع الاجتماعي، ولكنهم جميعاً يتحدثون بالخوف، وبالتمرد المنسحق!!

* * *

ـ قال عازف البيانو: لكن كيف أجذبهم. . كيف أقنع شاباً أو فتاة أن

تصغي إلى مقطوعة «الدانوب الأزرق» مثلاً، وتنصرف عن سماع «توم جونز»؟!.. ذلك هو العجز والحيرة. ربما كان الكاتب أكثر قدرة، ولكن الموسيقى أعمق وأسرع تأثيراً، ورغم ذلك لا أضمن النجاح الذي يعيد الإنسان إلى جوهره!!

وأخلدوا جميعاً للصمت.. إلا حارس الحديقة الذي تطلع إلى وجوههم مبتسماً، ثم قال ـ المشكلة هي غياب الأعمال الأدبية والفنية الجيدة.. التي تتفوق على الماديات والفلوس. فإذا كان العالم يمارس العبث، فإن ممارسة العجز في الصمت.. أكثر خطورة على عقول وأرواح الشباب!!

كل وجه. . . كان حزني!

صعدت. . هبطت. . فعلت عكس ذلك. .

الذي نفعله لا نحس به في اللحظة ذاتها.

نحن نبالغ في الانفعال ونتأكسد في الإحساس!

الأهم في نتائج الأفعال: أن تتمخض رؤية واضحة!

من أجل الأهم ـ وبحثاً عن الرؤية ـ نحن فعلنا ذلك طيلة سنوات:

صعدنا. . هبطنا، ولم نقدر أن نفعل العكس!

سنوات ثقيلة مرت. العيون لا تقول سوى الحزن. لا تعطي المجيء أبداً.

تحولت دروب التاريخ إلى حجارة نسيان!

تلونت صدور البشر، وتحولت إلى بيادر من بور.

إنه الحزن العربي الكظيم!

كان الخوف منا علينا. . . خوف من انسجام أحجام المعاناة مع اليأس الصارخ!

كان الخوف على التاريخ من خلال الأرض المسلوبة والحرية المكبلة والحنين المفجوع!!

في لحظات الخوف.. يتحول الحب إلى أكفان!

ولقد خطط أعداؤنا لذلك: أن يزرعوا الخوف في صدورنا.. ليقتلوا الحب، ويوارونه داخل أكفان اليأس والذلة!

يتولد الخوف في الضعف.. استضعفونا فأولموا ليأكلونا.. يأكلوا أرضنا، وعقيدتنا وتاريخنا وحوافزنا، ونضارة وجداننا.

كانت الأصداء ترتفع مرددة: يا حبيبي.. أيها الوطن!

هل كان الحبيب غائباً.. أم أن الحب هو الذي غاب؟!!

وما هو الوطن: الحبيب أم الحب؟!!

الخوف لا يتمثل في غياب الحبيب.. فما دام «حبيباً» فلا بد أن يعود..

الخوف كله أن يغيب الحب، فتفري الأحقاد أكباد البشر، وتضيع هوية الحبيب والمحب!

كنا في زمان.. ولا نملك الزمان!!

كان الزمان يأخذنا منا ولا يعطينا. في امتداد ظله فقدنا مساحات جديدة من الأرض، ومساحات غالية من الثقة داخل صدورنا.

ـ (كفي عن الذهول يا امرأة)!!

زجرة الصوت الأجش.. من حنجرة رجل ترك سلاحه فوق سيناء، وفوق الجولان وعاد كسيحاً تجرجره هزيمة حزيران الأسود!

ـ (إبعد نظراتك عن وجهي أيها الطفل)!

وجاء الأب المخذول، وهو يهم بمداعبة طفله.. فيشعر بالشلل في

وجدانه، فقد كان كل أب . . كل رجل، مصاباً بالشلل في عواطفه ومداركه بعد التقهقر الذي كان على الأرض المسلوبة!!

من يعيد ذلك التاريخ الغابر!!

من يوقف أصداء حوافر الخيل . . يوم كان أجدادنا وآباؤنا يصولون ويجولون في ساحات الحرب . . يرفعون راية الإسلام والعروبة فوق أعراف الخيول؟!

من عيوبنا ـ ذات فترة ـ أننا جلسنا نسترجع أمجادنا الغابرة، والحاضر متوسط في الوقوف العاجز . . في الهزيمة المهينة!

من يعلم أيامنا التي نحياها كيف تتعود على اليقظة؟!

لا بد من معجزة . .

لا بد من تحرر يشيل الخوف من الصدور، والهلع من العيون، وتجار السياسة والزعامة من الصفوف!

* * *

بعد هزيمة حزيران . . تلفت تاريخي كله، رأيت العصور المشهودة . . رأيت الوجوه، فكان كل وجه حزني!!

بعد إجتياح الجنوب اللبناني، ثم بيروت، ومجزرة «صبرا وشاتيلا»:

الكآبة تسلقت صدور الرجال، ومداركهم!!

الحزن يتكثف . . يمزق الليالي . . يعصر النجوم آهات ودموعاً!!

الأرض . . من يصلح لها؟!

الأمسيات . . من يغنيها فيبعثها بالأناشيد؟!

كانت الإذاعات تردد أغاني الحب المستباح والنازف والرديء!!

الكلمات.. كانت حبلى بالقرف وبالفراق!!

الليلة الحزينة بعد هزيمة حزيران، وخرس المدافع، كان النضال آنذاك يتفتت تحت رحى التمزق!! كل وجه.. كان حزني.. لأنه كان جرحي، وهزيمتي ودمي، وأسئلتي المضرجة بالفجيعة!!

كنا لا نقدر أن نفعل شيئاً.. بعد أن فعلوا بنا كل شيء!

ومرة أخرى.. تلفت تاريخي المقهور نحو أول سفير إسرائيلي يجعل وسادته ظلم الإنسان العربي، وينام قريراً في داخل البيت العربي بعد أن ذبح له عربي من مصر كل الخرفان، وأولم له فرحاً بتثبيت القدس عاصمة إسرائيل للأبد!!

ولم تتبق كآبة ـ بعد هذا ـ في صدور الرجال..

ذلك أن الصدور العربية ملأها الملح!

* * *

يا حبيبي.. أيها الوطن.. أيها الحب العربي: الهتاف الضائع في بيداء الفقد والغياب والألم.. والنداء الذي فقد حنجرته. وتاه عن طريق رجوعه.. الوطن، والعقيدة والشجاعة وانتظار السنين الطوال ترقباً ليوم التحرير واستعادة كل الأراضي المسلوبة!

أبلغ من الحب.. كان الإيمان..

النداء الذي تجدد.. ينطلق.. يتضخم.. يرتفع: يا رب!!

أين كنا.. لماذا فرطنا في الإيمان كل هذه السنين؟!

من يسكن الأمان بعد اليوم في صدورنا الملتاعة القلقة؟!

الإيمان يعيد الأمان!!

كانت الدوامة تلف النضال، والصدق، والشجاعة، والمقدرة.

دوامة التمزق، والتفتت، والتناحر، والتنابذ، وازدهار الشتائم، فتفرق العالم العربي شيعاً، ومبادئ غريبة ومستوردة، وشعارات كلامية.. تستفز الحقيقة ولا تقوى على الحياة!!

الأمان.. كيف يعود؟!

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)

النداء، الهاتف، الأمان.. الإيمان مطلب لاسترجاع جوهرنا.. لتحويل الهزيمة إلى نصر.. لهزيمة الهزيمة!!

* * *

ـ سألوا الجندي المتقهقر من أرض المعركة: ما الذي هزمكم؟!

ـ قال: الفرقة. الارتجال. الصعود والهبوط في المساحات المفرغة من كل شيء!

ـ سألوا الأرض المسلوبة: ما الذي أضاعك؟!

ـ قالت: نسوني حينما كانوا يتذكرون أمجادهم الذاتية!!

ـ كل وجه.. كان حزني!!

على الوجوه.. تطوح الزمن وأنكفأ.

على الوجوه.. تآكل الحب وتسوس..

على الوجوه.. فقدان رهيب يفتش عن اليقين.. عن الحقيقة.. عن الإيمان!!

الإيمان يعيد الأمان!!

ولم يكن «التوقيت» سهلاً في اختياره، الاختيار كان حينما عاد الإيمان. الانطلاق كان حينما حررنا نفوسنا من الخوف واليأس. اللحظة الخطيرة التي بدلت المواقف كلها فصنعت موقفاً.. كانت لحظة الشعور بتغلغل الإيمان، وأن لا بديل له!!

ـ في يوم العاشر من رمضان.. ولد تاريخ جديد..

سوف تصدقون هذه العبارة التي أكتبها بدموعي. قلتها وقدماي ثابتتان ـ ذات يوم ـ فوق أرض سيناء.. وحدقتا عيني تحولتا إلى «ألبوم» يجمع صور الدبابات المحترقة المتناثرة التي خلفها العدو وراءه. كانت حشوده هائلة وكانت عزائم الرجال الذين تدفقوا لتحرير الأرض أكثر هيولة ونفاذاً.

ـ قال لي أحد الجنود فوق خط بارليف المنهار: صدقني.. آمن بربك لقد كنت.. أحارب وأحس أن بجانبي مجموعة من السواعد المحاربة.. لا أراها ولكنني أشعر بها.. أرى فعاليتها في عيوني كأنهم جند الله من الملائكة يحاربون معي.

ـ وسألته: ما هو تفسير ذلك؟!

ـ قال: الله نصرنا.. هو الذي أعاننا وثبت أقدامنا. كانت معداتهم بلا حصر وحشودهم بلا عدد، ولكن في صدورنا إيمان وتسابق إلى الشهادة. لقد انطلقت نحو الموت وأنا أضمن الحياة حتى لو تحقق استشهادي. شعرت أن الموقف قد تغير. إنني اقتحمت ميدان القتال

لأحارب من أجل استعادة الأرض. وليس من أجل المناورة!!

وبعد العاشر من رمضان.

(يحتفلون به اليوم في أكتوبر)!

بعده فراغ كبير. .

وتفريغ أكبر!!

* * *

ـ صعدت. . صعدت. لا أقبل أن أهبط بعد ذلك!!

كل وجه كان حزني. . ما زال!

وأتطلع إلى الوجوه اليوم. . كل وجه يصبح هو أغنيتي!

تغلبنا على الهزيمة. . فأعدنا إلى وجوهنا بشرها. وعشقها للحياة!! أية مجزرة تتخثر الآن في الصدور؟!

الحياة رصاص. وأزمات اقتصادية وأخلاقية واجتماعية. الحياة لم تعد ملكاً للإنسان. . كل ما يملكه الإنسان هو الموت. .

الموت في المسافة الأقصر!!

* * *

ـ يا حبيبي:

أيها الانتصار: يوم افترقنا كان يوم غياب الحبيب. وما دام «حبيبنا» فلا بد أن يعود ولكن الحب لم يغب أبداً، فمتى تعود أيها الانتصار. . لتعمر قلوبنا من جديد بالأمل؟!

يغيب الحبيب.. ولكن الحب لن يغيب!!

تلك هي الذكرى الأولى للعاشر من رمضان.. وأيضاً لدخول سفير إسرائيل إلى مصر!

وقوفاً نحن.. نترقب الذكرى الجديدة لعودة الحبيب.. لميلاد نصر جديد.. يصنع التحرير الكامل لكل ما ضاع وسرقوه!!

وقوفاً نحن.. لن نسقط أبداً!

❊ ❊ ❊

وجهان . . في الزحام

ـ الوجه الأول :

تبدل وجهه الحقيقي . .

تلك الابتسامة الصافية المقبلة على الحياة والأحياء . . تنغمر كل يوم في مزيد من الإرهاق، واللهاث والضنا.

ذلك الوجه المعبر عن قيمة العمر في عمق الوشائج بين الناس، وفي صدق الشعور لهم ومنهم . . يبدو الآن وجهاً مكفهراً . . أملس النظرة . . باهت الصدى. ردود الفعل في الصدى غريبة عن الأفعال!!

كان يبدو كمن يتجرع شراباً مراً، ولكنه مضطر إلى تجرعه لئلا يقتله العطش . .

كان يشعر أن حصيلة تجربته مع من حوله من الناس تقنعه بالانسحاب وحده بعيداً . . لعلّه بذلك يقدر على استرجاع وجهه الحقيقي، وينجح في استعادة التعبير إلى وجهه . . حتى إذا مات يوماً ما . . وجد الناس وجهاً حقيقياً أفلت من التنكر والتلون!!

ولكن . . حتى الموت لا يعرف موعده . . تماماً مثلما الصدق الذي أصبحنا لا نعرف موعد ظهوره على وجوه بعض الناس!!

فإما أن «تعايش» وجوه الناس المتقلبة سحناتها آناء الليل وأطراف النهار.. وأما أن تعتزل الحركة في وسطهم.

وهو يصمت في هذه المعاناة. ويتردد أن يحاور أحداً، فلا شيء أصبح يعطيه للآخرين إلا هذه النظرة الملساء التي تزحلق كل المرئيات. وتدفن كل المحسوسات في أعماق نفسه!!

وانقضى وقت طويل.. كان لا يفتأ وهو يصرمه أن يلتزم البكم المتكلم في صمته، ويقابل الكثير من القذائف الموجهة إلى ابتسامته القديمة ووجهه المضطرب بالصبر والتبرير إن استطاع..

كان يحاول في كل مرة أن يستخلص من معايشته وتأمله كل الأعذار لهذا السياج البشري المتلون الصاخب. السارق والمسروق.. يقرح نفسه.. يحملها، وينوء داخله بذلك الضنى المعذب!

ذات مرة.. حرك وجهه المستغرق في تأمل البحر أمامه، وحادث نفسه:

ـ يبدو لي أنك تحمل الحياة أكثر من ظروف كل عصر من عصورها، وتطلب من الناس فيها أكثر من طبائعهم وأنانية رغائبهم ومصالحهم، وإذا صعّدت ذلك في نفسك فلا شك أنك ستموت مبكراً ولا أحد يدري بك؟!

ولم يزل وجهه يغذ السير على صفحة البحر.. وجاء صوته واهناً يقول.. يرد على نفسه:

ـ هل تعرف.. إنني أستغرب لهؤلاء الذين يفكرون في الانتحار أو يفعلونه، فلا داعي لذلك أبداً.. أوليست الحياة بشكل هذا العصر الذي

نعيشه هي الانتحار؟!. . ولكنه انتحار بطيء لا يستطيع كل واحد أن يحتمل سلحفائيته!!

ـ ولكن. . لا بد أن نعرف أيضاً أن الذين فكروا في الانتحار ليسوا هم أكثر الناس. . إنهم قلة يئست من الأمل، وفقدت الثقة في قدرتها هي على تغيير ظروف الحياة، وحتى الذين فعلوا الانتحار ماذا جنوا. . ماذا حققوا بتعبيرهم العنيف هذا عن رفض بعض ظروف الحياة؟!. . لا شيء، فالمثل الشعبي يقول: كلام الناس ثلاثة أيام. . وبعد ذلك ينسى الناس، أو أنهم قد انشغلوا في رغائبهم وطموحهم ومشاكلهم!

ـ (أعرف ذلك. . ولكن فعلهم يحقق الصدمة المفاجئة والعنيفة في نفوس الناس الذين لا بد أن يتساءلوا: لماذا أقدم فلان على ذلك، وإذا تراكمت الصدمات فعلت التغيير في نفوس الناس. ولو جاء هذا الفعل متأخراً، وفي عصر آخر).

ـ دعني أناقش معك فعلاً واحداً من أساليب التغيير في نفوس الناس. . مثلاً: الفتاة التي أحرقت نفسها في الساحة العامة أمام الناس احتجاجاً على شيء ترفضه. . كانت شابة جميلة ناضجة مرغوبة من كثير. . هل بإمكانها عن طريق إحراق نفسها أن تحقق ما تريده لغيرها؟! أجزم لك أن الكثير قد مط بوزه شبرين استهجاناً بفعلتها وقال: لم تفقد إلا نفسها. . لماذا؟. . . لأنه لا أحد يقدر أن يغير الآن كل الذي يسرق الناس من صدقهم ومن عواطفهم ومن عقولهم أيضاً. . فالسارق لهذه الجواهر في النفس الإنسانية هو أكثر بشاعة وقوة وقدرة. . إن السارق هو العنف والماديات والنظرة إلى الحياة على أنها قيمة مال وليست قيمة معنى وروح!!

ـ نستطيع أن نعثر على وجه الحياة الحقيقي رغم كل ما وصفت.. ففي المقابل لهذه الصورة.. تجد هناك شعوباً تكافح المرض والجوع والأوبئة.. وتجد شعوباً تتصدى لقوة المستعمر والطامع. وتجد شعوباً تحترم الحياة فتأخذ من ثروات أرضها لتطور حياتها، وأحسب أن خطط التنمية.. نظام اقتصادي حديث تنفذه الآن بعض الدول بحرص على التطور والحياة.. فلا أحد يرضى أن يموت في وقت مبكر وإلا فقد كان من الممكن أن يذوب الشعب الفلسطيني في فترة ما من فترات التاريخ.. عندما عرف أن سارق أرضه «الصهيونية» قد نجحت تماماً في تمزيق الشعب الفلسطيني إرباً، وقذف تلك المزق في كل أنحاء العالم. فكيف يجتمع الفلسطينيون من جديد، وكيف يقومون من موتهم أحياء أشداء، وكيف عرف العالم كله اليوم أن فلسطين الحقيقية سرقها اليهود. وطمسوا معالمها وأحرقو فيها المسجد الأقصى، وبغوا؟... ولو أن الشعب الفلسطيني عمد إلى أسلوب تلك الفتاة التي أحرقت نفسها.. فأحرق نفسه هو الآخر لاستراحت إسرائيل ونعمت بالأمن المسروق.. لأنه لا أحد يطالبها بعدما فعلت، ولذلك فهي تحاول الآن أن تنسف الكيان الجديد للفلسطينيين وتحرقه بأساليب متعددة.. أبرزها العدوان والحروب وملاحقة الفدائيين فوق أرض لبنان، والأردن وسوريا، وحاولت أن تكسب أيضاً جبهة مهمة من جبهات النضال والمقاومة ضدها فتوقع معاهدة سلام لتضمن حياد هذه الجبهة.

ـ لكننا لم نزل في مواجهة كثير من غيبيات مصير الإنسان، وذلك الكثير لا يشك أحد أنه يحمل النذر، وما زال إنسان هذا العصر في انسياقه وراء ماديات الحياة، وفي مشاكله الذاتية ينسى وجدانه.. ويتناسى

روحه وأعماقه. . يسدر في متاهات يفرح بعطائها المؤقت ولا ينظر إلى المستقبل. إن الكثير من الناس لا يبوح، ولكنه يصرخ أو يبكي أو يقهقه. . حتى ينقطع نفسه، فمن يفكر في «البوح» ومن يحترمه ومن يفكر في الراحة النفسية قبل التفكير في رغائبه واحتياجاته المادية. . فمن هو الذي يصدق الآن مع نفسه ليقدر أن يصدق مع الناس؟!

ـ لا تسخط على كل شيء. . فالسخط عقاب المتوترين، والتوتر لم يكن يوماً دلالة على التفكير أو مخاضاً لفكرة. لا تدفع عصرك أن يعقدك ولكن عليك أن تحاول فك عقد عصرك بالإقبال على الحياة بتفاؤل، والخير لا يمكن أن ينتهي أبدًا. . حتى لو وجدته في صدر ناسك متعبد على رأس جبل، فهذا خير ما زال موجوداً ويستطيع أن يبلغ الناس. إن مشكلتك أنك أعتقدت أن «الثقة» يستأهلها كل الناس. وعليك قبل كل شيء أن تزرع الثقة في نفسك.

وبدمعة تنحدر على وجنتيه ساخنة. قال:

ـ دعني أبكي قليلاً، فهذا بوح يعز الآن على كثير من الناس ممن جفت في مآقيه الدموع!

ـ هل فكرت الآن لماذا أنت تبكي، وهل تبكي على أناس لا يحسون بك، أم تبكي من أجل أناس تحس بهم؟!

ـ إن من نبكي لأجلهم. . هم قيمة لا تهون في خلجاتنا وأفئدتنا، والدموع لا تسح من عيوننا بدوافع تفاهاتنا ومن أجل سقط الأيام. . إن الدموع أغلى ما في الإنسان، وعندما جفت في مآقي البعض كان ذلك نذيراً بفقدنا لأصالة الإنسان وجوهره!

ـ أحياناً.. تجد الناس يظلمون بدافع الانصاف.. مثلما البعض يظلم بدافع الحب لنفسه!!

ـ ودمعي أمام من أحب؟!

ـ ليس شرطاً أن تكون دموعنا أمام من نحب، ولكن من الضروري أن تكون دموعنا من أجل من نحب.. إنها تنصفك في أعماقهم الدفينة، وستجلو نظرتك للناس أكثر، فلا ترى إلا الصفاء.. مهما كانت المسافة بعيدة!

ـ وهذا العالم من حولي.. إنه يصيبني بالتوتر، وبالخوف وبفقدان الثقة في الحب!

ـ مرة قال ـ توم بين ـ: إن العالم قريتي، وكان يعاني الكثير من الحرب الأهلية ومن أغنياء الحرب، ومن جهل الذين لم يبلغ نور العالم إلى عقولهم وأفئدتهم، ثم اصبحت قريته كبيرة.. كرة أرضية، وحل السلام، واندلعت حروب كثيرة، وعاد السلام ثانية وظهرت أمراض وأوبئة واكتشفت مضادات لعلاج تلك الأمراض ولإفساد تلك الأوبئة وظهرت أمراض أخطر يحاول العلماء والأطباء القضاء عليها.. وهكذا الحياة بكل ما فيها من متناقضات، أما الذي لم يتغير لأنه الأصيل والأصل لعمار هذا الكون. فارفع رأسك إليه.. ترى السماء الرحبة الصافية.. ترى زخات المطر تغسل الأرض، وتسقي التربة وتغذي الزرع، وترى الشمس في دوراتها المعهودة.. ترى القمر في جماله وبهائه.. وعندما ترفع رأسك إلى السماء وترى كل ذلك.. فتأكد أن هذه هي الحياة الحقيقية.. لأنك بذلك ترى الإيمان وتحسه!!

* * *

الوجه الآخر :

ـ لم تبلغ به الحيرة مثل ذلك العنف الذي مار في داخله . . بل كانت أضخم . .

حيرة مرهقة تفوق ما عاناه «آرثر ميللر» فوق صفيح ساخن، عندما كان يقدم على تجربة جديدة، وكل تجربة في بدايتها تبدو غامضة أو أن الإنسان لا يحاول الالتفاف حولها لئلا يفقد مفاجآتها . . مهما كانت تلك المفاجأة!

كانت أمامه تجربة جديدة، وكانت تتنازعه نوازع مختلفة تشده من كل جوانبه . . إن التجارب لا تضيع في قفلتها . . لا تجعل أصحابها يقولون : ليتنا لم نفعل، فكل تجربة لا بد أن تعطي انفتاحاً جديداً على معرفة وجه من وجوه الحياة ومن وجوه الإدراك، ومن وجوه الناس، وتخضع زمن الشخص منا للمقياس الذي تصنعه مجموعة التجارب تلك!!

كان يصغي إلى كل الحيرة فيه . . لكنه يود تمزيقها ليرتاح، حتى لو كانت راحة البلهاء، أو المجانين .

ولكنه كان يقول : إن هذه تجربة قاتمة قائمة، ويتمنى أن يزيحها قبل استفحال أسبابها وتفاصيلها، فهو ـ في معرفة الناس له ـ قد كان إنساناً «وجدانياً» لا يقحم نفسه في أمور الناس ولا يتطلع إلى محاكاتهم في أمر من أمور ركضهم السريع اللاهث . . إنه شيء قانع رغم أن النفس تأمره أحياناً أن يندس في زحام الناس ويفعل ما يراد منهم!

وهو ليس مسالماً إلى درجة متناهية، فهذه الصفة لا تنطبق عليه تماماً . . بقدر ما هو ينجذب إلى طبيعة الإنسان الذي يقول لك في كل فكرة وعمل وموضوع :

ـ خلينا بعيد.. بعيد أسلم!

لكن أنفه مشكلة.. إن له أنفاً يتورم كل يوم.. يكاد لا يرى غير أنفه! وإحساسه بالتجربة القادمة دفعه أن يحاول القضاء على الحيرة التي عنكبت في داخله، فإذا تخلص من الحيرة ـ يقول هو: تمكنت أن أفكر، وإذا فكرت لا بد أن أصل إلى حلول ونتائج!

ولكن.. ما هي حيرته؟!

ثم.. ما هي تجربته؟!

وأين وصلت به النتائج؟!

أما حيرته.. فقد لا تختلف كثيراً عن كل ما يعانيه الآخرون في حياتهم العادية، والتي لا بد أن تربط وثاقها جيداً بالمستقبل. فلديه مشاكل تغرق في نفسه حتى تتحول إلى حيرة ويفكر فيها إلى درجة الصداع.

يحتار كثيراً: كيف يستطيع أن يوفر مبلغاً كبيراً من مرتب ضئيل وتافه. لتأكل أمه وهو وأخته التي تصغره بعامين، ويحيا في المتوسط كما أغلب الناس؟!

يحتار كثيراً: كيف يجمع من مرتبه الضئيل ذاك مبلغاً يرضى به الرجل الذي سيختار ابنته زوجة له، وهو جاد في فكرة الزواج لأنه يرتاح كثيراً كلما مرت شهور واكتشف أنه مازال هو ذلك الشاب المستقيم، ومن الضروري أن يدعم تلك الاستقامة بزوجة تغنيه عن لحظة السقوط في المحظور، فمن أين له المهر وتكاليف الشبكة والزفاف وتأثيث البيت؟!

يحتار كثيراً: كيف يسلك الطريق الذي سلكه من قبله من أصبحت

لديه أرض وفيلا، وديكور في الفيلا، ثم توفير وتحصيل وإنماء حتى يصبح صاحب ثروة!!

أما تجربته القادمة. . فيسأل نفسه: هل أستطيع؟!

لقد كان له سعي يوماً ما. . عندما استطاع في موسم الحج قبل عامين أن يأخذ إجازة من عمله الحكومي، ويعمل سائقاً لأحد أتوبيسات نقل الحجاج، يعمل أيضاً ما يمكنه منه الوقت في خدمة الحجاج، ووجد بعد الحج أنه جمع مالاً لا بأس به. . وبذلك المال الذي وفره من سهر الليل، والركض تحت الشمس وفي الصحراء استطاع أن يشتري له قطعة أرض صغيرة. . وراح يجري إلى صندوق التنمية ليحقق ما كان جزءاً من حيرته. . . وهو في هذا السعي لبناء الفيلا حاول أن يقترض من الآخرين ليبني عشه، وتراكمت عليه الديون.

في البيت. . أمه تملأ أذنيه بصوتها:

ـ يا ولدي. . لقد آن لك أن تتزوج؟

ـ يقول لها: ولكن. . ليس قبل أن تتزوج أختي!

ـ قالت أخته: هل أنا عبء عليك؟!

ـ قال: لا تقولي ذلك. . مستقبلك مع زوج يحبك ويرعاك. . ثم إنني لا أحب رؤية البنات في سن عانس!

ـ قالت أمه: لا عليك. . إذا جاء نصيبها فلن يستأذننا!

ولأول مرة ترتعش قدماه. . يدق قلبه. . يتصلب جفنا عينيه!

ـ حقاً يا ولدي. . ما أجمل أن تكون بجانبك زوجة وفية مؤنسة

مريحة! حقاً يا ولدي.. الفلوس تجيب الفلوس، وديونك ستسددها وستنعم بحياة حلوة!

وانتهى بناء الفيلا.. فجاء إلى أمه يقول:

ـ احتفلوا الليلة.. أطبخي لنا خروفاً يا أمي فلقد انتهت الفيلا!

ـ قالت أمه: ألف مبروك.. فمتى سنسكنها يا ولدي!

ـ قال: نسكنها؟... إنني عرضتها للإيجار، ويمكن للبيع إذا جاءتني فيها بضعة ملايين!

ـ قالت أمه: وهل نبقى في هذا الجحر يا ولدي.. وما قيمة ما فعلت؟!

ـ قال: هل جننتم.. لا بد أن أسدد ما تبقى من ديوني!

ـ قالت أخته: ولكنك تسلمت بقية المبلغ من صندوق التنمية؟!

ـ قال: سددت به بعض ديون البناء وبقي الآن أن أكوّن ثروة، فإذا أجرتها بمبلغ كبير شريت بذلك المبلغ قطعة أرض، وإذا بعتها شريت فيلا أكبر أو عمارة!

ـ قالت الأم: يا ولدي.. إنك ستتزوج والبيت لا يكفي لك ولزوجتك ولى ولأختك.

ـ قال ساخراً: أتزوج؟!.. لا.. هذا شيء مبكر الآن!

ـ قالت أخته: وأين تلك الفرحة التي رأيتها في عينيك قبل شهور، وأين أحلامك في الاستقرار ودقات قلبك التي تصفها كأنها دقات بيج بن؟!

ـ قال: لا تكثري من الكلام من فضلك.. إذهبي الآن وجهزي لي ملابسي في حقيبة أخذها وأتجه إلى السوق لشراء بدلتين!

ـ قالت أمه: ولكن.. إلى أين؟!

ـ قال وهو يتقافز: إلى الخارج طبعاً.. سأسافر لأرتاح قليلاً بعد تعب طويل.. فأنا لم أخرج من البلد أبداً.. لم أر الدنيا.. لم أشاهد شيئاً!

ـ قالت أخته: ونحن.. مع من سنبقى هنا؟!

قال: أنتم؟!.. تبقون في البيت، وسأعطيكم مصروفاً كاملاً ولن أتأخر.. أكثر من أسبوعين!!

* * *

وصمت قليلاً بعد أن روى لي هذه الحكاية..

ـ وقلت له: إذن.. هذه تجربتك؟!

ـ قال: نعم.. ألست ممتعة؟!

ـ قلت: بالفعل.. ولكن الذي يبدو الآن أن حيرتك ستكون أعظم وأقسى!

ـ قال: كيف؟!

ـ قلت: لأنك نسيت كل أسباب حيرتك العميقة في نفسك... فرحت بفكرة السفر وبيع الفيلا، ونسيت أمك وأختك وحياتك المقبلة... نسيت أنك شكوت لي حيرتك المجسدة في كيفية توفير مبلغ كبير من مرتب ضئيل وتوفير مبلغ للزواج وإسعاد الزوجة وتوفير مبلغ لرعاية أمك

وأختك.. كأن الفيلا قد حلت لك كل مشاكلك وحيرتك.. بينما ما أتصوره أنك ستقدم على التجربة الحقيقية.. فهذه ليست تجربة وإنما هي فرصة مجنونة وستكون التجربة القادمة أقسى بكثير مما تتصور!

ـ قال: أنت مجنون.. أنت لا تفهمني!

ـ قلت: أرجو بصدق أن تفهم نفسك أولاً!!

* * *

واحد إنسان. . . جداً

وحده كان. . تختبئ نظراته في رمادية السماء وهي تغتسل بأنفاس الليل القادم!

هناك. . حيث كان يتمنى، ويحلم، ويحيا ببعده الرابع!

وهناك. . حيث مات!!

بقي ـ وحده ـ يغزل آهاته. . يصنعها مثل شبكة الصياد، لتلتف حوله كله. .

بجانبي كان «وحده» لا أنا، ولا حركة الناس على امتداد الشارع ولا الأضواء التي أخذت تتناثر وتعم وتتضح مع أولى خطوات المساء. . كلها لا توقظ معنى الحياة في وجدانه. . لا تهزه بعنفها وحقيقتها في تلك اللحظات التي يبدو فيها مرئياً وهو شيء ميت. . ميت!!

هناك. . حيث مات واستمر يمشي بين الناس في الشوارع المزدحمة وهو نعش يتحرك. . يرى ويسمع ويبتسم ويتصرف لكنه لا يبكي، فقد مات. .

الأموات لا يبكون. . الأحياء فقط هم الذين يغسلون وجوههم بالدموع، فالدمعة حياة وإحساس، والأموات لا يحسون. . . لا تعنيهم ومضة تلوح من اهتمامات الناس. . لأن الموت أقوى من الدموع. .

مات.. وهذه نتيجة!!

لكن لمن يعطي هذه النتيجة؟!

كان قد خفض بصره إلى الأرض، وكان يرغب أن يمارس موته بكل أبعاد الحياة التي يعيشها اليوم، وهو يرى ويسمع ويبتسم ويتحرك ولا يبكي!

وتكلم بعد هذا الإصغاء يحادث «وحدته».. فقال لها:

ـ عندما يكون الموت نتيجة، فلمن تعطى هذه النتيجة؟.. لقد تعودنا في حياتنا أن نعطي كل نتائجنا للموت!

ـ كيف هذا؟!

ـ أنت حينما تنجز عملاً وتنهيه.. ماذا تفعل بعد ذلك؟

ـ أفكر في عمل آخر..

ـ معنى هذا أن العمل الذي أنجزته انتهى.. خلصت منه... معناه أنه مات في نفسك، مات في اهتمامك. مات في نشاطك وحرصك!!

ـ لكني فعلت به شيئاً.. كسبت من ورائه.. جعلته على الأقل مقدمة لخطوة أخرى.. لعمل آخر أكبر، وأوسع..

ـ مبتسماً: تماماً.. تماماً هذا ما قصدته. كثيرة هي الأشياء التي نقصدها ونفعلها ولكنا لا نوضحها.. تماماً بهذا القياس عندما تكد وتشقى، وتتعب، ولهذه الأشياء أنت تستخدم حيويتك، وزمنك، وعمرك... تصنع وتنجز، وتنتهي.. تموت في نهاية عملك.. وفي نهاية كفاحك في الحياة، وأحياناً لا تملك النهاية الكبرى.. تموت في المنتصف.. في النهايات الصغرى مثل أن تعمل ويقتطعون من راتبك ـ

كتقاعد ـ تتركه لأطفالك. . مثل أن تبني بيتاً وتخرج منه ليأخذه غيرك ممن لا زالوا أحياء لأنك انتهيت. . مت، وهذه نتيجة!!

ـ لكن. . هناك عملك الذي يخلد بمقدار عظمته، وأهميته، وجدواه لحياة غيرك، فلا تكن مغرقاً في الأنانية.

ـ ساخراً: صدقني لست أنانياً. . إن ما أسميته بالعمل الخالد ـ ذلك الذي يطلقون عليه خلفك ـ أي ما خلفته وراءك. . هو لا أكثر من بقايا طموحك. . بقايا جريك وركضك على أرصفة الحياة!

ـ والمشاعر كيف تنظر إليها هي الأخرى!

ـ إنها حقيقة الإنسان دون ريب، لا تثريب عليك إن جعلتني أتوقف ـ الآن ـ لحظة عندها. . إنها عزيزة، وغالية. . لكن. . هل تعرف المشاعر أين تكمن؟!

ـ مكانها الوجدان!

ـ هذا مكانها. . أما صوتها فهو الدموع!

ـ ولماذا لا يكون صوتها الفرحة. . الابتسامة؟!

ـ دعني أسألك. . لقد ضحكت، أو ابتسمت اليوم أكثر من عشر مرات. . هل كانت كلها تعبيراً أصيلاً لمشاعرك؟. . في إمكاننا أن نضحك. . أن نقهقه بيسر، فالإنسان مغرور، ويغفل. . لكنك لم تبك منذ أيام على الأقل!!

ـ إذا كنت فرحاً. . لا داعي لأن أستحلب دمعي!!

ـ لا يقدر أحد أن يستحلب دمعه. . التماسيح فقط هي التي تخدع. .

أما الإنسان فتعز عليه دمعته.. لهذا كان الشعور دائماً صادقاً وكان الشعور قوياً.. لأن صوته الدموع!!

ـ لكن العواطف تنخذل أحياناً وبالدموع!

ـ لئلا نموت على أية صورة أو أي شكل يجب أن نكون أقوياء في مشاعرنا وعواطفنا، فلا نذرف الدمع أينما كنا، ولأي حالة، إن الدمع عزيز.. لأنه صدقنا وشعورنا.

ـ ومتى نبكي إذا كنا نكبح الدمع، ونمارس قوة إحساسنا به.. متى نبكي إذن؟

ـ لا زلت أحفظ آخر عبارة قالتها لي.

ـ من هي؟!

ـ تلك التي مارست قوة حياتها ـ لا قوة شعورها ـ بتجفيف وتحجير الدمعة.. من أجل أن تواكب معاشي على وجه الأرض.. تعيش مثلي، ولا تحيا، وتدير وجهها لئلا ترى «النتيجة» بمنتهى السخرية!

ـ ماذا قالت؟

ـ عبارة لا تغنيني اليوم بقْدر ما «تهمني» ـ أي تغرقني هما.. عبارة تقول: «حينما تكون منابع الألم التي تفجر الدموع في النفس أقوى من كل قوة نمتلكها.. فنحن نبكي»!!

ـ كانت تخالفك فيما يلوح؟!

ـ فيما يلوح كانت مخالفة، كانت تلوي عنق الجواد الذي ركضت عليه ليقطع بها مسافة الزمن، ويعطيها أحد وجوه الاستيطان الاجتماعي!! غير أن الألم.. هو ذروة الإنسان!

ـ ولماذا لوت عنق الجواد؟!

ـ أرادت أن تؤكد ـ فقط ـ مقدرتها على لوي عنق الجواد!

ـ وإنسانيتها؟!

ـ عظيمة هي . . عظيمة بإنسانيتها، وربما كانت عظيمة حينما استطاعت أن تقطع مسافة الزمن، وتنال أحد وجوه الاستيطان الاجتماعي!

ـ أنت تحبها . . رغم أنك ميت!!

ـ وهبتها ـ ما تبقى ـ من الشعور بالحياة عندي . . فهي كانت تبحث في اللحظة التي كنت فيها قد انزلقت . . انزلقت بسبب ضحكات أو ابتسامات استنفدتها سريعاً، وقبل أن أتمكن من ذرف دمعة، حتى إذا وجدتها . . بهتت ضحكاتي، وتثلجت، وذرفت غزير الدمع . . علّه يتحول إلى مشرط يجرح أيامي، لكنه أصبح نتيجة . . بكل العنف، و . . . الرضا!

ـ نسيتك إذن؟!

ـ الذكرى مقدودة من الشعور . . لكنها تبدو من الأشياء التي ينتصر عليها الرماد، فيغطيها!

ـ وهل هذا هو النسيان؟!

ـ لم أقل ذلك . . إنه رماد يخفي الذكرى، وأنا لا أحب أن أجعلها تسمعني دائماً لئلا تتذكر أنها «إنسانة» معي. أحرص فقط ـ وبكل أنانية ـ أن أبقى معها أنا الإنسان!

ـ ألا يمكن أن تكون حقيقة شعورك هذا . . مجرد انقباض نفسي لا أكثر؟!

ـ تعني أنني نسيتها، وطمرتها تحت رماد الذكرى؟!

ـ لم أتوصل بعد إلى هذا اليقين.. ربما هو انقباض نفسي في صدرك فقط.. تتجرعه، فتظنه الموت!!

ـ مبتسماً: وماذا فعل الذين أحسوا بالانقباض النفسي؟

ـ كل أمرئ تعتريه لحظات من الانقباض النفسي، وهناك بعض المشاهير.. تحدثوا كيف كافحوه!

ـ من هم.. وكيف؟!

ـ الرئيس نيكسون ـ مثلاً يقول: «إذا شعرت بانقباض نفسي جلست فوراً وراء البيانو، وعزفت بعض المقطوعات الموسيقية»، اليزابيث تايلور تقول: «لدي وسيلة ناجحة لطرد الهموم والكآبة.. وهي أني آكل طعاماً مخلوطاً بتوابل حارة فيلتفت انتباهي إلى لساني!!».

ـ تضحكني.. إن انقباض هؤلاء .. يرجع لأشياء ملموسة غالباً.. لأشياء مادية بحتة، فالأول انقباضه ليس في نفسه وإنما في أصابعه أو في سمعه، والثانية انقباضها في لسانها، أو في معدتها (!!).

ـ وما رأيك فيما قاله الفنان ـ انتوني كوين؟!

ـ ماذا نصح؟

ـ قال: «أفكر بالزمان الذي كنت فيه أفقر الناس.. ثم أقارن بوضعي الحاضر، فأعترف لنفسي بأني تمتعت بحظ نادر، ويعود الفرح إلى نفسي»!!

ـ أتجاوز بك، وأعتبر كلام هذا الفنان معنوياً.. رغم حديثه عن الفقر، والغنى، وهذا لا يعتبر قضية ما دمت قادراً على العمل، وعلى إعطاء مزيد من عرقك المنداح.. لكني أتجاوز، وأقول لك إن «أنتوني كوين» إنتقل من

زمن إلى زمن . . من حالة إلى حالة أخرى . . من حقيقة إلى حقيقة، لكني أنا تصلبت عند زمن معين يوم عرفت عطاء دمعتي، ولم أنتقل من حالة إلى أخرى . . فالحب ليس حالات . . إنه نقرة . . يقظة واحدة، ويبقى صداها، وصحوة من أحلام، وأماني، وتفاؤل مريح على حقيقة . . على ضرورة انطلاق جوادها حتى لو كانت عنقه ملتوية بعنادها هي!

ـ عش بالصداقة . . إن الفنان «فاجنر» له عبارة معناها: إن الصداقة أجدى علاج للحزن . . لقد كان ينادي أصدقاءه ويولم لهم في بيته كلما اهتم، وحزن!

ـ وبعد أن ينفض الاجتماع، أو الوليمة، ويعود كل واحد إلى مأواه، وتطفأ الأضواء القوية وتبقى أضواء الأباجورات والزوايا . . ماذا يحس لحظتها، وماذا يفعل؟ . . ألا يعود إلى سيرته الأولى؟!!

ـ وما هي الأسباب التي أبعدتها عنك؟!

ـ لم تبعدها، وإنما أبعدتني أنا في البداية . . ثم ضيعتها بعد ذلك . . ضيعتها في صدى فرحة مشدودة على شفتين مبتسمتين!

ـ إحكي . . إطرح أوجاعك!

ـ لقد طرحتها . . إني حزين فقط، وهذا الحزن ألمسه حينما تطفر الدمعة من عيني. قد أعتقد أنني ميت للأبد . . غير أن الدمعة أحياناً تعطي فرصة التفكير . . التفكير على الأقل ـ في ماذا أحيا . . أو كيف أعيش!

ـ قنوط، وشقاء ويأس . . أنت معذب!

ـ أبداً . . العذاب لا أحس به، لأن «الضرب في الميت حرام»!!

* * *

صمت. صمت آخر ثم استطرد يحادث «وحده»:

ـ تريدني أن أحكي؟!!

ـ سأريحك بهذا البوح، وسأخلص منك حينما يعود مرحك إليك حتى نستطيع أن نقضي الليلة سهرة «متعوب عليها»!

ـ البوح يريح لأول مرة، أما معي فلا جدوى.. إنني أبوح كلما تذكرت. فقل لي أين تريدنا أن نسهر الليلة؟!

ـ أنا هنا غريب في هذه المدينة الأوروبية، فهل تراني أجري وراء عيون المساء؟!

ـ المساء مغمض العينين دائماً.. عيوننا هي التي تشرع وترى في المساء!!

ـ أوه.. أرحني من استلهامات ذهنك.. أريد أن أسهر للصبح!..

ـ تسهر وسط صخب هذه المدينة، ونواديها الليلية، وزعيق موسيقى الجاز؟

ـ نعم.. ألديكم ما يمنعني أيها الأموات الأحياء؟!!

ـ بعض الموت حياة.. لا تضطرني أشعرك أنني أناقض نفسي فتتعبني في الشرح، والتوضيح!

ـ أنظر هناك.. إثنان يمشيان الهوينا.. مؤكد هما إلى سهرة!!

ـ سعداء.. إنهما في سهرة مستمرة.. ليس شرط أن تنحشر وسط الضائعين، أو المبذرين أو الفاقدين الهاربين بأوجاعهم بكل وكسة، وضيم.. أولئك الذين يصلبون جفون عيونهم فقط، يرقصون أحدث رقصة، ويدلكون أقدامهم بعد ذلك، أو ينامون ببدلة السهرة سكارى العقل والروح!

ـ اقتربت أنا من مرحلة الجنون بفضلك . . ماذا تريدني أن أفعل؟!

ـ تحس بإنسانيتك . . تعطي نفسك قيمة الراحة الحقة من وراء فكرة، ومفعول السهرة!

ـ كيف أشعر بإنسانيتي؟

ـ أن تتأثر بالصورة التي لفتّ نظري إليها قبل ثوان. أن يكون في مقدورك تحقيقها لزمنك . . لساعات ليلك، فالليل لا يحتمل إلا صوتين!

ـ أنت رومانسي . . خيالي!!

ـ أنا ـ فيك ـ إنسان عرفت الحب، ويؤلمني أن يضيع منك بسبب غرورك، وتفريطك، وشهواتك!

ـ لكن هذا «سلوك» يا صديقي، وأنا التزم بالسلوك طيلة النهار، وجزء من الليل، وأريد أن أتجرد من كل شيء يذكرني بالسلوك لمدة ساعة فقط . . لأحدث التغيير في نفسي . . لأستطيع أن أستكنهه، فالطعم الواحد يبلد!

ـ بعد الساعة . . سوف لا تعرف طعماً ولا ترى تغييراً . . سوف تنام بحثاً عن أقرب عطن!

ـ دعنا نسير في هذا الشارع . . تحت أضوائه الخافتة . . ربما . . ربما أضعتك، أو أضعتني، ويبقى اللقاء بعد ذلك ـ بعد الضياع ـ مؤثراً، وفعالاً وتغييراً!!

ـ هل لا زلت تذكر مفتاح حديثنا؟!

ـ جداً . . بدايته أنك مت، وهذه نتيجة!!

***

وقهقها هو، و. . . «وحده» يمزقان صمت الشارع الكبير!!

وأردف هو يقول:

ـ كنت أردد دائماً عبارة تقول: المهم أنني إنسان.

ـ وماذا كانت النتيجة؟!

ـ (يمسح دمعة تحدَّرت من مآقيه): ناقشت هذه العبارة شهوراً في ذهني. . ناقشتها وأنا ميت، وأنا نعش أعدو، وأتحرك، وابتسم، وأنا أحمل على كاهلي «النتيجة» . . ثم. .

ـ ماذا كانت «نتيجة» النقاش؟!

ـ لا. . ليست نتيجة. . كانت العبارة تنمو في ذاتي، وتفكيري يوماً بعد يوم، وأقتنعت أن الحياة من أجل أن يؤكد الواحد إنسانيته تبدو حياة جديدة.

ـ ألسنا جديرين أيضاً بالانتصار على فكرة الموت؟!

ـ حينما نتمكن من «المهم»!!

ـ المهم. . إنني إنسان!. . تلك النتيجة وحدها!!

واحد شيطان. . . جداً

في وسط الزحام. .

وبين جلبة الأصوات التي اختلفت في لهجتها، ولغتها. . وفي محاذاة تلك الأكتاف الملونة غير المتناسقة. . كان يسير، وفي أعماقه يتردد صدى صوت شيطاني يوسوس له:

لقد كان يصغي إلى الصدى في داخله. . لصوت لم يتبين مصدره. . إن نفسه لا توسوس له بمثل هذه الأفكار!

إنه الشيطان اللعين. . وفي يوم ضَرْبِه بالحصا؟!

لقد كان الشيطان يقول له في تلك اللحظة: يا أخي أرمي الحجارة وأركب سيارتك، وأذهب إلى بيتك بلا وجع دماغ!

ـ ويتلفت حوله. . ويرد على الصوت: أنا لست أخاً لك يا شيطاناً يا مريداً، وسأكمل حجي، وأؤدي ما يتوجب عليّ كمسلم!

ـ ولكنك شاب، وفي إمكانك أن تؤدي الحج في أوقات كثيرة!

ـ ولكني لا أضمن عمري. . ربما انتهت حياتي غداً؟!

ـ ولا يهمك. . كل شاب يموت هو شهيد!

ـ أيها الشيطان الملعون. . من أين أخرجت كلامك وأتيت به؟

ـ لا يا عم.. ليس كلامي هذا، لقد قاله إنسان مثلك. كل شاب يموت هو شهيد.. هكذا سمعت!

ـ طيب حل عن نفسي وفارق.. أنا أرفض أن أكون شهيداً بالصورة التي تصفها!

ـ على كيفك.. أنتم هكذا، ترفسون النعم بأرجلكم.. وإلاّ لو تسمع الكلام الآن تروح تنام في بيتك.. يا سلام. شيء لطيف!

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

***

ويسير في شوارع «منى» يتلفت حوله، وبين يديه مجموعة حصوات صغيرة منتقاة، وفجأة يسمع في داخله صوتاً:

ـ شوف.. شوف!!

ـ فيه إيه كمان؟!

ـ يا ولد الناس اعتدل، خليك شباب بصحيح.. شوف الجمال اللي قدامك.. يا حلاوة!

ـ أشوف إيه.. إلهي تنطص على عيونك يا شيطان الكلاب!

ـ لا.. لا.. سفاهة ناس من أشكالك ما بيننا. أنا أفتح عيونك على النعيم يا بجم! الجمال قدامك. شوف وجهها قمر. شوف جسمها «ملبس» شوف..

ـ يا شيطان ابتعد.. بس (يصرخ وسط السائرين).

ويجتمع حوله بعض السائرين، ويبدو وجهه متوتراً كمن صفع عدة

صفعات . . ويأخذونه إلى مقهى قريب، ويدلقون على رأسه الماء، وهو يبدو مذهولاً . . يشير باصابعه إلى «الجمرة الوسطى» ويقول:

ـ شوفوا . . شوفوا . . جميلة . . يا حلاوة.

ويتخلص من حصار الناس، ويغيب في زحام جديد!

وفي محاذاة تلك الأكتاف كانت يدي تقبض على الحصى لأرمي الجمرات، وكان يسير بجانبي في ذهول، في عينيه حملقة فارغة ليس فيها تركيز! وفي تفكيره ـ كما قدرت ـ أشباح آراء لم يكتمل نموها، ولم يحن مخاضها، وسمعته يقول لي بصوت خلته قد ضاع في هدير السائرين:

ـ أين هو الشيطان؟

ـ قلت له: وإلى أين أنت ذاهب الآن؟!

ـ قال: معك . . نرمي الشيطان!

ـ قلت له: إن خطواتك هذه من أجل رمي الجمرات . . إنها جمرات هذه التي في يدك، وليست شيطاناً!

ـ قال: أنا أعرف أن الشيطان ليس في يدي، وإلا لما كنت بجانبك الآن! . . لكني أيضاً لا أبصره أمامي.

ـ قلت: إسمع يا صديقي . . لقد قال «مارك توين» مرة: (شكسبير والشيطان أعظم مجهولين ـ وبالتثنية ـ) ويخيل لي أن المرة الثانية سأقولها أنا بدلاً عن مارك توين لك أنت!

ـ قال: لكنني لست مجهولاً . . إنني أبحث عن معنى لهذا العمل الذي نؤديه؟

ـ قلت: وتستغفر الله بعد أن تعرف؟!

ـ قال: وهل ألحدت؟.. إن الله ربي ومحمد نبي.. غير أنني أبحث عن مزيد من المعرفة!

ـ قلت: إن هذه الأبنية الثلاث التي تقف أمامها وتقذفها بالحجارة اسمها «الجمرات».. ليست هنا شياطين بمعالم بارزة ملموسة.. هنا رمز أقيم للشر ليتوافد عليه المسلمون في لحظات واحدة ذات توقيت.. في أيام ثابتة.. في هدف واحد ينحصر في مهاجمة أصل واحد. هنا وحدة هدف اجتمعنا بها، واستقطاب لمشاعرنا التي تتجه كلها نحو عدو واحد معروف مشترك!

ـ قال: وماذا أيضاً؟

ـ قلت: ألا تحس الآن أن هنا وحدة هدف تجمع هؤلاء المسلمين كلهم للاتجاه نحو عدو مشترك تقذفه بالحجارة؟. هذا الاتجاه هو ـ في مفهومه ـ فلسفة كاملة رائعة، عن التقاء المسلمين في عمل واحد، وتخطيط واحد، ونتيجة واحدة!

ـ قال: أحس «برد» الاقتناع يملأ جوانب نفسي هذه اللحظة، لكن.. ألم تقرأ كلمة أخرى «لمارك توين» الذي ذكرته.. يفلسف فيها عمليات الشيطان؟!

ـ قلت: لنناقشها في هذا الجو.

ـ قال: مارك توين كتب جملة على لسان الشيطان تقول كلماتها: «إن الإنسان مصنوع من تراب، أما أنا فلست من تراب! الإنسان متحف للأمراض والأقذار.. فهو يأتي اليوم ويرحل غداً، ويبدأ كتراب، وينتهي

كشيء نتن . . إنني من الأرستقراطيين الذين لا يفنون!».

ـ قلت: هذا بحث آخر دعني أناقشك من آخر كلمة في جملة شيطان «توين» . . إن شيطانه يقول: «إنني من الأرستقراطيين الذين لا يفنون» . . مع أن الفناء نتيجة حتمية واقعة بلا شك . . كل الطبقات، وكل العالم باتجاهاته وألوانه، ولغاته سينحدر إلى فناء، وساعتها لن يبقى مخلوق . . فناء عام ينهي كل ذرات الشيطان، ويعطل أعماله ووظيفته . . لكن «مارك توين» كما فهمته لم يكن يهدف إلى فلسفة وجود الشيطان . . بقدر ما كان يريد إيضاح الصورة التي تبرز حقيقة «الإنسان» الذي يملأ الوجود طولاً وعرضاً وهو قذر (!)

إن الشيطان ـ يا صديقي ـ حقيقة معروفة، وقصة رواها لنا القرآن الكريم، وعنصر شك يفتك بكل ما يستطيع . . غير أن الإنسان ذاته لم يعرف ـ فيما يبدو ـ قيمة الحياة التي يعيشها . . فالحياة في تفكيره ونظراته مضطربة مشوشة كما خطوط القلب المضطرب تحت عملية جراحية . . لا يرى فيها وجوده . . إنما يخاف وجوده في هؤلاء الذين من حوله!

إن الإنسان يعيش وحوله الآخرون يمارسون نفس المهنة، ويساقون إلى مصير، ومع هذا فإنه لا يفكر إلا في الأقذار التي حوله، ويصم، ويعمى عن الجمال، والطبيعة ! . . عندما قال «توين» إن الإنسان متحف أمراض وأقذار فهذه هي الحقيقة! . . وإذا كنت تخالفني فاحمل معي مشعلك، وأبحث عن الأخلاق . . أين هي الأخلاق فيما حولك؟! . . سأرغمك على إطلاق نظراتك من حولك لتقدم لي دليلاً واحداً . . تستله من تصرف إنساني يتصف بالحب من إنسان شغلك كثيراً بصوته وكلماته التي يردد بها معاني الحب . . إبحث جيداً؟!

ستجد أن الأخلاق في دنيا الإنسان تمر بأزمة حادة.. أزمة تمخضت عنها حرب يونيو ونتائجها. وارتفعت كثيراً عن مستوى أزمة «بروفيومو» وتميزت كثيراً عن الأزمة التي عانتها أمريكا أثناء اغتيال إبراهام لنكولن محرر العبيد في أمريكا، وأثناء اغتيال كيندي ذبيحة الصهيونية، وأزمة الأخلاق في اغتيال غاندي!

إن هذا مستوى الأخلاق في تاريخ معاصر وقريب!

إن الشفاه التي تنفرج كثيراً بابتسامة تدلقها على وجهك.. ليست سوى شفاه مطلية بالروج الذي يزال بالماء.. لتظهر من تحتها التكشيرة!

إن أقنعة «البلياتشو» قد ارتفع ثمنها بسبب الإقبال الكبير نحوها من الناس!

وليس هذا تشاؤماً وامتهاناً لإنسانيتي، وإنسانية كل البشر.. إذ لا يمكن أن كون أكثر من إنسان!

وأعود بك إلى موضوع الشيطان الذي بحثت عنه في خطواتك.. إنك كنت تبحث لحظتها عن نفسك.. فقد كان الشيطان مواطناً أصيلاً في داخلها!

ـ قال: ماذا تعني؟!

ـ قلت: أعني أن يعطي كل واحد منا للآخر سبع حصوات، ويطلب منه أن يقذفه بها!

ـ قال: لكني لا أقبل أن ترجمني بحصاة!

ـ قلت: حتى الشيطان لا يقبل ذلك!

واحد قمر. . . جداً

على الدروب الطويلة يضيء القمر فيؤنس الساري!

في ليالي الشوق ينعكس نور القمر، وفي ظله يتعاطف الصدى وتسهر العيون، وقد غرب عنها الكرى، مشرعة شاخصة إلى «زورق الفضة» على صفحة السماء!

والقمر رقرق قلوب كثير من الناس. . كانت أشعته تغسل الشوائب في النفس. . تغمر الذات بالطمأنينة والحب. . ويحتضن هو كل النظرات المتجهة إليه. وكلها نظرات ألم الحب . . ونظرات السارين في دروب الوحدة. . ونظرات الذين فقدوا الهجوع!

ومن قديم. . وحتى الآن برغم الصورة البشعة التي نقلها علماء الفضاء عن القمر، لازال الناس ينطرحون تحت ضيائه شاردين في تأمل عميق!

ولم يزل الاحتفاء بموكب القمر في لياليه المعروفة. . احتفاء مستمراً لم يؤثر عليه حتى «منطق» العلماء. . والناس يستمرون يرددون مع أم كلثوم:

هلت ليالي القمر تعال نسهر سوا

في نور بهاه

وفي الأغاني.. أحب الناس أغنية حديثة في محيطنا وأقبلوا عليها.. كأنهم بذلك الإقبال يخرجون ألسنتهم لكل محاولات الوصول إلى سطح القمر.. ويغنون:

يا قمر شوف الحبايب   كل واحد له رفيق
إلا قلبي مالو صاحب   ماشي وحدي في الطريق

لقد جعلوا من القمر محكمة استئناف للمحبين، وملاذ «التعبانين» من الحب!

ومن قديم.. حفظ الناس على مر العصور بيتاً شعرياً تصويرياً للشاعر عبد الله بن المعتز القائل:

وانظر إليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر

مساكين المحبين، حتى آلمهم يحملونه القمر.. يصفونه بالعنبر!

وشعراء كثيرون تغزلوا في القمر الحقيقي، وفي القمر مجازاً!

ولكن هناك أيضاً من هجاه وذمه.. فقال ابن الرومي:

يا بدر أنت تغدر بالسار   ين وتزري بزورة الحسناء
كلف في شحوب وجهك يحكي   نكتاً فوق وجنة برصاء
يعتريك المحاق ثم يحليك   شيبة القلامة الحجناء
ويليك النقصان في آخر   الشهر فيمحوك من أديم السماء
فإذا البدر ينسل بالهجو هل يأ   من ذو الفضل ألسن الشعراء

أجل.. ابن الرومي أراد أن يرسل شؤمه إلى القمر أيضاً.. لكنه لم يستطع في النهاية، فقال: هل يأمن ذو الفضل ألسن الشعراء؟!

وكان بهذا يعترف أن القمر من ذوي الفضل!!

وجمعت معي بعض المعايب التي قيلت عن القمر، وفيه، والمشاكل الجديدة التي أكتنفته. وغمرتها في نظراتي ذات ليلة من ليالي النصف. .

وجلست أتطلع إلى القمر وهو في موكب رائع فاتن. . كنت أريد أن أتحدث معه، أعرف منه أشياء كثيرة غامضة. وأناقشه في مشاكله مع سكان الأرض، ومشاكل الناس على الأرض معه!

إنه لا يعرف ـ عندما سألته أول سؤال ـ ماذا أعني بالتحقيق الصحفي؟. . إنه يعرف فقط التصوير العلمي الذي استخدمته واستفادت منه الصحافة يوم نشرت صوره. . وفضحته وكشفت سرائره وبواطنه. . كان يبدو غاضباً. . وعصبياً، وكان يقول:

ـ هذه منكم يا سكان الأرض؟ أنا أحنو عليكم، أواسيكم في وحدتكم. . أضيء دروبكم. . أمنحكم بوجهي راحة نفوسكم. . أرقرق قلوب من تحبونهم. وأنتم ـ بطبيعتكم ـ تجرون وراء الأسرار. . تعكسون الجوانب البشعة في داخلي. . لماذا تبحثون عن الجوانب البشعة فقط؟!

ـ قلت له: بالعكس. . نحن نحبك أكثر، وهذا الحب هو الذي دفعنا أن نرتاد الفضاء لنصل إلى سطحك. . نعرفك أكثر وعن قرب وملامسة. . ألا تعرف يا ـ يا قمر ـ أن الذي يحب يصر أن يعرف كل شيء عن محبوبه. حياته. تصرفاته. سلوكه. جوانب الجمال فيه. معايبه. نفسيته. . أعماقه؟!

ـ قال: هذا فضول الإنسان، مع أن السكان هنا على سطحي يقدِّرون كوكبكم. يتطلعون إلى الأرض بإعجاب. . والذي يحب هنا يقول لحبيبته متغزلاً: أنت وجهك زي الأرض. . وبهذا يمتدح جمالها!

قلت في سري: أية أرض هذه؟.. ورفعت صوتي أقول له.

ـ أريد أن تصف لي نفسك.. طبيعتك.. أعماقك.. ماذا فيك؟

ـ قال: حتى تفضحني عند سكان الأرض؟.. ومع ذلك فقد أحسست أن جسمي يتألم بما وصل إليه من صواريخ ومركبات.. إن القذائف العلمية أهلكتني.. ألم تقرأ ما قاله عالم أمريكي لديكم على الأرض؟!

ـ ماذا قال؟!

ـ قال العالم: إن القذائف العلمية الأساسية التي يمكن إطلاقها من الصاروخ «سنتور» تجعل من الممكن الحصول على نزول لين بالمعنى الصحيح إلى سطح القمر».

ـ قلت ضاحكاً: هذا فأل.. دليل أن الناس يحبونك لأنهم يريدون أن يكون النزول على سطحك «ليناً».

ـ قال ساخراً: إن الناس يحبون أنفسهم.. إن النزول اللين يخدمهم هم حتى لا تتحطم مركباتهم، ولا يفقدون رجالهم.. ولذلك بدل أن يستعمروني بعد خمس سنوات يستعمرونني بعد سنة.. صدقني إن كل الذين يحاولون الوصول إلى سطحي هم استعماريون.. إنهم يضحكون عليكم في الأرض بالأسلوب العلمي، وهذه أحدث موضة للاستعمار!

ـ قلت: دعنا من هذه الصورة فأنا هارب إليك.. إلى هدوئك.. إلى ضيائك فلا «تغم» نفسيتي!

ـ قال ضاحكاً: لا تهتم.. أنا متسامح، إنما قل لي.. أنت من سكان أية منطقة في الأرض؟!

ـ قلت: من منطقة الشرق الأوسط (!).

ـ قال: ها . . من أجل هذا نفرت من الحديث عن الاستعمار، لأنكم تكتوون بناره في المنطقة.

ـ قلت: أنت تقول إنك متسامح . . فما دليلك على ذلك؟!

ـ قال: دليلي من عندكم. ألم يقل أحدكم يا سكان الأرض: «إن يبغ عليك قومك فلا يبغ عليك القمر»؟!

ـ قلت: هذا مثل عربي . . هذا دليل حبنا لك!

ـ قال: وقلتم مثلاً آخر يختلف . . هو «أضيع من قمر الشتاء» لأنه لا يجلس فيه ولا إليه أحد!

ـ قلت: البرد قارس أحياناً . . والإنسان لا يتحمل الارتعاشات القوية!

ـ قال: وهل هناك أقوى من ارتعاشة القلب عندما يحب، ومع ذلك تتلاعبون بقلوبكم أحياناً حتى وهي ترتعش!

ـ قلت: لحظتها ـ يا قمر ـ لا نفكر إلا كيف نزيد تلك الارتعاشة!

ـ قال ضاحكاً: أنتم معذورون . . فكل أدوات التعبير الملموسة عندكم . . أول شيء تفعله: الارتعاشة!

ـ قلت: وبعدين معاك . . لتكن لطيفاً كعادتك!!

ـ قال: إذن غيّر الموضوع . . فأنتم يا أرضيين لا تتحملون حقائقكم!

ـ قلت: يقولون إن طبيعة مناخك قاسية . . فماذا تقول؟

ـ قال: «إن نهاري يبلغ الأسبوعين طولاً، ويتعرض سطحي في هذا النهار لشمس ساخنة محرقة . . وهو السطح المضيء، وترتفع درجة

الحرارة عند خط استوائي إلى أكثر من درجة غليان الماء عندكم»!

ـ قلت: ومتى يحدث عكس ذلك؟!

ـ قال: (يحدث عكس ذلك أثناء الليل الطويل إذ يبرد السطح بسرعة كبيرة، فليس هناك طبقة عازلة من الهواء، ولهذ تهبط درجة الحرارة إلى ٢٤٠ف وهذا المدى يبلغ نحو ضعف المدى الحراري المطلق الذي سجل على سطح الأرض في تاريخها الطويل).

ـ قلت: على مهلك.. توقف. كيف عرفت هذه المعلومات عن نفسك؟

ـ قال باسماً: ألم تقولوا أنتم رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه؟!

ـ قلت: صحيح.. ولكن هذه المعلومات وزعتها إدارة الأبحاث الأمريكية من سنوات!

ـ قال: تريد أن تقول أني أمريكي؟!

ـ قلت: ليس هذا.. وإنما لعلّ معلوماتك عن نفسك أمريكية!

ـ قال: إذن أسمع وتعلم.. «القمر خالٍ من الهواء الجوي.. لذا يتعرض الإنسان إلى أشعة الشمس المباشرة فيكون هناك إشعاع شديد من الأشعة فوق البنفسجية. وبعض الأشعة السينية الشمسية»!

ـ قلت: ماذا في هذا الكلام؟

ـ قال: كلام علماء الروس!

ـ قال: إخِّيه ـ بتشديد الخاء ـ إذن فأنت شيوعي. حتى القمر يحاولون جعله شيوعياً؟!

ـ قال: لا شيوعياً . . ولا أمريكياً، ولكني مشدود من الطرفين . . كل فريق يريد أن يأخذني في أحضانه قبل الآخر!

ـ قلت: وأنت ماذا تريد أن تكون، أو إلى حضن من تلوذ؟

ـ قال: شوف . . الحضن الشيوعي يمحي الشخصية. وينكرني في النهاية فلا يعد للناس قمر بعد ذلك، والحضن الأمريكي يضعني في فترينة بديكور، ويكتب على وجهي: U. S. A بحجة أنه يحميني من الآخرين!

ـ قلت: قل لي يا قمر، ما رأيك في لجنة «سيتكس» التي كوّنتها أمريكا من سنوات لتبحث في نتائج العدوى التي يخشى أن تصيب القمر والكواكب عن طريق البعثات الأرضية؟!

ـ قال: والله هي عدوى بلا شك . . فأنتم يا سكان الأرض مشاهدتكم عن بعد أكثر سلامة من الاختلاط معكم، ولهذا فأنا في داخلي عراقيل ستتعب روّاد الفضاء وكذلك في الكواكب الأخرى. والسبب أننا لا نأمنكم ونعتقد أن فيكم وباء لا يصح أن يصيبنا!

ـ قلت: على هونك يا قمر . . أرد عليك بحقيقة عملية أخرى فلقد قالوا: «يجب حماية المكتشفين في القمر ضد الأشعة الضارة . . ولذلك فإن الآلات التي تسجل باستمرار في المحطات القمرية ستعطينا المعلومات الضرورية عن هذه الأخطار قبل أن يضع الإنسان قدمه فوق أرض القمر!».

ـ قال: ربما أعطتكم آلاتكم المعلومات . . لكن ذلك سيكلفكم كثيراً حتى تصلوا!!

ـ قلت: نغير الموضوع، فحدثني عن الحب على سطحك؟!

ـ قال: عندنا جميلات مثل الأرض!

ـ قلت: وبعدين معاك؟ الأرض حجارة ومستنقعات وجبال وأتربة.

ـ قال: ألم تقولوا أن في القمر أيضاً جبالاً وحجارة وإشعاعات قاتلة.. ومع ذلك أتيت إلي.. تتأملني وتسألني وأنت شحنة شجن؟!

ـ قلت: علماء الأرض قالوا: «إن تحليل ترابك إذا لم تصبه عدوى من يد الإنسان فهو هيدروكاربونات انبعثت في الفضاء الكوني»!

ـ قال: إن ترابي هذا هو تاريخي، وأنا لن أسمح لكم يا سكان الأرض أن تلوثوا تاريخي.

ـ قلت: ول، أنت حمقان جداً!!

ـ قال: أنا أدافع عن تاريخي!

ـ قلت: طيب. قال العلماء إن الإنسان على ارتفاع ٥٠ ألف قدم لا يفقد قابليته للحب.. فكيف يكون الحب عندك؟!

ـ قال: الحب هنا التئام.. إن كل السكان متمرسون على أنواع الرياضة البدنية، وعلى الانزلاق المستمر، فخطوات السكان هنا كلها انزلاق!

ـ قلت: يا حلاوة يا قمر على الانزلاق في الهواء!

ـ قال: أما في الأرض فأنتم تنزلقون على أهوائكم ورغباتكم، ولهذا فقد أرادت امرأة من عندكم مرة أن تهرب وترضى أن تصعد في مركبة فضائية، وتجرب انعدام الوزن ـ إنما على خفيف ـ ولو قدر لها أن تخرج في الفضاء من مركبتها لأحبت الانزلاق في الهواء. فهو يقرب الاثنين بعضهما إلى بعض.. دائماً. أما انزلاقكم في الأرض فهو يبعد الاثنين

دائماً. وبسبب انزلاقكم تأتون. . وتتطلعون إلى ضيائي. وتشكون قلة بختكم. . وهجران أحبائكم عنكم!

ـ قلت: لكن هذا لا يمنع من الاقتناع بحقيقة تقول: إننا نحب!

ـ قال: تحبون على طريقتكم، ثم تتأوهون وتنوحون وتقولون غناء: «يا قمر: ايش حصل بيني وبينك. . حتى عن عيني تغيب»، فيا أيها الأرضي أنا أرفض الاستجداء في الحب، فكونوا سماويين!

ـ قلت: عندنا حب الروح. . ألاّ تعرف عنه شيئاً؟!

ـ قال: نعم نعم. . يذكرني هذا بحكاية طريفة شاهدتها من علوي، فقد كان أحد المحبين طافشاً مهموماً حزيناً. . اختلف مع حبيبته، أو هي تركته لتذيبه، فجاء إلى نافذته وجلس يتطلع إليّ، والدمع يترقرق في عينيه، فسطع نوري عليه. . منحه صبابة وطمأنينة، وأخذ يفكر، ويستغرق في تأمله. . ونام على حافة النافذة. وفي الليلة الثانية رأيتهما معاً ـ هو وهي ـ وضحكاتهما تشوش عليَّ جلال الهدوء من حول نوري على الأرض!

ـ قلت: يا سلام. . شيء حلو؟

ـ قال: مبسوط؟! مساكين. . فرحتكم مستعجلة، وغضبكم عاجل!

ـ قلت: ومن الذي يحب يا قمر؟!

ـ قال: الذي يبكي!

ـ قلت: إذن. . الدموع في رأيك هي تعبير عن الحب؟!

ـ قال: الدموع هي حدقات الوجدان، فبعدما يبكي الإنسان يرتاح ويبصر أكثر.

ـ قلت: عجيب.. ومتى يحب الإنسان؟!

ـ قال: يحب.. عندما ينكر ذاته!

ـ قلت: ولكنهم يقولون: الذي يحب يترف نفسه، والذي يترفها يحب نفسه.. وهو الأناني!

ـ قال: الأنانية عندكم في كل شيء، فقط.. تختلف أبعادها، ومفعولها، ودوافعها.. فهناك أنانية مضيئة!

ـ قلت: لا تجنني!

ـ قال: لقد جن غيرك، ولكني عرفتكم جيداً يا سكان الأرض!

ـ قلت: والحب عندكم هنا.. أليس فيه أنانية؟!

ـ قال: عندنا الذي ينزلق على الهواء منفرداً دون أن يلتم بمن يحبه أنانياً!

ـ قلت: عال!.. تعني أن الانزلاق على الهواء طموح؟!

ـ قال: أبداً.. إنه طبيعة الحياة، والذي لا يشارك في هذه الطبيعة.. إنسان أناني؟!

ـ قلت: ولماذا أناني؟.. هل الانزلاق على الهواء منفرداً متعة، ويجب أن يشترك من يحبه في هذه المتعة؟!

ـ قال: بالضبط!

ـ قلت: طيب.. أليس كل واحد يستطيع أن ينزلق بمفرده؟

ـ قال: إذا لم يكن يحب لا يستطيع (!)

ـ قلت: عجيب!.. إذن كلكم تحبون!!

ـ قال: أليس هذا موطن القمر، والقمر هو ملاذ تحضر العشاق والمحبين؟!

ـ قلت: يا قمر تسلم لي عينيك!!

ـ قال: إذا أردت أنه تعود إليَّ ثانية فلا تحضر منفرداً ـ وحدك، فسأرفضك!! لا أريدك صحفياً بورق فقط!

ـ قلت: لكني جئتك وفي صدري قلبي.. وفي قلبي وجداني كله!

ـ قال: هذا لا يكفيني.. فأنا أعبر عن «طموح» الحب والمحبين!

ـ قلت: سأنادي الآن تحت ضيائك:

هـلـت لـيـالـي الـقـمـر... تـعـال نـسـهـر سـوا.. فـي نـور بـهـا،

* * *

واحد مجنون. . . جداً

ـ «مجنون وأعطوا له حجر»!

قول قديم من الأقوال الشعبية التي تعاقبت جيلاً وراء جيل. . حتى استقر ذلك القول عند قدمي هذا الجيل النابت. . كما «الفول النابت!»، ولا أقصد الجيل النابت في حدودنا الإقليمية فقط، بل في كل العالم. . العالم مليئ بالجيل النابت، وهذا طبيعي، وصفات الجيل النابت: الابتكار والنزوع إلى الجديد، وهذا مطلب. . وتصرفات هذا الجيل مجنونة، شاذة، متمردة. . تكسر، تجنح. توغر أشياء كثيرة في النفس، وهذا هو الواقع الغريب!

والجنون. . هو موضة العصر الحاضر. . الجنون موضة. . ولو!!!

وفي مجتمع المجانين يقولون للذي يبدي تصرفات غير لائقة: «خليك مجنون. . إيش بك عقلت»؟!

* * *

ولا يتسرب إلى ذهنكم وظنكم أن السطور السابقة هي مقدمة حديث عن المجانين والعقلاء، أبداً. . فهذا كلام لم أقله، وإنما كتبته إملاء. آملاه عليّ مجنون أردت أن «استضيفه!». . وأردت أن أعقد معه في

البداية صداقة حتى لا يضربني في النهاية لسبب من الأسباب: كثرة الأسئلة مثلاً، أو «زلاقة» لساني، أو تعرضي لشؤونه الخاصة فيما لا يعنيني. . تصادقت معه على سنة مجتمع العقلاء، وقلت له: ما رأيك في حديث نتناقش فيه حول مجتمعكم وطبيعته؟

فسكت لحظات، ثم قال: كل تلك المقدمة التي جاءت في أول هذه السطور!

ـ وقلت له: إذن نحن في اعتباركم مجانين؟!

ـ قال غاضباً: لا. . نحن نرفض. أنتم عقلاء فقط. المجانين نحن بكل فخر!

ـ قلت: وماذا يشينكم لو كنتم عقلاء؟!

ـ قال: تصرفاتكم يا عقلاء لا تغري المجانين أن يترسَّموها!

ـ قلت: ماذا يضايقك كمجنون في العقلاء؟!

ـ قال: أشياء لا تحصى، وبلاش نشر الغسيل!

ـ قلت: لأ. . أنشره.

ـ قال: هذه إحدى طبائعكم الوحشة. . دائماً تنشرون غسيل بعضكم، وبالذات الغسيل الوسخ اللي ما اتنظف!

ـ قلت: الله يسامحك. . لكن أنا صحفي «عاقل» أريد من «متحدث» مجنون أن يعرب عن مشاعره نحو العقلاء!

ـ ضحك وقال: قلبك طيب والله يا صحفي. . يعني لو لم تكن لك حاجة عندي. . كمان ما استنظفت تقرب بجانبي. . فضلاً عن أن تحدثني!

ـ بالضبط.. فنحن العقلاء نخاف المجانين.. أصل تصرفاتهم أحياناً تقتل!

ـ لا يا صحفي.. اللي يقتل هو خوفكم فقط، لأنكم تخافون.. تقتلون غيركم وتقتلون أنفسكم!

ـ ولماذا نخاف يا مجنون؟!

ـ الخوف يا عاقل سببه التكالب على الحياة.. على الأشياء التي نحبها. وكل ما أحببنا شيئاً أكثر من اللزوم خفنا حتى لا نفقده!

ـ قصدك تظهر لي أنك فيلسوف؟!

ـ يا شيخ اتلهي.. يعني اللي عندكم في كل العالم دا فلاسفة؟!.. أفرض أنا معاك أنهم فلاسفة، ولكن إلا تقولون عنهم مجانين.. عندما لا يعجبكم رأي من آرائهم؟!

ـ بالضبط!

ـ شيء ثاني.. أنتم تقولون أن العبقري مجنون، فلماذا تعطون أبرز إنسان، وأنظف عقل، وأذكى ذهن صفة الجنون. أليس الجنون إذن الذكاء واللماحية والثقافة؟!

ـ تقصد: من فمكم أدينكم؟!

ـ لا يا صحفي.. فنحن المجانين لا يهمنا أن نقنعكم.. بقدر ما يهمنا فعلاً أن تقنعونا أنكم عقلاء في أكثر تصرفاتكم!

ـ طيب.. وإيه اللي تدلل به على جناننا؟!

ـ جننكم؟!.. إسحب كلمتك يا أستاذ بسرعة، فقد قلت لك نحن نرفض انتماءكم إلينا.. أنتم عقلاء فقط!

ـ قلت: بس يا شيخ بلاش كلام فاضي. . يعني مثلاً فيه جماعة من الشبان في أمريكا اسمهم شباب «الهيبي». . تصرفاتهم شاذة، مسلكهم فاضح ونتن، تقاليعهم تقزز النفس. . فهل نعتبرهم عقلاء؟!

ـ قال: نعم. . عقلاء مائة بالمائة، فالمجانين لا يفعلون تلك التصرفات. . إنهم على الأقل إن فعلوا شيئاً ترون فيه سخفاً، فهم قد فعلوه بتبرير ومنطق. . يعني واحد مجنون يقذف عاقل بحجر لأن العاقل أذاه، ولو لم يؤذه أحد ما قذف الحجر، ولو لم يصادف حرباً نفسية من عشرائه وأهله ومجتمعه ما كان أتجنن أصلاً. . أنتو يا عقلاء تجننوا القرد!!

ـ قلت: وإيه يضايقكم مننا أيضاً؟!

ـ قال: إدعاءكم العقل، وأنتم لا عقلاء!

ـ مجانين يعني؟!

ـ لأ. . بأقول: لا عقلاء. أبحث لكم عن صفة أخرى تنطبق على حالتكم ومسلككم فالمجانين في قمة عقدتهم النفسية لا يفقدون إنسانيتهم والرحمة في قلوبهم!

ـ معليش. . قل لي ماذا يضايقكم؟!

ـ وما تزعل؟!

ـ ولو. . أزعل ليه؟!

ـ إسمع إذن. . أنتم العقلاء تقفون على ظهر قرش كبير في محيط لانهائي، وتحسبون أنكم تقفون على يابسة!

ـ عجيب. . كيف، أفادك الله؟!

ـ تسخر؟.. إن تعاملكم ـ بعضكم لبعض ـ يقوم على الخداع، وعلى القوة، وعلى الخوف، وعلى المنطق الذي يبحث عن اللامنطق!

ـ وأنتم.. على أي شيء يقوم تعاملكم؟!

ـ يا صحفي يا عاقل.. يوجد كاتب «عاقل»! أصدر كتاباً من زمن طويل عنوانه «عقلاء المجانين ومجانين العقلاء» واسم المؤلف أحمد أمين...

ـ قاطعته قائلاً: أحمد أمين تريد أن تطعن فيه أيضاً.. كل شيء مباح إلا الكتَّاب والمفكرين.. لا أسمح لك أن تطعن في عقولهم!

ـ ضحك وقال: مفكرين، كتّاب.. إن كل من في عالمكم (العاقل) يكتبون وهم ينشدون الجنون!!

❊ ❊ ❊

واحد قاسي . . . جداً

لا بد أن رأس إنسان هذا الزمان. . هو كما الكرة الأرضية: يدور حول نفسه. . يبتدئ من نقطة. ويقطع مسافة طويلة وعسيرة. . ليكتشف في النهاية أنه عاد مرة أخرى إلى نفس النقطة!!

والسبب. . سؤال حائر، ومتورط في غياب الحلم، وفي غربة العواطف. .

سؤال. . كالشراع المبحر فوق محيط عاصف، والإنسان تحت هذا الشراع يديره يمنة ويسرة. . ينشره ويطويه. . يدفع به إلى منطقة الموج ويحاول أن يسترجعه بعد ذلك. . ثم ينكسر المركب في النهاية، ويغرق العمر!!

فالناس يبحثون عن الحنان ويتحدثون عنه. . ويتصرفون بشراسة وملل.

والناس. . يومضون كالبرق في الليالي المرعدة، ولا يهتمون بميلاد الحياة الجديدة. . بالغد. .

والناس أضاعوا إخوانهم. . لم يعد الإنسان يتعرف على حزنه، وإنما أصبح كل ما يشعر به الإنسان هو الألم المحسوس. . كأن يسيل دم من حادث سيارة. . كأن يخسر صفقة مالية أضاعت له مبلغاً من المال. . كأن

يموت له عزيز أو قريب فيبكي عليه لحظات.. كأن يؤدي به خصامه مع الذين يتعامل معهم مادياً إلى السجن.. كأن يفقد عمله فيخاف من العطالة والحاجة!!

أما الحزن الغائب عن وجدان الإنسان.. الحزن الذي أصبح من العسير على الإنسان أن يتعرف عليه، فهو: أن يفقد صديقاً له أمضيا معاً مشواراً طويلاً من العمر، فإذا افتقده شعر أنه يحيا وحيداً.. أن يخسر تقدير الناس له واحترامهم وقيمته في نفوسهم. أن يسمو بالألم المحسوس فيه إلى حزن الحنان والتسامح مع الناس. أن يحس بكلمة الحب الصادقة تغسل وجدانه من شوائب الشهوات والرغائب والماديات.

فهل يكون السؤال هو: أي ميلاد للحياة الجديدة.. لباكر؟!

إن محور السؤال له مسافة أوسع.. فالذي تتطلع إليه عيوننا نراه ونعجز أن نبصره، والذي لا بد أن تبصره أعماقنا من معاني الحياة تحول إلى ضباب في دائرة غير مكتملة. فعيوننا أتعبها الرمل القادم إليها من كثافة العواصف في نفوسنا، وصدورنا أغرقها الزبد!!

ويضطرب «ديالوج» الحياة في نفوسنا.. فيفقد الحوار معانيه.. كأن ما نفكر فيه يأتي بلا تفكير، وكأن ما نحسه يعاني من الانفصام فيه.. الانفصام بين ما نفعله ونتصرف به، وبين ما يعيدنا إلى إنسانيتنا الأصلية المبعثرة مزقاً في حنايا الضلوع!!

فهل هذه الالتفاتة التي أكتبها.. تساق إلى شكل المخاطبة أو الكتابة الرمزية؟!

وهل هذه الملامح التي أحاول أن أرسمها بأبعاد الزوايا.. هي لا أكثر من أسلوب يحاكي اللون الشعري، أو الشاعري في حواري هذا؟!

كأنني ـ وحدي ـ أقف في ميناء الشجن. .

كأنني خارج عصري، أو أن عصري يخرج من رأسي كما طلقة الرصاصة. . وآخر صريعاً مضرجاً في الحزن. . فالحزن دمي!!

كأنني قادم من بحر. . مجداف من حنين، ومجداف من صفعة. .

فكل القسوة أن تكتشف عواطف الناس مطعونة بمادياتهم، وتحاسب نفسك على الحياة!

كأنني شرارة تطوف حول قلوب الناس بحثاً عن الحب. . وترتد إليَّ لتحرقني!!

والسبب. . هو لأن الكتابة تتحول إلى وصف لنهاية القرن العشرين ولا تنطق. . السبب . . هو لأن الحوار بين إنسان وآخر يتحول إلى موقف ساخر أو حتى كوميدي. . لأن ما بين الاثنين المتحاورين متناقض. . محتد. . متوتر. . يمتلئ بالفصام. . لأن لكل واحد رغبة، ولكل واحد مصلحة مادية، ولكل واحد أنانية مستقلة!

إنها طفرة المجتمعات في مراحل انتقالها من قدرة إلى قدرة أكبر، ومن إمكانية إلى إمكانية أكثر تطوراً وتبدلاً، وتصبح مجتمعات القرن العشرين أكثر تعاسة إذا كان كل واحد لا يفهم ما يفهمه، أو يؤكد معرفته لما لا يعرفه!!

فإذا التفت إلى صديق لك وقلت للناس: هذا أعز صديق. . فستفاجأ أن الكثير من الذين عرفتهم وعرفوك يقولون لك: ما شاء الله. . ونحن ألسنا أعزاء لك؟!

ويتحول هذا الموقف إلى حكاية، وتجريح، ولوم، وإشاعة متطورة!

لماذا؟!.. لأن بعض الناس يبحث عن الحكايات.. يبحث عن أسرارك أنت، ويدفن أسراره في أعماق المحيط وحينئذ «تصبح الدموع أملاً».. كما قالت أنثى مشهورة!!

وهذه الدموع الأمل حكاية ترويها تلك الأنثى التي دخلت من أبواب الفن إلى الشهرة .. فتقول:

ـ إنني أخشى أن أبكي فيلتفت لي أحد رجال الدعاية، ويضعون دموعي في بنك الدعاية. وتخرج من الصحف مقالات وقصص وحكايات وأحزان يلتذ لها كل الناس، وأنا لم أعد أرغب في هذا، فالجمهور كالأطفال يتعرضون للخديعة.. لا يعرفون أن الحزن هو الصديق الوحيد للفقراء جداً.. الذين أصبحوا أغنياء جداً..!!

* * *

ولكن الأكثر صعوبة وقسوة من إنسان على إنسان آخر.. هو قسوة النفس على صاحبها .. صعوبتها في العودة بإنسانيتها.. إلى المعاني المبعثرة فيه. هو تخبط الحوار الداخلي بين الإنسان ونفسه.. فإذا عجز الإنسان أن يسأل نفسه: لماذا فعلت هذا.. ولماذا سأفعل ذاك؟! فذلك يعني أن الرغائب والماديات قد تسلطتا على إرادة الإنسان التي تعينه لكي يفكر بعمق، ولكي يحس بصدق!!

وتقترب مني هذه الصورة التي تشكلت من حوار بدأته ذات مساء مع إنسان أعرفه ويعرفني. ونجد صعوبة وقسوة بالغة في أن يفهمني وأفهمه. فلقد رأيته ذلك المساء يتكئ بخده على كفه وهو ساهم مشتت الفكر.. وتركت صوتي يتسلل ببطء إلى سمعه فسألته:

ـ «هيمان يستدني السحاب»؟!

ولم يرد . . كأنه لم يسمعني، فطرقت سمعه ثانية أقول:

ـ «الحب في الأرض بعض من تصورنا» . . إلى أين أبحر بك التصور؟!

ولم يلتفت نحوي . . كان صوته يتلفت حوله وهو يجيبني:

ـ حب إيه؟! . . احنا فاضيين للعبث؟!

ـ قلت: خطير جداً . . هل استطعت أن تعيش الآن بلا حب . . هل الحب عبث؟!

ـ قال وابتسامته تزداد اصفراراً: لا يوجد الآن حب . . إن ما تراه أمامك لا أكثر من مساحيق، ووسائل صناعية، وأقنعة . . فالمساحيق جعلت الشمطاء كما راكيل ولش، والرموش الصناعية حولت عيون اليابانيات إلى المعنى القائل: «قتلننا من حيث ندري ولا ندري» . . حتى الأظافر التي يعجبك لمعانها وألوانها، وخربشتها أحياناً . . صناعية أيضاً!!

ـ قلت: لكنني أقصد الحب بين الضلوع . . الخفقة. الحنان الذي يقربك من الناس ويقربهم إليك. الإنسانية التي تزيد الوشائج متانة، والعلاقات الإنسانية صفاء!

ـ قال: أنت مسكين . . انزل إلى الشارع واصغ قليلاً . . الكل يشتم الكل. وأنت تمشي بسيارتك يشتمك واحد يحاذيك بسيارته، سائق التاكسي يشتمك لأنك تتقيد بالتسعيرة، بائع الخضار والفاكهة. السباك والذي يصلح المكيفات . . الناس . . الناس أصبحوا يتعاملون بالشتيمة . . كأنها بطاقة تعارف . . بدلاً من أن يمد يده ليصافحك . . يمدها ليصفعك!

ـ قلت: ليس كل الناس بمثل ما تصف.. هناك الناس!

ـ قال: هل أعطاك أحد الناس بطاقة مكتوب علها اسمه ورقم تليفونه لأنك لطيف، ومهذب، ووادع، وتحسن الكلام والأفكار الجديدة؟!.. لن يحدث هذا.. أما لو كنت صاحب مصلحة ـ بزنس ـ فلا بد أن جيوبك ملأى بالبطاقات!!

ـ قلت: لكني ألاحظ أنك ساهم، فكأنك حزين؟!

ـ قال: وإذا لم أكن حزيناً فبماذا تصفني؟!

ـ قلت: أنت متألم، والحزن أسمى من الألم.. الحزن حينما يكبر يتحول إلى لذة، وغاندي يقول: ابتغوا اللذة في الألم!

ـ قال ساخراً: تستحق أن أصفر لك.. كأنك جائع وترسم رغيف خبز على ورقة فتشبع!

ـ قلت: أحياناً يتملكني هذا الإحساس، أو هذا الشبع!

ـ قال: لا تقنعني أبداً أن الفلوس لم تكن كل همك!

ـ قلت: ليست كل همي، ولكنها بعض همي لأشبع. وأتحرك، وأنسج حياتي التي أريدها.

ـ قال: ماذا تقصد.. ألا أفعل أنا مثلك؟!

ـ قلت: أقصد أنني لا أجعل «بعض» همي هو «كله».. فالبحث عن الرزق واجب للحياة وللكرامة، ولكنني لا أجعل هذا الهم يدمر وجداني، ويعبث بعواطفي، ويمسخ إنسانيتي كسلوك مع الناس... فلا أرى إلا نفسي!

ـ قال: إنها ضريبة التطور.. تطور الحياة، وتطور المطالب

والرغائب، وتطور نظرتك كإنسان للحياة!

ـ قلت: نظرتي إلى الحياة. . ليس من وسائل تجسيدها أن أنسى كيف أحب، وأن أنكر من حولي من أصدقاء وأهل وواجبات، وأن أخبئ أصالة النفس فيما أضافته إليها الرغائب والماديات!

ـ قال: أنت عاطفي رومانسي. . أنت تحيا الأحلام!

ـ قلت: كارثة ممارسة الحياة أن يدفن الإنسان أحلامه. خذ اقرأ هذه العبارة في الجريدة التي أمامك!

ـ قال: وما الذي تحققه الأحلام؟!. . الفلوس تحقق الأحلام. أما الأحلام فلا تحقق شيئاً أبداً!

ـ قلت: لأن أحلامك فقيرة، أو لأنك عاجز أن تحلم، فالفلوس تعطيك الكثير، ولكنها ـ وحدها ـ لن تعطيك الحب. . ستجعك تنسى الناس. . تنسى قلبك. . تنسى أحلامك. . فتتعكر نفسيتك كبحيرة مليئة بالطحالب!

ـ قال: لماذا تكره الفلوس. . ألأنك فاشل في تنميتها؟!

ـ قلت: إنني لا أكرهها كثيراً، ولا أحبها كثيراً، ولكنني أكرهها بمقدار، وأحبها بمقدار . . بمعنى أنني لا أجعلها كل همي، وإلا فقدت إنسانيتي، وفقدت مجتمعي، وفقدت محبة الناس!

ـ قال: الفرق بيني وبينك أنك تحلم بغضب، وإنني أغضب بحلم. . فحتى الآن أحتملك وأنت تثرثر وتشتمني. . ماذا تريد أن تقول؟!

ـ قلت: بدأت تقول كلاماً جميلاً، ولكني أخالفك. . فالذين يحلمون قد يغضبون من تصرف سيئ. . من كلمة جارحة، أما مثلك فإنه يتوتر،

والتوتر ليس فعلاً وإنما مرض نفسي، دعني أهدئك قليلاً، فأريك عبارة الأنثى «غادة السمان» في هذه الجريدة.. تقول: «ربما كنت حالمة بمعنى أنا فاعلة، وحين أفقد قدرتي على الحلم أفقد قدرتي على الفعل المبدع. إنني أستميت كي لا أفقد قدرتي على الحلم. كل ما حولي يحاول اغتيال هذه القدرة»!

ـ قال: تقصد أن الذي لا يحلم لا يستطيع أن يفعل شيئاً؟!

قلت: الآن بدأت تفهم!!

ـ قال: تطلب مني إذن أن أشبك كفي خلف رأسي وأسنده عليهما، وأبحلق بنظراتي في السقف، وأغمض عيني، وأحلم بمليون ريال، فأفتح عيني وأجد المبلغ بجانبي على السرير؟!

ـ قلت: ولماذا تبدأ حلمك مباشرة بالمليون ريال.. هل يكون همك كله، وأمانيك كلها، ورغباتك في الحياة في المليون ريال؟!

ـ قال محتداً: نعم يا أخي.. بالمليون ريال أبدأ مشروعي الذي خططت له.. أقصد الذي حلمت به حسب تعبيرك، وهذا المشروع سينجح بالمليون ريال، وسأتزوج أجمل أنثى، وأؤثث لها أجمل سكن، وأنجب أطفالاً حلوين جداً، ويكبرون في هذا العز، وعندما أموت يجدون حياة رضية من بعدي!

ـ قلت: ياه.. حياتك قصيرة جداً!!

ـ قال: كيف.. ماذا تقصد؟!

ـ قلت: غيرك.. ربما رضوا به وحمدوا الله عليه.. تزوجوا نساء هن في نظرهم جميلات .. إذا لم يكن جمالهن في الخلقة ففي الخلق،

وأنجبوا أطفالاً يرونهم أجمل أطفال العالم، وسكنوا وتمتعوا، وضحكوا، وسبحوا في البحر، وسافروا وشاهدوا العالم، وكلما وضعوا رؤوسهم على الوسائد ناموا بسرعة. . بلا «فاليوم»، فهل كل هؤلاء تعتبرهم تعساء؟!. . إنهم سعداء جداً بشيء واحد. . بالحلم، إنهم لم يفقدوا القدرة على مزيد من الأحلام. . قنعوا برزقهم، ولكنهم يسعون في أرض الله بحثاً عن تنمية مواردهم، ولكنهم أثناء بحثهم لم ينسوا شيئين هامين: أن يحبوأ، وأن يحلموا. . يحبون مجتمعهم، وأهلهم، وأحباءهم، وعشيرتهم، وأطفاهم، وبيوتهم، وأفكارهم، ويحبون القراءة والموسيقى، والسفر، والابتسامة. . ويحلمون بما هو أجمل، بشيء يحبونه ولكنهم يريدون أن يطوروه. . أن يزيدوه حلاوة وبهجة. . أما أنت فإذا حلمت فستحلم بشيء لا تعرفه. . لم تمتلكه، وهذا هو الفارق. . حياتهم طويلة جداً، أما حياتك فقصيرة جداً، ففي إمكانك أن تحصل على المليون ريال وتموت. . أما هم فيعيشون حياة طويلة بالنظرة للحياة على أنها متعة وعمل!!

ـ قال: ولكن. . أليس من حقي أن أفكر في تنمية مواردي. . في حماية فلوسي من المتربصين بها؟!

ـ قلت: من حقك طبعاً. . ولكن دعني أوضح لك صورتك هذه التي لا تراها في المرآة مهما كانت مرآتك لامعة. . فأنت تجري طوال النهار وراء الصفقات والفلوس والمشاريع، وأنت في المساء تجتمع بكثير من أصحاب المصالح المرتبطين بمصالحك، فإذا تهيأت للنوم طار من جفنيك. . لأنك تجلس لتفكر في عشرات المواضيع، وتنام بالقسر. . بحبة «فاليوم»، فما هو إيحاء السعادة التي تشعر بها؟!

ـ قال ضاحكاً: تقصد. . أن أبحث عن أنثى أحبها؟!

ـ قلت: الحب ليس بحثاً.. الحب اكتشاف، ومفاجأة جميلة.. أن تكتشف عواطفك.. أن تسمع دقات قلبك، ليس كافياً أن تضع بجانبك امرأة جميلة وتقهقه قائلاً: إنني أحب، فأنت تكذب على نفسك، ففي إمكانك أن تبدل تلك المرأة بغيرها مراراً، ولكن من الصعب جداً أن تبدل قلبك إذا عشق.. لحظتها تكفيه امرأة واحدة فقط بكل نساء الدنيا، ولحظتها تكفيك أنت همسة حب، وكلمة حنان تهزج بها خفقاتك، وابتسامة رضا تنعكس على وجوه من حولك من مجتمعك وأهلك وأصدقائك.. وذلك هو الحلم الجميل. ألم تسمع بإنسان سعيد كان يضحك بفرح ومسرة.. ثم يغمض عينيه ويقول: يا سلام.. كأنني أحلم؟!

ـ قال: وما الفائدة إذا قال «كأنني».. هذه ليست حقيقة مجردة ملموسة!

ـ قلت: نصف الحياة حلم، ونصفها الآخر حقيقة، والحقائق المجردة الملموسة تتحول بمرور الزمن من إحساس إلى معلومات لا أكثر.. ولكنك في اللحظة التي تغمض فيها عينيك لتحلم.. فلا بد أنك ترى عالماً من الضياء والشعور، ولا بد أن هذه الرؤية هي بصيرة الإحساس. فالإنسان ليس عقلاً وحده، وليس عاطفة وحدها.. الإنسان مزيج متآلف من العقل والعاطفة.. من الأحلام العطرة التي تبحر به فوق زورق من الرؤى والأماني.. ومن الحقائق الملموسة التي تجعله يميز ويتعرف ويرتفع بسلوكه!!

ـ قال: إنني أكرهك جداً.. أكرهك. أنت شاعر. والحياة لم تعد

تحتمل الشعر. . كلها ماديات وحقائق مجردة، وأنا أعيش زماني، وأنت قادم من خارج الزمان!

ـ قلت: ما دمت تحس الآن أنك تكرهني، فهذا شعور. . بمعنى أن شيئاً هاماً فيك قد استيقظ!!

* * *

واحد مضيء.. جداً

إنها رؤية جديدة سرقتني من أمواج النفس.. أخذتني إلى شواطئ تمنح الهدوء وتغتسل في الضوء..

تركت الوهم يتعرى ويتطوح، ويغرق بعد ذلك منتحراً!!

إنها محاورة بين شفتي الحياة.. عندما تكون للزمن بسمة، وللعمر رؤية، وللخفق وجيب يعلو فوق تحديات الألم، والعجز وغموض الجنون!!

إنها ذات ليلة.. همس فيها الشجن ففاض على حفافي النفس، وتبلور البوح نبراساً يشق ضياؤه انكسارات الظلال المتكدسة.. فكان الحوار بين اكتشافات النفس وبين حدودها.. كان الحوار بين إلحاحات الصعوبة، وبين سيادة الإحساس!!

ـ كان الابتداء سؤال: هل أنت متأكد من صدق ما تحدثت به شفتاك؟!

ـ جواب: إنني أشعر به نوراً يبدد غربة النفس التي قد يعانيها المرء زمناً.. عندما ينبت الضياع في «مقر الحواس» وهذا الشعور لا يكذب.. ذلك أن الحواس لا تقدر على هذا الإرهاق المكثف بدواعي الاحتمال للحاجة في الحياة!

ـ سؤال: قد يكون الوهم نوعاً أو إنعكاساً لشعور بـ «الإيروسية» أو ما فسرته أجيال ما بعد اليونان بأنه: (الرومانسية. . الممزوجة باليأس والألم والمرارة)؟!

ـ جواب: لقد تفاعل بها شعور الإنسان فجعل منها حياة مرغوبة. . بمعنى أن التأمل هنا ليس مرضاً وإنما هو صحة رؤية. . تؤكد أن «الانتظار هو الأمل دائماً». . ثم تتخطى هذه النظرة حدودها. . فيصبح الشعور هو حياة لا بديل لها. المعاناة المجسدة في الدمعة، وفي العشق وفي سيادة العاطفة، وفي محاورة العقل. . كل ذلك يؤدي إلى حصيلة من اليقين، ومن الأمان، ومن التعمق في العطاء!!

ـ سؤال: لنقترب قليلاً. . نحاول أن لانخلد في الوهم. . ذلك أن «بروست» يقول فيما قرأت له: (إن العواطف وهم من الأوهام) فأنت لا تثبت إحساساً واضحاً، ولكنك تتمادى في الوهم وتعتقد أن شعورك يتحدث، ولكن هذا الصوت هو رغبتك فقط، أو استئثارك لمتعة وقتية ينصرم بها وقتك الفارغ. . فتسمى ذلك عاطفة!

ـ جواب: أن يتعذب الإنسان من أجل فكرة. . هذا ليس عاطفة فقط، وإنما يقين بهدف كبير يسمو في الروح ويتعاطف مع الرؤية النظيفة، ويتمازج مع القدرة الإنسانية في أعماق الإنسان لكي يحقق بعض ما حُرم منه، وبعض ما ينتظره بالأمل، وبعض ما يشعر بفقدانه من حياته.

إن تفجير القدرة على البذل لا يمكن أن تكون حالة، أو وهماً أو غروراً عاطفياً. . بل تصبح مشقة إثبات أن توجد فرصة مخبأة في الأمل أو محتجبة خلف العجز!

ـ سؤال: إنك تحاول إقناع الإصغاء لك. . لوجدانياتك. . لفكرتك

التي تناصرها من أجل أن تغنم شيئاً لا تعرفه، لكنك ـ ما يدريك ـ ربما إذا عرفته نفرت منه، وقذفت به كالنواة وأحسست أن هذا الذي اكتشفت لا أكثر من تجربة خضعت لوقت معين، وتبددت معه؟!

ـ جواب: إن هذا الخوف هو محاولة بلا شك للقفز فوق اليقين.

إن تكهنات الإنسان متشعبة.. هي الحيرة وهي الاضطراب، وهي الرغبة، وربما كانت هي العاطفة.. غير أن التصرف في الخوف هو حسي.. قد تقوده «التلباثية» ـ الحاسة السادسة ـ وبالتلبثائية يحمل الإنسان أشياءه فوق طاقتها.. يضخم الأشياء، ويدعها تتحدث بصوت السعادة تارة وبصوت اليأس تارة أخرى.. أي أن الإنسان هنا محكوم بالتوقع، وهذا لا يقود الأدلة إلى مزيد من العطش.. لقد قيل: «إن كل ما يصنعه الإنسان في الحياة محاولات لحل ألغازها.. لعلّه يصل إلى السعادة في النهاية»!!

ـ سؤال: لكن، كيف نبلغ حدود السعادة، وأهدابنا مبللة بالدمع.. كيف نصل إليها ونحن نعايش الإعياء؟ إننا نحلم كثيراً ونتصور هناءاتنا في اختلاسات للفرحة نفعلها ونرضى بها، ثم نعود إلى شيء يسمى «مشقة إثبات أنه لا يوجد»؟!

ـ جواب: ولماذا نقتنع بأنه لا يوجد ما تستلهمه الروح في ماديات الحياة الكثيرة؟!

إن التوافق بين متناقضاتنا عسير حقاً.. ولكن بالإمكان أن نحول التناقضات إلى اكتمال آخر في رؤيتنا.

بمعنى أن نجعل المحاولة متحركة..

والاستلهام إثبات.

والتضحية خطوة في طريق اليقين!

ـ سؤال: إنني أقرأ عليك هذه العبارة المنقولة: (هل قرأت قصة الثعلب الذي أراد أن يصل إلى العنب فلما أعياه الوصول إليه قال هذا حصرم)؟!.. أخاف على رؤيتك أن تتشوه، أو أن تصطدم بالتعري، أو بالحقيقة.. لحظتها لا تقدر أن تستفتي وإنما أنت تتخذ قراراً صارماً يشرخ الحب ويصدع مشاعرك ويحيل التجربة عندك إلى مجرد خطوة فقط؟!

ـ جواب: أقول لك شيئاً:

إن العجز ليس هو الحقيقة..

وإن الاكتشاف غير الشعور..

وإن الحب لا يكون الآمر وحده.. فإذا أحببنا لا نقدر أن «نفاضل»، أو نتوقف، أو أن نبدل الانطباع الأصيل.

أعطيك مثالاً للاستمرارية ولليقين:

هذه «أوتا أونيل» زوجة شارلي شابلن منذ عام ٤٣.. أحبته، وترسخت في ضلوعه، فكان عمره أربعة وخمسين عاماً، وكانت في الثامنة عشرة.. لكن الرؤية كانت مكتملة وكانت أصيلة.. زوّجهما الحب، وحافظ عليهما معاً، وأنجبا في إطاره ابنتهما «جيرالدين» وسبعة أبناء بعدها.. ولم تختلف الصورة، ولم تبهت!!

وبعد هذا الزمن تزحلقت «جيرالدين» في كرسيها، وقالت: «إن ما يدعو للدهشة والسعادة أن ترى والدين كأبي وأمي يحب كلاهما الآخر

بهذه الدرجة من الجنون.. إنهما لا يفترقان ولا يغضبان كأنهما في عالم غير عالمنا»!!

ـ سؤال: لا تتحدث عن اللذين غطّا شفاههما في النبع.. كيف تكون «سيد عواطفك»؟!

ـ جواب: بأن تكون عواطفي هي سيدتي..

إنني بذلك أبلغ اليقين..

وحينذاك لا تقدر التلباثية أن تكذب، وإنما هي تتفاعل بما في إحساسك من عطاء ومن غنى.

ـ سؤال: كيف تعطي وأنت عاجز؟!

ـ جواب: عندما أستطيع أن أعطي ينتفي عجزي.

إن الحياة معان، وليست حكاية تبتدئ وتنتهي!!

إن الموت لا يشكل النهاية دائماً!

ـ سؤال: هذه هي «الإيروسية» أو الرومانسية.. كيف تضعني قريباً من الماء وتطلب مني أن لا أعب وأشرب؟!

ـ جواب: إنه لا أحد قادر على منعك، ولكن المطلوب منك أن تفعل بإرادتك، وبخطوتك، وبمساحتك!

إنه لا شيء يبدو ممنوعاً في الحياة، ولكن توحُّد اهتماماتك هو السحر، وهو الايجابية!

ـ سؤال: هذا كلام نظري، إنه خيال عظيم.. فهل تطلب مني أن أطوع الحياة للخيال؟!

ـ جواب: هذا جدل منك.

إن الخيال يتسرب إلى أغلب تصرفاتنا، ولكني لا أطلب منك هنا أن تتخيل، وإنما لا بد أن تنتضي آلامك وتجليها وتحركها.

لا بد أن تتخذ خطوة إيجابية.. إما أن تتقدم ولا تلتفت إلى ما يقال، وما ينتج، وما يتحول إلى رواسب.. وإما أن تتجمد وترضى بما أنت فيه، فلا تطالب بما هو مرهق لاحتمالك، وبما هو فوق طاقتك!

ـ سؤال: ماذا تقدم للحياة إذن؟!

ـ جواب: أقدم لها وقوفي، وإصراري ويقيني،

وبذلك سأكسيها قيماً، ولغة، وشعوراً.

إنني أقدم احتراقي لأشعر بالضوء.. هذا يقين وحصيلة!!

* * *

وكانت التفاصيل تبدو «مناسبة» لا أكثر.

إن ما يملأني ويعطيني هو الأبعاد والدخائل، والماورائيات.

إنني لا أتعب من الانتظار، ولأن تحديقي لا يصيبه الإعشاء والترمد، سيطول الوقوف.. فالمساحة متسعة بالأمل وبالحب وباليقين.. وسيكون!

واحد صياد. . . جداً

تذكرت صوت «البلان» وهو يزعق في الفلاة قائلاً:

ـ أنا صياد. . هايم في البراري!!

لا أدري. . هل هو هايم أو كان يمشي طبيعياً، أو يتقافز. . أعرف فقط أنه في البراري، ولكن ليس كل الصيد في البراري، وإن كان أمتعه هناك، وكان يصيد الطير، وأسود الضواري ـ كما يقول ـ وهذه الصورة تقزز، فالطير لا أحب أن أراه «صيداً». إن مجاله التحليق والتغريد، والطير نشاهده. . نستمتع بمتعة تحليقه!

وطردت «البلان» لأصغي إلى صوت آخر. . كان يغني في عصر الخطف ويقول:

ـ «رمشك خطفني من اصحابي وأنا واد صياد»!

فليس كل صياد هو دائماً صاحب صنارة. . إنه أحياناً في داخل الشبكة، أو معلقاً في صنارة، وأعجبوا من «الواد» الصياد الذي يصطاده رمش. فيصرخ: (اوعوا تحلوا المراكب وأنا حاطط رجلي في المية)!

وغاب صوت الصياد «المجدع» الذي قال: صياد، ورحت اصطاد صادوني.

وشعرت بنفسي . . كنت أجلس قرب البحر، على الشاطئ ذات أصيل!!

هنا . . صيد البحر أيضاً.

البحر ـ وحده ـ أوحى لي بفكرة هذا «الاستجواب» الذي أجريته بعفوية، فأنا في «سنارة» أفكاري في «شبكة» التأملات التي غذاني بها البحر.

الصيادون يختلفون . .

هناك صياد أسود، وهو ليس أسداً، وصياد صقور ولا يحب إلا أن يتوارى، وصياد «طيور» ولا يجب الغناء وإلا لما صاد الطيور!

وهنك صياد في الماء العكر، وصياد «حوت» . . أقصد الذي يصطاد الإشاعات ويروجها، وكلامه كما نقول في تعبيرنا الشعبي: كلام «حوت»، وصياد سمك لا يحب رائحته حين قليه!

ومن زمن بعيد ـ كان ياما كان ـ حكاية قرأتها عن صياد في بلاد الله الواسعة قام فجر يوم، ومعه شبكته على باب الرزاق الكريم وقضى يومه كله في البحر ـ وفي البحر لم فتكم في البر فتّوني! ـ قالتها له زوجته التي هرعت إليه في البحر من البر تقول له: الأولاد جاعوا وليس في بيتنا دقيق!

فحمل شبكته، وأتجه إلى المدينة، وهناك باع الشبكة واشترى غذاء لبيته، وفي أثناء عودته مات بالسكتة القلبية، والعمر واحد، والرزق على فتاح الأبواب. تزوجت التي فقدته برجل آخر: صياد مال وفلوس، وجمال، فقد كانت حلوة كما القشدة!

وانتهت الحكاية.. والكتاب الذي قرأت فيه هذه القصة لم يكتبوا عليه: قصص للأطفال!

وخلصت من تذكري، و«سرحتي» فإذا بي أبصر رجلاً «أسمراني اللون» لم تره شاديه بعد.. على كتفه شبكة صيد، وبين يديه «بيعة» سمك يلمع من القشرة برغم أن الوقت غروب و.. «فزيت» واتجهت إليه:

ـ اسمع يا عم.

ـ يا مرحبا.. تراه سمك طازة جديد، وما هو خايس.

ـ ليه.. السمك يكون فيه خايس؟!

ـ إذا بات.. إذا تركته وما رعيته، وما حطّيته في الثلاجة.

ـ بخيس!

ـ زي كل شيء!

ـ وليس؟!

ـ لا.. باحكي مع حالي، قل لي.. إنت صياد؟!

ـ أجل..

ـ ومبسوط؟!

ـ الحمد لله يا ولدي.. ربك ما يقطع، ويسهل.

ـ اسمك إيه يا عم؟!

ـ شوف عاد.. إنت تبغي تشتري، وإلا تعطلني؟!

ـ لا.. اعتبر «البيعة» بثمنها من نصيبي!

ـ لا . . ثمنها من نصيبي، والبيعة لك!

ـ لا والله يقظ يا عم . . إسمك إيه!

ـ اسمي فجحان!

ـ عاشت الأسامي . . وكم سنة وأنت صياد؟

ـ إصبر (وأخذ يعد على إصبع يده!) . .

ـ أنت ذاكرتك ضعيفة يا عم فجحان؟

ـ أنا أنسى السنين . . أفكر في يومي بس!

ـ عال . . واقعي، لكنك كبير في السن، ولا بد أنك صياد «عتقي».

ـ عتقي يعني إيه؟

ـ يعني صياد من زمان؟

ـ إيه بالله . . عشرين سنة . . حول كده!

ـ طيب، وطول السنين دي ما فكرت تبطل «الصيد»؟

ـ ليه ابطل . . دا طريق رزقي، وأنا لا أعرف صنعة غيرها.

ـ قل لي . . كم تكسب في اليوم تقريباً؟!

ـ يا ولد الحلال، ويش دخلك أنت؟

ـ لا . . هو الموضوع . . أعني: هل يمكن يا عم فجحان أن أصبح صياداً مثلك؟

ـ (يضحك): لا حول ولا قوة إلا بالله . . أنت صياد؟!

ـ الله يسامحك . . ليه ما أملا عينك، وإلا يعني شايفني نحيف وحالتي ما هي حالة صيادين؟!

ـ لا يا ولدي.. نحيف لا.. كثير صيادين كماك، لكن أنت غني ولابس نظيف، وحاطط ناضور على عينك ومعك سيارة!

ـ اسمع يا عم فجحان.. خلينا نتبحبح كده!

ـ يعني كيف؟

ـ يعني لا تنكسف مني، ولا اضحك عليك!

ـ طيب.. نشوف الآخرة!

ـ تيجي يا عم فجحان تلبس ملابسي وتخليني أعمل صياد.. أقوم بعملك واحد يوم بس؟

ـ بس يا ولدي أنا ما أعرف أكتب وأنت تشتغل في الحكومة وتعرف تكتب.

ـ ما يهمك.. روح اشرب شاي، ما هو كثير موظفين بيعملوا كده!

ـ وبعدين؟!

ـ بس تعلمني كيف أرمي الشبك.. كيف أعرف المناطق اللي فيها صيد.

ـ بعقلك.. تعال معي في البحر اوريك!

ـ لا.. إلاّ دي.. عبد الوهاب ما يحب الطيارة وأنا ما أحب البحر!

ـ مين عبد الوهاب؟!

ـ عمي.. عمي يا عم فجحان!

ـ ها.. وافقت!

ـ لأ.. بس كده ـ نظرياً ـ اتعلم!

ـ لا ما ينفع!

ـ بطلنا. . أصلك تحب عملك كثير! طيب قل لي. .

ـ ويش بعد؟!

ـ لما يكونوا سمكتين من البحر مع بعض. . ممكن تصيدهم سوا؟!

ـ لما يكونوا صغار (أصل الشبكة عندي صغيرة)!!

ـ طيب والسمكة الكبيرة الثقيلة. . كيف تشدها وهي في داخل الشبكة؟!

ـ الصياد لازم يكون يقدر على الصيد!

ـ إنت بتقول حكم يا عم فجحان!

ـ والله ما أدري أنت ويش تقول!

ـ طيب. . لما تصيد سمكة ما تتأسف على صيدها، وإنها تموت، ويأكلها الناس؟!

ـ كيف. . مخبول إنت؟!

ـ لأ. . ماني مخبول. . بس قل لي.

ـ أصيد السمك لأنه دا رزقي، وتالي الكلام أن السمك للصيد وحلال أكله!!

ـ إيه. . أصبح فيه منطق في الموضوع! طيب. . ما يحدث إنك تلاقي سمكة خايسة في البحر على طول؟!

ـ يحدث. . بس أعرفها على طول، وأرميها!

ـ وليش ترميها. . ما هي كمالة البيعة. . زيادة فلوس!

ـ لا يا ولدي.. ربنا ما أمر بكده.

ـ حلو.. تعجبني أخلاقك.

ـ بعدين.. الخايس يعدي البقية!

ـ طيب يا عم فجحان.. أنا أخّرتك.. خذ قيمة السمك وهات البيعة وربنا يرزقك!

ـ اسمع.. أنت ليه تكلمت معي كثير؟!

ـ لأ.. أصلي طفشت من الكلام القليل.. حبيت أرغي!!

ـ تراه سمك جديد ما غشيتك..

ـ روح يا شيخ الله يسهل لك.. ما هي كلها سمك!

ـ يعني إيه؟!

ـ يعني رايح آكل سمك.. واسمع سمك، وأضطر أقول سمك.. بس ما هوعلى طريقتك..بأمان الله!

وقلت في نفسي: ولا على طريقة همنجواي في روايته «العجوز والبحر»!!

* * *

واحد قلبه مزروع. . . جداً

كان طبيب الأسنان اليهودي. . يتجول في حديقة المستشفى بـ «كيب تاون». .

كانت ملاحظات الناس عليه أنه دائم الابتسام، لكن يده دائماً أيضاً كانت على قلبه.

يهودي. . ومن الضروري أن يتشبث بالحياة!

إن اليهود لا يهمهم أن تنتزع من صدورهم قلوبهم. . لأن الإحساس منعدم فيها.

ولكن عندما يكون القلب هو السبب الرئيسي في الموت والحياة فإنه يحرص عليه «كجهاز» يعتبر المركز للدورة الدموية!

«واشكانسكي» من قبله: زرعوا له قلب الفتاة التي أنتهت حياتها في حادث تصادم، ولم يمت بالقلب. . وإنما بشيء آخر مات!

والإنسان بكل ما فيه من تناقضات، وعنعنات، وعيوب، إلا أنه ولوف. . يتولع بقلبه، ويتدله قلبه في داخله. . فيحب بقلبه، ويحب قلبه. . لذلك عندما زرعوا «لواشكانسكي» قلب فتاة. . لم يتحمل قلبها عفونة ضلوع «واشكانسكي». . ولم تتحمل ضلوع الرجل فورة قلب فتاة الخامسة والعشرين. . فكأنه صرخ وهو يموت قائلاً:

لست قلبي أنا إذن إنما أنت قلبها!
كيف يا قلب ترتضي طعنة الغدر في خشوع
وتداري جحودها في رداء من الدموع؟

ولم يكن جحود الفتاة ذاك، وإنما جحود الحياة عندما تغدر بالشباب!

ومات قلب «واشكانسكي» المعار!!.. إلا أن الذي شد انتباه العالم كله.. أن القلب المزروع في صدر طبيب الأسنان الذي بقي حياً.. إنه قلب لم يلفظه جسد الرجل، وإنما حدث ما يشبه التآلف والامتزاج.. قلب زنجي مغدور قتيل استقر في صدر رجل أبيض؟!

إن هذا هو العجب!

ولهذا تسللت بخواطري، وتأملاتي.. حتى وصلت إلى حديقة المستشفى الذي ينزل فيه طبيب الأسنان بقلب زنجي، وخيل إلي أنني أراه يتنزه في الحديقة ويده على قلبه.

وبشفافية الرؤى، والخواطر، والتأملات.. اقتربت من قلب الزنجي المزروع على صدر الأبيض اليهودي.. ورأيت القلب المزروع ينبض بعنف، وبعصبية!.. إن القلب، كما يقول الأطباء والعلماء يخفق حوالي ٧٢ مرة في الدقيقة مدى الحياة.. ولكن خيل إليَّ أن ذلك القلب يخفق ١٧٠ مرة في الدقيقة بسبب عنفوانه، وغضبه داخل جسد اليهودي الأبيض.. وتطلعت إلى «الأذين» الذي يستقبل الدم القادم إلى القلب.. فرأيته نشيطاً في استقبال الدم، وانتبهت إلى «البطين» فراعني أنه وهو يدفع الدم الصادر منه ـ كما المضخة ـ يدفع بشدة، وظننت أن الرجل سيموت بسبب عنف هذه الحركات!

والعلماء قالوا إن جسد الإنسان هو الذي يرفض أي جزء دخيل عليه. . لكني ـ كما قيل لي ـ اكتشفت أن الحكاية انعكست. . أعني أن القلب المزروع كان يناضل في داخل الرجل الأبيض ـ رافضاً الالتئام بالجسد ـ غير أن العملية الجراحية الدقيقة جعلته يلتئم وإن كان كثير الحركة. . موارا. . عصبياً!

ـ لماذا أنت منفعل هكذا. . ألاّ يسرك أن تبقى نابضاً. . يخرجونك من صدر قتيل مات إلى صدر رجل يعيش؟!

ـ قال القلب المزروع: إنني رافض. . رافض. ألاّ تشم رائحة ضلوعه. . كأن هنا حظيرة للخنازير؟!. . إن نفسية هذا الرجل ثعلبية، وأنا لم آلف مثل هذه الحياة. . إن صاحبي كان صريحاً، مرهف الحس، غني الشعور، والرجل هذا متبلد الحس. . تصور يحاول أن يقول لممرضة: أنت حلوة. . فهل هذا يستحق قلباً ينبض؟!

ـ قلت: كيف انتزعوك من صدر صاحبك الزنجي؟!

ـ قال وهو يتنهد: إيه. . حكاية، لقد انتظم صاحبي في مظاهرة من المظاهرات المعروفة ـ مظاهرات السود التي تنادي بالعدل، وشجب العنصرية ـ وكنت أنا في داخله أتفاعل مع رغباته الوطنية واللونية. . تأكد عندي أن صاحبي على حق. . نعم أنا أكره البيض أيضاً!

ـ قلت: لماذا؟

ـ قال: كاد أحد البيض مرة أن يقتل صاحبي، وبالتالي يعدمني النبض. . إنهم هناك يتحركون بإيحاء من عقدهم النفسية، وحقدهم على الملونين!

ـ قلت: أكمل الحكاية!

ـ قال: آه.. لقد خرج صاحبي في المظاهرة، وجاءته الرصاصة من الخلف فسقط على وجهه مضرجاً بالدماء.. كانت الرصاصة موجهة إليّ أنا بالذات، ولكن أخطأتني وإن كادت تميتني لولا أنهم أسرعوا بإجراء عملية لصاحبي ليس لإنقاذه من الموت، وإنما لأخذ قلبه ـ أخذي أنا من صدره ـ وكان سبب موته تجلط الأوعية التاجية التي تغذي عضلتي، ولو بقيت في صدره فترة أطول لتوقف نبضي!

ـ قلت: قل لي يا قلب.. هل أحب صاحبك الزنجي.. أقصد هل خفقت مرة بشدة وورطته في حب؟!

ـ هدأ القلب المزروع نوعاً وقال: إيه.. دنيا..! تصور لقد كانت هناك فتاة شقراء من البيض تجري خلف صاحبي.. ترجو وصاله، وتأمل في وده وحبه. كانت ابنة رجل من البيض يخرج لقمع مظاهرات الزنوج وفي يده بندقيته، ولكنها وقعت أسيرة حب صاحبي.. طاردته في كل مكان، وكان يشيح عنها.. لقد تفاقم ـ أنا قلبه ـ حقدي على الأبيض، فلم أنبض بحب لها. كانت في نظري كما فأر أبيض. لقد نبضت بحب فتاة ملونة من لون صاحبي.. كانت زميلة له في المصنع الذي يعمل فيه، وكانت مضطهدة مثل صاحبي وتكافح معه ومع الملونين لتأكيد حقهم في الحياة.. لكن تلك الفتاة التي أحبها صاحبي بخفقتي أنا.. سقطت قتيلة في مظاهرة قبل سقوط صاحبي بيومين!

ـ قلت: وماذا فعل الفأر الأبيض.. أقصد الفتاة الشقراء؟

ـ قال: لم تكن تعنيني كثيراً.. لقد ضاعت في زحام البشر!

ـ قلت: وكيف تجد الحياة اليوم في صدر هذا الرجل الأبيض؟!

ـ قال: حياة عفنة. . ألم أقل لك؟ إن إحساسه خاب، كئيب. . إنه لا يسمح لقلبه أن يحب بل عوّد قلبه القديم على الحقد ـ كعادة اليهود ـ وهو أيضاً لا يسمح لقلبه أن يعمل. . بالقدر الذي يترك العنان لأفكاره أن تستطرد وهو يفكر في النقود والتجارة والثروة، على الرغم من العتي في عمره!

ـ قلت: وما هو شعورك نحو زوجته، وأهله، وأحبائه؟

ـ قال بابتسامة ساخرة: إن العلاقة الزوجية بزوجته يبدو لي أنها تبلدت من زمن، من قبل أن يتعطل ويسوس قلبه الأصلي. . يخيل إلي أنه يعامل زوجته كما يعامل أخته التي تكبرها في السن!. . ويعامل الناس كما يفحص مجموعة أسنان في الفم. . يخلط بينهم أحياناً فيقلع السليم ويترك المسوس المنخور!

ـ قلت: ولماذا لا تجعله يحس بروح جديدة. . أليست هذه وظيفتك؟!

ـ قال: لا. . وظيفتي التي تقول عنها كانت خاصة بصاحبي الحقيقي، أما هذا فيكفيه مني أنه يمشي، ويتكلم ويعيش. . إن هذه الأنماط من الناس لا يهمها الإحساس كثيراً، وإنما هي تتكالب على المادة، والحياة ذاتها كحركة!

ـ قلت: أنت تحقد؟!

ـ قال: أبداً القلوب لا تحقد. . ألم تقرأ بيتاً من الشعر قاله شاعر من عندكم؟!

ـ ماذا قال:

«اغضب فلولا الموج لما تكوّنت البحار!

كن عاصفاً.. كن ممطراً..

فإن قلبي دائماً غفور»!

ـ قلت: نعم.. هذا شعر نزار قباني.

ـ قال: نعم.. وبالمناسبة، يقولون إن هذا الرجل قد يحتاج إلى قلب مزروع بعد فترة.. لأن قلبه قد استهلك!

ـ قلت: هل ترضى لو خيرت أن تستقر في صدره؟

ـ قال: على أي حال.. هذا الرجل شاعر، وفنان.. وليس يهودياً (!).. ولكن ماذا تقول عنه بطلات قصائده عندما يعرفن أن في صدره قلب زنجي؟!

واقتربت من القلب المزروع أقول له:

ـ ألم تسمع ما قاله الأخطل الصغير في قلب مثلك؟!

ـ قال: هذا الشاعر الذي قتل قلبه بقلبه؟!

ـ قلت: كيف؟!

ـ قال: لكثرة ما عشق الجمال! ولكن ماذا قال؟!

ـ قلت:

أيها الخافق المعذب يا قلبي نزحت الدموع من مقلتيا
أفحتم عليّ إهراق دمعي كلما لاح بارق من محيا؟!

ـ قال: أرأيت.. كلما لاح بارق من محيا.. يهرق دمعه، ويشجُن قلبه!

ـ قلت: وصاحبك.. ألم يكن يحب الشعر؟

ـ قال: بلى.. إنه يحفظني شعراً حلواً.. لكن لا يمكن أن أسمعه

لك الآن . . طالما كنت مزروعاً في صدر هذا الرجل المقعي في الحياة!

ـ قلت: أريد أن أسألك ـ أنت القلب ـ متى يتحرك القلب ويحب؟!

ـ قال: عندما يشعر أنه وجد خدينه وإلفه . . يتحرك، وعندما يثق القلب بنبضه . . يحب!

ـ قلت: هذا كلام عادي . . كيف؟!

ـ قال: عندما يجد الجمال الذي يغدق على النفس!

ـ قلت: ألاّ يحدث أن يحب القلب القبيح؟!

ـ قال: يحدث . . أنا أؤكد لك أن قلب هذا اليهودي الحقيقي كان ينجذب إلى كل قبيح!

ـ قلت: لماذا؟!

ـ قال: لأنه قلب قبيح . . فهناك قلوب جميلة مشرقة فتانة، وقلوب قبيحة كابية، جاهلة، وإلاّ . . هل هناك قلب فنان يرتضي هذه الزوجة الشمطاء؟!

ـ قلت: ومتى يكره القلب؟

ـ قال: القلب لا يكره . . إن الكراهية توحي بها النفس عندما تجفل من إنسان!

ـ قلت: أخيراً . . ماذا تريد مني أن أتمنى لك؟!

ـ قال: تمنَّ لي أن أستطيع القيام بمظاهرة داخل صدر هذا الرجل . . تؤثر على الدورة الدموية، وتسد التجويفات هنا . . فأنا لا أستطيع أن أبقى . . إلا في صدر إنسان يحب!

واحد نايم. . . جداً

ـ المكان: أرض الحنين.. خارج حدود الدنيا التي ملأها الإنسان نسياناً!

ـ الزمان: الوقت غير المنتظر.. القادم من خارج الزمن!

ـ الإضاءة: حزم ضوء قادم مثل موعد انبلاج صبح!

ـ الصوت: صدى.. له عدة أصداء!

ـ المناسبة: حلم طويل.. في نوم مستغرق.

ـ الحركة: هدوء يشمل المكان، وكان هذا الصمت المخيم يصغي لهمسات متبادلة بين شخصين في صدر المكان.. أحدهما يجلس «ركبة ونص». ويميل نحو الشمال، ويغطي رأسه بغترة ناصعة البياض مثل نصاعة بياض ثوبه، وقد أطلق لحية خفيفة في لون الثلج، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة لا تبهت!

أما الشخص الآخر.. فقد كان يجلس متربعاً.. يضع كفيه مستقيمتين فوق ركبتيه، وبعض أصابع كفيه يتحرك بشكل عفوي، ورأسه يميل قليلاً نحو اليمين كأنه يصغي لمن بجانبه، وقد تهيأ لضحكة خفيفة سيطلقها..

ووجدت نفسي أقف أمامهما في منتصف المكان.. أقطع عليهما

الحديث الهامس بينهما، وقلت:

ـ السلام عليكما.

ـ قالا: وعليك السلام..

ـ والتفت الأول يسأل صديقه بجانبه: ألا تعرف هذا المخلوق؟!

ـ قال الآخر: وجهه ليس غريباً عليّ.. كأني أعرفه، أو لعلّني نسيت من هو!

ـ قال الأول: يا شيخ.. تقول عنك إنك صاحب ذاكرة قوية.. بينما أنا قد عرفوني!

ـ قال الآخر: أيوه.. هذا الولد كان «يشخبط» في الصحافة حينما كنا نكتب أنت وأنا!

ـ قال الأول: يا أمان الخائفين.. كيف لا تتذكره وقد كان معنا دائماً؟!

ـ (كان الأول هو حبيبنا الذي رحل عنا قبل سنوات الأديب الشاعر الفقيه الأستاذ ضياء الدين رجب. أما الآخر: فهو أظرف من تحدث، وأغزر من كتب، ولم يحاول أحد أن يجمع أدبه في كتاب.. الراحل الأستاذ محمد مصطفى حمام)!!

ـ قلت لهما: سمعتكما حين دخولي تتهامسان ببيت من الشعر.. فهل هو الحنين منكما إلى الشعر.. أم أنكما تتساجلان.. أم هي قصيدة جديدة لأحدكما؟!

ـ قال ضياء الدين: إنه تذكّر لبعض المواقف التي كانت لنا في الحياة، أو هو الشجن الذي يجسد الحنين في صورة من صور الحب التي

هدهدناها في أحاسيسنا يوم كنا نحيا بينكم، وكان الزمان لم يزل يفيض بالوجد وبالحنان!

ـ قلت له: هل كانت القصيدة من ذلك السمت الذي كنت تسميه: «حَلَوْلَوْ»؟

ـ قال ضاحكاً: هذا المخلوق مازال يتذكر!

ـ قال حمام: يعني إيه «حَلَوْلَوْ»، ما سمعتهاش قبل كده؟!

ـ قال ضياء الدين: الحلولو.. هو الذي ما كان من القلب نابعاً، وإلى القلب آيباً، وهذا المخلوق لم ينس كلمتي هذه.. كنت أقولها له.. كلما أعطيته مقطوعة من الشعر.. ما أحسه صادراً من قلبي!

ـ قلت: وكنت أبادره بالسؤال كلما لقيته: أين الحلولو هذا الأسبوع؟!

ـ قال حمام: يا ابني لا تتحدث عن الشعر الآن.. فأين هو الشعر اليوم الذي يقولونه؟ اليوم بعكس هذه الحالة، أو كأنه خطبة سياسية على منبر الأمم المتحدة!

ـ قال ضياء الدين: يا حمام.. لا يزعل منك هذا المخلوق!

ـ قال حمام: منذ متى أصبح يقول الشعر.. لا أعرفه كذلك، ولكنه كما عرفته يكتب بنفس طويل كلاماً منثوراً، وبالذات عن الأدباء!

ـ قلت له: حقاً.. أتذكر؟!

ـ قال: إلا أذكر!.. دا يا مبارك كتب عني مقالاً ذات مرة شواني فيه على السفود!

ـ قلت له: ولكن بحب.. تذكر أنني أحببتك مرة، ثم لم أبدّل شعوري!

ـ قال حمام: فعلاً . . ولم أغضب منك يوم كنت تقول عني: نطلب من الأستاذ حمام أن يتوقف عن كتابة ذكرياته عن الحياة السياسية القديمة في مصر، ويتجه للكتابة في الأدب والحياة التي نحياها. لم أغضب من كلامك هذا، لكني يومها ظننت أن وراءك أحداً!

ـ قال ضياء الدين وهو يبتسم: هذا المخلوق لا وراه ولا قدامه لكنه يعشق الشعر!

ـ قلت لهما: ما هو بيت الشعر الذي كنتما ترددانه؟!

ـ قال ضياء الدين: احزر!

ـ قلت: لا بد أنها رباعية عن «مي» من الحلولو!

ـ قال: سقى الله مي . . أبحث عنها فلا بد أنها في مكان قريب من هنا. فهل تذكر تلك الرباعيات؟!

ـ قلت: واحتفظ عندي بواحدة لم تنشرها!

ـ قال: كده؟ . . هناك أشياء كثيرة لم تنشر يا عبد الوهاب!

ـ قلت: اسمي عبد الله . . فهل عادت إليك ذاكرة النسيان؟!

ـ قال: عبد الله . . نعم، وخوفي أن يضيع الكثير مما كتبت ومما لم أنشره.

ـ قلت: اطمئن . . هناك من لا ينساك أبداً!

ـ قال: بنات الغالي المرحوم ابني حمزة . . وبناتي أيضاً!

ـ قلت: وبناتك أيضاً، وأولادك الكثير الذين زرعت في صدورهم حب الحنان!

ـ قال: يا أمان الخائفين.. الحمد لله!

ـ قال حمام: لا تدخلونا في الذكرى.. فهي تعصف بنفسي وتضاعف شجوني!

ـ قلت: وماذا فيك أنت؟!

ـ قال: كثيراً أيها الولد.. كل من تركت لهم اسمي!

ـ قلت: أنتم في اطمئنانكم هذا تتذكرون من تركتموهم في الحياة.. بينما الحياة تلف الناس بمشاغلها وهمومها وطموحاتها.. ولكن لا تقلقوا!

ـ قال ضياء الدين: الحياة محطة راحة.. يشغل الأحياء وقتهم فيها بالتعب.. بتصعيد إلحاح الماديات فيها، العبرة يا هذا المخلوق.. العبرة!

ـ قال حمام: أوه.. تقول لمين، فالحياة غرورة لمن طاوعها!

ـ (ووضع الأستاذ حمام يديه على أذنيه، واحمر وجهه وردياً، وأخذ يدندن، ثم رفع موالاً عالياً من مقام السيكا إن لم تخني معلوماتي.. وأنشد يمول:

يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت   كالحلم.. أهاً لأيام الهوى آها)!!

ـ قال ضياء الدين: فابق أبو الزغب.. حمام هادا مخلوق مأكول دائماً!

ـ قلت: هل هذا هو بيت الشعر الذي كنتما ترددانه؟!

ـ قال حمام: ليس هذا هو البيت الحقيقي.. لقد تبدل.. وإنما كان اصله هكذا:

يا أم كلثوم.. أيام الهوى ذهبت!

ـ قال ضياء الدين: هذه القصيدة كانت أم كلثوم تضعها في صدر مجلسها مكتوبة على لوحة بخط بديع وتفخر بها، فقد قال شوقي هذه القصيدة عن أم كلثوم وفيها ولها. . يا أمان الخائفين!

ـ قلت لحمام: ها هو ذكر شوقي قد ورد في حديثنا. . فهل ما زلت تحب شوقي إلى الآن؟!

ـ قال حمام: هل هناك شعر يبذ، أو يضاهي شعر شوقي في العصر الحديث؟!

ـ قلت له: أوحشتنا!

ـ قال حمام مبتسماً: هو يا ابني محمد عمر توفيق شعبط الكلمة دي في بقكم وسابكم على الناس؟. . إنها كلمته أو ركزته المحببة!

ـ قلت: هل لك ذكريات مع محمد عمر توفيق لا تنساها؟!

ـ قال حمام: أمّال. . دا كان ناوي يضمني وياكم!

ـ قلت: يضمك إلى ماذا؟!

ـ قال: يا حمام: ازاي. . يضمني لصراحته. . كانت تعجبني صراحته الممزوجة بسخرية!

ـ قلت: لكني لا أذكر أنكما التقيتما؟!

يا سلام. . جرب وأسأله. دا كان حبيبي وكثيراً ما مسح الضيم عن جبهتي.

ـ قال ضياء الدين «ذكرى» طيبة. . عن الناس الذين يعلمون الحب للآخرين، فهل في دنياكم الآن هذا النوع الفريد من الصداقات؟!

ـ قلت: لقد تغير الناس.. الأصدقاء، أو هم قبض الريح كما يقول المازني!

ـ قال ضياء الدين: الصداقة أعظم ثمناً من الفلوس، ومن الشهرة!

ـ قلت لحمام: دعنا نعود إلى شوقي.. حبيبك، فهل ما زلت تتحدث عنه إلى الآن؟!

ـ قال: إنه يذكرني بقدرتي، وبحبي، وبزمني الذي شعرت فيه بسعادة النفس في الوقت الذي لم يكن في جيبي مليم واحد!

ـ قلت لحمام: أذكر مرة أنك كنت تكتب مقالاً تدافع فيه عن شوقي.. كنت تجلس في مكتب صحيفة البلاد بمطابع الأصفهاني..

ـ قاطعني حمام قائلاً: الأصفهاني لم يعد يدبر المقالب لصدقائه.. لقد كبر وأخذته مشاغل الحياة!

ـ قال حمام: الأصفهاني حبيب، ومقالبه كانت ظريفة.. يعني مثل الملح في الطعام، وبتلك المقالب كان يجمع الأصدقاء ويجعلهم يتفقون على شتيمته، فأين الناس اليوم من هذه الألفة.. أين أمثال الأصفهاني من الذين يشيعون البسمة في الحياة وينتشلون الإنسان من انشغاله وهمومه؟.. يا سلام.. الأصفهاني ده كتلة للمرح!

ـ قلت: هل أسلم لك عليه؟!

ـ قال: سلم من بعيد.. مش عاوزه حداي أحسن يعمل هنا مقالب كمان!

ـ قلت: يوم كنت تكتب مقالك عن شوقي.. قرأت لي نماذج من الشعر وقلت لي يومها هذا هو الشعر.. بص شايف شوقي شاعر بأي

حجم؟ . . فقلت لقد قرأت الشوقيات ولكني لم أجد فيها هذا الشعر! . . فقلت لي: مؤكد أنك لم تحفظ. . راجع يا ابني الجزء الثالث، وراجعته فلم أجد ما قرأته لي، وعرفتك يومها. . فقد كنت ـ في الزنقة! ـ تؤلف شعراً تقلد فيه نهج شوقي. . مثلما كنت تكتب خطب مصطفى النحاس كما قلت لنا!

ـ قال حمام وهو يضحك: فوتها يا ابني. . دا أنت تسأل عني زيدان ويبقى يحكي لك!

ـ قلت له: ولماذا لا اسأل عنك ياسين طه مثلاً؟!

ـ قال: آه. . لا تثر مواجعي. . ياسين طه ده أعطاني حباً لم أجده عند أهلي. كتب عني كثيراً، وكنت أسميه العبارة الخبيثة الفاتنة، وكثيراً ما أسعدني. . إنما هو فين؟!

ـ قلت: في بيته. . لقد هجر الكتابة للأبد!

ـ قال حمام: لا أظن. . تلاقيه زي الديدبان بيكتب في البيت، ويرمي في الصندوق، ده كان يموت لو ما كتب. . إنما أنتوا مزعلينه ليه؟!

ـ قلت له: إحنا مين. . وليه نزعله؟!

ـ قال: أنتم بتوع الجرانيل. . هوه فيه حد يسيب الراجل ده كده مفلوت على نفسه؟!

ـ قلت لحمام: إنه يرفض أن ينشر!!

قال ضياء الدين: يا أمان الخائفين. .

ـ قلت لحمام: حدثني عن الشعر كشعور وتفاعل في داخلك؟!

ـ قال: «لا يولد الشاعر فحلاً.. بل هو ـ ككل كائن في الوجود ـ ينبت صغيراً ثم ينمو، وقد عناني حيناً من الدهر أن أعرف المحاولات الأولى للذين صاروا شعراء أمجاداً، ولم أبلغ من هذه الأمنية إلا القليل.. لأن مؤرخي الشعر وناشريه لم يعنهم هذا الأمر، وإنك لترى أولئك المؤرخين، أو الناشرين يروون بعض ما قال الشاعر في صباه، ولكنهم قل أن ينبؤوك بشيء مما نظم في طفولته!.. ومن هذا القليل البيتان اللذان قيل إنهما كانا من محاولات بشار الأولى:

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

ـ قلت لحمام: وما زلت تصر على رأيك في الشعر الجديد؟!

ـ قال: سيبك.. دا «تهجيص».. دا عجز، وعي.. دا.. كلام فاضي مزوق!

ـ قلت: وذكرياتك عن أيام الدراسة؟!

ـ قال: «أحد زملائي في مدرسة فارسكو الابتدائية غاظني ببعض الشتائم، فوقفت على كرسي وشتمته بالشعر، ولم تكن سني تزيد على العاشرة، والزميل الذي شتمته هو الذي أصبح بعد ذلك مستشاراً في القضاء العالي صديقي محمد السعيد العاصي.. قلت له:

شتمتني وأنت فتى أثيم نبعت من المآثم والمعاصي؟
أخذت من اسمك العصيان حقاً كذلك عرفت من دان وقاصي

وشكاني زميلي لناظر المدرسة، وطلبني الناظر فأخذت أهبتي، ولم يستطع زميلي حفظ الأبيات التي شتمته بها، وقلت للناظر: لقد مدحته ولم أشتمه. قال: ماذا قلت فيه!.. فقلت:

تُـلَـقَـبُ عـاصـيـاً والـكـل يـدري   بأنك قد عصمت عن المعاصي
ومالك في إسمك العاصي نصيب   ولـكـن أنـت لـلـشـيـطـان عـاصـي

ـ قلت لحمام: لقد توفيت في الكويت.. فهل كنت مريضاً؟!

ـ قال: أنا متوفي من زمان، واللي كان عايش بينكم وجداني وذاكرتي!

ياه.. الله يرحمني بقى، إنما هناك بيت أذكره ولا أطيق نسيانه:

وكان لي فلذة من حبهم، ولقد   جفو.. وما حفظوا من حبهم فلذا!!

ـ (وتركتُ الأستاذ حمام يجفف بعض الدمع المنسرب من مآقيه، والتفت إلى الأستاذ ضياء الدين).

ـ قلت له: ما هو أحب إنتاجك إلى قلبك؟!

ـ قال ضياء الدين: أحبه أحبه.. الرباعيات الحلولو.. ألم تكن تعجب بها؟!

ـ قلت: فعلاً.. كانت نبع نفسك، ولكن.. من كانت «مي» في أشعارك؟!

ـ قال: أية مخلوقة جميلة وأصيلة ووفية لمشاعر الإنسان وتفهم الكلام الحلولو!

ـ قلت: متى كنت تصوغها؟!

ـ قال: والله ما أدري.. يمكن بعد منتصف الليل.. يمكن بعد الظهر.. يمكن في الفجر .. أصلها بنت «جنِّيهْ» ليس لها موعد!!

ـ قلت لضياء الدين: و«قرن يتكلم».. الذي كنت تكتبه؟!

ـ قال: ليس هو القرن الذي يحمل الدنيا، ولكنه القرن الذي حمل إلى الدنيا ضياء من الحق، ومن الحقيقة.. من النور ومن الإيمان، فقد كنت أكتب سيرة السلف الصالح الذين أهدوا للإنسان أعظم المثل والقيم!

ـ قلت: و«قطوف»؟!

ـ قال: تلك أجمعها من أفواه الناس.. من الشارع، والمجالس، والكتب، والسير أنت مخلوق ما تفهم؟!

ـ قلت: أفهم.. إنما أريد أن تعطيني رأيك في النوادي الأدبية؟!

ـ قال: مين دول.. عملوا إيه.. مخاليق وإلاّ بني آدمين؟!

ـ قلت: يا شيخ.. دي نوادي أدبية من أجل أن تنشط الحركة الفكرية في البلد، وطبع المؤلفات للأدباء والشعراء!

ـ قال: ما تقول لهم يطبعوا كتبي الكثيرة؟!

ـ قلت: المفروض، ولكن..

ـ قال: لكن إيه؟.. ما هو احنا بدون نوادي أدبية كنا نكتب الشعر والمقال والدراسة والبحث، وبعضنا طبع على حسابه.

ـ قلت: إنما الآن أسعار الطباعة مرتفعة، والنوادي الأدبية هي التي تحاول أن تعمل ذلك!

ـ قال ضياء الدين: طيب ليه أبو الصفهفه «الأصفهاني» ما يسوي

مشروع زي ده، والا ليه العمدة أبو الخيابيط «عبد الله خياط» ما يخلي مطبعته تعمل مشروع أدبي؟!

ـ قلت: تكلف كثيراً.. لأن سعر الورق ارتفع، وكذلك سعر اليد العاملة، والحبر، وأشياء أخرى!

ـ قال مبتسماً: يعني النوادي الأدبية غنية؟!.. خلاص ليه ما يطلعوا في كل شهر كتاب؟!

ـ قلت: مزنوقين في البحث عن إدارة جيدة لكل نادي!!

ـ قال: فضها سيرة.. خلينا في الشعر أحسن!

ـ قلت: ما هي الرباعية التي ما زلت ترددها حتى الآن من شعرك؟

ـ قال: آه.. تثير شجوني أنت يا هذا المخلوق.. يا عبد الوهاب!

ـ قلت: اسمي عبد الله.. هل نسيتني؟!

ـ قال: كله بدنجان.. اسمع الرباعية يا جفرفور:

لا تراعي.. فللثرى لمسات حانيات يد السماء عليها
فالثرى أمَّنا الرؤوم التي تعرف من فر من يديها إليها
كان ملء العيون ثم توارى وطوته فيمن طوتهم لديها
إنما نحن فوقها.. ظل رَحْلٍ والمصير المحتوم.. ملك يديها

* * *

واحد كومبارس . . . جداً

ـ المكان: نهاية خط طويل.. طويل!

ـ الزمان: الآن.. الآن وليس غداً

ـ الإضاءة: باهتة.. تتكثف من حولها الظلال!

ـ الصوت: مدبلج!

ـ المناسبة: إغماءة، و«لمة».. شخص ملقى على الأرض داخل بيته في حالة إغماء، ومن حوله أهله، وجيرانه، وبعض الأعناق المدلاة من النوافذ يتساءل أصحابها: من هذا؟!!

ـ الحركة: أقدام تروح وتجيء.. وبعض أصحابها يسارعون بكوب ماء. وبعضهم بنوشادر، وبعضهم يقف مذهولاً، كأن حركة قديمة لا تتوقف في مساحة المكان!

ووضعت فمي في أذنه أسأله حينما بدأ الحركة:

ـ هل أنت مغمى عليك بالفعل؟!!

ـ قال: كما ترى.. وكما قال كل هؤلاء من الواقفين.. ألا تصدق؟!!

ـ قلت: بعض المتحلقين حولك يسألون.. ماذا حدث؟!

ـ قال: إنهم يعرفون ولكنهم لا يعترفون!

ـ قلت: وبعض المدلاة أعنقهم من النوافذ لمشاهدتك يسألون.. من أنت؟!

ـ قال: وأيضاً هؤلاء يعرفون، ولكن لا يهمهم من أنا بقدر ما يقلقهم الذي حدث!

ـ قلت: وما الذي حدث؟!

ـ قال: مشهد يصلح للفرجة لا أكثر!

ـ قلت: وموضوع الفرجة؟!

ـ قال: أنا الموضوع والسؤال!

ـ قلت: مْن أنت.. ومن وضع السؤال؟!

ـ قال: أنا واحد «كومبارس» في رواية الحياة ذات المشاهد المتعددة.. لذلك فإن الذين سألوا: من أنا؟.. لا بد أنهم مثلي كومبارس، ولكن أية رواية لا بد فيها من كومبارس لتكتمل أحداثها.. أبطال المسرحية وحدهم يعجزون عن آداء دور البطولة إذا لم يكن في المسرحية كومبارس!

ـ قلت: فأنت رغم ما قلت إنسان غير مهم.. إنسان عادي لو مت الآن ربما وضعوا جثمانك في ثلاجة حتى يسأل عنك أحد، أو تدفن بعد ثلاثة أيام، فأنت إذن لست موضوعاً مهماً؟!

ـ قال: صحيح.. لكن دوري في المسرحية ككومبارس لا يقضي أن أسقط مغمى عليَّ.. من أجل ذلك أصبح إغمائي حدثاً، وجاءت «اللمة»!

ـ قلت: والسؤال؟!

ـ قال: السؤال شفاه المتفرجين، وهو: ماذا حدث؟!! ولم تكن الإجابة هي: مات.. لتصبح في روعة السؤال!

ـ قلت: وما هو الموت في فهمك له؟!

ـ قال: أن يذكرك كل الناس!

ـ قلت: ولكنك لو مت، فلن يذكرك أحد لأنك «كومبارس».. شخص من ملايين البشر فوق الكرة الأرضية.. لم تخرج بفكرة جديدة.. لم تقدم عملاً إنسانياً.. لم تبتكر ما يفيد الإنسان!

ـ قال: صحيح أيضاً.. ولكنك حينما تموت وأنت واقف تمثل فلا بد أن هناك متفرجين.. هم الذين يجعلون موتك ذكرى!

ـ قلت: وأبطال المسرحية؟!

ـ قال: إنهم ينسون.. ليحفظوا أدوارهم في مسرحية جديدة يصفق لها المشاهدون!

ـ قلت: إذن.. ما هي الحياة؟!

ـ قال: أن لا تذكر أحداً من الناس!

ـ قلت: ولكن القاعدة الاجتماعية تقول: إن الفرد جزء من الجماعة، فلو اعتزلت الناس أصبحت حياتك فراغاً وهشيماً وأصداء!

ـ قال: لو اعتزلت الناس فلن يسأل عنك أي أحد في هذا العالم الواسع.. المزدحم، تصبح نقطة ضئيلة في محيط.. لأن التراحم والتوادد كان صفة زمن مضى بآبائنا وأجدادنا.. أما اليوم، فكل فرد في جماعة يقول لك: نفسي ومن بعدي الطوفان!

ـ قلت: أنت متشائم وكئيب!

ـ قال: أنا واقعي. . عندما أقول «آه» أعرف أين أتألم. . فنحن نعاني الآن من آلامنا المحسوسة أكثر من آلامنا المجسدة كالجروح، والحريق، والبتر للأعضاء. . آلامنا التي تبدو مستعصية هي من نفوسنا. . ألم يقل الأطباء: إن أغلب الأمراض الحديثة، وبالذات تلك التي يستعصى علاجها هي من الصدمات النفسية، أو العاطفية. . أي من إحساس الإنسان!

ـ قلت: ها أنت «تعرف» الكثير، وتتكلم بمعرفة. . فلماذا اعتبروك «كومبارساً»؟

ـ قال: لأنهم لم يروني في صورة مكبرة. . إن صوتي يصل إليهم كما المؤثرات الصوتية، أو يصل إليهم من وراء وجه، أو صورة، أو مشهد. . أي إنه صوت يصل إلى أسماعهم مدبلجاً!

ـ قلت: وما هو حجم صوتك؟!

ـ قال: صدى!!

ـ قلت: وما هو مداه؟!

ـ قال: يتوقف ذلك على رغبة الأذن المتلقية للكلمة التي يرسلها صوتي. . حسب الأذن والرغبة!

ـ قلت: وما هي المسافة بين الأذن والرغبة؟!

ـ قال: لا بد أن تحددها «أميَّة» النفس، أو وعيها، وتحددها أيضاً القاعدة التي يقف عليها الإنسان المتلقي لأصوات الآخرين وهي تحمل مفاهيمهم ونواياهم!

ـ قلت: ومن وضعك في نهاية صف المجتمع، أو صف الحياة؟!

ـ قال: هكذا وجدت نفسي!

ـ قلت: ولماذا لا تحاول أن تتقدم إلى الصفوف الأمامية؟!

ـ قال: أسباب عديدة.. ربما قزمية صوتي، أو فشلي في تنكب الأكتفاف، أو عجزي عن صياغة آخر كلام يقال دائماً، أو ربما لقناعتي بمكاني، أو أنني أتساءل: من الذي يبقى في الصفوف الخلفية لو صعدنا نحن الكومبارس؟!

ـ قلت: يأتي كومبارس آخر.. فالحياة يصعدها الإنسان من أول السلم، والمهم أن لا تتوقف في مكانك!

ـ قال: ربما كان مكاني أفضل.. يريحني من أن أتلفت خلفي ويجعل نظراتي ذات اتجاه واحد فقط: إلى الأمام!

ـ قلت: وما هي وظيفتك في الحياة؟!

ـ قال: أنظف طرقات الآخرين، وهنا أبصر نجاحي فقط!

ـ قلت: ولا تفكر في أية لحظة ماذا تريد أن تكون؟!

ـ قال: عندما تكون راضياً عما تفعله.. فأنت بلا شك في المقدمة حتى لو كنت كومبارساً!

ـ قلت: إذن أنت قانع؟!

ـ قال: أنا مرتاح فقط.. فربما كان عدم القناعة في بعض الأفكار أو المواقف هي شدة التعب والقلق!

ـ قلت: تعني أنه «ليس في الإمكان أبدع مما كان»؟!

ـ قال: الفرق بين الإبداع والعجز.. هو في القدرة!

ـ قلت: وما هي قدراتك لتبدع؟!

ـ قال: الخوف!!

ـ قلت: الخوف تعتبره قدرة؟!

ـ قال: ليتنا نحترم الخوف!

ـ قلت: كيف. . إنك تثيرني؟!

ـ قال: الخوف يا سيدي ليس هو لجبن كما اصطلاح الزمن الجديد، أو المدنية، وإنما الخوف يعني الحياء، والخوف يعني الأخلاق، والخوف يعني إتقان العمل، والخوف يعني الرحمة وإسقاط القسوة!

ـ قلت: ولكن ما قلته هو الثقة، أو هو الإدراك الكامل!

ـ قال: لا. . فعندما نغالي في الثقة، ونغتر بالإدراك. . نفقد الخوف من السفاهة، ونفقد الخوف من الانحلال والتفسّخ، ونفقد الخوف من إهمال العمل واللامبالاة ونفقد الخوف من القسوة في الطباع والتعامل. . فنتحول إلى أناس لا يقيمون وزناً للأواصر، ولا للحب، ولا للتوادد، ولا للصفات الإنسانية. . فكأننا في غابة كثيفة منعدمة الدروب.

ـ قلت: ومن أجل ذلك تخوفت من التقدم إلى الصفوف الأمامية؟!

ـ قال: عندما يكون الإنسان وحده في غرفة مغلقة. . لن يكون هناك إلا خيط رفيع، وهذا الخيط الرفيع هو الذي يضيء النفس، أو يكشفها، فتظهر الحسنات والسيئات، ويلمع الجمال ويتضح القبح، ويبدو أن الناس قد أخذتهم مشاغلهم عن رؤية نفوسهم من الداخل، أو كأن عيونهم إلى الداخل كما عيون تمثيل الإغريق حدقتها من زجاج لا يعكس شيئاً!

ـ قلت: ولكن هناك علماء أشاد بهم التاريخ، خرجوا من الصفوف الخلفية إلى الأمام، وأبدعوا، وأثروا في زمانهم، ألم تسمع مثلاً بموسيقار

عظيم كان يغسل الصحون في مطعم مدينته، أو بأديب شهير كان نجاراً، أو برسام موهوب كان أرزقياً «صائعاً» يعلك اللبان ويبصق في شوارع روما؟!

ـ قال: إن حدود قراءاتي لم توصلني إلى أخبار هؤلاء المشاهير، ولربما عاد أولئك إلى الصفوف الخلفية ثانية للخلود إلى الراحة مثل عاشق «سمبسون» الذي تزوجها مضحياً بإمبراطورية كانت لا تغيب عنها الشمس! ولكن يا سيدي.. لا يمكن أن تشبك ورقتين بمسمار.. كذلك لا يمكن أن تصنع باباً بالدبابيس!

ـ قلت: الدبوس قد يكون مسماراً لو كان الحقل الذي صنع منه في الآلة أوسع بعض الشيء.. ثم إن الدبوس يؤدي وظيفة، ولولاه لضاعت أوراق هامة أو اختلطت، ولكن الصعب أن يتضاءل المسمار فيصبح دبوساً!

ـ قال: أنا ضربت مثالاً، فلا تحصره إلى هذه الدرجة، والدبوس مع هذا لا يصل إلى درجة التأثير على ما هو مكتوب على الورقة!

ـ قلت: قل لي.. ما هو منطقك؟!

ـ قال: هو الرأي الذي لا يصغي إليه الناس!

ـ قلت: كيف؟

ـ قال: ألا تلاحظ؟.. أن الكثير من الناس لا يصغي إلى العقل الآن.. أو أن المنطق في أيامنا هذه لم يعد هو كلام الناس أو رأيهم!

ـ قلت: وما رأيك أنت؟!

ـ قال: كثير من الأشياء التي لا قيمة لها . . أصبحت في عصرنا هي عمل ضروري؟!

ـ قلت: كيف مرة أخرى؟!

ـ قال: لا بأس . . دعني استفزك، ولكني أعطيك مثالاً: ففي الأفلام التي نراها يحتاج المخرج عند تصوير منظر زحام، أو معركة بالأيدي، أو متفرجين . . إلى مجموعة من الناس، فيخرج إلى الشارع، و«يلم» عدداً منهم، ويدخلهم الاستديو، ويطلب منهم ذلك المشهد، ثم يعطيهم بعض المال القليل، ويكتب النقاد: لقد كان المخرج موهوباً وذكياً، وينجح المخرج، ولا نعرف واحداً من المجموعة التي أدت اللقطة . . كذلك كما قيل عن حلقات «استيف اوستن» إن القفزات العالية التي نراها له يؤديها إنسان آخر غير معروف حتى وجهه، ويقبض القليل من الدولارات، ويقبض البطل ستيف آلاف الدولارات وهو جالس يتفرج على بديله يتعرض للموت، وقد مات البديل بالفعل ذات مرة!

ـ قلت: كل واحد يؤدي دوره في الحياة!

ـ قال: لم نختلف، ولكني أفهم فقط، وربما كان هذا الفهم هو راحتي، أو كآبتي أحياناً!

ـ قلت: لقد أفادتك التجارب الكثيرة حتى أصبحت تتفلسف!

ـ قال: قبل التجارب درست: غير أن محاولة إجادة كل الأشياء حتى الخبث قد خلفت عندي نوعاً من التبلد!

ـ قلت: أوضح . .

ـ قال: عندما أرى الزحام أهرب منه إلى طريق آخر . . عندما يمتلئ

سمعي بالعديد من الأصوات أصمه وأرفض الإصغاء وأهرب إلى مكان بلا صوت، عندما تحوطني النظرات يخيل إلي أنها تشير عليّ.. لا تشير إلي فأهرب إلى الفراغ!

ـ قلت: كل مكان بلا صوت هو موت.. أو هو القبور!

ـ قال: أخطأت.. هناك أصدق الأصوات!

ـ قلت: لكنني أعتقد أنك تعاني من مرض؟!

ـ قال: ليس شرطاً، فأنا لا أحب أن آخذ كثيراً لأنني لا أكره الناس، فالكراهية هي عندما يعتقد الناس أنك قد أخذت أكثر منهم!

ـ قلت: ما هو شعورك؟!

ـ قال: ينبغي أن أحب كل الناس!

ـ قلت: والذين يكرهونك؟!

ـ قال: ليس هؤلاء هم الناس. بل هم الظلام، أو هم أشباح الناس!

ـ قلت: كيف تعطي وتحب دون أن تأخذ شيئاً؟!

قال: إني أحفظ كلمة وجدتها في قصاصة التقطتها ذات يوم من أمام باب البيت.. تقول: «أعط أكثر مما تأخذ.. في الحب غالباً لن تندم»!!

ـ قلت: ولم تندم؟!

ـ قال: الوجه الآخر لتلك الورقة التي التقطتها.. مكتوب عليه: «ليس من الضروري أن تنال ما تشتهي.. يكفي أن تكون قادراً على ذلك»!!

ـ قلت: وما الذي حققته بتلك القدرة؟!

ـ قال: إصراري أن محبة الناس ضرورة!

ـ قلت: وماذا تصنع بهذه المحبة؟

ـ قال: أتقدم بها إلى الصف الأول.. رغم أنني أقف في الصف الأخير!

ـ قلت: وإذا لم تجد المحبة عند الناس كلهم؟

ـ قال: لن أندم.. لحظتها أشعر أن مكاني في الخلف يعطيني متعة المشاهدة الشاملة، وبذلك أكون قد كسبت عقلي، وحافظت على عاطفتي، ونجوت من غروري!!

❊ ❊ ❊

واحد «ارتكاري» . . جداً

ـ المكان: انفلاتي. . لا جغرافية له، وقد يكون كل مكان، وقد يكون أي مكان!

ـ الزمان: عصر السرعة. . ثمن باهظ، وقيمة كرتونية!

ـ الإضاءة: مذبذبة. . مزغللة!

ـ الصوت: لسان يتدلى من بين شفتين ثملتين!

ـ المناسبة: لا تخضع للتحديد. . قد تكون بالأمس، قد تصبح الآن، قد تأتي غداً!

ـ الحركة: شيء ما ـ غير مرئي ـ يحدث نقراً عى جدار الغرفة. . ربما. . كانت أصابع هذا الشخص، وربما. . كان لسانه من شدة حدته، وكان يراني بظهره. . أما وجهه فهو ينطبع على «ظل» شيء يتحرك في تخيله، ويحاول أن يجسده:

ـ قلت له: اصدقني. . من أنت؟!

ـ قال ساخراً: ليس لعيني شكل الجن، وليس في صوتي نبرة صدى الكهوف، وليس في سحنتي قبراً. . لكنني آدمي من هذا النمط المنسرح فوق الأرض. . أشكل زاوية في قاعدة الناس!

ـ قلت: هل تعلم أن القاعدة لا زوايا لها؟!

ـ قال: ممكن أن نجعل نحن زوايا لها من وجهة النظر التي نريده، وبوحي الفكرة التي نتبناها ثم نحارب من أجلها حتى نبلغ حدود الخطأ!

ـ قلت: ولكني لم أقصد بسؤالي من أنت أن تصف لي شكلك وتنفي الملامح والنبرة غير الإنسانية عنك، وإنما أردت معرفة محتواك!

ـ قال: صعب أن أعرف محتواي في هذا الزمان، فهو خليط متلاطم متناقض، فأنت في الصباح تمتلئ بمحتوى ما . . بشيء يندرج في معنى الطموح، أو الأمل، أو القناعة، أو السباق، وأنت في بداية المساء قد تدلق كل ذلك، وتمتلئ ببعض أضداده، أو تمتلئ بالملل، أو بالعدوان، أو التعب، وأنت في الليل تغرق في كل تلك الامتلاءات فتجدها أكثر من بقايا أمواج تدافعت في أعماقك وركضت، ثم تكسرت، وخلفت لك كل ما لفظه ذلك الموج من داخلك!

ـ قلت: هل هذ هو إحساسك؟!

ـ قال: إحساس؟؟ . . أين ذلك الإحساس . . ألم يتحول إلى جرح منفي في صدر الإنسان؟!

ـ قلت: دعني إذن أصحح السؤال . . فأقوال: هل هذا هو انطباعك؟!

ـ قال: كل انطباع يتخذ له زاوية معينة!!

ـ قلت: وما صفتك أنت كزاوية؟!

ـ قال: زاوية استطلاعية . . ترفض الانعكاس عليها!

ـ قلت: ولكنها تعكس على الناس ما ترغبه عليها!

ـ قال: يحدث هذا.. ولكنه يتوقف على المحتوى الآتي في الانطباع!

ـ قال: وما هو موضع استطلاعك؟!

ـ قال: كل الناس، وكل الحياة، وكل الأفكار، وكل الإحساس الذي تحوَّل إلى جرح منفي في صدر الإنسان، ومعنى «كل» في قوام المجتمع!

ـ قلت: تعني أنك زاوية حادة؟!

ـ قال: خليط متلاحم متناقض، وأحياناً زاوية منفرجة، ولكن طبيعتي من انطباعي.. أن أسجل استطلاعي.

ـ قلت: إذا كان كل الناس هم موضوع استطلاعك، فما هي دوافع ذلك الاستطلاع؟!

ـ قال: شعوري قوي.. يتحول أحياناً إلى شراسة!

ـ قلت: ما هو هذا الشعور؟!

ـ قال: شعور بتصرفات الناس، وتعاملهم من عواطفهم ومن أفكارهم، والرغبة في تسليط الضوء والحرارة عليها!

ـ قلت: بماذا؟!

ـ قال: بلساني، وهو كل ما أملك كظاهرة قوة!

ـ قلت: هذه هي إرادتك الوحيدة؟!

ـ قال: أضعف الإيمان!

ـ قلت: هذه العبارة تستخدم لهدف النصيحة والتقويم!

ـ قال: وما الذي أفعله أنا؟!

ـ قلت: أنت لا تنصح، وإنما «تهرش»، فأنت تملك لساناً من «خيش».. سطحه خشن جداً، أو كأنه «مبرد»، وليس «كل» تصرفات الناس يستحق الهرش بهذه الطريقة.. هناك من يحسن معاملة الاخرين، وهناك من تبقت في صدره عاطفة صادقة، وهناك من يزن أفكاره، وأنت استخدمت صيغة الجمع.. لماذا لا تفرز الناس إلى مصيب ومخطئ؟!

ـ قال: الآن قل لي.. ما هو الخطأ وما هو الصواب في تصرفات الناس.. ما هي قاعدة الصواب، وما هي دلائل الخطأ؟!.. فالذي يرتكب الأخطاء لا يعترف بها ويلوم الذين ينتقدونه، والذي يحرص على الالتزام بالصواب يسمى مغفلاً، أو يوصف بالحماقة، فكيف تستطيع أن تفرز؟!

ـ قلت: ولكن الخطأ يعلن عن نفسه، والمخطئ يفشل أن يستمر في أخطائه لأنها ضد طبيعة الأشياء، والوعي، والعرف الاجتماعي، والفكرة الإنسانية!

ـ قال: أنت تقول كلامك هذا فوق أرض منبسطة منسرحة، فتتعثر رؤيتك.. لكنني أجلس في زاوية تعينني على ترديد الرؤية!

ـ قلت: يبدو لي أنك أنت الجلوس، وأنت الزاوية معاً، ولو كان هنك اختلاف بين زاويتك، وبين ما حولها لأمكنك أن ترى بوضوح!

ـ قال: أنت تعيب عليَّ أن أفضح أخطاء الآخرين؟!

ـ قلت: أبداً.. ولكن من الصعب أن تفضح الأخطاء وتفسرها أيضاً.. فهل نظفت أنت من الأخطاء، وهل تظن أن تفسير أخطاء الآخرين لا يؤدي بك إلى خطأ أفدح؟!

ـ قال: إنني أتجنب الاختلاط بالقاعدة.. إن زاوية واحدة فيها تمنعني!

ـ قلت: فيتم لك ذلك من جانب، وبالاختباء عن الناس من جانب آخر!..

ـ قال: أنت تمنع البعض من شجب أخطاء غيره فتروج لمنطقية الخطأ!

ـ قلت: أبداً.. إنني أطلب منهم الاعتراف بأخطائهم مثلما أفرض ذلك على نفسي، ولكن الكارثة لو أن كل واحد أصبح مثلي.. يعطي لنفسه حق ترصد أخطاء الآخرين وفحصها وتفسيرها دون أن يتذكر أنه قد لا يقل أخطاء عن الناس!!

ـ قال: أنت تناور.. فاشرح لي ما قلت!

ـ قلت: من الصعوبة أن يعترف المعتاد على تعرية الآخرين بعريه هو. فأنت تجلس في زاوية بعيدة عن رؤية الناس لك، وتطلب منهم عنوة أن يتعروا «كله يقلع!» ثم يسلموا برؤيتك لهم.. ذلك يمثل دوافع الأنانية، أو الغيبوبة العقلية!

ـ قال: لكنني مثل كل الناس.. لا أرى أخطائي، ومن هو الإنسان إلا نموذج للذي لا يرى أخطاءه هذه الأيام ولا يعترف بها؟!

ـ قلت: هذا لا يعني أنك مغسول من الأخطاء، فالتجارب مزيج من الخطأ ومن الصواب.. فهل أنت إنسان بلا تجارب؟!

ـ قال: حتى لو عايشت تلك التجارب. فليست تجاربي.. فأنا أتحاشى الناس.. غير أني أتفرج.. أرى وأعرف كيف تتم تجارب

الآخرين!

ـ قلت: ثم تصور أحكامك على الناس بما يثرثر به لسانك فقط!

ـ قال: وما هو عيب لساني. . أليست هناك ألسنة أكثر رداءة؟!

ـ قلت: ربما. . ولكن لسانك ارتكاري. . إذا لم يهرش لا يستريح!

ـ قال: ماذا تعني؟!

ـ قلت: إنه لسان مصاب. . فإما أن تهرشه باسنانك، وإما أن تهرشه في حياة الناس!

ـ قال: وما هي الجريمة التي صنعتها بلساني؟!

ـ قلت: لسانك صنع منك شخصاً معدياً. . من قابعي الزوايا، ومن مروجي الهمس الذي لا يقوم حواره على حقيقة ثابتة. . إنك تجذ بأسنانك على لسانك لتسكت «هرشه» . . فلا تستطيع إلا أن تتكلم كيفما اتفق!

ـ قال: وبعد. . إسمع. . لقد احتملتك كثيراً، ولا يمكن أن أغفر لك هذه الإهانات!

ـ قلت: ليست أفدح من إهانتك لقيمتك كإنسان من المفروض أن تلتفت إلى ما يسمو بك فوق الإحباطات ونهش قيمة الآخرين، ومن المفروض أن تجوِّد عملك، وأن تبدع لتصل بذلك الإبداع إلى إحساس صادق بجمال الحياة وبحميمية التقارب مع الناس، ومن المفروض أن تجمر لسانك بكية واحدة ربما أصابت العلّة وشفتك منها.

ـ قال: لا أشكو مرضاً. . أنتم المرضى!

ـ قلت: الناس كلهم في نظر المريض مرضى مثله مصفرين هزيلين،

فالنظرة تكون بقياس الحالة ورد فعلها!

ـ قال: لكن غيرك وصفني بما أشعرني بالمسرة والغبطة!

ـ قلت: إما لأن هذا الغير لا يعرفك، وإما لأنه يعاني مثلك!

ـ قال: تصدق.. إن لسانك أكثر ارتكارية من لساني!

ـ قلت: لكن ليس صفة أو طبعاً.. إنه فقط يجابه شيئاً أقوى أو أكثر ألماً!

ـ قال: سأغيب عن وجهك، ولكنك سوف تصطدم بالكثير من أمثالي!

وأدار لي وجهه، وجعل ظهره «ظل» شيء يتحرك في تخيله ويحاول أن يجسده! ولم أستطع التحديق فيه، فقد كان متعدد الوجوه، ومحكوم بالظل.. بظل لسانه، وبظل ما يتحرك في تخيله!!

* * *

واحد آخذ. . . جداً

ـ المكان: أي موقع هنا أو هناك على امتداد المسافات!

ـ الزمان: لا يخضع للذكرى!

ـ الإضاءة: مسائية. . تنبعث حزمها من تحت المقعد!

ـ الصوت: عميق. . يكاد يتحول إلى أصداء!

ـ المناسبة: هذا الزحام الكثيف الذي يغمر عنوان الإنسان في أعماقه!

ـ الحركة: امتدت يد هذا الواحد إلى الأرض، وأخذت أصابعه ترسم خطوطاً متشابكة. . معقدة، وفي داخلها مربعات مفتوحة ضائعة في كثافة الخطوط الطويلة والعريضة:

ـ قلت له: هل تلعب الكلمات المتقاطعة؟!

ـ قال: تجاوزت هذا الانشغال المحير!

ـ قلت: فما الذي تفعله إذن، وتقصده من هذه المربعات المفتوح بعضها على البعض الآخر، ومن هذه الخطوط المتشابكة كأنها أمعاء مبقورة؟!

ـ قال: هذا الذي تراه أمامك اسمه: الأخذ والعطاء!

ـ قلت: ترسم بطريقة المدرسة السيريالية إذن؟!

ـ قال: إنني لا أجيد الرسم، ولكنني أحاول التعبير عن فكرة.. عن صورة أجسدها عبر هذه الخطوط والمربعات!

ـ قلت: وماذا عن الأخذ والعطاء عندك؟!

ـ قال: ما عندي هو عندك وعند الناس كلهم، والفرق أن أغلب الناس اليوم لم يعد عنده الاحتفال بهذه القيمة في التعامل والشعور فيما بينه، أو أن الناس قد أسقطوا العطاء من حياتهم، وأصبح كل همهم هو الأخذ!

ـ قلت: تعني أننا نعيش زمن الأخذ؟!

ـ قال: أعني أن الناس لم يعد يشق عليهم شيء، فظنوا أن قدرتهم تمكنهم من أخذ ما يريدون فقط دون أن يعطوا في المقابل لما أخذوه، ولقد نعم الإنسان في الزمن القديم بلذة مزج الأخذ بالعطاء.. دون أن يكون الأخذ سؤالاً جائعاً ينتظر العطاء إجابة عليه.. أما في الزمن الجديد فقد أصبحت اللذة مكثفة في إرضاء «الأنا»، وضاعت الأجوبة في تسلط الأسئلة!

ـ قلت: قل لي.. من أين يمكنك أن تأخذ حينما تتسلط عليك رغبة الأخذ؟!

ـ قال: من النقطة التي تتركز عليها رغبتي وتدور حولها.. ألم يصبح الناس مجموعة رغبات مجوفة من الأحاسيس؟!

ـ قلت: وهل تأخذ النقطة التي رغبتها فقط، أم أنك تستحوذ أيضاً على ما حولها وما يتبعها وما يتبع لها؟!

ـ قال: أمارس ما يفعله الآخرون اليوم.. إنني لا أستطيع أن أجزئ

رغبة الأخذ، ولكنني امتلكها كاملة بكل فرصها وضعفها في الجانب الآخر!

ـ قلت: ولكن ذلك يتجاوز معنى الأخذ إلى فعل الاستحواذ بالاستغلال للظرف، أو لنقطة الضعف، وهذا يعني خلخلة الضمير وتشويه صفاء النفس!

ـ قال: صحيح. . ولكن عندما أشعر في لحظة ما إلى الاحتياج الملح وهو من فعل التسلط المادي على فكر ونفس الإنسان. . لحظتها أفكر في استغلال الظرف الملائم لمزيد من الأخذ لأسدّ احتياجي!

ـ قلت: وقد يتحول الاستغلال إلى سرقة، والاستحواذ إلى نهب، وبذلك تجد نفسك وقد تعفن ضميرك، وأفقدت نفسك ـ كإنسان ـ وسامتها وأناقة تعاملها؟!

ـ قال: ومن قال لك أن الأخذ الآن هو سؤال ينتظر الإجابة؟. . لقد تحول إلى إجابة ضرست ما قبلها وما بعدها من الأسئلة، فأغلب الناس اليوم ليس عندهم الوقت الكافي لطرح الأسئلة، والأسئلة تعني الاستفهام والتعرف والتعلم والحيطة، ولكننا نهزم كل تلك الأسئلة ببعثرة العديد من الإجابات التي لا تهتم بالأسئلة. . لأنها لا تهتم بالنتيجة، أو بالحصيلة، أو العبرة!

ـ قلت: وبعد أن تأخذ. . هل تصعب عليك الأفكار، وتتحرج إرادتك. . أم يسهل عندك كل شيء؟!

ـ قال: في البداية أقول لك. . إن من يريد أن يأخذ بدافع الأنا وبدون أن يعطي. . فهو لا يفكر. . لا تعنيه أية فكرة. . إلا ما كان ملاصقاً لرغائبه وذاته. أما الإرادة. . فهي طبيعة في الإنسان. . تقوى عند

البعض، وتضعف عند البعض الآخر، وميزانها يتمثل في النوايا.. نواياك نحو ما تريد أن تأخذ ونواياك أمام ما تريد أن تعطيه، ولا أكذب عليك.. إذا أخذت ما تريده واستنفدته، فما الذي تبتغي بعد ذلك من قشرته؟!.. لكنك تتلفت بحثاً عن أخذ جديد بعد أن تقذف بالقشرة السابقة!

ـ قلت: ألم تحاول مرة أن تحاسب نفسك.. أن تسألها عن ما أخذت وما أعطيت، أو عن ما هو مفروض أن تعطيه؟!

ـ قال: في لحظات قصيرة عابرة أتوقف، فأعرض نفسي للانتقاد الذاتي.. أحاول بصعوبة أن أتذكر تلك الضرورة التي تلح على البحث عن تربية سليمة ومثالية للنفس.. على الأقل لأقتنع بالتفكير أو لأشبع بما أخذت أو الالتزام بخلق أهدرته!

ـ قلت: وماذا تكون النتيجة في نفسك؟!

ـ قال: احتار واصطدم ببعض الأسئلة التي تلف رأسي، ومنها على سبيل المثال: هل تبدو رغبات الإنسان كثيرة بلا حصر وقوية مندفعة بلا ضبط، ونهمة أكول بلا شبع.. حتى أنها تدفع الإنسان وتقسره على الانسياق وراء إغراءاتها.. أم أن مغريات الحياة التي تتحول إلى رغائب ودوافع للأخذ فقط.. هي مغريات متعددة وملونة، وإن الأشياء لا تتشابه وأن الطعم يختلف من شيء لآخر؟!

ـ قلت: ولكنك بهذه الأسئلة لن تطفو على السطح المتلاطم في أعماقه، وإنما مثل هذه الأسئلة تدفع بك إلى القاع والمزيد من الغرق!

ـ قال: لا.. إنني أخالفك، فهذه الأسئلة تدعونا لطرحها ومناقشتها بعد كل تجربة «أخذ»، فنحن في لحظات الامتلاء والشبع نشعر بالقرف

من كل شيء . . حتى مما أكلناه أو أخذناه أو استحوذنا عليه . . طبيعة إنسان تمرض وتتمرد في الملل، فلماذا ـ إذن ـ لا نقارب بين الأشياء ونفاضل عند الشبع؟ . . إننا لا نقدر أن نحسن المفاضلة إلا عند الشبع وبعد الأخذ، وطالما كان الإنسان مدفوعاً باحتياجاته فهو لا يفاضل ولا يختار وإنما يندفع للأخذ على أي شكل كان.

ـ قلت: ولكن النتيجة أيضاً قد تأتي عكسية . . ففي لحظات الامتلاء أو الشبع تبرد الهمة وتتكسر الأجفان، ويسري الخدر، وتغفو العيون، ويتعطل الذهن، و . .

ـ قال مقاطعاً: وتصاب الغرائز بالإغماء وتتضخم الشهوات!

ـ قلت: إذا تضخمت الشهوات فقد تتحول إلى حيوان هائج؟!

ـ قال: أبداً . . إن الإنسان بمجرد ما يأخذ فهو يسقط من التعب، أو من البطنة أو من الامتلاء . . لحظتها من الممكن أن نختار للغد رغبات أفضل تقوم على التعاون بين الإنسان والآخر . . أيضاً إن الإنسان حينذاك يتنازل عن مطالب ذاتية لأنه محكوم بالقرف!

ـ قلت: هذه نقطة جدلية لن نخلص منها، ولكن قل لي . . ألا تعتقد أن ساعات الملل تزداد فيها رغبات المرء أكثر . . لأنه ينطلق من فراغ؟!

ـ قال: أعلم في كل الأحوال . . أن الإنسان متورط في الرغبات التي لا يملك طريقة تحقيقها، ولا تصدق أن إنساناً ما قد حقق كل ما يرغبه، أو أنه قد أخذ كل ما أراده واشتهاه . . أبداً. إن كل العاطلين يحلمون فوق رقعة شاسعة من الأشياء بينما مقاساتهم محدودة، وقدراتهم محدودة . . أما الذين يعملون، ويعرقون. ويكدحون ويفكرون . . فإن رغباتهم تبدو مبلورة ومتأثرة بالحركة وبالعمل!

ـ قلت: هذه لا نسميها رغبات، وإنما هي طموح، وفكرة للحياة الأحسن التي يتوافق فيها الأخذ والعطاء، ومهما كانت نسبة المستغلين لفرص الأخذ بلا عطاء كبيرة.. لكن منطق الأخذ والعطاء قائم بين الناس، ومهما أخذت فلن تقدر على مواصلة أسلوبك.. فغيرك أيضاً يريد أن يأخذ.. حتى في الحب الأعمق.. فلن تأخذ إذا لم تعط، أو أنك لن تحصل على شيء إذا كان الطرف الآخر لا يريد!

ـ قال: لكن الغرائز لا ترتبط بهذه القوانين. أو الأنشوطات الاجتماعية والنفسية.. أحياناً تجد رغبة الأخذ تدفع صاحبها لأن يقفز فيرتكب جريمة ونتساءل لحظتها: لماذا عجز أن يتحكم في تلك الرغبة؟!

ـ قلت: لا بد أن نربط هذه الحالة بمستوى التفكير.. بصحة الإدراك.. بالإحساس الذي لم يتعرض لصدمة، أو لعاهة أو تعرض لهما!

ـ قال: ولكني أعتقد أن الإنسان لن يتخلص من غرائزه!

ـ قلت: الغرائز موجودة.. لكننا نشذبها، ونهذبها، ونحكمها بدل أن تحكمنا.. نحكمها بالتفكير.. بالقناعة.. بالحب، فالحب يمنع الانحراف ويدعو إلى تنازلات الرغائب فينا عن أشيائها الحادة!

ـ قال: أما زلت تتحدث عن الحب بين الناس؟!

ـ قلت: لا يمنعني شيء عن ذلك برغم التبدُّل الذي طرأ على نفوس الناس، ولا بد أن نفرق بين الرغبة وهي طموح وإبداع وتفوق إنساني.. وبين الرغبة وهي دافع للامتلاك.. دافع للأخذ، فالامتلاك مادة، أما الأخذ فهو في بعض المواقف يسمى تجاوباً، أو أصداء عندما يقترن بالعطاء، ويبقى الأخذ امتلاكاً بتصورك عندما ينحصر في الأشياء المادية.. الأشياء التي نأخذها فتصيبنا بالخدر!!

ـ قال: ألا تشعر بأنك قد أخذت مني الكثير الآن؟!

ـ قلت: بلا شك. . لكنني أعطيتك الأكثر في الوقت الذي لم أكن راغباً فيه إلى أخذ ما عندك لأبيعه، أو أستغله، أو استحوذ عليه. . فالذي عندك لا يشترى وإنما يباع للتخلص منه، ولا يستغل لأنه لا مكسب منه أو فيه، ولا يغري بالاستحواذ عليه. . لئلا يسقطنا في هوة العزلة!!

* * *

واحد حزين . . . جداً

وقفة تذكُّر.. تسرقني من صقيع الروح.. حيث الزمن حلقة مفرغة وساخنة.. ليس فيها ثمن مانح، وفيها افتقار إلى المعاني، وخسارة في القيم، وخواء بين الضلوع، وفيها اجترار لشعور مرتد مثخن بالفقد، ومجروح بالفجيعة، ونازف للغربة!

وقفة تذكر.. تهرب بي من زمن الماديات الموغلة، والإحباطات المتراكمة، والانفصام في العاطفة.. فلا يعرف الإنسان إن كان ما يحس به حباً، أو هروباً من الحب!

إن شفتي تنفرجان كما فتحة «قربة» ماء جافة.. تتقاذفها الريح في صحراء قاحلة!

إن عينَيّ كنجمتَي شتاء.. غريبتان وحيدتان.. تائهتان في سماء ملبدة بالسحب الداكنة!

ويخيل إليَّ أنني أسمع قهقهات العالم تتعالى مجنونة، ثم تذوب في كأس من الثلج، أو تحترق في فوهة بركان يقذف الحمم!

إنني الإنسان في هذا الزمان الموحش بزحام الترف المادي.. الفائض بفراغ الوجدان.

إنني أعبر كل مساء فوق بحار ازدادت ملوحتها.. من كثرة ما تردد

القراصنة فوقها، وتعبرني كلمات الغزل كقوس قزح نتمنى ظهوره كلما ارتفع جفاف الروح، وطلبنا الاستسقاء لهطول الوجدان وإمراعه!

ترى . . هل ما زلنا نحب ونعشق، ونذوب شمعة تضيء رؤية من نحب؟!

إن خفقات الإنسان تنسحق . . فهو يغني كلمات من غبار راكضة، لأن نبرة الحزن تحولت إلى تاريخ حب . . لأن الإحساس بالحب قتلته الرغبة في صناعة الضياع لصدق الإنسان، ولجوهره، ولميزاته!

ورغم ذلك ـ كإنسان حزين ـ بادرت إلى إسقاط تعبي، وتلفت إلى الوقت من العمر وكأنني المتوتر بالضحكات التي يفعلها الآخرون ونطبعها على شفاهنا!!

إن عروقي كأوتار جيتار يعزف عليها غجري يقتل الوحدة بالغناء . . فكأن غنائي هو وقف التنفيذ روحياً . . أشعر بالحب وأناجيه في زمن الحروب، وفي مناسبات التنازلات، فقد قيل:

ـ «إن قطرة واحدة من ماء البحر . . تخزن في جوفها كل أسرار البحر»!!

إنه سباق الإنسان مع رغباته، ومادياته، وعجزه، وفجائعه . . إنه الدوار الذي يعصف بالخفقات قبل الرأس . . فوق أمواج تنكسر وتغرق في جزرها كل آهات الإنسان!!

وهل تبقَّى على الأرض في امتداد الكون: محب ومحبوب . . عاشق ومعشوق؟!

وهل ما زالت الذكرى . . صبابة يجدها الإنسان كلما رمى به الظمأ تحت الهجير؟! إنه منتهى الألم . . هذا الذي أصبح بقايا في أعماق النفس الإنسانية:

ـ أن يتحول المحب إلى مشفق، وأن يتحول المحبوب إلى مشفق عليه، أو إلى إشفاق ينادي!

الآن.. يتبدل الزمان!!

الآن.. اسم الحب: شفقة.. فلنبحث عنها بين ضلوعنا في لحظة وقف التنفيذ للحب، أو وقف التنفيذ روحياً!

الآن.. وقفة التذكر ـ تومض ـ من وراء كثافة السحب الرمادية، فاسترجع شيئاً مما كان شبعاً للروح، وارتواء للشعراء.. كأنها القصة التي لا نهاية لها في لحظات ميلاد الحب، وعندما تحول الإحساس بالحب إلى إشفاق.. أصبحت النهاية خبراً ينفصم عن الزمن، ويتموه فيه الحب!

وهكذا بدأ يروي لي الحكاية:

* * *

ـ كانت في عينيه دمعة تتلألأ.. استغربتها في البداية، فلم تعد هناك عيون مليئة بالدموع، بقدر ما أصبحت العيون بؤبؤاً يتجمد في الدمع، وسألته:

ـ هل هذه دموع؟!

ـ قال: هذه ذكرى.. ظننت أن الأيام قد نجحت في تجميدها، ولكني أفاجأ بها معك وهي تسيل!

ـ قلت: أعرف أن الدموع للحب دائماً!

ـ قال: ولكن الحب قد تحول إلى إشفاق!

ـ قلت: كيف.. وقد كان ما بينكما أقوى من عبث النسيان؟!

ـ قال: إنني أصبحت الشجرة التي تعرت من أوراقها!

ـ قلت: ولكنك بعدك تثمر!

ـ قال: ربما . . أستطيع أن أعطي بعض الظل المستقيم، وأن أفيد بحطبي دفئاً لمقرور في ليلة باردة!

ـ قلت: ولذلك . . فأنت تحس الآن بعد عبث النسيان بينك وبينها . . إنك تدعوها للإشفاق عليك!

ـ قال: ربما أيضاً . . فلا أستبعد إنها في خلوتها وهي تفتح صندوق عمرها وتراني في مرآته القديمة . . لا بد أنها تشعر بالإشفاق عليَّ بعد كل السنين التي رحلت بالجذوة، وبالقدرة على السباق!

ـ قلت: وأنت . . ألا يعتريك نفس الشعور بالإشفاق عليها؟!

ـ قال: بلى . . فعندما أعرف أن خفقاتها تحولت إلى وظيفة في صدرها، وإلى خبر في سمعي، وأنها بدأت التلفت حولها في لحظات خلوها إلى نفسها وتأملاتها . . فإن ذلك يعني أنها لا تحيا الحلم الذي كانت تسقيه في أيامها، وأنها عجزت أن تمزج بين واقعها المادي وبين أحاسيسها وحتى أفكارها التي سبق لها معايشتها، وتجرح بها معاناتها!

ـ قلت: ولكن هذا الذي تحسه . . حب!!

ـ قال: أبداً . . الحب يا صديقي هو مقدرتنا على العطاء والأخذ . . قدرتنا على تجاوز النسيان، والتفوق على الانخذال الذي تصنعه الأيام في حوافزنا وخفقاتنا!

ـ قلت: ولكنك تستطيع أن تعطيها الآن رغم وحدتك، ووحدتها!

ـ قال: ما الذي أعطيه لها غير الشفقة، وأخذ منها غير الشفقة؟ . .

فأنا أعجز أن أجدد الأماني فتغذي الحب، وعندما نكتفي بدغدغة الذكرى في النسيان يصبح كل شيء لا قيمة له.. إلا ما تثيره الذكرى من حزن يطفو على حفافي النفس ثم يعود إلى ترسبه من جديد!

ـ قلت: دعني أرسم ابتسامة على شفتيك حين أذكرك بعبارة لكامل الشناوي، فهو يقول: «الحب جحيم يطاق، والحياة بلا حب جنة لا تطاق»!!

ـ قال: إنني أبتسم بمرارة الآن.. فهذه العبارة لن تصلح إلا للرثاء. لأن كامل الشناوي قالها وكأنه الشاعر الأخير، وإلا فقل لي أي شاعر بعده تحدث عن الحب ممزوجاً بالحياة؟!.. فحتى الشعر اليوم هو تعبير عن الشفقة أو نداء على الإشفاق، ولا تحزن.. فالعاطفة دائماً هي مشكلة البشر، فلو رقّت أحاسيسهم وتجاوبت معهم تعبوا، ولو تلوثت عواطفهم بالماديات وانشغلت عنها بهموم العيش.. أَتعَبُوا!!

ـ قلت: لا أرضى منك بنبرة التعاسة هذه، فنحن لا نمتلك كل شيء، وأيضاً لا نجد كل شيء.. ولكننا نرضى أن نحصل على جزء مما نريد.. أن نقطع خطوات مما نمشيه من مسافة العمر.. أن نرى جانباً واحداً مرئياً من عدة جوانب غامضة، والحب هو أن تعطي دون أن تأخذ!

ـ قال: ولكن ما الذي سأعطيه؟.. لا أمتلك إلا الشفقة!

ـ قلت: حتى من أجلها؟!

ـ قال: لأن الإشفاق هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يتبادله الناس.. أما الحب فهو إمكانية الذي يستطيع أن يعطي، فالشفقة هي: وقف التنفيذ.. روحياً!!

* * *

واحد مبسوط . . جداً

ـ المكان: صفحة مرآة . . انعكس عليها وجه غطته فتحة فم مقهقهة. الوجه واقف على صفحة المكان . . على المرآة!

ـ الزمان: مسروق . . اختطفته الضحكات، ومدَّته ثوان لا تطول!

ـ الرؤية: صافية . . كلون الماء!

ـ الصوت: صخب يرتفع من الأعماق عنوة.

ـ قلت له: هل هذا صوتك؟!

ـ قال: أبداً . . إنه صوت نفسي.

ـ قلت: نفسك تقهقه؟!

ـ قال: ألا تسمع القهقهة على وجهي؟!

ـ قلت: إني أرى على وجهك، ولا أسمع منه!

ـ قال: بل أنت تسمع!

ـ قلت: ماذا تعني؟!

ـ قال: أعني أن الرؤية انطباع . . دمغ، أما الاستماع فهو صوت . . يضيع بعد لحظات في الهواء!

ـ قلت: تعني أن قهقهاتك ضائعة؟!

ـ قال: أقصد أنني «سمبوط»!

ـ قلت: تقصد مبسوط؟!

ـ قال: وهذا الانبساط لا يترجم معاني الفرحة!

ـ قلت: أجل؟!

ـ قال: الانبساط تأثير وقتي.. لكنه لن يبقى.. لكن يكون شعوراً صادقاً!

ـ قلت: وما الذي يبسطك الآن؟!

ـ قال: عمق الحزن!

ـ قلت: كيف؟!

ـ قال: أكره أن أموت وأنا «مبلِّم!» أريد أن يكون موتي من شفتي!

ـ قلت: هل مات أحد من السرور؟!

ـ قال: كثير.. إن تضخم السرور أو الفرحة يقتل!

ـ قلت: وتريد أن تموت بفرحة؟!

ـ قال: أحاول.. فالموت ليس وقفاً على الألم والحزن فقط.. إنه يتعاطف أحياناً مع الفرحة!

ـ قلت: هل أنت صحيح؟!

ـ قال: لا أشكو مرضاً، ولا أشك في قواي العقلية.. كل ما هنالك أن أحاسيس الإنسان تتضخم أحياناً فتسبب هذه الحالة.. حالة ها؟!

ـ قلت: وما سبب انبساطك؟!

ـ قال: سؤال معاد. . ألم أقل لك عمق الحزن؟!

ـ قلت: قصدت ذلك لأطابق الإجابتين!

ـ قال: لا. . إنك نسيت فقط. . فنحن لا نرضى باكتشاف أخطائنا، وهذه من الأشياء التي تجعلني أضحك!

ـ قلت: تحب أن تضحك من الناس؟!

ـ قال: وهل وجدت أنت فرصة لتضحك مني ولم تغتنمها؟!

ـ قلت: إني لا أحب الضحك على غيري، أو منهم. . إني أضحك معهم.

ـ قال: أنت ترضى أن تكون مرآة عاكسة إذن؟!

ـ قال: هل تعتقد أن أي واحد يرضى بحالة هذه المرآة التي أقف أمامها الآن وأقهقه؟!

ـ قلت: على شرط أن لا تكسر المرآة بعد فراغك من انبساطك.

ـ قلت: وهل هذا هو الجمع بين الألم والفرحة؟!

ـ قال: بدقة متناهية. . فالنفس تحمل في وقت أخذ عبء الحزن وعبء انتظار الفرح، وفي المنتصف قد يموت الإنسان باللحظة الفاصلة!

ـ قلت: وهل تعوّدت على هذا الرأي؟!

ـ قال: إني أناقشه أمام المرآة دائماً. . فالزجاج لا يجامل. إن الزجاج مادة صريحة. . إنه مرآة، ونافذة، وأنبوبة اختبار، وشيء يصر أن ينكسر ويتحطم إذا أهملت حمله!

ـ قلت: وعندما تحب. . هل تبدو مبسوطاً؟!

ـ قال: المحبة ليست حالة.. إنها شعور، والشعور منطق!

ـ قلت: لكن قلوبنا تخفق مع كلمة الحب؟!

ـ قال: هذا لا يسمى انبساطاً.. إنه منطق الفرحة.. إن الحب يجعلك مبسوطاً، وليس الانبساط هو الذي يدفعك أن تحب!

ـ قلت: لكن الإنسان يحب ثم يتألم!

ـ قال: عندما يجعل من الحب حالة.. إننا نعتسف الحب، فلو أصغينا جيداً إلى صوت أعماقنا لسمعنا الصدق.

ـ قلت: وما هو صدق الحب؟!

ـ قال: أن تتألم حقاً.. إن الأم تفقد بهجتها عندما يتزوج ابنها، والحبيبة تنادي من تحب عندما تفقده، والقلب يخفق بشدة قبل لحظة اللقاء، فإذا التقى الحبيان، وشعرا ببقائهما معاً تحولت دقاته إلى وظيفة.. باعتباره عضواً دموياً في الجسد!

ـ قلت: لكنهما في اللقاء يحسان بكل الانبساط!

ـ قال: حالة.. مجرد حالة.

ـ قلت: وما هي الحياة المليئة بالفرحة؟!

ـ قال: أن ترغب، وتتمنى، وتحقق!

ـ قلت: وبعد ذلك؟!

ـ قال: بعد أن تحقق ما أردت تقف في المنتصف.. تشعر بالانبساط، ثم إما أن تموت بفرحتك أو تتحول إلى أشياء متجمدة.. فارغة!

ـ قلت: إذن.. ليست هناك فرحة دائمة؟!

ـ قال: لكن طبيعتنا كلنا أن نحطم كل الأشياء التي ننتهي من استعمالها!

ـ قلت: أنت عاقل إذن؟!

ـ قال: بمنطق الناس عاقل، وباستنتاجاتهم مهبول!

ـ قلت: وماذا تود أن تكون عند الناس؟!

ـ قال: أريد أن أكون في منطقهم!

ـ قلت: وهل الانبساط منطق؟!

ـ قال: أبداً.. إنه استنتاج!

ـ قلت: ومتى يمكننا أن نستنتج؟!

ـ قال: حينما يؤلمنا الآخرون!

ـ قلت: تضحك لهم؟!

ـ قال: نضحك فقط.. فالناس لا يسمحون لك أن تفسر تصرفاتك.. إن التفسير يضعونه هم!

ـ قلت: وهل عرفت ماذا فسرت أنا قهقهاتك الآن؟!

ـ قال: نعم.. تفسيرها عندك أنني إنسان مبسوط!

ـ قلت: فقط؟!

ـ قال: هذا كل شيء.. فعندما تفسر أنني مبسوط.. يعني هذا استنتاج، والاستنتاج بحث نجري وراءه بكل جهدنا!

ـ قلت: ومتى شعرت بحالة الانبساط هذه؟!

ـ قال: عندما شعرت بفيضان ألمي!

ـ قلت «تاني»؟.. لماذا تربط الألم بالانبساط؟!

ـ قال: إنهما السالب والموجب.. اللذان يحركان أعماق النفس، ويفعلان التصرف!

ـ قلت: لكنك تجمع بينهما بقوة؟!

ـ قال: أعطيك مثلاً.. إنسان مريض.. دفعوا به إلى غرفة العمليات، وقالوا له: العملية خطيرة وقد تموت، وعندما يفيق من البنج.. يسمع أن العملية نجحت، وأنه سيخرج بعد عشرة أيام، فيشعر أنه بحاجة إلى ضحك متواصل ليعبر عن فرحته.. إنه يحس الفرحة فعلاً، لكنه يموت فجأة وهو يضحك ـ إنه يموت بالفرحة!

ـ قال: أن تبقى في المنتصف!

ـ قلت: كيف؟!

ـ قال: أن تحقق بعض ما تريد، وأن تبقى في انتظار البعض الآخر!

ـ قلت: أن أفرح وأحزن في آن واحد؟!

ـ قال: بالضبط!

ـ قلت: وهل يكره أحد الفرحة المستمرة؟.. لماذا لا أنغمر في البعض الأول الذي تحقق؟!

ـ قال: الإنسان لا يثبت على شيء واحد، والحياة نفسها أيضاً لا تبقي لك أشياءك كما هي!

ـ قلت: مثلاً؟!

ـ قال: مثلاً.. الشيء الذي أردته وتحقق قد متحته كله، وأغترفته،

وبدا لك فارغاً، فلا تطيق أن تستمر معه فتخطو إلى مأمل جديد. . وفي هذه «النقلة» أنت تغني. . أنت مبسوط. . إنك تخاطب من تحب بعبارات لا أروع منها، فإذا تحقق لك مبتغاك نسيت كلماتك!

ـ قلت: هل جربت؟!

قال: جاءتني عبارة ذات عام في مظروف أنيق، وعبق. . وقالت لي العبارة: أنا بنفاق الناس وكذبهم، ومجاملاتهم. . أريد إنساناً يصدقني. . يخاطبني نداً له. . يكشف لي أخطائي. . يحبني لشخصي. . لحلاوتي. . لتفكيري، وليس لإسمي أو لقيمتي الاجتماعية. . فهل تعطيني هذا الضائع مني؟!

ـ قلت: وماذا فعلت؟

ـ قال: كانت لحظة انبساط لا نهائية. . استجبت. . صدقت. . اندفعت. . أعطيت كل الصدق، وكل الصراحة، وكل الفرحة، وكل نفسي الحقيقية.

ـ قلت: وماذا حدث؟!

ـ قال: استنتج!. . تحولت إلى شيء كالوعاء الذي كان ممتلئاً، وعندما انتهى المتح والاغتراف منه. . قذف به إلى زاوية النسيان الأليمة!

ـ قلت: منطق الحياة!

ـ قال: أسميه استنتاج الأحياء. . فلا يمكن أن يعيش الواحد دون أن ينبسط، لكي ينبسط فعلى حساب غيره!

ـ قلت: ولماذا سمحت لنفسك أن تكون وعاء، وأن يغترف منك الآخرون؟!

ـ قال: عندما نحب نسقط الاستنتاج.. أي أننا نبادر بجعل السالب والموجب يتلاحمان.. والشحنة لها طاقة، والطاقة لها نهاية هي الاحتراق، والحب سالب وموجب، وشحنة وطاقة، واحتراق!

ـ قلت: وأنت مبسوط الآن.. لعمق حزنك؟!

ـ قال: لم يعد هذا سؤال!

ـ قلت: ماذا إذن ؟!

ـ قال: رؤية ـ واضحة.. ألا تراني أقف أمام المرآة، وأقهقه عالياً.. منتهى الانبساط .. منتهى الرؤية.. استنتاج يعطي الحزن!

ـ قلت: وإلى متى تبقى في وقفتك هذه؟!

ـ قال: حتى أستطيع أن أضرب هذه المرآة، وأكسرها، وأحطمها، فلا أرى، وأبحث من جديد!

ـ قلت: أتمنى لك وقفة قصيرة!

* * *

واحد صيفي . . جداً

ـ المكان: على شفة خط الاستواء الساخنة!

ـ الزمان: برج السرطان!

ـ الصوت: «مشعور» . . فيه فجوة سقطت منها كلمة، وضاعت.

ـ الإضاءة: ضياء القمر قبل بلوغ القمر وسط السماء.

ـ المناسبة: رشح عرق، وهروب إلى الطائف: (المصيف):

ـ قلت له: إلى أين. ثوبك ينحسر عن ساقيك، ورأسك بلا غطاء؟!

قال: إلى تلك الصخرة . . أناجي النسمات الرقيقة، وأجفف عرق جسدي، وأشعر أنني وحدي!

ـ قلت: ما بالك «تهرول» وكأنك قادم حقاً من خط الاستواء؟!

ـ قال: ألم يلفحك سَموم «تهامة» . . ألم تلتصق ثيابك بجسدك؟!

ـ قلت: أبداً . . لم يحصل أي شيء من هذا!

ـ قال: غريبة . . تكون عامل تكييف داخلي في جسدك؟!

ـ قلت: لست بارداً! أنت إنسان مخاطي تجف بسرعة!!

ـ قال: أنا لا أشبه الصمغ، أو بياض البَيْضُ. أنا عرق يتساقط على

أرض الشوارع، وعلى الأرصفة، إنسان، عملي في الشارع.. مصالحي في الشارع. منذ بكور الصباح أخرج من بيتي، وعلى كتفي منشفة صغيرة، وألف وأدور.. أبحث عن رزقي.. عن الريالات، والكسب الحلال، وعندما أعود إلى البيت ظهراً أعصر المنشفة، وأجففها على الحبل، أما أنت فتخرج من بيتك «المكيف»، وتخرج من المكتب البارد إلى بيتك المكيف، وفي السيارة «مكيف» أيضاً!.

ـ قلت: حتى هذا فيه تهويل، فالجو في جدة لم يصل إلى هذه الدرجة الحرارية القايظة في داخلك. إنني أخرج إلى الشارع، وأشعر بالحرارة حقاً، ولكن ليس بهذه الصورة!

ـ قال: لأ.. حرارة. أنا لا أحتمل. في كل صيف أحمل أمتعتي، وأصحب أهلي وأبنائي إلى الطائف، وأنبسط على مثل هذه الصخرة الحلوة التي تراها.

ـ قلت: وكيف تقضي الصيف هنا؟!

ـ قال: «أشم هوا».. آكل هوا.. إنت مالك؟!

ـ قلت: أقصد ماذا تفعل طيلة الصباح، وفي العصر، وفي الليل؟!

ـ قال: شوف يا أخ.. يا لِتِح.. يا فضولي!

ـ قلت: لأ.. بلاش لماضة!

ـ قال: يعني أنا اللمض بس؟ ما يهم.. شوف: في الصباح الباكر.. مع الفجر يعني: أركب سيارتي وأخرج إلى طريق الحوية.. إلى «الردف». إلى شهار.

ـ قلت: ابْرَدْ لك!!

ـ قال: أرْيَح. . بس لو الناس تفهم!

ـ قلت: وبعدين؟!

ـ قال: النسمة حنيّنة، ورقيقة، وتقول غزلاً لا أجمل منه في هذه اللحظات من الشروق. دنيا تانية. . حب. . صفاء. . أمل. تحس أن صدرك يتسع. . يتسع حتى يمتلئ بكل الحلوين. . بكل جمال الحياة، أقضي حوالي ساعة وأكثر، حتى أشعر بالشمس فأعود إلى البيت لأنام، وقبل انتصاف النهار بساعة أصحو وأخرج إلى السوق.

ـ قلت: وفي العصر؟!

ـ قال: العارف لا يعرّف ـ بتشديد الراء ـ طبعاً موعد مع البشكة، وجلوس على كرسي الشريط وأربعة أسود وعبي حجر، وطق حنك حتى يخيم الظلام.

ـ قلت: احك لي مثلاً من «طق الحنك» الذي يدور فوق كرسي الشريط!

ـ قال: ما أنت عارف؟!

ـ قلت: لا. . ما أعرف إلا النادر، والقليل، أود أن أستمع إليك!

ـ قال: مثلاً يا أخ. . يعني أمس كنا نتكلم عن «بيليه» وكيف لعب في المباراة الأخيرة على كأس العالم. . المباراة اللي أخذت فيها البرازيل الكأس، بيليه فلتة.

ـ قلت: لكن البعض الذي شاهد المباراة قال إن بيليه لم يلعب جيداً في هذه المباراة؟!

ـ قال: هيا بلا فلسفة. . دي «رجله» أكلت الكورة!

ـ قلت: هذا رأي البشكة طبعاً؟!

ـ قال: يعني لازم فيه شواذ علشان يكون فيه موضوع للاستمرار في الكلام.

ـ قلت: وإيه كمان؟

ـ قال: نتكلم يا أخ عن حلقات التلفزيون التمثيلية، أقصد المسلسلات، ونحن ننتظر من التلفزيون أن يقدم مسلسلات جديدة ومسلية، كمان نتساءل: فين البرامج التلفزيونية المحلية، فين الأفلام الطويلة الجميلة؟!

ـ قلت: وإيه كمان؟!

قال: نتكلم عن الصحافة، وحضراتكم اللي بتكتبوا، آه.. تعال يا أخ.. هو احنا على كيفكم، بالله قول لي: إيه في جرايدكم نستفيد منه؟!

ـ قلت: تتكلم عن أي جريدة؟!

ـ قال: ها؟!.. يا شيخ بلا مجاملة نحن نقرأ واحدة بس و(نجري الإحاطة) ببعض الجرائد!

ـ قلت: بدأنا المجاملات؟!

ـ قال: لا صحيح.. بس الصحافة يا أخ تنقصها حاجات!

ـ قلت: مثلاً؟!

ـ قال: إن بعض اللي بيكتبوا فيها ما يكتبوا!

ـ قلت: تود أن أتوقف أنا لإرضائك!

ـ قال: طيب أوقف يعني إيه.. المهم يكتب واحد أحسن منك.

ـ قلت: طيب.. وفي الليل كيف تقضي وقتك؟!

ـ قال: أضرب صحن فول، وبراد شاهي، وأجلس أتفرج على التلفزيون.. أحياناً تطلع في رأس البشكة تعمل «سليق»!

ـ قلت: طيب.. هذا كله برنامج عادي، إيه الجديد.. إيه اللي ممكن تستفيد منه في الصيف.. في إجازتك.. في الجو المنعش والحلو؟!

ـ قال: آه.. لو كنت أعرف أركّب ـ بتشديد الكاف ـ شعر!!

ـ قلت: تركِّب شعر؟!

ـ قال: أيوه.. يعني أشعر.. أقول كلام حلو!

ـ قلت: قصدك تصوغ شعر؟!

ـ قال: هو كده بالنحوي، أصل عندي كلام كثير بدي أقوله بالشعر!

ـ قلت: تقوله لمين؟!

ـ قال: أقوله للعيون الحلوة.. للشعر الحرير.. للقامة الممشوقة، الهيفاء.. للجمال المتحرك على الأرض..

ـ قلت: أهو إنت بتقول شعر؟!

ـ قال: روح يا شيخ أتلهي.. ليه أنا بالع صوتي، وإلا بالع ذوقي. يعني تبغى تخليني زي بعض «غرض حميد» اللي بيكتبوا أغاني، وشعر ليس له وزن، ولا موسيقى، ولا حتى إحساس. أنا صحيح مستوايا على قد حالي بس أفهم يا أخ.. أنا في صدري ناي يغني للجمال وللحب!!

ـ قلت: الله.. وكمان موسيقار!

ـ قال: بس ما هو على طريقة بعض الألحان الروبابيكيا اللي يعملها بعض المطربين، أو الملحنين بأسلوب «فرَّقنا» خمسة بريال!

ـ قلت: انت ليه لسانك طويل؟!

ـ قال: بالعكس لساني أصغر مقاس في المقاسات المتوفرة في داخل أفواه الناس. بس أنت زي الدبوس تشكني بكلمة وما تبغاني انِزْ!

ـ قلت: بلاش المواضيع دي.. قل لي: إيه أحلى وقت ممتع في الطائف؟!

ـ قال: كأنه يحلم: آه.. أدخل البساتين في الصباح المبكر.. أجلس على رمل أسمر لوحدك، وحاول إنك ما تتكلم ولا مع نفسك. وفي الليل اندس في الظلام.. في الصحراء، وفكّر.. التفكير لحظتها ممتع جداً!

ـ قلت: إنك خيالي وعاطفي!

ـ قال: لا أستطيع أن أبقى طول يومي أضع يدي في جيبي!

ـ قلت: أين تضعها في بعض ساعات يومك؟

ـ قال: أضعها على حياة جميلة.. أحس أنني شرايين تنبض، وقلب مسموع الخفق.

ـ قلت: وتتكلم كده ليه؟!

ـ قال: علشان أعلّم مثالك!

ـ قلت: رجعنا للتلبيخ؟!

ـ قال: يا أخ.. عواطفي ليست شيئاً حراماً، المهم أن لا تفعلها

وأنت تترصد الناس وتستحي منهم في نفس الوقت!

ـ قلت: ما هي هوايتك؟!

ـ قال: أرسم بالفحم!

ـ قلت: وليه الفحم بالذات؟!

ـ قال: لأن الفحم شيء قبيح في رأينا، ونستعمله في أغراضنا التي نحبها!

ـ قلت: هل تحاول أن تقرأ غير الجرائد؟!

ـ قال: قلت لك أنا لا أقرأ الجرائد. . أتصفحها بس، وعلشان أنت وغيرك اللي من أصحابي اقرأ لكم!

ـ قلت: لكن هذه استهانة بالآخرين!

ـ قال: يمكن استهانة بكم أنتم أيضاً!!

ـ قلت: أنت لاذع، ماذا تقرأ من الكتب؟!

ـ قال: أقرأ هذه الأيام كتاب «فلسطين جريمة. . ودفاع» من تأليف أرنولد توينبي. .

ـ قلت: هل أنت مثقف؟!

ـ قال: هأ. . هأ. . أنا قارىء، من فضلك حددوا معاني كلماتكم!

ـ قلت: ما هي مؤهلاتك العلمية؟!

ـ قال: درست في «كُتَّاب» ـ بتشديد التاء ـ الخوجه خديجة صيرفية وبعدين في المدرسة الرحمانية، وبعدين درست في لبنان، وبعدين درست في أمريكا، ومبسوط أني الآن تاجر في النهار. . أعقد صفقات تجارية

وفي الليل أقرأ، وأشرب شاي وتعميرة جراك، وأسمع كلام فاضي!

ـ قلت: خلاص «طفشتني» .. نفسك في إيه قبل ما انهي الحديث؟!

ـ قال: نفسي يخلص الحبر من قلمك، وتكتب هذا الحديث بقلم روج على طريقة «فرانسواز ساجان» قبل ما تتزوج.. علشان يسيح باعتباره مع واحد «صيفي» جداً؟!

* * *

واحد تراجيدي.. جداً

ـ المكان: يتبدد في الأزمنة.. لا جغرافية له. مكان من الصوت.. لا يحدد مساحة اللغط في الكلام!

ـ الزمان: إمكانية الإصغاء في زحام الشجن المتواصل للتعاطف الإنساني!

ـ الإضاءة: بمقدار المعرفة للزمان!

ـ الصوت: ضائع في الوقت!

ـ الحركة: بطيئة.. مجهولة في غياب المساحة الإنسانية:

ـ قلت له: سمعتك تهمس بكلمة ولكني لم أتلصص على شفتيك.. بل كان صوتك واضحاً.. لكن الكلمة منه كانت واهنة، وخيل إلي أنك كنت تكسر جغرافية مكانك، فهل كنت تقول كلاماً مفيداً؟!

ـ قال: وما الذي يهمك من ذلك؟!

ـ قلت: إنني أبحث فقط!

ـ قال: وما الذي تريد الوصول إليه؟!

ـ قلت: إلى الإنسان فيك.. إلى كل ما يكمن في صدرك ويحزنك، وفي عينيك ويندبها بالدمع!

ـ قال: ستنوء في العودة من أعماقي.. ألم تسمع أن هموم الإنسان في هذا العصر قد فاضت فأغرقت الكرة الأرضية.. فهل تبحث لتضيع في حقائق الإنسان؟

ـ قلت: إنني أبحث لأجد.. لا لأضيع!

ـ قال: إعلم ـ إذن ـ أنني عبارة زماني!

ـ قلت: عرفني بزمانك كما تحسه وتفهمه.. فالأرض ليست قاعدة الخوف!

ـ قال: وما هي قاعدة الخوف إذن؟!

ـ قلت: الشعور بالضياع فوق الأرض!

ـ قال: أليس من حق إنسان معاصر لهذا الزمان أن يفزع من شبح الحروب، ومن تهديد الفقر، ومن تسلط سفهاء التاريخ الذين يسرقون أراضي الغير ويصادرون ثرواتهم وحرياتهم.. أليس هو الخوف؟!

ـ قلت: ولماذا تعتبره الخوف، ولا تسميه التحدي؟!

ـ قال: إن مصنع الحضارة لم يكن ينتج الرفاهية للإنسانية.. بقدر ما يضاعف إنتاج السلاح لقتلها، ولتدمير حضارتها، فأين هو التحدي؟!

ـ قلت: السلاح ليس كل شيء والقتل ليس نهاية الأشياء، ولكن المطلوب أن يؤمن الإنسان، ويزداد التصاقاً بمعتقداته ليجد القدرة والإرادة، فالإيمان عظيم إذا شاع في النفس!

ـ قال: أعرف ذلك.. لكن القوة العاقلة مفقودة، أو لعلّها أصبحت فرس الرهان!

ـ قلت: وفي هذا الصراع.. من أنت باختصار؟!

ـ قال: أنا «هَمٌّ» يغني، وجرح يحيا في النزيف، أنا حيرة مندهشة بكل مخاضات الإنسان ومفاجآت الحياة، أنا ضحكة عائدة قبل انطلاقها!

ـ قلت: هل هذا أسى . . أم حزن؟!

ـ قال: وما الفرق؟!

ـ قلت: فرق البدء، والمعاناة!

ـ قال: لكني لا أحمل أصواتاً في داخلي!!

ـ قلت: ماذا تحمل إذن؟!

ـ قال: الأصوات هي التي تحملني . . فأنا محمول ومشتت!

ـ قلت: وأنت في هذا . . قضية أم حالة؟!

ـ قال: لم يعد الإنسان قضية . . بكل أسف، وإنما المصالح والأطماع، والقوة . . هي القضية!

ـ قلت: ولكن الإنسان أيضاً أكبر من أن يكون حالة . . فلا بد أن نرتفع بفكرنا لفلسفة واقع الإنسان، ومعاناته، وطموحاته وحتى سقطاته!

ـ قال: دعك من سقوط الفكر أو ارتفاعه . . إنما الذي أشيعه في نفسي هو «الشعور»!

ـ قلت: دعك أنت من محاولة الإجابة على أسئلة مفقودة . . لكنني أسالك في إطار تعريف الإنسان!

ـ قال: أنت لا تسأل . . فأسئلة الناس اليوم لقطة فلاش في آلة تصوير خالية من الفيلم!

ـ قلت: إنني أسألك . . أوافقك على ذلك، ولكنني أجرحك لتنطق!

ـ قال: تقصد أنك تجرح جروحي.. إفعل ذلك، فما الذي بعد الجرح من ألم؟!

ـ قلت: أريد أن أعرفك.. هل تحمل بطاقة هذا العصر، أم أنك هارب من عصرك؟!

ـ قال: لست أستطيع أن أهرب من عصري، فأنا أنتمي إلى نهاية القرن العشرين.. فتأمل ذلك، وأنت تعرفني بكلمات القشور التي يتعامل بها الناس عاطفياً، وأنت تنكرني بكلماتي التي منحتها لك من صدري!

ـ قلت: لكني لم أفهم!

ـ قال: ليس ذنبي، وربما ليست مشكلتك، ولكن المحور هو رغبتك في تسميتي، أو تعريف حزني، ولا بد أنك تعلم أنه من أجل البحث عند الإنسان تضيع منه مفاهيم كثيرة، وتتعامى عليه مرئيات، ولا تصلح الفلسفة، أولاً يصلح التفلسف في أشياء عميقة مرتبطة بالشعور، أو بالخوف من المستقبل!

ـ قلت: ولم أنت حزين، وفي استطاعتك أن تبرر ما تشعر به، أو على الأقل ليس حزنك ذاتياً، وإنما هو حزن من طبيعة العصر، أو بأسباب ما يتربص بحضارة الإنسان كما تقول، وهو وجع إنساني يغمر العالم؟!

ـ قال: ها أنت فهمت شيئاً.. على الأقل بت في رأيك ونظرك إنساناً أتعامل بالمبررات، ثم إنني عضو في جسد العالم وأنت عضو، والآخر عضو، فإذا تألم عضو منا تشكى العالم كله، أو الإنسان في كل مكان، وينطبق هذا على العضو عندما يتألم العالم فيشعر هو بالألم!

ـ قلت: أنت خيالي في هذا الشعور . . وإلا فهل تعتقد أن العالم كله يتألم من ألم تعذيب معتقل في سجون إسرائيل مثلاً . . ألا ترى كيف يستعدون الآن لمهرجانات الفرح في الإيحاء بالسلام؟!

ـ قال: العالم كله ليس نقطة ما . . بل هو كل مكان يلتفت فيه الناس للدفاع عن المظلومين! أما السلام فليس هو توقيع زعامات!!

ـ قلت: هذه نظرة جديدة، فلماذا ـ إذن ـ تفتعل الأسى وأنت تعلم أن الظلم قصير وأن الحق لا بد أن يلوح؟!

ـ قال: صعب أن نفتعل الأسى . . إن أسانا حقيقي . . لكننا لا بد أن نكون أقوى من هزائمه!

ـ قلت: ربما أنت تريد أن تحتفظ بشجنك، والشجن يوقد جذوة التفكير، ويوقظ الشعور!

ـ قال: إن الإنسان في حزنه يتحمل الوزر وحده!

ـ قلت: والذين تحبهم . . كيف تعاملهم؟!

ـ قال: أردد ما حفظت «تعيش الذكرى في قلبي، وأبقى دائماً مرتحلاً»!

ـ قلت: الوقوف . . لا أكثر من «رقعة» في الخطوات! . . فما هو تعبك؟!

ـ قال: ومتى يتعب الناس؟!

ـ قلت: عندما تطول المسافة.

ـ قال: يتعبون عند اليأس!

ـ قلت: وأنت ألم تشعر بالتعب؟!

ـ قال: الأسى.. ليس التعب!

ـ قلت: ما هو إذن؟!

ـ قال: هو تلك «الرقعة» في الخطوات.. أو هو العبور الاضطراري.. أعبر الحقد، والنكران، والفاقة النفسية!

ـ قلت: وكم قطعت؟!

ـ قال: إني لا التفت خلفي.

ـ قلت: وما مقدار رؤيتك في الأمام؟!

ـ قال: كل الأشواق.. عمق الحنين.. تقدير فعل الخوف لأتجاوزه!

ـ قلت: وتشعر بالحزن بكل هذا الذي قلت؟!

ـ قال: الحزن كله.. أن اكتشف في النهاية أن عبوري كان كما عجلة العربة التي تورطت في طريق رملي!

ـ قلت: عندئذ لن يكون الأسى نتيجة.. بقدر ما سيكون امتهاناً إنسانياً أليماً! فهل تعني أن يكون ذلك هو منتهى الأسى؟!

ـ قال: لا بل هو أسى المنتهى!

ـ قلت: حدثني عن ذاتك كإنسان أيضاً.. ألا تفكر في حب جديد؟!

ـ قال: لا أثق في البناء على الأنقاض.. فالحب مرة واحدة تطول وتشع وتتمدد حتى الموت!

ـ قلت: لكن غيرك فعلها، ونسي الأنقاض كلها؟!

ـ قال: ذلك الغير لم يحب، وإنما حاول التفاعل بملهاة كوميدية!

ـ قلت: ولكنه يشعر بالسعادة؟!

ـ قال: السعادة ليست هي انعكاس المرآة أو صدى الصوت!

ـ قلت: ما هي إذن؟!

ـ قال: عافية الروح، وعافية الضمير، وعافية المنطق! والكلمة من صدر الموجوع؟!

ـ قال: ربما كانت لا أكثر من زفرة، وقد تصبح زاوية فقدت الإضاءة!

ـ قلت: ومن أحببت؟!

ـ قال: «مولاي وروحي في يده. . قد ضيعها سلمت يده»!!

ـ قلت: مقتول أنت إذن في العشق؟!

ـ قال: الشراع لي. . والقارب ملك غيري!

ـ قلت: والبحر. . من الذي يملكه؟!

ـ قال: إنه من أملاك الملل!

ـ قلت: قصائدك. . هل غرقت كلها؟!

ـ قال: إنها ما زالت تطفو هناك بالقرب من الشط الآخر. . إنها كالظل. . كالحلم!

ـ قلت: ونغمك الشجي الذي يرتفع بك من وهدة الأسى والحزن؟!

ـ قال: نغم يتابع رحلته خلف كل الأشرعة التي ضاعت في زوابع البحر!

ـ قلت: وما هي فلسفتك؟!

ـ قال: لا تخرج فجأة من مكان شديد الظلمة لتقف تحت قرص الشمس، ولا تدخل إلى مكان مظلم من مكان كثيف الإضاءة.

ـ قلت: وما هو الذي ترى به؟!

ـ قال: بمقدار ما عرفت!

ـ قلت: ما هو عنوانك الأخير؟!

ـ قال: نهاية القرن العشرين!!

* * *

عصر: الكلمة/ العار

إهـــــــــــداء

إلى «الوطن»:

الحافل بأمجاد التاريخ المستنير بهدي الإسلام..

المشرق في كل «فاصلة» بين الأمس، والغد بشمس بناء الإنسان، وتطور إنجازاته.

مـدخـــل

ـ إن هذا «الوطن» الملتزم بمصداقيته، وعهوده، ووشائجه.. وبكل أخلاقياته التي عُرفت عنه من خلال التعامل معه.. ينفُر من أسلوب المنِّ والأذى، ويترفَّع حتى عن التذكير بالدوافع التي جعلته يؤكد واجب الأخُوَّة، والدم، والدين، والجوار!

لقد قدَّم هذا الوطن ما يفوق الحصر، وبادر إلى نجدة الكثير، واقتطع من ميزانية تنميته، في مواقف الأزمات الاقتصادية، وأصر على الوفاء بالتزاماته، وعهوده!

وكان جزاؤه من الناكرين، والجاحدين: تأليب شارعهم بأعمال غوغائية، تستند على إثارة (العواطف) ضد: شقيق، ومنجد، ومساعد!

ونتساءل هنا في وطن المحبة، والسلام، والنخوة والمساعدة:

ـ لماذا ينبعث كل هذا الحقد من هؤلاء الذين يغالطون.. وهم يعلمون أن «المملكة» لم تسمح بتواجد قوات أجنبية على أرضها للدفاع، حين اندلاع الفتنة الصدَّامية، وتحسباً من غدر مماثل لما حدث في الكويت.. إلا بعد أن بدأ **(صديقهم)** الذي يُمنِّيهم بالدخول إلى فلسطين، في اجتياح «الكويت» الجار، والشقيق.. وبعد أن أرسل تهديده إلى المملكة.. فكان بفعلته هذه يقصد: أن دخوله إلى الأرض الفلسطينية

المحتلة، سيتم عبر اجتياح الأقطار العربية، وفوق جثث عربية (!!)

وقد لوّح لهم بكسب (عواطف) الشعب العربي.. عبر العزف على نغمة: الثورة، والتقدم، والوحدة.. التي تمثل شعارات جوفاء غير قادرة على التطبيق، وعلى الخروج بالشعب العربي من سيل الأكاذيب، والخداع لهم!!

إن هذه الأقطار المناوئة **(الشقيقة!)** قد اختارت الانحياز إلى الجانب الغادر، والكاذب، والمخادع.

وفي هذا الاختيار.. صاروا يمارسون: التباغض، والتنازع، والشقاق، وتمزيق ثياب بعضهم البعض داخل أقطارهم، وفي خلافاتهم، وداخل «برلماناتهم» المزعومة، باسم: الديمقراطية، والتنظيم السياسي الشعبي، والتجمع الوطني.. وهم يعايشون محرّضات الشتات، ويخربون بيوتهم بايديهم، ويزعزعون أمنهم القومي الإقليمي، والعربي!

إنهم يتحدثون عن: العدالة الاجتماعية، ويعاملون شعوبهم بالبطش!

ويتحدثون عن: «**فُرَص الحوار**» ويحكمون شعوبهم بالديكتاتورية، والعسكريتاريا.. ويحرمونهم من المشاركة في اتخاذ القرار!

إنهم يغالون في التنظير الفكري، والثقافي.. ويساومون على الصيغ الليبرالية.. ويتحدثون عن فوائد التنظيم السياسي الواحد!!!

عصر الإنهيارات

ـ . . . ومنهم من يستطيع أن يرى نهر المجرَّة، ولكنه لا يستطيع أن يرى نهر بيروت!

ومنهم من نرضى عاطفته الوطنية. . ولكن لا نأمن حكم عقله!

ومنهم من يجمع حوله أكبر عدد من الحمير. . ليتحملوا عنه أعباء الوجاهة!

ـ رشدي المعلوف ـ

ـ إستوقفتني مشاعر هذا «الإنسان» الصديق. . حين هرعت إلى «حصافته»، متأثراً بواقع الحال الذي يغمر الناس. . بأفكارهم، وبتوقعاتهم، وبالصدمات التي تفاجئ الكثير من أحلامهم، وأمانيهم.

وفي البدء. . راودتني أصداء عبارة قديمة، حفظتها، وصرت أرددها:

ـ «لا يمكن للمرء أن يحصل على المعرفة. . إلاّ بعد أن يتعلم: كيف يفكر»؟!

فهل ما زال «التفكير» هو نقطة ارتكاز للفعل، وللتصرف، وللقرار؟!!

أم أن الناس قد قفزوا فوق إيجابية «التفكير» ليسلكوا دروب الانفعال، والجنون؟!

طرحت هذا السؤال ـ في البدء ـ على صديقي الحصيف.. حين كنا نتحاور عن كثافة الحزن العربي.. فابتسم موجعاً، وقال لي:

ـ في مقابل عبارتك التي أوردتها من محفوظاتك..أتذكّر معك عبارة أخرى، كان اللبناني، العربي، عاشق اللغة (رشدي المعلوف) قد كتبها، ليصوّر بها ما يمكن أن تنطبق عليه مقولة: «التاريخ يعيد نفسه».. فقال:

ـ (.. ومنهم من يستطيع أن يرى نهر المجرّة، ولكنه لا يستطيع أن يرى نهر بيروت!

ومنهم من نرضى: حكم عقله، ولكننا لا نأمن عاطفته!

ومنهم من نرضى: عاطفته الوطنية، ولكنْ لا نأمن حكم عقله!

ومنهم من يجمع حوله أكبر عدد من الحمير، ليتحملوا عنه أعباء الوجاهة)!!

وهذه العبارة.. ذكّرتني ـ أيضاً ـ بصورة شعرية، قالها «المعلوف».. ولكني غير متأكد: إن كان قائلها هو «رشدي» أو معلوف آخر.. قال فيها:

ـ «ضنَّت عليه بالدموع عيونه.. فبكى جبينه»!!

ويبدو.. أن هذه الصورة تجسد الواقع العربي اليوم!

ـ قال صديقي الحصيف: وهكذا نجد أننا نقف اليوم ـ كجيل بكامله ـ في عصر خطير، إذا جاز لي أن أسميه: عصر الإنهيارات!!

وعصر الإِنهيارات هذا.. يشير إلى الدلائل التي تُدينه، وتصفه، وتجعله مغايراً تماماً لطبيعة الحياة القائمة على: المُثل، والقيم، والأخلاق، والسلوك الرجولي، وصفات الفروسية.. تلك التي اكتسبناها من أجيال تتباعد.. من أجدادنا، وآبائنا!!

ولا شك أن أهداف العرض والطلب في حياة البشر، قد تبدلت.. وها نحن ندخل بهذا العصر إلى حياة أخرى، وإلى أفكار مختلفة.. يبدو أنها تنسجم مع طبيعة هذا العصر، ووسائله، وركضه، وأطماعه.. وإلى تعامل وسلوك، قد ننفر منهما في اللحظة الأولى، وفي محاولة التقبّل لهما.. لكنهما يُشكلان: منطق، وسمات ومصالح هذا العصر!

إن ما بَنتْه الأجيال السابقة.. يتعرض في هذا العصر، لهذه «الإِنهيارات»!

أو أن هذا العصر ـ بظروفه، وبسرعته، وبتناولاته ـ يعمل على انهيار القيم القديمة، والأفكار الراسخة، والتعامل الرجولي، وصفات الفروسية، وطبيعة الحياة التي تواصلت بنا من الأجيال السابقة!

ـ قلت: هل تمنحني بعض الأمثلة؟!

ـ قال: الأمثلة التي تفتش عنها.. لن تتعب في العثور عليها، ولكن.. تلفَّت حولك:

ـ العدو الذي يلبس أقنعة الصداقة، ويوهمك أنه يعمل من أجلك.

ـ المعايير التي تحكم علاقات الناس فيما بينهم، عبر المصالح، والذاتية، والأطماع، والغرور، الحقد، والأخذ!

ـ المتغيرات في بنية المجتمعات.. وقد حدثت بأسباب عديدة، من أهمها:

ـ الحروب، والخوف منها.. طفرة المال، أو مساقط العوز والفقر.. إنهاك الاستعمار والحروب الصغيرة للدول النامية.. الغربة داخل النفس.. الأماني المجلودة بالفجيعة، والحزن!

ـ قلت لصديقي الحصيف: ولكن.. ألا يتميز هذا العصر بسمات تفاؤلية؟!!

ـ قال: بلا شك.. نتفاءل بثبات العقيدة والإيمان بها اطمئناناً للنفس.

وهناك الصراع الحاد بين الضمير، والخيانة.. وبين الحق، والباطل.. وبين الروح، والماديات.. وبين الوفاء، والخذلان!

هذه الصراعات.. تؤكد على: أن الإنسان ـ برغم تعرضه الدائم لموجات الإنهيارات ـ إلا أنه ما زال يصمد في وجه التحديات، والانهيارات.. وما زال يصارع أسباب الإنهيارات، ويتصدى للمنهارين، أو «الإنهياريين».. ليحافظ على القيم، والمثل، والمحبة، والأمل!

ـ قلت: إن عصر «الإنهيارات» هذا.. هو العصر الذي يمكن إعتباره مصاباً بمرض فقد المناعة، وضعف مقاومته أمام الكثير من الأوبئة، والجراثيم، والمقتحمات!

إنه عصر.. لم يعد يقدر على امتلاك «مناعة» من داخله.. يقاوم بها ما يقتحمه، وما يطرأ عليه، وما يخلخله من الداخل.. من عمق قِيَمه، مبادئه، وفكره، وروحه، وإيمانه بكثير من الثوابت، والمنطق، والحق!!

إنه عصر.. يكتوي فيه إنسانه باختلاط الأشياء، وتعتيم الحقيقة، وسرقة الحق، وتوظيف المنطق للجدل وللأكاذيب، ولقلب الصور.. وتقديمها: معكوسة!!

ولذلك.. يفيض الحزن، وتضيق الضلوع، وتصاب القلوب بالسكتة، أو بالذبحة.. وتتعرض العقول لصدمات، تكون مدخلاً إلى فقد المناعة!!

* * *

ـ واصل صديقي الحصيف حديثه معي عن: طبيعة إنسان هذا العصر.. وهو يشير إلى بعض (المعترضات) التي تأتي في صميم سلوكيات ودوافع هذا العصر!

كان يتحدث عن توريط الحياة ـ بالتصرف، والتعامل ـ في التشنجات.. وقال:

ـ لا بد أن تعترض الناس في حياتهم مشكلات.. لكنّ الناس ـ خضوعاً لمؤثرات العصر، ودواعيه، وهمومه ـ يفقدون التفكير المتّزن، ويشطّون بعيداً عن الحكمة، ويسقطون في التوتر، والانفعال.

ومثل هذه المواقف تخضع لقدرة الإِنسان على المعالجة، والاحتمال.. كما تخضع أيضاً لشجاعة الإِنسان!

إن هذا العصر المتوتر.. يجعل البعض من البشر يفقد شجاعته، أو يدّعي الشجاعة في تصرف انفعالي ومتوتر.. وبالتالي: يفقد قدرته على التحكم في الظرف، وفي الرؤية الشاملة للموقف، وعلى حسن التصرف!

ويندرج ذلك أيضاً على الشعوب، وأنظمة الحكم.. فالفرد جزء من المجموع، ولكن هناك من الشعوب مَنْ عانت أخطر المشكلات، وتغلبت على ضعفها!!

ولعلّنا نتناسى أحياناً: أنه لكل شيء ثمنه!!

* * *

ـ سأل أحد جلساء صديقي الحصيف:

ـ ما رأيك في الصديق الذي كان يهش في وجوهنا، وهو موظف

صغير.. فلما قفز به الحظ إلى مدارج الوظائف الأكبر، وأصبح من «أصحاب السعادة» وصار سكرتيره أيضاً من المتشوقين لهذا اللقب.. إذا به ينكرنا؟!!

ـ سأله صديقي الحصيف مبتسماً: وماذا فعل بك؟!

ـ أجاب: أشعرني بالمهانة حين طلبته بالهاتف عدة مرات، وفي كل مرة يرد سكرتيره بهذه العبارة: إنه مشغول، لا يستطيع محادثتك!!

ـ قال له الحصيف: لعلّك أردت الثرثرة معه.. لا غير!!

ـ قال: بل أخبرت سكرتيره باحتياجي له.. ولو أردت الثرثرة ما كنت ألحّ في طلبه عدة مرات؟!

ـ قال الحصيف: لا عليك.. نحن في زمن يُطلب منا أن لا نعاتب أحداً.. فإن عاتبت: سخر الآخرون منك، ولا تغضب من أحد.. فإن غَضِبْنَا: تأذّينا نحن، والآخرون لا يهتمون!!

نحن في عصر (الأنا) بكل أسف!!

ـ قلت لصديقي الحصيف: يتراءى لي.. أن هذا الإنسان الشامخ، والمتطاول أحياناً، والمغرور بكل ما في رأسه من ادعاء الوعي، وبكل ما في عقله من ادعاء المعرفة، وبكل ما في صدره من تموّهات الخوف، وبكل ما في قلبه من عاطفة ـ خير أو كراهية ـ وبكل ما ينبض به من حب يخبِّئه لئلا تكون (تهمته) هي الحب فقط..

هذا الإنسان، يحتاج ـ بأبسط النتائج ـ إلى ساعات ضرورية، يضع فيها رأسه على أية وسادة، وينام مستغرقاً، شبه ميت.. فهذه هي راحته الوحيدة في عصر الانهيارات!!

المغامر . . بالوطن!

ـ يالَّذي أهديته الماء . .

وأهداني الصحارى!

يالذي أهديته الأفق . .

وأهداني الحصارا!

يالذي أهديته نصراً . . من الله . .

وأهداني: أحتلالاً، وإنكساراً.

ـ سعاد الصباح ـ

ـ في فجائع الأحداث التي اقتحمت «أمان» الإِنسان العربي، ونشرت الخوف في «ثقته»، وحتى في وشائجه . . ضربت الحقيقة في مشوار الغربة الطويل . . . فإذا هذه الحقيقة تبدو: بعيدة عن المنطق . . مناوئة للتوقعات العقلانية!

كأنّ (الحقيقة) في زماننا اليوم . . قد افتُرست، وانتُهكت أبعادها.

وها هو «العالم العربي» يشهد أقسى تصدُّع لم يعهده تاريخه الحافل . . وذلك بفعل «فرد» واحد ينتمي إلى العرب، ويحلم بفرد جناحيه

على كل العرب.. متصوراً أنه يقوم بدور «الصقر» بينما كانت فعلته من خصوصيات «الخفاش» وحده!!

وها هم «العرب» ـ في الذهول، والتهديد لأمانهم ـ يبحثون عن حلول ألغاز.. لا تبدو أنها عويصة، بقدر ما هي تنذر بالخرائب، والفجيعة!

وبأسلوب: صدّق، أو لاتُصدّق.. بادر نظام «ثوري»، «تقدمي»، «وطني عربي»، «قومي» ـ حسب ادعاءاته المتواصلة منذ سنوات ـ فارتكب باسم كل هذه الشعارات، أو العناوين، أو المظاهرات: جريمة مارسها في بدء الخليقة «قابيل» ضد «هابيل». فكانت الفجيعة:

ـ قام نظام الحكم في العراق الشقيق «بغزو»، «واحتلال»، و«ضم» قُطْر عربي مجاور له، هو «الكويت»، وقد سحق بمجنزرات دباباته: إستقلاله، وأمنْه، وحقوقه، وقيمة «المواطن/الإنسان» فيه.. الذي يصير من حقه وحده أن يغيّر نظام حكمه، بإرادته، وأن يعلن وحدته مع مَنْ يختاره الشعب.. لا أن تفرض عليه «الوحدة» كمسمى فقط بالاحتلال العسكري!!

ـ والسؤال الذي يبلور هذا اللغز:

ـ أين وقعت هذه الأحداث، وفي أي عصر؟!

ـ ومن ارتكب هذه البشاعة، وضدَّ مَنْ؟!

ـ هل كانت هذه الأحداث في زمن «هولاكو»، و«التتار» ؟!

ـ هل حدثت في أدغال الغابات بين الوحوش؟!

ـ هل قام بجرائم الاجتياح مِنْ: نهب، وسلب، وقتل، وهتك عرض: جنود العصابة الإِسرائيلية؟!

لقد وقعت هذه الأحداث في نهاية القرن العشرين، وفي عصر العلم، والاكتشافات، وتثبيت الحقوق العادلة للشعوب التي تتوق للأمان، وبناء تنميتها الاقتصادية، وإنسانها!

وارتكب هذه البشاعة: «فرد».. كان العرب قد منحوه إعجابهم بتصدّيه لعدوان خارجي على بلده العربي الشقيق، وأغدقت عليه أقطار الخليج العربي ـ بالذات ـ ما يمكن أن يوصف بأنه: اقتسام اللقمة بينه وبينهم.. فصرفت على حربه المجنونة، وعوّضت خسائره عن الكثير من تهوّره.. فجحد، ونسي، وتنكّر، لمساعدته طوال سنوات الحرب، وما بعدها من سنوات البناء.

وأسفر وجهه العدائي عن حقد يفوق ما فعله «هولاكو» والتتار.. وصبّ هذا الحقد بشراسة تفوَّقت على نهش الوحوش الجائعة!

وبدلاً من أن يوجّه دباباته، وصواريخه، وعسكره، وأحقاده، نحو عدو العرب اللدود والمتربص/إسرائيل.. فقد وجّه غدره كله نحو شقيق، وأخ، وجار له، يشاركه، حلم الوحدة العربية، والانتصارات العربية، والأمن العربي!!

فمن الذي سيحل لغز هذا «الحقد الثوري»، على ذوي القربى، والدم الواحد؟!

ومن «ستيخيّل» حدوث مثل هذه الفاجعة، وهو العربي في انتمائه، دون أن يخجل، ويستحي من دمه الذي يجري في عروقه؟!

حقاً.. صارت الدموع العربية، في حاجة إلى دموع إنسانية تبكي عليها!

لقد فقدت دموع العرب ذلك الدفء.. فأصبحت باردة، هانت على عيون أصحابها!!

* * *

ـ ولماذا نكتب اليوم هذه الكلمات المتألمة، العاجزة، التي تعاني من شلل الإِحساس، ومن التجلط بأفعال الذين بلغت الوقاحة لديهم: امتلاك القدرة على تبرير خيانة (الحلم) العربي، وطعن الأماني العربية؟!!

حتى «الحلم» العربي.. تعرّض لخيانة فاجعة!

وليس أدلّ على الخيانة من هذا التبرير، أو «التنظير الثوري» الذي صار ينادي به اليوم هؤلاء الذين ناوأوا (القرار العربي الجماعي) وذلك بالقفز فوق صهوته، في محاولة لتوظيفه لأفكارهم، ولشعاراتهم الخارجة على الإِجماع العربي!

لقد تحدث هؤلاء الذين ادّعوا «الثورية» و «التقدمية» وسيّروا المظاهرات في زمن ضيق لمناصرة العدوان، وللوقوف مع انتهاك الأعراض والسلب لثروات الكويت.. وصرخوا بصوت المغالطة واعتساف المنطق:

ـ إن الشعب العربي واحد.. وإن حلم العرب ينطلق نحو أن يكونوا جميعهم في دولة واحدة!!

وهذا «الحلم».. لم ترفضه الشعوب العربية، ولا الخليجية بالتحديد.. ولم تكن ضده في يوم ما، بل نادت به، وسعت إلى تحقيقه!!

ـ لكننا نسأل هؤلاء المناوئين:

ـ هل يمكن أن يكونوا مع خطوة العراق بضم الكويت بالقوة، وبإلغاء قرار شعب الكويت، وخياراته؟!!

أين الخيار، والاستفتاء، ورغبة الشعب في تأكيد حرية رأيه، وقراره؟!

وها هو الشعب الكويتي: مجروحاً، ونازفاً، ورافضاً لخدعة مكشوفة وتافهة!

لقد بادر نظام الحكم في العراق إلى العدوان على دولة ذات سيادة هي «الكويت» واحتل الوطن المستقل، واعتسف إرادة، وخيار، وقرار شعبه.. بل إنه أطلق عنف جنوده يعيثون في أرض الكويت: قتلاً لكل من يقاوم، أو يرفض، أو يطالب بسيادة بلده.. وانتهاكاً للأعراض، وسلباً للأموال!

فكانت (الوحدة): ضماً تعسفياً بالقوة.. فهل هذا الفعل يُعبِّر عن روح، وأهداف، وحلم (الوحدة العربية).. أم أنه فعل قساة، متجبّرين، محتلّين؟!!

هل إقامة (وحدة) بين قُطْرين عربيين، متجاورين.. تتم بالاغتصاب، وعن طريق الإِرغام، والإِذعان للقوة، وللبطش؟!

الكثير من مواطني هذه المنظومة العربية.. يعتقد أن ما حدث هو «حلم مزعج»، وكابوس ثقيل!

لقد تكشَّفت الآن للشعب العربي: خلفيات تلك الشعارات التي اتضح أنها لم تكن أكثر من متاجرة بأماني الشعب العربي، وطعناً لأحلامه في الوحدة!

إن (الوحدة) لا تقوم على العسف، والبطش والإِرغام، والغوغائية!!

* * *

وفي غمرة (فرحة) العرب بتصريحات الرئيس العراقي عن استعداداته العسكرية (المميزة!)، وقدراته الدفاعية (المتفوقة!).. بهدف تصويبها نحو العدو الأساسي المشترك لكل العرب، ولكل المسلمين.. يبادر هذا الرئيس (فيصدمنا) بإبراز وتجسيد (الانفصام) الملحوظ في تكوينه القيادي!

وكان من الأشرف لتاريخ قيادته لبلده العربي الكبير بحضارته، والعظيم بانتمائه العربي: أن يؤلب سواد الشعب العربي على عدوّه الجاثم فوق أرض عربية، وأن يكرس استعداداته العسكرية ضد هذا المحتل الغاصب لأرض فلسطين.. بدلاً من أن يصبَّ عدوانه، وأحقاده على قُطْر عربي، ويُهدد قطراً عربياً آخر!

والمغالطة المكشوفة: أن تأليبه للشعب العربي ضد المملكة العربية السعودية، لأنها استعانت بقوى عسكرية خارجية، بعد حشد صواريخه وجيوشه على الحدود السعودية!

فمن الذي دفع المملكة العربية السعودية للاستعانة بالقوى الخارجية؟!

أسباب عديدة.. تأتي في مقدمتها:

ـ إفتقاد «صدَّام» لمصداقيته مع إخوته العرب في الحوار، والمباحثات.

ـ خيانته للعهد الذي أخذه على نفسه أمامهم بعدم العدوان!

ـ تكشُّف أطماعه في الإِستحواذ على منابع النفط في الكويت، بل وفي كل الخليج العربي.

ـ استعلاءه على أشقائه العرب.. لأنه يرى نفسه الزعيم الأوحد، والأقوى الذي ينبغي أن تخضع لأوامره، ومطامعه كل الرؤوس العربية!

إن الرئيس العراقي.. لم يغامر بأمن وأمان شعبه العراقي فحسب.. بل قاد العالم العربي إلى تغييرات خطيرة.. تمنح الفرص السهلة لكل الطامعين في ثرواتها، واستراتيجيتها، وإنسانها.. وهو السبب المباشر ـ بأطماعه ـ إلى إدخال القوات الأجنبية، وإلى إعادة النظر في كثير من التعامل، والرؤية السياسية المستقبلية للمنطقة.. وهي رؤية تحمل الكثير من نذر غير حميدة، يكون هو بتهوره: الدافع، والمتسبب في فرضها!!

إن قفزه فوق المواثيق، وإهداره للمبادئ الإنسانية، وإصراره على القيام بدور الدكتاتور المتسلط، الذي يفرض على الجميع الامتثال لرغباته.. يعكس أبعاد مغامرته الخطيرة بأمن وأمان الشعب العربي كله!!

* * *

لقد سقطت «الأمة العربية» ـ بهذه الفتنة ـ في: الخجل من التاريخ العربي، وفي الشعور بإحباط الشعب العربي قاطبة من الأنظمة التي باعت عليه لعدة سنوات: شعارات مزركشة، وملوّنة.. ولكنها لم تقدر أن تشتري له بتلك الشعارات: الحرية، أو التنمية، أو الديمقراطية!!

زعيم الفتنة!

ـ إن الأزمان تكشف عن تلك الوجوه التي كانت تتستر خلف شعارات وعناوين من الأخوَّة، والتضامن، والكلمة الواحدة. . وتتعرى ـ عند الملمات ـ طباع الثعلب والذئاب التي كانت تلبس لباس الطهر والشرف، والأمانة!

ـ مجلس التعاون الخليجي ـ

ـ أراد الرئيس العراقي «صدام حسين» أن يوظِّف أضواء، وأصداء، ونتائج مؤتمر القمة الأخير في بغداد ـ تحت رئاسته ـ لأغراض عديدة. . من أهمها:

ـ **أولاً**: أن يَفْتن الرأي العام العربي، أو الشارع العربي، أو سواد المجتمع العربي، بما حرص على الإِجادة فيه من «إستعراض» يُظهره كزعيم عربي لا يُضاهى، وكنجم أوحد في سماء السياسة العربية. . وذلك بغرض جذب الشارع العربي إلى «القناعة» به كقائد محنَّك، حكيم، من خلال ذلك الاستعراض الذي أعده ـ إعلامياً ـ بإتقان!

ـ **ثانياً**: لم يكن «صدام» في محاولة «تربُّعه» على رأس تلك القمة العربية في عاصمة الرشيد، إلاّ مصاباً بأحلام السيطرة على مقدرات العالم العربي، ومفتوناً بنفسه كأنه «هارون الرشيد»!

ـ **ثالثاً**: لقد أوهم بعض أشقائه وإخوته العرب.. أنه ـ وحده ـ الذي تتوفر فيه خصال، ومقومات الزعامة.. وأنه الذي ينبغي أن يتصدر قيادة الرأي العام العربي، في إطار الورقة التي لعب بها حتى آخر لحظة، في ذلك «الاستعراض» الذي أدّاه ببراعة أمام الجماهير العربية، عبر أجهزة تلفازاتهم!

ـ **رابعاً**: كانت تلك الورقة التي لعب لها، تقف على عدة أثافي، وهي:

ـ إدِّعاء المناداة بالوحدة العربية: بينما التاريخ العربي المعاصر قد سجّل في تاريخ صدام، رداءة سنوات حكم الحديد والنار، التي قتل فيها حرية المواطن العراقي، ووضع العراقيل لحلم الوحدة العربية.. واستمرار «صدام» بهذه المناوأة، في محاولات تفريق العرب، وتصنيفهم إلى: تقدميين، ورجعيين.. وأغنياء، وفقراء!!

ـ إتهام بعض أشقائه العرب، ممن تحمّلوا عن بلده تكاليف الحرب المجنونة الباهظة مع إيران مادياً، واقتصادياً، وتكاليف تعمير العراق بعد توقف القتال، وحتى في أثنائه، فقال يصفهم مهاجماً بأنهم: (أتباع للإِمبريالية)!

ـ إثارة البغضاء في الشارع العربي بين قُطْر عربي وآخر، بإيهام الشعب العربي: أن هذا القُطْر غني، ينتمي إلى الامبريالية، وذلك القطر فقير: تقدمي، وحدوي!!

وهكذا.. أراد الرئيس العراقي أن يبذر «الفتنة» داخل الوطن العربي كله، ليحصد من نتائجها ما يحقق له الهيمنة، والتسلط على مقدرات الأمة العربية، والعبث بتاريخها الحديث على هواه، وفي إطار مطامعه الإقليمية!

ولعلّنا نتساءل ـ في مواجهة غدر زعيم الفتنة العربية/صدام:

ـ ما هي أبعاد، وركائز «الوحدة العربية» في فلسفته، وفكره، وتنظيره؟!!

ـ هل «**الوحدة العربية**» تحضُّ من أجل قيامها على: اجتياح قُطْر مجاور، عربي، شقيق، وتشريد أهله، ونهب بيوتهم وأموالهم، وتدمير اقتصادهم وعُمْلَتهم، وهتك أعراضهم؟!

ـ إذن.. ماذا تبقّى لليهود، ليفعلوه بالعرب.. وقد كفاهم «صدام» أكثر مما يضمرونه لأي عربي، مسلم.. ومَنَح «إسرائيل» فرصة لا تتكرر، تلتقط فيها أنفاسها، وتراجع حساباتها، وتتمدد على الشريط الحدودي مع لبنان، وتطرز وسائد من حرير للمهجّرين إليها، وتسرق المياه العربية «براحتها».. وتجلس ـ تقزقز اللب ـ وهي تتفرج على هذا الاستعراض الآخر الذي نظّمه «رئيس عربي، ثوري، تقدمي» ضد أمن، واستقرار، وكرامة، واستقلال شعب عربي مجاور له!!

ـ هل «**الوحدة العربية**» تتحقق بتجويع الشعب العربي، ونسف خطط التنمية، ورفع شعار التقشف على الشعب فقط.. بينما «الزعيم الأوحد» يراجع خرائط بناء «قصره» المنيف الذي يزمع إنشاءه، وتسميته: «قصر هارون الرشيد»!!

ـ هل «**الوحدة العربية**» تقوم على تحطيم اقتصاد الوطن، بإتباع أنظمة اشتراكية أخذت تتخلى عنها الكتلة الإشتراكية والشيوعية نفسها؟.

ـ هل «**الوحدة العربية**» ترتكز على: الخطب الحماسية، وإلهاب «عواطف» الشارع العربي بكلمات ثورية.. يذهب بعدها المواطن العربي، وينام جائعاً؟!

ـ إن هاجس كل عربي صميم، لا بد أن ينصبَّ على «الوحدة» والتضامن، والصف الواحد، والضمير الواحد، والمصداقية!

لكننا لا نعتقد أن «الوحدة العربية» ستقوم بسياسة هذه الأقطار التي (شجبت) ما أسمته التدخل الخارجي في المملكة العربية السعودية.. وهناك ـ بينها ـ قُطْر عربي: يُهدد أمن، واستقلال، وثروات المملكة.. وقد نصب صواريخه، ودباباته على حدود بلادها.. وكان قد (اجتاح)، وسلب، ونهب، وهَتَك أعراض قُطْر مجاور له، وشقيق!!

فأيّ إدعاء بالوحدة، وبرعاية مصالح الأمة العربية.. إذا كانت هذه (الفتنة) التي أضرمها العراق، قد انعكست جروحها، ومساوئها، وخسائرها على كل مراحل محادثات السلام في المنطقة، وعلى كل خطوات المقاومة لأبطال الحجارة داخل الأرض المحتلة، وتُهدد الآن، أو بعد الآن: بابتلاع لبنان، أو الجنوب اللبناني، والأردن؟!!

ـ فهل هناك إيجابيات، وأرباح، ومكاسب... قد (أهداها) الرئيس العراقي لشعبه العربي: الثائر، القومي، التقدمي بسرقة أرض عربية آمنة، وبنهب أموالها، وبهتك أعراض نسائها؟!

ـ هل مكاسب «**صدام حسين**» وشعارات وحدته العربية الثورية تنادي، وتقوم على: إهدار «**النخوة**» العربية، وتفتيت «العزوة» العربية، وسبي النساء العربيات، وهتك أعراضهن؟!!

ـ هل قيام «الوحدة» بين قطرين عربيين، يتم بالقسر، وبالإِرغام، وبالبطش، وبالأمر الواقع، وبجحم الدبابات، والرشاشات، والطائرات المقاتلة؟!

ـ أم أن «حقيقة» الاجتياح العراقي للكويت ـ كما برر وزير خارجية

العراق ـ تكمن في هذا السبب «القرصاني» الأخير:

ـ «**إن الوضع الاقتصادي في العراق قد وصل إلى حالة سيئة جداً، ولم يكن أمام العراق إلا اللجوء لهذا الأسلوب**»!!

وزاد السيد «طارق عزيز» الطين بلَّة، عندما استطرد في إعلان حقائق، ودوافع قرصنة العراق.. حينما قال:

ـ «إن العراق وصل إلى مرحلة لم يعد يثق فيها بوعود دول الخليج بأنها ستساعده في الخروج من أزمته»!!

وها هو «يثق» في إيران التي حاربها ثماني سنوات، ويأمن جانبها، ويعطيها ظهره حتى (**يتفرغ للآخرين**).. ويقصد أشقاءه العرب، الذين صنّفهم اليوم أعداء له، يحتاجون منه إلى (قادسية صدَّامية) أخرى!!!

بينما يعرف العراق جيداً: أن أقطار الخليج لم تكفّ يوماً عن (الدفع) المتواصل من أموال ثرواتها، وأرضها، وشعبها، لحكومة العراق طوال حربه مع إيران، وبعد توقف الحرب، وطلبه لتسديد ديونه، وتعمير بلده!!

لكنه يريد أن يستولي على ثروات الخليج: طمعاً فيها، وتطلعاً إلى غرور الزعامة، والسيطرة على مقدرات العرب كلهم!!

* * *

ـ نحسب أن منظومة أقطار «الخليج العربي» ستعيد حسابات علاقاتها، وتعاملاتها، وربما «مشاعرها» التي لا تعرف تخزين البغْض، مع كل من كشفت هذه الأزمة عن «مصداقيته» من عدمها، وعن أهدافه من أغراضه، وعن أصالته من زيفه، وعن انتمائه للدم من تنكُّره وتجلُّطه في الحقد!!

ـ لقد أعرب مجلس وزراء المملكة العربية السعودية عن: «استيائه، واستغرابه لمواقف بعض الدول العربية التي عارضت، أو تحفظت على قرارات المؤتمر المؤيدة من اثنتي عشرة دولة مشاركة في أعمال القمة الطارئة في القاهرة.. واعتبر المجلس أن هذه المواقف ـ مهما كانت أسبابها ودوافعها ـ لا تخدم مصالح الأمة العربية، بل تحدث فجوة عميقة في صفوفها، وتباعد بين أهدافها المشتركة نحو التضامن الذي طالما سعينا ولا نزال نسعى إلى تحقيقه، ورغم كل الظروف التي تحيط بالمنطقة العربية»!

كما أعربت أقطار الخليج الأخرى ـ بنفس الرأي، والاستياء، والدهشة ـ وقالت هذه الأقطار:

ـ (إن الأزمات تكشف عن تلك الوجوه التي كانت تتستر خلف شعارات وعناوين الأخوة، والتضامن، والكلمة الواحدة.. وتتعرى عند الملمات طباع الثعالب، والذئاب التي كانت تلبس لبس الطهر، والشرف، والأمانة)!!

ـ **ونتساءل هنا**: ما هي سياسة هذه الأقطار، الوحدوية، التقدمية، مهدمة الإِمبريالية، ولاعنة الاستعمار ليل نهار، بالكلام؟!!

ـ **سياستها**: الرفض.. المعاكس لكل ما تقوله الأقطار التي تُشدِّد على العقل، والحكمة، والمصالح القومية للشعب العربي كله!

ـ **سياستها**: أن تأخذ من الدول (المعتدلة) التي تسميها (غنية).. وتدّعي أن ما تأخذه من مساعدات، ودعم هو من مال (النفط العربي)، الذي يعني في مبررات اللص، والشيوعي: مال الأغنياء للجميع بالقوة.. ويتجاوزون النص الإسلامي العادل!!

وليتهم يصرفون هذا المال ـ لكل العرب! ـ على خطط التنمية في بلادهم، للارتقاء بمستوى معيشة ومعاش شعوبهم، وتحسين اقتصادهم، وتسليح أقطارهم لمواجهة العدو الحقيقي. . لكنهم يصادرون كل المال المدفوع لهم من الدول التي يبتزُّونها بشتى الطرق والتهديات. . أو يصرفونه على مؤامرات التخريب، والعدوان الإقليمي، وأحلام الزعامة. . أو يُودِعونه في المصارف الأجنبية لدى الدول (الإِمبريالية) ما غيرها، لحسابهم الخاص. . أو يشترون به أسلحة لتكوين «مليشيات» أو حرس خاص لحماية نظامهم من غضبة شعوبهم. . حينما يستبد بها الجوع، والعوز!!

ـ فهل هذه هي «**الوحدة العربية**» والتقدمية، والقومية العربية الجديدة التي شوّهوا بها الأهدف الحقيقية والأصيلة لمباديء «**الوحدة**» ولمعاني «التضامن» والتلاحم في الدم، والأواصر، والمصير؟!!

ـ وهل «**الوحدة العربية**». . هي هذا (المخاض) الذي نتج عنه واقع محزن لشعوب هذه الأنظمة التي تدّعي دفاعها عن حقوق الشعب العربي، وحماية أمواله من الإِهدار. . وهو واقع يشهد عليه (الحال) المتردي، والمعيشة الضنك، والقيمة الاقتصادية لعملاتهم المالية في العالم، وفرص العمل داخل أقطارهم لمواطني بلدهم، وتوفير الغذاء والكساء، وتدعيم ميزانية التنمية والتطور؟!

اللَّهم أشهد. . فإن بعضاً من «قومي» يكذبون!!

ـ سيناريو . . الانفصام العربي

ـ إذا كان فيكم بلد واحد، لم تغمره عطايا ومعونات السعودية، والكويت، والخليج. . فليرفع زعيم هذا البلد رأسه، وليرنا وجهه. . فإنَّا نحب أن نرى كيف يكون الجحود، ونكران الجميل، عندما يتجسدان في صورة آدميين!!

ـ خالد محمد خالد ـ

ـ صار «العرب» يعشقون «الأمنيات» كما حبيبٍ رحل، وقرر أن لا يعود!!

ونبدو ـ نحن العرب ـ في واقع: شعب فَقَد خلفياته، وجفّت فيه منابع التفاؤل بالغد الذي حشدنا في الانتظار له: أنضر الأمنيات!

أصبح هذا الشعب العربي، يعيش الحياة: محكوماً بمفاجآت خلافات الزعامات، وتناقضات شعاراتها. . ويعيش الحياة: مجلوداً بسرية «الانفصام» من داخل النفس، ومهدداً بأطماع عديدة، ومتلاحقة. . ضد الأمان، والاستقرار، والتنمية، والرخاء!

إن الواقع الذي يعيشه الإنسان العربي. .يتناقض مع أي «حلم» يتفاءل بانتصار عربي. . ويستغرق في أفعال الخلافات، وفي ألوان من انفلاشات المذاهب، والنظم السياسية، والشعارات، و«الأحلام الشخصية»!

فهو ـ إذن ـ واقع يتّخذ حصيلة التجذّر، في الشواهد، والدلالات على فشل العرب في أن يحققوا تضامناً، أو يرسّخوا وحدة في الأرض، أو في الصف، أو في الكلمة!

وما زال «الحلم» هو الأجمل.. برغم محاولات الغدر التي تفسد هذا الحلم في كل مرة!

وما زلت ـ كعربي ـ أشعر بوقوفي المتلفِّت وسط الدروب العربية الشائكة، والتي تكثَّف فيها: التوجّس، والخوف من الشقيق قبل الغريب، وحراسة الكرامة!

إنه تلفّت هذا «الطفل» / الشعب العربي: الحائر، الذي يعاني من الفزع، وقد تشابكت أمامه وحوله الطرقات المتفرعة.. وهو يبحث عن أهله، وأسرته!

ويخيَّل إلينا.. أن كل مواطن عربي، في لحظة من لحظات التأمل لواقع العالم العربي، أو الحال العربي.. يفعل هذا التلفّت بقلق على مصير ثوابت أساسية، تتشكل من: العقيدة، والوشائج، والأرومة، والدم، والحلم العربي بهاجس «التضامن» الذي استهلكنا عشرات السنين، ونحن ندعو إليه، ونشدّد عليه، ونتمناه!

وقد اختلَفَتْ المسميات، وأساليب الطرح الفكري العربي!

وانبعثت شعارات عديدة.. بعضها جاء متلاحماً مع فكرة «التضامن».. كأمل، يلمّ شتات هذه الأمة التي مزّقتها عوامل، وأسباب عديدة.. يأتي في مقدمتها:

ـ الحقب الاستعمارية:

وقد تعاقبت على العالم العربي.. وكان هدف المستعمر الأساسي، هو تفتيت هذه الكتلة العربية الواحدة، ليسهل ابتلاعها، وتذويبها: دينياً، وقومياً، ولغة، وتراثاً، وتاريخاً!

وكان هدف المستعمر أيضاً: استغلال ثروات هذه الأرض، وبناء حضارة المستعمر، والسيطرة على مواقعها الاستراتيجية، وأهميتها!

ولم يكن الاستعمار قادراً على تحقيق أطماعه تلك.. إلاّ تحت شعاره: (فرّق.. تَسُد)، وبحدوث ذلك «الانفصام» في بعض الزعامات العربية.. التي أوجدت للمستعمر فرص الانقضاض على العرب، وأفسحت المجال بالخلافات، والغدر، لتنفيذ مخططات الاستيلاء، والاحتلال!

ـ الموجات الانقلابية:

وقد عصفت باستقرار الكثير من الأقطار العربية.. وتردّت بالاقتصاد الوطني، وبمستوى معيشة الفرد في تلك الأقطار، حتى تحوّلت من أقطار «مُنْعمة» ولا نقول غنية، إلى أقطار يعاني مواطنوها من شظف العيش!

وكان يُظّن أن تلك «**الانقلابات**» التي اتخذت لنفسها مسمّى: (الثورات).. يمكن أن تكون هي الخلاص من سيطرة الاستعمار الأجنبي!!

واتضح ـ بعد التجارب المريرة ـ: أن ما حدث على مدى ثلاثين عاماً.. لم يكن أكثر من سيطرة جديدة «لفئة» من الداخل.. مارست عبر مؤسسات عسكرية: كل وسائل الاستحواذ على الحكم، وتعاملت مع مواطنيها بأسلوب القمع، والتخويف، ودفعت أقطارها إلى هذا التردِّي الملحوظ: اقتصادياً، وتنموياً، وسياسياً، وحتى ثقافياً!!

وفي أثناء تلك التجارب المريرة:

ـ إتسعت دائرة الخلافات العربية من الداخل!!

ـ حدثت الشروخ في بنية التضامن العربي، أو حلم «الوحدة العربية»!!

ـ فقدت الأمة العربية المزيد من الأراضي التي احتلتها إسرائيل.. مثلما فقدت ـ أيضاً ـ المزيد من سيطرتها، وهيمنتها على مقدراتها، وقرارها العربي الموحّد!

ـ عَبثَ البعض من أنظمة الحكم العربية بمصداقيته مع شعبه.. في إدعائه التوجّه نحو: الوحدة، والتضامن، والبناء التنموي والاقتصادي!

ـ غرس هذا البعض من أنظمة الحكم، الذي ادّعى (التقدمية) ومحاربة **(الإمبريالية)**: مجموعة من نبات الحنظل، والأحقاد، في صدور الشعب العربي ضد بعضهم البعض.. وذلك بتقسيم «**أهلهم!**» العرب إلى: غني، وفقير.. ومنعم، ومحروم.. ووطني، وخائن!!

وبذلك منحوا المستعمر، والطامع، أكبر فرصة ليتفرج على كل هذه (الخيبات) العربية، ويرسم خرائط أطماعه بارتياح شديد، ويستحوذ على المقدسات، وعلى الأرض، وعلى المياه، وعلى الكرامة العربية.. في الوقت الذي نشعر فيه أن بعض العرب صار يمارس (الاغتصاب) مع الحلم العربي، ومع الوحدة العربية!!

وكانت محصّلة تلك التجارب المريرة: خسائر في الأرض، وخسائر في القرار العربي الموحَّد!

وأفظع من ذلك كله: أن المواطن العربي.. صار يُعاني من شعور

كظيم بخسائر أكثر فداحة.. في أحلامه نحو الغد!!

* * *

ـ وفي قتامة الرؤية العربية اليوم.. تذكَّرت حواراً قديماً مكتوباً، نشر قبل سنوات بيني، وبين أخي، وزميلي، وصديقي الكاتب العربي الكبير الأستاذ «عرفان نظام الدين» بعد أن كتب ـ يومها ـ عن «الانتصار العربي» الذي أكّد على أنه: ممكن في الواقع!!

وحسبتُ ـ حينذاك ـ أن الكاتب الصديق، أراد أن يستفزني بتلك العبارة.. غير أنه أردف يفصّل رأيه، فقال:

ـ (لكننا غرقنا في دوامة.. لا الواقع فيها مُتَاح، ولا الحلم مسموح به)!!

ولم أسترخ بعد العبارة.. فكأنه: لكزني بها، وآلم غربتي العربية، وشرود فكري.. وجعلني أصارع قوة الدفع في الدوامة التي غرق العرب فيها!!

ولا أدري.. ما الذي يمكن أن تقوله «الكلمة العربية» اليوم، بعد إقدام رئيس قُطْر عربي على دفع جيوشه لاقتحام قُطْر عربي آخر مجاور له.. ليعيث العسكر فساداً، وسوءَ خُلُق، وعسفاً، وغدراً.. حتى يصل سمَّه إلى «أعراض» العربيّات؟!!

لم نعد ـ كعرب ـ نعاني من مجرد (دوامة) تُفرِّقنا.. بل إن «فعلة» صدام، قد أحالت هذا الواقع إلى مستنقع ضحل، ومتعفّن.. ينفث روائح الغدر، وسوء المنقلب!!

ويتحدث «غدَّار» العرب عن: التدخل الأجنبي في مشكلات عربية!

فمن المتسبِّبْ في خيانة (التضامن) العربي، ونسفه؟!!

إن الكارثة الحقة: أن «غدار» العرب، هو الذي أخضع المستقبل العربي، والمصالح العربية في الحاضر والآتي، للصراعات بين القوى العظمى، وأوجد أسباب تدخُّل هذه القوى!

إن «غدار» العرب.. هو الذي أدار آلة الحرب، ودفع العرب ليكونوا تروساً في عجلة هذه الصراعات والتدخلات!

ولم يكتف «الغدَّار» بذلك.. بل إنه جعل العجلة تأخذ البعض إلى قسمين متواجهين، متنافرين: رجعي، وتقدمي.. قومي، وخائن.. غني، ومعدم لا بد له أن ينهب حقوق الغني!

وهكذا.. تتضح جوانب من الكارثة: التي أفشت المحن على شكل حروب أهلية، واجتياح، وخلافات داخل التجمع الوطني العربي الكبير، وتحالفات مشبوهة، تدّعي موازنة العلاقات الدولية، ومذابح، وإسقاط تام لقضية العرب الأساسية (فلسطين)، وإشغال العرب، والمجتمع الدولي عن مناصرة المناضلين الحقيقيين داخل الأرض الفلسطينية المحتلة بحجارتهم، وبمقاومتهم للمحتل: وإضاعة فرص السلام، وتدعيم الكفاح!!

وتتضح جوانب أخرى من الكارثة: أن فريقاً (عربياً!) ينحاز إلى دعاوى الديمقراطية، ومَقولة العالم الحر.. ضد فريق (عربي) آخر، كل ذنبه، وجريرته أنه رفض الغدر، واجتياح بلد عربي، لبلد عربي جار له، ضمّه إلى (أملاكه) بالقوة، وسرق، ونهب ثرواته، وشرد أهله، واغتصب نساءه!!

إن هذا الفريق المعتدي، أو المنحاز إلى المعتدي.. يرتكب ترويج الكثير من أكاذيب الشعارات، والأيديولوجيات، ومَقُولة سيادة (البروليتاريا).. بينما ينحسر الستار عن خطط (تصفوية!) ودموية، وعن

خذلان وقح للحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وترويج ظاهرة الانشقاق، أو التمرد الثوري.. ليبقى العالم العربي يدور كثور، أغمضت عيناه!!

* * *

ـ من أقوال العرب الحكيمة، وذات الدلالات العميقة:

ـ «بسبب مسمار.. نضيّع النضوة!

وبسبب النضوة.. نضيّع الحصان!

وبسبب الحصان.. نضيِّع الفارس»!!

وفي كل الأحوال.. أصبحنا لا نقدر على كتابة تاريخ بلدنا العربي الواحد، والممتد من النيل إلى الفرات!

إننا نقف في أجواء الحروب الأهلية، وحروب الاجتياح، وحروب الزعامة الطامعة، وحروب غدر الأخ والجار.. كأنَّ العرب قد تحولوا اليوم إلى «صم، بكم».. يعانون من الحسرة، والتغرير، والخوف، والغدر!

بينما يتولى كتابة تاريخ أرضنا العربية.. هؤلاء **(الدِّيَكة)** التي تتصارع فوق الأرض العربية، بكل اللكمات، والكدمات، والجروح التي تصيب جسم الأمة العربية!

إن العرب اليوم: يطوِّحون بأذرعتهم، وأقدامهم.. فيكتشفون بعد كل جولة: أن بعضهم يضرب البعض الآخر.. وأن جروحهم من الداخل تفوق بكثير جروحهم من الخارج!

هكذا.. صار «العرب» يتامى على مائدة العالم كله!!

شواهد مخجلة!

ـ حُزْني على أمة.. أدمت فوارسها في ساحة الإِفك:
سهم البطش غلاَّب! أين الدماء التي بيعت بلا ثمن؟!
وأشعلت بعدها:
أحزان من غابوا؟!
إنَّا بنينا من البهتان أضرحة..
وشردتنا بأرض الله: أحزاب!!

ـ فاروق جويدة ـ

ـ بعد مرور سنوات على ما حسبناه إتساعاً في الضحكة الساخرة، والخادعة لنا نحن الشعب العربي.. كان حصاد عالمنا اليعربي ـ على مدى ثلاثين عاماً تقريباً ـ يتلخص في هذا الجَنْي:

ـ مجموعات من «الفخاخ» التي سقط فيها الحلم العربي!

ـ أسواق تحت مُسمَّى: التقدُّميَّة، والثورية، وحقوق الشعوب.. وقد تم في هذه الأسواق بيع، وشراء الكفاح، والنضال.. من قِبَل سماسرة يساومون، ويزايدون على بيع الأرض، أو الوطن، أو القضية!

ـ أشكال من إدّعاءات «الوطنية» التي تُنادي بمحاربة الاستعمار، والتسلط.. بينما يمارس مروّجوها من خلفها: التآمر، والانقياد لمخططات الاستعمار، ونسف أية بارقة لتضامن عربي!

وبقي المواطن «العربي» ـ وحده ـ يتخبط، ويُفاجأ، ويُفْجَع، وينوح، ويتقاتل، ويقتل!

بقي هذا المواطن العربي ـ وحده ـ مُفَرَّغاً من الحلم العربي.. يواجه حلقات متلاحقة، متصلة من هجمات المستعمرين، وأطماعهم، ومن مدّعي الوطنية، والنضال!

وحده.. بقي المواطن العربي: يخسر أمانيه، ويعاني من اضطراب معدله الاقتصادي، والمعيشي.. ومن صدماته النفسية!!

* * *

لقد كان هدف القوى الاستعمارية: أن يبقى المواطن العربي يدور في رحى الاحتياج لها.. ويدور في فلكها مثل ثور الطاحونة.. ويدور حول همومه، ومشكلاته: عاجزاً، ومقيداً، بالتزامات يدفعها ضريبة ضعفه أمام القوة التي فرضها الاستعمار!

أما أن يُفجع المواطن العربي من داخله.. وفي شرايين دمائه، بمن يضع الفخاخ لكفاحه ضد الاحتلال الأجنبي، وذلك بنسف وحدة الصف، والتضامن.. وبمن تحول إلى «سمسار» للقضية، وللأرض، يزايد عليهما، ويُبدِّل في عدة أقنعة يرتديها حسب الظرف، والتيار.. فهذه كارثة تنخر كالسوس في الضمير العربي، وتقوّض كل ما حاول العرب تشييده طوال السنوات التي أجلى فيها المستعمر عن أرضه، وانهمك يزرع، ويغرس،

ويبني، ويقيم المدارس، والجامعات، والمؤسسات العلمية والعملية!!

* * *

ـ عندما ينشب خلاف بين قُطْر، وقُطْر آخر عربيين.. فذلك يعني: شق كيان واحد إلى جزئين، وتمزقاً بين أخ وأخيه.. أي بين حبَّة رمل، وحبة رمل أخرى في أرض واحدة.. أي بين أنفاس إنسان ورئتيه.. أي بين عينين في رأس واحدة!

ولعلّ «أهلي» العرب، في الثلاثين سنة الأخيرة، قد تدجَّنوا في الخلافات السياسية.. أو خلافات أنظمة الحكم، وتدفق الشعارات، والإيديولوجيات، والعلمانية.. وذلك عبر هدير الشوارع، والتأثير في الرعاع، وأنصاف المتعلمين، والعمال.. ومحاولة إسقاط دَوْر العلم، والثقافة، أو العلماء والمثقفين.. أو تسييس هؤلاء ليكونوا تروساً في آلة النظام، أو الشعارات!

صار هذا (الشيء) المشروخ في الواقع العربي.. هو التعود على شكل الحياة.. وهو شهوة الحكم، بالانقلابات، التي أطلقوا عليها في هدير الحماس الجماهيري، أو الشوارعي: «ثورات».. وهو ـ في حقيقته ـ لا أكثر من قفز أفراد من الجيش، وبعضهم من ذوي الرتب الصغيرة.. ليتربعوا فوق كرسي الحكم، ويمنحوا أنفسهم أعلى الرتب، والنياشين، وفرض التسلط على اقتصاد قُطْرهم، ومقدرات أهلهم!!

وهكذا.. عاش الوطن العربي في تموّجات مجنونة.. كانت تطلع بذلك الهدير على امتدد أرصفة الشوارع، ثم.. ترتطم، وترتد، وتسقط في فخاخ عديدة!!

وتتحول تلك الفخاخ إلى بؤس عربي، وإلى أحزان عربية!

وفي اشتداد حالة «الارتماء» في الفخاخ.. أي في الشعارات السياسية، والأيديولوجية، وفي المصطلحات الثورية، و«النضالية!».. إذا بعض العرب في موقع المحرك للنظام السياسي: يُسوِّق هذا التصدير إلى أمته العربية.. كأنه يساعد على تفشي مرض خبيث!

وضاع المواطن العربي في هذه الفخاخ.. وفي «فلاشات» حملت إليه صوت الثورة، أو الوطنية، أو النضال.. ولم تحمل إليه فعلهم السويّ الذي يعزّ المواطن العربي، ولا يذلّه، ويحفظ للمواطن العربي كرامته، واستقلاله، وأمته، ولا يهدرهم..

وهكذا.. نجد أن هؤلاء المدّعين، وسماسرة النضال، والوطنية.. قد تبدّوا بأفعالهم وهم: أكثر سوءاً ممن ثاروا عليهم!!

وحين تلفّت العالم العربي.. لم يحصد سوى عدة «إنقلابات» ملوّنة!

وتصاعدت صفات جديدة، وتقويمات، وسلوكيات.. كطوابع البريد، أصبحت تُلصق بالمواطن العربي، وبهمومه، وبخلافات الكثير من الأنظمة السياسية التي قفزت إلى موقع المسؤولية، وأخذت تحكمه!

وتموّهت الآراء.. والأحكام.. فلم يعد المواطن العربي يعرف: إن كانت صفة (الثائر) ذات دلالة على البطولة، والفروسية، والوطنية، وتثبيت عزِّ الأمة.. أم أنها (فعل) لمحو الانتماء، وللارتماء في أحضان مُصدِّري تلك الشعارات، وزارعي أولئك الدُّمى؟!!

وكان جيلنا.. هو أكثر الأجيال التصاقاً، ومعاناة، وذهولاً.. لأنه

عاصر، وشهد قسوة المرحلة الانتقالية في التاريخ العربي الحديث، ومهازل إدّعاء الثورة والتغيير!

وقد (تفرَّج) جيلنا على شواهد مخجلة.. كان منها على سبيل المثال:

ـ **محكمة المهداوي،** والسحل في الشوارع، واستخدام ألفاظ نابية من رئيس محكمة (ثورية)!!

ـ **التصفيات** التي تمت بين (رفاق) السلاح والثورة، وزعيم ينقلب على مهيب، ورائد يصبح فريقاً.. وقد انشطر الوطن في تلك الأقطار إلى قسمين: الأول في المستشفى، أو في النفي والنسيان.. والآخر في الزنزانات!!

ـ **محادثات «الوحدة»** وبراعة الجدل، حتى تتم سرقة (عقل) شعب كامل، أو الهيمنة على تفكيره!

ـ **سطوة «الإعلام»** الذي يتولى مهمة غسل الدماغ.. دون السماح لمواطني تلك الأقطار حتى بالتفكير، أو بالتأمل، أو.. بالحياد، وروّجوا لقاعدة سادت.. تقول:

ـ إذا لم تكن مع النظام.. فأنت ضده!!

ونتيجة لكل تلك الممارسات.. صار «الصوت العربي» مثل ثوب «البلياتشو» يزعق مردداً:

ـ متآمر، خائن، رجعي، نفعي، إنبطاحي، إمبريالي، ديماجوجي، إرتكاري، طباشيري!!

وفي ذلك اللغط، والصراخ.. ضاعت صفات البطل العربي، والفارس العربي، والموقف العربي!!

وصار «**إعلام**» تلك الأقطار مثل محكمة «المهداوي» سيئة الذكر: يُحاكم، ويُدين، ويحكم بالخيانة، وبإثارة الرأي العام العربي!!

ولنا أن نتصوّر أبعاد هذه الأحكام، وردود فعلها على التضامن العربي، وعلى وحدة (المشاعر) العربية في أقل تقدير، وعلى مسيرة الحقوق العادلة التي نطالب بها كل العالم لصالح الأمة العربية!؟!

* * *

ـ وسنوات تمر، وشهور تكرّ.. مثل «حواديت»: الجان، وأمّنا «الغولة»، و «الدجّيرة» و «السحلية»!!

وكل هذه الرموز السيئة.. تتحرك مع سنوات التجربة العربية، ومع معاناة الإِنسان العربي!

والأطماع تتزايد، وتتطور.. والمكاسب تُهدر، والخسائر تتوالى.. وكل ذلك يتصاعد في غياب التضامن، والإِرادة العربية.. وفي ضعف وخدر الحلم العربي.. وفي اتساع رقعة الخلافات العربية.. بسبب تلك الموجات غير المسئولة: الأنانية، والنفعية، والانتهازية.. والمصبوبة في هدير الحماس، والمفرّغة من الفعل النضالي الحقيقي.. والمفرّغة من (**المصداقية**) في التعامل بين أشقَّاء يجمعهم مصير واحد، ويواجهون مخططات مستعمر يحقد على دينهم، وعلى ثرواتهم!!

لقد رمى الله جلّ جلاله، الشعب اليهودي في التيه سنوات طويلة، ليعاقبهم.. فكان ذلك التيه قاسياً، لأنه شتات في أرجاء الأرض!

ونحن العرب ما زلنا نملك الأرض، ونموت دون أن نفرط فيها!

ولكنَّ التيه الأقسى على العرب: أن يشعروا به وهو يتلبَّس أفكارهم، ونفوسهم، ونواياهم، وحتى عواطفهم!

وماذا بعد أن يفقد شعبٌ ما: حلمه، أو يحس بفساد هذا الحلم، وبتراكم الآلام والهزائم، وبترصد الخوف له، وبضياع جزء من الأرض، وبغدر وخيانة شقيق عربي، جار له، بغياب الإِرادة والقدرة.. حيث يقتتل الأخوة فيما بينهم، ويتفرق العرب إلى شيع، وأحزاب؟!!

إنه ـ بالفعل ـ التيه الأقسى!

وهناك (**الأسخريوطي**) الذي يبيع الحرية العربية.. في بورصة الحُكم!

وهناك (**شيلوك**) الذي يسرق الأموال العربية، أو يبتزها!

وهناك أمثلة، وشواهد محزنة.. لا نريد أن نحصيها لكثرة ما ترشحه من خجل لنا.. لكنها تدلل على محصلة هذا التيه العربي في خضم الخلافات والأقنعة، وخذلان المصداقية، وتراكم الأحزان!!

ـ ناي . . قتيل الصدى!

ـ أمَّا الأماني . .

ـ فَما عُدْنا نطيق لها ذكراً تُطّبق أُولاَها على الثاني!

ضِقْنا بكل الأماني . .

حيثما انسفحت!

فأين رنَّة عود . .

عند مثكال؟!!

ـ حسين سرحان ـ

(١)

ـ في مساء مشبّع بالاندهاش . .

في حقول مزروعة بالانتظار لذلك «الشيء» الذي يأتي، ولا يأتي . . مع قرعات «أنكيدو» في جنبات العالم الموصوف بالتوتر . . الخائف من: الحروب المدمرة والمستنزفة، ومن الأمراض المستعصية، ومن تفشّي الكراهية . .

في ظلالٍ نديّة بالذكرى، وبالتطواف . . إلى درجة الإِغراء لخطوات الرحيل إلى: «الدرب الممل» . .

في ابعاد الصمت/ المتكلم.. تحت نجمة صحراوية حرّانة..

في هذا كله: مازال الناس يتحدثون عن (الثمن)!!!

حتى أنهم صاروا يُثمِّنون: الملل، والفراغ، والتفاهة، والبغضاء، والعزلة النفسية!

إنه من الصعب أن يحيا الإِنسان في عصر يُعْنَى بـ «اللاممكن»!

ولعلّ في معنى هذه العبارة القادمة، ما يبرر الصدمة:

ـ (من المتناقضات العجيبة: أن يكون أول ما يهتم به الإِنسان.. هو أن يُعلِّم طفله الكلام، ثم ـ بعد ذلك ـ يُعلمه: كيف يسكت)!!

إن الإِنسان بات يُغنّي عبر فتحات ناي: قتيل الصدى!

تواجَدَ الناس في هذا العالم على شطآن انبساط الملح.. في ضجيج «اللاممكن»!

تضاحَكَ الناس تحت سقف الليل.. كأنّ الليل: عمر الحب.. وكأنّ النهار: تُهمة الحب!!

وفي هذا المساء.. يوقفني صوت قديم رفعته «سيمون دي بوفوار» كجندي الحدود الذي يفتِّشك، وقد يمنعك من العبور:

ـ «كل شيء في هذا العصر يبدو ممكناً»!

صحيح.. إن كل شيء يبدو ممكناً، في ضجيج اللاممكن.

وفي هذا المساء.. يمازحني صوت شاعر اسمه «كمال عمار».. كأنه آهة طالعة من أي عمق.. يقول:

ـ «حينما تسأم ألوان المساحيق العتيقة..

كنتُ أسعى لك حيناً.. من حنيني للحقيقة»!

(٢)

ـ أتلفّت بعد ذلك.. لأكتشف: أن عَجْز الإِنسان ـ أحياناً ـ يبدو كبيراً!

عَجْز الإِنسان عن تحقيق شيء..

وعَجْزه عن إمكان شيء واحد في داخله!

إن كل شيء يبدو ممكناً الآن.. في ضجيج اللاممكن!

قد تنفجر باكياً، وبقايا ابتسامة لم تتلاش من فوق شفتيك.

قد تُقهقه فجأة.. ودموعك تغسل وجنتيك، وتملأ حدقتيك، وحلقك!

قد تفهم بعض ما في داخلك، ولا تفهم أكثره.. وتتساءَل:

ـ لماذا فهمت ذلك.. وكيف فهمته، ولم تفهمه؟!!

ترى.. هل هي الخيبة، أم اللذة؟!

ـ لذة ماذا؟!

تساءلت.. واستطردت أثرثر بصمتي:

ـ لذة الخيبة.. لذة الحزن.. لذة القسوة.. لذة الوحدة!

وإذن.. فإن الإِنسان لا يستمر شكلاً واحداً، ولا حالة واحدة، ولا شعوراً واحداً، ولا سلوكاً سرمدياً!

هذا طبيعي.. ولكنّ الإِنسان يرفض، ويحتج، ويبكي، ويحقد، ويفرح.

إنه يتشكّل بالحالة النفسية.. وهي مرض العصر، على أكثر من صورة، وفي أكثر من شعور، وبأكثر من سلوك.. فالحالة تقوده، ولا يقودها.. وهذا هو الحزن، وهذا هو الإِرتطام بالخيبة، وبأبعادها فيما بعد!

إننا لا تقدر أن نتعرّف على «القيمة»، ثم على «اللذة» ـ كنتيجة: إيجابية، أو سلبية ـ إلا إذا كان فهمنا لعطائها، ولحجمها كبيراً، ودقيقاً.

أو كأنّ القاعدة المطلقة اليوم، تؤكد:

ـ إن من حق اللذة أن تمارسك، لا أن تمارسها.. لتتواصل في أبعادها، ولا ينبغي أن تتحكم في الأشياء التي تؤثر فيك، حتى لا تخضعها للشيء الأقل في نفسك.. وحتى لا تبعثرها بالأشياء الأكثر من نفسك!!

إن «الممكن» قد صار في أكثره، هو: التعبير عن الملل!

بينما يتضخم «اللاممكن».. ليكون هو: التوتر.. حتى يبلغ في تجربتنا إلى (الفجيعة) من الغدر، أو من الأطماع!!

(٣)

ـ ضحكت.. بل قهقهت!

إنها «المتاهة» التي يأخذنا إليها الملل، وتُجرِّحنا بها الفجيعة.. بعد أن كنا نقرأ صفحات كتاب في التاريخ.. وننتقل بعدها إلى قراءة عدة أعمدة في مجلة، وصحيفة.. تتحدث عن بيوت الطين في العصر القديم،

وبيوت الزجاج، و«الريمونت كونترول» في العصر الحديث!

إن «المتاهة» تعني: عدم العثور على آخر المطاف في الحياة عموماً.. أو على آخر الركض في العمر، الذي لا نعرف: هل هو طويل/ أم قصير، أم «مربوع» المسافة؟!!

ضحكت.. بل قهقهت، حينما وجدت كاتباً فرنسياً: شديد التشاؤم، وهو يصف تلك «المتاهة» بعبارات لها ضجيج المصانع.. ومع ذلك، فقد كان يفتش عن «وردة».. عن ساق زهرة أخضر.. عن إبتسامة إنسان!؟

واقتحمتني واحدة من عباراته التي تُصارع، حين قال:

ـ (في نهاية المطاف.. هناك هدف واحد نسعى إليه، وهو: أن نفعل كما فعل الفراعنة تماماً.. نتمدد كالجثث الكبيرة.. نرتدي آخر صرعات أزياء الزمن.. ونضع إلى جانبنا كل ثرواتنا!!

ولو قُيِّض لي أن أفعل ذلك.. لَوَضعْت الريح إلى جانبي، ولكانت الجثة اختفت تماماً)!!

كأن ذلك الكاتب الفرنسي يريد أن يلقي التحية على «جنكيزخان»!

ولست أدري.. لماذا لم يرد أن يلقي التحية المميزة على «شامير»، أو «بيريز»، أو «بوش»، أو «جورباتشوف»، أو «صدام حسين»؟!!

ـ وقال ذلك الكاتب الفرنسي ساخراً، وربما ضاحكاً بغير ضحكتي:

ـ «إن جنكيزخان.. كان منهمكاً في دفع رواتب جنوده»!!

حسناً.. كل العالم منهمك اليوم في دفع رواتب الجنود.. لأننا في عصر حربي!

الحكومات: تجهز جيوشها، وتستعد..

والبعض: يعتدي، مثل إسرائيل.. ومثل العراق فاجعاً!

والشعوب: في خوف شديد على الأرض، وعلى ساق الزهرة، وعلى غرسة الحنطة!

وهكذا.. قذفْتُ بالقصاصة التي كنت أحتفظ بها من صحيفة عربية، ترجمت عبارات ذلك الكاتب الفرنسي: «ريجيس دوبريه»!!

(٤)

ـ أخذني الملل من جديد.. كأنّ أنفاسي، وصوتي، ورؤيتي، يخرجون من فتحات «ناي» قتيل الصدى!

مللت حتى من القراءة.. وشعرت أن كلمات مختصرة، ومعينة: تتراقص في ذهني!

خُيِّل إليّ أن «الكاتب» أحياناً: لا أكثر من «ثور» في حلبة مصارعة، أو ملاكمة.. يدخل إلى الحلبة مندفعاً، متحفزاً، منطلقاً.. ولكنه ما يلبث أن يصطدم بكثير من الحقائق، والسيوف، والرصاص، والألوان المزركشة في مقبض نَصْل يتسدد إليه!

إنّه ـ بالضرورة ـ سيجد في حلبة المصارعة أو الملاكمة، مشكلات عديدة، ومتناقضة، ومن أهمها:

ـ مشكلة الشرق الأوسط، وعربدة إسرائيل، ونَهْب «صدام حسين» لأرض الكويت!!

ـ إحتلال «الشيوعية» بأنظمتها وأيديولوجيتها لأفغانستان المسلمة!

ـ غرور، وصلف، وعدوانية النظام العراقي الحاكم، وتعطّشه للدماء،

وللفوضى، ولضرب العرب بعضهم ببعض!

ـ إحتلال الجنوب اللبناني، وتمزُّق الوحدة الوطنية اللبنانية.

ـ الحقد على العرب في الخارج.

ـ الحقد بين العرب.. في الداخل!!

ـ الإِنسان العربي المطحون بواقع الإِعتداء عليه.. والخلخلة النفسية.

ـ التاريخ: البعيد، والقريب، والماثل.

ـ المتغيرات الحضارية، والسياسية.

ـ التكنلوجيا: الحل، والمشكلة!

ـ «النوم الأبيض، والموت الأبيض»!!

«فانتازيا» من المشكلات التي تلفُّ العالم كله.. دفعتني أن أقذف الورق الأبيض، وأسترخي!

وتطلعت بجانبي.. رأيت المذياع.. أدرت المؤشر فيه!

حتى في المذياع.. وجدت «صوت إسرائيل»، و«هنا لندن» الذي يثق الكثير من العرب في أخباره (!!).

ـ ويعلن هذا الصوت الإِسرائيلي، أسماء عربية:

ـ مِنْ علي إلى حسن ونعيمة، ومن محمود إلى ياسمين وبهية، ومن حسين إلى فوزية وحليمة: نحن بخير.. طمِّنونا عنكم!

ـ ويعلن مذياع عربي إذاعة أغنية عربية مطلوبة من: صفية، وعيوشة، إلى فيفي، وطيطي، وعيعي، ومن عليوه إلى جميل، وجمالات،

وحسنية.. وإلى جميع الأصدقاء.. نقدم أغنية: أضنيتني بالهجر!!

ويعلن مذياع بغداد التكريتي: البيان (المخالف) للعالم وللأعراف.. بدون رقم!!

أقفلت المذياع.. فالأغنية العربية ما زالت تراوح بين معنى واحد!

ـ قلت: يبدو أن كتابة البكاء.. تخصص عربي!!

نقدم أعمق الاعتذارات إلى قلوبنا.. لأنها كلَّت بسببنا!

ويبدو أن كتابة الضحك.. صارت بحبر من الدمع.. فإذا لم يكن كذلك، فإن النكتة قد تعرّت إلى درجة الخجل!

كان آباؤنا إذا شعروا بالملل، ذهبوا إلى مقهى.. والمقاهي اليوم تحولت إلى «كازينوهات»!

تطور.. يُعبِّر عن «فانتازيا» الإِحساس الهضميّ!!

(٥)

ـ انتهت «المتاهة».. ولم ينته الملل في العالم الثالث، ولا حتى في الحاسة السادسة!!

انتهت «المتاهة» .. وبدأت الفجائع، والأحقاد!!

يقول ذلك الكاتب في العالم الحضاري، أخيراً:

ـ «في العالم الثالث.. يتساءلون عن فائدة الجهاز الهضمي»!!

الأرض.. والعقل!

هذه التُربة...

ما أَقْدَسها!

نفحها من نفح:

خير المرسلين!

هي في أعناقنا

من دونها:

حشرجات الصدر..

أو قطع الوتين!

ـ غازي القصيبي ـ

ـ **الأرض**: حينما تكون بيتاً يأوي... تصبح هي قضية «الخطوة» في توسيع الحجم التاريخي.. لئلا تفقد الأمم وعاءها، وتراثها، وملامحها.. ولئلا تبهت حوافزها!

ـ **الأرض**: حينما تكون جسداً، تتعامل معه وسائل الحياة الإِنسانية.. تصبح هي قضية الغذاء، والصحة، والعقل، والفصول،

والأجيال. وهي شرف القيمة الإِنسانية!

ـ **الأرض**: حينما تكون برتقالة ناضجة... تصبح هي قضية «الأمل» التي نرفض عبوديتها، ونتصاعد بها.. لتكون حرّيتنا!

ولا بد أن تكون هذه «القيمة» المرجوّة في عقل ووجدان الإِنسان... هي «حجم» لا نقيسه لمعرفة مقدرتنا على المشي، والركض فقط.. بل لمعرفة ما نستطيع أن نبذره ونزرعه فوق الأرض!!

ومن هذه القواعد.. ننطلق لتجسيد المتطلبات التطورية، والإِستقلالية، والإِنتاجية، والإِنتصارية.. فتتبلور إلى: مسؤولية، وعهد، وعشق، يفني الإِنسان من أجلهم عمره، ويسفح دمه، ويتصاعد إلى ذروة الإِخلاص للتربة، وللإِنتماء، وللبقاء الكريم!

وفي كل يوم.. يحتفل العرب بـ (يوم الأرض)..

في الوقت الذي تصعِّد فيه «الانتفاضة» من ضغطها على العدو اليهودي..

وفي الوقت الذي كان العالم يشجب فيه تدفق المهاجرين الروس على الأرض المحتلة..

وفي الوقت الذي ارتكبت فيه إسرائيل مذبحة دائمة، لم تكن الأولى... وهي ليست الأخيرة!

وفي الوقت الذي يتعامل فيه الرئيس العراقي مع (أشقائه) العرب.. بنفس الأسلوب، والقسوة، والحقد، الذي تمارسه إسرائيل مع العرب أيضاً!!

وقد صار العرب اليوم: في عشق الأرض.. وفي الاعتزاز بالعقل:

بين فكي كماشة حقد صهيونية/عربية تتعامل بحقد صهيوني!!

ولا حول، ولا قوة إلا بالله!!

* * *

لقد جئت «بأرضية»... ليس شرطاً أن تكون ممهدة ، بل هي بالغة الوعورة.. لتكون تمثيلاً لإِنبثاقه «نُطْق» فكري، جعل الحوار عنه مُستشرفاً أبعاد مصلحة «الأرض» أو الوطن، والوفاء لتاريخ عربي، إسلامي، حافل بأمجاد.. أعطتنا قيمة الحقيقة، وتمجيد الشعور الإِنساني!

وكانت تلك «الأرضية» هي محور لحديث يناقش دور الأدب، والكلمة!

ولن يكون بدء الحوار من روايات «نجيب محفوظ» الحاصل على جائزة نوبل العالمية... ذلك أن هذا الروائي الكبير، قد خصص إبداعه في تجسيد قضية: الأرض/الإِقليم، وقضية حرية إنسانها... لكنه لم يبدع ـ حتى الآن ـ عملاً روائياً شاملاً عن «الأرض»/الوطن الكبير، والقضية الأكبر للإِنسان العربي في كل مكان!

حتى شعراء «المقاومة»، أو من أطلقنا عليهم هذه الصفة.. كانوا يلوّحون بما يشبه (توصيات) نضالية، لها صوت مؤقت، وأخطأت مرماها!

إنّ المرمى.. لم يكن هدفاً محدداً، ونحن نحاول أن نجعل لكل سهم نطلقه: نقطة نضالية للوطن.. يحفرها، فلا تكون بريئة، ولا يكون الفكر، أو الفن العربي بريئاً أيضاً!

وبعد الانتصار في «العاشر» من رمضان.. وبعد الدخول العربي في «دوائر» المباحثات الموسومة بنداءات السلام.. صار شعراء «المقاومة»

يتعاطون سوائل الثقافة، ويوجهون للقارئ العربي «طلقات» تُحدث صوتاً، ثم تخمد، وتضيع في الصدى!!

ـ **سميح القاسم**: لم يعد نضاله الشعري، سوى توجيه رسائل اللوم والتقريع إلى «محمود درويش» الذي اتخذ «بيروت» مرفأ، ثم حمل حسكله، واستقر في باريس بعد ذلك!!

ـ **محمود درويش**: جعل من «فلسطين» برتقالة حيناً، وجمرة حيناً آخر، وأنثى مُعتدى عليها حيناً ثالثاً!

وصار هدفه الأكبر (لإثبات ثوريته): أن يلعن سنسفيل دول النفط(!!).

وجعل من «الوطن» المغتصب: موضوعاً لتجربة «تأملية» فاضت من قصائده!

ولا أطعن في «شاعريته»، ولا في صنعة الشعر لديه... ولكني ـ كإنسان عربي ـ أجدني مطعوناً بكل كلمة تخرج، كأنها رصاصة من مسدس كاتم للصوت، ولم تُسدد في المرمى/الهدف!

ـ ولقد قيل: إنّ شعراء «المقاومة» بعد توقفهم، لم يكونوا أكثر من (ظاهرة)... برزت صحيَّة في البداية، ثم تراكمت عليها نفس القشور التي تراكمت على التحرك العربي، النضالي ضد العدو!!

لقد كان مجال الرؤية لأبعاد المعركة التي حطّمت أسطورة إسرائيل.. هو مجال محدود حتى الآن!

لأن الكتب، والمذكرات التي ظهرت.. كانت ـ في أغلبها ـ متأثرة بما قبل حرب العاشر من رمضان.. بل وصَبَّت جام غضبها، وتقريعها

على نكسة ٦٧... كأنها قد تضامنت مع كل الوسائل، والأساليب الإِعلامية التي انتهجتها إسرائيل، لتمجيد بطولاتها على العرب.. إلى درجة مسارعة العدو إلى شراء ضمائر بعض الكتّاب في العالم، حتى قال مؤلف كتاب: «تحطمت الطائرات عند الفجر»: إنّ العرب تحولوا إلى نشارة من الخشب!

ولقد استطاع العدو الصهيوني أن يشتري ـ مع الكُتَّاب ـ العديد من الصحف الأمريكية، والأوروبية، والعديد من الممثلين، والممثلات، ودور النشر.. ونجح في تشويه وتظليم عدالة القضية العربية!!

* * *

واجبنا اليوم: أن نتوقف عن إصدار كتب المذكرات، ومن يطلقون على أنفسهم: (شاهد عصر).. من الذين يهدفون إلى تبرئة أنفسهم، وتنصُّلهم من المسؤولية التي يلزمهم بها الوطن، والأرض.. وقذف الآخرين بتهم لا يقدر أن يوجهها إلا «التاريخ» وحده.. بينما كانوا هم مجرد «كمبارس» على هامش ذلك التاريخ!!

ـ واجبنا: أن نمتنع عن تقريع أنفسنا، بذلك «الاصطلاح» الذي أطلقوا عليه اسم: (النقد الذاتي)، وقد أحالوه إلى ماسوشية تمارس ضد صُنَّاع تاريخنا، وضد حوافزنا، وضد عواطفنا، وضد فكرنا... هذه الماسوشية التي ما زالت تتبناها صحف تركض وراء أية مادة تحفل بتضخيم السقطات والأخطاء لتروّج مبيعاتها!!

ـ واجبنا أيضاً: أن نتحضّر ـ كعرب فيما بيننا ـ فنكفّ عن أكل لحم بعضنا البعض، والتربص ببعضنا البعض!!

ـ إننا نحتاج إلى: تطوير نُطقنا.. من موقف نظري، سلبي، مشلول، متساقط فوق أرصفة التاريخ، وفوق أجزائه.. إلى موقف: عملي، صارخ، منطقي، يحفل بالدلالات، والشواهد.. ويطوف العالم، ليستقر في وعي الرأي العام العالمي، ووعي المثقفين، والمهيمنين على وسائل الإِعلام في العالم!

ـ ومطلوب أن يكون فكرنا، وأن تكون «كلمتنا» في مستوى القدرة النضالية... بل في قدرة «الحجر» الفلسطيني الذي يُحارب به الأطفال، والفتيات، والفتيان في هذه المقاومة التي دخلت عامها الثالث، ويستشهد من أجل الأرض يومياً أكثر من فتى وفتاة!!

ـ ومطلوب أن يكون فكرنا عملياً.. ينطلق إلى مفاهيم كل إنسان في العالم.. بعد أن أصبحت قضيتنا العادلة مع عدونا، ذات فهم جديد، وأبعاد مغيرة، واهتمام يعكس خطورة لعبة السياسة، والمكر، والحقد، التي تمارسها إسرئيل ضدنا، بدعم من القوى العالمية... والتي تمارسها ـ في الوقت نفسه ـ أطماعنا الذاتية، والفردية، بكل أسف!!

ويتطلب ذلك: أن نتحدث عن روحنا القتالية، وعن ترسيخ إيماننا بعقيدتنا وبأرضنا، وعن تصميمنا على انتزاع حقوقنا المشروعة والعادلة!

ولن يتأتَّى لنا ذلك، إلا عن طريق: التخلي عن خصومة الذات، وممارسة «ماسوشية» بغيضة ضد أنفسنا، وضد تاريخنا... لننطلق إلى خصومة الانخذال، والتسيُّب، والانهزام الروحي!!

* * *

ـ نحن اليوم لا نفتش عن «القيمة الفنية» في أعمالنا الأدبية، كفن

وإبداع فقط... ولا تكثيف المعاناة العربية، وتصعيد الآلام والجروح النازفة... ولكننا ندعو إلى أن يصبح الفكر والفن: إرهاصاً.. يؤكد إنتقال هذه الأمة من مرحلة: الانخذال والانهزام النفسي، إلى مرحلة اليقظة في الشعور، والفكر!

إنّ أكثر ما نطلبه.. هو: وضع الحقائق أمام العالم... وتوصيلها إلى وسائل الإِعلام المختلفة، بل واقتحام تلك الوسائل بما نستطيعه من سبل!!

والسؤال المطلوب.. يصرخ قائلاً:

ـ ما هي الطريقة المُثْلى لكتابة أدب جديد، للأرض.. للوطن.. للقضية.. للحرية، نحقق من خلاله أهدافاً أساسية، من أهمها: إعادة الثقة إلى نفسية الإِنسان العربي، وإلى مفاهيمه... وإقناع الرأي العام العالمي، ومفكريه، وهيئآته.. بأحقيتنا للأرض التي لنا، وللحرية التي أستُلبت منا، وصادرها العدو الرابض فوق أرضنا، والعابث بمقدساتنا؟!!

وإعادة الثقة ـ أيضاً ـ إلى قدراتنا في بلورة زعامات عربية/عربية... تجسد أبعاد ومطالب الإِنسان العربي الطامح إلى إرساء الديمقراطية، والعدالة الاجتماعية، والحرية التي ترتقي بالعقل.. بجانب الحفاظ على الأرض!!

أليست الطريقة المثلى.. تتوفر في كتابة أدب «حقائقي» يصور نضالنا، وصمودنا، وأحزاننا، وآلامنا، واضطهاد القوى العالمية لحقوقنا المشروعة؟!!

ـ فكيف نتصور ذلك؟!

ـ وما هو «التقييم» كمعنى... حتى يمكن أن نصف به ما سنكتبه؟!!

لقد تكاثر «المنظِّرون»، و«الأيدلوجيون» والملوّحون بورقة السلام... كأنهم يكتبون بصوت محبوس، أو صوت مستعار!!

إنّ رواية (لا تَبْك يا بلدي الحبيب) التي كتبها أديب زنجي في الخمسينات.. قد استطاع فيها أن يصور أبشع ألوان الاضطهاد العنصري، فكانت جهداً «إعلامياً» ذكياً وباهراً، بجانب الإبداع في تشكيلها الكتابي!!

وأعتقد أن السؤال المتقدم... سيبقى بوابة مفتوحة، تدعو المفكرين، والأدباء، للعبور منها إلى (أرضية) واسعة.. تحدد عليها معالم أدب جديد، ومباشر إلى مفاهيم العالم!

إنه من الضروري: الحوار في نوعية العطاء، من المفكر، والأديب، والفنان... حتى نحقق خدمة جيدة، ترتقي بتوضيح أهدافنا، وتحديد رؤية سليمة للعالم.. ليبصر من خلالها: أوجاعنا... فيقف معنا!!

المثقفون الثوريون!

ـ إنَّا لنذكر أعواماً... بها سغب...
وبعض أفكارنا.. تختال بالذهب!
ولم نقل: إنّ هذا الخير كان لنا!
الله يرزق...
كم ذقنا من النُّوَب!

ـ إبراهيم العواجي ـ

(١)

ـ وجَه الدكتور «محمد الرميحي» نداءً عربياً، حُراً: (إليهم... إن كانوا يسمعون)!!

إلى أهل القلم، والفكر... في الأردن، في اليمن، في الجزائر، وتونس... في كل مكان مَنَحَهم حرية التعبير، والرأي!!

إلى أهل القلم، والفكر... من الفلسطينيين بالذات!

وتتّحد أصواتنا المنبعثة من الجزيرة العربية... من الخليج العربي.. من خلال كل ذرة رمل في صحرائنا شهدت على «الكثير» ممن وظّفوا الكلمة العربية، ومصداقيَّتنا معهم، ومعاني اللغة العربية.. لشعارات تلفَّعت

حيناً بالوطنية، أو بالقومية العربية، أو بمحاربة الاستعمار، وأخيراً... بالخوف على المقدسات الإِسلامية!!

ولقد فعلنا ـ نحن ـ هنا فوق وطننا الإِقليمي، ومن أجل وطننا العربي الشامل... ما رسّخنا به: أفعال، وجذور، ومصداقية الوطنية، والوحدة بدعوات التضامن، وتوحيد الصف، والوقوف في وجه الاحتلال الصهيوني، والذين سعوا إلى تمزيق الأرض اللبنانية حتى بعد محاولات الوفاق الوطني المضنية، وإقامة حكومة شرعية من البرلمان.. ومناصرة «ثورة الحجارة»!

أما «الإسلام».. فنحن خُدّامه على الذّروة، والمدافعون عن المقدسات فوق السنام... لن يجرؤ أحد أن يُشكِّك في حقب تاريخية متلاحقة، ولا في مواقف أصيلة، نيّرة.. يحتسبها التاريخ المنصف لنا!

* * *

ـ وينبعث سؤالنا الحزين، والموجوع، والمفجوع:

ـ ما هي «خلفيات» هذه البغضاء التي تجد صوتاً أعلى، كلما اندلع حدث في منطقتنا، وكلما ألمّت بأمتنا نازلة، أو كارثة؟!

كأنّ «**نفطنا**» ـ أي ثروة أرضنا ـ **هو لَعْنَتنا**، وهو ميزتنا التي تُصعِّد الحسد، والحقد، وهو الذي يُرسِّب في نفوس الاخرين الشعور بالنقص، وبالعجز، وبالتالي... يولّد الرغبة في: الاستيلاء على أراضينا التي ولدنا فوقها، واحتمل أجدادنا وآباؤنا هجيرها، وجفاف أرضها، وقلة مياهها، وصحرائها، وسغبها، وتشقق أديمها، واحتراق زرعها.. فلما «عوضنا» الله باكتشاف «النفط» أراد أن يجعلنا من الشكورين له!!

ولم نكن من الناكرين لهذه النعماء... بل تمسكنا بنصوص التشريع الإسلامي، وبأخلاق الإِنسانية، وبالأواصر التي تعمق الوشائج... فلم نبخل بثروات أرضنا، ولا بعائداتها على الأشقاء من حولنا.. بل ولا على كل الذين استحقوا المساعدة والعون في كل العالم!

أما بعض أشقائنا... فلم يحفظوا لنا هذه النعمة، ولم يكافئونا على مشاعر الأخوة، وصدق التوجّه في أبعاد ومعاني التضامن، والمشاركة في بناء الوطن العربي الكبير... بل انطلقوا بألْسنة إعلامهم، وبعض مثقفيهم نحو وضع رؤوسنا على المقصلة، وتجريح مصداقيتنا، ونوايانا، وأهدافنا، ورغبتنا المتصلة بقربى الدم في توحّد المصير، وخطوة البناء، والوحدة!

سنوات متعددة... ونحن نتعرَّض للتجريح، بل وللسباب والشتائم!

أول من يندفع إلى مقاضاتنا.. هم هؤلاء: المفكرون، المثقفون، (التَّوْعويون)، المعرفيون... ونجدهم يجيدون مع التجريح ـ تاريخياً، ووشائجياً ـ ذلك اللون من القذف والسباب!

هؤلاء الذين أرادوا لَوْيَ عنق «الفهم»، والتوعية على امتداد الشارع العربي.. بادعاء (فقرهم)، وعدم أحقيتنا في غِنَى أرضنا التي حوّلناها من صحراء إلى جِنَأن، ومن رمال إلى واحات، ومن «داحس والغبراء» إلى: وحدة القلوب، والضمائر، والعقول.. ووحدة في خطوات بناء الإِنسان، والغد!

هذه بطاقة هويتنا الإِنسانية في الجزيرة العربية، والخليج العربي..

ـ فما هي بطاقة هوية هؤلاء الذين «يترفّعون» عن أن يكونوا أشقَّاء لنا.. والذين يدّعون الوعي، والثقافة، والوطنية، والقومية، والثورية، والوحدة العربية... وهم يُغيِّبون الوعي، ويخونون الثقافة، ويطعنون

الوطنية، ويمزقون القومية، ويسفلون بالثورية، ويغرّبون الوحدة العربية؟!!

* * *

ـ إن هؤلاء الشاتمين لنا.. المحرّضين على (اجتياح) ثروات أرضنا، وعلى نهبها، وسرقتها، لن يخرجوا عن مستوى السلوك الأساسي في عملية اجتياح (بلد) كامل.. هو الكويت، وغزوه غيلة وغدراً!!

وكانت أولى عمليات الاحتلال، أو الاجتياح: ممارسة السرقة والنهب، والقتل، وهتك العِرْض!!

وهي سلوكيات عصابة.. لا دولة ذات احترام، وتقدير دولي!

وهي سلوكيات لصوص... تدنّت أطماعهم، ورغباتهم، حتى انحدرت إلى (تحميل) أدوات كهربائية، وأكياس مواد غذائية وسيارات، ونقلها إلى بلد السارق!!

ـ إن هذه «النقطة»/المحور، التي نحاول أن نتوقف أمامها مع (الأشقاء) من المثقفين، والكُتّاب، والثوريين العرب المؤيدين لضم الكويت بالقوة... هي نقطة أساسية في مبدأ التعامل الدولي بين الدول، والشعوب!!

ـ فهل **(يؤيدون)** الرئيس العراقي عليها؟!!

ـ وهل **(يقبلون)** أن تأتي دولة عربية، فتجتاح الأردن، أو السودن، أو اليمن، أو تونس، أو موريتانيا... وتنهب أموال (أهلها) وبيوتهم، وتقتحم أمنهم، وتهتك عرض بناتهم؟!!

ـ هل هذه هي **(القومية العربية)** والتحرر، والثورة، ومعاداة الإِمبريالية، وتأكيد الوطنية؟!!

سيجيب ـ أكثرهم! ـ : لا... لن نقبل، وقد أعلنت حكوماتنا عن رفضها للاحتلال والغزو... لكننا نعترض بشدة على وجود القوات الأمريكية الإِمبريالية في المنطقة العربية!!

حسناً... أجيبونا بحياد، وبمنطق:

ـ هل حرصت المملكة العربية السعودية على إيجاد القوات الأمريكية قبل اجتياح العراق لدولة الكويت، وقبل تهديدات العراق بضرب المملكة العربية السعودية، وتفجير منابع النفط؟!!

لم يحدث ذلك إلا بعد الغزو العراقي، وبعد تهديدها بضرب منابع النفط، وتهديد أمنها... بل وبعد أن طرحت القمة الطارئة، ومجلس الجامعة العربية تدخلاً عربياً، وإرسال مظلة عربية لتفصل بين العراق، والكويت... والجلوس إلى مائدة مباحثات لمناقشة كل مطالب العراق!!

وإذن... هل يُغالط **(المثقفون)** الثوريون، فيتركون **(الفعل)** الأساسي، ويدورون حول ردود الفعل.. كما يفعل الرئيس «صدام»... بهدف إسقاط القضية الأساسية، أو الجريمة البغيضة في التاريخ العربي: جريمة احتلال قُطْر عربي، لقطر آخر مجاور له... وإطلاق الإعلام، وأصوات المثقفين **(التقدميين)** للدفاع عن جريمة الاجتياح، والاغتصاب للأرض، وللبنت العربية... وكأن «كل شيء» قد انحصر تماماً في التواجد العسكري الأمريكي!!!

ـ نحن هنا لسنا (أمريكان)..

ولكنكم أنتم هناك ـ بانحيازكم للجريمة، وللهتك ـ تُساعدون المجرم على التفاخر بجريمته، واعتبارها: ثورية، وقومية، ووطنية!

أنتم هناك.. تُعينون ظالماً، ليوغل في ظلمه، وطغيانه، وتجاوزاته حتى أخلاقياً، ووشائجاً!

أنتم هناك... تذبحون الكلمة فوق نطع العصر الصدّأمي، الذي اشتهر بالدماء، والتصفيات، والتجني على معاني الحرية.. حتى ألبسها القهر، واضطرّها للانتحار علناً!!

(٢)

ـ تُراوح الكلمة العربية في هذا العصر ما بين التصاعد، والإِنكفاء.. ما بين المواجهة، والإِقعاء.. ما بين الحقيقة، والتزوير.. ما بين النضال، والمعايشة!!

وينجذب الكاتب العربي إلى نوعية السؤال الذي يطرحه:

ـ هل يطرح سؤالاً (مسؤولاً) عن تفنيد الحقيقة، وعن إثبات المعلومة الصحيحة، وعن صياغة إجابة تحفل بالمنطق، وبالوضوح، وبنبذ الخوف والارتكاس؟!

ـ أم يطرح سؤالاً (متسائلاً)... قد يحمل التشكيك، وقد يُفتِّش عن الأجوبة، وقد يُطوّح بالمنطق في الجدل، والسفسطة؟!

و «الحوار» عن أبعاد الأسئلة التي يطرحها «المثقفون» العرب في هذا الوقت... يبدو حواراً مدبباً وحاداً، لأنه ينطلق من اتجاهات فكرية متعددة.. وتستعبده أيديولوجيات وافدة، ترشح بكثير من غيبوبة اليقين، والحُجَّة.. وتسرقه «غوغائية» مقصودة، وذلك بهدف نشر المزيد من

صخب القول، ومن اعتساف الشواهد، ومن تغريب «المسؤولية» التي يلتزم بها المثقف، الأديب، الفنان!!

و «الحوار» ـ في عصر الكلمة/العار ـ يُحقن بأمصال مختلفة: هَلْوسة، ذيلية لشعار أو نظام سياسي، تركيع الإِحتياج الشخصي، والرغبات في النفوس التي تضعف!!

بينما «الحور» ـ في استشرافه لنظافة العقل والنفس ـ يشرئب بدور المثقف، والفنان، إلى أهمية، وقيمة «الحدث» الذي يمسّ الانتماء، والوحدة الوطنية، والعقيدة، والمبادىء الشريفة... مثلما يختلط هذا «الحوار» بالدماء الزكية فوق ساحات الشرف، والاستشهاد!

وقد عايشنا ـ في تلك المعاناة الأقسى ـ بعد نكسة حزيران: ذلك الانكفاء الذي أصاب الإِنسان العربي، من خلال أدوات تعبيره: كلمة، وثقافة، وفناً!!

وكانت «الكلمة العربية» متوتِّرة/ متهاوية حيناً.. ومتظلمة، منكسرة بالهزيمة، حيناً آخر!

ولما أرادت أن تجمح، وتتخلص من الأطواق التي ضُربَت حولها... حاول البعض أن يكسر بالكلمة كل الحدود، والمعايير، متطلعاً إلى ما ينتشل «الشعور» العربي من الظلم، والتوتر، والانكسار، والخوف القاسي!

وكان لتلك الصورة مخاض شوكي.. أعطى نماذج من أدب ساخط، أو متمرد، أو ناقم... إلى درجة «الحقد»!

وأعطى ألواناً من التعبيرات المضطربة، والمنتكسة في النهاية!

وخرج «المقف» العربي، بل والقارىء العادي، بحصيلة واحدة، لم

يستَفِدْ منها أي طرف. . . فكانت بكل أسف تشير إلى محتوى سلة الثقافة العربية. . التي تجمعت فيها حقيقة محزنة، وبالغة الإيلام. . هي:

ـ إصابة الفكر العربي الحديث بالانفصام!

وكانت هذه الإصابة، تُشكّل المرحلة الأولى في أبعاد الخلخلة، والشروخ العربية التي أحدثتها أنظمة الحكم السياسية المتعارضة، والمتلاحية. . بل والمتآمر بعضها على البعض الآخر!

ثم ما لبثت أن تفرَّعت من هذه الإصابة: عاهة أشد ضراوة، وتفتيتاً لوحدة الفكر العربي. . تمثَّلت في عدة ظواهر، تفشّت في وريد الثقافة العربية!!

ولعلّ مجموعة «الظواهر» هذه. . . قد اتصلت بنفسية المثقف العربي. وأعملت فيها ارتكاساً، وانفلاشاً، وقلقاً، ومشياً على الماء بشرط أن لا تهتز القدمان!

والتأثير بهذه الظواهر على نفسية المثقف العربي. . قد أوجد ذلك الاصطلاح الحداثي، القائل: (تهميش) المثقف العربي، وإحداث الانقلاب ضد جذور الثقافة العربة!!

ـ فهل استقر «المثقف» العربي في هذا الهامش، أو التهميش وسقط فيه؟!!

ـ يجيب أحد الذين يفتشون عن «رؤية نقدية» من خلال (إدانة) عصر النفط، أو ـ كما يسميه ـ: الإِنقلاب النفطي، وهو الدكتور «غالي شكري»، فيقول في صحيفة «الأهرام»:

ـ (المثقف إما «حليته» متلألئة على الصدر بألمع الماسات وإما «شوكة

في الزور»، يستحسن خلعها، وتحنيطها، وحفظها في مكان أمين!

وبين صدم النظام، وأمكنته الأمنية.. أصبح المثقف هامشياً بلا دور فاعل)!!

من وجهة نظر «غالي شكري» التي تنتمي إلى موجات أيديولوجية: أن واقع المثقفين العرب قد أثّر فيه «النفط»، ولم تؤثر هذه الثروة في أدباء أقطار النفط فقط، بل وحتى في مثقفي الأقطار الذين سمّوا أنفسهم اليوم بـ «الفقراء»!

ونحن نعرف أن العلم الحديث، والتجارب العلمية المتلاحقة، قد استهدفت ـ بالذات ـ رأس (الفأر) لإِثبات: أنه لا عقل لديه... بينما أهملت رأس الإِنسان، أو (الرأس المثقف) الذي يتلقّى الكثير، والمتناقض، والمؤثر، والمغري، والدافع إلى الإِنفعال!

وعندما طرحنا مثل هذه (الخاطرة) الطريفة إلى حد ما، وبعد غدر الرئيس العراقي «صدام حسين» بجارته «الكويت»... أخذنا نتساءل عن ردود فعل بعض من المثقفين العرب، الذين توّج أفكارهم التقدمية بمنحهم جائزته المسمَّاة باسمه، ولماذا تواروا في الصمت أكثر من شهر على الكارثة، دون أن يُفصحوا عن رأيهم: ضد غزو عربي لعربي، أو... معه، استشهاداً بداحس والغبراء؟!!

أم تراهم ـ هؤلاء الطلائع من مثقفي العرب اليوم ـ قد استهدفتهم تجارب «صدام حسين» التي تشبه التجارب على رأس الفأر؟!!

لقد استطاع الرئيس «صدام» ـ عبر مهرجان المربد السنوي، وعلى امتداد احتفالات متواصلة طوال العام ـ أن يستقطب العديد من الذين حملوا الطبول، وأشادوا، وغنوا لـ (قادسية صدام) التي سفحت دماء لا

تُحصى.. واعتبروها من أمجاد العرب العظمى (!!).

وأحسب أن مثقفاً واحداً من الذين (خلع) عليهم الرئيس العراقي جائزته... قد نجا من ريبة الصمت الطويل، منذ الغزو، وهو الدكتور «محمد مصطفى هدارة» أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، الذي أعلن تبرُّؤه من «جائزة صدام» التي فاز بها عام ١٩٨٨!!

* * *

ـ وإذن... ما زال المثقف العربي يعاني من حالة «الانفصام»!

بل إن النماذج التي قرأناها ـ في شكل قصص وروايات ـ أثناء الحرب العراقية/الإيرانية، وروّج لها الإعلام العراقي، وارتفع بمستواها إلى (عبقرية) الإِبداع في العصر الحديث... كانت هي الأخرى من الشواهد على حالة «الانفصام» التي أصابت الثقافة العربية الحديثة... خاصة إذا أفصحت خلفيات تلك الأحداث عن سقوط بعض أقرباء وأهل أولئك المثقفين، والقصاصين، والمبدعين، في ساحات القتال... وإرغام السلطة في العراق أولئك الكُتّاب عى كتابة (إبداعات) الحرب، وتصوير الجريمة في مسوح الشرف، والدفاع عن الوطن!

وهذا «الانفصام» يدفعنا إلى طرح سؤال مباشر في مناخ (التهميش) الذي أشار إليه الدكتور «غالي شكري» للمثقف العربي، وللثقافة.. وهو:

ـ هل لدينا في العالم العربي حركة أدبية، وثقافية (إيجابية)... تخلصت من تبعيتها لليسار، أو لليمين، أو للشعارات.. وأخلصت للحوار، وللرؤية المجردة والصادقة؟!

ـ إذا كنا من (المتواضعين) جداً، أو من الذين تعوّدوا على مجاملة أنفسهم بالتعبير الرقيق، ومن واضعي الرؤوس في الرمال كالنعام.. فلا بد أن نجيب:

ـ نعم.. لدينا حركة ثقافية ـ أدبية، وعلمية ـ وفنية ـ تتطلع إلى دور الإبداع، والرؤية، والنضج!

وهذا الجانب من الإجابة، نتمنى أن نؤكد به صدق التطلع، والابتعاد عن السخرية!

وهناك جانب آخر من الصورة، أو من الملامح... يجيب بنبرة ساخرة، فيقول:

ـ نعم... لدينا في عالمنا العربي الكبير: مجلات أدبية متخصصة، ولدينا دور نشر، ولدينا معارض أدبية، وكتب تصدر بـ (الكوم!) كما الليمون!

ولكن... كل هذا (الْكَم) الهائل يفقد (الكيف)، وتسقط أهدافه الأسمى في التوجيه، أو التوظيف، أو التحجيم... وكلها أسباب تقود المثقف العربي إلى مناخ (التهميش)، وإلى الدوران حول رؤية أيديولوجية، أو «نظريات»، أو «شعارات»، أو خصام مع حرية التعبير، والرأي!

ولدينا ـ أيضاً ـ مناوشات على صفحات الجرائد والمجلات.. ونقرأ عن الأديب الفلاني الذي يشتم الأديب العلاّني، ويُسفّه آراءه، ويلعن (سنسفيله) بمشاعر المحبة، والروابط العربية!

ونقرأ عن المثقف (الثوري) الذي يتأبط شراً، ويتجنّى بالهجوم على مثقف (نفطي)... لمجرد أنه من مواطني هذه الأقطار التي أنعم الله على أرضها بالثروة... فصات نقمة الآخرين!!

وتُسارع الأقطار العربية بمؤسساتها (الثقافية) إلى الاشتراك في معارض الكتب، والمهرجانات... ولكنَّ أصداء تلك المشاركة، لا تتعدى كتابة خبر عن تلك المسارعة... والكثير من الطرح يتم حجبه خوفاً من (الغواية)، أو التأثير... وكأنّ هؤلاء المثقفين، لا يزيدون في وعيهم ونضجهم عن رجل الشارع العادي!!

وهناك بعض أنظمة الحكم العربية التي تُصعّد (الحَجْب)... في تعاملها مع الكتاب، ومع الندوات، ومع المهرجانات... ولا تُعلن وسائلها الإعلامية إلاَّ ما يتفق مع نظرياتها، أو شعاراتها، أو أيديولوجيتها... ولا تُبرز من المثقفين إلاّ الذين نجحت في توظيف كلمتهم للإعلام عن تلك النظريات، أو الشعارات!!

***

ـ والسؤال: ما هو السبب إذن؟!

هل هي حرية التعبير التي صار القارىء العربي يُفتش عنها... بينما يجد تلك الحرية في الدول الحضارية المتقدمة، تعني: حق التعبير، والحوار... وحتى حق الاعتراض، واختلاف الرأي؟!!

ولكن... حتى في تلك الدول الحضارية المتقدمة، التي لم تغب عنها حرية الرأي والتعبير.. نكتشف عدة ظواهر، أو نُدوب، ومنها:

ـ أن «الكتاب» فيها يكاد أن يغرق في هموم العالم!

ـ أن «الكلمة» تتحوَّل إلى: سلاح نووي!

أن القصيدة، والقصة.. صارتا كما فأر مرتجف، صغير الحجم، أمام هجمة الوسائل الإعلامية والثقافية الأخرى، الممثلة في: التلفاز، والفيديو،

والعقول الألكترونية، أو الإعلام المرئي في هذا الانتشار المفزع!

وتأتي الأنظمة السياسية التي عملت على (تهميش) الثقافة والمثقفين.. لتسيطر بواحد من تلك الظواهر، أو الندوب ـ لإثبات تحضُّرها ـ أو تستغل (الكلمة) لإِعلام مهيمن على وسائل تلقّي المواطن العربي لغذاء الثقافة.. أو حتى تلقّيه للمعلومة، في عصر أطلقوا عليه اسم: (عصر تفجّر المعلومات)!!

إن الحوار مع العقل.. لا يعني ضرورة (تحويل) إستنباط العقل، وفهمه، ليكون العقل موظفاً لأغراض الدعاية.. بل يعني: تفتيت المتناقضات، واستخدام مباشَرَةَ النضج للحوار، وللعلاقة (الاجتماعية) المتطورة دائماً بين المثقف، وهموم الإِنسان، وطموحاته.. وبين التأثيرات، والنظريات الغير قادرة على لتطبيق!!

وإذا كانت بعض المهرجانات الثقافية العربية ـ كالمربد ـ قد ركّزت على تحقيق انضواء الكاتب، أو المثقف، تحت شعاراتها، وأغدقت عليه الجوائز، والسيارات.. فتلك حالة ضعف تولّدت من أبعاد «الانفصام» الذي استشرى في واقع الإدارة العربية!!!

ـ إن «صدام حسين» قد استهدف قبل عام ١٩٨٠م، وأثناء إشعاله الحرب مع إيران.. أن يوظف «الإعلام العربي» لأغراضه، ولأطماعه التي كان يُخطط لها، ويحدد توقيت التنفيذ!

ولا ننكر أن «الإعلام العربي» قد سقط حقاً في خديعة هذا «الفرد» العراقي، المتطلع إلى السيطرة، والقوة، ليجعل من نفسه: زعيماً عربياً.. يدين له الشعب العربي بصفات: الفارس، والزعيم الذي يهدف إلى توحيد

العرب، أو إلى تحقيق وحدتهم، وإلى تخليص الأراضي المحتلة من براثن الصهيونية!

ولقد وظّف «**الإعلام العربي**» في إطار هذا (الصوت) الذي أعلنه من خلال كل وسائل الإعلام العربية: مسموعة، ومقروءة، ومرئية..

وأيضاً.. استطاع أن يُسخِّر المنافذ الثقافية لأطماعه، ونواياه.. سواء كانت: مهرجانات، أو مؤتمرات، أو ندوات، في مجالات الثقافة، والآداب، والفنون بأشكاله المتعددة!

وكان نظام صدام.. يستهدف دعوة «المثقفين» الذين يعرف إعلامه عن ميولهم اليسارية، أو أفكارهم التقدمية، أو مناداتهم بعودة العرب إلى الوحدة العربية، والتضامن العربي.. وذلك ليعكس ـ من خلال هذه الدعوات المدروسة والمخصصة ـ أنه يرأس نظاماً تقدمياً، قومياً، وطنياً!

ولم يكن مهرجان (المربد) الأدبي السنوي.. هو الوحيد الذي كانت بغداد تقيمه في كل عام، وتدعو إليه ذلك الحشد المتكاثر من المثقفين، والصحافيين، ووكالات الأنباء!!

***

إن النظام العراقي في حَمْوة حربه التي أشعلها مع جارته «إيران»، وكانت أجواء العراق تعاني من الحرب، والضغوط النفسية.. كان يقيم مهرجانات متلاحقة على امتداد شهور السنة.. ومنها:

ـ **مهرجانات للمسرح العربي**: تستضيف لها بغداد نخبة كبيرة من الفنانين والفنانات، وتشغل وقت الناس بندوات عن المسرح وتاريخه وتطوره.

مهرجانات للأغنية العربية: بنفس النظام، والهدف، والإِشغال، وتبذير آلاف الدنانير، ليس من أجل الكرم العربي، بل لخدمة أهداف إعلامية مكشوفة.. ولمحاولة (استمالة) أو كسب تعاطف العديد من الكُتَّاب، والمثقفين، والمتخصصين، والفنانين، والفنانات.

وكنا نستطيع مشاهدة أي **(مثقف)** أو أديب.. وأي فنان، أو فنانة،من أي قُطْر عربي.. في تلك المهرجانات، والندوات**!!**

ويُلاحظ أن تلك المناسبات.. يقيمها «الإعلام العراقي» ليحقق مِنْ ورائها مكاسب الدعاوة للنظام، وتكريس الإشادة، والإِعجاب «بالقائد**!**» صدام حسين.. الذي يستقطب: الثقافة، والعلوم، والفنون، ليقال أنه: يرعاهم، ويحرص على تشجيع المثقفين، والعلماء، والفنانين.. لخدمة القضايا العربية، والوطنية، والقومية**!!!**

وقد رصد مبالغ ضخمة لإِرضاء غروره، وأطماعه، وهيولته.. وذلك من خلال تسمية جوائز كبيرة (باسمه**!**).. ولعلّه كان يتطلع إلى أن يكون في مستوى **(نوبل)** أب القنبلة الذرية.. ليصبح هو: أب السلاح الكيميائي العربي، وأول قائد عربي يقتل أخاه العربي، ويدمر قُطراً عربياً، ويسرقه**!!**

وهكذا.. وظّف «صدام حسين» الإعلام العربي، وحاول سرقة عقول، وضمائر المثقفين العرب باسم: الوطنية، والعروبة، والحرية، ومهاجمة الإمبريالية... لتكون هذه الشعارات القاصرة عن التطبيق، هي إغراءاته للمفكِّرين، وللمثقفين، وللفنانين العرب.

ولعلّه نجح في مصادرة أصوات بعض المثقفين والأدباء العرب.

كما نجح في مصادرة أصوات الشيوعيين، والعلمانيين مثله، وسماسرة الشعارات التي يَثْرون من وراء ترديدها**!!!**

محمد حسنين هيكل!

ـ لم تعد الكلمة العربية في تناولها، وانتمائها: حكمة، ولا ضميراً، ولا موقفاً وطنياً... بقدر ما عمد البعض إلى تجليطها، وتحويلها لتكون: عقاباً، وغيظاً، واحتداداً، وصراخاً، وبغتة، وانطراحاً!

إنها قضية إنسان هذا العصر الرديء.. المختفي في طيات تقلبات النفوس، أو تنوُّع النقائض، والعقد، والبغضاء النفسية!

لذلك... لا بد أن يُعاني الإِرهاص الأدبي، من أزمة أوجدها الانفلاش، ومن أزمة غياب الأصالة!

صار وجدن «العربي» مسكوناً بذلك العقاب، والإِنطراح... ينتمي شعوره في كثير من التلقي، والحصيلة، إلى: المصالح المادية المتصادمة غالباً، كلَّما طغت (الأنا)، أو انشرخ الحلم العربي!

إن «قضية ما» ـ إنسانية، وقومية، وانتمائية ـ تبدو في تصدّع الحلم العربي وهي: مبتذلة، ومشروخة بالوجع والفجيعة!!

صار عقل «العربي» موظفاً تابعاً لهذا الاستهلاك البشع للطاقة الإنسانية، والضميرية، والعاطفية.. في صحة التعبير الحياتي، المطروح تحت أظلاف أحلام اليقظة العربية!!

ولا بد أن خطورة الكلمة المناوئة للحق، وللإِنصاف، وللإِخلاص

لهاجس التضامن العربي... وهي تناور بادعاء: الدفاع عن حقوق الشعب العربي، وهي تُغرق هذا الشعب في مزيد من التمزق، والشروخ.. هي خطورة تبدو أكثر قتلاً، وتدميراً من خطورة كلمة إعلام العدو الصهيوني، الذي يُفصح عن عدائه.. بينما الكلمة المدَّعية، المصبوبة في نهر وحدة العرب، وحقوقهم المشروعة، وتعمل على إحداث الشقاق في الرأي العام العربي... هي كلمة التدليس، والزيف، والخيانة لضمير الأمة العربية!

***

ـ ونتوقف ـ لطرح مثال على تحويل الكلمة إلى عقاب، وغيظ، وانطراح ـ عند المقال الذي كتبه، بغير لغة قومه العربية، السيد: «محمد حسنين هيكل» في صحيفة (التايمز) اللندنية، بعددها الصادر يوم (١٢) سبتمبر، لنتساءل في البدء:

ـ تُرى... هل تبلورت نظرة السيد «**هيكل**» في عزلته التي فرضها عليه القارئ العربي، ليجد أن «صدام حسين» يمكن أن يكون «**جمال عبد الناصر**» آخر... يُعيده إلى الجلوس أمام الأضواء العالمية التي احتشدت حوله بسبب ما توفر له ـ حينذاك ـ من: معلومات، وأرشيف.. حتى إذا أفلس منها، وانتهى دوره المحدد بانتهاء تلك الفترة، أخذ يُكرر نفسه، ويميل إلى شتم القادة، والتشكيك في انتمائهم، وعروبتهم؟!!

لقد توافق رأي «**هيكل**» ورائحة مقاله الذي نشره في (التايمز). مع رأي ورائحة ذلك التصريح الذي أدلى به «وزير الثقافة والإعلام» العراقي للتلفاز الفرنسي!!

ـ تحدث «هيكل» عن: (عرب الصحراء... البدو، الرجعيين،

الجهلاء، الذين خصَّهم الله سبحانه وتعالى في تقسيمه للرزق، بثروة النفط. . . فكان هؤلاء المتأخرين، المتدنِّين في الحضارة، والمدنيَّة، هم المتسلطين على ثروات العالم العربي، والشعب العربي)!!

وألغى «هيكل» المنطق، والحقائق، وخطوات البناء، والتعمير، والتنمية، وإسهامات هذه الثروة، ومشاركتها الأساسية والهائلة في بناء التنمية، والتعمير، والإِنسان أيضاً في الأقطار العربية. . . التي دمرتها «الإنقلابات»، والشعارات التي ضحكت على الشعوب، حتى أودت بأقطارها إلى التردِّي الاقتصادي، والتنموي، والاجتماعي!

ـ وتحدث «**وزير الثقافة والإعلام**» العراقي عن: **(هؤلاء البدو الهَمَج)،** فقال لمذيع التلفاز الفرنسي متبجحاً، وناكراً للجميل، وغامطاً للحق:

ـ «نحن مثلكم نحمل نفس النظرة عن هؤلاء البدو الهَمَج. . أنتم صنعتم أول ثورة حقيقية في التاريخ، ونحن نصنعها الآن ضد هؤلاء البدو سكان الخليج. . ونحن وحدنا القادرون على تدميرهم، فلماذا تقفون ضدنا»؟!!

ومِثْل هذا الكلام الطافح باستعلاء الوزير **(العربي)** على أهله العرب، والملوث بنفاقه للشعب الفرنسي. . . لا يمكن أن يُزَوّر التاريخ أبداً!

إننا نحن أصل العروبة، الذين وصفنا بـ «**البدو الهمج**»، نرتفع فوق كل هذه المغالطات، والافتئات، والقَيْء الذي لا ينسجم مع ما نتطلع إليه من (ضمير) في مضمون الكلمة العربية!

ولقد كتب السيد «هيكل» مقاله باللغة الإنجليزية (لغة الامبرياليين) الذين اقتصر تعامله المادي معهم اليوم. . . وبهذا الموقف الذي قصده،

إنما هو يتجشأ كلماته في صحيفة بريطانية: خجلاً من لغة القرآن، وإحساساً بالتضاؤل من أن يكتب **(فِكْره العربي)** في صحيفة عربية!

كأنه يقول: إنني لا أكتب للقارئ العربي.. فهو أقل من أن يفهم، ويعي!!

ومنذ أن سمح السيد «محمد حسنين هيكل» لنفسه في كتابه «**خريف الغضب**» أن يتعرض بالوصف السيِّئ، والشتم... مُعرضاً **(بأم)** الرئيس الراحل «أنور السادات»، وبلهجة عنصرية بغيضة **(بأنها سوداء!!)**... فقد خسر «هيكل» بأخلاقياته المثلومة هذه: نسبة كبيرة من قرائه الذين كانوا يتطلعون إلى طرحه السياسي، أو فكره السياسي.. حتى وإن اختلفوا معه في الرأي، والتحليل!

لقد نسف (الاحترام) له... بسقوطه في البغضاء، والعقاب الذاتي!

* * *

ـ فما الذي يريده السيد «محمد حسنين هيكل» اليوم من أقطار الخليج والجزيرة العربية!!

نحاول ـ بالتأمل ـ استرجاع حقبة من الزمان، إندثرت في هذا الزمان الجديد.. وكانت: حقبة «قُوَى الكلمة الطاعنة».. التي تُسدِّد طعنها مباشرة في كبد الحقيقة، وطعنها لقيم الرجال، وطعنها للتاريخ وصُنّاعِه، وطعنها للرؤية العقلانية البعيدة عن الإِثارة!

فما أسرع ما تتحول الكلمات إلى أحجار تهوي في قاع النهر..

وما أكثر الأحجار التي استهدفت رجال التاريخ، وصُنَّاعَه، ثم غابت في القاع!

ـ بالأمس ـ في **حقبة قُوَى الكلمة الطاعنة ـ** كان يُوجّه الرؤوس الرمحية المنقوعة في السم والبلاء إلى المملكة العربية السعودية بالذات، وأقطار الخليج... وكان ـ بكلماته ـ يحاول قتل مواقف الرجال بمراحل المواقف، التي لم يكتمل بعضها، والتي فشل بعضها الآخر!

ـ واليوم ـ في **عصر الكلمة/العار ـ** يُجرِّد العربي من جذوره، وأصوله، فَيَصف البدوي/الأصل بأنه «همجي»، وأن الكارثة على العرب تكمن في: هيمنة هؤلاء البدو، أو عرب الصحراء، على الثروة العربية!!

ـ بالأمس: أتى مُكسِّراً رماحه، وكتب حلقات عنوانها: **(الحقبة السعودية في التاريخ العربي المعاصر!)**، وحاول أن يتراجع إلى حيث تقف المملكة العربية السعودية، في لحظة عِرْيِه من القيمة، وانحسار الأضواء عنه، ليحتمي بكلماته فيها!

أصبحت «صراحة» السيد «هيكل» في تلك الحلقات اليتيمة، مرتكزة على: (ترسانة فهد) ـ كما أسماها ـ وعلى مواقف المملكة العربية السعودية التي وصفها يومها بقوله: (إنها مطلوبة وليست طالبة، والصوت العربي الوحيد الذي له أصداء وإصغاء)!!

منتهى العجب، وربما النفاق، وربما القدرة على تغيير الجلد (!!).

ـ بالأمس: إعترف السيد «هيكل» في حلقاته تلك، بأن «مواقف المملكة العربية السعودية فعّالة، ولها تأثير لا يمكن تجاهله على المناطق المحيطة بها»!!

فكيف تحولت المملكة العربية السعودية ـ يومها ـ من دولة رجعية، تُعطِّل مسار العمل العربي، حسب وصفه الأسبق، إلى دولة: (تنتشر في العالم، وتكتسح مواقع مؤثرة)؟!

ـ واليوم: يعود السيد «هيكل» إلى وصف المملكة بـ «عرب الصحراء، الهَمَج، الرجعيين»؟!!

إن سياسة المملكة العربية السعودية لم تتبدل مطلقاً، منذ أن قام كيانها الكبير بالعمل (الوحدوي) الذي صنعه الملك عبد العزيز، وحتى اليوم... الموقف السعودي هو نفسه، والتحرك السعودي هو نفسه.. لكنَّ المتغيرات حدثت للآخرين، وفي انفعالاتهم!!

إنَّ رحلة السيد «هيكل» الجديدة، ما زالت تُماثل رحلاته السابقة!

إنها تبدأ من: انفعالاته، وميول مصالحه أو شرائها.. ويُسخِّن عقله بمقدار انفعالاته، ومصالحه.. وتتكاثف تلك الانفعالات بحجم مصالحه، وليس بحجم (فِكْرِه)... لأنَّ فِكْره لم يتغير، ولكن انفعالاته هي التي تتغير، ومصالحه هي التي تتحول!!

ـ ونريد أن نطرح سؤالاً مباشراً على (فكر) السيد محمد حسنين هيكل:

ـ ماذا فَعلَتْ القوى التقدمية ـ حسب تعبيره ـ بما بعد النكسة وبحرب لبنان الأهلية، وبتخريب إقتصاد السودان، وبالتآمر على البحر الأحمر وتهديد أمنه، وبزرع القلاقل، وإحداث المجازر في القارة السمراء، وبخطط التنمية، وتحسين الأوضاع الاقتصادية في أقطارها... وحتى بدورها (الداعم) لحرب العراق ضد إيران؟!!

ـ ألم تكن «**القوى التقدمية**» هي التي صنعت كل ذلك التخريب والدمار... بل، وكانت (العميلة) لتنفيذ خططه؟!!

ـ ألم تكن المملكة العربية السعودية، وأقطار الخليج، هي الجهة

الأساسية التي مولت الحرب العراقية ضد إيران ثماني سنوات، لتَحْمي الخليج، والجزيرة، والثروات العربية من الأطماع الإيرانية في التوسع، وإقامة الإمبراطورية الفارسية؟!!

ـ ألم تكن **(القوى الرجعية)** ـ حسب وصفه ـ هي التي حقَّقت وحدة الأمة العربية، بالعمل على ترسيخ قاعدة للتضامن... والمشاركة مادياً في كسب حرب العاشر من رمضان.. والإسهام في إسقاط التجزير الذي حدث للبنان... وكبح إهدار الدماء العربية.. واستقطاب مكانة الدول الإفريقية من خلال تقديم الدعم المالي لها لإِعانتها على بناء اقتصادها، ومشاريعها التنموية؟!!

* * *

ـ من مصطلحات السيد «محمد حسنين هيكل» ضمن تنظيره السياسي.. تلك العبارة التي كتبها حين أراد بها الخروج من حقبة: «قوى الكلمة الطاعنة»، ليدخل إلى ممالأة الدول النفطية.. فوصف الحقبة الأخرى بأنها تمثل واقع: (تراجع الثورة، وتقدم الثروة).. أي انحسار القوى التقدمية، وتقدّم القوى (التأخرية) أو الرجعية، كما يصفنا!

وكان يريد أن يوحي للمواطن العربي بخبث ملحوظ: أن القُوَى التقدمية كانت: فكراً، أو رأياً، أو تغييراً... بينما القوى الضاغطة هي «الثروة» التي لن تتميز بغير المال المدفوع!

يومها... وصف السيد «هيكل» دور المملكة العربية السعودية في معالجة قضية العالم العربي، وفي (وقفاتها) القومية، والعربية.. فأسماه: **(النفوذ السعودي)!!**

وكانت هذه النظرة الحاقدة للسيد «هيكل» تُعاشره وهو يمالئ الدول النفطية، كما أسماها!

والمملكة لا تُلحُّ على مثل هذه الشريحة من الكُتَّاب الذي يمثلهم السيد «هيكل»، لإِثبات دور المملكة العربية السعودية، وفق **(مشاعره)**. . . فليس هدفنا أن يتبلور دورنا، وتاريخنا. ليتحول إلى «حقبة» تاريخية يقرأها التلاميذ في كتب التاريخ. . بل الهدف يستشرف رسالة الانتصار «لعقيدة» راسخة تُدافع عنها حتى الموت، ورسالة الانتصار «لقيم» لا يتحمل الكثير تبعاتها، وأول هذا الكثير: شريحة السيد «هيكل» الغير ثابتة على التزامات القومية والوطنية!!

إننا ـ في هذا الوطن ـ لم نتطلع في يوم ما إلى «نفوذ» لنجعل من حولنا: أتباعاً، و«زلمات»، و«فتوَّات» كما حاول «صدام حسين». . . لكنّ المملكة العربية السعودية تعمل على إِرساء قاعدة: التضامن العربي لمواجهة التحديات، ولدعم الأشقاء مادياً لإِعانتهم على بناء مشاريعهم التنموية!

إنّ قاعدة هذا «الكيان الكبير» تقوم على ركائز: التوحيد والوحدة. . . دفاعاً عن الدين العظيم. . وانتصاراً لقضايا الإِنسان العربي العادلة. . وإنتماء للأرض، وللأرومة، وللدم!!!

قُطَّاع الطريق السياسي

ـ الذين يُمسكون الآن أقلامهم للتدوين التاريخي، لهذه المرحلة العصيبة على «النفسية» العربية، التي تُقتل فيها «الحرية» باسم: الدفاع عن الحرية.. هم ـ أيضاً يُمسكون أنفاسهم، في هذه اللحظات الحُبلى بنَزَق الرعاع من قُطَّاع الطريق السياسي!

وفي البدء... أراد «قائد» قُطَّاع الطريق السياسي أن يستخدم (الكلمة) لإِظهاره، وتظهيره، وتلميعه.. فأنفق بلايين الدولارات من اقتصاد بلده، وقُوت شعبه في العراق... لإِقامة المهرجانات الأدبية، الثقافية: (المربد)، والفنية ـ المسرحية، والسينمائية، والغنائية ـ ولشراء ذمم وضمائر بعض أصحاب المطبوعات الصادرة من أوروبا باللغة العربية، لتُسبِّح بحمده، وشكره، وزعامته، و «قادسيَّته»!!

ووظّف (الكلمة) في تشكيل الرعاع/الأتباع من خلفه.. والذين وحّدت بينهم: أحقاد، وأطماع، وسلوكيات اللصوص.. وجمّعت بينهم فرصة العمر التي قفزت بهم إلى مواقع السلطة والحكم في أوطانهم.. إما بواسطة الانقلاب العسكري، أو الانقلاب على رفقاء الدرب.. وإما بقوة خلفية من قوى دفعت بهم من الوراء لتنفيذ مخطط أطماع وأغراض!

وركز «**قُطَّاع الطريق السياسي**» على دور (الكلمة) لسجنها ـ أولاً ـ

في التبعية لأنظمة حكمهم، ولتهديد كُتّابها، ولتوجيهها نحو رفع شعارات: قومية، وثورية، واستعلائية، غارقة في الإدعاء، من أجل كسب الشارع العربي، وتهييجه في المواقف المُعدّة لحصد التأثير الشعبي... حتى بلغنا هذه المرحلة التي حوّلوا فيها **(الكلمة)** من صوت حق، وخير، وانتماء.. إلى صوت يطفح بالقذارات، والسباب، والحَرَد!

ولا بد أن **(التاريخ)** في هذه الفترة بالذات.. يقف مندهشاً أمام ما يجري فوق الساحة العربية من تصدع، وتهشُّم.. الخاسر فيهما أصحاب الأرض المحتلة.. والقَنَّاص من نتائجهما: الطامعون في الزعامة، والسيطرة، وسلب خيرات الأرض، وطمس عقيدتها وتراثها، واستعباد إنسانها!

والتاريخ المعاصر ـ في وقفته الحسيرة اليوم ـ يوقر سمعه هذا الشعار المخضّب بدماء الأبرياء... وقد رفعه «**قُطَّاع الطريق السياسي**» مردِّدين:

ـ لكي تحكم وتسود.. فلا بد أن تقتل من أمامك، ومن حولك، وتضع يدك على أرض جارك، وتُشرِّد شقيقك العربي!!

فما أسهل قتل الإنسان العربي اليوم!

إن شعار **(ميكيافيلي)** الذي رفعه قائلاً: «الغاية تبرر الوسيلة»... قد وظّفه «قُطَّاع الطريق السياسي»، وحاكوا بخيوطه مؤامرتهم الكبرى على وحدة الجزيرة العربية... حتى أصبح هذا الشعار الميكيافيلي: منهاجاً قامت عليه أشكال الحكم والسلطة في: بغداد، وصنعاء، وعمان، والخرطوم، وتونس، كعاصمة مزدوجة لبلدين(!!).

إن «**الغاية**» ـ وهي سرقة ثروة الخليج ووضع اليد عليه ـ كانت دائماً

في نوايا، وخطط عصابة «قَطَّاع الطريق السياسي».. التي تستهدف هذه الركائز:

ـ **أولاً**: تسييس الثقافة، والأدب، والفنون، وشراء المطبوعات، والمؤسسات الثقافية والفنية، وصب هؤلاء جميعاً في مجرى الإِعلام المُسمى: قومياً، ووطنياً، ونضالياً، وتقدمياً.. وتكوين خلايا تتمدد كالسرطان، وتتضخم، وتنتشر مثل بقعة الحبر إلى المهرجانات، والندوات و(الفعاليات) الثقافية، والفنية، والعلمية.. في داخل الوطن العربي الكبير، وحتى مقاهي باريس، وحدائق لندن.. لتتحول بقعة الحبر إلى بقع دم... تفترش فتصبح نهراً من دماء الأبرياء، والمخدوعين.. الذين يتم شراء أفكارهم، وضمائرهم.. أو تتم تصفيتهم جسدياً فوق أرصفة أوروبا!!

ـ **ثانياً**: سَعَت هذه العصابة إلى تقويض العقيدة، ومحاولة هدمها، وتخريب أذهان، وأفكار النشء.. بما تبثُّه من أفكار علمانية، وإلحادية، عبر المطبوعات التي اشترتها، وسخَّرتها لمهاجمة من وصَفَتْهم بالرجعيين، والتأخريين، والعملاء!

وقد جسّدت أبعاد مخططها ـ عبر استغلال الكلمة ـ في أحد شعاراتها التي رفعتها سنوات عديدة، وقالت:

ـ (إن الناس سجناء التاريخ، وأدوات لتحقيق غرض كوني يسير نحوه الجنس البشري بقوة.. لا يمكن مقاومتها)!!

ـ **ثالثاً**: إن هؤلاء الذين أشاعوا أنهم يعملون على مقاومة القوة التي لا يمكن مقاومتها إدعوا أنهم ـ كذلك ـ يعملون على إخراج الشعب العربي من سجن التاريخ الذي وضع نفسه في داخله!!

بينما يدل الاستنباط لأفعال «قُطَّاع الطريق السياسي» وأهدافهم، على أنَّهم أرادوا إدخال الشعب العربي كله في سجن (موحّد) ضيِّق، وعفن.. يعيشون في اختناقه وِفْق سياسة القمع، والإِرهاب، وغسل الدماغ، وخلخلة معاني الحياة الجميلة، ونقاء الحب!!

* * *

يتساءل المؤلف المسرحي «**الفريد فرج**» عن «نقطة التقصير»... فيقول:

ـ «إننا نقف شهوداً على انقسام عربي خطير.. فهل أدَّت الثقافة العربية واجبها.. وهل كانت الأجهزة الثقافية، ومنابر الفنون، وميزانيات الثقافة والإعلام، وتُعدّ بمئات الملايين سنوياً، هل كانت هذه الأموال تُكرس في الاختيار الصحيح، وهل كانت تحمل المسؤولية على الوجه الأكمل»؟!!

سؤال مباشر وإلزامي في هذا (الزيغ)، والافتئات، والتدليس!

ـ إعلام الرئيس «صدام حسين» أنفق **(٨٧٠) مليون دولار** على الإعلام العربي، وسخَّره طوال عشر سنوات ليتحدث عن «قادسيَّته، وفَاوِه»... وليُمجّد في أعماله: «القومية، والوحدوية، والنضالية» وشعبه يموت جوعاً، وجلاوزته يمارسون تصفيات الشرفاء والأحرار: قتلاً في الداخل والخارج.. حتى طالت يد إرهابه، وحِدَّة خنجره رقاب بعض الزعامات الفلسطينية التي رفضت الانضواء تحت سيطرته، وتوجيهه السياسي!

وأكثر من مرة في العام الواحد.. يحج مئات المثقفين، والمبدعين،

والفنانين إلى مهرجاناته، وندواته، وفعالياته... ليُغدق عليهم الهِبَات، والسيارات الفاخرة... وتتدفق كلمات مديحهم، وإشادتهم بصِفَاته في: العروبة، والبطولة، وأسطورة «**جلجامش**»!!

بما يعني ـ في الحصيلة ـ: خدعة العالم العربي، بل وتطوّعه أحياناً في تضخيم حجم «طاغية»، كان يتوارى خلف أمجاد سرقها، وادّعاءاتٍ حبكها، وتدليسٍ قَلَبه إلى قناعات، وتزوير لمّع به الزيف ليجعله أصالة وحقيقة وطنية!!

وهناك وسائل أخرى.. تمكّن من خلالها أن يحقق غايات «لذاته»، واستقطاباً لشركائه أعضاء عصابة «قُطاع الطريق السياسي».. ومن أهمها:

ـ **أولاً**: البحث عن الرعاع، والمرضى بأمّية الضمير، والحاقدين على مجتمعاتهم العربية ـ التي تملك ثروة أرضها بالذات ـ وصَهَرهم في بوتقة (الكلمة/العار)!!

لقد حقن هؤلاء ـ ومن ضمنهم شركاءه في العصابة ـ بمزيد من أميّة الضمير، وحقد الفشل، والإستعداد لتلوين كلماتهم، وتبديل وجوههم كالأقنعة!

ـ **ثانياً**: عندما استقرت سفينة مؤامرته في (وجدان) الشارع العربي، خاصة بعد تزوير هزيمته في حرب إيران، وجَعْلها انتصاراً، واستعراضه في رئاسة القمة العربية ببغداد، كداعية للوحدة العربية، والقومية، وتحرير فلسطين... بدأ في تنفيذ مخطط الغدر، وإسالة لُعاب الشركاء في اقتسام (كيكة) الجزيرة العربية، واقتسام ثروة النفط الخليجي... ليمارس على هؤلاء الشركاء فيما بعد: وصايته، وتأميم عائدات النفط باسم الفقراء العرب... فجعلهم مثل أحجار الشطرنج!!

تلك «غاية» قُطَّاع الطريق السياسي، بقيادة هاتك الأعراض العربية فوق أرض الكويت الجارة، والشقيقة... وقد تعددت وسائل «الغاية» بأقذر الممارسات والأساليب.. وأكثرها إجراماً، وطعناً للتضامن العربي، وتلويثاً لدور (الكلمة) العربية، وشراءً لضمائر، وحرية المثقفين العرب!!

* * *

ـ لقد كانت المرحلة الأولى من مؤامرة (الفتنة) ممثلة في: إلقاء القبض على (الكلمة) العربية، وسِجْنها في طاحونة التمجيد لزعامة (فرد)، أَوْهَم الشارع العربي أنه: المناضل الأكثر صدقاً من الزعامات العربية.. وأنه: الوحدوي الذي ينسج للشعب العربي «حلم» تكوين الأمة الواحدة، المتآلفة، المتوحّدة في الكلمة، والصف.. وأنه: القاضي الذي سينتشل الفقراء العرب من وهدتهم، و... يُغِير على الأثرياء لسرقة ومصادرة ثروات أرضهم!!

وكانت المرحلة الأخرى بعد تفجير **(الفتنة)**، مجسَّدة في: تمزيق الصف العربي، وتأليب الشقيق على شقيقه، وغرس الحقد البغيض في نفوس البسطاء، وسواد الشعب العربي ضد بعضهم البعض!

لقد انتقل حاكم العراق بالنفسية العربية ـ بعد ذلك ـ من مرحلة الشقاق، والحقد، والتمزيق، إلى المرحلة الأخيرة الأخطر.. وهي: تحويل العرب إلى التقاتل فيما بينهم، والتآمر على بعضهم البعض!!

ولعلّنا ـ أخيراً ـ نتوقف عند هذا الحصاد المُرّ الذي جمّعه الرئيس العراقي «صدام حسين» لأهله العرب، والذي يشير إلى هذه الرؤية التعيسة جداً:

ـ إن اللحظة التي خرج فيها «**صدام حسين**»... من قناعته برئاسة دولة العراق، إلى أطماعه في السيطرة على العالم العربي، ومناداته زعيماً أوحد على كل العرب... لم تكن أبداً: لحظة قوة خاصة به، وإنما هي الدليل على: أن القوة الأساسية التي تستمدها أطماع «صدام حسين»... هي قوة الحقد الذي يتبطن نفسه.. وهي قوة الدوافع التي وظّفته لبيع ضميره العربي لها... وهي قوة اللعبة الكبيرة، الشاملة، الهادفة إلى تغيير خارطة المنطقة كلها!!

البيَّــاتـــي

ـ الجماعة تفرز الأفراد، وتَصِفُهم، وتحكم عليهم،وتفسح لهم المكان... حسب عطاء وإبداع هذا الفرد.. وبمقدار الجماعة عن سلوك كل فرد.. وبعمق انتماء الفرد للجماعة!

إن السلوك... هو: مطلب الجماعة في الفرد!

وإن التربية، والتقدير من الجماعة للفرد.. هو: مطلب الفرد في الجماعة!

وإن السلوكيات «الخاصة» من الفرد نحو الجماعة.. هي: تصرفات تؤثر بانعكاساتها على المجتمع، أو على الأمة التي ينتمي إليها هذا الفرد... بينما التصرف «الخاص» ـ في الغالب ـ هو: صفة سلوكية، أو مرض نفساني، أو طبيعة، أو مؤثرات ترسبت حتى تحولت إلى عقدة!

ورغم ذلك.. فإن «**الجماعة**» تدين الفرد فيها بالخصوصية!

ولا بد أن يرتبط هذا السلوك الفردي بتفكير أو أفكار الفرد... خاصة إذا كان بارزاً من شريحة تتعاطى العقل، وتُسمَّى بـ «**المثقفين**».. بما يعني: بروزه في طلائع الموجِّهين للرأي العام، والمؤثرين على القيادة الفكرية، والمعرفية!

من هنا.. تبلور اصطلاح (الظاهراتية) الذي مَنْهجه «هيجل»، ونسج

من خيوطه فلسفته عن: **(ظاهريات العقل)!**

ويفترض في هذه (الظاهريات) أن تنحرف، أو تشوَّه، أو تسقط في نقمة الذات ضد مصلحة فردية، أو لمكاسب تلك المصلحة!!

وفي هذه **(الفتنة)** التي طحنت المجتمع العربي، وعصفت بتطوره السياسي، والثقافي، والتنموي.. لم تستطع تلك الشريحة من المثقفين **(الرافضين)** أن تتجانس في الجماعة العربية، التي حلمت سنوات طويلة بالوحدة، وبالمؤسسات الفكرية التي تبني أجيالاً من المتلائمين مع قفزات العالم الحضارية، والثقافية!!

وعجزت ـ كذلك ـ عن بلورة (المعرفة) التي تعين الإِنسان في المجتمع العربي على تنمية: العقل العارف، وعلى اكتساب مناهج فكرية جماعية، لم تتلوث بذاتية الرفض، أو التمرد.. لمجرد المناوأة لمسيرة البناء العربية في إطار التضامن، أو قيام المؤسسات الثقافية!

بل إن هؤلاء المتمردين، أو الرافضين.. قد حاولوا ـ بظاهراتية متأزِّمة ـ أن يوظفوا المهرجانات، والندوات الثقافية في العالم العربي، على شكل تحديات، تدَّعي الأيديولوجية، والمنهجية... ولكنها في حقيقة الممارسة: تنسف «العقل العارف» لدى المتلقي العربي، لتحبسه في شعارات، وسخط مريض!

وإذا كانت المرحلة التي سبقت إندلاع (الفتنة) الصدامية... قد شهدت اضمحلال الصراعات الأيديولوجية ـ كما ذكر الأديب أحمد عباس صالح ـ حينما اتجه المثقفون العرب إلى «**التخلص من التبعية العمياء لليمين ولليسار.. ومرت نسمات من النضج، والروح العملية والعلمية التي تعيد النظر في كل شيء**».

فإن هذا التطور في أوساط، بل وعقول المثقفين العرب، كان يفتقر إلى ما يدعمه، ويشجعه، ويقوّيه.. وذلك بخروج الجماعة العربية من الشقاق، والتمزق، والخلافات!!

وفي الوقت الذي تفاءل فيه المثقفون العرب بتطور المعالجة للمشكلات العربية على درب الوفاق.. كانت هناك فجائع قادمة، فجَّرتها **(الفتنة)** الصدامية، التي خلخلت بوادر الوفاق، والتضامن.. وأفسحت المجال ـ مجدداً ـ لشريحة الرافضين والمتمردين، للخروج من جحورهم، ومحاولة العبث بمعالجة الصراعات لتفجيرها، متزامنة مع تفجير (الفتنة)، وإشعال الحرائق في المصداقية العربية، وفي (الوعي) العربي!

* * *

ـ ولعلّنا نفتش عن مقال لصيق، يشير إلى نموذج من هؤلاء العابثين بالفكر العربي، والملوِّثين لإِبداعات المثقف العربي... وقد (تعثَّرنا) حقيقة بعدة أسماء تعامل أصحابها مع (الفتنة) وكأنها هي: قضيتهم الأساسية... فوق قضية الأرض المحتلة، وفوق قضية الأميَّة، وفوق قضية الديمقراطية، وفوق تعريف «الحرية»!

ومن هؤلاء الذين مثّلوا أدوار المتمردين، والرافضين: الشاعر اللعّان، الشّتام دائماً: «**عبد الوهاب البياتي**».. الذي قيل عنه على مدى أكثر من ثلاثين عاماً:

ـ أن شاعراً عربياً، أو أديباً واحداً.. لم يسلم من قذارة لسانه، وتلويث الكلمة بصديد ذاتيته!!

وليس غريباً، ولا مفاجئاً هذا الصوت الجحود الذي طلع من حنجرة (البياتي) عبر إذاعة بغداد.. ليصب شتائمه بالذات على «المملكة العربية السعودية» التي استضافته منذ شهور قليلة في مهرجان **(الجنادرية)** وكرّمته، وأجزلت له التقدير!!

لقد عرفنا **(عبد الوهاب البياتي)** جيداً، وتوقّيناه، وابتعدنا عن الالتصاق به، لأنه ـ في تعريف زملائه الأدباء له ـ: سامٌّ، مُعْدٍ، موبوء، متلوّن!

ولنا معه جولات كثيرة في أنحاء الدنيا العربية، والأعجمية!

ويبدو أن الوقت قد حان الآن، لنكشف عن خلفية حكاية تافهة من حكاياته، التي أراد **(البياتي)** أن يجعل منها: الإلياذة، والأوديسة، وحصان طروادة الذي يعيد دخوله إلى «العراق» مظفراً.. من أجل أن «يحنِّن» عليه قلب رئيسه الثوري، العلماني مثله: «**صدام حسين**»... وهو المغضوب عليه، والمطارد من قِبَل جلاوزة ومخابرات النظام العراقي.. وهو المحظور عليه أن يشبر أرض العراق، ولا حتى بخياله!

لقد (حَبَك) البياتي قصة... أراد أن يضعني ـ كمشرف يومها على صفحات الثقافة في مجلة المجلة ـ كبش فدائه، ليرضى عنه القائد، الرئيس، ويغفر له سوءاته!

وأراد ـ يومها ـ أن يوقع مطبوعات «**الشركة**» التي تصدر المجلة في خديعة... أثار من حولها الزوابع، والأعاصير، والهياج، والتهديد والوعيد لنا بالثبور، وعظائم الأمور!

واكتشفنا الحكاية، أو الخديعة.. بعد مرور سنوات على طبخ مؤامرتها، ولعلّه حقق المراد له من ورائها.. فقد سمحت له السلطات

العراقية بدخول العراق، ودعوته إلى مهرجان «المربد»!

وكان «الثمن» الذي أهرقه في مقابل هذا الرضا: أنه صار «بوقاً» نشازاً للإعلام العراقي الصدامي!

ـ أما خلفية تلك «الحكاية» القذرة... فإنها تتلخص في هذا «**السيناريو**»:

ـ كتب «قصيدة» هجاء مُقذع في شخص قائده اليوم الذي يدافع عنه: الرئيس «صدام حسين»، وحشد فيها صوراً بذيئة في قالب من الرمز!

وعندما وصلتني القصيدة من المكتب الرئيسي في لندن، وكان قد بعث بها من مدريد إلى لندن، لم أشُكَّ لحظة أن تلك القصيدة من (إبداعات!) الشاعر الكبير في الشتائم «عبد الوهاب البياتي»... لأنها تنفث أنفاسه الشعرية المعروفة، و (تتحلى!) بصوره المقذعة، والمغرقة في السفاهة.. وتترسم أبياتها خطَّه الشعري الذي يصفه بالتجديد!

وبادرت إلى نشر تلك القصيدة في ملحق «الثقافة» بالمجلة... وفوجئنا بالشاعر «البياتي» يقيم الدنيا، ولا يقعدها!

وهذه الثورة المفتعلة.. كانت هي الفصل الثاني في السيناريو الذي كتبه!

لقد أنكر كتابته للقصيدة، وإرساله لها، وفرض على «المجلة» نشر إعتذار «مبجّل» لسيادته، ولقائده!

وبذلك.. كسب «**البياتي**» الموقف لصالحه... وقد أراد أن يبلغ القيادة العراقية أنه مجني عليه، ويحاربه الكثير، وولاءه للقائد لا غبار عليه!!!

ـ **ويومها قال لي**: إن القصيدة مدسوسة، أراد الذي دسَّها عليكم وعليّ أن يورطني سياسياً في موقف مضاد ضد بلدي العراق (!!)

ومرّر علينا ـ أيضاً ـ هذه الخدعة، أو أنه اضطرنا للوقوف بجانبه.. مع قناعاتنا أن من يمارس مثل هذا الدس، هو: جبان، وموتور... ولم نعرف أننا ندينه، يوم كتبنا ندافع عنه، إلا بعد أن تكشَّفت لنا اللعبة.. ورضي أن يوصف بالجبن!!

* * *

ـ لقد كان دور القصيدة العربية في الخمسينات، وحتى انتهاء الستينات.. دوراً بارزاً، ومؤثراً!

لكنّ ما حدث بعد ذلك، وفي تعاقب الأحداث، وتراكم الأوجاع في النفسية ألعربية... يُشبه «الإمتقاع» في وجه القصيدة العربية، وفي مضمونها، وبنائها!

وتُذكِّرنا مقولة الأديب، والمفكر الفرنسي «**ريجيس دوبريه**» بما يجسِّد هذا الامتقاع، ويظهر البثور التي تزايدت.. حينما قال:

ـ «لا بأس أن نترك فرصة للشعراء، كي تمتقع وجوههم قليلاً، وربما كلماتهم أيضاً.. أمام هذه الفوضى في أمريكا اللاتينية التي تصنع القصائد من الخشب الدافئ!

لقد حدثني نيرودا عن الأشجار التي تطلع في الدم كالوصايا العشر»!!

لكنَّ هذه الشرائح من أمثال (البياتي) صارت تتحدث عن الدم، وتحرق الأشجار، وتكسر أغصانها!!

إنه **(الفرد)** الذي تراكم على انتمائه لجماعته، أو لقومه: هذا الصدأ، أو الطحالب التي أعاقت تنفسه القومي، في غربته الطويلة، وانفصاله بمشاعره، وبمعرفته!!

حميــــد سعيـد

ـ في سنوات عمره الأخيرة.. أجرى التلفاز الأسباني لقاء مع الكاتب الأرجنتيني الكبير «خورخي لويس بورخس» بمناسبة إصدار كتابه الجديد يومها، وأظنه كان الأخير!

وتحدث «بورخس» عن السياسة ـ على غير عهده ـ ولم يكن يرتاح كثيراً لحديث السياسة، ولا لخيوط السياسة المسرحية... ولكنهم حين سألوه، كأنما أرادوا زجّه في حمى السياسة، ليقول شيئاً في اللغط العالمي، والحرب الباردة، والحروب الأهلية.. ويبلور دور «المثقف» قَفْزاً فوق: الانخذال، أو الذيلية، أو الغوغائية، أو ذلك التجلط الفكري!

وإذن... كان لا بد للكاتب «بورخس» أن يدلي بدلوه، لأنهم أرادوا أن ينكأوا جراحه، أو جراح وطنه.. فقال:

ـ «إن الحرب الحقيقية والأفظع، هي: هذه التي تحدث داخل وطنك، وتتخذ أبعاد وخطر الحرب الأهلية المقنّعة، وسيطرة طغمة عسكرية على مقدرات الوطن والمواطن»!

وشردت بي خواطري، وراء سؤال مرتبط، أو له شَبَه:

ـ ترى.. ما الذي يمكن أن يقوله ـ أيضاً ـ كاتب بلغ هذا السن، أو كان شاباً.. في وطن من العالم الثالث، الذي تشوّه ببثور الانقلابات

العسكرية، والحكومات التي دقت ـ حين قيامها ـ طبول الشعارات البراقة التي تستميل الشارع بها، مثل: الثورة، والديمقراطية، والحرية، وحكم الشعب... ثم انقلبت على شعاراتها، أو انكشف وجهها القبيح.. فإذا هي حكومات تخضع (لفرد)، وتمارس الطغيان، والقهر، وتنحدر باقتصاد بلدانها إلى الحضيض من الفقر، والعوز؟!

ويبدو أن مبعث هذا الخلل، ينطلق من السلوك الاجتماعي والأخلاقي... وقد دلل على انطلاقته «**إميل دوركايم**» العالم الاجتماعي الفرنسي، الذي استخدم المصطلح اليوناني **(غياب المعايير)** وهو يشير إلى محصَّلة «التفكك الاجتماعي» التي تنعكس بتأثيراتها ـ بالضرورة ـ حتى على فئة المثقفين، المسؤولة عن توجيه المجتمع، أو الرأي العام.. سواء بنجاحها في الإِرتقاء بوعي، ونضج المجتمع، وبسلوكياته... أو بفشلها، وانحدار غايات هذه الفئة التي آثرت مصالحها الذاتية فوق مصالح مجتمعها، وترابطه!!

ـ ويقول عالم الاجتماع العربي الكبير «ابن خلدون»:

ـ «إن هذه الصفات... تدل على انفراط الجماعة، وتشرذمها»... ولذلك ينصبُّ التأثير ـ بالدرجة الأولى ـ على فئة المثقفين التي يُمرِّغها الخوف، أو تحكمها المصالح في الارتقاء الذاتي بالتقرّب من السلطة، حتى ولو كانت جائزة، أو على خطأ»!

أما المفكر الفرنسي «**ميشيل فوكو**» فقد بَلْور مصطلحه المعروف باسم: **(الاغتراب الاجتماعي)** وهو يشرح أبعاد فقدان إنسان القرن العشرين لعوامل أساسية، يأتي في مقدمتها: (الثبات النفسي، والاجتماعي، والأخلاقي)!!

وحين تتزاحم مثل هذه الصفات المريضة، أو غير السويّة، وتقتحم واقع أمة ما.. فلا بد أن تتناسل منها أوجاع عديدة... مثل: الحروب الأهلية، والخلخلة الاجتماعية، وتعدد الانقلابات، أو فقدان الاستقرار السياسي، وتحطم القوة الاقتصادية.. مما يؤثر مباشرة في الفئة التي تدافع عن الحقيقة، وتُعتبر مسئولة عن الرأي العام: إيجاباً، أو سلباً، حسب صمودها، أو انخذالها!!

* * *

ـ ولم يكن مستغرباً أن تطفو على سطح بحيرة المجتمع العربي: طحالب من فئة المثقفين المنخذلين، أو «المُسَيَّسين» لأنظمة حكم تحاول استمالة الشارع العربي بشعارات مغرية عن: الحرية، والتقدمية، والقومية، والديمقراطية... وهي ـ في الوقت نفسه ـ تمارس العسف، والضغوط النفسية، والإِرهاب الداخلي.. تماماً مثلما تَجسَّد أمامنا اليوم هذا المثال الماثل في بغداد، لتأكيد الأسباب التي حدّدناها هنا!!

وقد وجدنا مثالاً على سقوط هذه الفئة من المثقفين.. وذلك في نموذج سيء آخر، من النماذج التي نُحلل هنا دواعي تجلطها، وانخذالها!

هذا النموذج.. يُسمى **(حميد سعيد)** رئيس تحرير صحيفة «**الثورة**» التكريتية في بغداد، والشخص الذي تسلل إلى قناعات المثقفين العرب، بنفس الطريقة الإعلامية الخادعة التي اتبعها نظام الحكم العراقي طوال عشر سنوات وأكثر، لتسخير الإعلام العربي، والمثقفين العرب، للدعاوة لهذا النظام، وإبراز: قوميته العربية، ونضاليته، وديمقراطيته، ودعوته للحرية (!!).

وقد اختار الأدباء العرب هذا الشخص (**حميد سعيد**) ليكون: رئيساً لاتحاد الأدباء العرب... وأشاد به الأدباء العرب، من المحيط إلى الخليج، وتحدثوا عن إبداعاته الشعرية وتجديداته بالكلمة، وبالرأي... حتى غلّفوه بريش الطاووس الزاهي!

فماذا فعل هذا «الرئيس» لاتحاد الأدباء العرب بحرية الكلمة، والتزامها بالحق والحقيقة.

تحوَّل من طاووس زاهي الريش والألوان.. إلى «بوق» أجير، يعتسف كلمة الحق، ويبلور الباطل حقاً، ويصف الاحتلال: وحدة، وغدر الجار والشقيق: ضماً تاريخياً!!

وفي مقال فاضح، نشرته صحيفة «**صوت الكويت**» للصحافي العراقي الأستاذ «**عامر بدر حسون**».. إتضح الوجه القبيح، لهذا النموذج البشع لفئة المثقفين الثوريين، الذين يعيشون الإنخذال: نفسياً، وفكرياً، وضميرياً!!

ـ من كلمات حميد سعيد التي أوردها الصحافي العراقي:

ـ «والله.. حين تنتهي الحرب، سأجيئ إلى هنا ـ يقصد باريس ـ وكلما التقيت بواحد من هؤلاء، سأخلع ـ قندرتي ـ أي جزمته، وأضرب بها على رؤوسهم الخاوية»!!

إن منطقه، وحواره.. ينحصران في نعاله... يضرب به رؤوس المثقفين العرب، أو رأس أي عربي يعارض نظام حكم الرئيس صدام، وَلِيِّ نعمته!

إن سلاح عقله.. هو «**قندرته**» التي يتفاهم بها مع العقول العربية!!

ـ تساءل الصحافي العراقي الحر «**عامر بدر حسون**» قائلاً:

ـ (كيف سيكون النقاش مع من يعترض على ـ العراق الموحد! ـ حسب طريقة صدام، وإذا كان «كبير» مثقفي النظام العراقي يستخدم الحذاء كوسيلة إيضاح في نقاشه مع المثقفين خارج العراق... فماذا سيستخدم الجلاد المحترف من وسائل إيضاح في أقبية الأمن مع المثقفين وسواهم من المعارضين)؟!

وتبقى الأسئلة: أشواكاً تُدمي هذا الواقع الثقافي العربي المؤلم!!

* * *

ـ وعدت إلى الكاتب الأرجنتيني الكبير «خورخي لويس بورخس».. وقد كتب عن سيرته، وإبداعاته: العديد من المثقفين العرب، وأكثرهم كان يعبر عن إعجابه بفكر «**بورخس**» وبحواراته عن: الحرية، والإِنسان، والضمير!!

ولقد كان «بورخس» في لحظة احتفاله بذكرى ميلاده السادس والثمانين قبل أن يرحل... يتلفَّت، ويطيل التحديق في البعيد.. متجاوزاً ملامح البشر، ويقول:

ـ الآن أشعر أنني أصبحت أكثر حرية، وانطلاقاً مما لو كنت شاباً... أو ما كنت أفعله في شبابي من أجل الحرية، وفي سبيل ما جمعته لأحصده، أو يحصدني.. سواء كان مجداً، أو قيمة أدبية، أو اجتماعية!!

كتب الكثير... لكنه ـ في كل ما كتب ـ أصرَّ على الحقيقة، والحق، وشرف الكلمة التي تحمَّل مسؤوليتها طوال عمره... حتى توقف أخيراً، ليرى من داخله، بدون تأثيرات خارجية وقال يومها:

ـ «أريد أن أتطلع بصفاء إلى: قبة مبنى، أو سياج بيت، وأتنزه في بيونس آيرس، وأتوقف كما يحلو لي»!!

كأنه كان يعلن عن ميلاد جديد لحرية الإِنسان في أعماقه!!

فكيف سيتلفت واحد مثل «**حميد سعيد**» الآن، وقبل موته؟!

وكيف سينظر إلى وجوه أقرانه من المثقفين العرب... وهو يشارك في تزوير التاريخ، وتدليس الحقيقة... وهو يرفع حذاءه لينهال به على رأس المثقفين العرب؟!!

إنه الانخذال الوقح... في موت الإِحساس الوطني، والضمير الإِنساني!!

المثقفون المنخذلون

ـ آه. . ماذا جرى لدعاة العروبة
ماذا جرى. . كي يخون الرفاق؟!
كنت أحسبهم ذات يوم: حُمَاتي!
إذا هم: غزاتي. . على غرة. . ذبحوا أمنياتي!
فوا أسفاه. . أهذا العراق؟!

ـ ممدوح عزوز ـ

نــزار قبــانــي

ـ كانت الفكرة المتداولة في أوساط المثقفين من غير أقطار النفط: أن اهتمام «إنسان» الخليج العربي النفطي، ومثقفيه أيضاً.. ينصبّ على «الثروة»، أو «الفلوس» وزيادة الأرصدة المالية، والشركات، والبذخ، والترف الاجتماعي.. على حساب المواطن العربي الآخر!!

لكنّ أقطار النفط الخليجية.. خيّبت كل تلك الظنون، والإِدّعاءات الظالمة.. ودحضت كل تلك الإِتهامات المجحفة، بجدارة، وبشواهد ملموسة.. برزت بشكل مكثف خلال السنوات العشر الماضية!

لقد وظّفت أموال «**النفط**» للاهتمام بغذاء عقل وروح الإِنسان «**الخليجي**»، ولدعم مسيرة الثقافة، وحركة النشر.. مُسْتقطبة إبداعات، وأعمال المثقفين العرب، من شعراء، وقصَّاصين، ومسرحيين، ودارسين، وعلماء في حقول العلم المتعددة.

وإذا توقفنا قليلاً أمام «**الإصدارات**» التي كانت دولة «**الكويت**» وحدها تضطلع بنشرها، وبطباعتها، وتحريك النشاط الثقافي العربي من خلالها... فإننا نجد نسبة هائلة من تلك الإِصدارات المتنوعة، من صحف، ومجلات أسبوعية، ومجلات متخصصة، وسلاسل كتب شهرية، ودوريات.. مما يعكس أبعاد تلك الحركة الثقافية المائجة بألوان الثقافة،

والإنفتاح الفكري والإبداعي على الثقافات والحضارات الأخرى!

وشهدت دول النفط الخليجية: نهضة لافتة في شتى المجالات.

وانطلقت تلك النهضة: راكضة، ومنتشرة في كثير من الأقطار العربية.. لتدلل على أن هذه الأقطار الخليجية «الصغيرة»، وحديثة العهد في نهضتها وانطلاقتها... قد استطاعت ـ في سنوات قصيرة ومحدودة ـ أن تبني قاعدة راسخة، يقف فوقها الإِنسان الخليجي، المثقف، والمبدع، والفنان، والمتطور!

ـ ومن ثمار الانطلاقة:

ـ قيام نهضة مسرحية واعدة، ومدروسة، ومؤهلة.. في الكويت بالذات!

ـ إنشاء منابر للكلمة، وللرأي، وللثقافة، وللإبداع.. حتى تفوّق (التكنيك) الصحافي، والطباعي، في دول الخليج من خلال إصدار مجموعة مطبوعات: يومية، وأسبوعية، وشهرية، ودورية.. اهتمت بالحدث السياسي، وبالرؤية الاقتصادية، وبالتطور الأدبي، وبالنشاطات الثقافية والعلمية، والفنية!

وكان هاجس دول الخليج (**النفطية!**): أن الأقطار العربية وِحْدة تتجمع في اتصال الفكر، والفن... وفي تلاحم المشاعر الواحدة بالمصير الواحد... واستفادت، وأفادت أيضاً من تعاون الكفاءات العربية الثقافية ـ المبدعة، والمؤهلة، والمتخصصة ـ للانطلاق معها بعقل وروح الإِنسان المشرئب إلى تنمية «**الإِنسان**» قبل الاقتصاد!!

وإذن... لم يكن هذا الدور الثقافي الذي اضطلعت به أقطار الخليج

النفطية: دوراً يتباهى بملامح الترف المادي، ولا مجرد حِلْيَة، يتمُّ الاستغناء عنها.. بل هو دور حضاري، فاعل، ومطور!!

* * *

ـ وفي هذه الانطلاقة التي تعتز بها أقطار الخليج النفطية.. كان هناك «**نفر**» **يُصدر فحيحه كالأفاعي من بين صفوف المثقفين العرب: حقداً على أقطار الخليج، وثرواته النفطية... في محاولة منهم للابتزاز، وقد استغرقوا في ذلك الاصطلاح الفكري الذي استخدمه ـ في البدء ـ عالم الاجتماع الألماني** «**إرنست ترولتيخ**».. وهو يحدد معنى: الجاذبية الشخصية في فرد مثقف.. يريد أن يلمع في مجتمعه!!

لكنّ عالماً آخر، هو: «**ماكس فيبر**» قد وضع تعريفاً محدداً لصاحب هذه الشخصية التي تعتني بإظهار جاذبيتها... فكان تعريفه بهذه الكلمة: (الكاريزما)!!

ـ ويشرح العالم «**ماكس فيبر**» معنى هذا التعريف.. فيقول:

ـ «إن صاحب الكاريزما.. لا يستطيع تحقيق تأثيره، واستغلال مواهبه، إلاّ في اللحظات الحاسمة من تطور جماعته، أو مجتمعه.. حين يكون المجتمع مليئاً بالتوقعات، والمخاوف، والتيارات»!!

وإذا تلفّتنا حولنا.. لتحديد ملامح هذا «النفر»، ممن يتطلعون نحو صفة (**الكاريزما**) بإبداء الاستعلاء على مجتمعهم، وأمتهم... فإننا نتعثر ـ على سبيل المثال ـ بالشاعر «**نزار قباني**» الذي قيل عنه، أو فيه:

ـ إنه الشاعر الذي (تفوّق) على كل شعراء أُمته القدامى، والمعاصرين.. في هجاء أمته العربية، ولَعْنِها، والسخرية منها!!

لكنه ـ في الوقت نفسه ـ قد ركّز أحقاده، ولعناته، وسبابه على أقطار الخليج العربي النفطية!!

وقد يعترض عبارتي هذه المجروحة، المتألمة: قارئ عاشق لشعر «نزار» ولِصُوَره الشعرية المتجددة، والأنيقة، والإِبداعية!!

ـ وبكل حزن غامر.. أجيب: إن «**نزار/الشاعر**» يمثل في انطباعي، وتأثري عبق الكلمة، وأريجها، واقحوانها... فقد أجمع نقاد الشعر العربي المعاصر على وصفه بـ «**جواهرجي**» الكلمة، والصورة المبتكرة!!

ولكنّ هذا الانطباع، والتأثر أيضاً.. ينحصر في قصائده الإِنسانية، والوجدانية، والرومانسية.. أما قصائده السياسية، و «**التنظيرية**» فقد شطَّ فيها، وابتذل رقيَّ الشاعر الفنان، وانحطّ بانتمائه العربي إلى الحضيض!

إنه يلوح في زحام ما يُهرق من كلمات، وكأنه: سيف مشرع بالباطل.. أو أن عبارته مثل خنجر يطغى على حدّه، فيجسّدا انخذال الشاعر، ورفضه حتى لوشائجه وانتمائه!

وهو يلوح.. مثل صارية في عرض البحر يصطخب بالأمواج العاتية.. وعلى شراعه رُسَمِت جمجمة، ووجه قرصان!!

❊ ❊ ❊

ـ والآن... أين هو «نزار قباني»: الشاعر الذي حاول في قصائد سنواته الأخيرة، أن يعكس لقارئه من خلالها.. أفكاره الجديدة، وانتماءه لأمته العربية واشتعال قوافيه بالثورة، وبالاحتجاج على كثير من الممارسات الإِنهزامية، والخلافات العربية؟!!

أين هو «نزار قباني».. الذي لم يكن في السنوات الأخيرة سعيداً بأرومته العربية... وكان ـ في الوقت نفسه ـ متمرداً على ذلك السياج الذي أقامه النقاد حول شعره، منذ أن وصفوه بقولهم: «إنه شاعر المرأة الذي دخل إلى مخدعها منذ مراهقته، ولم يخرج منه»!!

أراد «نزار قباني» أن يعلن للقارئ العربي بلاغَهُ الشعري الفاصل بين حياته الأولى، وحياته الجديدة.. منذ ارتبط عاطفياً «بغزالته» العراقية، واندلاع جنونه الذي تمثل في نغمة (الاستعلاء) على قومه العرب، وتجريحهم، وشتمهم... بعد أن «نشّنوا» على غزالته، وأرسلوا الانتقام منه.. بقتلها تحت الأنقاض في بيروت!!

ـ يومها.. شتم «نزار قباني» أمته العربية في قصائده التي صفق لها: الثوريون، والحاقدون، والضائعون، والبائعون، وسماسرة القضية... وهم أنفسهم الذين اغتالوا له «غزالته»!!

ـ يومها ـ أيضاً ـ لم يجرؤ «نزار قباني» ـ الشاعر، الثوري، الوطني ـ على فضح قَتلة غزالته، ولا على إعلان الحقيقة... ولكنه وجد في شعب «الخليج العربي» ـ البدو، القبليين، المتأخرين! ـ ذلك الصدر الحنون، المفتوح له بالحب، والمشرع أمامه لامتصاص آلامه، وحزنه العميق على اغتيال غزالته!

وحين نتساءل اليوم: أين «نزار قباني» عن نصرة كلمة الحق، والعدل، وانطاقها: مُتَحدِّية ممارسات الظلم العراقي في الكويت... فإننا نتذكر ـ مع التساؤل ـ تلك الأمسية الشعرية التي أحياها في حضن دولة «الكويت»، وأضاءت أكفُّ شعبها الفرحان بالحب بذلك التصفيق الحار لأشعار «نزار»، وحتى لشتائمه التي صبّها على رأس دول النفط (!!).

ـ يومها... جاء إلى «الخليج العربي» النفطي: هارباً من جحيم موانئ القتل، والسَّبْي في بيروت!

جاء ينوح بقصائد قديمة... فلم يكن قد نطق بقصيدة جديدة حينذاك، بعد أن ذبحوا له «غزالته»، واجتثوا له نخلته التي اختارها من بين كل نخلات العالم العربي!

جاء يومها، وقد جفّ البوح فيه... وكأنه أشاح بوجهه، وبقلبه، وبعقله عن قضية أمته العربية.. وأخذ يتلفَّت مثل «طربادور» مجنون، يعزف على قيثارة الحزن، والفقد، واليأس، والحقد!!

ـ وقال نزار في أُمسيته تلك: أنه يئس من الدفاع عن القضية العربية... وأنه عائد، عائد إلى مخدع الأنثى، من المكان الذي بدأ منه أشعاره، وغناءه.. من: السامبا، والرومبا!!

لكنّ نزار ـ منذ ذلك الوقت ـ لم يعد إلى مخدع الأنثى، ولم يبق في موقع المدافع عن قضية أهله العرب... ويبدو أنه سقط في التيه، والضياع حتى الآن!!

ـ فأين هو «نزار قباني» من هذه «الفتنة» التي نسفت القضية العربية الأولى، واقتلعت ما ظنناه بذرة للتضامن العربي؟!

ـ ألم تُثِرْه الأحداث... أم تراه يقف ـ ولو بالصمت ـ في جوقة الحاقدين على من أسموهم بالأغنياء النفطيين؟!

ـ ألم يستفزه انتهاك عِرْض «جُلَّنار» في الكويت، وهو الذي كان يتقلد سيف «قطز»، ويغني لكل العرب «من العراق مقاماً»... أم أنه فقد ذاكرته

نحو: النخيل، والأرز، والكافور، والزيتون، وصار «المقام العراقي» بالنسبة له: إنتحاب الصمت.. في ليالي شديدة الضباب؟!

وفي أمسيته الشعرية تلك بالكويت.. كانت الآذان والمشاعر المصغية إلى قصائده، أكثرها «أنثوية»... تُصغي إلى حكاياته التي باح بها ذلك المساء.. بدءاً من: اغتيال مدينة، ومروراً باغتيال «بلقيس» التي كانت تمثل له نبض الحب!

ـ واليوم... هناك في العراق ألف ألف «بلقيس»: محاصرات بقرار (فرد) واحد... يظن نفسه «شمشون» الجبار، الذي سيُحطم كل شيء فوق راسه، ورأس الوطن، ورأس الحب... بعد أن حشد الوطن، والأهل في زنزانة أهوائه، وطموحاته الفردية!!

ولكن... كيف نتساءل عن صوت شاعر مهزوم؟!!

* * *

ـ لقد تجوّل «نزار قباني» فوق أرض الخليج العربي، وعبر مياهه... بل استوطن شعره جوانح، وأفئدة، وعقول قراء لا يُستهان بوعيهم، ولا بحسِّهم، ولا بانتمائهم في الخليج العربي!

ذهب «نزار/الشاعر» إلى الإمارات العربية المتحدة في نيسان من عام ١٩٧٦، وسكب فرحه بهذا الدخول، فقال:

ـ «ينفتح البحر أمامي كسيف من الفيروز.. قَبْضته هنا، ورأسه على حائط الصين العظيم»!!

يومها.. كان «نزار» يفتش ـ كما قال ـ عن: السندباد!

ـ قال: إنني أعطي نصف عمري لمن يدلني على عنوان سندباد الجديد. . . فلماذا؟!!

فسّر السبب، واستطرد يقول:

ـ «أنا قادم من الزمن الرديء في لبنان. . لأبحث عن الزمن الجميل في أبو ظبي. .

قادم من القارة التي شاخت، وتعبت، وأكلت نفسها. . . إلى القارة التي لا تزال تلبس ثوب العافية»!!

كان ذلك التوجّه منه: جميلاً. . يحمل الإِصرار على وحدة الأرض العربية، وشجبه لتمزيقها!!

إشراقة رائعة. . قبل أن يتحوَّل «**النفط**» داخل منطق «نزار قباني» إلى لعنة ضد أهل الأرض، من أهل أرضه!!

وكنا نعتبر «نزار قباني» واحداً من أهل أرض النفط. . سواء كانت في بيروت، أو في دمشق، أو في «**أبو ظبي**» أو القاهرة، أو في باريس. . . لكنه هو ـ **بنظرته الكاريزما** ـ كان يمرّر من نسيجه الشعري «**الْيَشْمك**»: نظرة الاستعلاء، والحقد على إنسان اقطار النفط. . . وتجسّد ذلك في ندواته، وأمسياته التي عقدها في بعض أقطار الخليج العربي، وشتم فيها النفط، و «مترفيه». . . وكان أهل الخليج العربي المستمعون إليه يَلهبون أكفّهم بالتصفيق له!!

وكما قال «نزار»، وبقية النفر من أشباهه الذي أعلنوا رفضهم وتمردهم، وانخذالهم نحو الانتماء لهذه الرقعة من الأرض العربية، حقداً على ثروتها:

ـ **قالوا**: إن النفط هو المسؤول عن الفوضى، والعبث، والحرب الأهلية في المنطقة العربية!!

ـ **قالوا**: إن النفط مسؤول عن الحرب الأهلية في لبنان، وعن انقسام الفلسطينيين، وعن تعدد المليشيات، وعن احتلال الجنوب اللبناني... وأيضاً عن محادثات السلام التي أعادت إلى مصر سيناء، وطابا (!!).

إن أية دولة نفطية في الخليج العربي.. حرصت على: وحدة المقاومة الفلسطينية، وليست هي التي شرذمتها... وحرصت على فتح خزائن ثروتها لإِمداد الجيش العراقي بالعتاد، وبالمؤن، وبالدعم المالي المتدفق، حتى بعد انتهاء حرب العراق مع إيران!!

وحرصت الدول النفطية ـ **وعلى رأسها المملكة العربية السعودية** ـ على المساهمة في خطط التنمية، والتطوير، وتسديد الديون، والإِصلاح الاقتصادي.. سواء في العراق، أو في اليمن، أو في الأردن، أو في السودان... وفي كل قطر عربي يتطلب المساعدة، والإِسهام المادي!!

لم يكن «**النفط**» الخليجي شراً.. وهو يمنح من ثرواته من أجل دعم **(القضية)** دائماً، ومن أجل دعم الاقتصاد العربي في كل قطر!!

حتى أسباب موت «**بلقيس**» يرحمها الله... أرجعها «**نزار قباني**» إلى النفط!!

وهو يعرف القاتل الحقيقي لزوجته، وللمقاومة الفلسطينية، ولقضية الحرية في العالم العربي... ولكنه يأبى الاعتراف بالحقائق ويخفي وجهه في الرمل كالنعام!!

كأنَّ «**نفط**» الخليج العربي.. قد صار هو «**قميص عثمان**» عند هذا النفر من المثقفين: «**الكاريزما**» المنخذلين، الموتورين، الرافضين... الذين يوظفون طبول الثورة، بدون ثورة**!!**

الغائبون عن الوعي

ـ أنا هنا. .

قبل بئر النفط كنت هنا

قبل البدايات. .

قبل الريح، والحقب!

أنّى استدرت. . .

تلقّاني المدى ظُللاً

وأومأت غيمة للظامئ:

إقترب!!

ـ عبد العزيز العجلان ـ

أنيس منصور!

(١)

ـ **اليوم**: قال «ناقد» عربي، حزين على الكلمة في واقع قبيلته العربية.. صارخاً في وجه التزييف، والتدليس، و «الإِرتزاق» بالكلمة:

ـ **مفجع جداً**: أن يتضاءل «الوعي» في أذهان بعض المثقفين العرب، وأن يغيب «الضمير» عن أقلام بعض الصحافيين العرب... فتقفز تلك الأقلام فوق: المبادئ، والكرامة العربية، والحق الذي تُنادي به الشعوب لتثبيت استقرارها، وأمنها، ورخائها، وخطوات بناء وطنها!!

ـ **وبالأمس**: إنطلق كاتب عربي يبحث عن «الكلمة الشمس التي تقيم في العيون».. وعن الكلمة «العيون التي ترى الضياء، والحق، والحقيقة».. وعن الكلمة «قوس قزح التي تدل على المطر»... أي على الخصب، والارتواء، والطلوع!

ولم يكن البحث عن: «الكلمة/الصدق» مضنياً في زمن الفروسية، والمنطق، وانتشار هداية الإِسلام، وإرساء العدل.

وعندما غاب «**المنطق**»، وأطلّ عصر ادّعاء الفروسية، والعلم،

والثقافة.. وخيّم الزيف والكذب على مضمون «**الكلمة**».. زحفت فئة من المرّوجين للباطل، ومن المنتفعين بالكلمة التي تثير دهشة الناس وأسئلتهم.. إلى درجة «العهر»!!

ـ **واليوم:** في تلبد غيوم المأساة التي صنعها الرئيس العراقي باحتلاله لدولة الكويت.. وفي توجّه إعلامه ـ النافث حقده ضد أقطار الخليج ـ وجد: «**الغائبون عن الوعي**»، والمنخذلون بسفاهة كلماتهم/ العار.. فرصة متاحة لينالوا من شعب الجزيرة والخليج العربي!

وكان من المتوقع أن يتطاير شرر أولئك المثقفين دفاعاً عن الحق، وتجريماً لنظام حكم عربي جعل نفسه مستعمراً... لكنهم ثبّتوا موقفهم المخجل الذي يؤكد على: انخذالهم، وغيابهم عن الوعي، ومتاجرتهم بشعارات الثورة، والديمقراطية، والوطنية.. وتعالى هياجهم عبر منابر صحافتهم المتواطئة مع الاحتلال العراقي للكويت، والحاقدة على «شعب النفط» كما تُسمّينا.. من: عمّان، وبغداد، وصنعاء، والخرطوم!

لكنّ المفاجأة المذهلة والموجعة بحق: أن نجد (مثقفاً)، وصحافياً كبيراً في الخبرة... من أرض الكنانة الغالية جداً، يحاول أن يصطاد في الماء العكر ويضبط «بوصلة» كتاباته على «اتجاه الريح» الصدَّامية، التآمرية، العدوانية.. ويروّج للباطل، ولأكاذيب حاكتها وكالات أنباء وصحف ضالعة في الدّس والوقيعة!!

ذلك المثقف، والصحافي الكبير... هو: أنيس منصور!!

ـ فكيف حدث ذلك؟!

سؤال.. لعلّ الكثير من القراء هنا في المملكة، وفي الخليج العربي، يطرحونه: دهشة، وذهولاً، واستغراباً... خصوصاً وأن إعلام مصر، بكل

قنواته المقروءة، والمسموعة، والمرئية.. كان صوتاً جهوراً للحق، وسنداً قوياً جداً في هذه المحنة!!

(٢)

ـ إذن.. ما هي قصة انحراف بوصلة «أنيس منصور» الصحافية، والثقافية، عن الاتجاه الصحيح الذي اضطلعت به «مصر» الشقيقة، الوفية، الصدوقة.. منذ اللحظات الأولى لاندلاع الفتنة، وتأجج نار الحقد «الثوري/ الصدامي»؟!

مثل كل القراء العرب في المملكة العربية السعودية، والخليج العربي.. فوجئت (بموقفين) كتبهما «**أنيس منصور**» في عموده اليومي بصحيفة الأهرام!

ولعلّنا ـ في المملكة والخليج ـ كنا مثل القراء في مصر.. قد (فجعنا) بالأسلوب المستَهْجِن، والمغموس في سخرية لئيمة واضحة.. عندما عقَّب، أو علَّق «أنيس منصور» على تصريحات مكذوبة، نسبتها وكالات الأنباء المغرضة، وتلقّفها بعض الصحف المتعاطفة مع فتنة «صدام حسين».. على لسان الأمير «**سلطان بن عبد العزيز**» النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء/وزير الدفاع والطيران... وبادر سموّه ـ على الفور ـ إلى ردّ هذا الكيد في نحر الذين أطلقوه، وحاولوا الإساءة إلى شخص وزير الدفاع السعودي بالذات، وإلى مواقف المملكة العربية السعودية: المعلنة، والواضحة، والصريحة، والمنطقية أيضاً!

فماذا كتب «**أنيس منصور**».. منساقاً في هذا الاصطياد القذر من الماء العكر!!

ـ بتاريخ ١٩٩٠/١١/٨م: كتب هذا «المثقف» الذي حبس التاريخ بين: **(الأنياب والأظافر)**.. والذي عمد إلى: (اللحظات المسروقة) من معاناة الشعوب.. والذي ادَّعى أنه يكتب لكم أيها العرب: **(ما لا تعلمون)**.. والذي استقر أخيراً في فهم العقل العربي لما يكتبه، وهو: **(كرسي على الشمال)**.. فأراد أن يؤكد الكذب، وأن يثبِّت الباطل، وأن يوظّف الإفتراء، وأن يستغل الإيحاء المخادع، وأن يكرّس توجّه الإعلام الصدامي المضاد للحق الذي تدافع عنه المملكة العربية السعودية!

في هذا العمود المائل بأكاذيبه.. ردّد (تقوُّل) الدّس الإعلامي المضاد، فكتب بغيبوبة عن الوعي يقول:

ـ (والأمير سلطان، وزير الدفاع السعودي قال: إن الشهامة العربية لا تمنع من إعطاء العراق أرضاً ومنفذاً على الخليج... أي من رأيه: أن الأرض مقابل السلام.. ومن رأيه: أن الحق التاريخي.. حق أيضاً)!!

ولو قالوا لنا: أن كاتباً تكريتياً من بعث العراق، أو الأردن.. هو الذي (صاغ) هذه العبارة، وهو الذي (فسَّر) وشرح تصريحات الأمير سلطان بهذا الإسقاط المعاق فكرياً... فإننا قد لا نصدق ذلك!!

لماذا؟!!

لأن النظام العراقي وإعلامه.. يعرفان تماماً موقف المملكة العربية السعودية، منذ اللحظة الأولى من الغزو.. بل منذ أثارت بغداد المشكلات مع الكويت، وحاولت المملكة أن تحتضن الحوار العقلاني، لتحل الخلاف بالطرق السلمية، وبحقوق الجوار، ووحدة الدم والمصير.

فكيف فكّر «**أنيس منصور**» أنه: من الممكن للمسؤول الثالث في القيادة السعودية، ووزير الدفاع المتنقّل في جولات على الجبهة، ومع

الجيش السعودي، والجيوش العربية، والإسلامية، والصديقة.. أن يُصرح بمثل ما تقوّلت به وكالات الأنباء، وصحافة (الثوريين) الصداميين؟!

خاصة.. وأن المملكة قد بادرت إلى تكذيب هذه الأقاويل في اليوم التالي!

كأنّ «**أنيس منصور**» قد عثر على (إدانة) يسخر بها من الموقف السعودي، في تصريح مدسوس، يبالغ فيه هذ الكاتب، كما يبالغ دائماً فيما يكتبه، ويفسر ما يقرأه على «هواه» وترسبات نفسه.. بخبث شديد وملحوظ: بأن الأرض مقابل السلام، وأن الحق التاريخي.. حق أيضاً!!!

ـ لماذا ـ إذن ـ إستعانت المملكة بالجيوش الشقيقة، والصديقة؟!

ـ ولماذا وقفت فوراً مع الشعب الكويتي وحكومته الشرعية، وقفة الجوار، والدم، والضمير، والفروسية، إلى حد «الحرب» لو لم يمتثل «صدام» لصوت العقل، والدم العربي الواحد؟!

لكنّ «**أنيس منصور**» قد استهدف من وراء هذا الانسياق خلف الدس، والوقيعة، والمغالطات، والافتئات: أن يُحدث الشكوك في موقف المملكة الثابت.. وبالتالي: يوحي للمواطن العربي في كل مكان، بأن المملكة العربية السعودية غير جادة في تصدّيها لتحديات فتنة الرئيس العراقي، وغير صادقة في وقفتها مع الكويت ـ شعباً وحكومة ـ وأن المملكة تُعلن عن خوفها من حشد جيش صدام على حدودها!!

فهل قرأ العرب أكثر قذارة، وضِعَة، وعفونة.. من هذا الكلام/ العار، والعاهر؟!!

(٣)

ـ في اليـوم الـذي تـلاه، بـتاريـخ ١٩٩٠/١١/٩م.. استـطـرد كـاتـب «تـحضير الأرواح بالسلة» في تقوّلاته، وتفسيراته المغرضة، وتدليسه لتصريحات الأمير «سلطان بن عبد العزيز»... فكتب في نفس عموده (مواقف) يثير حفيظة الحكومة الأمريكية، ويوغر صدرها ضد الأمير سلطان والمملكة.. ويعكس ـ بخبثه ـ ما يراه بعينه المعشية عن موقف المملكة العربية السعودية تجاه الأزمة، أو الفتنة.. فقال:

ـ (شيئان أفزعا الولايات المتحدة أخيراً: ليست الاستعدادات العسكرية في العراق، وتحريك القوات، والحفر في الأرض، وبث الألغام.. ولا أفزع أمريكا أن هناك خرقاً سرياً مستمراً للحصار على العراق... ولكن تـصـريـحـات **لـلأمـيـر سـلـطـان وزيـر الـدفـاع الـسـعـودي..** وهـو مـن أقـوى الشخصيات السعودية، وأكثرها إطلاعاً، وأوسعها أفقاً ونفوذاً. الأمير سلطان حسبها فوجد أنه إذا كانت مساحة من الأرض الكويتية يطل منها صدام على الخليج، تكون ثمناً للسلام، فما المانع؟!

ومعنى كلام **الأمير سلطان:** أنه يقبل الانسحاب بشروط، كأنه يُكافئ صدام على عدوانه.. وأن ما قالته السيدة مارجريت تاتشر من أنه لا بد من عقد محاكمة نورمبرج لصدام حسين بعد الحرب، كلام فارغ.. وأن صدام ليس هتلر، ولا ستالين، ولا موسوليني)!!!

وهكذا.. استغرق «أنيس منصور» في التفسير، والتوضيح اللذين يستهويان نفسيته المريضة، و «مشاعره» نحو هذا البلد الذي كان يوسط العشرات لتوجيه دعوات رسمية إليه منه!

ولم يحاول «أنيس» أن يشير إلى تكذيب الأمير سلطان لهذه التقوّلات

والتخرُّصات... لأنه وجد في التقوّل، وفي الكذب، وفي الإفتراء: مادة (تُثري) عموده اليومي الذي يملأه بمثل هذا الصديد، وبتقيُّحات نفس مريضة.. يعاني صاحبها من عزلته عن القارئ العربي الناضج، الذي أسقط عن كتاباته مصداقية الكاتب (العربي) الحر، والصادق.. والذي أعلن على «أنيس» احتقاره له، منذ تكرار زياراته لتل أبيب، وضلوعه في التعاطف مع اليهود وشاتماً مقذعاً للعرب، وساخراً ـ بصفاقة ـ من المقاومة الشعبية في فلسطين المحتلة، ومن نضال أطفال الحجارة، ومن الوحدة العربة... ومن كل ما يشير ـ ولو تاريخياً ـ إلى التضامن العربي!

إنه كاتب «**برجماتي/ذرائعي**»، بعد أن كان في انطلاقته: الكاتب الوجودي المنحل.

وتعريف «برجماتيته» يقوم على هذه القاعدة التي أنتهجتها:

ـ (إن معيار الصدق، أو الرأي فيما يكتبه.. يقوم على النتيجة التي يستفيد منها لشخصه من ورائها... سواء كان الرأي الذي كتبه مفيداً، أو ضاراً)!!!

إنه قد آل على نفسه ـ من خلال طرحه ـ أن يرسخ في ذاكرة ووعي القارئ العربي: تفسيراته المشبوهة، وتحليلاته الملّوثة بسوء الطويّة والقصد.. وفي هذا (الموقف) الذي أشرنا إليه، إتضح منهجه المنحرف في «بوصلته» التي حدد بها اتجاهات تصريحات مكذوبة على لسان الأمير سلطان، وقد نفاها الأمير شخصياً، ووصفها بيان رسمي من المملكة بأنها: «دس رخيص، وأكاذيب مكشوفة ساذجة، وافتراءات تحاول النَّيْل من موقف المملكة الصلب والواضح تجاه الأزمة»!

ـ إن كاتباً مثل «أنيس منصور».. يُعلن بما يكتبه عن فَقْده (إنتماءه)

لأهله العرب، ولتراب وطنه العربي الكبير، وهمومه، وقضاياه.. وقد برع في السخرية التي يتندر بها في مجالسه من العرب.. بل وحتى من أهله المصريين الطيبين!!

ـ فكيف لقارئ عربي ـ بعد ذلك كله ـ أن يضع ثقته في فكر «غائب عن الوعي» مثل هذا؟!

ـ وكيف يمكن أن يثق قارئ عربي في (المضمون) الذي يتوجّه به في كتاباته إلى العرب؟!

هنا.. وبكل هذه التفسيرات التي ابتدعها، وألّفها، ولحَّنها، ثم... بصقها «**أنيس منصور**»، يمكننا أن نطلق وصفاً دقيقاً على (مواقفه) التي أشرنا إليها، فنقول:

ـ إن أنيس منصور، صاحب نظرية: (التطور.. رد لاعتبار الحيوان!).. قد بلغ مرحلة «النزع» الأخير... بهذا «النزغ» الذي يكتبه!

ولو كان المحللون السياسيون، والمراقبون، وأصحاب الفكر السياسي.. يفكرون بهذه الطريقة، ويعانون من هذا (الفهم) الذي فَقَد المناعة، وأصابه «إيدز» الجهل... فإن العالم سيفقد ـ بلا شك ـ قيمه، ورؤيته الدقيقة.. وستختلط حساباته ونظرياته السياسية الواعية!!

لكنه عصر الكلمة/ العار والعهر.. قد أفسح المجال لـ «**أمِّي**» في السياسة أن «يُفتي»، ويفسر، ويشرح، ويتقوّل، ويتوقع... وخير له أن يتقهقر إلى تخصصه الذي عُرِف به.. ويتلذذ بسماع كلمة تقال له بعد كل مقال يكتبه، وهي: (إخْص)!!!

(٤)

ـ وهكذا... كنت أفتِّش ـ فيما كتبه الأستاذ أنيس ـ عن «المواقف»!!

حتى وجدت تجسيداً لتلك «المواقف» التي برزت من خلال: الاهتزاز الذي حدث في داخله... سواء في نفسه، أو في مشاعره، أو حتى في أفكاره.. وهو اهتزاز يستهدف ـ في الدرجة الأولى ـ المعاني الأثمن، والأغلى... تلك التي تحرص عليها الشعوب، وتُنمّيها، وتزيدها طلاوة.. خاصة إذا أُرغدت تلك المعاني بوشائج الدم، والأرومة، وبروابط الأرض، والمصير!!

وما الذي دفع «**أنيس منصور**» إلى الكتابة الساخرة حتى التجريح، ليرسم «الإِنسان» السعودي في صور بالغة الاستهانة، والمهانة؟!

هل هي «مكتنفات» الكاتب النفسية، التي بلورتها التراكمات المتناقضة في نفسه... ونقصد بها: تراكمات الاهتزاز، وتراكمات تبديل الجلد، والأَصْداف، واللون، وتراكمات تغيير المبادئ، والانتماء؟!!

أما المواطن السعودي... فإن سلوكياته، وقيمته، وتعامله... ركائز إنسانية تدافع عنه!

ولعلّنا نودُّ ـ هنا ـ أن يظهر كاتب آخر، ليدافع عن (الإنسان) السعودي، الذي أهانه «أنيس منصور»!

وبالطبع... لا أكتب هذه السطور بدوافع هذا الشرف الذي أتمناه... فإنني منذ وقت طويل (مُتَّهم) بصداقتي للأستاذ «**أنيس منصور**»... بينما في كل وقت، يتَّهمني الأستاذ «انيس منصور» بالحب الذي أمنحه له... لأنه لا يستحقه (!!).

وأحسب أن (الاتهام) بشقَّيْه هنا، هو: إفراط في المشاعر، وتفريط في الحكمة، والبصيرة!

إن الخسارة «الرائجة» اليوم: أننا نفقد الحب، ونخسر المودّة.. بسلوكيات الكذب، وبمشاعر الغيرة من تفوق هذا الشعب، وارتقائه تنموياً، وبعاطفة الحسد لهذا الشعب على ثرواته... فتصبح التهمة الأسهل، والأبسط، هي: أننا بشر خرافيون، لا نعرف (لغات). بمعنى: لا نجيد الحوار.. لا نجيد التعامل الحضاري!!

وهي تهمة صارت تتردد ـ بحقد ـ في الخارج العربي، وفي الداخل العربي، بكل أسف!!

أما الكاتب الكبير، أستاذ الفلسفة «أنيس منصور»... فقد بقي ـ لعدة سنوات ـ بعيداً عن جدة، والأراضي المقدسة.... وهو الذي كان يزورها في العام أكثر من مرة بدعوات خاصة، تفيض بمشاعر الإِعجاب لكل ما يكتبه!

وبعد مرور تلك السنوات الطوال، وازدياد مشاعر (الإِسْتِوْحَاش) في نفسية الكاتب... طفحت مشاعره ـ المتأثرة بالإِسْتِوْحاش ـ برغاء، وزبد، وطحالب، لم تكن غريبة على أعماقه ومعدنه... ولكنها كانت مخبّأة، ومترسبة في قاع النفس!

ونحسب أن مقاله الذي هجا فيه (الإِنسان) السعودي، ومدينة جدة.. يصلح ليذاع ضمن سلسلة أحاديثه التي تُوالي إذاعتها له هذه الأيام: إذاعة «**أورشليم/ القدس**»... ولا ينبغي له أن ينشرها في مجلة (عربية)... نعرف مدى اعتزازها بالأراضي المقدسة، ومواطنها!!!

قالوا عن
«ألوان» أنيس منصور!

ـ **أنيس منصور**: قام بدور مؤثر في تخدير، وتنويم، وتزييف الوعي الجماهيري.. إذ جاءت مضامين كتاباته غير ملتزمة بقضايا المجتمع المصري، ومشكلاته الجوهرية.. فقد تهرب من المشكلات الأساسية والجوهرية، وتعرّض لمشكلات ثانوية، وتعمد نفاق المسؤولين وتملقهم!!

د/عبد الباسط عبد المعطي

أستاذ علم الاجتماع

* * *

ـ كأنما كل شيء عبث.. الحياة عبث، والموت عبث.. التمسك بالعقيدة، والمبدأ: عبث.. الأخلاق، والدين.. العلم، والفضيلة.. الانتماء، والولاء.. التاريخ، والجغرافيا.. الزعامة، والزعماء.. الأدب/، والأدباء.. الفلسفة، والفلاسفة.. كل شيء عبث في عبث لا يستحق التقدير، والاحترام، أو حتى التقويم!

هكذا يتلخص تاريخ حياة «أنيس منصور» أحد هواة سرقة التاريخ، وتزييف الوعي.

مجلة «الشراع» اللبنانية

١٩٩٠/١١/٥م

❋ ❋ ❋

ـ وضع مكتب المقاطعة العربية لإِسرائيل، واللجنة القومية لمقاطعة الصهيونية اسم «أنيس منصور» في قائمة المقاطعة، والمنع من الكتابة والنشر، في سائر الأقطار العربية.. لكن «أنيس منصور» لم يعبأ بذلك، بل مضى في مهاجمة العرب، ووصفهم بأنهم: «أغبياء».

ـ مجلة «الشراع» اللبنانية

١٤١١/٤/٢٥هـ

❋ ❋ ❋

ـ العرب جرب!!

لا كان العرب.. ولا كانت الجامعة العربية!!

ـ أنيس منصور ـ

❋ ❋ ❋

ـ «إن الكاتب يموت مرتين:

ـ مرة: إذا نافق السلطان.

ـ ومرة: إذا امتطى حصان طروادة.. مدعياً البطولة»!!

* * *

ـ في عام ١٩٧٣ كتب «أنيس منصور» عن الشاعر الكبير «الجواهري»:

ـ «إنه رجل مغرور.. لأنه يتصور، أو يتوهم، أن ما يخطر على باله يجب أن يخطر على بال أي أحد، ولو كان الجواهري شاباً لقلت إنه حائر، بائر، ضائع.. ولكن الجواهري رجل طاعن في السن، أو طعنته السن، هو لا شك كبير، ومن المؤكد أنه صغير أيضاً... وأن هذا الصغار واضح فيما يقول»!

ـ وقبل هذه الشتائم في «الجواهري» العملاق.. كتب «أنيس» يصف هذا الذي شتمه بقوله:

ـ «لن ترى دجلة والفرات.. إلا إذا رأيت الجواهري»!!

وكان هذا رأيه.. ثم شتمه عندما اختلف معه، أو عندما استنفذ منه أغراضه!!

* * *

ـ زلّت لسانك يا (أنيس).. وكم تَزِلُّ، وكم تُنَاقر
آه عليك ككاتب طاشت «مواقفه»، وناشر
لعب الغرور بمنكبيك.. فخلت نفسك ذو شنائر
إن كنت منصوراً.. فغيرك منذ يوم الفتح.. ناصر

دوماً تشيد بما فعلْتَ: تبجحاً، وبــه تفـاخــر

وظننت أنك قد بلغت المنتهى.. حيث الأكابر

وغدوت أوحد عصره.. فيما تُحدِّث من نوادر

ـ عبد الله بن يحيى العلوي/اليمن

فــؤاد مطـــر!

ـ بالأمس: خرج بعض أولئك المثقفين «العرب»، وبعض الذين وظَّفوا أقلامهم الصحافية ـ في المهجر ـ ليصدروا مطبوعات تغازل الأقطار «النفطية»، وتتقرب إليها، وتنافق لها... لتحصل على دعم مالي سخي، بحجة: قيام صحافة حرة، تناصر الحقيقة، وتواكب خطط تنمية هذه الأقطار العربية الطموح، المشرئبة إلى تشييد مستقبل يخدم تطور الإِنسان العربي في كل مكان!!

ـ واليوم: يستشيط غضباً.. «أرزقي» من فئة: حاملي الأقلام إلى المهجر، ومن الذين استفادوا كثيراً من أموال «النفط العربي»... وذلك باتباع أسلوب الإِرتزاق تارة، والمهادنة التي ألبسوها ثوب النفاق تارة أخرى!

هذا الغاضب «**فؤاد مطر**» صاحب ورئيس تحرير مجلة كانت تعيش «بالكليكوز» النفطي، واسمها: **(التضامن)**... قد انبرى: لائماً، وواعظاً، ومقرِّعاً مجلة (اليمامة) السعودية، التي أزاحت القناع عن وجه عمالته للنظام العراقي، وفضحته (ظنونه) في بدء الاحتلال العراقي للكويت، التي دفعته لحمل «بيضه» من سلة أقطار النفط العربي، ووضعه كله في سلة النظام العراقي، المعتدي، والهاتك للأعراض، والسارق وطناً، وثروة الشعب!!

ونسي «**فؤاد مطر**» ما كتبه، أو ما نقله من سلة الخليج إلى سلة النظام الصدامي.. كعادة الذين يسخّرون «**كلمتهم/العار**» لموقف إنقلابي، أو لتنكر جاحد!!

لكنّ مجلة (اليمامة) ألقمته بعض الأحجار التي أراد أن يقذف بها أقطار النفط.. وهو يكتب رده المتبجح على صحيفة (**اليمامة**)... ومن تلك الأحجار التي ارتدَّت إلى صدر هذا الصحافي «الأرزقي» المتطاول، والجاحد، والمغالط.. ما كتبه بقلمه الإنقلابي، المتلون في مجلة (التضامن):

ـ قال: «صباح الثاني من أغسطس، سقطت الحقبة النفطية تماماً، وبدأت حقبة عربية جديدة تبشر ببدايات أمل، لأمة عربية قادرة ـ كانت الحقبة النفطية.. هي حقبة «التردي العربي»!!

هكذا «انقلب» ناشر «التضامن» إلى: ممزّق، ملوَّث بالموقف الإنقلابي، وهو هناك في مهجره لندن.. يعيش منذ وقت طويل بأموال «حقبة النفط»، ويصدر مطبوعته ذات التوجّه القنفذي بأموال «**حقبة النفط**»... ولكنه التزم ـ في وقته الأخير ـ برشاوي، وهدايا، وأموال الإِعلام العراقي... وهو يزايد على: انتصار الباطل، وعلى: تثبيت العدوان والإِحتلال، وعلى: إهدار الحق العادل لشعب الكويت!

وإذا كان «**فؤاد مطر**» لم يكتب سوى تلك العبارة التي أوردتها مجلة (اليمامة) شاهداً على غياب وعيه... فإنها عبارة تكفي للتدليل على سقوط كلمته في العار!

وهذا التدليل... ليس سببه: أن «**فؤاد مطر**» قد شتم أقطار الخليج، أو نال من قيمة بذلهم الطويل... بل سببه: أن هذا الصحافي،

المهاجر، الإنقلابي، المتلوّن... قد خسر ما هو أهم من الدعم المالي النفطي، وهو: دعم (سوق) أقطار الخليج النفطية.. بما يعني: انفضاض القارئ العربي عن مجلته ذات الأقنعة.. ولا ينبغي له أن يركن إلى القارئ العراقي، أو الأردني، أو السوداني، أو الليبي... فإن النسبة الأهم والأكبر لتوزيع مجلته، كانت تتفاقم وتتزايد في أسواق الخليج العربي بالذات.. بما يدل ـ أيضاً ـ على ارتفاع نسبة الوعي على القراءة لدى الشعب الخليجي!

وهذا «**الوعي**» يزداد اليوم ـ في المحنة ـ لدى القراء في الخليج العربي.. بينما يقابله: «غياب الوعي» لدى هذه الفئة من الصحافيين الذين باعوا مصلحتهم مع ضميرهم، وقذفوا بالثمن البخس في سلة العدوان العراقي على الكويت المغدور!!

* * *

ـ ويتواصل الفضح لهؤلاء الغائبين عن الوعي، في عصر الكلمة/ العار.. التي يكتبونها، ويصرخون بها، ويرصُّون كلماتهم: دفاعاً عن الباطل والزيف، والعدوان، والجحود، وبيع الضمائر!!

ونجد أمثلة أخرى.. إذا ما تلفّتنا نحو (الكلمة/العار) التي تتدفق كل صباح عبر أنهر الصحف الأردنية!

ـ هناك.. **تتفصد** الكلمة: عاراً بدلاً من العرق.. وأكاذيب بدلاً من الحقائق.. وافتراء بدلاً من الحق.. وكراهية بدلاً من الحب!

ـ هناك.. «**تتفصَّد**» الصحافة الأردنية: أهل الخليج العربي.. أهل النفط والفلوس، كما تُسمينا بتلميحات الحقد، والحسد!

ـ هناك.. تحولت كلمة الصحافة الأردنية إلى: هجوم على «نعمة الله» التي خص بها أقطار الخليج العربي... وتستخدم لهذا الشعب الخليجي صفات توشمهم بها، مثل: عملاء أمريكا.. سفهاء المال.. أغنياء البترول.. عبيد الغرب!

ونضحك نحن هنا في الجزيرة والخليج.. فالتاريخ لم يبعد بخطواته كثيراً، وصفحاته (تطفح) بالشواهد على العملاء الحقيقيين، الذين صنعتهم بريطانيا **(الاستعمارية!)** وأمريكا!!!

ـ هناك ـ أيضاً ـ تقفز الصحافة الأردنية فوق مأساة شعب الكويت... مستخدمة عبر كلماتها/العار: شعارات غريبة على نظام حكمها، ويستحيل على هذا النظام (المُعيَّن) من قِبل الغرب في الأردن أن يُطبقها... لأنها ـ بالنسبة إلى بقائه ـ تمثل الجسم الغريب الذي يلفظه الجسم الأصيل في الأردن!

وهذا هو: عار، وعهر الكلمة في الصحافة الأردنية اليوم... وهي المأجورة للإعلام العراقي، أو المؤجّرة للدفاع عن نظامه!

لكنّ الأخطر في هذا العار والعهر اللذين تمارسهما صحافة الأردن.. يتجسد في السقوط الخُلقي للكلمة التي يكتبها صحافيوا، وأدباء الأردن.. والسقوط الخُلقي المقصود هنا: يشير إلى البذاءات (المكتوبة) والتقيّحات التي تسيل في شكل حبر!

ـ **والسؤال المطروح**: ماذا ستقوله الصحافة الأردنية المباعة للإعلام العراقي.. إذا انتهت أزمة الخليج، وانكسر الجيش الصدامي المعتدي، أو انهزم، أو انسحق، أو انمحق؟!

نحن متأكدون: أن أهل الخليج، وأوطانهم المستقلة.. هم:

الباقون... وهم الذين تتشكل منهم أصدق **(شهادة)** على هؤلاء الغائبين عن الوعي، والمنخذلين، والثوريين المتجلطين، الساقطين في عار وعهر الكلمة.. التي يدَّعي كتّابها: الثورية، والوطنية، والتقدمية، و«القومية العربية»، والدفاع عن «**الوحدة**»**!!**

وإذا أردنا (تفتيش) رؤساء، تحرير الصحف الأردنية، وكُتَّابها، ومنظِّريها... فلا بد أن نكتشف غرق وعيهم ـ وليس غيابه فقط**!** ـ في رشاوي صدام، من سيارات، و «براءات»، ومنح مالية.. يصدرها الإعلام العراقي لمصادرة الذمم والضمائر**!!**

إن «**الكلمة**» هي: ضوء المناطقة، والأحرار... وهي: رصاص السفهاء الذي يرتد إلى صدورهم**!**

والكلمة هي: علاج المجروحين.. الذين يصمدون دفاعاً عن مواقف الضمير، والشرف.. ويلتزمون بمعناها في عصر تفشي كُتّاب الكلمة/ العار**!**

والكلمة: جرح لا يندمل في تاريخ الذين عبثوا بها، وحوّلوها إلى صديد، وقيء، وحَمّى، وابتذال، وعار، وعهر**!!**

وفي عصر **الكلمة/ العار...** تكاثرت الكلمات التي تتحول داخل أسماعنا إلى حجر. يتدحرج ببطء، ويهوي في قاع البحر**!!**

المثقفون العراقيون البعثيون!

(١)

ـ سقط بعض المثقفين العرب، ممن «امتهنوا» الكتابة، في مستنقع: الغياب عن الوعي.. حيث جَيَّرتهم أنظمة الحكم العربية التي تاجرت بالشعارات، ووظّفتهم أبواقاً.. تخدم أغراضهم الزعامية، وأطماعهم الديكتاتورية!

وجاء سقوط هذه الفئة «الغائبة عن الوعي»: مُهيناً، وارتطامياً... في مواصلة تبرير التسلط من وراء قناع الديمقراطية، وفي الدعاوة لبسط نفوذ (فرد) حاكم، بإيهام الشعب العربي من محيطه إلى خليجه: أن هذا (الفرد) هو الزعيم القومي، الفارس، الوحدوي، الذي سيحرر الأراضي العربية المحتلة، ويسترجع الكرامة العربية إلى وجهها العربي!!

وجاء سقوط الفئة المثقفة «الغائبة عن الوعي»... إستطراداً في مراحل التاريخ العربي، منذ بدء أول «انقلاب» عسكري في الوطن العربي، عام ١٩٣٦ بقيادة «**بكر صدقي**» في بغداد... وحتى هذه المرحلة التي ظهر فيها ـ من بغداد أيضاً ـ الرئيس «**صدام حسين**»، وهو يقود **(الفتنة)** العربية في الثاني من أغسطس/آب ١٩٩٠م، في شكل «**انقلاب**» عسكري

أيضاً. . . تحت شعارات وهمية، زائفة، صمغية، عفنة. . . تُردد كلمات فاسدة عن: الوحدة، والقومية، والحرية، والثورية!!

وهكذا. . . سقط الشعب العربي كله في معاناة أليمة من الانقلابات العسكرية المتلاحقة، بدءاً بعام ١٩٣٦م، حتى اختتمها حاكم العرق (بفتنة) عاصفة، عام ١٩٩٠م، من شأنها أن تبذر في التربة العربية من المحيط إلى الخليج: بذور الشقاق، والنفاق!!

وفي كل انقلاب: «ينط» من داخل الأرض العربية مثل «عفريت العلبة» كما يصفونه في الأوساط الشعبية. . . أحد قادة «الانقلاب» ممن يسارعون دائماً للاستيلاء على الإذاعة، ودور الصحف، كخطوة أولى وأساسية. . وذلك بهدف: الهيمنة على عقول وعواطف الشعب، واستمالته إلى الانقلاب!

ونجدهم ـ أيضاً ـ قد شكلوا فريق عمل انقلابي، ثوري من **(المثقفين)** الذين يُغْرونهم بشعارات الثورة، والحرية والعدالة الاجتماعية، واحترام الرأي، وأماني الوحدة. . . ثم ما يلبث هؤلاء المثقفون أن يتحولوا إلى: عسكر، وسجَّانين، ومتطرفين في ولائهم **(للثورة)** التي وظَّفتهم. . فأغرتهم بالمناصب، والأموال. . . أو أرهبتهم بالوعيد، والثبور!

ولكن كل «انقلاب». . ما يلبث أن يتهاوى مثل قلعة من كرتون، أو من قش، بين ليلة وضحاها. . . ويضيع أولئك **(المسخَّرون)** للانقلاب البائد من المثقفين البائسين. . الذين يزج بهم قادة الانقلاب الجديد في السجون، والبعض تتم تصفيته بالقتل. . بعد صدور الحكم عليه بالعمالة، والذيلية، والانبطاحية!!!

ولو أردنا أن نحصي نسبة (المثقفين)، أو المشتغلين بالكتابة الصحافية في العالم العربي، وبالذات في منطقة الانقلابات العسكرية، فإننا نكتشف أعداداً كبيرة منهم، قد انتقلوا إلى رحمة الله الأوسع بشتى طرق الموت، والقتل... وفي أقل نتيجة، بطريقة: القهر، والإحباط، والاكتئاب!!!

ولو حاولنا اليوم أن نحصي أسماء المثقفين، والمبدعين، الذين شرّدهم النظام البعثي، الصدامي، التكريني من وطنهم العراق، وقذف بهم في صقيع الغربة، والهرب من البطش.. فإننا نجد هؤلاء، على سبيل المثال لا الحصر:

ـ سعدي يوسف، بلند الحيدري، مظفر النواب، عبد الغني الجميل، عارف الشاوي، خليل عزيز (أعدمه النظام العراقي فيما بعد)، عبد الباقي العمري، الشاعر العراقي الكردي: حميد سعيد حسن، وغيرهم كثير!

أما الذين اشتراهم النظام العراقي، و «صبّهم» كتماثيل في صفوف المنحنين للسيد الرئيس «المهيب».. وما زالوا يمجِّدون بحمده، ويزوّرن الكلمة، والحقيقة... فإنهم أولئك الذين سجنوا ضمائرهم وراء قضبان الذيلية للنظام الحاكم، ووأدوا عقولهم في مقابر الكبت الفكري، وطوّحوا «بالتاريخ» الناصع لأرض الرافدين في جرائم «البعث» التكريتي، العلماني التي تفشت فضائحها!

ونجد أمثلة من هؤلاء الذيليين الذين شغلوا الرأي العام العربي، وندوات المثقفين ومهرجانات العرب الإبداعية.. واستخدموا الإعلام السياسي الصدامي، الذي كان (يطنّ) في آذان الشعب العربي بشعارات: الوحدة، والقومية، والديمقراطية.. وحاولوا أن يبرزوا مثل سدنة لهذا

الفكر التقدمي، الثوري، الجماهيري... واستقطبوا الإعلام العربي ـ بجانبه الثقافي الأدبي ـ لما كانوا يكتبونه ويروِّجوه بمسمى: الإبداع، والحداثة، والتقدمية، وتصوير أوجاع الجماهير العربية، والتلاحم مع قضيته الكبرى/فلسطين.. فكان من أبرز هؤلاء الذين تسنَّموا مناصب رسمية في الجهاز الإعلامي، الثقافي، الصدامي، البعثي، التكريتي:

ـ عبد الرزاق عبد الواحد، حميد سعيد، سامي مهدي، علي جعفر العلاق!!

(٢)

ـ ومما يجري على ساحة المثقفين العرب... قد يتخذ في بعض الأحيان مسمى: (الانفصام) الذي يتسلط على العقل، والعاطفة معاً!

وهذا الانفصام قد استشرى في «وعي» بعض المثقفين العرب، وتطور ليُحدث في أعماقهم ما نُسميه: «الردَّة» النفسية.. التي تمثل العائق الذي يفصل النفس، ويدخلها في التوتر، والانحناء، والتقوّس!

إن «الردة» النفسية تتضخم بسبب مناقشة حادة بين التفكير/أي «العقل»، وبين النفس/أي الوجدان، والضمير.. أو بين المنطق، والجدل.. أو بين الأصالة، والتهجين أو التطويع... وقد يطلق عليها البعض في عنفها: الضمير!!

إن «**الضمير**» يتخذ أحياناً فعل «الردة» النفسية... إذا استطاع التأثير في سلوك الإنسان، وأهوائه، وإذا أتى بفعل التغيير المسلكي.

ويوصف أحياناً أخرى بأنه: مخاض التجربة، والثقافة... لكنه لا

يعدو أن يكون تغييراً مسلكيًّا في الأصل.. إذا انتصر فيه الضمير، أثمر رد الفعل الايجابي!

لكننا نجد في هؤلاء «**الغائبين عن الوعي**»: إنخذال الضمير.. الذي يحصرم رد الفعل الإيجابي، ويُفسده!

ومن الأمثلة على: انخذال الضمير، وإحداث «الردة» النفسية السلبية... هذا الذي صرح به **(شبلي العيسمي)** مساعد الأمين العام لحزب البعث العراقي.. وجعل تصريحه يتخذ إيقاع المثقفين، أو المنظّرين الذين يدعون لمنهاج الحزب، وتطلعاته، فقال:

ـ «إن الحزب... يؤمن بأن ضم الأراضي العربية بالقوة: وسيلة مشروعة لتحقيق الوحدة العربية»!!!

إنه «كلام» لا يليق بمنظّر، أو مثقف، أو «أمين حزب»... بل إن إطلاق صفة «الكلام» على هذه اللجاجة، إجحاف بالكلام ذاته... فما قاله «أمين» الحزب المساعد ليس كلاماً، بل هو قد تنكَّب به كل الكلمات العربية، وانحطّ باصدق المعاني في هذه اللغة الشاعرة العظيمة التي تشرفت بأن تكون: لغة القرآن!

ـ **ونتساءل:** أية وحدة عربية يحققها بعث العراق باستخدام: الاجتياح الغادر لبلد مجاور شقيق.. يطعن أهله في ظهورهم على حين غرة، ومع أذان الفجر.. ويدّعي: أنها وحدة عربية؟!

ـ وأية وحدة عربية «يسيء» إليها بعث العراق.. وجنوده: يغتصبون الحرائر، والأمهات والبنات الصغيرات.. ويسلبون الأموال العامة والخاصة.. ويحرقون، ويدمرون، ويعيشون في الأرض فساداً؟!!

ـ وأية «مصداقية» في دوافع وحدة كهذه.. تدمر اقتصاد قطر عربي، وتستبيح كل شيء.. وتقلب الموازين في كل الأقطار العربية.. وتسيء إلى مسيرة النضال للشعب الفلسطيني المكافح بالحجارة في الأراضي المحتلة؟!!

فهل كان هدف «**حزب البعث التكريتي**» أن يدفع جميع العرب إلى الكفر بالوحدة العربية، والإجهاز حتى على بوارق الأمل في إمكانية تحقيقها؟!!

إنه منطق «الغائبين عن الوعي»... من هؤلاء الذين يمارسون (الثقافة) كالعادة السرية، عبر تنظير فج، ورخو، لا يستقيم فيه منطق، ولا يستند على ثوابت، ودلائل ترتبط بمصلحة الوطن العربي، ولا يخدم الخطوات الصعبة التي حرص العرب على التقدم بها نحو أبواب السلام، وإقرار الحقوق المشروعة!!

(٣)

ـ وابتداء من عام ١٩٣٦م الذي شهد تفجير أول انقلاب عسكري في المنطقة العربية، مندلعاً من بغداد... ووصولاً إلى عام ١٩٩٠م، الذي يقف شاهد عصر على تفجير أخطر (فتنة) في المنطقة العربية، مسددة من بغداد إلى: التضامن العربي.. وإلى خطوات التنمية، وجذب «الوفاق» العالمي إلى أهم قضية عربية، لمناقشة حلول عادلة..

من التاريخ المبتدئ للقلاقل والشروخ في الوطن العربي.. وحتى التاريخ الذي سجّل أقذر طعنة «عربية» للوطن العربي... فإننا ـ بالاستقراء

الثقافي، والتاريخي ـ نود أن نتوقف عند كتابين صدرا في وقتين مختلفين:

ـ الكتاب الأول: صدر ـ فيما أظن ـ في مطلع الثمانينات للفيلسوف **(جان جيتون)** بعنوان: «**إيقاظ الذكاء**»... فماذا كان يعني المؤلف من العنوان في البدء؟!

ـ خايلني السؤال القائل: هل تريد أن تكون ذكياً؟!

ـ أجبت: الآن... لا بد أن نكون أذكياء جداً... حتى لا يتفوق الأغبياء، الذين يعتبرون أن «القوة» هي وحدها: كل الذكاء!!

أما المؤلف «**جان جيتون**»... فقد ركّز على ثلاثة مور، من شأنها ـ وحدها ـ أن توقظ الذكاء في الإنسان.. وهي:

ـ «المطالعة بشكل أفضل.. المناقشة بشكل أفضل.. التفكير بشكل أفضل»!!

وأحسب أن الأمرين: الثاني والثالث.. يرتبطان بالأمر الأول حتى يحسن الإِنسان التفكير!!

وإذا تلفَّتنا إلى حال المثقفين العرب من «**الغائبين عن الوعي**»... نكتشف أنهم يعانون في هذه الفتنة من: التفكير الأسوأ، ويفتقدون نعمة التفكير بشكل أفضل!!

ـ **بمعنى**: أن هؤلاء الغائبين عن الوعي، بسقوطهم في غيبوبة الوعي، لم يعودوا قادرين على «إيقاظ ذكائهم»... فاستمرأوا التبعيَّة وراء مبررات تزيِّف المنطق، وتتصدى بعار الكلمة وعهرها.. وتُدلّس التاريخ العربي، بكلمات تطفح عاراً وعهراً!!

ولكنهم ـ رغم ذلك ـ ما زالوا يتحدثون عن الذكاء، وأنهم ـ وحدهم ـ الأكثر ذكاء!

لقد حوّلوا «**الذكاء**» إلى: شعارات بعثية تكريتية، وإلى كلمات متجلطة عن «الضم» الذي يعني: الوحدة العربية، وعن تشريد شعب عربي.. الذي يعني في «ذكائهم» وعرفهم: القومية العربية، والديمقراطية!

وحوّلوا «**الذكاء**» أيضاً إلى وشاح من الزعامة الصدامية المزركشة، الذي يدثرون به صفات قبيحة، مثل: الخبث، والمكر والدهاء... بهدف خلط المعايير، والصفات.. ويصبح من السهل: اختيار الصفة المفضّلة على الموقف، والمصلحة، والمكسب!!

ـ **أما الكتاب الآخر**: فقد أصدرته «دار سينا» للنشر، بترجمة «بدر الرفاعي»، ومن تأليف شخص صهيوني اسمه «**اليعازر بعيري**»!

وهو الكتاب الذي سجَّل فيه مؤلفه: مسيرة الانقلابات العسكرية في الوطن العربي من عام ١٩٣٦، إلى عام ١٩٦٦م... واستعرضه الأستاذ «علاء الديب» في مجلة «**صباح الخير**» مدوّناً أهم ركائز هذا لكتاب، وهي:

ـ الكتاب يُعْلِم عن وجهة النظر الإسرائيلية في العرب.. بحقد اليهود المعتاد، والدفين تاريخياً.

ـ «يقدم صورة مغرضة ـ لكنها هامة ـ للتاريخ العربي الحديث، بحرص يُلح فيه على ربط الحركات السرية العربية بالنازية، وأيديولوجيتها.. ليصل إلى إثبات أن: الصراع العربي/ الإسرائيلي.. هو صراع أيديولوجيات»!

ـ «يرفض الكتاب فكرة القومية العربية، ويعتبرها عائقاً أمام التقدم الحضاري.. باعتبار المؤلف يروج حيناً للمنهج الاشتراكي العلمي، ويروج حيناً آخر للحلم الصهيوني بتقسيم الوطن العربي إلى كيانات قزمية»!!

ولكنها ـ في النهاية ـ تتضح حصيلة الانقلابات العسكرية، بدءاً بعام ١٩٣٦م/ إنقلاب «بكر صديقي» في بغداد.. وانتهاء بعام ١٩٩٠م/ فتنة «صدام حسين» من بغداد!!

و... يسقط ذكاء المثقفين العرب!

الأصوليون المتحزّبون

ـ كيف ضلّلنا، وصدّقنا بأن الحرب كانت قدسية؟

كيف شبّهنا ثراها..

برحيق القادسية؟!

لم نكن نعلم يوماً:

أن حجّاجاً...

إلى بغداد... عاد!!

ـ عبد الجواد طايل ـ

آية اللّه الترابي

ـ إن معنى «التفوق»... يرتبط بالوعي الذي يفكّ قيود سجنه من وراء أسوار التبعية، لإملاءات أطماع حاكم فرد.. يفرض على الشعب أن يُردِّد خلفه كلمات التمجيد لشخصه، وتكريس تسلُّطِه!

إن معنى «التفوق»... يتمثل في رفض القفز السطحي، الذي تستخدمه نوايا «حزبية»، وأفكار ديماجوجية!!

إن معنى «التفوُّق»... هو: أن لا تهزمنا الكراهية فتطمس العشق للأرض، وتقطع جسر التاريخ على درب الأمجاد، والإرادة!

لكن هذ «المعنى» الباهر.. آخذ في التدهور داخل العربة المسرعة، التي غيَّبوا فيها «الدور» الأساسي للكلمة الشجاعة، والحرة، والملتزمة، والواعية.

إن هذا العالم العربي ـ كوحدة دينية، وقومية، ووطنية، وحضارية، وإنسانية ـ ينزلق إلى تلك الهاوية التي دفعته إليها أيدي (المنتفعين) من اللغط، ومن تزوير التاريخ، ومن تدليس الحقيقة... ممن حوّلوا «الكلمة» إلى قفز سطحي تارة.. وألبسوها عباءة الدين، وصحوة العقيدة تارة ثانية.. وأضرموا فيها نيران الثورة، والتقدمية، والتغيير تارة ثالثة!!

إن الإسلام» يتلخص في كلمات: الحق، والعدل، واليقين، والإِيمان، والصدق.

لم يكن «الإِسلام» بقناعاته الهائلة، ونبراسه، وهديه.. يحتاج إلى أحزاب، أو «حزبية».. ولا يرتبط الجهاد في سبيله بنوايا تجمعت من حصيلة: الحقد، وإفشاء البغضاء ونشرها، وإحداث الفتن، ونسف مساعي السلام التي قطعت شوطاً بعيداً على درب «الحوار» والمباحثات، وإسْماع العالم (عدالة) صوت الفلسطيني المضطهد فوق أرضه، ووأد «الإِنتفاضة» التي صمدت أكثر من عامين بفعل النضال الإِيجابي، والمؤثر في قرارات السياسة العالمية، والرأي العام العالمي، واقتصاد العدو في الداخل!!

وأمام هذه المغالطات، ومحاولة غمط، ودفن قضية المسلمين الأساسية: (تحرير القدس) والأرضي العربية التي يحتلها ـ بمعنى الإِحتلال الحقيقي ـ عدو... فإننا نود أن نحاور فئات من هؤلاء «المُتَحزِّبين الإِسلاميين» الذين يدّعون دفاعهم عن الإِسلام، أو عن الحرمين الشريفين.. من خلال آيديولوجيات أحزابهم، وتجمعاتهم!

ـ وفي البدء.. نطرح عليهم هذا السؤال:

ـ أين اختفت وغابت غيرتهم الإِسلامية، على امتداد هذه السنوات الطوال، منذ احتلت إسرائيل (القدس) وَعَبَثْت بالمسجد الأقصى: القبلة الأولى، وثالث الحرمين؟!!

ـ لماذا لم يعلنوا عن ثورتهم الإِسلامية، بمثل حماسهم الذي يهاجمون اليوم به الدولة التي تخدم الحرمين الشريفين، وتحرس أمنهما، وترتقي بالخدمات وبالحياة فيهما؟!

ـ لماذا لم يثيروا الشارع العربي، والإِسلامي، بمثل إثارتهم اليوم،

عندما احتلت إسرائيل (القدس)، وعندما دفعت عميلاً لها لإِحراق المسجد الأقصى؟!

إن «إسرائيل» قد أعلنت عن مخططاتها لمحو (إسلامية) القدس، ونواياها عن هدم المسجد الأقصى، لإِقامة الهيكل... فماذا فعل الإِسلاميون المُتحزّبون، في السودان، وفي الأردن، وفي تونس، وفي الجزائر؟!

* * *

ـ في السودان: لعب هناك (آية الله الترابي) دوراً تآمرياً مُخجلاً، منذ إعلانه عن بدء نشاطه السياسي الذي ألبسه عباءة الدين، وأسس حزبه الذي صار معروفاً جداً لدى المنظمات الإِرهابية، و (ثوار) العالم الثالث، والندوات التي عُقدت تحت مظلة إحياء (الفكر الديني الإِسلامي!) لِتَضع خُططها المسدّدة إلى التضامن العربي، وخطط التنمية والإِستقرار!

واستطاع (آية الله الترابي) أن يصل إلى كرسي الحكم من داخل الكواليس، بعد أن وضع في الضوء: دُمْية، يُحركها من الخلف... حتى إذا أشعل حاكم العراق فتيل (الفتنة)، إكتشفنا أن هذه «الأحزاب» التي ادعت الإِسلام، والجهاد الإِسلامي.. هي الأدوات المُسَاعِدة لسكب المزيد من الغاز على نار الفتنة!!

ولقد وعدهم «صدام حسين» ـ هم أيضاً!! ـ بنصيب من هذه التركة.. فانطلقو يَفتُون، وينظِّرون باسم «الفكر الإِسلامي»، ويهددون بتجييش (الشارع العربي) بعد أن أوغروا الصدور العربية بعضها ضد بعض، وقَسَّموا الشعب العربي إلى: أبعاض، وأغنياء وفقراء، وإسلاميين ـ

هم وحدهم! ـ، وكفرة: كل من شارك في الوقوف مُواجهاً لعدوان، وتهديدات، وفتنة «صدام حسين»!!

واستطاع (آية الله الترابي) أن يدفع دُميته في السلطة إلى إرتكاب حماقات، وأحقاد، وسقطات... تمثلت في خطوات بالغة الغباء، ومنها:

ـ **أولاً**: خضع لتوجيه حاكم العراق بنصب صواريخ، ودبابات تُهدد أمن المملكة العربية السعودية.

ـ **ثانياً**: بعث بِفرق من قوات السودان (الأبيّ العربي) إلى الكويت المحتلة، لتتولى تفتيش الناس، والتحقيق مع أهل البلد والمقيمين بمعاملة شرسة: (جريدة الأيام البحرينية).

ـ **ثالثاً**: أبلغ «البشير» المسئولين الإيرانيين ـ من خلال وفد بعثه إلى طهران ـ بأن دول مجلس التعاون منزعجة من نظامي الحكم الإسلاميين في السودان، وإيران: (جريدة السياسة الكويتية)!

ـ **رابعاً**: أسفر (آية الله الترابي) عن وجه قبيح حاقد ـ بعد عدة زيارات قام بها للمملكة العربية السعودية، وهو زائغ البصر ـ وأدلى بتصريحات (لراديو لندن) مباشرة في الإفصاح عن عدوانيته وبغضائه... لخَّص فيها نواياه، فقال:

ـ في حالة نشوب حرب... فإننا سنعلن الجهاد ضد الأعداء!!!

ـ وما هو «جهاد» آية الله الترابي؟!!

ـ ينحصر في اتفاقه مع المنظمات الإِرهابية (منظمات الآباء!!) للقيام بجولات تخريب ضد شواهد الحضارة، والتنمية، والأمن والإِستقرار!!

ـ وأين سيكون جهادهم؟!

ـ لن يكون في (القدس)... بل في أرض الحرمين الشريفين!!

إذن... هذا هو «الجهاد» عند هؤلاء الأصوليين، الإسلاميين، المتحزِّبين... وهذا هو محور (فكرهم الإِسلامي)... وهذه هي أبعاد دور (الكلمة) التي يطلقونها، ويثيرون بها الشارع العربي.. باسم: الإِسلام، والجهاد!!

* * *

ـ لم نكن نريد أن تبعد الشقة بيننا وبين (أخ) مسلم، وعربي، وجار، هو السيد (حسن الترابي)... حرصاً منا على تثبيت «الحوار». والكلمة الطيبة التي هذّبنا بها الإِسلام، ودعانا إلى التخلّق بها... حتى لا يظلمنا، وحتى لا نفقد الأمل في عودته إلى الحق!!

وحين كان يقوم بزياراته المكوكية لبلادنا ـ في بدء الفتنة الصدامية ـ ليلتقي بالعديد من «رجال الأعمال!»، والإعلام، والثقافة، والمجتمع... كان الإِنطباع السائد عند كل من يستمعون إليه، ويبدون تعاطفهم مع السودان الشقيق: أن هذا الشخص قد ارتدى ثوباً آخر، واستعار لساناً لم يعد نظيفاً... وكان رأي الناس في موقفه: أنه موقف «أملس جداً»، ويطفح بالتشفّي!!

وقد ساد هذا الإِجماع بعد سلسلة «حوارات» إتسمت باستنكار السامعين لآرائه الغريبة والحاقدة التي «يبصقها» في عقر دارنا، وضدنا... وأريد ـ هنا ـ أن أنقل جانباً من ذلك الحوار المتعدد، ومن تلك الآراء التي قالها:

ـ **قال (آية الله الترابي):** إن ما فعله الرئيس «صدام حسين» خطوة على طريق الوحدة!

ـ أجابه مستمع: ولكن «الوحدة» لا تكون بالقسر، وبالدبابات، والقتل، وبالإِرغام!

ـ **قال الترابي:** صلاح الدين.. وحّد بالسيف!

ـ أجابه مستمع: ولكن... حَدَث هناك في الكويت مِنْ جُند «صدام»: هتك عرض، وقتل، وسلب، وسرقة!

ـ **قال الترابي:** لازم تلتمس العذر لأخيك (المسلم)، وبالذات في الحرب.. دائماً أثناء الحروب تحدث تجاوزات، لأن الجيوش كبيرة، والحركة سريعة، وليس هنالك ضابط، ولا رابط، وبذلك نلتمس العذر لتصرفات جيش العراق.

أجابه مستمع: لكنه لم يُعلن الحرب.. بل غزا الكويت غدراً، وغيلة؟!

ـ **قال الترابي:** من أجل الوحدة، وتوزيع مال المسلمين على المسلمين!

ـ أجابه مستمع: من منطق إسلامي أنت تتكلم، فليكن، ولكن.. أنت تعلم أن «صدام» بعثي، علماني.. فكيف تتحد معه؟!

ـ **أشار بيده وقال:** يا أخي.. إن الله لينصر هذا الدين بالبر، والفاجر!!

ـ سأله مستمع: هل سينصر الله دينه على يد «صدام» وفيه كل هذا الفجور؟!

ـ **أجاب الترابي**: الرجل يقول لنا بعض الكلام الإِسلامي، والعبارات الدينية، وقد بدأ يرفع الأذان من إذاعته، وهذا قد يُحوِّله الله إلى مصلح كبير، وإسلامي كبير!!!

ـ سأله مستمع: ولكن.. من غير المعقول أن نُغامر، لنكشف بعد ذلك أن كلامك صحيح، أو خطأ!

ـ **أجاب الترابي**: من تجربتي السابقة مع غيري، بدأنا نشجعه على الإِتجاه الإِسلامي، حتى أنه بدأ يصلي، ويقرأ القرآن (إنه من نسب علي!!!).

ـ سأله أحد الحضور قائلاً: أنا كمواطن كويتي بماذا تنصحني أن أفعل... وبعد تشريدي من بلدي، وقتل أهلي، وهتك أعراض أخواتي؟!!

ـ **أجاب الترابي (وقد تفصَّد عرقه)**: والله.. يعني.. في الحقيقة، أشوف إنك تتفاعل مع القضية، ومع وضعك، ومجتمعك، وأسرتك!

ولقد رفض أن يُوضِّح طبيعة ذلك (التفاعل).. وهذا يدل على نفسية وخلفية فكر الترابي!!

ثم. انفعل (آية الله الترابي)، وقد استفزته الأسئلة، وشعر بالإِختناق، فأخذ يصرخ قائلاً:

ـ أنتم في الخليج، والجزيرة... من أنتم.. ماذا أنتم؟!

ـ ماذا قدّمتم.. حتى تحاسبوننا على مواقفنا؟!

ـ لماذا تريدون أن نقف معكم.. لماذا؟!

وهكذا... يخلع (آية الله الترابي) قناعه، ويُسفر عن (حزبيته) التي يحاول أن يلوِّث بها أخلاق الإِسلام!

ولو أنه أفصح عن (حزبيته)... فلعلّنا نعذر بعض تجاوزاته، إبقاءً على الأرومة، ومحبة الدين... لكنه حين يدّعي الإِسلام، ويتكلم باسمه، ويتباكى عليه... فإنه (دعيّ) يريد أن يُسيِّس الدين لأغراضه، وأطماعه السياسية!!

الجبهة الإسلامية السودانية

ـ ما بال قومي يهونون على أنفسهم؟!

هذا سؤال يكبر، ويتضخم... كلما حاولنا إحصاء الخسائر الفادحة من حصيلة هذه الحروب «الأهلية» على إمتداد السنوات التي تفجرت فيها الثورات، والإنقلابات داخل العالم العربي!!

وكان الشعب العربي ـ الخارج بعضه من ربقة الاستعمار، والمناضل بعضه الآخر لكسر قيود الاستعمار والتبعية ـ هو ذلك الشعب المشرئب نحو دعوات الخلاص من القهر، والذل، والضيم.. والذي يستنهض وعي وقدرات قادته لبناء مستقبل الحرية، والكفاية، والعدل!

وكان الشعب العربي، في توجُّهاته الجديدة تلك، قد أحسن الظن بحركاته الثورية، التي فُجع في الكثير منها بعد ذلك، واكتشف أنها لا أكثر من «إنقلابات» يقفز «العسكر» فيها إلى السلطة، أو فوقها، ويتبارون في فتح السجون بدلاً من المدارس، وفي نشر المعتقلات بدلاً من الجامعات!!

وكانت «حصيلة» الأنظمة السياسية الفاسدة: انقلابات عسكرية «تؤدلج» الطغيان، فتجعله: ثورية، وتقدمية، وتدهوراً باقتصاد الأقطار، وتكريس الفقر لشعوبها!

وعلى الخط المُوازي ادِّعاءات (الإِصلاح الداخلي)... برزت: الأحزاب اليسارية، أو الثورية... والمليشيات التي لا تجد غضاضة في أداء دور (المرتزقة) حتى ضد الوحدة الوطنية داخل قطرها!!

ومخاضاً لكل تلك «النتوءات» في الممارسات السياسية على الساحة العربية... فقد اندلعت الحروب الأهلية، بتغذية مدروسة من الاستعمار «الحديث!»، ومن الطامعين في ثروات واستراتيجية العالم العربي... فكانت الحرب بين: الفلسطيني، والفلسطيني... وبين اللبناني، واللبناني... وكانت خسائرها تتصاعد إلى حد الفجيعة بفقد من احتسبهم الشعب العربي: رجالاً في صفوف المجاهدين، والثوار، والشهداء بعد ذلك.. عندما يحاربون عدوّ الدين، والأرض، والإِنسان!!

ـ ومن فشل تلك الأحزاب اليسارية، والثورية، وسقوط تجاربها المتلاحقة في تدمير الاقتصاد العربي، والصناعة، والتنمية... كان لا بد أن يظهر خط موازٍ ثالث، ربما يُعلن عن دوره «التصحيحي» لادِّعاءات أصحاب الخط الأول من (الإنقلابيين)، وصَنّاع الثورات العربية الكرتونية، والذين ادّعوا «الإِصلاح الداخلي»، ولكنهم ضاعفوا تخريب الداخل ـ إقتصاداً، وتطوراً، وتنمية ـ بينما كان العدو الإِسرائيلي يعمّق جذور إحتلاله للأرض العربية، ويتوسع بالحرب، وبالعدوان، والخديعة!

كذلك... فقد ظهر أصحاب الخط الثالث الموازي للانقلابيين، وللحزبيين الذين عجزوا عن تطبيق نظريّتهم، ومصداقية شعاراتهم... وأرادوا أن يقيموا قاعدة (النموذج) من خلال قيام: (جبهات) إسلامية.. تنادي بالاحتكام للشريعة الإِسلامية السمحة، والاقتداء بهديها، وتنظيمها، وكفالتها للحقوق والواجبات!!

لكنّ هذه «الجبهات» ما لبثت أن تحولت إلى «تيارات» تتصارع فيما بينها!

وتبلورت تلك التيارات، لتتجسد (أحزاباً).. بعضها قد استمر تحت مسمى: «الحركة» مثل: الحركة الإِسلامية «القومية!» السودانية.. وبعضها تحت مسمى: «المنظمات الإِسلامية الشعبية»، مع ملاحظة أن: كلمة «الشعبية» صفة صارت تشترك في الإتِّصاف بها الحركات الإِسلامية، والحركات الإِشتراكية.. وهناك بعض تلك الحركات الإِسلامية قد وحَّد (نضاله!) ضد الإمبريالية، وانحيازاً إلى ضم العراق للكويت، مع حركات شيوعية ويسارية!!

وهكذا.. بسط «البديل»، أو الخط الموازي الثالث، نشاطه، وتأثيراته، و «نضاله» أو «جهاده» الذي يصفه بالإِسلامي... لينتشر في أنحاء العالم العربي والإِسلامي، في خط «سياسي»، وكوادر تقوم نشاطاتها على العمل السياسي، وإثارة الشارع العربي والإِسلامي، مثلما حدث في وقفتهم المؤيّدة للعدوان العراقي على الكويت!!

وقد حملت الأخبار الأخيرة إلينا.. ظهور «جبهة إسلامية» جديدة، أطلق مؤسسوها عليها اسم: (الجبهة العالمية الإِسلامية للتحرير) ومقرها: العاصمة الأردنية عمّان... وقد أضافت «مهمة» جديدة وبشعة إلى الركائز التي أعلنت الجبهات الإسلامية السابقة عنها، وهي مهمة: «القتل».. أو إصدار أحكام الإِعدام على مسئولين عرب، بعد إتهامهم بالخيانة، وهي أيضاً التي تتولى تنفيذ حكم الإِعدام، مثلما أعلنت هذه الجبهة «الإِسلامية» الوليدة، عن مسؤوليتها الكاملة بقتل الدكتور «رفعت المحجوب» رئيس مجلس الشعب المصري السابق (!!).

ـ أما «الجبهة الإِسلامية السودانية»... فقد تجاوزت مهمتها الأساسية القائمة على: الدعوة للإِسلام، والترغيب فيه أمام هجمات البعثات التبشيرية الصليبية، في أفريقيا بالذات، والجهاد لتحرير المسجد الأقصى، والأراضي العربية... وباشرت العمل السياسي المحض، ولعْب الدور البارز في (اختيار) حكومة تتولى هي تشكيلها في السودان!

ونقلت مجلة «روز اليوسف» المصرية... تصريحات أدلى بها «آية الله الترابي» زعيم الجبهة، والمحرك الخفي لدمية الحكومة السودانية من وراء الستار... فقال:

ـ لوقت قريب.. إقتصرت اختصاصات الحركة الإِسلامية على دور المراقب، لكن... «لجلال» هذه الأزمة ـ يقصد أزمة الخليج ـ وللنمو النسبي الذي طرأ على الحركة الإسلامية.. «نطمع!» أن يكون لها صوت ودور!

ولعلّها «فرصة!» لانتقال الحركة الإِسلامية من دور المراقب إلى دور الفاعل، ومن دور المنعزل إلى دور العمل الإِسلامي الموحد!!

والسؤال المباشر هنا إلى «آية الله الترابي».. هو:

ـ هل تعتقد أن دور العمل الإِسلامي الموحد، «يتشرف» بتأييد، ومناصرة، ودعم عدوان جيش دولة عربية إسلامية على دولة مثلها، شقيقة، وجارة، ومسلمة.. وسرقة أموالها وحلالها، واغتصاب نسائها، وتشريد شعبها؟!

ـ وهل يعتقد «فضيلتكم» أن اعتماد نشاطات عملكم الإِسلامي، على أموال المؤسسات والبنوك في الجزيرة العربية، والخليج العربي... يجيز لإِسلامكم الحزبي، أو المتحزِّب، أن يدعو إلى نهب، وتحطيم، وسرقة

هذه المؤسسات والبنوك في الجزيرة والخليج؟!

ـ قالت مجلة «روز اليوسف» في ريبورتاجها:

ـ مجموعة بنك البركة في لندن التي تدير مجموعات ضخمة من الشركات والفروع في أنحاء مختلفة من العالم تصل إلى أكثر من ٢٥٠ فرعاً، تعمل في كافة النشاطات، من تأمين، وزراعة وسياحة، وخلافه... وساعد ذلك هذه التيارات على تحقيق قدر من الاستقلال الاقتصادي والمالي النسبي، ويُعد السودان أوضح نموذج لذلك، لدرجة أن أربعة من قيادات الجبهة الإسلامية هناك يسيطرون الآن على أسواق ومقدرات الاقتصاد السوداني، ويذكر أن أحدهم كان يعمل قاضياً بمرتب موظف حتى نهاية الستينيات في السودان، بينما أصبح الآن أحد كبار رجال المال فيه بفضل تجارته في السلاح، وامتلاكه العديد من المزارع وشاحنات النقل!!

وفي يونيو الماضي باعت الحكومة السودانية بعض وحدات القطاع العام السوداني إلى أفراد من الجبهة الإسلامية، وحاز «عثمان خالد مضوي» عضو القيادة التنفيذية للجبهة، وأحد أكبر رجال المال في السودان على مدبغة النيل الأبيض بالخرطوم، وصدقت اللجنة الاقتصادية ووزارة الطاقة السودانية للرجل نفسه باستيراد بترول من السوق الحرة بقيمة ١٥ مليون دولار، ومنحت تصديقاً آخر لبنك البركة (فرع السودان) باستيراد مواد بترولية بما يعادل ١٥ مليون دولار أخرى، واستيراد سماد بمبلغ آخر يعادل هذا المبلغ في مقابل محصول القطن للعام الحالي إذ حصل البنك على شهادات تخزينه للموسم الحالي.

ـ والسؤال المطروح في أعقاب هذه المعلومات، والممارسات:

هل يُسفر الغد عن تشكيل (تنظيمات دينية)، أو جبهات، أو حركات.. مناوئة لهذه الحركات التي سيَّست أدوارها، وأفعالها... وافتضحت توجُّهاتها؟!!

ـ إن السؤال يكبر، وينشرخ، ويدمي.. إذا ما ألحقناه بالأسئلة الصميمة التي فجّرت معنى سؤالنا الرئيسي هنا: ما بال قومي يهونون على أنفسهم؟!!

ـ إن قومي يهونون... لأن «العربي» يقتل أخاه العربي.. ولأن الدم العربي، يراق بيد يجري في عروقها الدم نفسه.. ولأن العربي يحرق أرضه، ويشتت أهله، وينسف داره بيده!

بينما تنقل لنا وكالات الأنباء المصورة: صورة مقيتة ومضخمة لتشريد الأم العربية/ المسلمة من دارها، وقتل الأطفال في مدنهم.. بما يعني: التفريط في (العِرْض) العربي!

هذا التفريط» المخجل... نود أن نُواجه به «آية الله الغنّوشي» الذي وَصَفتْ الصحافة العربية تصريحاته بأنها: (تحمل أكثر المواقف تطرفاً).. خاصة في مضمون طَرْحه الذي ألبسه عباءة الإِسلام، وهو يتحدث في اجتماعات ما أسموه: (اللقاء الإِسلامي في عمان) من ٩/١٢ إلى ٩/١٥/ ١٩٩٠!!!

وتنقل لنا وكالات الأنباء العالمية، في أصداء (الفتنة) صوراً مخزية وأليمة لتشريد شعب عربي، مسلم آخر، وتغريب الطفل العربي عن حضن أمه، ورعاية أبيه... بما يعني: إهدار طاقات الغد العربي المسلم، المتمثل في هؤلاء الأطفال البذور، والطلائع.. وبما يعني: غرس الحقد والكراهية في صدر الطفل لقومه، ولمن ادّعوا أنهم أهله!

ولو أراد العدو» أن ينفِّذ فينا هذا المخطط الإِجرامي.. لم يكن سينجح في حالة تضامننا، وتوحدنا، ومصداقيتنا مع بعضنا البعض.. ويقظة ضميرنا الوطني، الذي أغرقناه في أوحال من المزايدات، وادّعاء أخلاق الإِسلام!

لقد تبادل جيش «صدام حسين» مع العدو الصهيوني: مواقعه، وقام يتنفيذ جرائمه ومخططاته.. ضد الضمير العربي، وضد حقوق المسلم العادلة، وضد أعراضنا وأطفالنا، وضد الغد العربي!!

ولقد كَفَت تصريحات «الترابي» و «الغنوشي» و «علي الفقير» في الأردن.. ما أراده الإعلام الصهيوني، ومارسه طوال أربعين عاماً!!

بل إن هذه التصريحات، والمزايدات، والممارسات التي فعلها «الترابي» و «الغنوشي» قد أساءت إلى وحدة المسلمين، ولا نقول إنها: أساءت إلى الدين.. لأن «الإِسلام» أقوى، وأرفع، وأشرف، من أن يقوم أفراد، أو حركات، بتوظيفه لمطامع سياسية، وقيادية، وإقتصادية رطيئة الأهداف.. متخشّبة الغايات!!

* * *

ـ إن قومي يهونون على أنفسهم... لأن العربي، يُقنع الآن دول العالم بتفاهة (الهدف) الذي يحارب من أجله!!

إن العرب.. بالانشقاق، والاختلافات، وبالحروب الأهلية، والحزبية و «الجبهوية»، و «الحركية»... إنما يؤكدون للعالم: أن قضيتنا تنحصر في أهوائنا الخاصة، وفي مطامعنا الذاتية، والقيادية وتسلط الفرد، وانعدام «الشورى»!

إن العرب اليوم ـ في تقييم النضال والكفاح ـ يتضاءلون بما حدث من (فتنة) وشقاق في الرأي، وقْفز أيضاً حتى فوق كرامة وشرف الإِسلام العظيم!!

إن العرب اليوم.. يرمون بأنفسهم في مجاهل: العصبية، والقبلية، والجهالة، والتوحْش... بينما نحن العرب نفاخر: أننا أمة حضارية، أهدينا للعالم كله الحضارات الرائدة، والعلوم، والفنون، والآداب، والمحارب الفارس، والشجاع، الأمين، الشهم!!

ـ إن قومي يهونون على أنفسهم... لأن نتيجة هذا الصراع الذاتي، والأناني، لن يطلع منها منتصر، ومنهزم!!

ولأن إضرام النار في قش البغضاء، وتضخيم الفوارق الطبقية، وتقسيم العرب إلى: أغنياء، وفقراء... وتقدميين، ورجعيين.. وإسلاميين يتوحّدون مع علمانيين وشيوعيين لهزيمة أشقَّاء لهم مسلمين... إنما يُصعِّد المعاناة على المدى الطويل من ضعف مواقفنا، ومن تفتيت صفوفنا، ومن ضياع حقوقنا المشروعة... فنكون نحن المنهزمين وحدنا، وبأيدينا!!

ـ ولا بد أن نجد «المتنبي» أخيراً، ودائماً... وهو يقول:

ـ من يَهُن.. يَسْهلُ الهوان عليه.

ما لِجَرح بميت: إيلام!!

فـرق الاغتيـالات

ـ في صحيفة (الإنقاذ الوطني) التابعة لحكومة «البشير»... كتب المحامي «أحمد سليمان» تدليساً آخر في سلسلة قلب الحقائق التي تمارسها حكومته ضد المملكة العربية السعودية، والخليج العربي... وأقام دفاعه عن «آية الله الترابي» على الافتئات، والتقوّل، وزَجَّ بمشاعر الإِخوة السودانيين، في ذلك التقوّل والتدليس... فادّعى أننا نَصِفُ الأشقاء السودانيين بأنهم من المتسوِّلين والمرتزقة.. وهم أكرم، وأنبل، وأجلَّ من أن يأتي منتسب إلى هذه الأمة الخيّرة فيحاول إلصاق أوصاف لا ينبغي أن يوظِّف الكذب فيها، من أجل الوقيعة بين الشعوب!

إن علاقتنا بالشعب السوداني الشقيق عامرة، ومعطاءة... وخير دليل نلقم به جعجعة المحامي المذكور.. هذه الرسالة التي تلقيتها من شقيق سوداني.. رمز لِإسمه «م. خالد»، ويعمل في هذا البلد الآمن دوماً إن شاء الله، ولو كره المبطلون:

ـ قرأنا مقالتك المنشورة بصحيفة عكاظ يوم ١٩٩٠/١٠/١٠ عن «آية الله» المخادع الكبير: الترابي!!

والحقيقة التي كانت غائبة عن كل العالم العربي: أن مشاكل السودان الآن سببها هذا الترابي، وتدهور السودان واقتصاده سببه الترابي...

وإنك، ككاتب وصحفي، لا بد تدرك مدى وعي الشعب السوداني وتطلُّعه.

لقد حكم الشعبُ السوداني على الترابي جهاراً نهاراً عندما أسقطه ديمقراطياً في الانتخابات العامة التي جرت بعد سقوط وليّ نعمته النميري عام ١٩٨٦.

وبما أنهم كانوا يملكون الإعلام، والتنظيم.. فقد أظهروا للعالم الآخر بأنهم دعاة الإِسلام والشريعة في السودان، وكل ما هو غيرهم كافر... مع أن الشعب السوداني كله يعلم بأنهم تنظيم قام، ونما، وترعرع على جماجم الشرفاء والجوعى.. حيث تاجروا بالذُّرة المرسلة لإِغاثة الجوعى!

وقد قال الشعب السوداني كلمته في «الترابي» جهاراً نهاراً في الانتخابات، حيث سقط سقوطاً شنيعاً... ولذلك ظلت الجبهة طيلة فترة الديمقراطية تعمل على وأد الديمقراطية، لأنها تنظيم لا يمكن أن يعيش إلا في ظل الرأي الواحد!!

وعندما اتفقت جميع تنظيمات الشعب السوداني على حل مشكلة الجنوب سلمياً، ووقع اتفاق «الميرغني/قرنق» شعرت الجبهة أن وجودها في الشارع السياسي قد انتهى، ولذلك عملت بكل ما تملك على تعطيل السير في طريق الاتفاقية... وما لبثت أن أتت بإنقلاب «البشير» ليقضي على الديمقراطية، وتنفرد مرة أخرى بإذلال الشعب السوداني، وحكمه بالحديد، والنار، والجوع، وحظر التجول حتى هذه اللحظة.

إن «الترابي» شخص غريب على تركيبة المواطن السوداني الأصيل، المبنية على البساطة، والوضوح، والتسامح؟.

و «الترابي» هو الذي يقود الغوغاء في أي مكان إلى إطلاق كلمة «جهاد» عندما يخالفهم أي شخص في الرأي، ولذلك لم نفاجأ عندما أعلن أنه سيعلن الجهاد إذا اندلعت الحرب في الخليج!

فما هي علاقة الجبهة بشخص مثل صدام حسين.. الذي لا يعرف من الإِسلام إلا اسمه، وهو شخص علماني وبعثي لآخر رمق؟!

إن الإِجابة على ذلك هي: أن «الجبهة» تنظيم لا يعيش إلا تحت مظلة العسكر والقهر، ولكن في الحرية والرأي.. فإنهم ينكشفون حالاً، ولأنها تنظيم همُّه جمع المال باسم الدين فقط، والدين منهم براء!

إن «الترابي» شخص مهووس بالسلطة ودائرة الضوء، ولذلك من الصعب عليه الانزواء بعيداً، وتُهِمَّه السلطة حتى لو كانت على حساب المبادئ التي ارتضاها الشعب السوداني كله.

إن تحالف «الترابي» وجبهته مع البشير، ومع النميري من قبل، هو الإِجابة الواضحة لكل العالم بأن «الترابي» شخص يأخذ من الإِسلام اسمه، ليبني مآربه ودنياه على حساب مبادئ الشعب السوداني، وعلاقاته مع أشقائه العرب، ودول الخليج خاصة، وعلى رأسها الكويت والمملكة العربية السعودية.

ولذلك لا بد أن تأتي ساعة الحساب، والشعب السوداني له باع طويل في إزالة الطغاة مهما مارسوا من عنف، وقتل وتشريد!!

(انتهى)

* * *

إن كل الشعب السوداني يعرف أن «الترابي» هو الجبهة القومية

المسماة إسلامية، وأن الجبهة القومية هي الترابي.

ـ ومِنْ مَاذا تتكوّن هذه الجبهة؟!

إنها تتكوّن من خليط من فلول وبقايا «مايو» الذين ساندوا النميري، وهم كلهم كانوا شيوعيين، وعلى رأس تنظيم الجبهة ـ بعد الترابي ـ: علي عثمان محمد طه عضو مجلس شعب نميري، وقريب البشير... حين كان «علي عثمان» يزور جنوب السودان ويقابل البشير حيث يعمل، واتفق معه على وأد الديمقراطية!

ثم هناك «أحمد سليمان المحامي» الشيوعي المعروف في أفريقيا كلها، والذي تاب أو هو يُظهر ذلك... والترابي نفسه هو الذي أثرى وعاش متقلداً كل المناصب في زمن النميري.. وهو المؤسس والمشارك في كل الشركات الأخطبوطية التي تتاجر بالذُّرَة: غذاء الشعب السوداني وهو جوعان!

إن «الترابي» لم يكن سوى إنسان عادي، مثله مثل غيره من السودانيين.. ولكنه في فترة الطفرة، وعندما انهالت المساعدات الإِسلامية من دول الخليج، وعلى رأسها المملكة والكويت... كان «الترابي» هو الشخص الوحيد المشارك في حكومة نميري من بين رجالات الأحزاب الأخرى، ولذلك وظَّف كل تلك الأموال في الجامعات، والمدارس، والشركات، والبنوك، لخدمة أهداف الجبهة لفترة ما بعد النميري.

إن «الترابي» حكم عليه كثير من علماء الإِسلام، وعلى رأسهم الشخ القطان إبن الكويت.. الذي ألَّف كتاباً يدحض فيه افتراءات الترابي!!

و «الترابي» هو الوحيد في السودن الذي لا يمكن أن يكون له صوت إلا تحت مظلة العسكر والسلاح.. فهو الذي أذلَّ الشعب السوداني عندما

كان متحالفاً مع النميري طيلة سبع سنوات... فاستفاد من الإعلام، والصحافة.. حيث لم يكن مسموح لأي حزب آخر، عدا جبهة الترابي القومية!

وعندما أسقط الشعب السوداني نظام النميري في ثورة ١٩٨٥، خرج الترابي... وكان يعلم الإِرث الثقيل الذي يحمله بتحالفه مع النميري.. ولذلك تبَّرأ منه تنظيم الأخوان المسلمين بقيادة دكتور «الحبر يوسف نور الدائم»، وأصدروا بياناً في الصحف يتبرأون فيه من الترابي وجماعته!

وبذلك كوَّن الترابي «الجبهة القومية» التي أطلق عليها الإِسلامية... فتجمَّع فيها كل فلول مايو، والشيوعيون «التائبون!»، وتجار السوق السوداء، وتجار العملة!

***

ـ لقد أثبتت هذه (التنظيمات) التي تتخذ الإِسلام جواز مرور لبناء قاعدة سياسية، شعبية لها في أقطارها.. أنها:

ـ **أولاً**: تنظيمات بعيدة عن توصيات الإِسلام، ومنهج تشريعاته في بناء الحياة، والعلاقات بين الناس، وبين لشعوب!

ـ **ثانياً**: حركات انتظمت في (أحزاب)... فإذا هي ـ لإِثبات وجودها السياسي، والمؤثر في الحكم ـ: تكذب على شعوبها.. وتَنافق من أجل بلورة مواقف تدفع بها إلى السلطة.. وتتآمر لقلب أنظمة الحكم، واستخدام الجماعات الإِرهابية، والتصفيات الجسدية ضد المناوئين لانحرافاتها!

ـ **ثالثاً**: إنّ هدف هذه التنظيمات، أو الحركات، أو «الجبهات» التي

تتسمى بالإِسلام زوراً وبهتاناً . . يتركز في تطلُّعها إلى التأثير في مقدّرات اقطارها : سياسياً، واقتصادياً . .

والمحور الذي تقوم عليه أهداف وتطلعات هذه الحركات أو الجبهات . . هو المحور : (الميكافيلي) الذي ينادي بالغاية التي تُبرر الوسيلة!!!

ـ **وغايتهم**: محصورة في التسيُّد، والتسلُّط، والسلطة. . . وهي غاية تلفظها أبعاد، ومضامين (الفكر الإِسلامي) الصادق، والمستنير بتشريعات هذ الدين العظيم!!

ـ **ووسائلهم**: متعددة بتلوّن مواقفهم الغير مخلصة لرسالة ودعوة الإِسلام، والجهاد في سبيل الله!!

فهم ينادون بالوقوف في وجه الاستعمار، ويضعون أيديهم أسيرة لقيود الطغاة!

وهم يتحدثون عن: الشورى، والديمقراطية. . . ويمارسون إصدار القرارات الفردية، والتعسفية ضد المسلمين في أقطارهم . . وإغراق بذور الديمقراطية في وحول القهر، والإِعدامات الجماعية، وتشكيل الجماعات الإِرهابية التي تُطلق الرصاص على الآمنين، وتُصدر أحكام الإِعدام بدون محاكمات، ولا حيثيات: (اغتيال الدكتور المحجوب، وحرّاسه)!!

إنّ إعلان «الإِسلام»، والدعاوة له، ومحاربة أعدائه، والتشديد على اتّباع تشريعاته. . . كل ذلك لا يحتاج إلى تشكيل أحزاب، وحركات سياسية، وكوادر، وجماعات إرهابية، تتعامل مع المجتمع العربي بالرشاش، والمسدس، والقنبلة!

إن (المسجد) في كل مكان... هو المجال الأرحب للدعوة، وللإرشاد، وللتبصرة.. ولمن يجد (الشجاعة) في عزيمته، وإيمانه، وقناعاته، على أن يصدع بالحق، ولا يخاف بطش السلطة، ولا يخشى في الله لومة لائم!

إن (الإسلام) لم يأمر بقتل الذين يخالفونك الرأي: غيلة، وغدراً، وتآمراً، وخداعاً... بينما نجد أن الجماعات الإسلامية اليوم قد جعلت (الإسلام): رصاصة غادرة، واغتيالاً جباناً، وجماعات إرهاب، ومتطرفين... حتى عندما تجادلهم بالتي هي أحسن!

وأي توجّه إسلامي لدى هذه الجماعات، والحركات، والجبهات... وليس من مهمة لها سوى: الإخلال بالأمن، والتآمر لقلب نظام الحكم، والعبث باقتصاد الوطن، وقتل الناس، وإثارة القلاقل، وإحداث الفتنة، ووغر صدور الشعوب العربية الإسلامية بعضها ضد بعض؟!!

تلك هي «الصورة الحقيقية» الأمينة لواقع، ولسويداء الذين أنشأوا هذه (الأحزاب)، وهم يدّعون الإسلام.. ويعملون على نشر (غايتهم) البشعة، بوسائل لم تعد تنطلي على الشعوب اليوم!!

«الفقير» من الحياء

ـ بعد أن أطلق «أعلام الفكر الإِسلامي» أقوالهم المتواطئة مع «دوافع» الغزو العراقي لدولة الكويت... أخذوا يلوون عنق (الفتنة) الصدامية إلى التذرع بالخوف على المقدسات في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، في هجومهم على «مساندة» القوات المتعددة الجنسيات لجيش المملكة.

وبعد إشغال الشارع العربي والإِسلامي بتصريحاتهم التفجيرية... المعادية لمسيرة التضامن العربي، والطامعة في اهتبال فرصة الإِثارة واللغط... لتثبيت «دور» سانح، تقوم به هذه الحركات، والجبهات الإِسلامية/الحزبية، بهدف السيطرة ـ ما أمكنها ـ على مواقع السلطة في العالم العربي.. بدءاً بخطوة «الجبهة الإِسلامية القومية» في السودان، التي وظّفت بعض «العسكر» ليكونوا واجهة تديرها الجبهة من وراء الكواليس...

بعد تلك التفجيرات الإعلامية التي عكست أبعاد، ونوايا «أَعلام الفكر الإِسلامي المتحزّبون»... فقد توارى أولئك «الأعلام» قليلاً، وصمتوا، حتى يفسحوا المجال الذي يمثل الخطوة الأخرى في حملتهم الإعلامية المواكبة والمؤيدة للغزو العراقي، والتي توحي بتأييد الشارع العربي لهم!

وقد تبلورت هذه «الخطوة الأخرى» في ظهور (المريدين) أو التلامذة، أو الأتباع!!

وأخذ بعض هؤلاء (المريدون) في رفع أصواتهم: على استحياء في البدء، ثم على خط المجابهة والتّصدي لكل من تقدم لفضح ممارسات أولئك (الأعلام المتحزّبون)!

لكنَّ «الأخطر» في دفاع هؤلاء (المريدين) عن أساتذتهم، أو «مرشديهم» من أَعلام الفكر الإِسلامي المتحَزّبين... قد تركز في نقطتين:

ـ **أولاً**: أن هؤلاء المريدين بادروا إلى التركيز على (نفي) تهمة تعاطف، وانحياز (أَعلامهم) إلى اجتياح العراق للكويت... في محاولة منهم لغسل هذه البصقة من تحرك (أَعلامهم) الذي واكب الاجتياح منذ أيامه الأولى، والأدلاء بتصريحات مسجلة، ومدوّنة... أطلقها (أَعلامهم) بروح التشفّي، وإعلان (الجهاد!) على الدول التي طلبت مساعدة القوات المتعددة الجنسيات!!

ـ **ثانياً**: دافع هؤلاء (المريدون) عن أعلامهم بقولهم:

ـ إن الشيخين الترابي، والغنوشي ـ بالذات! ـ قد ركزّا حملتهما الإِعلامية، وإعلان (جهادهما) على تواجد القوات الأجنبية (!!).

لكنَّ **(علَمَاهما)** ـ وفي كل تصريحاتهما، وهجومهما ـ لم يتلفَّظا بكلمة واحدة تدين الغزو العراقي البشع لدولة الكويت، ولا حتى (تشجبه)!!!

لكنهما طفقا يتحدثان عن: الديمقراطية، والشورى... دون أن يجيبا على السؤال الأهم، المواجه لحملتهما الظالمة، وهو:

ـ هل وجدا تطبيقاً للديمقراطية، وللشورى في حكم النظام العراقي الذي يدافعان عنه، للشعب العراقي؟!!

ـ بل ـ والأهم ـ : هل رسَّخ النظام العسكري في السودان، على سبيل المثال، قاعدة الديمقراطية، والشورى، منذ قفز إلى السلطة... أم أن هذا النظام أقام حفلات تصفيات وإعدامات ـ بدون محاكمات ـ لضباط الجيش السوداني، وصفوة رجال السياسة؟!!

ـ وهل تتوفر الديمقراطية، والشورى... بتأييد ودعم نظام القمع، والقتل!

ـ أم أن هؤلاء **(الأعلام)** ومعهم **(المريدون)** لهم... قد تناسوا مذابح تصفية الأكراد، وتناسوا «سَحْل» الإِسلاميين، وإبادتهم، ومطاردة جنود «صدام» في شوارع الكويت، وأزقتها، وبيوتها، لكل «ملتحٍ» من الشباب بالذات؟!

تلك أسئلة (صادقة)... لم يكن الهدف من طرحها: إدانة أحد.. بل تبصير السادرين... والتآلف حول كلمة سواء!!

* * *

ـ لا نظن أن «إختلافات» القيادات الفكرية، في هذه الجبهات المتحزِّبة.. تبلغ حدود الحقيقة، والحق، والعدل، والمنطق!

إن الاختلافات قد تنشأ في الأفكار، أو ضدها... لكنها لا يمكن أن تتمدد حتى تصل إلى (الثوابت)!

ـ إن (الفتنة) التي أشعلها الرئيس العراقي «صدام حسين» في الحكم

الثابت عليها، والتي لا يتجادل فيها إثنان، هي: عمل إجرامي، عدواني.. أحدث الشروخ في بنية التضامن العربي.. وفجّر النزيف في المشاعر العربية... وأشعل الفُرْقة في صف الشعب العربي الواحد!

وهذه (الفتنة) لا تُقِيَّم على أنها مجرد (خلافات)... بل هي إنحرافات، وتمزقات، وتجلُّطات بلغت (عاطفة) الشعب العربي التي أثيرت بكثافة من الحقد!!

وإذا كان «ماضي» واحد من هؤلاء **(الأعلام)** للفكر الإِسلامي المتحزّب.. وإذا كانت «علاقاته» الخاصة بضيوف بيته، أو بالمستمعين إلى أحاديثه، يصفها مريدوه بالنصاعة... فإن السؤال الذي يُستَوجب طرحه في مقابل الماضي، والعلاقة، هو:

ـ لماذا لم يتحلَّ هذا **(العَلَم)** المرشد، بكل تلك الصفات التي عدّدها مريدوه وتلامذته.. في التعامل مع: الاعتداء على وطن عربي مسلم، واجتياحه، وسرقة أمواله، واغتصاب نسائه.. تحت تهديد السلاح العراقي؟!.

أم أن هذا **(العَلم)** المرشد، يُعاني من الانفصام في الشخصية... فهو «ناصع»، عادل، كريم مع ضيوف بيته، والمتحدث إليهم... وهو عكس هذه الصفات الرائعة: خارج بيته، وداخل حزبه، عندما يرسم أبعاد التوسع السياسي، والسلطوي له، ولحزبه؟!

* * *

ـ أما وزير الأوقاف الأردني «الشيخ» الدكتور «علي الفقير»... فقد رفض فتوى كبار علماء المسلمين في المملكة، والأزهر، والعالم

الإِسلامي: (وثيقة مكة المكرمة) المؤيدة للاستعانة بالقوات المتعددة الجنسيات!

ـ لماذا يرفض «**الفقير**» غِنَى الفكر الإِسلامي الذي اجتمع في مكة المكرمة؟!

لأن الفتوى لم تكن مُعِينَة لبلده... ولو حدث التهديد للأردن، فماذا تراه ـ كعالِم مسلم ـ سيقول لحُكَّامه.. وكيف سيواجههم برفض الفتوى؟!

ـ وهل تراه لم يقرأ تاريخ بلاده، وقد استعانت بالقوات الأجنبية (الاستعمارية!) مراراً، لتثبيت استقرار نظام الحكم؟!

بل إن تأسيس (**المملكة الهاشمية**) كدولة، وكنظام سياسي... كان على يد القوات الأجنبية، بينما العالَم العربي والإِسلامي يتفرج على بَلْورة تلك اللعبة الاستعمارية.. في تلك الحقبة التاريخية التي تمَّ فيها إحداث تقسيمات جديدة للعالم العربي!!

وعلى مسمع ومرأى من أذن وعيني الشيخ الدكتور (**العَلَم**) علي الفقير... تجمّع في الثاني عشر، من الشهر التاسع، من عام ١٩٩٠م: الشيوعيون، والبعثيون، والإِرهابيون/زعماء عصابات القتل، والبائعون للشعارات، وتلوينها، وتبديلها، والحاقدون على «**ثروة النفط**»، وأعلام الفكر الإِسلامي المتحزّبون..

فكان تجمُّع هذا الخليط العجيب تحت خيمة إدّعاء (الفكر الإِسلامي)!!

ـ لقد شجب الجمع تواجد القوات الأجنبية... وهم فوق أرض، كان سبب وجود نظام حُكَّامها: هي القوات الأجنبية!

ـ ولقد تحدث الجَمْع عن (الحقوق المشروعة) للنظام العراقي فقط... مُتَشفِّين في ضياع الحقوق المشروعة لشعب الكويت، الذي اغتيلت حريته، وسلامته، وأمنه، واستقلاله، بيد عربية!

ـ ولقد ذرفوا الدموع على تجويع شعب العراق... وقفزوا فوق الدافع الأساسي لهذا التجويع، وهو: عدوان الجيش العراقي على شعب، جار، آمن.. والإِصرار على تذويب شخصية الوطن!

ـ ولقد (لعنوا) دخول القوات المتعددة الجنسيات.. بأسلوب، كأنهم يباركون به اجتياح القوات العراقية للكويت!

ـ وكان (منطقهم): أن القوات الأجنبية تدخل إلى الأراضي المقدسة... بينما القوات العراقية: عربية (تدخل) إلى قطر عربي!

ولم تكن هذه أبعاد دعوة (القومية العربية) أبداً... بل أرادوا تشويه الدعوة إلى الوحدة العربية، التي ينبغي أن تتم بالتكامل!

ولم تكن هذه الخدعة.. تنتمي أبداً إلى رحابة، وشمولية التضامن الإِسلامي!!

إن رسول هذه الأمة، ومعلّمها، وناشر الهداية فيها ﷺ، قال في خطبة الوداع:

ـ «ألا إن الله حرَّم عليكم دماءكم، وأمولكم.. كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا.

ألا هل بلّغْت؟!

ـ قالوا: نعم.

ـ قال: اللَّهم فاشهد ـ قالها ثلاثاً ـ ويلكم، أو ويحكم... أنظروا، لا ترجعوا بعدي كُفَّاراً.. يضرب بعضكم رقاب بعض»!!

فاللَّهم اهد قومي... فإنهم لا يعلمون!!

الغنوشي المغالط!

ـ ما أبخس «المقابل» الذي عزف عليه الرئيس العراقي «صدام حسين» ألحان فتنته النشاز.. وهو يشير إلى مذبحة القوات الإِسرائيلية في المسجد الأقصى، وحوله!!

إن هذا «المقابل» لغزو جنود صدام للكويت.. هو: المذبحة الصهيونية التي فرح بها حاكم العراق لسببين:

ـ **السبب الأول**: أنها ستسرق الاهتمام الموحّد من هذا التجمع العالمي حول إدانة العمل الإِجرامي الذي ارتكبه «صدام حسين» ضد دولة مستقلة آمنة، وشعبها في الكويت!

ـ **السبب الآخر**: أن الإِعلام العراقي الصدامي.. قد ركّز منذ مذبحة الجيش الإِسرائيلي في المسجد الأقصى، وحتى اليوم على نقطة محورية واحدة في إعلامه، وهي:

ـ أن هذا المجتمع العالمي المتقدم إلى عصر الوفاق والسلام، كما يدّعون، عاد إلى خلافاته الدائمة في مجلس الأمن... كلما طُرحت القضية الفلسطينية... وكلما قام العدو الصهيوني بمذبحة، أو بعدوان!!

ـ وكما قال المفكر الإِسلامي الأستاذ «**خالد محمد خالد**»:

ـ «إن جريمة إسرائيل قد وقعت بسبب صدام، ولصالحه!!

أما بسببه.. فلأنه الذي شغل العرب، وفتّتهم، وفرّق شملهم، وساقهم إلى التيه والضياع!

وأما لصالحه.. فلأنه المستفيد الوحيد منها.. إذ من شأنها أن تصرف الأبصار المحدقة في جريمته، وتُثبّط العزائم المُجْمَعة على مطاردته»!!

* * *

ومنذ اللحظات الأولى لثورة العالم كله على المذبحة التي ارتكبتها إسرائيل في المسجد الأقصى، وحتى هذه اللحظة... لم نسمع ـ بعد ـ صوت أولئك «**المُتَحزّبين الإسلاميين**» من أمثال: آية الله الترابي، والغنوشي، والنحناح، ومحمد خلفة، وغيرهم... من الذين أقاموا الدنيا، ولم يقعدوها، صارخين بشجب الاستعانة بالقوات الأجنبية.. ومطالبين بانسحاب القوات التي جاءت لمساعدة المملكة، وأقطار الخليج، وردع العدوان المُبيّت من قِبَل المتربص لنا بالشر «صدام حسين»!

ـ أين اختفت أصوات **(أعلام)** الفكر الإِسلامي المعاصر، التي بادرت إلى مهاجمة المملكة العربية السعودية، والخليج.. تُكيل أقذع التهم لنا بالعمالة، والذيلية، والاستعانة **(بالكفرة)؟!!**

ـ لماذا لم ترتفع هذه الأصوات التي تبنت دعوة الفكر الإِسلامي.. لشجب المذبحة الإِسرائيلية؟!!

إن هؤلاء الذين نصبّوا أنفسهم (أعلاماً) للفكر الإِسلامي المعاصر... يُزيِّفون الحقائق، والأسباب الأصيلة التي منحت لإِسرائيل فرصة العربدة في أنحاء فلسطين المحتلة.. حتى لا تنكشف من وراء الحقائق والأسباب:

أبعاد الجريمة المماثلة في بشاعتها لجريمة الصهاينة.. وهي: اجتياح، وغزو، وضم الكويت بالقوة، وبالرصاص، وبالسرقة، وبالاغتصاب!

ولعلّ بعض هؤلاء **(الأعلام)** قد أصدر (البيانات) التي تشجب، وتندد، وتدين المذبحة: إعلامياً!!

وبذلك.. ينضم هذا البعض من **(أعلام الفكر الإسلامي المعاصر)** كأصداء، وراء التصريحات التي أطلقها الرئيس العراقي «صدام حسين» أو «عبد الله المؤمن بذاته»!!

لكن.. ماذا تراهم سيفعلون نحو (أرواح) شهداء هذه المذبحة؟!

لقد مضت الأيام ثقيلة.. مجللة بالموت، والبؤس، والحزن، والكمد... منذ تنفيذ المذبحة، وحتى الآن... فماذا فعل «**المتحزّبون الإسلاميون**» في السودان، وتونس، والجزائر، والأردن؟!!

إن أصواتهم تخبّ على استحياء وراء صوت **(مرشدهم)** الجديد في بغداد... وكأنهم قد بدأوا في تحويل دفة إعلامهم نحو ما أسموه بتقاعس المجتمع الدولي عن نصرة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني.. وأن هذا المجتمع الدولي في مجلس الأمن، **(تآمر)** ـ بوفاقه واتفاقه ـ على العراق، فكانت إدانة العراق جماعية... بينما تخاذل عن إدانة إسرائيل بالإجماع، وبغير ذلك الحماس والسرعة في اتخاذ قرارات إدانة الجريمة الصدامية!!

ومن التزوير للحوار، وللمنطق: أن يتم ربط غزو الكويت بمذبحة القدس... ذلك لأن القضية الفلسطينية قد راوحت طويلاً، بعيداً عن إيجاد الحل العادل لها، بسبب المواقف العربية، القديمة والمتجددة.. المتخاذلة، والمراوغة.. الصادقة، والمزوّرة، سواء كانت تلك المواقف

فيما بين بني يعرب أنفسهم، أو كانت بين العرب، ودول العالم والمصالح المشتركة، أو بين (القيادة) الفلسطينية، وأسلوب تعاملها مع دول العالم، أو مع (**أشقائها**) العرب!

أما قضية اجتياح الكويت... فإن الأمر يختلف كثيراً، ولا يجوز الخلط هنا... لأن المعتدِي عربي، والمعتدَي عليه عربي... ولأن ما حدث كان يُجسد سلوك اللصوص، والعصابات، والجيش الذي أُضيف إلى تجويع معدته، وفكره: تجويع غرائزه أيضاً!!!

* * *

ـ وفي أصداء مذبحة المسجد الأقصى، وما تناثر حول الجريمة، وردود فعلها عالمياً، وإسلامياً، وعربياً...

وفي البحث عن أصوات (أعلام الفكر الإِسلامي المتحزِّب)... يثور سؤال مسدد إلى «آيات الله الجدد» في السودان، وعلى رأسهم «الترابي» وفي تونس، وعلى رأسهم «الغنوشي».. يقول:

في آلام، وقسوة المذبحة التي ارتكبتها إسرائيل في القدس... ألا يبادر هؤلاء «الآيات» المتحزِّبون تحت مسميات سرقوها من الإِسلام... فيثيرون الشارع الإِسلامي، والعربي... ويُجَيِّشون أعدادهم، وكوادرهم الهائلة للتطوع، وللانخراط في صفوف المقاومة لتحرير القدس؟!!

ـ أليس من أوجب تلبية نداء النضال، والكفاح.. أن ينضمَّ هذا الشارع العربي الذي أثاروه لتأييد باطل «صدام حسين»، ولدعم غزوه للكويت.. إلى صفوف المقاومة من أبطال الحجارة هناك في الأرض المحتلة؟!

ـ أليس مكان الأربعين ألف فلسطيني، الذين جَيّشتهم القيادة الفلسطينية في تونس والعراق، وأعدّتهم لقتال القوات المتعددة الجنسيات التي جاءت للدفاع عن أمن الجزيرة العربية والخليج... أن يكون هناك في مواجهة قوات الاحتلال الإِسرائيلي؟!!

هذه الأسئلة (الحزينة).. نطرحها حذو (وعي) أعلام الفكر الإِسلامي المتحزّب، ونُضيف إليها ملاحظة أكثر حزناً، وفجيعة.. تقول:

ـ إن أولى القبلتين، وثالث الحرمين **(المسجد الأقصى)**.. بقي صامداً بإيمان الذين التفّوا حوله هناك في موقعه.. ليصدّوا عنه عبث، وانحلال، واستفزاز الجيش الغاصب!

وأمام بواباته، وفوق ساحته.. سقط مئات من (المؤمنين) المدافعين عنه... الذين كشفوا صدورهم لرصاص المحتل، وبعدوان الإرهابيين المتطرفين من اليهود المزروعين هناك كالحنظل وكالنّبت الشيطاني!

وطوال سنوات الاحتلال، والقهر... ماذا قدمت **(أحزاب)** هؤلاء السادة، أو «الآيات» من أعلام الفكر الإِسلامي المعاصر المتحزِّب، لإِعداد الشارع الإِسلامي والعربي، ولتدريبه، ولتطوّعه من أجل القتال.. لينضم شبابه إلى الآلاف المنتشرين في شوارع الضفة الغربية وغزة، وليس في أيديهم سوى الحجارة، وفي قلوبهم إيمان بالدين، وبالأرض؟!!

لم تفعل هذه (الأحزاب) سوى بذر المزيد من الشقاق والشروخ في الشارع الإِسلامي والعرب، وفي بنية التضامن العربي!

ولم يخرج **(أعلام الفكر الإِسلامي المعاصر المتحزِّب)** عن: التنظير، والخطب التي يحفظون لها بعض الأحاديث، والكلمات التي تزرع

الأحقاد في نفوس العرب والمسلمين بعضهم ضد البعض الآخر!

أما الحكومات التقدمية، والثورية، التي ناصرتها هذه (الأحزاب)، أو أيّدها أعلام الفكر الإسلامي المتحزّب... فماذا قدّمت من أجل تحرير المسجد الأقصى، ومن أجل استعادة الأراضي المغتصبة؟!

المملكة العربية السعودية، وأقطار الخليج... دفعت الكثير من الدعم لحركات النضال، وأبطال مقاومة الحجارة، وللمدارس، وللمستشفيات، وللمؤسسات هناك... ولم تقدم فواتيرها التي اعتبرتها في إطار الواجب الديني، والوطني، والقومي، والمشاركة في النضال بأموال النفط!!!

وهل أقامت تلك الحكومات التقدمية، والثورية: مجالس للشورى، حسب ما نص عليه الإِسلام، وأشركت المسلمين في صنع القرار؟!!

أم أنها حكومات قامت على حكم **(الفرد)**، وتسلطه على الشورى في القرار، وفي التخطيط للبناء، وفي المصير؟!!

نسأل **(أعلام الفكر الإِسلامي المعاصر المتحزِّب)** عن مكانة الشورى في أقطارهم التي ينتمون إليها.. وفي أوطانهم التي ينتسبون إليها؟!!

* * *

ـ من أقوال واحد آخر من «آيات الله»، هو السيد «راشد الغنوشي» التي أدلى بها قريباً:

ـ جاء (إحتلال!) بلاد الحرمين الشريفين من طرف القوى الاستعمارية، ومعركة بين الشمال المستكبر بالقوة، وبين الجنوب المستضعف، والمتسلح بالإيمان والعزة!!

إنهم ـ إذن ـ يريدون إلغاء التفكير عند المسلمين.. ليتولوا التفكير والاستنتاج نيابة عن المسلمين قاطبة.. وذلك وِفْق أهواء، ومقولات، ودعاوات.. ولدوافع (الفتنة) الصدامية!

فهل يعرف السيد «**الغنوشي**» جغرافية المملكة العربية السعودية، وكم تبعد «حفر الباطن» أو «الخفجي». أو «المنطقة الشرقية»، أو المنطقة الشمالية، عن مكة المكرمة، والمدينة المنورة؟!!

هذا يعني تمرير (**الوقيعة**) بمسمى الواقع، وادعائه!

ـ والسؤال المطروح أخيراً، والموجّه إلى هؤلاء (الأعلام):

ـ ما هو الرابط الفكري الأساسي بين **أيديولوجية (البعث)** العراقي، أو علمانيته.. وبين عقيدة هؤلاء، ومبادئهم التي يدّعون بها إسلاميتهم، أو «**أصوليتهم**».. وهل هي «أصولية»، أم تراها «**وصولية**»؟!!

ـ وكيف أجاز (فكرهم) الذي نعتوه بالإِسلام.. أن يوآخي، أو يوائم بين «البعث العلماني»، وبين القيم الإِسلامية العظيمة، والواضحة؟!!

إنهم إذا كانوا يستغلون (**الشارع الإسلامي**) لإِثارته غوغائياً... فلا بد أنهم بذلك ينفون عن مضمونهم: عمق الفكر الإسلامي الصحيح، والسوي، والحق!!!

الثقافة العربية. . إلى أين؟!

ـ الكوابيس غطّت حِماناً، وآفاقنا، وذرانا. . . وألْوَت بأحلامنا في خِضَمِّ المآسي الكبار. .

ورهْنَ صَحَارى العذاب!

فهل يا تُرى هو مَنْعَى القرابات. . .

والذكريات الجميلة؟!!

ـ حسن عبد الله القرشي ـ

ـ هل ستبقى (الكلمة): غذاء يقيم أَوَد الجائعين إلى المعرفة، وإلى الحقيقة، وإلى الخير والجمال؟!

ـ هل ستثبت (الكلمة): قاعدة. . . ينطلق منها إدراك عقول البشر نحو حُسْن الرؤية، وحماية الضمير، والدفاع عن الحق، والعدل؟!

ـ الكلمة: إقرأ. . . أمر منزّل من رب العالمين إلى سيد البشر، ومعلمهم، ونبيهم إلى الهدى. . .

وهو أمر. . . يحمل كل التقدير للكلمة/الحق، وللكلمة الضوء، وللكلمة المعلِّمة، وللكلمة الهادية إلى صوى اليقين، والعدالة، والمحبة.

ـ **الكلمة**: هي الغذاء الحقيقي للعقل، وللروح... الذي يقضي على كل ألوان الجوع، والسغب، والانحراف!

ـ **الكلمة**: رجاحة فكر، وصفاء إحساس، وجسر محبة، وجمال ينبع من العقل والروح، ليقيم بين الناس رابطة الحياة، وركائز المجتمعات الإِنسانية!

ـ لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه في عصر إهانة الكلمة، وإغراقها في عار الانحراف، وفي عهر الانجراف بسيل الأطماع، والبغضاء... هو:

ـ ما هي كلماتنا التي راجت اليوم في عالمنا العربي... ما لونها.. ما صوتها.. ما إيحاءاتها وإيماءاتها؟!

نؤمن أن للكلمة التزاماً كريماً، يطغى على عوز المادة، وبشاعة توظيفها... مثلما الكلمة: سحراً، وجاذبية!

وبالكلمة النقية... تبقى دواخلنا: رحيمة مُحِبَّة، مترفعة عن الجور على أرواحنا ومشاعرنا.. وعلى منطقنا، وشواهد حياتنا!

نحن نحترق أعصاباً، وجسداً، وعمراً.. لنكتب كلمة الصدق، والمنطق، والشجاعة والقدرة على الحوار!

وفي المقابل.. نجد هنالك من يكتب كلمة: الإِفتئات، والتزوير، وانسحاق الضمير، وتعتيم الرؤية!!

* * *

ـ إنّ المساحة التي يكتب فيها الكاتب العربي، صارت «قضية عصرية» ولعلّها ترتهن في بعض الأحيان بالهموم الإِقليمية، والتأثيرات المنصبة!

لذلك.. يأتي الكاتب إلى «القضية» القومية، أو الوطنية، وهو مثقل بهموم متعددة.. بعضها ذاتي محض يرتبط بلقمة عيشه.. وبعضها إنجرافي يتولَّد من شتات فكره، وزيغ إيمانه!

وفي هذه المساحة.. يفكر الكاتب العربي، وهو ملتصق بعقله... لكنه ـ في الوقت نفسه ـ يتعرض لتمزقات عاطفية نابعة من احتياجاته الذاتية، أو من جوانب قمع!

لحظتها.. يتضاءل الحنان، والعشق، بالنظرة إلى الواقع!

ويتضخم الخوف، والقلق.. في النظرة إلى الغد!

وهناك بعض الكُتَّاب من الذين استغرقهم التأمل، وعصفت بهم الفلسفة والمعاناة معاً.. يحاولون قَفْل أنفسهم على التعاسة، وهم يرددون: العمر لحظة!!

لكنَّ الكاتب المتفاعل.. هو ذلك: العاشق في الغضب العادل.. وهو المشاكس في زمن الانكسار، وزمن الانتصاب معاً!

ولعلّنا نتذكر ـ هنا ـ بطل رواية «مرتفعات ويذرنج»: هيثكليف... الذي كان ينتصب في عنف إنكساره مستعداً لقتل كل الناس، من أجل «رغبة» تتبلور في أَخْذ حبيبته.. وتأكيداً على حق عادل ينصبّ على «**الأرض**» التي يتمسّك بها!

فالحبيبة هنا: عشق... والأرض: **مبدأ، ووطن، وقضية!**

ـ وتساءلت: هل كان بطل «مرتفعات ويذرنج»: عاشقاً، أم حنوناً.. قاتلاً، أم مقتولاً؟!

إن إستعمال **(الكلمة) ـ** للإِجابة على السؤال ـ يتموّه ما بين: المعاناة بالعشق... كأنها فوهة بئر مهجورة في هذا العالم، يقذف فيها الإِنسان بكثير من استطاعاته التي يتعرف عليها غالباً في مواقف التحدي، ومواجهة الحدث، أو الموت... ما بين: الاستطاعة بالمبدأ... كأنها مساحات العالم التي امتلكها الإِنسان بالرؤية، وبالثبات على الكلمة/ الحق!!

إنّ الذين يمارسون (الكلمة) ولا يبدعونها... مثل هذا المواطن العربي الذي اكتنفته أحداث فاجعة عبر تاريخه الحديث، قبل أن يطوي صفحات تاريخه القديم!!

إنّه مثل ضحية **(سالومي)** اليهودية: رأسه مقطوع فوق صحن من الفضة... تسمع قهقهاته أحياناً، وأنت تشرب قهوة الصباح، عبر سطور عاجلة.. وقد تسمع أنّاته خلفية لسطر لم يعجبك... وأنت ـ كقارئ عربي ـ تبحث عن: الحقيقة، والصدق، والحنان، والأمل!!

* * *

ـ لقد توقفت ـ منبهراً ـ ذات صباح، أمام تقرير صحافي نشرته صحيفة (الأهرام) قبل أعوام لم تبعد كثيراً، بعنوان صارخ، مثير، يقول:

ـ هل ينتهي العالم قبل عام ٢٠٠٠؟!

سؤال.. يطرحه المثقفون اليوم.. أمام الأسلحة النووية، والقمع الصهيوني للعرب، والفتنة التي أضرم نارها قائد عربي من بغداد... بكل شهوة حادة للتسلط، والتوسع!!

ـ في البدء: طرح التقرير حقيقة عن واقع الكتاب في مصر

بالذات.. وقد كانت مصر مصدر النشر، والتأليف، والجديد في الكتب والإِبداع الأدبي!

ـ لكنّ الحقيقة قالت: «نحن في مصر نواجه تراجع أهمية الكتاب، والكلمة المكتوبة، أمام غزو التلفاز، والفيديو»!

وهي حقيقة تفشَّت في أنحاء الوطن العربي كله.. فالمعاناة واحدة، لأننا ـ العرب ـ ندخل في حزمة هذا التوجُّه الخالي من الترشيد، والمندفع إلى الوسائل المرئية، خاصة بعد الأقمار الصناعية، والإِحجام أو التقهقر عن الوسائل المقروءة!

والسبب ـ في الرؤية الملاصقة ـ يعود إلى: إنقياد الكلمة نحو الهموم السياسية، ونحو هيمنة بعض الأنظمة القمعية وذات الشعارات، على حرية التعبير والكلمة... حتى وظِّف بعض الكُتَّاب للكتابة الذاتية للنظام السياسي القائم.. ولم يعد لدينا في المكتبة العربية ـ في أغلب ما يُعرض ـ إلا كتب السياسة الموجهة، والمذكرات السياسية، وهدم المرحلة السابقة، وتزييف التاريخ... بينما يتوارى الكاتب المبدع، والأديب، والشاعر، أو يسقط في الإِحباط، أو تأكله الغربة!

ولدينا أمثلة نستمدها من مئات الكُتّاب الذين هربوا إلى المنفى في أوروبا من أقطارهم العربية... خوفاً من البطش، أو السجن، أو توظيف فكرهم وإبداعهم!!

ـ أقيم في فرنكفورت قبل عدة أعوام قريبة معرض للكتاب، كان من أهم ما تميز به:

ـ انعكاس الأحداث السياسية المضطربة على الساحة الثقافية... وظهر بوضوح: الخوف السائد من دمار العالم، والتسابق في مجال الأسلحة

الذرية، ورُعْب الدول ـ كبيرة وصغيرة ـ من نشوب حرب عالمية، تكون نتيجتها التدمير الكامل للإِنسانية!

ويبدو أن كبار العالم، قد سارعوا إلى هذه الاجتماعات المكثفة فيما بينهم، لإِطلاق صفة مميزة على العام ٩١/٩٠ بأنه سيكون: عام الوفاق الدولي... وذلك لإِبعاد شبح الحرب، وامتصاص الخوف من صدور الناس على امتداد رقعة العالم!

لكن «**معرض فرانكفورت**» أطلق المسؤولون عنه يومها شعاراً غريباً، وجسَّد الخوف، وهو: (أورويل ٢٠٠٠) ويعني الشعار: (الرواية السياسية المعروفة التي كتبها «جورج أورويل» عام ١٩٤٨، وتوقَّع فيها ما سيحدث للعالم بعده بأربعين عاماً)!!

* * *

ـ ولعلّنا ـ بهذه المناسبة ـ نحرص على التوقف أمام ما طرحته مؤتمرات وزراء الثقافة العرب، منذ أول مؤتمر عقد في العاصمة الأردنية «عمّان» في شهر ديسمبر/كانون الأول، من عام ١٩٧٦... وتمخّض عنه، كأول إنطلاقة للعمل الثقافي العربي، بيان عمّان، الذي رسم الطريق نحو تنفيذ الخطط المرجوة للمستقبل الثقافي العربي... وحتى آخر مؤتمر (لم ينعقد)!!

ولا بد أن ملامح ذلك الطريق الذي ابتدأه أول مؤتمر للثقافة العربية... كانت تقوم على تحقيق وترسيخ فكرة (**الوحدة الثقافية العربية**)... حتى نسفت (عمّان) كل الأفكار عن أية «وحدة» عربية، قد

تقوم في أي مجال، أو نشاط يخدم التجمع العربي، وأهمه: مجال الثقافة!!!

ـ **في عام ١٩٧٩م:** عقد وزراء الثقافة العرب في ليبيا مؤتمرهم الثاني، وذلك لبحث: إمكانية تنفيذ الخطوة الثانية التي تعمل على وضع «استراتيجية» واضحة لمسيرة الثقافة العربية!!

ـ **أما في عام ١٩٨١م:** فقد شهدت بغداد مناقشات المؤتمر الثالث لوزراء الثقافة العرب، وكانت مناقشات ساخنة جداً، بلغت حد الاشتباك بالأيدي بين (المثقفين) العرب... بسبب أن كل «فريق» ينتمي لشعار، أو حزب، أو أيديولوجية... يريد أن يوظف الثقافة العربية لتوجهاته!!

ـ **في عام ١٩٨٣:** عقد المؤتمر الرابع لوزراء الثقافة العرب، تحت عنوان، أو فكرة: (الأمن الثقافي) بعد أن تعرَّضت الثقافة العربية، والتراث العربي بالذات لمحاولات تشويه، ومحو، وتشكيك.. وتعرضت اللغة العربية لمخططات تهديمية لها، حتى داخل العالم العربي!!

ـ وشهدت تونس بعد ذلك إنعقاد الدورة الخامسة لوزراء الثقافة!

وقد حَضَرْتُ ـ يومها ـ تلك الدورة، وتابعتها.. وحاورت الدكتور «محي الدين صابر» الذي كان يشغل وظيفة «المدير العام للمنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم».. ولخّص لي برؤيته الثاقبة الأبعاد التي تحمل المخاطر، ومما قاله لي:

ـ نحن نواجه عدواً شرساً، لا تقف مخططاته المضادة عند حد، ضد لغتنا، وتراثنا، وتاريخنا، ليعمل فيهم تشويهاً وتحريفاً... وهذه النقطة بالذات تشكل لدى وزراء الثقافة العرب أبعاد الحرب الاستعمارية الشرسة

بكل جوانبها. . . كما أنها تهتم ـ في الاعتبار الأول ـ بفكر الإِنسان العربي وبحمايته من أخطار الغزو الثقافي الذي يستهدف حضارتنا، ويتسدد مباشرة إلى عقل الإِنسان العربي لخلخلته، ولزعزعته بالتشكيك، وبالتغريب!!

وكان من أهم المشكلات المطروحة أمام وزراء الثقافة العرب، وما زالت إلى اليوم تراوح، ويكثر اللغط حولها. . هي:

ـ **الغزو الفكري،** والأمن الثقافي، وصعوبة الإِنطلاق ببرامج التعريب في المغرب العربي بالذات، ومواجهة الأقمار الصناعية العالمية التي ستغزو ببرامجها وبخططها: عقل الإِنسان العربي، بل ووجدانه. . ومناقشة فعالية وخدمات القمر الصناعي العربي الذي لم تتم الاستفادة منه بإيجابية مطلوبة، وبمستوى الأخطار المتحدِّية. . . والاستفادة الفعلية من هذا القمر العربي ضمن إطار الثقافة العربية **(الموحَّدة)**، بل و**(المتَّفِقة)** على خطط إعلامية وثقافية مثمرة!

إن الواقع العربي الراهن، ثم المصير العربي ككل. . يرتبطان بأبعاد نجاح الخطط الثقافية المدروسة، والمشمولة بالقدرة على تحقيق الحماية لتراث أمة عظيمة في التاريخ. . وتوفير الكلمة التي لا تخاف الحرية، بل تفاخر بها، وتخدمها في إطارات القيم العظيمة التي ندين بها!!

الزيدان

زوربَا القَرن العشرين

مـدخـل

ـ هذا الكتاب: ليس دراسة نقدية لأدب، ولفكر، وللرؤية التاريخية لدى أستاذنا ومعلمنا الكبير (محمد حسين زيدان) يرحمه الله.

لم أفكِّر في ذلك ـ عندما نهضتْ «فكرة» الكتاب ـ بل كنت مدفوعاً بأسباب أعمق في رأيي، أبسطها، وأوجب ما فيها: أنها تنبثق من معاني (التكريم) لمشوار عمره الثر، ولعطاء عقله المفكر والمُعلِّم لأجيال من بعده.

إن أقسى قرارات الحياة: أن نُودِّع من أحببْناهم بوجداننا، ومَن رايناهم بمعرفتنا، ومن صادقناهم بعقولنا، ومن رووا تربة عقولنا دوماً بالمعرفة، وبزاد الثقافة، وبماء الوعي!

إن جمرة الحياة التي تحرق.. تتمثل في: فقدنا لمن رأينا فيهم محبَّتنا، وتفاؤلنا، وشبابنا، وصحو أمانينا، وإبتساماتنا، وتجفيف دموعنا!

إنها الوقفة المطعونة التي تسيل منها دموعنا، كأنها دماؤنا... وتردُّ فيها شفاهنا إلى حلوقنا، في غُصَّة الفراق، والحزن، والفقد!

* * *

ـ إنَّ هذا الكتاب: **تعبير عن عزاء «الكلمة»** عن عزاء «الحبِّ»...

وقد كانت الكلمة: جِسْره إلى الناس.. وقد كان الحب: عطاءه لكل الناس**!!**

ولعلّ من أجمل أبيات الشعر التي كان يرددها في سمعي لشاعره المفضل الذي اصطفى شعره في شواهده، والحديث عن المواقف: (المتنبي).. هذا البيت الذي نتذكَّره به، ونُهديه إلى روحه:

يا من يعزُّ علينا أن نُفارقَهم   وجداننا كل شيء بعدَكُم عدم**!**

* * *

ـ يرحم الله (**محمد حسين زيدان**): الإنسان أولاً.. العالم، المثقف، الموسوعة، المفكر، المؤرخ، النَّسابة.. التاريخ الذي أضاف إلى حياتنا معه: صدق الإنسان، ومحبته**!!**

عبد الله الجفري

ـ البطاقة:

ـ الاسم: محمد حسين زيدان

ـ الميلاد: المدينة المنوَّرة ـ ١٣٢٥هـ.

ـ المؤهلات: شهادة من المدرسة الراقية الهاشمية سنة ١٣٤٣هـ، والدراسة في المسجد النبوي ـ القراءة.

ـ العمل: عضو مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز ـ رئيس تحرير مجلة (الدارة).

ـ الحكمة: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩) صدق الله العظيم.

ـ برجك: لا أعرفه، لأنني لا أتعلق بالأبراج، وإنما أتعلق بكتب الأربع كلمات: برزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد!

الكلمة : تتجرع الصاب

ـ مات «زوربا» عصرنا هذا، وحكيم فلسفتنا.. وآخر «الناس»!!

كأن ذلك النعي الذي تلقاه (كزانتزاكي) في برقية تحمل إليه وفاة: الصديق العجوز «زوربا»!!

لقد ترك لنا هذا الصديق: ذكريات، ومواقف إنسانية، وحكمة، وكلمة مجنَّحة في فضاء الزمان، وخارج طقس المعاناة!

رحل عن عالم.. أخذت تعجنه القسوة، وتُبدد لفَتاته الأصدق: منزلقات الضياع.

رحل مثل: كلمة أخيرة... من الصعب أن يُقال بعدها كلام!

هاأنذا أسمع «زوربا» القديم، يبرق إلى «زوربا القرن العشرين» بكلمة أخيرة مثله... يقول له فيها:

ـ عِمْت مساء أيها الشيخ العجوز.. الحافل بحكمة الحياة!

ـ زوربا/ صديق العمر العجوز: عُمرنا نحن مَنْ حمل جثمانه إلى مثواه الأخير!

ـ زوربا/ الزخم الفكري، والموسوعة المتنقلة على قدمين، والإنسان الذي لا يعوَّض: لم يكن في نظرته الأخيرة إلاَّ مُغْضياً، زاهداً في الدنيا،

مُتَّشحاً بالصمت... حين تأخر عنه الوفاء!!

ـ زوربا/الكاتب المجنِّح: لم يكن إلاَّ شاعراً «ينثر» كلماته الموسيقية بين ضلوع الناس.

ـ زوربا المؤرخ: لم يكن إلاّ «نسَّابة» يعرف أصول، وجذور الناس.. فيضع التقييم من أجل الحفاظ على القيمة!

ـ زوربا/الكلمة: لم يكن إلاَّ ذلك الفيلسوف الحكيم!

كان مثل سنبلة تُطلِعُ ألف حبة.. مثل حبة القمح!

حتى مات النبض... وتبقى السنابل تطرح من جذوره!

***

ـ الكلمات هذه اللحظات: مرَّة، علقمية..

كأن الكلمة المجنحة التي طالما زفَّها «محمد حسين زيدان» في شرنقته اللحظة.. والتي طالما أضاء زواياها من وجدانه الإنساني... كأنها ـ اليوم ـ تتجرَّع الصاب، والحزن، لهذه الدواعي الحِسِّية والفكرية:

ـ لفَقْد الكلمة لرُبَّان يقود دفتها بمهارة في العواصف، والأمواج.. فيخرج بها: كلمة لم تفقد النطق، ولم تُعدم المنطق، ولم تيأس من الحوار!

ـ لصمته الذي بدأه مع أولى لحظات اكتئابه.. هو يعني (التقدير) لِبذل عمره، وركضه على درب الكلمة المنتمية أبداً إلى جذور الوطن!

ـ لتعبه الذي توقَّف به وبنا ـ أيضاً ـ عند محطة (الوحشة)... وقد

خلت ساحة الأدب من صوته، ومن رؤيته، ومن رؤاه، ومن «تخريجاته»!

أسترجع صوته الضاحك في إثر إلقائه كلمة من حِكمه، وبلاغته.. وهو يقول لي:

ـ سجِّل يا سيقور!

لقد كان «أبي الروحي».. أُشاكسَه في بعض اللحظات، حتى أستنطقه العبارة، والصور، والحكمة.. فيروي عطشي بالمعرفة، وبالارتياح في رحابة المنطق!

ـ في رمضان ـ قبل الماضي ـ كان يشعر ببداية تعبه الجسماني... وجاء إلى مكتبي ليقول لي حزيناً وشجِناً:

ـ قررت التوقف عن الكتابة لأستريح... فقد تعبت يا ولدي!!

ـ سألته مندهشاً: تعبك ليس من الكتابة... فما الذي يُتعبك؟!

ـ قال: الكلمة جهاد.. ولا بدَّ للمحارب من استراحة.. وهذا الشهر الكريم يحضنا على التأمل.

ـ قلت أحاصره: أنت تستريح عندما تملي كلمتك، وترددها.. ويُتعبك أن تحبسها، أو تشعر أن لا أحد قد أصغى لها!

ـ قال وهو يضرب الأرض بين قدميه بعصاه: سيذكرني قومي... أكمل يا سيقور!!

* * *

ـ نعم... في الليلة الظلماء يُفتقد البدر!

هكذا كان «زوربا/الزيدان»: بدراً في كثير من الليالي المستوحشة!

ـ سألته يوماً ممازحاً: أنت تعشق الكلمة كأنها «إمرأة»... فكيف ترتاح لو هجرتها؟!

ـ قال: أحب أن أطلق عليها «أنثى» أرق وأحلى من كلمة «إمرأة»!

ـ قلت: لكن بعض النساء غضب، لأنك ـ في رأيهن ـ قد حددت المرأة في صفة «الأنثى».. أي المتعة، وهي ذات فكر، ودور، ومسؤولية!

ـ قال: من أنكر منهن.. هنَّ اللواتي فقدن الجمال، والأنوثة، فأردن التعويض!

ـ قلت له: أنت تكتب الكلمة لها... للكلمة، وللأنثى، فماذا عن الرجل؟!

ـ أجاب: يقرأ الكلمة.. يتذوقها.. يرتشفها، ليرى حبه فيها، وليتلمس قضيته وفكرته من خلالها.

ـ قلت: والشوق لها... ألاّ يكون عذاباً؟!

ـ قال: عليك يا ولدي أن تحول العذاب إلى إشتياق، فالشوق في الحرمان عذاب!

لا بد أن تعود «الكلمة» إلينا، وأن نعود نحن إلى الكلمة.. إنها عشقنا، ودماؤنا المسفوحة والمُهْدرة أحياناً.. وهي: وريدنا.. لو بعناها بالغضب، أو بالخوف، أو بالتخاذل عن المبدأ، أو بالألم، أو حتى بالملل... فالخسارة باهظة!

يومها... توقفت معه عند هذه «الفاصلة» من الحوار وهو يقول لي:

ـ أنت فتى مُرهق.. ترهق من يُحبك، ومن تُحبه.. فلا ترهقني بالتحريض ضد الكلمة ولا حتى بالتحريض على الدفاع عن الكلمة.. فقد

صرت شيخاً عجوزاً، أحتاج إلى «وَمْضة» أتجدد بها، وفي لمعتها!!

* * *

ـ مات «زوربا» القرن العشرين/محمد حسين زيدان!

لم يكن ذلك الكتاب العادي.. الذي يمكن أن يطرح عشرات الطبعات مثل ورقة الكربون!!

كان يُعجب كثيراً بقدرة الأديب ـ من جيله ـ الراحل «أحمد عبد الغفور عطار»، ويقول:

ـ كيف هيمن على قدرة الاسترسال في الكتابة في أكثر من موضوع وفكرة.. حتى قيل أنه كان ـ يرحمه الله ـ يكتب صحيفة «عكاظ» الأسبوعية، يوم كان مالكاً لها، من الورقة الأولى، حتى الأخيرة!

ـ وسألته: وقدرتك أنت؟!

ـ أجاب: لا بد أن أحاور الكلمة في عقلي أولاً، قبل أن أجسدها حروفاً على الورق... ذلك معنى احترامي للكلمة، بل وطَربي بها، وتذوقي لها، وافتتاني بموسيقيتها... أليست هي الكلمة «الشاعرة»، وهي ـ قبل ذلك وبعده: لغة القرآن.. أعمق كتاب سماوي كريم؟!

إن «زوربا» هذا.. كان عملاقاً من هؤلاء المفكرين الذين أثروا مساحات الحوار، وأبعاد النقاش: حكيماً، ومؤرخاً، ونسَّابة، وصاحب إضافات ستحتفظ بها لإسمه المكتبة العربية.

ـ قال جواباً على سؤال صحافي: «التاريخ والتراث.. حين ركضا إليَّ، ركضت إليهما».

ـ أضاف: «المؤرخ جمَّاع يستقريء الأحداث.. وقد يكون أديباً، والأديب يفقه التاريخ، فالتاريخ هو الشيء الأول من كل شيء.. والأديب قد يكون مؤرخاً»!!

وكان يُشدد كلمته، وهو يستقريء التاريخ، على: «الشعوبية»، ويردد ذلك البيت القائل:

مهلاً بَني «ديننا».. مهلاً موالينا لا تَنْبُشوا بيننا ما كان مدفوناً!

ويفلسف أبعاد هذا البيت، من هجومه على (الشعوبية) فيقول:

ـ (إن الجد المولى الأسير: حفيده المولى السيد «مولاك يا مولاي صاحب حاجة!».. ما بخلنا عليكم بكل الاحترام، وما بخل آباؤكم بما تهيَّأ للعرب من الاحترام!

هكذا كان صِدْق التاريخ بأُخوَّة الإسلام، ولكن... لم يمض قرن إلاَّ وتحركت الشعوبية.. إنتصبت تحارب القومية)!!

* * *

ـ مات «زوربا» القرن العشرين/ محمد حسين زيدان:

كان (يجدني) هو: أبحث عنه في شدة إحتياجي له!

يقول عن هذا الإحساس لديه بمعاناتي، دون أن يخبره بهذا مخبر:

ـ لن أدعي قوة الحاسة السادسة لديَّ من أجلك.. ولم تتضامن «تلباثيَّتي» معك... لكن «المفتاح» دائماً تجده في (الشخصية) يا ولدي!

ـ سألوه كثيراً عن «الحب»... وهو الذي كتب الأكثر مما سألوه، فكان يجيب:

ـ «الحبُّ: مفتاح شخصيتي... أنا لا أعرف الكراهية، لأن الكراهية عطاء.. وإذا أردت أن أبذل عطائي، فلا يمكن أن أبذله بمشاعر الكراهية، بل أبذله بمشاعر الحبِّ»!

الكراهية: إشغال لوجدان الإنسان.

والحبُّ: تعمير، وتنقية، وإضاءة لوجدان الإنسان!!

ـ يقول أيضاً: من يتجافى مع محبتي وحبي له.. لا أستطيع أن أكرهه، لأنني لا أعرف الكراهية.. لكني أعامله بعد ذلك (بالاحتقار)، لأن احتقارك لشخص، يعني: إسقاطه تماماً من وجدانك، وعقلك إلى جُبِّ النسيان!!

وكان يتغنَّى بأبيات في الغزل «للشريف الرضى».

مثلما كان يُنشد أبياتاً في الحكمة، والموقف.. للشاعر الذي وَلِه به: (المتنبي).

ـ وكان يقول لي: إذا كنت في موقف صعب، أو موقف فَرَح، أو موقف عِبْرة، أو موقف فروسية ورجولة، أو موقف حزن وشجن... كل هذه المواقف تجدها في شعر (المتنبي) مالئ الدنيا، وشاغل الناس!

ودائماً كنتُ أجد (المتنبي) على لساني بشعره، في كل موقف، واستشهاد، وإستدلال!

* * *

ـ نعم.. مات «زوربا» القرن العشرين/محمد حسين زيدان!

وعَصَتْ دموعي على عيني لحظة تلقيت نَعْيِه.. ولحظة حملَته الأكتاف إلى مثواه الأخير.

وتذكَّرت دموعه هو... فقد كانت له دموع سخِيَّة مدرارة، تنسكب بلا إرادة منه.. بل بالكنوز التي تختبيء في مشاعره، فأراه ـ فجأة ـ يبكي أمامي، وهو يحدثني عن: سيرة بطل من أبطال التاريخ الإسلامي بالذات... وهو يفلسف لي سلوكيات الأحياء في الحياة... وهو يستدعي في حواره: حكمة القيم، والمُثل... وهو يبوح لي بحميمياته مع من أحبَّهم صِدقاً، فخذلوه!!

إنها رحلة طويلة.. أيها العجوز «زوربا» القرن العشرين!

* * *

جبل «سَلْع» . . ومَحْنِيَّ الضلوع

ـ في آخر مرة معه.. لم أره، بل أسمعني صوته وهو يتلقى ـ أيضاً ـ آخر كلمات قلتها له:

ـ كلما أردت زيارتك... عرفت أنك لا تستقبل أحداً، لكنني مشتاق إليك.

ـ قال بصوت يمتحه من بين ضلوعه: بالهاتف تطمئن عليَّ... المهم كيف صحتك أنت.. لا ترهق نفسك كما عهدتك.

ـ قلت: لا عليك مني... أريد أن أراك.

ـ قال: خلاص يا عبد الله.. أنا تعبان يا ولدي، وفي انتظار الموت!

الموت حقٌّ... لكن الكلمة تخلع ضلوعنا من الداخل.

هذا الموت الذي يخطف الأحباب، ويصادر الحياة من أجسادهم، ويغشيها بالدمع في عيوننا... هو «الموت» الذي لم يعد يعثر على دمعة طرية في الأحداق، لأن دموعنا جفَّت من كثرة فواجع عصرنا، وارتطاماتنا بالبغتة حيناً، وبالترقُّب حيناً آخر!

ولأن الدموع تعبير يسيل بالحزن، وقد قيل: «المحبة.. لا يُعرف عمقها إلاَّ ساعة الفراق»!

لكن دموعي انهمرت تبكيه قبل موته، وبعد تلك المحادثة الهاتفية القصيرة جداً!

سالت دموعي ـ أيضاً ـ وأمامي عبارة «زَفَرها» قبل إعتزاله الحياة ربما.. حين أجاب على أسئلة صحافية وُجِّهت إليه، فقال بحزن حاول كظمه.. وتخيلت دمعة مَنَعت سقوطها من عينيه:

ـ «قيل لي: إن اسمي وضع على شارع من شوارع جدة، ولكني لا أدري أين هو؟!.. فهل ليس من الضروري أن يعرف الجيل القادم من هو فلان؟!!

ولا أقول: إن الشارع هو الذي يعزُّ فلاناً، ويذل آخر.. إنما التكريم: إما أن يكون على المستوى اللائق، وإما أن لا يكون... فنحن لم نطلب منهم أن يُكرمونا»!!

ـ وأضيف: حتى الإذاعة والتلفاز.. قد ضنَّا على (إسمه) ـ بعد رحيله ـ ببرنامج خاص، أو حتى فقرة... وهو الثري بفكره، وبحكمته التي منحها لأجيال من بعده، وبذاكرته التي بقيت منتعشة حتى لحظة وفاته!

ـ قال لي سائقه الخاص، والوفي له «فيصل»: كان قبل موته يردد أسماء أصدقاء له ومسؤولين.. كان يتجشَّم المصاعب في شيخوخته، ويذهب إلى مكاتبهم، ليُنجز «معاملة» أوصاه بها رجل، أو وسطته لإنهائها امرأة!!

❊ ❊ ❊

ـ كنت أمام هذا المعلم الحكيم، الشيخ... أتمثله في بعض جوانب

من شخصيته العفوية، مثل «زوربا»: العجوز، العميق، الفيَّاض بالحيوية... أردد في سمعه عبارة «كزانتزاكي» الرائعة:

ـ «نادراً ما كنت أجرؤ على الكلام، حين صوته يعلو ويتدفق علماً، وفكرة، وتحليلاً، وحكمة.

ما الذي يستطيع أن يقوله المثقف لغول ثقافة مثلك"؟!

وكان ـ يرحمه الله ـ يقهقه غير صارخ، وهو يفرك كفيه ببعضهما، ويقول لي:

ـ للكلام نكهة، وتذوق، وطعم ـ أيها الفتى العاقل ـ بل إن بعض الكلام أمتع من ألذِّ أكلة تشتهيها في جوعك... لأن جوع العقل، وجوع الوجدان، أكثر شراسة وتدميراً من جوع المعدة!

ـ ويردف ضاحكاً عبارته الدائمة لي: سجِّل يا سيقور!!

ـ وسألته يوماً، وهو يُملي عليَّ مقالاً له عن: الحنين إلى مسقط الرأس.. فقلت له:

ـ هل تحنُّ إلى سفح جبل «سَلْع».. حيث ولادتك هناك في شمال المدينة المنورة؟!

طفرت دمعة من عينيه، وقد كان سريع البكاء.. فيَّاض العاطفة والشوق.. وقال لي:

ـ أوه... وكيف أنسى «حوش خميس»، وبيت الشَّعَر، والمرأة العجوز الكفيفة ـ البدوية الممتدة من عالية نجد، واسمها (ميثاء الوضيَّان) وهي التي كانت حضن أمي البديل، بعد أن فقدت حنان الأمومة في بدء مولدي.

لقد ذكَّرتني ـ يا سيقور الحصيف ـ بجبل «سَلْع»، وتلك القصيدة التي صاغها الشاعر الكبير «ضياء الدين رجب» ـ يرحمه الله ـ وصرتُ أرددها على مسامعه بتنغيم من «الحَدْري» فيلتذ الضياء، وتندُّ دمعة من عينيه... وكلما شقَّقت الحياة حناننا وحنيننا، أرددها على مسامعه، أو هو يذكرني بها... وضياء الدين رجب هو: أستاذي الذي كان تلميذي!!

أسمعه يبدع.. كأنه ذاك الغناء على مشارف المدينة المنورة:

بـــيـــن ســـلْـــع، وقُـــبَـــا　　مـــن مـــجـــالـــي يَـــثْـــرب

قـــد مـــشـــيـــنـــا الـــهَـــيْـــدبـــى　　ســـبـــســـبـــاً فـــي ســـبـــســـب

صـــفَّـــقـــت أيـــامـــنـــا　　شـــعـــشـــعـــت أحـــلامـــنـــا!

إلى آخر تلك القصيدة/الأهزوجة الجميلة!

كان دائم الإعتزاز بالانتماء إلى «بدوية» جدَّته، وأمه.. وذكريات الفقر، والتقشف القسري، والبيت من الشَّعْر!

مثلما كان دائم التغني بعشقه للنهر الخالد/النيل، وتربة الكنانة السمراء الولود، وذكرياته الطويلة هناك مع رفيق دربه السيد «ياسين طه» منذ كان ذلك الرجل الفارع طوله بشمخة الهاشمي العربي، وبثقافته المتطورة دائماً!

والإعتزاز، والتغني.. لا يهدرهما جزافاً، ولا حتى بالمجاملة... فقد كان شديد التركيز على الجذور، والأصول، والعمق الإنساني!

وكان وافر الدفء لمعاني وقيم الارتباط الأسري، وما يُردده بالآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة عن: المودة، والرحمة كقاعدة لبناء الأسر.

وعندما يزورني في بيتي.. نُبصره ذلك العطوف، الحاني، وهو يتلو

دائماً ـ وفي عينيه دمعة ـ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ (النساء: ٩).

* * *

ـ كان يختص بلمحات، يجعل «الأسلوب» بانوراما لها وعنها... وقد قرر ذلك يوم أن يذهب إلى الطائف مصطافاً، هرباً من حرارة جدة، ولزوجة بحرها.. وكان يكتب لنا في «عكاظ» عموده اليومي الشهير: (كلمة ونص)، وبقي مكان العمود فاغر الفاه، وهو كاتب ملتزم لم يكن يخلُّ بذلك الالتزام.. فسمعته يقول لي بالهاتف:

ـ أكتبه غداً بالنيابة عني!

ـ قلت في مفاجأة طلبه: أنا أكتب بالنيابة عنك... ومن أنا؟!

ـ قال ضاحكاً: أنت حرَّان، ترشح عرقاً ورطوبة، وأنا مبتهج في نسمة الطائف الجميلة.. أرني ماذا ستقول؟!

حقاً... أُسقط في يدي، فقلت له على الهاتف:

ـ سأكتب عن الرحيل، إنطلاقاً من عبارة الكاتب اللبناني الروائي «كرم ملحم كرم» القائلة: (الرحيل: إنتصار لمن يهفو إليه، وكلما جدَّ في الوثبة استأنس بالدعة)!!

ـ قال: دعني في الدعة.. وانتصر أنت بالوثبة!

وحاولت ـ يومها ـ أن أترسَّم نهج وأسلوب «ولي الدين يَكَن»، أو «إبراهيم اليازجي»، أو «جبران خليل جبران» وإن كان لم يُغره بشجنه، وإن أطربه بشَجْوه، كما قال لي بعد ذلك!

وعاد في اليوم التالي: كاتباً، يصهلل على تلميذه/أنا، ويقول: لقد نجحت في إثارتك، وتحديك!

كانت مودَّته للكلمة.. هي: ولَه يسمو بالمعاني في نفسه.. فلا يجعل الملل ينتصر على وقته.. ولا يجعل الغرض يهزم معانيه!

إن ولهَه بالكلمة: عطاء جزل لحياته على امتدادها.. لتطلعاته، فقد بقي ـ في شيخوخته ـ شاباً بروحه، وبعزيمته، وبفكرته، وبرؤيته للغد... يكتسح خريف العمر بالحبِّ!

كان الشباب في روحه ونفسه: قطرات طل، لا تخضع لجغرافية شيخوخته، ولا للجوانب الأربع في بعض رؤيته!!

كانت رؤية هذا العجوز (زوربا القرن العشرين) تتمدد، وتكبر، وتعْبُر المحيطات... لأنه يُعبِّر عن إنسانيته، ولأنه ـ كإنسان ـ يغبط الشاب المنتصر على ملل السنين الطويلة المديدة.. تلك التي كان اسمها: عمره!

حتى في «الملل» الذي يشعر به في السنة قبل الأخيرة من عمره، وكان يجأر به في أذني.. لم يكن في نفسه: كفراناً بالمودة، بل كان «نهزة من إستراحة.. تتوطد بها الألفة للعودة»!

كان بين الفينة والفينة يبادر إلى أعماقه، فيفلح وجدانه، ويضذِّب ملله.. ليعود بأرضه/نفسه: تربة صالحة للبذر، وللزرع، وللثمر من جديد!

وهمُّه مع الناس، وبالناس: أن يغنم معهم وبهم «شتلة» من مسرَّة النفس.. وغرسة تُنبت عشباً أخضر.. وبذرة من أماني، تفوق إعتساف الملل، وهجمة الإِحباط، وقسوة الظلم!!

❊ ❊ ❊

ـ وفي اتكاءته الأخيرة... حين كان يأتي إلى مكتبي زائراً، يصحبه

رفيق عمره، وأستاذي «ياسين طه»... سمعته يكثر من الاستشهاد بأبيات شعر للمتنبي أكثر من غيره.

لكنَّ «الشريف الرضي»، كان شعره: موسيقى يعزفها صوت «زيدان»، وإلقاؤه.. وكأنه لم يحفظ من شعر «الرضي» إلاَّ هذه الأبيات التي يكثر من ترديدها، على كثرة ما يحفظ له.. فأسمعه يُنشد:

وفي الركب مُحْنِيِّ الضلوع على جوى ... متى يَدْعه داعي الغرام.. يُلبِّه

تذكَّر، والذكرى تَشوُق.. ... وذو الهوى يتوُق...

ومن يعْلق به الحب.. يُصِبه ... غرام على يأس الهوى، ورجائه

وشوق على بُعْد المزار، وقربه!

ـ وقلت له ذات يوم: صرتَ تفكر في أيام، وقد كنت تتخذ قرارك في لحظات؟!!

عرفتك: تزهد في أشياء عديدة.. كان توقك إليها ركضاً!

ـ قال: لا أدري... ربما لأن اللحظات في شعوري اليوم، تحولت إلى أيام.. لطولها!!

ـ وسألته أخيراً: هل هذا هو قرارك النهائي في الحياة اليوم؟!

ـ قال: ليس هو قراري يا ولدي... بل حياتي المستقرة، في العمر المتبقي!!

ـ وطفقت ـ لحظتها ـ أتأمله، وأتأمله، وأتأمله... لا يطرف لي جفن.. لا يدق قلبي.. لا أجد ما أقوله له.

ـ لكن دمعة جمرية.. انفلتت من عيني.

ـ قال: لا تبكي علَيّ... لم أعد أحتاج إلا إلى: كلمة حب!!

***

ما أدرانا بالحدس؟!

ـ حين توقف «الزيدان» عن إملاء كلماته.. فإنه لم يتوقف عن صياغة الكلمة: يقولها، ينثرها، يجيب بها على أسئلة منهمرة عليه لا تتوقف عن استفتاء رأيه، ورجاحة حكمته!

كان «جواهرجي» كلمة... لا يقدر أن يسكت، فإذا سكت.. كان ـ كما عبَّر ـ يبلور فكرة في رأسه تشغله حتى تضنيه.. وينشغل بها حتى يسبكها مثل عقد من اللؤلؤ!

ذات يوم.. أجاب في حديث صحافي على سؤال عن: عادات الجيل الذي ولد فيه؟

ووجدته يحنُّ، وينسكب كقارورة عطر.. وإذا به يصف «الليل» في «رمضان» عندما كان فتى، وشاباً.. وينطق شجونه بصوت أفراح الماضي، (ورائحة الفاغية): زهرة الحنَّة، والنمَّام، والثل، ومنظر الأطفال، والفتيان والرجال... وهم يسيرون في الليل جماعات، كل فريق يذهب ليتحلق حول البيوت، وينشدون أغنية جماعية!

ـ «هلَّ هلالك يا رمضان... يا بو الشربة والريحان»!

ـ إنهم أولئك الأجداد والآباء، الذين مزجوا طعام المعدة بطعام الروح، أو بإستكناه الروح للمعاني، وللألفة.. فحولوا الليالي إلى أفراح،

ومهرجانات... في صميم توجههم الروحي إلى استخلاص العبادة.

ولعلّ من أسوأ ما تفقده الأمم: أن تتخلى عن عاداتها الأصلية التي تميز ملامحها الاجتماعية الدالة على جذورها وطبيعتها.

لقد فقدنا الكثير من تلك الملامح، ومن ذلك التميز الذي اختص به مجتمع هذه الأرض... فإذا نحن: نقلد ما هو بعيد ويتنافى مع ملامحنا.. وإذا نحن: نبتعد عن هذه الروابط الاجتماعية التي تزيد كل مجتمع تماسكاً ومحبة.

ولا نريد أن نفقد ما تبقى... فالمجتمعات المفتوحة ـ كما قال الزيدان ـ تتعرض للتأثير، وللتقليد اللذين يسلبانها هويتها!!

***

ـ ذلك هو مدخل التأمل لدى «الزيدان».. ينطلق به من: تراثه، وعاداته، وملامح مجتمعه.

وبجانب ذلك.. كانت الفواصل الزمنية في مسيرة حياته تتداعى:

ـ الزمن في إحساسه، هو: خفقة وجود.

ـ الوجود في احتفاله به، هو: الحواس، والمشاعر التي تقود حواسه، ورؤيته، وخطواته وخواطره.

كان يتوقع «الفرح» دائماً... ويطرد الترح من معايشته للأحياء وللحياة.

ـ سألته: كيف تتعامل مع همومك، ومشكلاتك التي تصطدم بها في يومك، وفي تعاملك مع الناس؟!

ـ أجاب: عندي القدرة التي نميتها بالإصرار على طرد الأفكار التي تُنَغِّص.

كنت ـ في بدء حياتي الناضجة ـ أشقى بكثافة أفكار تتجمع بمجرد وضع رأسي على الوسادة.. فاسهد، وأقلق، ويعصي النوم عيني.

وتعاملت مع الهواجس والأفكار بمحاولة طردها... حتى نجحت في ذلك، وحين أضع رأسي على الوسادة.. أبادر بتفريغ هذا الرأس من تلك الهواجس والأفكار.. أقذف بهما على رف غرفة نومي... وأداعب أحلاماً، وأماني حتى يحتل الكرى كل عيني ووعيي، وأنام قريراً.

لذلك... كان الكثير من المعجبين، أو الحاسدين، يسألونني:

ـ ماذا تفعل.. حتى تحافظ على حيويتك، وشباب روحك ونفسك، رغم ولوجك لمراحل الشيخوخة؟!

فأجيب: شيء واحد فقط، وهو: أنني أمتلكت إرادة لا تعجز عن طرد الهواجس، والظنون، والخوض في أمواج التوقع، والتحسب، والخوف من الآتي، أو من الغد... حتى لو فعلت أمراً قد انتظر المصاعب من ورائه.. فلا بد أن لا أدعه يقاسمني الوسادة، ويحتلها مع رأسي بدلاً من الراحة!!

وهكذا... كان يتوقع الفرحة بدلاً من الترحة، وبين جوانحه صهيل جواد مستنفر!

ما أدرانا بالحدس؟!

ـ كان يسأل نفسه، ويحاول أن يجيب دائماً، وفي إحدى إجاباته قال لي:

ـ تسأل عن الحدس؟!

إنه ـ أحياناً ـ هو كل هذه الأمور التي تستطرد فجأة في غمرة البهجة

الواعدة، في العهد الذي يقطعه الإنسان على نفسه، من قدرته على الالتزام، أو من تشبعه بالحب!

وتنساق خفقات هذا العجوز بسنوات عمره، الشاب بروحه وبأفكاره.. فإذا الخفقات تطرد وراء «التلباثية»!

لكنه يتردد قليلاً، ثم يتحفَّز... ويبدو في معاناته وكأنه: أمي التوقيت، لا يعرف قراءة زمنه... ثم ينبثق ـ فجأة أيضاً ـ فإذا هو: صانع لتوقيت جديد بالمعاناة.. وإذا هو «عالم» في قراءة زمنه، والأزمان التي سبقت... مشرئباً إلى استطلاع الزمن الآتي!

وبذلك... يبدد (كله)، وكأنه يرتقب،ثم يصهل متحفزاً، ويدور حول نفسه.

وكان يحب ذلك الغموض المتناهي في أحشاء الليل..

وكان يحب ـ أيضاً ـ ذلك التوقُّع اللامتناهي بالفرحة في جوانحه، من أمنياته بسعادة الآخرين، وركضه بالفعل لإدخال السعادة إلى نفوس من يلوذون به، أو يقصدون مساعدته.

ـ ثم... يواصل بوحه، وإشعاله لحركة الزمن... فيقول:

ـ عندما يكون الزمن خفقة وجود... فليس من الضروري أن تلتزم حياتك بشروط يمليها الاضطرار، أو القهر على الحياة!

ومن أجل ذلك.. أراد أن ينسف كل الشروط التي تتلاطم في نفسه.

أغلق باباً ضخماً كان من الممكن أن يبقى مفتوحاً على: الشكوك، والتوقع، والتحسب... إلى أن يبلغ عند البعض حدود: سوء الظن!

وأشرع باباً أكثر إتساعاً على: الأسئلة التي تتطلب المعرفة،

والاكتشاف، والرؤية، والحقيقة الخالية من شوائب الجدل والسفسطة!

ـ يقول لي: أشياء كثيرة في انتظاراتنا، في قرارتنا... تبدو أنها معاناة، لكن... تفسيرها أيضاً يبدو أكثر صعوبة من المعاناة نفسها!

لم يكن يريد أن يخرس ذلك الصهيل الدائم في جوانحه كإنسان.. ولا تلك الأسئلة المتجددة، المتطورة في عقله كمفكر، ومتَّشح بعباءة التاريخ.

وعندما سأله «صحافي» شاب قبل موته بعام:

ـ تقف في الصباح أمام المرآة.. لترى وجهك، أم لتتزيَّن في خروجك للناس، أم.. لتتأمل تجاعيد السنين؟!

ـ أجاب: «لا أدري كيف خطر ببالك هذا السؤال!!

كيف خطر ببالك أنني أقف أمام المرآة في الصباح، كأنما أتحلى وأتزين مع نفسي، مع أنني لست كذلك!... ولست من أولئك الذين يتباهون بجمالهم، كأنما يعلنون للمرآة وكأنها كل الناس!!

فأنا لست من هؤلاء، فلم أتعود منذ شبابي أن أقف في مواجهة المرآة.. فأنا غني عنها حتى في كهولتي، ولكن الآن عندما أقف أمام المرآة للحلاقة أو لضرورة تلزمني.. فإنني أضيف إلى ذلك سؤالي لها، وهذا السؤل طرحه الكثير من الصحافيين والناس فقالوا مخاطبين: إنك قد نيَّفْتَ الثمانين من العمر وليس في وجهك أية تجاعيد؟!

ـ فقلت لهم بكل ثقة: وذلك لأنه ليس في قلبي تعاقيد، فالتجاعيد تكثر في وجه من يحقد، ويكره، ويغضب، ويتسم بكل الصفات الذميمة!

المرآة ليست حلية نتزين بها، بل حلية نقف أمامها، خصوصاً لأولئك

الرجال/الأطفال الذين لا تشبع رغباتهم النفسية إلا بالوقوف أمام المرآة لساعات طويلة، لا لشيء بل للظهور بالزينة»!!

* * *

ـ وكنت أحرص كثيراً على «الإصغاء» في حضرته.. وصوته ينساب في البدء، مثل تدفق النهر، ثم يتعاظم الصوت بدون أن يعلو على صوتك، ولكنه يتعالى بالإصغاء إليه.. فهو صوت يجسِّد حلاوة اللغة، وينسج بنبراته: شاعرية الضاد.

مفتون كان بالكلمة. ويعرِّفها بقوله:

ـ «**الكلمة: تصنع الحضارة، لكن الحضارة قاتلة للكلمة التي صنعتها**»!!

ـ لذلك... سألته فزعاً من تعريفه للحضارة أيضاً:

ـ فما الذي تبقى من الكلمة، ومن الثقافة.. وما الذي يمكن أن تعطيه الحضارة بعد ذلك؟!

ـ قال: يبقى من الكلمة ـ يا ولدي ـ صدقها... فصدقُ الكلمة يُشعل ثورة العقل.

أما أن الحضارة قاتلة للكلمة التي صنعتها.. فذلك بعد توظيف الحضارة لعقل القوة، ولقوة البطش، ولبطش الطغيان!

* * *

ـ لقد كانت أحلامه: أسفاراً في حقب التاريخ.. وتحليقاً في سماوات المعرفة..

لم يكن يوماً: ذلك الإنسان/ الفرد، النرجسي الذي تستهويه صفحة البحيرة، ولا المرآة... لأن إعجابه الذاتي لم يكن بنفسه، ولا

بأستأذيته... بقدر ما كان إعجاباً «بالكلمة» التي يطلقها: عميقة في سويداء الحقيقة... أو مجنحة بألوان المعاني، واللغة!!

ومن خلفية هذا التبصير الذي أضاء به عقلي... حاولت ـ أيضاً ـ أن أقرن صوت الزيدان بصوت «زوربا»، وما كتبه الروائي اليوناني «كزانتزكي» في روايته: الموت والحرية... مصوَّراً أبعاد «الحب» الذي يربط بين الإنسان/البطل، وبين تلك العين الآخذة التي تنطلق برؤيتها إلى آماد الحرية، والتعبير عنها، والرحلة الإنسانية من داخل أعماق الإنسان إلى صميم نفوس الناس!

ولقد كان «الزيدان»: يرقص بكلماته المجنَّحة، وحتى بكلماته الحكيمة.. كما رقصة «زوربا» العجوز، الذي وصفه «كزانتزاكي» بقوله:

ـ «هو الذي علمني أن أحب الحياة»!!

ـ أما «الزيدان»... فقد استطاع أن يمتص توتري، في الكثير من اشتعالات الغضب، وانفعالات المصادمة البشرية... حتى كأنه يوسدني ـ بكلماته ـ وسادة من زئبق رجراج.. يمرجح رأسي، وخواطري، وانفعالاتي حتى تهدأ.

ـ ويقول مستطرداً بعد الحالة: لكي تحسن التفكير... عليك أن تصعد فوق نفسك، وفوق أشيائك الصغيرة، وفوق مبتغى لحظتك، ثم... تنظر إلى الآخرين!!

الفوقية التي لا تجعلك متكبِّراً على الآخرين... تمنحك فرصة رؤيتهم بنظرة أكثر شمولاً من كل الزوايا.. أما في الغضب والانفعال، فلا بد أن تفقد هذه المميزات!!

* * *

رسالتان متبادلتان

ـ ضمن برنامج إذاعي ـ يوم كانت الإذاعة تحتفي بالأدب، ونشاط الأدباء ـ طُلب مني توجيه رسالة إلى أديب أصطفيه، وأحاوره، ويستثمر المستمع من الحوار: فكرة، ورؤية، ورؤى!

يومها.. إخترت أستاذي، ومعلمي «**محمد حسين زيدان**» لتوجيه رسالة إليه، احتفظت بنصها، وبإجابته عليها.

قلت له في الرسالة:

ـ تذكّرني بالرافعي ـ يرحمه الله ـ، فقد كان لا يطيق مسك القلم... ولكنه كان يقف في وسط الغرفة ويدور في مساحتها وهو يهدر، وينفعل.. وهو يدمع، ويبتسم، ويملي أفكاره ارتجالاً.

ولا أقول أنك تقلد الرافعي بهذه الطريقة، رغم حبك الشديد لكل ما كتبه.. ورغم فقدك «الأحياني» لبعض ما كتبه!

يقال ـ أيضاً ـ أنك تكتب كما كان الزيات يكتب!

ومن هو الزيات عند الرافعي؟!

ومن هو الرافعي في وجدان الزيات؟!

هذا طرف من السؤال إليك.. ولكن أهم نقطة يمكن أن نطلب

التوقف معك عندها، هي سؤالي إليك:

ـ هل تعتقد أن الرافعي والزيات، ومن كان يُبدع بالحرف في فترتهما.. استطاعوا أن يوجدوا مناخاً جديداً للفكر العربي؟!

إنني أُحدد السؤال بالفكر العربي، ولم أقل الأدب العربي، أو الأسلوب الفني في الأدب العربي!

إن طريقتهم في الكتابة جذبت إليها بعض المعجبين أو المتأثرين.

ولكن.. هل كان تأثيرهم يرتفع إلى مستوى تاثير طه حسين مثلاً، أو تأثير نجيب محفوظ الآن؟!

وهل تعتقد أن هذا اللون من «الأسلوب» الأدبي الغني يصلح اليوم لأن نكتب به؟!

وهل تعتقد أن الأفكار التي كان الرافعي أو الزيات، أو غيرهما يكتبونها، ويطول الجدل حولها.. هي أفكار استطاعت أن تخدم حركة الوعي، والتطور الحضاري للقارئ العربي؟!

وأعرف أنك تنتصر لهؤلاء الموهوبين أمثال الرافعي والزيات!

من هنا أود أن أنتقل بك إلى نقطة أخرى هي:

ـ كيف نستطيع أن نوفِّر النجاح لنشر الوعي بالكلمة التي تنطلق اليوم عبر الصحافة والتلفاز، والإذاعة، والسينما!!

يخيل إليَّ أن جهود الفكر العربي تعاني من نقص في التغذية!

أو أنها جهود تكاد تصاب بالكساح، نظراً لأن المثقف الذي يؤثر ويجدد غائب.. ولأن الكاتب الذي يستقطب الأفكار الجديدة، ويحملها إلى أذهان الشباب: كاتب غائب.

فكيف يمكننا أن نعالج هذ النقص.. على كثرة ما يندلق عبر أنهر الصحف، ومن خلال الشاشة الفضية، وعلى الهواء**!!**

وأسمح لي أن أسأل بعد ذلك عنك:

ـ لقد عرفناك بيننا من الكُتَّاب المفكرين القِلَّة، وقد وصفتك مرة في مقال كتبته عنك بأنك مفكر أكثر منك كاتب أو أديب.. هذا بالإضافة إلى أنك مؤرخ لم تُصَبْ ذاكرتك بخدش وبالإضافة إلى قيمتك التي نعرفها فيك.

فأنت أديب صاحب عبارة مجنَّحة، وأنت نسَّابة لا تنسى جذور وفروع الأنساب، حتى على مستوى العالم العربي، وليس في بلدك فقط.

أما الناحية الأدبية فيك.. فتتجلَّى عندما تكتب وأنت تعاني.. فنقرأ لك: العبارات المجنحة، والمسددة كما سهم إلى هدف لا تخطئه، وأسلوب مميز يعرفه قارئك، حتى لو لم توقع اسمك عليه.

ولكنني أؤكد أنك ما زلت المفكر أكثر منك الأديب.. فهل تُلاحيني في هذا الرأي**؟!**

وبهذه مناسبة أسألك أيضاً:

ـ هل أنت كسول في التفرغ لكتابة عمل فكري كبير يتفق وقيمتك، وروافدك الضخمة، وثقافتك.. حتى أطلقو عليك صفة **(الموسوعة المتحركة)؟!**

فلماذا لا تنكبَّ على إصدار الكتب التي تعكس مضمون ثقافتك، وتدون لنا عطاءك الفكري**؟!**

إن المفكر مثلك لا يرضى منه القارئ أن يعطيه «سندويتشاً» في صحيفة يومية.. في مقال قصير تدفعك إليه الأحداث العابرة.

ولك قيمتك تُلحُّ عليك أن تعطي عملاً ضخماً.. تماماً كما تُلحُّ على كل الذين هم في وزنك، وقيمتك، وغطَّاهم الصمت.

ونعرف أنك تختزن الكثير من المواقف العظيمة، والتجاريب، والصور، والحكايات... فلماذا لا تشارك فتكتب كل ما لديك، أو حتى تدونه في مذكرات خاصة لرجل عاصر الكثير والهام من الأحداث، ومارس التجربة مع الرجال الذين صنعوا لبلادهم تطورها؟!

ذلك هو مأخذنا عليك.. وليس عذراً أنك لا تجد من تملي عليه!

أما وجدانك، فحديثي عنه لا يترمد.

إن الشباب فيك يكتسح خريف العمر.

الشباب فيك قطرات طلٍّ لا تخضع لجغرافية نفسك التي تقاتر بالعمر، وبما حولها من انفعال وتأثُّر... ولا تخضع للجوانب الأربعة في بعض رؤيتك.. فأنت تحيا العمر شاباً، وتنسكب كما قارورة عطر!

* * *

ـ وأرغد فكري، ورؤيتي بإجابته السريعة، في رسالته/الرد على رسالتي... فكتب:

ـ التلميذ: الابن/ عبد الله جفري:

وقرأت رسالتك بعد أن سمعتها قبل ذلك من المذياع.. فأكتب الآن أجوبتي على كل ما تساءلت عنه:

ـ حين بدأت أقرأ، أخذني الرافعي بأن لا أفهمه، وكنت أتهمه بأنه يعسِّر ولا ييسر.

ولكن حينما بدأت أقرأه في مقالات الرسالة ـ تلك التي جمعت في وحي القلم ـ بدأت أفهم.

ليس هذا تقدماً في فهمي، ولم يكن ذلك كما كنت أتفهم: إنه التعسير، أقرؤه همساً.

وحين قرأته بجَرْس ـ أي بصوت مرتفع ـ إتضح الغموض.

ذلك أن الرافعي يقرأ بالأذن أكثر مما يقرأ بالعين!

ولقد كان هذا التغيير للقراءة بالعين إلى القراءة بالأذن مصادفة.. حولني إليها صديق أقرأ له ويقرأ لي ما يكتب الرافعي، فبدل أن أسمع بعين قارئة.. كنت أطرب بالأذن القارئة!

فالجرس في الكلمة هو تلحينها.. يأتيك بالطرب.

ولعلّ هذا ما فطن إليه أمين الريحاني، فيلسوف الفريكة، حين قال:

ـ لكي تفهم حينما تقرأ، ينبغي أن تقرأ جالساً.. كأنما أنت على مائدة طعام.. لأنك حين تقرأ واقفاً عجلاً، يفوتك الكثير!

فالفرق بين المائدة وبين الأكلة العاجلة.. هو الفرق بين السندويتش، والطعام المُعد.. لا يؤكل إلا باحتفال!

بهذا كله أحببت الرافعي.

ولعلّ مدرسة القرآن، وقراءة التراث، صنعت الرافعي: حَرفه وحرفته، أو بأسلوب العامة: حِرَافته صَنَّاعُ كلمة، فهو لاعب باللفظ لعب الحرِّيف، ولا أدري كيف تكون كلمة (الحَرِّيف) عامية، وهي أصلية الاشتقاق.

ولعلّ الذي جعلها تنسب إلى العامة: المعنى المستفيض منها كمجاز، أكثر مما كانت تطيقه كحقيقة مشتقة من الحِرفة.

فلا أزعم لنفسي نفي الإتهام أني أقلده.. تلك كما يقول سعد زغلول، وهو من صُنَّاع الكلام: تهمة لا أدفعها.. شرف لا أدَّعيه**!**

وإنما الأمر هو المنبع:

ـ كلمة القرآن.

ـ عشق اللغة الشاعرة.

ـ ثروة من التراث علمتني ذلك..

فَلِمَ لا نكون ـ وليس ذلك من الغرور ـ على نهج واحد، ليس من التقاليد فيه شيء، وإنما هي أصالة فيه كما هي الأصل لي**!!**

ـ ما هو الفرق؟!

أما الفرق بين الزيات، والرافعي، ومحمد السباعي، وعباس حافظ، والمنفلوطي... فليس من الوضوح بحيث أن تقرر أنهم على نسق واحد، وإنما عى نهج واحد.. كل الفرق في دواعي الإحتراف.

فالمنفلوطي: إحترف الكلمة ليقولوا: هو ذاك.. جاء بدعاً جديداً، وأرجو أن لا يغضب من ذلك طه حسين، فقد اعترف الدكتور بأنه أخطأ في حق المنفلوطي، جاء بدعاً أشرقت به الكلمة العربية.

والزيات، والسباعي: إحترفا الكلمة ليقال أنهما أدقَّ من المنفلوطي.. تبَاهيَا باللغة الأجنبية التي يعرفانها، فالزيات والسباعي، دواعي الاحتراف فيهما أكثر من نفحات الموهبة.. أما الرافعي فَقَسْر الموهبة فَرَض عليه إعلان الاحتراف.

فالرافعي إبداع الإبداع.. جاء ذلك عن أصالة من عشق الكلمة القرآنية، أخذها من بيت ذي أعراق قرآنية.. تربية مسلمة، فقد شرب من

ثَدْي «عُمَري» علَّمه، بل كلمه أن يكون كلمة جديدة.

أما الزيات ومن إليه، فتعليم لا إلهام، وفرق كبير بين من يتعلم فيستلهم، وبين من يلهم ليعلم. هذا مجد الرافعي.

وتعجبني كلمة الدكتور «عبد الوهاب عزام» تلك المجنحة.. كأنه قبسها من الرافعي نفسه حين قال: كاتب نسيج وحده، لا يُذكِّرك بأحد، ولا يُذَكِّرك به أحد!

كأنه هو يرد على أمير البيان «شكيب أرسلان» حينما وصف الرافعي بأنه: الجاحظ الثاني.

كأن هذا الوصف لم يعجب عزام، وبالتالي لم يعجبني.. مع أن الجاحظ إمام في البيان، إلا أن الرافعي بيان جعله غماماً من نوع جديد!

هذا عشق.. لكنه لا يسلبني بعض المآخذ على الرافعي.. جعله يسرف في السباب أكثر مما يتصرف به من دفع الباطل بالحق... فقد أسرف على طه حسين في «تحت راية القرآن»، وأسرف على العقاد، فلم يأخذ منهما شيئاً، وإنما كان هو الآخذ من نفسه!

لقد كان في كلمته المجنحة: ـ ليته اقتصر ـ يعني العقاد: إذا اتُّخذت سفيهاً ليُسافه عنك، فاحذره في اليوم الذي لا يكون فيه سفيهاً إلا عليك!

لقد جمع في خلفية هذا الكلمة المجنحة، الأخذ من سعد عن تعامله مع العقاد.. لساناً من ألسنة الوفد، كما هو الأخذ من مصطفى النحاس!

أما عطاء الجميع من هؤلاء للفكر العربي: ثروة عقلية.. قد أعطوا أكثر من هؤلاء.

أما عطاء هؤلاء.. فإضاءة الطريق للمفكر العربي.. وضعوا أمامه

انفتاح فهمه، حتى إذا جاء المفكرون.. كان المفكر العربي على استعداد لتقبل الفكر، وإعطاء الفكر.

إن المنفلوطي، والزيات، والرافعي، ومن إليهم... فتحوا الطريق، ومن جاء معهم أو بعدهم عبَّد الطريق، وسن الطريقة، وأعطى للتفكر قيمة الفكر.

ـ القاريء العربي يفهم الكلمة:

ـ ولكن إذا لم يكن هذا الأسلوب البياني هو الأسلوب المنير للفكر.. فإننا نحارب الكلمة القرآنية التي هي نور الفكر.

إن القاريء العربي ينبغي أن يعلو بأسلوب اللغة الشاعرة.. لا أن يحارب لغته مظهراً عاطفة، تدَّعي التفهيم.. فالقاريء العربي يفهم الكلمة القرآنية، وليس هناك بيان أعلى منها، فكيف ندعي أن الأسلوب المشرق لا يفهمه العربي؟!

إن الفسولة، والضحالة، هما الانحطاط بالقاريء العربي إلى لغة العامة، بينما من حق القيمة القومية العربية أن تكون لغتها الشاعرة في أسلوبه العالي.. فكل الذين عابوا على الرافعي بيانه، ما زالوا يكتبون باسلوب بياني، على طريق لا أزعم أنه قد انحط، وإنما هو في الواقع من السهل قد استطاع به كُتّاب الصحافة اليوم أن يكونوا الوسيط بين لغة الرافعي وأمثاله، ولغة الأبنودي وأمثاله.

ذلك ما استطاعه أنيس منصور، ومن إليه من الذين نبغوا في عالمنا العربي.. فأسلوب أنيس منصور سهل، لكنه بياني.. فقدرة من أنيس وأمثاله أن يكون الكاتب الوسيط!

ـ كيف ننشر الوعي؟!

ـ إذن.. هناك المثقف الغائب، وليست الثقافة غائبة!

إن الغيبوبة تلاحق القارئ فلا يقرأ، وإن قرأ سئم.. فطابع العجلة، وتكالب القلق والغزو الفكري بالقليل القليل من الثقافة، ينشر على الناس في المذياع والتلفاز: كان هو المخدر ليكون القاريء في غيبوبة.

إن العلاج: أن يقرأ العربي.. لا يكتفي بالسماع، ولا بالرؤية، ولا يقتصر على الكتاب الرخيص.. وإنما ينبغي أن يكون النهج، أن يقرأ العربي كل جديد، كل قديم.

فالقراءة الجديدة طرقات على الفكر تفتح كل باب له..

والقراءة القديمة ذخيرة للفكر.

حين يفتح الجديد الأبواب، يجد الكنز الدفين من الثقافة القديمة، فيكون المزيج فكراً عربياً جديداً.

إختزن القديم من التراث، واختاز الجديد من كل ما تورثه الإنسانية... فالترجمة تكاد أن تكون معدومة في العالم العربي.. ذلك قصور الدولة وأجهزتها: أن تضع الترجمة جامعة جديدة للفكر العربي.

لقد كان جهد أفراد كفتحي زغلول، وعجاج نويهض، وعادل زعيتر، وخيري حماد، ومنير البعلبكي، ومن إليهم.. جهداً فائقاً أعطى القارئ العربي الأفكار التي ترجموا كتبها، وعيب أن يكون جهد الأفراد أقوى من جهد الدول، والجامعات، ومن إليها، وما إليها!!

ـ أديب.. أم مفكر!

ـ أما أنني مفكر لا أديب... فتهمة لا أدفعها وشرف لا أدِّعيه، أعيدها مرة أخرى!

فالمفكر في معيار الأمم أديب.. كاتب، تحصره الشعوب الحافلة بالفكر في قليل من رجالها.

الأديب قد يكون لديه فكر، لكن لم يصل بعد إلى هذه الدرجة التي وصفتني بها.

فالأمر في ذلك: كل مفكر أديب، وليس كل أديب مفكر!

فالمفكر من يقسره التفكير على العطاء، والأديب يفرض على نفسه أن يكون فكراً لغيره أكثر من أن يكون فكراً لنفسه.

ـ هل أنت كسول في التفرغ للكتابة؟!

ـ ليس هو العجز، ولا الكسل، ولكنه التعجيز.. فلو مددت يديك إليَّ لتعطيني بعض القدرة، لأمكن لي أن أصنع شيئاً أفكر فيه.

إني ملول، يأخذني «القرف» أحياناً فيعجزني..

لكن التشجيع قد يطرح القرف عني.

ولعلّي في سبيل أن أجمع ما كتبت، وأن أضع بعض التحقيق.. أرفع به ما توصف به «موجة بني هلال» من أنها ذهبت للنجعة.. مع أنها ما ذهبت لذلك، وإنما ذهبت بها أحداث جسام وقعت في الجزيرة العربية... فهي تحتاج إلى إيضاح القيمة لهذه الموجات من نجد والحجاز.. تفتح للإسلام الأراضين، وتفتح للغة الألسنة!

عبارة . . تتيَّم الزيدان

ـ من أدباء «الشباب» ـ يومها! ـ الذين لفتت ثقافتهم إهتمام أستاذنا «الزيدان»، وتقدم هو بالخطوة الأولى منهم. . كان صديقنا الأديب المثقف، الذي هجر بعد ذلك الكلمة، كاتباً لها، وتحول إلى ورَّاق، أو صاحب مكتبة، وناشر: الأستاذ (عبد الله الماجد).

وقد ربطت بين الزيدان والماجد: علاقة أدب وفكر. . كان يحدثني عنها أستاذنا الزيدان باعتزاز، واعتبر أن صداقة مثل هذه تعتبر مكسباً للطرفين، بكل تواضعه الذي عرف به. . حتى صار «الزيدان» بالنسبة للماجد: أباً روحياً، ومعلماً، وقريباً جداً من أسرته.

ـ وقد وجهت للأستاذ «عبد الله الماجد» ذات يوم: رسالة مفتوحة عبر صحفنا، قلت له فيها:

ـ «أتذكَّر في النداء عليك. . عبارة «زوربا» القديمة، الطوافة: «أيها المعلم. . هل يبيع الطاووس ريشه»؟!!

وأعرف ـ متاكداً ـ أنك لم تبع عشقك للكلمة إلى تجارة نشْرها، بل اثق أنك بكل ما فيك من معاناة وظمأ، قد غادرت ساحة الذين «يمارسون» الكتابة ـ مبتعداً بهدوئك المعروف عنك ـ عن الزحام الغارق في اللجج، والأقنعة!

ترى.. هل ما زلت تذكر تلك الورقات الثلاث التي كتبتها في الصفحة السابعة بـ «عكاظ» قبل سنوات شاخت؟!

دعني أذكِّرك بالورقة الأولى، وكانت عن ذلك القارب الذي: «تناصلت أجزاؤه ولم تعد، في القلوع مقدرة على إرساء القارب، بل نحن في مياه تشهد الأعاصير المحملة بزخات متتالية مع الرياح»!

ـ وأسألك: هل اقتنعت بأن تكفُّ عن نشر شراع جديد لهذا القارب؟!

ودعني أذكرك بالورقة الثانية، وكانت عن تلك «الحماية البابلية التي عاشت في عهد أشور بابل، وجدتها في كوة غطى تراب الدهر توهُّج ريشها الأزرق المتكحل، فأصبحت كلون الحجارة البنية»!

ـ وأسألك: متى ستنفض تراب الدهر عن حمامتك البابلية، ليتوهج ريشها الأزرق المتكحل، ويعود لونها إلى هذا الفضاء الرحب؟!

ودعني أذكرك بالورقة الثالثة، وكانت عن تلك : «النخلة التي لم يتساقط بلحها هذا الخريف»!

لقد استطردت بعد تساؤلك عن سر امتناع بَلَحِها عن السقوط فقلت: إنها لم تُسمَّد!!

وأقول لك: إنك هذه النخلة المسمَّدة التي طالما أعطت من ثمارها.. فهل يطول صمتك المتأمل، في هذا الاستسلام لتمدد الخريف»؟!

* * *

ـ وبعد نشري لهذه الرسالة، هاتفني أستاذي «الزيدان» يسألني:

ـ هل تنتظر رداً من صديقك القديم/الماجد؟!

ـ قلت له: متفائل.. لعلّنا نفتح محارته التي أغلقها عليه!

ـ قال بصوت متهدج: لم يتملكني أسف على غياب «قلم» شاب، ورشيق، ومثقف... مثلما أسفت على صمت كاتبين، توهَّجاً بالثقافة، وبجمال الأسلوب، وهما: عبد الله الماجد، ومشعل السديري!... إنه لم يرد عليك، فقد أضاعنا جميعاً: أنا، وأنت، و... الكتابة التي كانت عشقه!

لقد كان «الماجد» يتمتع بذهنية (أكول) كما وصفتها له يوماً... وهو حيِّي،تهذيبه نابع من معرفته، هدوئه... وهادئ حتى الصمت... وهو إذا لم تجده يقرأ، فإنه يستعيد ما قرأه وهو يمشي!

وكان إعزاز الأستاذ «الزيدان» لعقله، ولثقافته، ولأخلاقه.

ولقد بعث «الماجد» رسالة لم تكن معتادة إلى أستاذنا «الزيدان» وكانت تتضمن رأيه في أستاذنا!

وأطلعني «الزيدان» على الرسالة، ورأيت فرحته بها.. بل أكثر من الفرحة، فقد كانت الرسالة بمثابة حافز جيد للأستاذ الزيدان ليبادر إلى تأليف كتاب.. احتار في عنوان له، فوضع عنوانين لنختار منهما الأصلح، واستفتاني برأيي مع رأي صديق عمره الكاتب الرشيق السيد (ياسين طه)، وهما (من فقه التاريخ) أو (الوجه الخلفي للتاريخ/ ملامح من تاريخنا).

واستطعت أن أحتفظ بتلك الرسالة القديمة من «الماجد» لأستاذنا «الزيدان»:

ـ أستاذنا الكبير/محمد حسين زيدان:

أنت دائماً في نظري تمارس «مرحلة النغم» في معايشتك للحياة.. تأكد أنك شيء كبير، لكن حتى الآن يبدو لي هذا الكبير كالمقصورة التي يحرسها حرس مدجج بالسلاح.. حرس تقليدي في لباسه وسلاحه.

أحب أن يتفجر ما بداخلك، ولتصيبنا شظايا هذا التفجر.

أعرف أن الحديث ربما أزعجك، لأنني حرصت أن يكون مثيراً.. أن يطرد الرهج الذي يكسو كُتَّابنا الشباب.

نحن في حاجة إلى تفهم معنى أن نتعامل مع الكلمة.. في نظري ـ وهذا شيء معروف وقديم ـ إنها مسؤولية حياة.

إن التعامل مع الكلمة: تعامل مع الحياة..

تحياتي للأخوة في جدة، وخصوصاً ـ عبد الله جفري ـ وتحيات أخرى «للريِّس» الأستاذ عبد المجيد شبكشي، وإلى اللقاء».

* * *

ـ وأذكر موقفاً آخر.. تسببت فيه (عبارة) تتيَّم بها أستاذنا «الزيدان»، فكتبها فوق تحليل قصير لها، متشبثاً بها في لحظة شعور خالجه، أو أحزنه كثيراً.. فكأن العبارة جاءت لتفرِّج همه.. فهو يقول لي:

ـ بعض الكلمات تتذوقها، كأنك تستكنه لذتها فوق لسانك.. لأنها تلامس شعوراً أو معاناة في أعماقك.. فيكون لها فعل التأثير الذي يغير في نفسيتك حينذاك!

والعبارة.. كتبها لي الصديق «عبد الله الماجد» في رسالة مبتورة لم يكملها.. فأراد «الماجد» إكمالها...

ـ تقول العبارة: **(أحسن الأشياء: ما كان مبتوراً، لم يتم)!!**

والتقطها «الزيدان»... وقال لي مملياً: أكتب يا سيقور**!!**

وأخذ يملي عليَّ تحليله القصير لتلك العبارة.. قائلاً:

ـ «تأملوا هذه العبارة المجنحة، تصوروا صورةً لفنان لم يكمل ملامحها.. كم هي جميلة تحمل على التحديق فيها، ليكمل الصورة في نفسه.. لا ينفرد بها واحد، فكل الذين ينظرون إليها، يضعون كلامها من تصورهم.

وقد لا يوافق ذلك لو كملت بيد رسام، ومثل هذا تمثال ناقص اليد لم يُكمل، ولأبسط ذلك: في طريق مسفلت مرت عليه ثم انقطع كماله، فأعرب عن شعورك نحوه.. ثناءً على جمال الخطوات التي خطوتها، وحسرة على خطوات تخطوها، والأمثلة كثيرة».

لكن «الناقد» ـ يومها ـ الأستاذ السيد «علوي طه الصافي» لم يرُقْه هذا التحليل الزيداني، فانبعث من هدوئه مستشيطاً غضباً.. معتبراً أن:

ـ (تعليل الزيدان فيه اعتساف.. يحمِّل الأشياء أكثر مما تحتمل).. وكتب مقالاً معارضاً، قال فيه:

ـ «إن هذه العبارة ـ في رأيي ـ خالية من كل مضمون.. سوى أنها تعبير عن لحظة خاطفة وسريعة، لا تُمكِّن الإنسان من الانتظار الواعي لإصدار الحكم السليم!

فاللوحة.. أو الصورة التي لم يكمل الفنان ملامحها، لا تحمل على التحديق لأنها جميلة .. وإنما لأنها ناقصة، ومبتورة، وعمل غير متكامل**!!**

فالتحديق هنا: علامات استفهام كبيرة.

لماذا لم يكمل الفنان هذه الصورة؟

ماذا ستكون عليه لو أكملها؟

هل كانت عملاً فنياً جاء فوق المستوى الذي أراده الفنان لها.. فشعر بالعجز، ولم يكملها؟

أم أن مصيبة حلت به، حالت دون إكمالها؟

أم أنها جاءت دون المستوى الذي أراده لها هذا الفنان، فتركها دون أن يكملها؟

عبارة من سقط متاع، وعمل فني لا يستحق الاستمرار في إنجازه!

هذه الأسئلة وغيرها هي التي تحمل على التحديق ليس لأنها جميلة.. بل لأنها ناقصة ومبتورة!!

هي صورة مبتورة.. والأمثلة كثيرة!!

هذا شيء.. والشيء الآخر.. كثير من الجرائم عقابها البَتْر: بتر اليد، أو الرِّجْل.

فهل عقاب البتر لهذه الجرائم شيء جميل للمجرمين، أو لفعل هذه الجرائم؟!

إن القصد الذي أراده المشرِّع من هذا العقاب هو التعزير.. والتنكيل والتشويه/عظة وعبرة.

فهل في التعزير، والتنكيل، والتشويه جمالاً؟!

وهل يعقل أن يكون عقاب المجرم شيئاً جميلاً؟

لا أعتقد ذلك.. والأمثلة كثيرة.

وهكذا تبدو عبارة «أحسن الأشياء ما كان مبتوراً لم يتم» فارغة من كل مضمون، أو محتوى.. إنها تعبير سريع وخاطف عن لحظة، وليست قاعدة، ولا يعقل أن تكون قاعدة»!!

* * *

ـ وانبرى الأستاذ «عبد الله الماجد» لصديقه «علوي الصافي» ـ في نفس الصفحة التي أشرف عليها من صحيفة (البلاد) ـ وذلك في عام ١٣٩٣هـ، ونشرنا له هذا الرد على اعتراض الصافي:

ـ «هناك مثل شعبي يقول «**عمل من الحبة قُبَّـة**»!!

هذا هو السهم الذي أراد الزميل الصديق «علوي الصافي» أن يصيب به أستاذنا الزيدان في رده عليه حول هذه العبارة المتُيَّمة بالعشق، في البحث عن شيء غير موجود .. شيء لم يتم بعد، أعني عبارة: «أحسن الأشياء ما كان متبوراً لم يتم».

فالزيدان كتب حول هذه العبارة انطباعه.. تحليلاً تأثرياً في بضعة أسطر، وأتصور أن الصديق الصافي يعرف ميزان أو معيار المذهب الانطباعي في النقد الذي اتبعه الزيدان في تحليله لتلك العبارة، وهذا يعني أنه من الطبيعي أن يختلف هو والزيدان وغيرهما في تحليل هذه العبارة أو أي أثر فني آخر، وإذا عرفنا هذا، وجدنا أنه لا مبرر لإعلان الاختلاف بصيغة اعتراض.. فنحن نعرف اختلاف النقاد حول رباعيات الخيام، وفلسفة الخيام.

ونعرف الاختلاف نفسه في تحليلات النقاد للمعرِّي، ودانتي، والشيء

نفسه ندركه عندما نقرأ عدة دراسات نقدية حول روايات الروائي الأمريكي «وليم فوكنر»... بل نعرف اختلاف نقَّادنا حول نجيب محفوظ، ونعرف اختلافهم أخيراً حول روايات الطيب صالح، وبالذات حول روايته الرائعة «عرس الزين» بل حول العديد من قصائد الشعراء.

هذا كله لا يعني أنه يجب أن يتم نفس الاختلاف ـ حول سطر كتبه إنسان مبتدىء، أصدق تعبير عنه تلك العبارة التي كتبها!!

ـ المنعطف الآخر: هو أنه في الوقت الذي كان الصديق الصافي يتهم الزيدان بأنه أعطى تلك العبارة أكثر مما تحتمله، أجده يقع في الفخ، ويوجه السهم إلى صدره!؟

لقد انطلق الصافي في تبريراته، من مبدأ مباشر تقريري، استشهاداته جميعها لا تحتاج أصلاً إلى تقرير.. قررت نفسها في الأصل، ولا حجة بأي قول نقوله بصددها.

وعلى الطرف الآخر من القضية، تقف تلك العبارة هادفة إلى نواحٍ غير مقررة وليست محددة، وعلى هذا يصدق ما ذكره الزيدن حول العبارة ـ بصرف النظر عن كون من كتبها ـ المهم أنني كمتَلقٍ وجدت ما أبحث عنه في تلك العبارة في تحليل الزيدان لها.

العبارة فوق ذلك، تقفز فوق كل الحواجز، لتحطِّم علامات التوقف، وتفتح الطريق للبحث المستمر عن أشياء لم تتم، فلو وجدت تلك الأشياء وتكامل تواجدها.. لكان ذلك إعلاناً عن موت روح البحث والتوق إلى كل مجهول في نفس هذا الإنسان الذي يبحث عن شقائه، عن «المعرفة»، ذلك الصليب الذي صلب نفسه عليه»!

* * *

ـ وجاء أستاذنا «**الزيدان**» في إثر الصديقين: «الماجد» و «الصافي»، ليقول كلمته المختصرة، الحافلة بالإضاءات:

ـ «السيد الأستاذ علوي الصافي/ما صنع من الحبة قُبَّة، كما قال الأستاذ عبد الله الماجد، ففي الواقع أن الصافي كان يحاول أن يمسخ القُبَة حبة!!

يا صديقي: لو كملت كل الأشياء لما ظهر أحسنها، ولتعطَّل التخيُّل، ولا أثمر الخيال.

ولو تمت كل الأشياء، لما أخرجت لنا فناناً يكسر أوهامنا عن تمامها، إلى حقيقة ما فيها من نقص.. يُرويها لنا مبتورة، ليعيد هو لها كمالاً من إحساسه بالصورة المبتورة، ليصنع الصورة الكاملة.

إنه حين يصنع الصورة الكاملة، يفرح بتمامها.. ولكنه سيفرح أكثر حينما يرى صورة ناقصة يحاول إتمامها!

الأشياء المبتورة، بترها إيحاء.. يوحي للفنان كأنما ينحت مكنونه من وجدانه ليأتينا بفن جديد!!

لو كمُلت كل المطالب والرغبات، لما تحيَّر أفلاطون، يفتش عن المدينة الفاضلة.. ولما حلم المثاليون بالطوبى!

ألاّ تعرف أن الجنة من بعض معانيها: وصفها الحياة الدنيا بأنها ناقصة مبتورة.. كمالها يأتي حين يُبعث الناس؟!!

* * *

حـــواراتـه

موقف الأديب من التراث

ـ في عام ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م: أجرى (ملحق البلاد) برئاسة الصحافي الأديب الراحل الأستاذ «عبد المجيد شبكشي»، هذا الحوار بعنوان: (رحلة في أفكار هذا الرجل).

وقد حفلت تلك الأفكار التي طرحها أستاذنا «الزيدان» بإضاءات فكرية، وإضافات في تفتيش التاريخ، والعناية بالتراث.

* * *

ـ ما هو موقف الأديب المعاصر من التراث.. أيتجاوزه ويتخطاه، أم يستلهمه ويضيف إليه؟

ـ هناك مثل بدوي يقول: **من ليس له عرق ينبت.. لا يثمر!**

فالتراث في أي شعب: من الأسطورة، والحكاية، والحقيقة، والفن.. هي كلها عِرْق هذا الإنسان ـ أي عراقته، والأديب بهذا العرق ـ أي بالتراث.. دقَّ إحساساً!

العِرْق... أي بالتراث:

غير أنه بهذه الفوقية التي هي ميزة تشقى.. لأنه يترك ذاته ويشعر بمن حوله.. بما حوله. فماساته ينساها في بهجة الفرحة لأفراح الآخرين،

وأفراحه يحتويها بكية الترحة من أتراح الآخرين. الاخرون هم الناس.. هم التراث.. هم كل غالٍ أحس به، وكل رخيص شعر به، فالأديب لا يسترخص شيئاً من ترابه، حتى التفاهات والنفايات يعرضها مزخرفة من جمال مصدرها في نفسه، ليصدرها جميلة للذين لا يحسون إحساسه، فلا غنى لأديب.. شاعر، ناثر عن ترابه، بتراثه كان ويكون!

إن الذين يلبسون العارية، مثلهم كمثل البدوي يقول: العارية ما تغطي عورة!

ـ رأيه في أدباء المملكة:

ـ ما رأيكم في مستويات، وإنتاج أدباء المملكة؟

ـ قلت من قديم: نبغ افراد فينا لهم فضل النشر، فعلمونا أن نرى الكلمة، في طليعة هؤلاء: «محمد سرور الصبان» يرحمه الله.. قلت فيه: لم يصنع الأدب وإنما نشره، وبهذا كان خيراً من صانعيه!

ـ وجاء «عمر عرب» يرحمه الله: فعلم جيلاً قبلنا: كيف يتذوّق الشعر.. كيف يقول الشعر، فعُمر عرب رائد متواضع، وما أكثر الذين قتلهم تواضعهم!.. لكنه في حياة الكلمة اليوم يرتجف من ذكره بعض الذين جحدوا فضله.

ـ وجاء «محمد حسن عواد»: فصنع الكلمة شعراً بديعاً.. توقف إنتاجه على أن يبدع كما كان لظروف ليست من صنعه.. قست عليه الأيام بها، فكان رديفاً لعُمر عرب على صورة «مودرنية»!

إن محمد حسن عواد أراد أن يكون (مودرناً)، فابت الأيام عليه إلا أن يكون غير ذلك!

ـ وجاء «حمزة شحاته»: فكان كوصف المنفلوطي لشكيب أرسلان: لو لم يكن شاعراً مجيداً لكان كاتباً مجيداً.. إلا أنهما كفَّتا ميزان.. إذا مالت أحداهما رجحت الأخرى، ولو شئتُ أن أفخر بشاعر ابن هذا التراب لفضَّلته في شعره، وفي رصانة نثره على شكيب أرسلان.. لكن الحصر، وفقدن الحظوة جعلت من حمزة شحاته غير ما يستحق!

ـ وجاء «السرحان»: بدوي في ثوب حضري.. حضري تهتز أردان البداوة فيه. أخلط شعره مع شعر الكبار من المحدثين في العصر العباسي، كالشريف الرضي، ومهيار، وأبي نواس، فلا تجده إلا واحداً منهم.. لكن الانتشار في العالم العربي أعجزه الانحصار!

العالم العربي كل قطر فيه أناني بالنسبة للكلمة.. لا يقرأ عربي في قطر كلمة لعربي آخر، ولولا ثبات «الرحبانية» لما كان لهم هذا الشأن، ولولا ميل السياسة لأن تجاملهم لما كان لهم هذا الشأن.

واليوم يتسابقان كفرسَيْ رهان الأستاذان: الفقي، وقنديل.. هما قيمة، لعلّهما ذخر يضاف إلى ما سبق!!

غير أن «القنديل» يأتي بالمُطْرِب إذا كَرِب.. كأنَّ الابتسامة تبدو بارقة في مشاعره من خلال القتام المحيط به، أما «الفقي».. فيأتي بالمُكْرِب من حِكمة ابن الفارض، ومن إليه، إذا لذَّ له الطرب!

كأن الحياة تبدو عابسة من خلال الأضواء التي تصفق لديه وترقص حواليه!!

ولماذا أنس هذا الطراز الفريد من الباحثين لدينا، مما يحق لي أن أفاخر بهم، وهم الأساتذة: حمد الجاسر، أحمد عبد الغفور عطار، عبد القدوس الأنصاري، أبو محمد علي أبو تراب.. هؤلاء أتقنوا صناعة

التأليف، وإذا تعقبوا أحداً جاءوا بالمعجب، أعرف الكثير عنهم جميعاً، ولكن معرفتي بأبي تراب أكثر!

هؤلاء علمونا: كيف نكتب، فتعلمنا أن نكتب.

ينقصنا الآن من يعلمنا: لماذا نكتب!!

والناثرون ما أكثرهم.. لكن في الطليعة منهم مع هؤلاء: محمد عمر توفيق، وضياء الدين رجب، وعزيز ضياء، والأشبال الذين يمسكون بالصولجان الآن في صحفنا اليومية.. لا أريد أن أُخْجل تواضعهم كما يقول سعد زغلول، أو أن أطغي غطرستهم كما يهمسون، فلا أسمي واحداً منهم، عيب أن أجحف بهم.. في مقدمتهم: عبد الله الماجد، عبد الله الجفري، هاشم عبده هاشم، علي مدهش، مشعل السديري، أياد مدني.

إن عندنا أدب، عندنا شعر. عندنا إحساس مرهف. عندنا إنسان وارث للمهارة.

إن الأدب فينا يطبعنا بمهارة آلاف السنين في البادية والحاضرة، يكفي أن أدبنا هو ديوان العرب. أنْجَد أوَّلاً، وتحجَّزَ ثانياً، واستَعْرق، وتشاءم، وتغرَّب أندلسياً مغربياً، ثم تمصَّر واستعرق، ولعلّه يعود في دورة نجدياً وحجازياً كما كان.

ـ نقاط الضعف:

ـ ما هي نقاط الضعف في الأدب السعودي من وجهة نظركم؟

ـ الكسل والخوف!

يعني: أننا نملك القوة، والكفاءة، والقدرة.. ولكن تنقصنا الإرادة!

نقص الإرادة بعوامل شتى. . لعلّ انفتاحنا الوم على العالم يشجع الكسالى وينشطهم.

ـ واقع الفكر العربي:

ـ هل لكم أن تحدثونا عن واقع الفكر العربي، وهل ترون أن الأدب العربي أسهم إيجابياً في النهضة العربية بوجه عام؟

ـ كل مفكر يعيش عصره. . تؤثر فيه ثقافات رديفة، والآراء المرسلة. . كما تؤثر فيه عقائده، ومبادئه، ووحي تراثه. . فالفكر العربي يعيش في مرحلة العراك. . سواء خارج حدودنا أو داخل حدودنا. . عراك بين ما يمسك به، يثبته على أرضه من التقاليد والعقيدة، والتراث. . وبين ما هو مرسل إليه مما حوله.

هذه المعركة لا أتشاءم منها، فالإنسان العربي يمر اليوم بمنطقة الصهر. قد نخسر أفراداً. . قد تدمي بيننا معارك. . قد تنجم مشاكل، لكن الأمر هو على رأي البدوي: لن يبقى في البئر إلا حصاها!

الخوف من هذه الظاهرة: هو أن لا تكون معركة. . فلو كان الأمر سلباً ضد خوض المعركة لكان الجمود، ولو كان استجابة لكان الضياع. . . لكن خوض المعركة يقتل الجمود، ويضيِّع الضياع!

ـ أزمة فكرية في العالم الإسلامي:

ـ هناك من يقول: إن العالم الإسلامي يمر هذه الأيام بأزمة فكرية مستعصية. . ما رأيكم في ذلك؟؟

ـ لا أحسب أن جواباً عن هذا السؤال. . إلا وهو الجواب عن سابقه. . فكل الناس في هذه الدنيا يعيشون المعركة. . بين ما يُثَبِّت

أقدامهم، وبين ما يبعثر أفكارهم.. فخير ما في العالم الإسلامي أنه يخوض معركة الثبات!

ـ الصحافة.. ودورها:

ـ هل ترون أن الصحافة في بلادنا قامت بدورها كما يجب تجاه المجتمع؟

ـ في كثير من الأمور: نعم.. وفي خدمة الأدب: لا!

لكن التطور في قابل من الأيام.. سيعطينا صحافة تفعل، أو تكمل ما نقص من صحافة اليوم.

فنحن أمة.. دولة.. بلد.. بدأنا في مسيرة تتفتَّح.. تستوعب كل خير.

ـ أدب الشباب واللامنتمي:

ـ ما رأيكم فيما يسمى بأدب الشباب، وأدب اللامنتمي؟!

ـ من زمن مضى كتبت عن ذلك.. أفسر فيه كلاماً للناقد الأستاذ (عبد القادر القط).. أريد أن أعود إليه على صورة أخرى: ليس هناك أدب قطر، ولا أدب جيل، ولا أدباً نسائياً، ولا أدب شباب. هو أدب لا أكثر ولا أقل، فالشعر الجاهلي: شعر الأمة العربية كلها، والكلمة المشرقة في بيان من آتاه الله سحر البيان، وفي بيان الكبر من أمتنا، وفي نهج البلاغة، وفي بيان ابن المقفع والجاحظ.. كله عربي للأمة العربية، كلها.

كان ابن المقفع شاباً تحت يدي عبد الحميد، وكان غيره كذلك، وكان مهيار تلميذاً عند الشريف الرضى.

وكنت أنا وغيري من هؤلاء الذين تعدُّونهم: قدامى، صغاراً، أمام

حسن عواد، وعمر عرب.. وأصبحنا الآن وقد تلاحقنا.. كلنا قدامى!

والشباب اليوم تلبسونهم هذا المقاس، وقد بدأوا اليوم يتناحرون مثلنا، وبعد غد يصبحون قدامى.

إن صغر السن لا يعطي وضعاً جديداً يجعل من الأديب أديباً غير الآخرين. هذه حكاية فرَّ منها بعض العاميين الذين كانوا يتظرفون بلفظة «شبيبة».. كانت عقليتهم، فعزَّ عليهم أن يسد الفراغ. احتكارية المقام، والعمل غيرهم.

لنترك كلمة شباب وشيوخ.. إنها عامل فصام في الأسرة الواحدة.. فمن نعم الله علينا أننا شعب نشعر بالأسرية، كأننا كلنا أسرة واحدة.

العيب على الكبار منا: أن لا يفرحوا بجيل بعدهم.

والعيب على جيل بعدنا: أن ينكر علينا أنَّا جيل التجربة.. الذين تعلمت فينا الحياة كما يقول المثل.. تعلمت الحلاقة في رؤوس اليتامى!

لم نكن يتامى، ولكن كنا غلاباً!

ـ التجديد في الشعر:

ـ ما رأيكم في الشعراء المحدثين، وهل تؤيدون فكرة التجديد في الشعر؟!

ـ رأيي هو: عمل المتنبي، وابن الرومي، ومن إليهما.. سمُّوهموا المحدثين كترتيب تاريخي، زمني.. الجاهليُّون، المخضرمون، المُحْدثون.. فلقد أجاب هؤلاء بأنهم أبدعوا كما أبدع الأولون (وزادوها حبتين)!

رأيي هو رأي الشوقي.. جاء مُحْدثاً بترتيب الزمن، وعريقاً في أداء

العمل.. نضعه في صف المتنبي ومن إليه. بعض المحدثين أجاد بما لم يجد القدامى.

زارني (شنقيطي) من علماء شنقيط (موريتانيا) وبعد حديث وحوار قلت له:

ـ لقد أغرقتم أنتم أهل شنقيط أنفسكم في حفظ شعر القدامى؟!

ـ فقال: ومَنْ كالقدامى... إذا قال المُحدثون هذا البيت حفظنا لهم، وأنشد بيتاً:

لـكـنْ أخـو خَـيْـلٍ حَـمَـى صـهـواتـهـا   وأدار مِـنْ أعـرافـهـا الـهَـيْـجَـاء!

ـ وضحكت، وأردت أن أستدرجه، فقلت: أهو لعنترة.. لزيد الخيل؟! إنه شوقي وهو من المحدثين.

ـ قال: إذا قال المحدثون هكذا، حفظنا لهم.. نحن نحفظ شوقي.

هذا رأيي في المحدثين. أما إن أردت الشعر الحديث، فما كان عن شعور في قوالب شعرية، فيسعنا وأنت ما وسعنا من قول موشحات الأندلس، والشعر النبطي، والزجل وما إليها.. فالشعر كلمة قلب، ما أحسنها أن تكون في قالب!

ـ الأثر في الحياة:

ـ ما هي أبرز الأمور التي كان لها كبير الأثر في حياتكم العامة؟

ـ أبرزها: الصَّوْلة على الفشل، والتطاول على الوظيفة، والخضوع للمعرفة!

ـ الموقف المبكي والمضحك:

ـ ما هو الموقف الذي ضحكت فيه، والموقف الذي بكيت له؟!

ـ ضحكت عندما سمعت أن التي قالوا احْتَرقت قد نجت، كما لم أضحك.. لأنها ضحكة الحب الفاشل!

وبكيت عندما تأكدت أنها ماتت، كمَا لم أَبْكِ.. لأنها صنع الحب الصادق!

ـ سعيد بالنَّاس.. للنَّاس:

ـ هل أنت سعيد؟!

ـ نعم.. سعيد بالناس، سعيد للناس.

كل ما يشقي من ملابسات أطرده بالتفاؤل، وأقتله بالضحك، وأقصيه بالعمل.. السعادة أن أراها على غيري، والشقاء أن أفْتَضِح في عواطفي!

ـ أحب الألوان:

ـ أي الألوان تفضل؟!

ـ في غرفة النوم: السماوي. وحين النوم السواد!

وفي الأنثى: الأصفر على أبيض.. لون الياسمين.

أفزع من الوردي، ولا أكره السمار.. إن أرضي سمراء، وأنا أعشق هذ السَّمَار، لغتي عَشِقَتْه قبلي. لا تسميه السواد، وإنما تسميه السَّمار!

ـ هل تفضل النور أم الظلام؟!

ـ كلاهما فاضل عندي.. هذا في وقته، وذاك في وقته.. ولكني أحب الليل.. الليل ضمير يستيقظ، وعشق يبوح، النهار عمل وفضيحة!

ـ لو أردنا منك أن تُعرِّف محمد حسين زيدان.. فماذا تقول؟!

ـ طالب معرفة يحب كل الناس، ولا يكره أحداً.. وما نام ليلة وهو حاقد على أحد!!

ـ شـــعـــاري: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩) صدق الله العظيم.

ـ كم عمرك الزمني، وعمرك في ميدان البحث والتأليف؟

ـ عمري الزمني بصدق: في نهاية السابعة والستين، والإقبال على الثامنة والستين.. أدخلها في شهر رجب.

أما عمري في ميدان البحث والتأليف.. لا بحث ولا تأليف، وإنما عمري من أول يوم نمت فيه سنوات في مكتبة عامرة بالكتب.. قرأت أكثرها وأنا لم أبلغ الثامنة عشر من عمري!

أي أن عمري في القراءة خمسون عاماً!

وعمري في الكتابة أربعون عاماً!!

الحياة ما بين البداية والنهاية

ـ في عام ١٣٩٢هـ، حين كان الأديب الأستاذ «عبد الله الماجد» يشرف على «الملحق الأدبي لصحيفة الرياض».. أفسح المجال لي، لأدير حواراً متميِّزاً مع أستاذنا ومعلمنا «الزيدان».. ونشره بعنوان رئيسي، هو: (رحلة البحث عن الجواد الهارب.. في هذا الحديث بين الزيدان، والجفري).

ولأن أبعاد هذا الحوار قد إتسمت برؤية استاذنا الفلسفية، وخلفيته الثقافية المعطاء للأجيال من بعده... حرصت على تضمين الكتاب لهذا الحوار الممتع:

ـ هذا الحوار الرائع، الذي ينشره «الملحق الأدبي» يتميز بأكثر من مزية.. ليس لأنه يحطم القوالب الجاهزة التي ظهرت بها معظم الأحاديث الأدبية والفكرية، ولكنه يدير نفسه بنفسه.

* * *

ـ هذا الحوار يطرح سؤالاً فيكون جواباً، والجواب سؤالاً!

إنه حوار يطرح نفسه بنفسه، ليس هناك شيء جاهز معد، يدخل فيه المجيب والسائل.. فليس هناك سالب وموجب، الطرفان موجبان، هذا

عدا أن فارسَيْ الحوار تجمع بينهما أكثر من صفة، لعلّ أولها في نظري: أنهما يكتبان الكلمة الرائعة بلا ملل، وأنهما: يتميزان بأسلوب مميز لكل منهما، ثم إنهما يعشقان الحوار، والدليل في حوارهما هذا:

ـ **الجفري**: في الأحاديث الأدبية، أو الصحفية عامة، أسلوب قديم تقليدي أصبح مملاً، كأن أقيِّدك الآن ـ مثلاً ـ بسؤال لتجيب عليه، أو أضع أمامك أسئلة لتأخذها وتجيب عليها. أود هنا أن نعطي القارئ كلاماً جديداً. . أو يكون بيني وبينك حوار «طازه»، لهذا أرغب منك الآن أن تطرح أنت موضوعاً، أو قضية تكون مدخلاً إلى حوار يستفيد منه القارئ. . فكيف ستبدأ؟؟

ـ **الزيدان**: أنت طرحت في هذا السؤال مشكلتين. . مشكلة الكلام الجديد، ومشكلة البداية والنهاية.

هي دعوى عريضة أن نقول كلاماً جديداً، فالموضوع ليس هو الجديد في الكلمة، وإنما هو الأسلوب في توجيهها منك. . وفي الإجابة عليها، الإنسان لا جديد فيه، وإنما الجديد له يصنعه بالأسلوب. . والأسلوب من الخطأ أن نحسبه إختيارياً، بل هو قسري تفرضه عوامل شتى نعيشها. . كالبيئة، والمستوردات، والموروثات، والروافد، والأضاحيك، والمبكيات.

ـ **الجفري**: وهل البداية هي المشكلة أم النهاية؟!

ـ **الزيدان**: في أداء أي عمل «البداية مشكلة»، وفي أداء أي أسلوب: النهاية مشكلة، وإذا قيل إبتدأ، قيل انتهى. . في كل الأعمال. حتى لو تتم، فإن البداية لن تكون مشكلة، وإن النهاية لن تكون مشكلة.

أما في الكلمة. . الأسلوب، فالنهاية هي المشكلة. كلمة واحدة لا تستطيع أن تنتهي منها كأنها الرواية الكبيرة. لأن نهاية الكلمة ليست من

قائلها، وإنما من سامعها.. فلكي تعجب الرواية الطويلة قارئها ينبغي أن تحكم النهاية، لئلا تكون مشكلتك كسادها في السوق، كعمل ذهب مع الريح. ولأن مشكلة القارئ ضياع وقته بلا مشكلة يقتنع بها كأنه هو واضع الحل.

ـ **الجفري**: إذن ما رأيك أن المشكلة تكون دائماً في المنتصف، أو بتعبير الروائيين: العقْدَة، والقصة الحديثة اليوم تكاد تكون بلا بداية.. أقصد أنك حينما تقرأ قصة لا تجد بداية لها. وأيضاً لا يضع لك الكاتب نهاية تقريرية.. فهل هذا يعني: أن الحياة تبتدئ فجأة، وتنتهي بضبابية؟!

أي بعدم معرفة لمعنى تلك النهاية؟!

هذا جانب أسألك عنه.. أما الجانب الآخر: هل من رأيك أن كاتب رواية كنجيب محفوظ مثلاً استطاع أن يتخلص من الرمز في نهاية رواياته، أم أنه كان يخضع دائماً لمفهوم الرؤية من أجل الحدث.. لا الرؤية من أجل التوقع؟

ـ **الزيدان**: لا يمكن تحديد مكان المشكلة أولاً، أو وسطاً، أو نهاية.. لأنه لو قام التحديد لارتكبت البداية.

في البداية قد تكون مشكلة يحلها ويبتدئ، فلو قدر أن تكون المشكلة في الوسط لما استطاع أن يسير. إنه يتعثر/التفكير في حل المشكلة، والمشكلة هي في النهاية.. وجودها هو الحل. به تتم البداية. والمشكلة/العقدة هي مشكلة القارئ.. يفتش عليها في السرد، لكنها حل الكاتب.. قام في نفسه فمشى في أسلوبه، يُعَمِّيها حتى تظهر فجأة، فهي حل عنده. الكاتب لا عقدة عنده ولا مشكلة لديه.

ـ **الجفري**: أقصد أن الكاتب يستلهم أفكار قصصه من واقع الحياة من حوله.. فلا بد إذن أن يخضع للعقدة، وللمشكلة.. لكنه من وجهة نظرك يبلورها في حل، لكن دائماً لا نجد في الحلول رؤية حرة.. بمعنى: حرية المفكر، أو حرية الفنان، أو حرية الحياة ذاتها عندما تكون استلهاماً لكل ما هو دفين في ذات الإنسان!

ـ **الزيدان**: كاتب القصة هو الشاعر في ترابه.. أعني أنه لا يقول القصيدة كشعر.. لا يستطيع أن يبرز مشاعره فيه، فاستحالت موهبة الشعر عنده ـ أي الشعور بمن حوله بما حوله ـ إلى كلمة يكتبها في قصة. والحل الذي أريده من العقدة ليس هو الحل لكل مشكلة، إنما هو تصور المشكلة من خلال الحل الذي لديه، فيصورها لك مشكلة كقارئ.. لكنها هي الحل عنده، فالقاص ـ كشاعر ـ أو ما يشعر به من خلال تعمقه في بيئته: هو وضع العقدة، فالعقدة هي صانعة القصة، وبهذا هي حلها... تبقى مشكلة عند القارئ، وحلاً في يد الكاتب.

ـ **الجفري**: لكن القصة الحديثة ـ المترجمة منها خاصة ـ لم تعد تهتم بذلك الإلتزام الذي وضع كقواعد لكتابة القصة: المدخل، أو الدهليز، العقدة، الحل... كل القصص الحديثة اليوم تكاد تخلو من العقدة، أي أن التصوير، الاستنطاق لصورة الحياة، أو لصورة حياة إنسان.. فما هي ركائز القصة؟!

ـ **الزيدان: أولاً/ما هي القواعد؟!**

في نظري إنها مسميات لأساليب قامت كالمدارس مثلاً، فليست هناك قواعد حتمية، وإنما هي سابق سار على نهج قلده آخرون، ففقدوا هذا

التقليد فاعدة، ومدرسة فلان هي أيضاً أسلوب انتسب إليه مُقلَّدوه.. فقالوا المدرسة الفلانية.

هذه الاتجاهات تعارفوا عليها، فأمسكوا بها يفرضونها على غيرها، ولقد فرضها على السابقين الولع بالمجهول، والخوف من الغيب. والتعلق بالتراث.. أما المُحْدثون الآن فكل وَضْع حَبْله على غاربه، يُحدد له قاعدة لنفسه،لأنه قد فرغ من كل الولع، ومن كل الحب إلى شيء من الهرب.. إنهم الآن يهربون من كل ما مضى. هذا الهرب جعل هؤلاء يكتبون القصة سلسلة مقالات، لكنه حال لا يدوم لأن الإنسان إبن العشق. إبن المحافظة على كل الغوالي.. كما هو أب لها أيضاً. فالبنوَّة لها والأبوة فيه، تجعله يهرب من الهرب ليعود إلى ما يحترمه هو، أو ما يحترم منه.

ـ **الجفري**: يبدو أن الحوار تشعَّب فنسينا الجانب الآخر الذي سألتك عنه: هل من رأيك أن كاتب رواية كنجيب محفوظ مثلاً استطاع أن يتخلص من الرمز في نهاية رواياته أم أنه كان يخضع دائماً لمفهوم الرؤية من أجل الحدث.. لا الرؤية من أجل التوقع؟!

ولا بد أن يكون بين هذا السؤال وبين حوارنا حول تحديد القاعدة لفن الكاتب، أو لاستلهام الإنسان لحياته: رابط قوي يبرز فيه الإلحاح لمعرفة معالجة كل ما يتلبس حياتنا، فيجعل لها طعماً، أو يجعل لها نزيفاً!

ـ **الزيدان**: نجيب محفوظ لم يكن خاضعاً للرمز إلا بقدر تحَسُّسه لقبول الناس. لا أقول إنه كان يخاف، وإنما هو يتخطى المحاذير بشيء من الحذر.

فالرمز حِرزْ الكاتب، وجاسوسه حرزه من الناس، وجاسوسه على الناس. نجيب محفوظ قد أحسن التعامل مع التركة التي ورثها من آبائه الأولين.. ذلك لأنه إبن غير عاق لترابه.. ورث ما تركه «محمد تيمور» في أقاصيصه، والدكتور «محمد حسين هيكل» في زينب، و «توفيق الحكيم» في يوميات نائب في الأرياف، وعودة الروح بسْ!

إن زينب «للدكتور هيكل»، هي يوميات نائب في الأرياف، هي كعودة الروح، هي كزقاق المدق... هؤلاء تعمَّقوا في كل آمال شعبهم وآلامه، وعمله، وتاريخه.. فجسَّدوا حدوتة البنت حتى جعلوها حادثة الأم.

نجيب محفوظ: عاشق لازال يعيش الفشل في عشقه.. عاشق لترابه ولما ينتهي ترابه إلى ما يرجوه له. من هنا فهو كالفلاح يحرث عواطف الشعب بما ينفي قاتلات النبات، ليغرس في عقل الشعب ما يحيا به جديداً من قديم، وقديماً يتجدد.

ـ **الجفري**: هل تعتقد أن نجيب محفوظ في روايته «أولاد حارتنا» أو في روايته «ثرثرة على النيل» استطاع أن يحرث عواطف الشعب.. أم أنه كان يريد أن يُلقِّح رحم الحياة ببذور جديدة؟!

ـ **الزيدان**: سؤالك تجد الإجابة فيه.. لا يستطيع فلاح أن يغرس غرسه دون أن يحرث التراب.. فنجيب محفوظ هو الحارث والزارع.

ـ **الجفري**: أود أن أبتعد قليلاً عن حصار نجيب محفوظ لحوارنا هذا.. أنطلق معك مثلاً إلى استفهام آخر.. أن أسألك مثلاً:

ـ هل من الصعب أن نضع الأسئلة على كل عاطفة من عواطف جيلنا؟

إذا عرفنا أن عواطف هذا الجيل هي التي تضع الأسئلة، وأن الإجابة متعسرة دائماً، أو أنها تتطوح بسبب الرغبة والعجز.. بسبب القدرة والفشل.. بسبب المكسب والحصيلة الهشيم.

إننا نتساءل: كيف يمكننا أن نصل إلى جواب مقنع على سؤال واحد فقط من مجموعة أسئلة تبدأ مع إدراكنا، وتنتهي بعجزنا؟!

ـ **الزيدان:** إن الأجيال الشابة سواء عندنا، أو في كل الدنيا.. مشكلتها: ذهاب العاطفة، تبعثرت عواطفها في الجري وراء رغبات شتَّى، يريدون الإمساك بكل شيء على غير أساس من الاستعداد للحصول عليه، أو من الاستعداد الوجداني للانصراف عن كثير منه.

فالعجز ليس في تعدد الأشياء، ولا في استحالة الوصول إليها... وإنما هو في هرب الإنسان من نفسه.

إنه لو عرف نفسه، واعتز بعواطفه، لأمكن له أن ينال كل الأشياء.. ليس بالحصول عليها كلها، ولكن بالوصول إلى الأسباب المعوقة التي أعجزته أن يصل إليها!

إن الحصول على شيء يساوي الوصول إليه بنّيْله، أو بالاستغناء عنه.

حينما يعتنق هذا الجيل إدراك العجز، فعند ذلك يخطو الخطوات الأولى إلى استدراك القوة. إن معرفة العجز أوَّل تباشير القوة.

ـ **الجفري:** ماذا تعني بالعاطفة التي ضاعت من هذا الجيل؟

ـ **الزيدان:** كثيرة... الإيمان، الحب، الاقتناع ببقاء الأسرة، الإقتناع بالتواصل بين الناس، الشعور بالجماعة، احترام المسؤولية.. كل هذه أصبحت مواطن الهرب لا موطن التجمُّع.

هذه العواطف حينما تجتمع، تصبح قواماً للوطنية وللفرد.

إن الجيل اليوم يهرب من الجماعة إلى فردية مطلقة، كأنه حيوان غاب.. كأنه لا يدري أن الإنسان ما انتصر بالغابة إلا بهذه الأشياء: الكوخ كبيت الأسرة، والتجمع كقبيلة.

ـ **الجفري**: والعشق.. في تعريفك.. ألاّ يدخل في العاطفة، أم يرتبط بالشهوة والغريزة؟!

ـ **الزيدان**: في هذا اختلاف كبير.. فليست الشهوة مبرراً للعشق، وليست هي سبيله.. بل هي قاتلته.

إن الذي يعشق كل يوم، ليس عاشقاً.. فالعشق الذي كان فيه يبلغ حد الدنف لواحدة يريدها سكناً، سواء نالها بالزواج أو لم ينلها!.. فلا زال هو لها في طُهْرِيَّة بهذه الذكرى، لا ينساها ولو احترقت وهي تدق البارود لتعالج طفلة بوصفة بلدية.. إنه لم ينلها، وإنها قد ذهبت، ولكنه بقي عاشقها ولو سكن إلى غيرها.

ـ **الجفري**: أهي واحدة التي احترقت.. أم أن الحادثة واحدة وبطلاتها كثيرات؟!

ـ **الزيدان**: الاحتراق واحد، والمحترقون ثلاثة: العاشق، والمعشوقتان.. العاشق لازال يحترق، وهما ذهبتا إلى رب واسع المغفرة!

ـ **الجفري**: يذكرني كلامك بعبارة قالها أنيس منصور، استلهاماً من رحلاته الطويلة:

ـ **قال**: إذا أردت أن تحيا، فليكن لك إنسانة تعطيها كل شيء،

وتأخذ منها كل شيء.. ولذلك لا بد أن تسافر، لأن العثور على الإنسانة صعب. فهل تفسر لي مرمى الكاتب من هذه العبارة؟!

ـ **الزيدان**: لا أتهم أنيس منصور بأنه قد اقتبس هذه النتيجة الفلسفية في إيجاد الإنسان من خلال الرحلات.. فقد سبقه توفيق الحكيم حينما سرد هذه الأسطورة مقدمة لقصة سفر شاب يريد إنسانة زوجاً له فوجدها.

الأسطورة تقول: كان هذا الشاب يفتش عن زوج له، فأرهقه أن لا يجدها في محيط.. فإذا هو بهاتف في ليل يقول له: سافر وإنك تجدها أمامك.. وسافر الشاب حتى إذا ركب سفينة سارت به في البحر أياماً إلى أن أدخلته مدينة فيها قصر كبير، فوقفت حتى نزل، فإذا هو بإنسانة على باب القصر تقول له: أهلاً، لقد أتيت أخيراً واهتديت أخيراً.. فوجدها إنسانته التي يريد!!

ـ **الجفري**: هل أنت من عشاق الرحلات؟!

ـ **الزيدان**: حب المعرفة لن تجده إلاَّ في إنسان يعشق الرحلات.. سواء رحل إلى الدنيا، أو جعل الدنيا ترحل إليه. لكن الأفضل أن يكون طالب معرفة.. سوَّاحاً جوَّاب آفاق.. بهذه الرحلات يستطيع أن يعرف الأرض، والإنسان، والحياة... بدون ذلك لن يعرف إلا خبراً قد يشبع، ولكنه لا يغني.. ولكن الرحَّالة ينبغي أن يشرك الآخرين في كل ما عرف.

لكن بعض الناس يرحلون ولا يعرفون، كل حصيلتهم رؤية لا تبقى، ومشاهد لا يستفيد منها!

ـ **الجفري**: الإنسان بطبيعته توَّاق إلى القصص، لكن كما قيل: إن أغلب من كتب أدب الرحلات هو من طراز إنساني نادر.. بمعنى: أن

الذي يهضم ما رآه واستمتع به، وعايشه ثم بلوره، هو يعطي الناس ارتباط محتوى الرحلة بما في نفسه، وإن النفس تبقى صماء طالما بقي الإنسان فوق نقطة واحدة لا يخرج من دائرتها.. فما رأيك؟!

ـ **الزيدان**: هذا صحيح.. فالإنسان الرحالة يسمع، ويرى، ويسجل، ويؤرخ.. لكنه يعجز عن تاريخ نفسه... إنه لا يجد تاريخها إلا في نفسه، ولكنه قد يجد نفسه في قصة قرأها.. يجد أفكاره ورغباته وحتى مبادئه، في رحلة كاتب لم يَخْطُ قدماً واحدة إلى خارج حدوده، وإنما هو تخطَّى الحدود حينما عاش كل حياته في قصة حب لإنسانة.. صوَّر له خياله كل ما في الدنيا من محاسن أو مساوئ في هذه الإنسانة.

ـ **الجفري**: إذا سألتك الآن ما الذي تفكر فيه.. فهل تقول لي.. عن الذي يشغل بالك الآن؟

ـ **الزيدان**: سألتك عن هذا. قلت لك.. متى ينشر هذا الحوار؟!

ـ **الجفري**: هذا هروب واضح فقل لي أخيراً.. ما رأيك كحصيلة لهذا الحوار؟!

ـ **الزيدان**: رأيي لم أكوِّنه بعد، لكن أملي أن يتصل هذا الحوار مع الآخرين على صورة أكمل من هذا، لعلّنا ننطلق من توهُّم المخافة إلى يقين الأمن.. يُعطى لكلمة صادقة نرحِّب بها، أو غير صادقة نُجهر برفضها.. ليموت قهر الكلمة على أي صورة جاءت. فأنَّا لم نعد نخاف الكلمة.. فعندنا من رحابة الصدر أن نقبل الصدق، وعندنا من قوة الردع أن نقهر الكذب!!

* * *

الوجه الآخر... هو وجهه الواحد

ـ إستضفته في مجلة «سيدتي» يوم كنت أحاور شخصيات مُلْفتة، أو ذات تاريخ، عبر أسئلتي التي أقدمها تحت عنوان: «الوجه الآخر».. وقد بادأني ـ قبل جوابه الأول ـ قائلاً وهو يضحك:

ـ أنت تعرف وجهي الآخر.. ألست الرجل بهذا الوجه الواحد الذي لا يتبدل، ولا يطيق الأقنعة؟!

ـ قلت له: بلى... والمقصود هنا خصوصياتك، وفلسفتك من خلال تحليقك مع الكلمة!

ـ قال: إسأل يا «سيقور»، وسأجيبك إملاءً، كالعادة، وأنت (تُدَوْكِر) الحديث، وتبخره بعطر العرض، وعود!

* * *

ـ من أنت؟!

ـ إنسان عربي مسلم، أعيش بالناس وللناس، متفائل... سلوتي أحلام اليقظة!

ـ هل أنت الرجل الذي ركض إلى أسرار التاريخ، أم أن التاريخ هو الذي جذبك؟!

ـ التاريخ، التراث. . . حين ركضا إليَّ ركضت إليهما. تقابلنا بأنه قد كُتِب، وتعارفنا على أنه يجب أن يُفْقه. فالتاريخ الاستقراء لا حاجة إلى تغييره، والتاريخ الفقه في حاجة إلى استنباطه وتفسيره. لأن الحدث ليس هو التجسيد لواقع الحال والتشخيص له. من هنا تبدو الرواية صادقة، ولكن الصدق معها والصداقة لها أن تفقه وأن تستنبط منها الدوافع التي أحدثتها.

ـ هذا العصر الذي ولدت فيه. . هل رضيته، أم تمنيت الميلاد في عصر آخر؟!

ـ ما زلت شديد الرضا عنه، لأنه لم يحمِّلني القلق، ولم يُسقطني في بؤرة الشتات الفكري. فمهما اعتصم المثقف بما هو لديه، فإن تلاحق الأفكار وزحمة التذكير بها لا بد وأن تحدث انفصاماً ما بين ماضيه وحاضره.

رضيت الماضي، ولا أجفو الحاضر على قسوته، ولا زلت أتفاءل بالمستقبل.

ـ ماذا عنيت في عنوان كتابك وعمودك اليومي: «تمر وجمر»؟!

ـ لم أعْتَن، وإنما هو العناء. . . أتذوَّقه، أعيش ألمه، فكل ما أكتبه نفثات الصدر. . الرموز فيه فضح لحقيقة واقعة، والإيضاح فيه رمز لأمل مستقبل. فكل ما أعني به، أو كل ما يسلطه العناء هو ما أتحرى به الصدق مع نفسي، ومع الناس، وللناس.

ـ ولكننا نريد تفسيرك لاختيار تمر، وجمر، ومواءمتهما معاً؟!

ـ العربي، وفي الصحراء بالذات وهو الذخر لهذه الأمة، يعيش على

التمر وعلى الجمر التمر غذاؤه، والجمر تدفئته.. ـ فقد يحسن الجمر في سهولة العيش والإضاءة.. بنما لا ينكر العرب أنه قد اكتوى بالجمر.. فرقة، وجهلاً، وشظفاً.. فالتمر مادة في حياتنا، والجمر مدد لحياتنا.

ـ متى يبدأ الرجل في تزوير عمره الحقيقي؟!

ـ ذلك لا يحدد في وقت، فهو حين يعشق يذهب في إعلان الشباب، وحين يموت العشق، يموت الكذب ليصدق الإعلان عن العمر الحقيقي، وحين يعود الشيخ طفلاً جديداً يفرح كالطفل.. يعلن عن سنه الحقيقي.. فكما الشباب يكذب في سني عمره، فإن الطفل يتكاذب.. يعلن أنه أكبر من عمره.

ـ وهل زوَّرت أنت في عمرك يوماً؟!

ـ لو لم أكن عاشقاً عذرياً، لأجبرتني الرغبة في أن أزوِّر، ولكن العشق إذا كان نظرة، فابتسامة، فسلاماً، فكلاماً.. دون وعد بلقاء، فإنه لا يحتاج إلى تزوير. حين تنقطع الزَّوْرة فلا تزوير.. مع أنني عشقت كثيراً!

ـ متى تزوجتَ؟!

ـ تزوجت اثنتين.. الأولى عام ١٣٤٦هـ، فافترقنا، وقد أنجبت بنتاً ماتت بعد، ثم تزوجت أم أولادي التي تعيش معي الآن في شهر رجب عام ١٣٤٨هـ.. فأنجبت منها ١٢ ولداً، البنات ست، والأبناء ستة.. أعيش لهم، وقد عشت بهم، فأسأل الله أن يصلحهم لي وبي، كما يصلحهم لوطنهم إن شاء الله.

ـ ما هي حكاية الزوجتين.. وهل اختيارهما لم يكن برضاك؟!

ـ قد يكون الأمر بَيْنَ بين.. فليس هناك القسر، وليس مني الرضا كالرضا، تزَّوجت الأولى لأنها من عزوتي، فقنعت بها ولم أَجْفها يوم كانت تعيش معي.

ـ ولماذا طلقتها؟!

ـ لأبي وزوجه دور كبير.. قنعت أن أكون معهما، فحين أصبت بذات الرئة لم يجدا منها العناية، فكان الطلاق.

ـ والثانية؟

ـ رشحها لي خاطبان. جار لأهلها، والسيد ماجد عشقي، رآها تصحب أخاها الصغير إلى المدرسة، فقال لي: إن أردت الزواج، فعليك بأخت (عبد الرحمن داعوس)، وتمَّت الخطبة، وكانت الوليمة: «شاتان»، وكان المهر ٢٠ جنيهاً أي (٣٠٠ ريال مجيدي)، فأنجبت، وكانت أقدر مني على تربية أولادها، وأحرص على تعليمهم.. فقد كنت أعيش التلهِّي.. أخلص من جد العمل إلى الهزل في السهرات.. أما هي فالثبات على تنشئة الإنبات.. ففضلها على الأطفال أكثر، وعنايتي بالرجال أكبر!

ـ أسماء أبنائك وبناتك؟

ـ قد لا يستحسن ذكر أسماء البنات، كما كنا من قبل، ولكن كنت من قبل لا أستوحش من ذكر أسماء الأمهات والأخوات البنات، فبناتي هن حسب سن الميلاد: خديجة، هند، أسماء، عائشة، عفاف، سميرة.. أما الأبناء فهم: حسين، فيصل، فريد، سامي، سعود، أحمد.

ـ من من البنات ومن الأولاد أقرب إليك؟!

ـ القربى لا تستديم الزمن كله.. تارة واحدة، وتارة واحداً.. كل ذلك يأتي لا من تصرفي وحدي، وإنما من تصرف البنت أو الابن. إن النجاح أو استمرار السعادة في البيت عامل من عوامل التقريب، والآن أعيش القربى مع إبن لا أسميه، وبنت لا أسميها، لأني حريص على أن لا أسيء إلى البقية.

ـ ماذا علمت أبناءك وبناتك؟

ـ كلمة أستعيرها من الصديق عبد العزيز ساب، قال: أنت علمتنا الحب، فأنا سعيد بأني لم أجزع من أي خلاف وقع بين الأبناء، ثم علمتهم أن يكونوا رجالاً، وأن تكون البنات أمهات، حتى أني ـ وكل منهم ومنهن يعيشون ويعشن بعيداً عني ـ لم أسألهم يوما عن ما ملكوا أو ما استهلكوا.

ـ وكيف عاملتهم؟

ـ بالحنان والعطف أطفالاً، وبالصداقة حين كبروا.

ـ وماذا يتعلم الجيل المعاصر.. من الجيل القديم؟

ـ زحمة الحياة، والقلق المتسعِّر، والسّعار المشتعل.. أحدث الفصام بين الجيلين، وشر من ذلك أحدث الفصام في بعض الأسر!.. ولكني أتفاءل حينما أعتقد أننا نمُرُّ بمرحلة الصهر، فسيعود الجميع إلى علاقة طيبة يعرف بها الجيل الجديد قيمة الجيل القديم... فالجيل القديم أب ـ سواء كان بالولادة، أو بما بناه من العلم وبما رسَّخ من الآمال ـ فالجفوة طارئة، والصفوة قادمة.

ـ بمعنى أنك لا تخاف على جيل المستقبل؟

ـ الخوف لا بد منه.. فإنه إذا ما ترسَّخ دعا إلى المقاومة لطرده. فأيما إنسان لا بد وأن يشعر بالخوف، ولا تكمل إنسانيته، ولا تُبنى حياته إلا إذا استطاع مقاومة الخوف.. فهذه المقاومة بناء للشخصية، يبني بها المستقبل. أنا لا أكره أن يتسلط الخوف إذا كان يدق ناقوس الخطر، لنعمل على إيجاد المقاومة.. فالعيش الهنيء بلا خوف: نوم، استكانة.. أما الشعور بالخوف فإنه يأتي بالتحرك ضده لينتصر الإنسان.

ـ أعز أصدقائك.. وأقربهم إلى نفسك؟!

ـ في الماضي: أستاذي السيد حسين طه، وزملائي محمد سالم الحجيلي، ومحمد أياس توفيق، يرحمهما الله ومحمد نيازي.. وفي التالين: السيد ياسين طه، ومحمد عمر توفيق ومحمد إياس توفيق، وعبد الله عبد الرحمن الجفري، وعبد الله الماجد، و... «ماسحة البلاط»!

ـ من هي ماسحة البلاط؟!

ـ تلك إحدى بنات الثلج.. كتبت مقالاً عنها، أصبح في مجموعة كتابي «صُور». عرفتها كلها بالنظرة العشواء، وما ذقت بعضها بعضاً بالعفة العذراء. أحيتني وهي القاتلة وأسعدتني وهي المُشْقية. حين عرفت أنها أم طفل جعلت نفسي أباها، وجعلتها أمي!.. كم أود أن أراها تغتسل بالثلج، ليفوح عطر الياسمين.. فالجمال عندي ليس البياض المُورِّد، وإنما هو البياض المُزَعفَر بصفرة الياسمين.

ـ ما هو العلم الآخر الذي حاز اهتمامك، ووددت لو درسته. ولماذا؟

ـ هو علم الهندسة.. لأني صاحب خيال، والمهندس حين يلبسه الخيال يُعمر. إن الهندسة عملها يكسب جماله من اسمه.. كأنما هندس تعني هندم. فالهندمة زخرف المهندس، وإذا زاد على العلم الخيال بشيء

من الذوق.. أصبح المهندس فناناً.

ـ ما الذي جمع فيك: المؤرخ، والنسابة، والأديب، والعالم، وكاتب الكلمة المجنحة؟!

ـ طفولة البداوة، وعشق الكلمة من فرسان القبائل، وحب التراب الذي نشأت فيه، جرَّني كل ذلك إلى أن أعشق «البطل»... فالبطل مفتاح التاريخ، والتاريخ لأي أمة هو صانع بطلها، وإن كان البطل يضيف إلى التاريخ صناعة جديدة في تاريخ جديد، هو منه، هو به، ولن يكون إلا إذا كان البطل عاشقاً مُدْنفاً لماضيه وحاضره ومستقبله.. فحينما يخلو البطل من عشق ذلك يصبح باطلاً!

ـ ما هي قضيتك الخاصة كإنسان؟

ـ وقد أصبح الشيخ طفلاً، فإن قضيتي أن أتمنى أن أُحرم مما كنت أتمنى الوصول إليه من قبل، فاليأس إحدى الراحتين.

ـ وقضيتك العامة؟

ـ هي ليست ما أتظاهر به من التنديد بإسرائيل وأعوان إسرائيل.. وإنما هي التنديد الذي لا أستطيعه بما عليه العرب الآن. إن التنديد بالأعداء هو رفع المسؤولية عن الأصدقاء!. قضيتي هي قضية الشعب العربي كله الذي لم يَنَمْ من هول ما هو فيه، وإن تناوم مما يفعله بعض منْ هم فيه!

ـ الحب في الزواج.. هل هو عِشْرة، أم عاطفة، أم تعود؟!

ـ ليس لذلك قانون.. قد يكون الزواج حباً لرؤية سابقة، وقد ينمو بالمعاشرة كما قد يموت بها.. فالأحوال تتعدد.

ـ ما رأيك في الزواج هذه الأيام، والعلاقة بين الشاب والشابة داخل بيت الزوجية؟!

ـ الزواج الآن يتعثر بعراقيل، ليس منها غلاء المهور، وإنما منها: صعوبة السكن، والإسراف في الحفلات، والتباهي في ذلك، وغلاء الأثاث.. وكل هذا يمكن التعادل به أو تعديله، ولكن الغيرة المصطنعة في الشباب، تراه يجفو بنت بلده لأنه لا يرضى عن سلوكها، مع أنه لو تحرَّى لعرف أنها على طُهْر وعفَّة، ولكنه وقع فيما وصفه الدكتور رشاد رشدي في بعض رواياته، قال على لسان الفتاة تقول لخطيبها حين انفصل عنها: «أنتم يا رجَّالة تتزوجون زوجات غيركم، وتتركون زوجاتكم»! إن هذا من الغفلة بمكان.. فهو حين يتزوج الأجنبية لا يعرف عنها شيئاً، فحين عرفها معرفة سطحية، لم ينغِّصه الشك الذي عاشه مع بنات أرضه. عملية فيها الفصام حدث منها الخصام، فالشاب أصبح خصم نفسه، ومن هنا، وبهذا الفصام، كثر الطلاق.. عمل لا بد له من توعية، ولعلّ الصدمات فيه التوعية الأكبر.

ـ عقلك أم قلبك.. تريده الذي ينتصر بك في مواقفك الإنسانية؟!

ـ في موقفي مع الناس أرجو أن يتوازن عقلي مع عاطفتي، بل أفضل أن تنتصر العاطفة، أما مع نفسي.. فحالة أريد أن ينتصر بها العقل في علاقتي مع الأسرة، وتارة أريد أن تنتصر العاطفة في تعلُّقي بالأسرة.

ـ دور المرأة في حياتك.. ما هو، وإلى أي مدى؟!

ـ المرأة كما قلت أكثر من مرة هي: الأم، والأخت، والبنت.. هي بكل ذلك عندي قدِّيسة.. يخدع الرجل نفسه إذا ظن أنه يكدح في سبيل العيش أكثر من كدْح المرأة في توطيد المعيشة، فالرجل جالب العيش،

والمرأة تصنيع العيش. كنت أقول أن الأمومة غريزة، والأبوة رغبة.. فإذا بي أسمع هذا الكلام بالحرف الواحد في أحد الأفلام! فالأمومة يجب أن تحترم، والأبوَّة يجب أن تتعقل!

ـ ماذا تسمي الجيل الجديد؟

ـ أسميه «الجيل القرفان».. ينعم بالترف، ويعيش بالقرف.. أو هو الجيل المتعثر أمام الرغبات.

ـ ماذا تريد أن تُنبت الأرض؟!

ـ أريد أن ينبت فيها الحب والوئام.. فالأرض لا تنبت نباتها إذا لم يكن فلاحها يحبها.. ومن الغريب أن الأرض تحب ابنها الإنسان، وقليل من الإنسان من يعشق أرضه.. العشق المُعمِّر.. العشق المُؤمِّن، يبذل نفسه في الدفاع عنها.

ـ وماذا تريد أن ينبت عقل الإنسان؟!

ـ إن عقل الإنسان من العصر البدائي إلى العصر المدني الآن قد أنبت ما عمَّرت به الحياة، وما اعتلت به الحياة.. كأنما كل ما هو الآن تنمية للعقل لتبرز منه أعاجيب.. فعقل الإنسان قد انفتح أمامه الطريق بالعلم، وبالتجربة، فهو حين عرف أن إبراز مكنون ما في الطبيعة هو معالجتها بقانونها، أصبح الأسلوب، عظيم الإنتاج.

ـ في أي جهة من الرأس.. يكون العقل؟!

ـ أنا لا أستطيع التحديد بالتعريف العلمي، ولكني أعرف أن المخ مركز العقل، وقد جار العلماء على القلب فقالوا: إن الدماغ هو مركز الحب.. فالمخ عجب العجائب في هذا الإنسان.

ـ لو طُلب منك أن تتنازل عن قلبك لإنسان.. فلمن تعطيه؟!

ـ سؤال تصعب الإجابة عليه.. لأن قلبي عزيز علي، ولأني لا أجد من هو أعز مني ليأخذ قلبي، إلا إن كانت ماسحة البلاط!

ـ من هو الشاعر الذي تحب قراءة شعره، ولماذا؟!

ـ المتنبي وأبو نواس بالأمس، ونزار قباني، وعمر أبو ريشة، وشوقي اليوم.. فالمتنبي تفوق بالطموح، يعلمنا أن نكون الطامحين. ونزار جعل من الشعر القيد انطلاقاً، ومن النثر الانطلاق قيداً!

ـ أين تجد قمة الحب؟!

ـ في الأمومة.

ـ وأعمق من الحب؟

ـ التضحية في سبيل الحب.

ـ وأقوى من الحب؟

ـ الموت.

ـ من هي أشهر امرأة؟!

ـ في التاريخ الإنساني «مريم»، وفي التاريخ الإسلامي «خديجة بنت خويلد»، وفي التاريخ المصري شجرة الدر.

ـ من هي أجمل امرأة في حسك؟!

ـ المحترقة.. كانت أول حبي، وما زالت كل حبي، رغم ماسحة البلاط.

ـ من هي أجمل امرأة في رأيك؟

ـ أمي.

ـ وأقوى امرأة؟!

ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان التي آمنت رغم أنف أبيها، وهاجرت وهي من عِلْية القوم، فأنعم الله عليها بأن تكون أم المؤمنين.

ـ وأحقر امرأة؟

ـ إمرأة لوط.

ـ أهم ما تطلبه أنت كرجل من الأنثى؟!

ـ الحنان.. عن حب أو رعاية.. فالطفل أنا قد فَقَدت أمي، فأصبحت عاشق الحنان .. مصنوع الحنان.

ـ لو أردت أن تختار أعلى قمة جبل.. فما هو ذلك الجبل، ومن تنادي عليه من فوقه؟!

ـ إنه جبل حراء.. وأنادي: وإسلاماه.. واعروبتاه!!

ـ كيف ترى الروابط الأسرية في المجتمع العربي اليوم؟

ـ ليست على ما ينبغي.. الأب يبتعد عن أبنائه بمشاغله أو برغباته، والأمهات ابتعدن، فأصبح الطفل هو «إبن البزَّازة»، والمطبخ سندويتش في الثلاجة. إن الأسرة قد استوردت معيشتها الآن من ما هو واقع في الغرب.

ـ من هي الشخصية التي فتنتك في التاريخ الإسلامي؟

ـ بعد رسول الله ﷺ «أبو بكر الصديق»:.. لأن هذا الإنسان البكَّاء الذي لم يكن ذا عضل، قد صنع في ثلاثين شهراً أعجوبة الدهر: وحَّد

الأمة بعد الرِّدة، ووضع قواعد الفتح فهو صانع الفتح العظيم.

ـ وفي التاريخ العربي الحديث؟

ـ عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.. حيث رد الاعتبار إلى جزيرة العرب.

ـ وفي العالم؟

ـ كُثْر .. على القمة غانْدي.

ـ أين تقف القوة من الحق؟

ـ القوة نصير الحق، ولكن الحق قد يخذلها إذا كان أصحابها من المُبْطِلين.

ـ من هو المؤرخ؟

ـ المؤرخ اثنان: إبن خلدون، وأبو خلدون (ساطع الحصري).

ـ من هو الفدائي؟

ـ الجندي المجهول يوم الكرامة.

ـ ما هو تعريفك للسياسة؟

ـ الكذبة الكبرى!

ـ كيف تطبَّق العدالة اليوم؟

ـ حين اجتمع جمال الدين الأفغاني بالفيلسوف البريطاني «هربرت سبنسر» سأله الفيلسوف: ما هو العدل؟.. فقال جمال الدين: يوجد العدل حين تتعادل القوى!

لقد فُقِد العدل الآن بظلم الأقوياء للضعفاء (والظُلم من شِيَم النفوس،

فإن تجد ذا عفة فلِعلَّةٍ لا يظلم)!

ـ هل نحن أمة رومانسية.. أم أمة درامية؟!

ـ حين كنا رومانسيين تفوَّقنا، لأن الحب والغزل كانا فروسية.. وحين تراكمت المآسي، أصبحنا أمة درامية.. نبكي على المسرح ونضحك في الشارع!

ـ الكاتب الذي تريد أن تقرأ له ويستهويك؟!

ـ هما اثنان.. فواحد لا أعرفه، ولكنه يُصبح المعرفة لي بما يجيد فيما يكتب، والثاني أعرفه صادقاً فيما يكتب، لا يسرق ما كتب غيره ينشره على الناس.. فالكاتب الصادق من معارفي هو الخفي عني.

ـ والكاتب الذي احتقرته بعد أن قرأت له مرة واحدة؟

ـ واحد أسميه هو «لويس عوض»، وواحد لا أسميه.. الذي ما زال يسخر بالقرَّاء.. ينشر عليهم سرقاته.

ـ هل أنت راضٍ عن نفسك؟!

ـ لست مغروراً حتى أرضى عن نفسي، ولكني ولله الحمد حيث أثق بنفسي أتمتع ببعض الرضا، لا كُله.

ـ ما هو مصدر قوتك؟

ـ قلتها.. إذا شتمك قوي فليس ذلك سبًّا يُغضبك، وإنما هو تسخير، وإذا سبَّك ضعيف فذلك إستجداء ترحمه.. أما إن سبَّك النديد فتلك شتيمة أقاومها.. فالاحتمال هنا قوة، والضعف أمام الضعيف قوَّة!

ـ وما هي نقطة ضعفك؟

ـ نقطة ضعفي عند الوارثين: أني لا أحفل بالمال!

ـ ومصدر خوفك؟

ـ مِنْ عجز الشيخوخة.

ـ ما هي هوايتك الآن؟

ـ الكتابة والقراءة.. أستقرئ ما يُقرأ، فلا زلت عاشق الكتاب.

ـ ما هي الكلمة التي تقولها بصوت مرتفع.. ولمن؟

ـ يا أمان الخائفين.. ويا مُخيف الآمنين.. أتحدى بها قوة الظلم، وظلم الأقوياء.

ـ والكلمة التي تهمس بها، وفي أذن من؟!

ـ أهمس بها في أذن صديق أستجديه قائلاً: «لا تجفو شيخوختي، فالشيخ الطفل في حاجة إلى صداقتك»!

ـ ما الذي عكس المفاهيم والمعايير في عصرنا هذا؟

ـ السعار إلى المال.

ـ لو أردت أن تُعِّبر لأنثى جميلة عن شعورك.. ماذا ستقول لها؟

ـ كان محمد عمر توفيق يُمَازحني، حين كان يسمع مني: إذا رأيت الجميلة، أقول ما شاء الله، تبارك الله أحسن الخالقين!

ـ متى تفقد المرأة اهتمامها بالرجل؟

ـ حينما تسترجل.

ـ ومتى يفقد الرجل اهتمامه بالمرأة؟

ـ حينما تسقط الفحولة!

ـ الصوت الذي تحب سماع غنائه.. ذكراً وأنثى؟

ـ كان في القديم «أم كلثوم»، وجديداً الآن «فيروز» و «ياسمين الخيام»، أما الرجل فلم يتغير.. فهو محمد عبد الوهاب في القديم من أغانيه.

ـ الأغنية التي تفضلها دائماً؟

ـ من أم كلثوم «سَكَتِّ والدمع أتكلم»، ومن فيروز أغنيتها عن القدس، ومن ياسمين الخيام «أرض الفيروز»، ومن عبد الوهاب «الهوى والشباب والأمل المنشود ضاعت جميعها من يديا»!!

ـ ما هو اليقين؟

ـ اليقين هو اعتناق الحب، ومقاومة الباطل.

ـ أكمل معنا العبارات الآتية الناقصة:

ـ سيرة بطل: كتاب لي.. أصدرته قبل أعوام، والقصد منه توعية القارئ والسامع بسَيَر أبطال الإسلام الذين صنعوا التاريخ، وجعلوا منه الأمة العربية.. الأمة الوسط والوسيط.

ـ التراث العربي: يحتاج إلى تجديد العرض له، وحبذا لو يفصل في كتب الجيب، وحبذا مرة أخرى لو يُجرَّد من العنعنات، لأن وقت القارئ لا يطيق إتساع التطويل وطول التراجم.

ـ شعوري أنني جَدْ: يعطيني السعادة حين أرى الحبيبة من الأحفاد، والذكي من الأبناء.

ـ التوازن بين الحقوق والسياسة، والحقوق المعاشية هو: في كفاءة الذين يملكون القوة في إدارة السياسة وتنظيم العيش.. فالكفاءة هي التي

تصنع التوازن، فالقوة بلا كفاءة.. لا شيء.

ـ المرأة العربية اليوم: أبعدت نفسها عن مسئولية الأمومة!

ـ من هو «أبو رغال» هذا العصر؟!

ـ أبو رغال مضى وانتهى، وإبن العلقمي سقط، ويوسف خنفس انتهى، ولكن... إبتدأ الآن أبو رغال آخر، لا يقود الأعداء لهدم بناء الأمة، وإنما هو الذي يقود للأعداء دماء الأمة!

ـ من أين ترعف السيوف؟!

ـ حين يصون الفؤاد رعافه، وتستبيح رعاف الأعداء.

ـ بطاقة.. لمن تبْعثها، وماذا تكتب له فيها؟

ـ إلى إنسان لا أعرفه، وأريده أن يعرفني.

ـ إلى زعيم يُعلِّم شعبه صناعة الموت.. لا يقود المعركة وراء الخط، وإنما يتصدر المعارك!!

* * *

دمعتـــه!!

ـ قلت له يوماً: إن البكاء هو قمة الحنان!!

وحين جاءني النعي بخبر موته.. تحجَّرت الدموع في عينيَّ، حتى رأيته: نعْشاً محمولاً على الأعناق.. فاستمْطرت عيني دموعها.

شعرت في تلك اللحظة بهذا الحنان المكثَّف في دمعة انزلقت من عيني.. ونا أرى نعش هذا (الإنسان) الذي عاشرته في زهوة عمر، وطموحات شباب.. فأرغد فكري، وشذب عنعنات نفسي، وسقى جفاف الألم.. فكان بالنسبة لي: يمثل (الوجود) الذي يشرع لي نوافذ الضوء، ويفتح ستائر الأمل، ويدعوني لرؤية الأبعاد على امتدادها الأرحب!

ويبقى البكاء ـ في مثل هذه المواقف ـ هو: عنوان رحلة الحياة، التي يبدأها الإنسان بصرخة، وينهيها بدمعة منه، أو عليه.

وأذكر مما كان يرويه لي، ويحدثني عنه: أن أديب العربية الراحل (مصطفى صادق الرافعي) يبكي كلما انتهى من كتابة مقال، أو مقطوعة شعر، ويقول:

ـ إنني أرثي كلماتي الآن.. فالكلمات بمجرد انتزاعها من القلب، والتقاطها من الفكر .. تتحول بعد قراءتها في عيون الناس إلى: انعدام..

برغم الإدِّعاء القائل: إن الكلمات تبقى، ولا تموت.

* * *

ـ وأجد أستاذي «الزيدان» في كثير من الدقائق، و الساعات التي أقضيها بصحبته: مستمعاً، مصغياً لأحاديثه، وكلماته... وهو (يبكي) فجأة!!

كان سريع البكاء... أو أن دمعته متجاوبة مع: أحاسيسه، وانفعالاته.. بل مع: جذوره، وانتمائه، وغضبه، وحزنه، وفرحه!

وأكثر من ذلك: كانت دمعته سريعة التجاوب، بمجرد أن يذكر موقفاً من التاريخ الإسلامي، أو يحكي عن بطل من الإسلام.. يبكي بنشيج!

دمعته تسقط أسرع، كلما تحدث عن أمته العربية، وكلما استرجع صفحة من تاريخها الماضي المضيء بالأمجاد، أو المعَفَّر.. وقارنه بصفحة جديدة من التاريخ المعاصر!!

دمعته ـ وحدها ـ لها أكثر من موقف، وحكاية!

وأكثر ما استقر في ذاكرتي، بل وحفر أضلعي.. ما عاصرته معه، بعد تركه (لوظيفة) رئيس تحرير صحيفة، كما كان يسميها، وآخرها: رئيس تحرير (الندوة)... فكنت أسعى إليه بعد عصر كل يوم، وأستمتع بصحبتي له في عربتي.. ننطلق بها إلى (طريق المدينة) قبل إحداث الكباري.. ونتحدث على امتداد الطريق، وعلى الخطوة الهُويْني... فيضحك ويبكي.. يعبس،ويبتسم..يقول: الحكمة في كلمة، ويتغنى بالشعر، ويتلذّذ بالحوار عن الحب!

كان يفرح كثيراً عندما يجد أمامه (محاوراً) متَّسع الأفق، متنوِّع

الثقافة، حفيًّا بالكلمة.. فأسمعه ـ لحظتها ـ يقول كلماته المجنحة، كأنه يعزف على آلة موسيقية ببراعة.. ويحلل، ويستطرد في دفق المعلومات من ذاكرته!

***

ـ يوم استشْهَدت عروس الجنوب (**سناء محيدلي**): بكى بحرقة.

وبحث عن صورتها، وأخذها بنفسه إلى استديو تصوير، وطلب تكبيرها، وعلقها على جدار غرفته الخاصة!

ـ يوم استشهادها قال لي بغُصَّة الدمعة:

ـ هكذا ينبغي أن يخُطَّ العرب المعاصرون تاريخ نضالهم ضد: الاستعمار، وضد القوة التي تحمي الاستعمار، وضد كل أسخريوطي يبيع وطنه للاستعمار!!

***

ـ كان يوماً يبكي في مكتبي، وهو يملي عليَّ مقالاً له عنوانه: (التاريخ يتحدى.. والواقع يتصدى).. ثم لم ينشره حينها، حتى قرر بعد فترة، أن يعطيه لإحدى الصحف، فذهب إلى مكتبها لإعادة إملائه من جديد!

ومن خلال دموعه.. قال لي:

ـ تعرف؟!.. إن الكلمات التي لا تموت.. هي تلك المتصلة بدموعنا الهادئة، كلما قلنا كلمة صدق، وكلما فقدنا قيمة في إنسان أهدرها، وكلما فقدنا الغوالي.. من الناس، أو من المواقف!

ـ قلت له: أتذكَّر كلمة قالها الروائي العالمي (تولستوي) عن الدموع.. يقول فيها:

ـ نحن لا نبكي من القسوة.. بل نبكي من أجل الحنان!!

* * *

مواقف له، وعنه، ومعه

ـ أيها الوطن: لا بد أنك تبكي (إبناً) من أبنائك المميَّزين: عَشِقَك حتى آخر أنفاسه، وتجذَّر انتماؤه لك من خلال دموعه، وكلماته.

لا بد أن دموعك ـ أيها الوطن ـ تنساب الآن من خلال عيون كل الذين أحبوه، بعد أن كانت دموعه هو: تتدفق مدرارة، كلما تحدث عن موقف في تاريخك الإسلامي العظيم.

ولم تكن دموعه صامتة.. بل كانت دموعاً: شاهقة أعلى من ناطحات السحاب.. حارقة أفظع من الجمرة... مشعَّة أكثر من الضوء!

ـ مفتاح شخصيته: الحبُّ.

ـ ركائز هذه الشخصية كانت تقف على قاعدة: الفضيلة، الحق، الجمال!

ـ يحلو له أن تنعته بكلمة: أيها الرجل (العُمَريُّ).. فقد كان محباً للخليفة العادل: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واستشهد في كثير من آرائه، وصوره، ومقالاته، ومحاضراته.. بمواقف «عمر بن الخطاب».

ـ قال لي: لقد كان «عمر» شديداً في الحق، صارماً في التشريع.. كثير الشفقة والحنان!

(لم يكن يؤرخ... ولكنه كان يسجل الحدث، ولا يُمَنْهجه، بل يُقولبه، حتى يصيغه بأبعاد متعددة).

أسلوبه في الكتابة: العبارة القصيرة المكتملة التي لا بد أن تضع في نهايتها نقطة.

عبارته: لم تكن مفتوحة، كما نسمي نهايات القصة القصيرة الحديثة!

أسلوبه: سهل، ممتنع.. يستخدم فيه أحياناً: اللفظ البرقي، لكنه يصوغه في عبارة أدبية،

ذاكرته: قوية وحافظة.

* * *

ـ في أي مكان يذهب إليه.. حتى لو دخل إلى بقالة، فإنه يتحدث إلى من يقابله.

أي إنسان يقف للسلام عليه، أو يسأله، أو هو يسأل البائع.. فيطرح سؤالاً رئيسياً لديه، يبادئ به الواقف أمامه، قائلاً:

ـ منْ الأخ... من أي منطقة في الكيان الكبير؟!

ـ أو يقول: مَنْ الأخ.. ما هي قبيلتك؟!

ثم... يتولى هو عن الذي سأله إعطاءه التفاصيل عن: قبيلته، ونسبه، وجذوره.

* * *

ـ لم يكن يخطط لحياته... كأنه يعيش أبداً، وإن كانت آثاره ستبقى من بعده.

لكنه كان يكتفي بيومه للناس.. ويكتفي بلحظته لشعوره فيها بالعطاء للآخرين، وبالفرح للآخرين.. أكثر مما يفرح بنفسه، أَو لَها!

* * *

ـ من كلماته الضاحكة / الساخرة:

ـ أحسن طريقة (للإعلام) الحديث.. تجدها فيما يفعله هؤلاء (المشَّاءون)!!

* * *

ـ خصوماته الأدبية: كان فيها يترفّع عن الشتم، والتعريض، والنيل ممن اختلف معه، ويردد عبارة شوقي الشعرية: إختلاف الرأي لا يفسد للود قضية!

ـ ويضيف: إن هذا الذي عرّض بي له عيوبه، وأنا أيضاً لي عيوبي الأكثر منه!!

* * *

ـ كان يغيظني في بعض الأحيان، عندما يدخل إلى مكتبي، وأنا مشتاق لحواره الممتع، ولرؤيته الأبعد لفكره، وبتحليله.. أو أنتظره لأقرأ عليه موضوعاً كتبته، لأستزيد من رؤيته وتعديل بعض الكلمات أو تبديلها!

فيفاجئني بعد ربع ساعة ـ لا أكثر!! بالوقوف، ميمِّماً نحو الباب.. يلاحقه صوتي قائلاً:

ـ يا أستاذ.. لم تسترح من السلالم.. أريدك في موضوع.

لا يلتفت.. بل يترك صوته وراءه يردد:

ـ لن أغيب عنك.

كان لا يطيق الجلوس في مكان واحد فترة طويلة من الزمن.. حتى لا يثقل على الآخرين!!

❊ ❊ ❊

ـ هو: تشكيل حي.. يجسد حقباً تاريخية عديدة.

هو ـ أيضاً ـ : لوحة رائعة.. ذات أبعاد في ظلالها، وألوانها، وإضاءتها... مستمدة من أزمنة الوعي!

❊ ❊ ❊

ـ كنت ألح عليه في تسجيل حواراتنا معه... فيضحك، ويقول:

ـ بعدين... ستسأم مني.

وكنت أعرض عليه: ساعة من نهار أو مساء.. يتحدث هو: وأكتب أنا.

لكنه تَعِب... حينما لم يعد لديه حافز!

❊ ❊ ❊

ـ حياته: أوديسا حافلة!

ـ الحب ـ مفتاح شخصيته ـ ربط بينه وبين عدة ركائز هامة:

ـ بينه وبين الوطن.

ـ بينه وبين الكلمة.

ـ بينه وبين الحق، والحقيقة.

ـ بينه وبين التاريخ.

ـ بينه وبين (أنساب) من كان يتحدث عنهم، ومن كان يخاطبهم في كل لقاءاته وخطبه.. وهو يستهلُّهما قائلاً:

ـ أهلي، وعشيرتي!

* * *

ـ كانت كلماته التي يرسلها إلى سمعي.. تشدني حكمتها، ويجذبني التجنيح فيها.. فقد كان يكتب كما يتحدث عن: التجربة، والخبرة، وبراعة المعلِّم.. فكيثف في نفس قارئه وسماعه: أصداء الحنين إلى الماضي... وكان يصوغ العبارات التي (أتعبتني).. ليس في فهمها، بل في الامتلاء بمعانيها!

كان في شجونه: نغماً حزيناً.. متلع النجوى.

وكان في شؤونه: حصاد عمر.. عامر بالدرس، وبالمعرفة، وبالأستاذية.

ورغم علمه الذي كان يفيض.. لم يكن يتسرع في أجوبته على الأسئلة الكثيرة التي يوجهها إليه قرَّاؤه.. وكان يردد: نصف العلم.. لا أعرف!!

وهذا (التواضع) فيه: رفعه أكثر من غيره إلى مصاف المثقفين الكبار، الذين علموا الكُثْر من تلامذتهم!

موته: كرَّس اليُتْم في حياتي للمرة الثالثة، بعد أن فقدت أمي وأنا

رضيع، وفقدت أبي وأنا ناضج، وفقدته اليوم وأنا وحيد من عطائه، وفكره، وأبوَّته.

إفتقدته في ركائز أساسية لحياتي:

ـ فقد كان الصديق المؤتمن، والأذن التي تصغي لي في كل الأحوال.

ـ وكان الصدر الحنون الذي يحتوي أرقى، وهمومي، وأسئلتي.

ـ وكان مخزن أسراري التي أقف أمامها وأبوح.

ـ هو الذي علَّم عقلي الطريق إلى الحوار، والتفكير، والرجاحة.

ـ هو الذي غذَّى فكري بالقراءة على درب الثقافة.

ـ هو الذي هدهد مشاعري بالتلقي منها، ومجاراته في شجونها حتى تهدأ.

* * *

ـ وهكذا أصبحت اليوم يتيماً..

وأعرف أن أبناء الزيدان كُثْر.. من الذين تعلموا على يديه، ومن كتبه، أو من مقالاته، أو مدرسته.

إنه كان يردد على المميَّزين في الأخلاق أولاً: هذا من بقية الناس.. لأن (لناس) بمعنى الإنسانيين قد ذهبوا!!

أما هو.. فأقول عنه: هذا هو آخر الناس!!

يرحمه الله.

* * *

كلمات . . ذاعت

ـ من الكلمات التي أبدعها الأستاذ (محمد حسين زيدان)، ولاقت أصداء واسعة لدى القارئ المتلقي، وذاعت، وانتشرت، واستعارها الكثير من الكتّاب، والصحافيين:

ـ الكيان الكبير: أطلقه على بلده المملكة العربية السعودية . . اعتزازاً، وانتماءاً، وفخاراً بتجربة (الوحدة) العظيمة الثابتة.

ـ التلفاز: بدلاً من التلفزيون.

ـ المذياع: بدلاً من الإذاعة، أو الراديو.

ـ المجتمع دفَّان/ ولا بد لك أن (ترعص) حتى لا ينساك الناس . . . فقد أصبحت ذاكرتهم ضعيفة، أو هي كالغربال، لا تحتفظ بشيء!

ـ شباب القلب/قلب الشباب!

ـ ينقصه الذي يُنغِّصه!!

ـ وكان يقصد من هذه الكلمة، معنى: وجود المرأة في حياة الرجل ضروري . . ورغم ذلك، فهي لا بد أن تقوم بما يُنغِّص دَفْئَه بها!!!

ـ هندسة الكلمة في موسقة الكلمات . . أراحتني من غَرض أسعى وراءه، أو من مُغْرِض يجري ورائي!

ـ زيد الشيخ كاسَهْ/يقولها ضد السادرين في الغرض والهوى، ولا أمل في إصلاح اعوجاجهم، أو إفاقتهم من الغيْ!

ـ بعضهم: تضع أصبعك في عينه . . ورغم ذلك يشعرك أنه لا يراك!!

ـ أرمي عليه كف رز/تأمنُه!!

ـ وهناك كلمات.. كان يستعيرها، ويلحقها بقائليها، ويرددها... ومنها:

ـ قيل لتشرشل/رئيس وزراء بريطانيا ـ الإمبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس:

ـ لقد سقطت أندونيسيا... فقال: وستسقط غيرها**!**

وفرق بين السقوط الذي كان يومها، والسقوط اليوم**!**

ـ كلمتان لسعد زغلول:

ـ تُهمة لا أدفعها، وشرف لا أدَّعيه**!**

ـ أعذرني لهذا الإطناب.. فليس عندي وقت للإيجاز**!**

* * *

أبيات كان دائم الترديد لها

ـ ولو أني حُبِيت الخُلْد وحدي لما أحببتُ بالخُلّد انفرادا

ـ أحمد شوقي

ـ ويدل معنى هذا البيت على: شعوره بالوحشة عندما يكون وحده، وفرحته بالناس وبالاجتماع... وكما كان يقول لي: (اللَّمة حلوة.. تجمع الأهل والأحباب)**!!**

* * *

ـ ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقْص القادرين على التَّمام

* * *

ـ وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها، وخطاب
وما أنا بالباغي على الحبِّ رشْوة ضعيف هوىً، يبغي عليه ثوابه
ـ المتنبي

* * *

وإنْ امرءاً يُمسي ويصبح سالماً ومن الناس، إلاَّ ما جنى لَسعيد
ـ حسان بن ثابت

* * *

ضاق المجال بنا.. على سعة به وتعجَّل الحُذَّاق نهْب رحابه!!
ـ حمزة شحاته

ـ كان مفتوناً بشعر «حمزة شحاته».. وهذا البيت/ وحده، كان يكثر من ترديده.. مبتسماً بسخرية، حين يشعر بضائقة نفسية!

* * *

قضاها لغيري، وابْتلاني بحبِّها فهلاَّ بشيء غير ليلى: ابتلانيا؟!
ـ قيس بن الملوح

* * *

ليت هنداً أنجزتنا ما تَعِدْ وشفت أنفسنا ممَّا نجدْ
واستبدَّت مرة واحدة إنما العاجزُ منْ لا يستبد
ـ عمر بن أبي ربيعة

* * *

ولــمــا أن تــجــهَّــمــنــي مــرادي   جــريــتُ مــع الــزمــان كــمــا أرادَا

ـ المعري

❊ ❊ ❊

زعـم الـفـرِزْدق أن سـيـقـتـلُ مِـرْبـعـا   أَبَـشِـرْ بـطـول سـلامـة يـا مِـرْبَـعُ

ـ جرير

❊ ❊ ❊

يـنـام بـإحـدى مـقْـلـتـيـه ويـتَّـقـي   بـأخـرى الـرزايـا فـهـو يـقـظَـان هـاجِـع

ـ حميد بن ثور الهلالي

❊ ❊ ❊

ومـا الـمـال والأهـلـون إلا ودائـع   ولا بــدَّ يــومــاً أن تــردُّ الــودائــع

ـ لبيد بن ربيعة العامري

❊ ❊ ❊

وتـجَـلُّـدي لـلـشَّـامـتـيـن أُريـهـمُ   أَلْـفـيـتَ كـلَّ تـمـيـمـةٍ لا تـنـفـعُ

ـ أبو ذؤيب الهذلي

❊ ❊ ❊

الوطن في تعريفه وانتمائه

ـ قالوا: العرب لم يعرفوا «الوطن» واستدلوا على ذلك بعدم وجود كلمة «الوطن» في الشعر العربي القديم.

وهؤلاء مخطئون.. فالعرب عرفوا «الوطن» وبرز ذلك في أشعارهم.. فالبكاء على الأطلال، بكاء على الوطن.. فالعرب عرفوا مفهوم الوطن، في الجاهلية والإسلام.. عرفوا كيف يحترمون الأرض، فالقفر صانهم، والفقر زانهم.. وتجلت الوطنية في معلقاتهم وأشعارهم.

والوطنية تلتزم الدفاع والجهاد:

والوطن أصبح ـ بعد المسجد ـ بلد الحرمين الشريفين.. الدفاع عنه، دفاع عن العقيدة وعن الإسلام.

فإذا كان الجهاد فرض كفاية للاندفاع، فإنه يكون فرض عين.. على كل منا يجب أن يكون مجاهداً بسيفه، بيده، بلسانه، بكل ما يملك.

فالوطنية إلتزام وفرض، لأن الوطن.. وطن مقدس.. وطن الأم.. وطن العروبة والإسلام.. وطن الحرمين الشريفين.. فكيف لا ندافع عنه بأرواحنا ودمائنا؟!

* * *

ـ المؤسف أن صفات وسلوكيات المواطن تحتاج إلى التحام أكبر.

نحن بحاجة إلى ترك الفصام بين الأسرة!

هناك انفصام، وانفصال، في أكثر من موقع، وجهة:

ـ انفصام في التربية.

ـ انفصام في المدرسة بين الطالب ومناهجه، وبين المدرس والطالب.

والتربية تحتاج إلى عناية أكبر في البيت، والمدرسة، والشارع.. حتى نعمق، ونكرس المفاهيم الوطنية.

وإن كنا نفاخر بأعمالنا في الحياة، وبوطنيتنا الصادقة.

ـ نحن بحاجة إلى ترابط أسري متين.

وكما أسلفت هناك انفصام في الأسرة: الأولاد بمفردهم مع الفيديو، والأب بمفرده مع التلفاز وشجون عمله، والأم بمفردها مع شئونها الخاصة.. ولا تكاد الأسرة تجتمع سوياً إلا على مائدة الغذاء أو العشاء.

هذا على الصعيد العائلي، أما الإعلام.. فهو مطالب بدور أكبر، وإن كان رجال الإعلام أعلم مني بهذا الدور!!!

هدية من السعودية

ـ هذا المقال كتبته الأديبة العربية السورية المبدعة (غادة السمان)، ونشرته بمجلة الحوادث بتاريخ ١٩٩١/٨/٢م.. وحين قرئ عليه هذا المقال، علق قائلاً:

ـ لقد رثتني «غادة» في حياتي.. فكان أجمل رثاء!!

❊ ❊ ❊

(١)

ـ في الصفحة الخامسة من كتاب «ذكريات العهود الثلاثة» ولد الأستاذ محمد حسين زيدان عام ١٣٢٥ هجرية، أما في الصفحة ٣٠٥ من الكتاب ذاته، فنجده قد ولد عام ١٣٢٧هـ, ولكن، هل تعني لنا هذه التفاصيل شيئاً حقاً؟ أن يكون الرجل في مقتبل ثمانيناته، أو أواسطها، أو حتى على ربيع تسعيناته؟ مع رجل عمره سنوات ضوئية من العطاء، يُسقط منطق الأعوام بمعناها الأرضي اليومي الهزلي.. مع رجل في ميعة تدفقه المتجدد ـ كزيدان ـ لا يهمنا حقاً عدد الدورات التي قام بها حول الشمس، بل وهج الضياء الذي شعَّ به في حياتنا الفكرية والثقافية..

لقد أقيم حفل تكريمي له في بلده، تحدَّث فيه لفيف من تلاميذه، وعشاق أدبه، وأصدقائه، ومعارفه، منهم: معالي الأستاذ عبد الله بلخير، والأساتذة عزيز ضياء، وعمر بهاء الأميري، وهاشم زواوي، ود. عبد الله الغذامي، وعبد الفتاح أبو مدين، ود. بكري شيخ أمين، وفاتتني فرصة مشاركتهم فرحة الاحتفال بأدبه، وكتب عنه عدد كبير من عشاق الكلمة المضيئة أمثال الأديب: عبد الله الجفري/ الفائز بجائزة الإبداع منذ أعوام.

(والذي زُيِّن صدره منذ أسابيع بوسام النوبة القلبية، مكافأة له على شفافيته ورهافته بمواجهة عالم متوحش، شفاه الله)، والأساتذة: عايض الرادي، ومصطفى إبراهيم حسين، وعبد الكريم محمود الخطيب، وسباعي عثمان، وكمال عبد القادر، وسواهم، وأخط الآن هذه السطور في محاولة للتعويض عن الغياب الشامي، والنسوي، وتقصيرهما في تكريم أستاذ جيل، غمرت نجومه نساء هذا الوطن ورجاله معاً، وفنان مدَّ محبتَّه لأهل الشام جسراً من الضوء والود الصادق العميق، ومبدع في أوج عطائه، وأستاذ من أساتذتنا في أقطارنا العربية كافة، الآسيوي منه، والأفريقي: ألم يكن الأستاذ زيدان «أول كاتب تحدث عن العلاقات الأفريقية العربية»، لافتاً الأنظار إلى أهميتها، وداعياً إلى دعم الأفريقية مادياً، ومعاونتها على تطوير نفسها، بشهادة تلميذه الوفي الأديب عبد الله الجفري؟!

(٢)

ترى هل قصَّرت المرأة العربية في تكريم زيدان، أم قصَّر أستاذنا في تثبيت مشاركتها؟ وكيف تغيب المرأة العربية في زرع الفراشات والنجوم في أفق رجل كرَّمها في كل حرف كتبه؟

حينما عالج أستاذنا زيدان السيرة مسطراً تراجم تاريخية لطائفة من الصحابة، لم ينس «الصحابيات»، واعتبرهن من بعض ابطال الأمة، وصنَّاع التاريخ الذين أضاءوا الدنيا، ولم ينس: هند أم سلمة، وأسماء ذات النطاقين، وأم المؤمنين خديجة، وأهدى تلك السِيَر إلى الجيل الطالع الذي لم يصنع مستقبله إذا لم يعرف ماضيه وجذوره، ورؤية زيدان للتراث معاصرة، وبالغة العمق.. فهو لا ينفي العلم بل ينادي بالتعايش بينه وبين الإيمان قائلاً ببساطة ثاقبة: متِّعونا بالعلم، ولا تمنعونا من بركة زمزم.

وتكريم زيدان للمرأة لا يقتصر على النساء العربيات التاريخيات، بل يشمل بحنانه واحترامه مبدعات عصريات أمثال: مي زيادة، وعائشة التيمورية، وباحثة البادية، وسواهن.

(٣)

عن الهدية من السعودية التي تلقيتها مع مطلع هذا العام سأحدثكم: كتاب «ذكريات العهود الثلاثة» لأستاذي زيدان.. هدية يجد فيها المرء الصحو والمطر، والحزن والمرح، والجدية والظُرْف، والتاريخ والأدب، وفن السيرة، والمذكرات، والرحلات.. هدية تنبض نضارة، وحيوية، ولغة، رصانتها طراوة بعيدة عن التكلس السَّمِج المتعالي.. تنوُّع في المعرفة، صدق فيه قول الجفري في زيدان: «موسوعة تمشي على قدمين».. هدية تتجلى فيها الشخصية العربية في أبهى صورها، ونموذج لرواج التراث والمعاصرة في أحد تجلياته الراقية.

في كتابه نعيش فرحة الإلتقاء بالينابيع، ومعظم ما نادي به اليوم من

أفكار (معاصرة) نجد جذورها لدى الإنسان الأعرابي النقي، الذي عاش التقشف، وعرف الألم الجسدي، يتجلد مرضاً وعلاجاً قديماً، وكَيًّا بالنار: (لو كشفتم جسدي لوجدتم فيه أكثر من ثلاثين كيَّه)، وعاقر الأحزان الروحية، لكنه روَّضها، وامتطاها حصاناً يركض به براري الإبداع حتى أفق الضوء والمحبة الإنسانية، لا مبالياً بماديات هذا العالم الفاني، نافياً عن نفسه (تهمة) الثراء، مُطْمئناً عاشقي حرفه إلى إفلاسه، مع بيان مفصل بديونه وكيفية سداده لها، معزياً ذاته عن شائعة ثرائه بقوله: «لأن أكون الرجل المُحسَّد، خيراً من أن أكون الرجل المشفق عليه»!

(٤)

لقد آمنت دائماً أن قطع جذور الشجرة لا يساهم في التعجيل بنموها، وبالمقابل فإن التراث لم يوجد لنكرر ما فعله أجدادنا العظام، بل لنتابع الرحلة ونحن نهتدي بتجربتهم.

وكتاب أستاذي زيدان بهذا المعنى، كنْز من المعارف أوالخبرات، وذكرياته خلال عهود تاريخية ثلاثة ليس يوميات ذاتية فحسب، بل صورة وطن عربي في مضائق تحديات العصر، عبر عين مرهفة دافئة بعيدة عن التصوير الفوتوغرافي البارد، وعن التقريرية (الأيديولوجية) المحمومة في آن... وقد نجح في «تأصيل الانتماء العربي الإسلامي»، ووصل الماضي التالد بالحاضر الواعد، لأن الأمة التي تجهل تاريخها تجهل طريقها.. وهذا الخط العام يتحرك ضمن رؤيا شمولية كلها رحابة، لا يفوتها تثبيت كل ما من شأنه كشف فضل العرب المسيحيين على العربية... وهكذا كان الآباء اليسوعيون، واليازجيون، والمعلوفون، وسواهم: «عرباً لا

طائفيين لم يكن هواهم إلا خدمة العروبة، وخدمة اللغة، كانوا طلائع النهضة». .

ويورد أجزاء من قصيدة مديح (المسيحي) شبلي ملاَّط في شوقي والعرب، وأخرى للشاعر القروي، متبنيِّاً رسالة من الأستاذ زهير الشاويش، ذكَّرنا بأن أستاذ شكيب أرسلان، «كان شيخ الشيوخ من الآباء المسيحيين عبد الله البستاني».

وهكذا. . فإن مذكرات زيدان جغرفة للأرض ـ والمدينة المنورة بالذات ـ وذكرياته ليس فيها «الأنا»، وإنما كله الـ «نحن» التي تتجه صوب المحبة، وتفسير التاريخ على هديتها، كقوله عن «وقعة الحرة»: لا أريد أن نحمِّل قومنا في الشام ما فعلناه بأنفسنا، فالتبرئة للعراق، لمصر، وللشام، لا أتبرع بها، وإنما أتورع من ذكر ذلك لأمحو البغضاء». . فهل أجمل من شعار محو البغضاء؟

(٥)

وإذا كان أحد أبناء عمومتي من الجب السعودي من آل السمان، وصديق زيدان قد هجاه في قصيدة أشهرته، لم يُنظمها وإنما نَظمها له غيره (على ذِمة زيدان) فإني لا أحاول في سطوري هذه محو إساءة قبيلتي عن الهجاء الدعابة، بقدر ما أتابع نهجي في تكريم أحباء في أوج العطاء، وأكرر: المرحوم والدي، والشاعر الجواهري الكبير، وزيدان، وندرة من أمثالهم يمثلون لي ذلك الجيل شبه المنقرض من أحفاد الأعراب المتواضعين الأشداء، الذين اقتحموا العالم ذات يوم، وبنوا مجداً روحياً، وحضارياً، وإنسانياً. . . وهدية زيدان التي استلمتها في ذروة انكساري

النفسي، خلال مأساة الخليج، ساهمت في تأصيل ثقتي بمستقبلي، كمواطنة عربية!!

والتفاؤل أثمن هدية في زمننا الرديء.. فهل أبالغ إذا اقترحت تدريس نماذج من عطاء زيدان في الكتب المدرسية العربية؟!

«الشوبشة» !!

ـ هل تعرف معنا (شوبشة) التي نسمع سواد الناس في مجتمعنا يرددها؟!

بحثت عنها ذات يوم في المنجد، فبعض كلماتنا العامية نستطيع أن نردها إلى أصل فصيح... لكن بعضها ـ أيضاً ـ مقتبس من لغات أخرى دخيلة على العربية.

تذكَّرتها حين كان الأستاذ «محمد حسين زيدان» يرددها على مسامعي... خاصة عندما يفرح بإملاء مقال يجنِّح بكلماته.. فيقول:

ـ أنظر: إني (أُشُوبِش) لنفسي.. فلا بدَّ أن تشاركني يا سيقور بهذه (الشوبشة).

ـ وسألته: ماذا تعني؟!

ـ أجاب: أهل الحارة يقولون هذه الكلمة، ويفعلونها!

ولمعلوماتك: فإن في (شوبشة) أولاد الحارة، بعد ذكر اسم الشخص (المشوبش) له، يقول الجميع مع التصفيق:

ـ يسْتَأهل!!

(فالشوبشة) العامية، معناها: الإطراء، والاحتفاء بشخص!!

* * *

ـ سألته يومها: وما هي مناسبة (شوبشتك)؟!

ـ قال معتزّاً، وفرحاً بالتقدير: أكتب هذا الخبر لصحيفتك:

ـ قرر الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري على طلبة كلية الآداب بجامعة الرياض دراسة المقالات المتخصصة التي نُشرتْ في العدد الخاص من مجلة (الدارة) عن المهرجان الإسلامي الذي عقد في لندن قبل فترة.

كما أنه قرر عليهم ـ أيضاً ـ محاضرة الأستاذ الزيدن التي ألقاها في ندوة المستشرقين بكمبردج في أغسطس ٧٦، بعنون: «العرب بين الإرهاص والمعجزة).

وقفلة الخبر.. لا بد أن تكون بلهجة أولاد الحارة: يِسْتاهل!!

أما خلفية الخبر.. ففيها الدلالة على: أن هذه الخطوة تعني الإهتمام بالمحاولات التي يبذلها الأدباء والصحافة، للإسهام في العطاء الأكاديمي لخدمة طلاب العلم والثقافة.. والقراءة أيضاً!!

رسالة. . لم يردّ عليها

ـ وجَّهت له هذه الرسالة عبر صفحة كنت أعدها في صحيفة (البلاد) بعنوان: «كل شيء».

قرأها. . أو طلب مني أن أقرأها له. . . وبعد سماعها، أخلد للصمت. . لم يفعل أكثر من أن نظر إليَّ، وقال:

ـ أنت أكثر الناس خبرة، ومعرفة بالأسباب التي سبكتها «إتهامات» متسائلة.

حماك الله. . وحمى جيلك المُرْهق بالأسئلة:

* * *

ـ عزيزي/الأستاذ محمد حسين زيدان:

رغم أن حوارنا معاً يتواصل كل يوم عبر لقاءاتك الخاطفة ـ الصباحية ـ بنا. . . فهناك قضايا نود لو نطرحها عليك لتوضِّح لنا جوانبها. ورغم أنك لا تبخل بالكلمة، لأنك «تغْليها» أي تقرها وتُجلها. . لكنك متهم بسببها!!

فأنت ـ كما اصطلحنا على تقييمك ـ: موسوعة متحركة تمشي على قدمين. . وأنت «خَرِّيج» كلمة مبيّنة وصادقة، وواعية. . وأنت: «محلل»،

تنبش الفكرة حتى تكشف لنا عن مصدرها وباعثها ودوافعها.. عن أبيها، وأمها، وقرابتها.. بمعنى أنك بارع في اجتلاء معاني الحروف من خلفياتها.

والإتهام الموجه إليك: أنك تُهمل ما تقرأ، أو أنك تهضمه، وتُحقق به فكرك، ثم لا تبعثه مجدداً.. مُطعَّماً بمرئياتك، وأعرف أنك تعلق على بعض ما تقرأ، ولكن الكثير يضيع في «تفويتك»!!

وأنت تهمل ما تكتبه في الصحف، والصحف لن تبقى أثراً يحفظ إنتاجك، ولديك ـ كما أعرف ـ الكثير من الأفكار التي تجول في فكرك إلى درجة القلق والمعاناة أحياناً، فلماذا لا تسطرها وتطبعها في كتاب، وأنت صاحب ذخيرة ثقافية باهرة؟!

أعرف أن حُجَّتك: افتقارك إلى من تملي عليه أفكارك، وخواطرك.. لكن هل تعتقد أن هذا السبب يقوى عليك إلى الحد الذي يحول بينك وبين تدوين أفكارك وتزويدنا بعلمك وثقافتك؟!

ويتبلور الإتهام هنا، فلا ينصبُّ عليك وحدك، وإنما يقال: إن كل جيلك ركن إلى الدعة والاستسلام للراحة أو الغفوة، وأهمل أفكاره وتطلعاته.. بل وأهمل أن يقرأ للآخرين!

ربما تثيرك هذه السطور.. لكن من حقنا أن نطالب بإعطاء كل ما عندكم، و تطبعوه وتنشروه.. فالبقاء على السمعة القديمة، أو على الاجترار، أو على هذا التبعثر بين أعمدة الصحف، هو بقاء لا (يؤرخ) للحركة الأدبية، ولا يدلل على وجود شواهد تتحدث عن تراثنا الفكري!!

كلمات. . شَهِدْتُ مولدها:

ـ هذه الكلمات: نُشرت في الصحف المحلية. . . لكني كنت

المتلقي الأول لها منه. . . حين كان يملي عليَّ. . . وكنت «أشاكسه» أحياناً. . وأعارضه. . ونضحك معاً:

ـ المعاني لا تستهلكها المباني، فأي بناء في الكلمة في أي شيء يغريك أو يعجبك إلاَّ بمعناه؟!

من هنا. . كل البيان هو القمة، وكان المبنى هو القاعدة!!

* * *

ـ الفسوق: ضعف، وإن تمرد بقوة العضلات، وإن تفرد بالدراهم. . تأبى إلا أن تظهر أعناقها.

فأي ضعف يماثل ما تتستر منه. . أي ضعف ما تنكره على نفسك في صحوة ضمير؟!

* * *

ـ كتب «عبد الله جفري» يرى البقاء في تحديد المنطلق في كل ما يكتب في الرواية. . يراها ـ أعني الرواية ـ كتاباً يعطي عطاء ينمو. قلت

له: ذلك أن الرواية هي حاصرة ومحصورة.. تحصر كاتبها في وجوده وموجوده، لأنه يكتبها في ما أدخر عن ما أدخر في عقله الباطن.

ـ أعني بذلك: أن الرواية وطنية كاتبها، فهي تحصره في هذه الحدود، وبالتَّلقي أو التلقائية هو محصور في هذه الحدود.

من هنا.. بوطنية الرواية يصبح الكاتب مواطناً أعطى كما أخذ!!

***

ـ قرأت في مجلة «كلية اللغة العربية» بالرياض في شعر الحنين، ما قاله صقر قريش: «عبد الرحمن الداخل» حين رأى في الأندلس نخلة فريدة.

ـ قرأت قطعتين.. لم يغنه مُلك الأندلس عن الحنين إلى ترابه.. أنشد القطعة الثانية:

يا نخلُ أنت فريدة مثلي ... في الأرض نائية عن الأهل
تبكي، وهل تبكي مكمَّمة ... عجماء لم تُجْبل على جبل
ولو أنها عقلت لبكت ... ماء الفرات، ومنبت النخل

وليس بدعاً هذا الحنين من «عبد الرحمن الداخل»، فقد سبقه ابن عم له ـ أحد الأعياص ـ الذي يقول وقد أسكنوه دمشق يحنُّ إلى المدينة:

القصر، فالنخل، فالجمَّاء بينهما ... أشهى إلى القلب من أبواب جيرون!!

***

ـ النوايا الطيبة، والنصائح الصادقة: كثيراً ما ترفض، لأنها بالإلحاح

والتحدي يشتمُّ منها رائحة الفرض والإلزام!

وهكذا يقبح الحسن إذا تعامل مع السلوك السيء!!

* * *

ـ إذا خطب رجل لرجل إمرأة فقد افترض عداوة الزوجين له بعد.

وإذا قاد رجل لرجل فقد فرض صداقته..

ذلك أن علاقة الخير قد ينساها الفاعلون للخير... أما علاقة الشر فلا ينساها الطرفان، ضمانات المن تنسى، ومحاذر الخوف تبقى ولا تخفى.

* * *

ـ هل يتصور أحد من الناس أن يكره إنسان وطنه.. أن يهجر ترابه؟!

بعيد ذلك.. فهناك الزلازل والبراكين والهزائم والأعاصير والعسف والفيضانات.. كلها لا تُخرج الناس من أوطانهم، فالحب للتراب يصابر، والوطنية تُكابر.. لكنَّ القحط والجوع هما العاملان لفرار الوطني من وطنه.. أما الهجرة لحماية المبادئ فطلب للانتصار، وعودة لحماية الوطن!!

* * *

ـ قالوا: من لا يحلم يصبح مجنوناً!

ـ وقلنا: هذا صحيح فالأحلام تُنفِّس النفس.. تطرح مخزونها الكارب كأنها ترفَّه عن ذاتها بالبوح.. عزَّ عليها أن تجد إنساناً تبوح له،

واستحيت أن تبوح إلى المرآة.. ففضلات الجسم تذهب إلى مكان ليستريح البدن، وأثقال النفس لا تذهب إلاَّ بهذه الأحلام.. فتستروح النفس راحتها من طرحها لأثقال إختزنتها في العقل الباطن. لا تعجبوا.. فحتى الحيوان يحلم!!

***

ـ الغزل بالرِّجِل!!

ـ كانت نائمة فاهتزت، فأصابت رجلَها رجلُه، فحين صحا من النوم قبلها.. كأنه قد استطعم الهزة برِجْلِها غزلاً يناديه!!

وفي المرة الثانية جاءت المقابلة منه.. إهتزَّ فهزَّهَا برجله فلم تُسامح، ولم تعتبر ذلك غزلاً منه.. ذلك أن غزل الأنثى في أية حركة تبديها.. أما غزل الذكر فطريقه رفق.

بسمة.. نداء.. هَزَّة حنان!

الأنثى: كالأرض الخصبة، تُفلح بالفلاحة سقياً ورعياً..

والرجل كالصخرة يحتاج إلى تشذيب وتهذيب!!

***

ـ سناء محيدلي:

ـ دمعت عيناه ـ يرحمه الله ـ حين كان يملي عليَّ مقالاً عن الشهيدة (سناء محيدلي)، مستفزاً المزيد من شجونه.. فقلت له:

ـ أما زلت تتذكر الشهيدة «سناء محيدلي»، وقد نسيها الكثير، بعد أن كانت «خبر» بطولة؟!

ـ قال: لقد أصبحت «سناء» هي حبي الأخير.. حبُّ الموت/الحي!

ولا شك أنني أحب حياة الموت في هذه البطلة التي بصقت على وجوه أسماء كثيرة في الضوء!

ـ سألته: وهل أنت الميت الذي أحبَّ «الحي» سناء؟!

ـ قال: نعم.. لو عرفنا قيمة الموت.. بعد أن أهدرنا قيمة الحياة!

* * *

ـ ما الذي يفكر فيه؟!

ـ تُرى.. في ماذا أفكر؟!

ـ أفكر في ضعف الإنسان أمام نفسه.. وقُوَّته على ضعف الآخرين!!

ـ أفكر في طغيان الإنسان بقوة مدمرة.. بينما هو الضعيف أمام جرثومة لا تُرى إلاَّ بالمجهر.

ـ أفكر في السلام.. ينتحر بيد القادرين على صنعه.

ـ وفي الحرب يتَّجر بها المستغلون لغرور الأقوياء والغافلين.

ـ أفكر في الذين ترحمهم بعفة.. بينما هم لا يرحمون غيرهم من شراسة وكَبْتٍ في طبائعهم!!

ـ أفكر في عازل نفسه عن الناس بكبرياء عفنة.. والباذل نفسه للناس باتضاع يتفسخ!

ـ أفكر في مُجيع ولده وليُخزِّن الملايين، وفي من يُشبع ولده ولو شحت عليه الملاليم.

ـ أفكر في مستشفى أُعد لشفاء المريض.. وأُهمل كملعب يصرخ فيه الصبيان.

ـ أفكر في الحبِّ.. وكيف استحال إلى فوضى في الشارع.. ورقص في الصالونات!!

* * *

ـ هذه ليلتي:

ـ أصغي إلى صوت «أم كلثوم» في موعد حفلتها الشهرية، وجاءني بعدها ليقول لي أكتب الآتي:

ـ سهرت أسمعها صوتاً.. صوتاً قبل كل شيء، وشعراً.. شعراً هو الشيء، ولحناً.. لحناً هو زينة الأشياء، فإذا بي اقولها: لا يبعد على حفيد «الشعراني» أن يرتفع بهذا اللحن ولا يضيره أن يسقط له لحن.. فقد اقتنى واغتنى، ولن يضار لون النضار أن يختلط بمعدن آخر .. فصوت أم كلثوم هو المجوِّد للحن، والمزين للشعر.. كلاهما الشاعر والملحن يرتفعان لغناء هذه التي غلبت: وحيداً، و«حبَّابة»، وسلاَّمة، و«الميلاء».. كأنما ابن سريج قد ادخرها نفحة من نفحات العقيق الأول.. هدية منه إلى النيل.. إلى الفرات.. إلى الأجيال.. لبنانية ومغربية!

كأنما آذان المهرة صقلت الصوت بألسنتها.. تقول «الآه»!!

لقد جعلنا «الجرداق» نذكر بحنين شعراء الأغنية.. مَنْ غنَّت لهم أم كلثوم، ومن غنَّى لهم غيرها: (شوقي، والأخطل الصغير، وأحمد فتحي، ورامي وناجي)، ويحزننا أن لا نرى بينهم «القبَّاني» ذلك الذي لم يزن

قصيدة تستاهل أن تغنيها أم كلثوم.

لا تحكموا على أم كلثوم بسماعها لأول مرة فهي كالمعتَّقة!!

عبد الوهاب له الواحدة: «إنت عمري».. والجرداق فاز بهذه الواحدة: «هذه ليلتي»... كانت رائعة في أواخرها.

أما هي أم كلثوم فلها الفرائد ننظم بها القلائد.. إن الجرداق غنَّى بشعر يعجب الشباب.. أما نحن، فنساير بهذا الإعجاب.. كأنما نعامل الآخرين معاملة المُؤلفة قلوبهم، وإن عاملونا هم الآخرون معاملة المرتدِّين!!

* * *

ـ زينب:

ـ حين قلت لأستاذي: إن الشاعر نزار قباني، اطلق اسم (زينب) على طفلته الجديدة من زوجته التي رحلت بعد ذلك: (بلقيس)... فبماذا يدللها عريسها بعد عشرين عاماً؟!

ـ قال الأستاذ زيدان: إن الأسماء العربية جميلة.. ونزار فنان، وشاعر بحق.

إن زينب هي: «زنوبيا»، ملكة اليمن... فأراد أن يكرِّم اليمن بالشام!!!

وقد سمَّى العرب «سارة» وهو من السراوة، بمعنى: أميرة، ومنها السراة، ومنها اسم النهر «سرى».. وهو اسم عربي قديم استعمله العبرانيون.

وسمَّى العرب: «آسيا»، وأول من استعمله الفينيقيون. ومعناه: الشرق، ولهذا سمِّيت القارة آسيا، وآسيا هو اسم امرأة فرعون!!

* * *

ـ المبدأ حق، فلا توسُّط للحلول فيه.. أما هو وإلا فالباطل.. أما المصالح فمنافع يمكن التصالح عليها بقبول الحل الوسط، فأما الحل الوسط وإلا فطَرف غانم، وطرف غارم!

* * *

ـ صاحب من ينسى معروفه عندك، ويذكر معروفك عنده.. إنه حين ينسى معروفه لا يثقلك بالإشفاق، ولا يرهق بالمن.. وحين يذكر معروفك فإنه يعطيك المتعة ليأخذ متعة أخرى.. يعطيك قيمتك عنده ليأخذ قيمته عندك، الشكران في وجدان الرجال علامة تعلن أنهم يطيقون صنع الجميل كما يحملون الشكر لمن يصنعه معهم!

* * *

ـ قد تستريح حين تكون العلاقة بين الشخصين.. علاقة بين قلبين ـ إنسان وإنسانة ـ صنعها ليحكمها الذوق، والسلوك، والطموح، والفتنة.. فالفتنة هي: فن الجمال.. أما أن تكون العلاقة على مستوى التافه من الرجال، أو على مستوى المنفعة من الأنثى، فشيء لا يريح.. بل إنه لينقلب إلى فشل في العطاء، واقتناص للأخذ المجرد من الفن والسمو والفتنة!!

* * *

ـ سمعت عنزاً تطرح هذا السؤال على غزال صادوه فدجَّنوه. . كانت العنز والغزال يرعيان وسط الحديقة، فبالشعور الموروث جرى الغزال إلى حنظلة نبتت شيطانية على جال القنطرة، فشمها واستطعمها، فمج ما استطعم. . فقالت له العنز:

ـ إنها طعامك في الصحراء؟!

ـ فتنهد الغزال وقال: كانت طعامي يوم كنت آبداً، أسرح وأمرح في الصحراء، أما اليوم فقد أفسدني عنها وارف الظل، ونعومة العيش!!

* * *

ـ قال بعض الأكابر: إني لأعجب من رجل إذا ما ذُكر بخير ليس فيه. . كيف يفرح وإني لأعجب من رجل إذا ما ذكر بشرٍّ هو فيه. . كيف يغضب!!

* * *

ـ حين ما يكون الموظف تنازلياً لا تصاعدياً. . يعني أن يكون ذا قيمة أكبر. . رضي بالوظيفة الأصغر، حينئذ تصبح الوظيفة كبيرة به. . لتصبح الأعمال صغير منه!!

* * *

ـ لا تكشُّوا التراب:

ـ وسألني أحدهم: هل يعجبك هذا الأسلوب في إثارة الأقلام، وإشعال نار الخصام؟

ـ قلت: ماذا تعني، ومن تعني؟

ـ قال: أعني «كشَّ» التراب بأسلوب أولاد الحارة لإثارة الخصومة، وأعني «علوي الصافي» و «جلال أبو زيد».. كما أعني الذي نشر والذي استتر، وأعني أكثر ما نشر اليوم في «عكاظ» عنك وعن الأستاذ العطار؟

ـ قلت: أريد أن أصارح الأخوان جميعاً، وأخص «جلال أبو زيد» بأن أوضاعنا كمجتمع، وضعنا كأدباء... كل منهما يرفض أسلوب أبو الخير نجيب، ومحمد السوادي، وعبد الوهاب البياتي، والشتَّامين الآخرين، أسلوب أسوأ ما فيه إثارة الخصومة بطريقة التشعلق على الأكتاف، أو التملق لأصحاب الصوالين!!

إن صناعة الخصام ـ إن لم تصنع الكراهية ـ فهي صانعة الغضب.. تاركة الجذوة تعمل عملها في النفوس، وليس في الغضب كسب، وليس في ألم صديقك راحة لك.. إلاَّ إن كنت «سادياً» أو «دراكولياً»!

إن الخبر المنشور في «عكاظ» عن حديث الأستاذ البحاثة أحمد عبد الغفور عطار في نقده لي عن أخطاء وقعت فيها، ما كان ينبغي أن يذاع بأسلوب النميمة لنشر الغيبة.. كان ينبغي أن يترك للأستاذ العطار أن يكتب، وليس في حديث الأستاذ العطار عني ما يدخل في باب الغيبة، لأن ما يذكره العطار عني لا أكرهه.. أما إذاعة الخبر فأحسبني والأستاذ العطار نكرهها جميعاً لأنها نميمة.. ثم إن الأستاذ العطار ـ ولا أداهنه ـ كثيراً ما وقع بيني وبينه حوار، أفادني، ولعلّه لا ينكر ما أدركنا جميعاً من فائدة هذا الحوار.

دعوا الأستاذ العطار يكتب، فما يجيء منه على وجه الصواب نقبله، ونستفيد منه، وما يجيء من غير ذلك نتركه إن جانب الصواب!

فـ «كشَّة» التراب هذه لم تُثر غضبي، ولعلّنا جميعاً ندرك ما لقيمة التأدُّب في سلوك الأدب ونشره، خير من هذا الأسلوب الذي أحسبه «موضة» جديدة في إثارة الخصومات!!

* * *

حوار معه. . عن العاطفة الخيال

ـ كان يناقشني في العاطفة عندما تكون خيالاً. .

وكان «يُفصِّل» الخيال، ويجزئه.

لكنه تروَّى في منتصف الحوار. . لأن نبش العاطفة وتجسيدها بشواهد مادية، جعلا منه هذا الإنسان الذي يحنُّ في طغيان الشعور!

وبعد صمت قصير. . وجدته يتلفت حوله.

عرفت أن تلك الشواهد قد أحالته أيضاً إلى أحاسيس من: الغيرة، والعشق، والأنانية، ورهافة الشعور!

وشعر أن صوتي قد تحول من نداء إلى رفض!!

وكانت نبرة صوتي قد تصاعدت من الهمس إلى الصراخ. . لأنني قلت له:

ـ عندما نحب. . ونعجز أن نجعل حبنا يتمرد على الخيال، أو ينطلق من حدود الرومانسية المغرقة في الصبر. . فإن حبنا يخلو من مسيره، ويتبلد نبضه، وتنهزم فيه كل حوافز التعبير الإنساني الذي يجعل من الإنسان مُبدعاً وحيوياً، ومتوهج العاطفة!

ـ قال مندهشاً: وهل الحب مسيرة؟!

ـ قلت: ولماذا نعتسف الحب بهذا التقليل؟!

ـ قال: مسيرة الحب إلى الإنسان، أم الإنسان إلى الحب؟!

ـ قلت: التلاقي هو النقطة التي لا تجعل فارقاً بين أن يسير الحب إلى الإنسان، أو أن يسير الإنسان إلى الحب!

ـ قال: وكيف يتمرد على الخيال، وعلى التأمل.. فهل تقصد أن تربط العاطفة بالماديات؟!

ـ قلت: الماديات واقع، والعاطفة شعور وأماني... فماذا تقصد؟!

ـ قال: تريد أن يكون للشيء مقابل، وللفعل رد فعل.. أو للفعل أصداء تجعله ينمو أكثر وللشعور تجسيد يحوِّله من أحلام وخيالات، إلى صورة متحركة، وزمن ناطق!

ـ قلت: ما هو المطلوب في الحب؟!

ـ قال: أجب عني!!

ـ قلت: العشق، الدهشة، الغضب، الرغبة، الحميمية، التجانس، الصدق.

ـ قال: كأنك تربط ذلك كله بالبداية والنهاية!.. فأنت تعني أنه لا بد من الماديات في عواطف الناس، لتقول بذلك أنك إنسان تحيل حياتك إلى تجارب، وإلى حالات تتعدد وتختلف.. حسب نفسيتك ورغبتك، وحدودك، وسأمك أيضاً!

ـ قلت: قد يكون الحب تجربة واحدة فريدة.. وقد تأتي تجارب عديدة تؤكد أصالة تلك التجربة الواحدة الفريدة، وأن لا بديل لها!

ـ قال: ولكن هذا الذي تبرره يعني أنك توظِّف عواطفك.. أي تجعلها تعمل، أو تجعل عشقك ممارسة.. إذا غذَّتك عواطفك جيداً: شبعت، ومللت، واتجهت إلى عاطفة أخرى، و أنك بذلك قد خضعت للبداية وللنهاية!

ـ قلت: مشكلة الإنسان أنه يتحدث ـ دائماً ـ عن إخلاصه، ونقاء روحه، وشفافية عواطفه.. ولكنه يُدلِّس في مرات عديدة حين يتحدث عن تلك الخصال، لأنه ببساطة يحتاج إلى التمازج.. إلى التجربة، والرؤية التي تجعله ينطلق أكثر!

إن الإنسان الرومانسي هو الذي نقرأه، ونشاهده في الروايات.. وكاتب الروايات يكذب في تصوير أبطالها بهذا الاستغراق التام، لأنه يعرف أن الناس يلاحقون زمناً جديداً، وينسلخون من زمن قديم!

ـ قال: ولكن.. ما قيمة الإنسان بدون روحه.. بدون عشقه، وبدون أن يصهره هذا العشق ألماً ومعاناة ورؤية.. تحقق له اكتشاف الإنسان فيه؟!

ـ قلت: لم أطلب من الإنسان أن ينسلخ من روحه، ولكن لاعاطفة غذاء وإشباع، ولعلّها امتلاك تام.. فالذي يتمرد عليها أحياناً، ليس معنى تمرده أنه قد تحول إلى إنسان مادي.. ولكنها الحالات التي تتعدد، والصدود الذي يُخلِّف الصدأ، والانفعال الذي يرفع أحاسيس الإنسان إلى أعلى ذروة الوجدان، وفي المثاليات، ثم يهوي فيها، أو بها!

ـ قال ضاحكاً: إن الإنسان قد يتحطم بعاطفة أصيبت بالصمم.. أو بروح غطاها الصدأ!

ومن الصدأ يركض الناس من جديد إلى مادياته.. لينسوا، أي ليموتوا بالصدأ.. فتموت أرواحهم!!

قالوا عنه

ـ كان فضيلة الشيخ والمؤرخ محمد حسن زيدان يرحمه الله رحمة واسعة: أحد أبناء هذا الوطن البررة، وأحد الذين وهبوا أنفسهم للعلم والعمل به في هذه البلاد، وقيمته كمؤرخ وعالم كبير، ومحدث، وصاحب نهج وأخلاقيات فاضلة، جعلته يسكن في قلوبنا جميعاً على أرض هذا الوطن، وقد كانت وفاته فاجعة لنا جميعاً وخسارة فادحة، وبلا شك فقد ترك فراغاً كبيراً في نفوسنا.

(الأمير/ماجد بن عبد العزيز)

❊ ❊ ❊

ـ فجعت بلادنا الغالية برحيل أحد أركان الفكر وروّاد الأدب بها، ذلك الأديب الكبير والمعلم الرائد الأستاذ/محمد حسين زيدان ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ فلقد كان بحق مُعلِّماً بارزاً في الساحة الأدبية للملكة العربية السعودية ردحاً من الزمن.. حيث قضى جل عمره وزهرة شبابه حتى لقي ربه يمد الساحة الأدبية بالنفيس من المواضيع الأدبية والثقافية والشعرية، ولا أدل على ذلك من المؤلفات القيّمة التي تزخر بها مكتباتنا السعودية، والتي أسهمت إلى حد كبير في رفع مستوى الأدب السعودي

المعاصر على المستويين الداخلي والخارجي.

(الأمير/خالد الفيصل)

* * *

ـ إن المملكة فقدت برحيل الأديب الزيدان واحداً من أدبائها المتميزين الذين أثروا الساحة الأدبية محلياً وعربياً بالكثير من الإسهامات الأدبية والفكرية والثقافية المتميزة.

ويمكنني القول بأن الأديب الزيدان يعتبر ركناً من أركان الأدب العربي، ولقد تميزت إسهاماته المتعددة في مجالات الفكر والأدب بقوة المعنى، وتميز الأسلوب، حتى بات علماً من أعلام الفكر والأدب، ولذا فإن رحيل الزيدان يعدُّ خسارة كبيرة، فقدنا على أثرها ثروة أدبية وفكرية كبيرة، ولكن هذا قضاء الله وقدره، ولا راد لقضائه جلَّ وعلا.

(الأمير/فيصل بن فهد)

* * *

ـ شمعة أخرى من شموع الأدب في بلادنا نفقدها في رحيل «الزيدان».. حيث كان من الأوائل الذين لهم دور في إثراء الحركة الأدبية في بلادنا.

لقد استطاع أن يجعل أسلوب كتابته وخطبه جديداً على الساحة الأدبية، لهذا كان دائماً يشد مستمعيه، وعرف أيضاً بحفظه للمواقع التاريخية والأثرية وكذلك القصص التاريخية وحياة الصحابة رضوان الله عليهم.

(حسين عرب)

* * *

ـ إن أروع ما في «الزيدان»، هو: معرفته الواضحة لتحديات العصر.. الذي نحياه.

كل الاتجاهات في نظره.. تقودك إلى روما، شريطة أن تعشقها!!

وروما.. هي: الغادة الحسناء.. وهي: المثل الأعلى!

إن «الزيدان» حينما يعجز عن الولوج إلى شيء.. يذهب إلى نقيضه، فيفتِّته.. ثم يعاود، فيصنع منه تمثالاً رائعاً!

إن «الزيدان»: إنسان يشيخ، ولا يشيخ... هو يفهم الحتمية، أو يعيش فيها ويسبقها.

(مشعل السديري)

* * *

أما الأستاذ الزيدان/ يرحمه الله... فكان ينادي الأستاذ «مشعل السديري» دائماً، وكلما التقاه في مكان، أو من خلال الهاتف.. فيقول له:

ـ أيها العالي.. بغير تعالي!!

* * *

ـ أذكر أنه ذات يوم كان يكتب عن الديانات الوثنية البابلية القديمة، وعنت له فكرة لم يجد لها في ما بين يديه من المراجع ما يقنعه، فوجَّه إليَّ سؤالاً في عدد من أعداد جريدة «الرياض»، ورددت عليه بما وسعني.

وكان ذلك منه تشريفاً كبيراً لي.. وكان درساً لمن يدَّعي من الناس أنه وصل من العلم إلى درجة يجد فيها إجابة عن كل سؤال!

أكبرت الرجل، وكان كلما قابلته أكبرته أكثر ـ رحمه الله ـ وجزاه عن اللغة العربية وثقافتها خير الجزاء.

(د/حسن ظاظا)

* * *

ـ إننا فقدنا بوفاة الزيدان ركناً هاماً من أركان الأدب، فلم أر أدبياً واسع الأفق، رحب الصدر، أَحَبَّ الجميع فأحبوه، مثل الأستاذ «محمد حسين زيدان» كان حريصاً كل الحرص على اللغة العربية الفصحى في حديثه وكتاباته على الدوام.

لقد استطاع الفقيد أن يجعل أسلوب كتابته وخطبه جديداً على الساحة الأدبية، لهذا كان دائماً يشد مستمعيه لصدقه، وحسن آدائه، وأمانته، وتحققه من كلِّ ما يقوله أو يكتبه.

(د/أحمد هيكل)

أستاذ الأدب بكلية دار العلوم/ جامعة القاهرة

* * *

ـ كنت أكثر ـ وربما ـ أول من يعرفه من مصر على الإطلاق، وكنت أقصد زيارته لا لشيء ـ إللا لرؤيته فقط ـ رغماً من معارضته لي كثيراً في منهجي أو مذهبي الأدبي والشعري، فقال لي ـ ذات مرة ـ: لو أمسكت بقلمي لوضعت خطوطاً حمراء تحت كلمات ومفردات قصائدك الحداثية، فلم أستطع الرد عليه، عرفاناً بموقعه البارز ومكانته الرفيعة في حقل الأدب والنقد.

وهذه الصفوة من الأدباء والكتّاب المتميزين أمثال «حسين زيدان»، لا يكون عزاؤهم إلى إخوانهم أو أبنائهم.. إنما العزاء للأدب والأدباء بصفة عامة.

(د/عبد القادر القط)

أستاذ الأدب والنقد/جامعة عين شمس

* * *

ـ لزيدان استيعاب خارق للتاريخ، ولا سيما التاريخ الإسلامي، وتذكر وافٍ للأحداث يدعو إلى الانبهار ويجبرك على الإعجاب.. وهو ناقد سمح قوي الحجة، يصيب ولا يجرح، وفيه صفات كريمة منها: التراجع حين يرى أن الصواب عداه في أمر من الأمور، وتلك ميزة فضلاء العلماء، فليس المرء معصوماً أبداً من الخطأ.

(حسن عبد الله القرشي)

ـ إن الأدب والتاريخ والفلسفة وعلم الإنسان ووشائج القبائل ومنابر الخطابة والمحافل، هذه كلها لن تفقد الأستاذ زيدان يرحمه الله لوحدها، ولكن هناك غيرها من الأسر الأباعد ومن غير أقربائه، كان يرحمه الله يبرها ويواسيها بما يحفظ الكرامة ويصون ماء الوجوه.

لا يدري عن هذه الخصلة في الأستاذ الزيدان ـ يرحمه الله ـ أبناؤه ولا بناته ولا أحد من أصهاره أو المقربين إليه.. واحدة فقط هي التي كانت تعرف ذلك: إنها شريكة حياته التي عاشت معه الضراء قبل السراء، بصبر الكريمات من الحرائر، فكانت بذلك من أندر وأروع رموز الوفاء في هذه الحياة الدنيا!

وعندما كان يلمح ما يلوب في أنفسنا، وقبل أن نهم بتذكيره بمحاسن الإدخار، كان ـ يرحمه الله ـ «يفرك» يديه في تأثر كظيم وكأنه يقول: ليتني في سعة ولديَّ الكثير والمزيد، ثم تزين وجهه ابتسامة مشرقة يشع منها الحياء في وقار وجلال ويستشهد بقول:

يجود علينا الخيِّرون بمالهم ونحن بمال الخيِّرين نجود.

(حامد مطاوع)

* * *

ـ كيف أنسى يا سيدي أحاديثك العذبة في الآداب والعلوم والفنون والسياسة، فأنت صاحب مدرسة كبرى، وأنت تاريخ لا يُنسى، وقد كنت بطله الأوحد، وكان حديثك في التاريخ وحديثك عن الأنساب، من الأشياء المميزة التي كانت تأخذ بمجامع قلوبنا حتى كنا نتمنى أن لا يتوقف حديثك أو ينقطع.

(عبد العزيز أحمد ساب)

ـ كان الأستاذ الزيدان ـ رحمه الله ـ مدرسة أدبية قائمة بذاتها من حيث اللغة والأسلوب، وإذا كان هو أحد المتفردين في المملكة بمعرفة رجال السِّيَر والتاريخ القديم والحديث، ويبهر المستمع والقارئ بقدرته العجيبة في حفظ الأسماء والوقائع والأحداث، فإنه كذلك يبهر الجميع بقدرته الفائقة على توارد خواطره وتسلسلها في كتاباته ـ كما يقول ـ على الصحف التي تستكتبه إملاء دون كتابة أو تسطير على الورق.

(د/منصور الحازمي)

* * *

ـ الزيدان من الرموز الكبيرة التي تكتنز تاريخ هذه البلاد، وتدركه إدراكاً تاماً، وللأسف فإن الجيل الحاضر لم يستفد من خبرته وفهمه ومعلوماته الثمينة.

وأتمنى أن يكون قد دوّن شيئاً من تاريخ المملكة في كتاب، أو في مذكراته إن كان كتب مذكرات.. وفوق هذا وذلك فهو من المدركين لأحوال وأنساب وصلات القربى والاتصال في الجزيرة العربية.

(فهد العريفي)

* * *

ـ كان أديباً وخطيباً ومتحدثاً، ملأ الأندية والصحافة والمجتمعات بأحاديثه وكلماته الروائع، وكان ذا تأثير على السماع والقلوب، كما أنه يمتاز بجزالة كلماته ومقالاته وإرساله للأمثال والمأثورات في خطاباته وكلماته.

(أحمد محمد جمال)

* * *

ـ سنشعر بالفراغ الكبير الذي سيتركه الفقيد الرائد، والعلم الثقافي البارز «محمد حسين زيدان» في نفوسنا وفي الساحة الثقافية.

(طلال مداح)

* * *

ـ فقدت اليوم أحد أساتذتي، والذي كثيراً ما كنت أرجع إليه في

مسائل فقهية ولغوية وتاريخية.. كان ذلك منذ بدء دخولي الوسط الفني والدائرة الثقافية.. المعروف عن الراحل الكبير جمال وروعة حديثه، فإنه إذا ما جلست إليه حتماً ستكون صديقاً للمتعة والإبداع الذي يتناثر من فيه.

(محمد عبده)

❊ ❊ ❊

كتبوا عن الزيدان/ بعد وفاته

ـ كتب الأستاذ/محمد عمر توفيق:

لم يسعني أن أبكي أو أحزن كما لا يسعني أن أفكر بما هو أدهى وأمرُّ من الحزن والبكاء في تاريخ طويل عريض يمتد نحو ستِّين عاماً.. كنت أقف في أولها على مدرج الناشئة، وكان هو يخطب ويدندن في قمة الشباب اللامع يومها.. ثم في إطار الوظيفة.. ثم في عالم القلم والصحافة.. ثم فيما هو أهم وأقوى من رباط الأخوة التي كانت تقوى وتمتد في هذه الأثناء، فنحن مع بعضنا بها وفيها شيء موحد، وإن افترقنا أو تباعدت سبلنا على مرِّ الأيام.

كان هو فينا أنا وشلة الأصدقاء الذين كنا نلتف حول بعضنا، وهو في مقدمتنا ـ وإن نأت أو قربت الدار ـ كان هو الذاكرة التي لا تنسى، والمرشد الذي لا يضيع بين تخبطات الفكر ومتاهات الخاطر والوجدان.

كان يذكر ما ننسى، ويعلم ما نجهل، ويقول، فإذا هو كالمرجع في كل ميدان، حتى فيما يلوح أنه بعيد عن الاختصاص فيه.

كنا لا نكاد نفترق عن بعضنا إلاَّ لنذهب لما يشغل كلاًّ منا نهاراً أو ليلاً.. ثم نحن مع بعضنا في هذه الأثناء بقلوبنا التي اتصلت ببعضها لا يباعدها شبح الجسم أو خيال الكيان.. وتقاذفتنا الحياة بعد ذلك، فلم

تعد لقاءاتنا إلاَّ على دندنة الخواطر في قلوبنا.. نتحدث عبر الهاتف، أو عبر لقاءات خاطفة، كما هي سنة الحياة بعد تطورها إلى الأحط أو الأرقى كما قد نتصور الظنون!

ثم لا أدري كيف انتقل من دوامة أفكاري التي أكاد أتلاشى فيها وبها، وقد نعاه الناعي وفاجأني النعي، وكأنني لم أتوقعه منذ استغرقت الصديق الراحل إلى جوار ربه الأستاذ محمد حسين زيدان حالته الأخيرة بين المستشفى والبيت كل يوم.

كان هو يتوقع الموت، ويذكر توقعاته لبعض من يسمعونه على ندرة لقاءاته، بل تعذرها منذ حين لما كان يحسه من معاناة الألم والمرض، فلم يعد يطيق لقاء الناس، وهو الصبور الحساس.

وهرعت لأفكاري على نحو مما أسلفت..

لقد كان فينا يروي دائماً طرائف من الشعر والنثر عن الموت قاهر الأحياء، كالطرائف التي كان يرويها عن الحياة..

وما أكثر ما كان يروي عن الموت والأموات، وعن الحياة والأحياء.. وفي دنيا التاريخ والأدب والأنساب..

كان موسوعة مدهشة بغزارة المادة، ووفرة المعلومات، وكان ما كان.

ولا أدري ماذا أكتب وأقول، في كلمة كهذه أكتبها على عجل، وقد أذهلتني المفاجأة، مع أن الموت متوقع لا شك فيه، وشدتني اللوعة إلى أن أذرف أفكاراً مختصرة مرتجلة كهذه من طراز الدموع.. غير أن الالتياع أشد وأنكى.

أسأل الله الصبر والرحمة لأهله، وأولاده وأصدقائه، وأن يعظم

أجرهم، ويحسن عزاءهم، وأن يتغمد الفقيد برحمته ورضوانه.. وأن يرحمنا جميعاً.

* * *

ـ أما رأي الأستاذ «الزيدان» في صديقه «محمد عمر توفيق» فقد قاله من قبل:

ـ إذا قالوا الأسلوب هو الرجل فإن أسلوب محمد عمر أطلعه علينا رجلاً، وما زال شاباً له أسلوب رائع ناثر ممتاز، يعتد برأيه ولا يتنكر لرأي الآخرين، كتب نفسه حين ثقف نفسه!

* * *

ـ وتحدث الأديب والمؤرخ «حمد الجاسر» فقال:

ـ «إن الصدمة لا تدع للإنسان رأياً، والحزن يقضي على التفكير والرأي.. والأستاذ محمد حسين زيدان هو الآن في مقام ينبغي لعارفيه وإخوانه ومحبيه أن يبتهلوا إلى المولى جلَّ وعلا ليتغمده بواسع رحمته، وأن يتقدموا إلى الأمة العربية بالعزاء بفقد علم من أعلام الأدب العربي، وعلم من أعلام الأدب بلاغةً وخطابةً وسعة إطلاع وتعدد آفاق.

والأستاذ محمد حسين زيدان: تلاميذه كثيرون جداً، منهم من تتلمذ عليه فيما ينشر من آراء في مؤلفاته وما تنشره الصحف.. وما أكثر ما نُشر، وهو والحق يقال من أثرى أدبائنا إنتاجاً.. وأغزرهم علماً، ومن أوسعهم في مجال التفكير الواسع العميق، ولهذا قلَّ أن تجد أديباً في هذه البلاد لا يذكر الأستاذ محمد حسين زيدان ـ رحمه الله ـ ذكر المقدِّر المعترف بفضله والذي يحس بخلاء مكانه فراغاً واسعاً قلَّ أن يجد من

يملأه، وهذا الفراغ مع الأسف الشديد نشاهده في أوقاتنا القريبة يتسع.. فنحن في عام أو عامين فقدنا عدداً من أعلام الأدب بيننا.. حيث فقدنا الأستاذ «محمد سعيد العمودي»، وفقدنا الأستاذ «أحمد السباعي»، وفقدنا غير هذين الأديبين الجليلين الكبيرين.. ولكننا لم نر بروزاً يسد ما فقدناه من نقص.. ولم نر بين أدبائنا من نَحَى نحو أولئك في ثقافتهم العربية الأصيلة.

حقاً لدينا تطلع، ولدينا شباب، واتجاهات، وأفكاراً، وآراء، وتعدد مذاهب أدبية، ولكن الأدب العربي الأصيل فقد أعمدة وأساطين من بُناته لم يحل محلهم من يغني عنهم..

هذه هي حال الدنيا، والإنسان في هذه الحياة لا يستطيع أن يقف موقف المصادم لما يقدره الله.. وهو أحقر من يعترض على قدرة الله.. والله من قدَّر هذا، ولكن نسأل الله سبحانه وتعالى وقد كان ما قدَّر شديداً بالنسبة إلينا.. أن يلطف بنا، وأن يعوضنا عمن فقدناه خيراً، وأن يتغمد من مضى من سلفنا بواسع رحمته، إنه على كل شيء قدير.

❊ ❊ ❊

ـ وقال عن «حمد الجاسر»:

ـ بفخار هو أستاذي.. بيني وبينه تدبيج، لا يكتب حرفاً إلا وقد عرف المرجع.. أرخ لجزيرتنا، وجغرف، وليت هذه الجغرفة التي تؤخذ عنه تجغرف في خرائط.. لا يكابر.. يفرح بالتذكير، ويسمع للسائل والمعارض.

❊ ❊ ❊

ـ وكتب الأديب الكبير «عزيز ضياء»:

ـ هي معضلة، لأن الذين يتزاحمون على رثائه، ليسوا فقط القادرين على كتابة عبارات الرثاء، وإنما هم مئات وألوف من الذين شحن الزيدان ـ رحمه الله ـ أذهانهم، وقلوبهم، بل وأرواحهم، ليس فقط بالكلمة المجنحة.. وقد كان طوال أكثر من خمسين عاماً، والسدرة التي تنطلق منها هذه الكلمة، بتغريدها الشجي وألوانها الزاهية الخاطفة، لتحلق في أجواء الفكر، وآفاق تتزاحم فيها مشاعر الفن وأحاسيس الفنان، إلى جانب لمسات حانية رقيقة من عقل يشع ليضيئ سبلاً إلى «الحقيقة» التي لم يكن يجهل قط، أنها (الضائعة)، وإنها التي يخلق بقرائه أن يكتشفوا النثار منها،عسى أن يساعدهم على البحث عن الكنوز المخبوءة في جوف دنيا، كان يشعر دائماً أنه ـ وأعني هذا الجوف ـ يزداد امتلاء في كل ثانية من ليل ونهار.

رحيل الزيدان عن هذه الدنيا، لا يختلف عن رحيل العشرات أو المئات، ممن أختار الله لهم أن يرحلوا، ومنهم من كان في ميعة الصبا، وعصارة العمر، إلى جانب من بدا أنه قد استوفى نصيبه من رحيق العمر المقدور.. ولكن مما يظل من الطلاسم المغلقة على التقدير بالنسبة للولد والأهل، والرفاق والأصدقاء، الإصرار على استبعاد رحيل من نحب، حتى ولو كانت عناصر التأهب لهذا الرحيل تتلاحق على أجنحة تخفق يوماً بعد يوم، ولكن عيون الحب لها أجنحتها التي تتجاوز المشهود والمقدور، في آفاق أمل بأن يمن الله على الحبيب بالعافية ليمطره غيث حياة في رحاب الآجلة.. وإن كان إيمان الجميع أن العاجلة خير وأبقى.

ولقد كان هذا هو الرحيل الذي اختاره الله للصديق، والرفيق،

والحبيب الأستاذ محمد حسين زيدان.. فلقد بدا منذ ذلك المساء الذي وقفت فيه إلى جانبه في سريره، وأخذت أتحسس يده وأسمع منه أن البرد الذي يشعر به، ليس من ارتفاع درجة التبريد من (المكيف) وإنما من داخله.. من الخلايا والأنسجة في جسمه ـ وكانت تلك التفاتة إدراك للحالة التي يعانيها رحمه الله ـ ولعلّي قد اقترحت أن يوقف (التكييف) وأن تزداد الأغطية، فإذا به يقول: (البرد من الداخل.. من الكيان كله.. فليكن ما يريده الله.. والحمد لله.. وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..) ثم يقول: (سلِّم لي على دلال.. وضياء، وأمهما..) ثم يردف قائلاً: (لا أخفي عليك، إني أستثقل زيارة الأصدقاء.. قل للمستشفى إني لا أريد أن يزورني أحد، حتى ولو كان من أهلي)!!

والتفسير الوحيد لاستثقاله زيارة من يتزاحمون على زيارته في المستشفى، ثم في منزله أن روحه قد بدأت مرحلة التحليق فيما وراء هذه (الدنيا).. هذه الدنيا بكل ما فيها من الأهل والولد والأصدقاء والرفاق.. ربما كان في نفسه سؤال: (كيف يدركون أن ما بيني وبينهم على هذه الأرض، آفاق وآفاق، يصعب أن تصل إليها زيارة، أو يحيط بها عناق)؟

لقد كان الزيدان صديق عمر، ورفيق مسيرة بدأت منذ عهد بعيد سحيق، بقي من ذكرياته ما يذكرنا به، فهو هذا الأخ الذي ندر أن يفارق صديق عمره كله منذ أيام الصبا، وحتى اللحظات الأخيرة من سويعات الرحيل، وأعني الأستاذ السيد ياسين طه.. كان الذين يرون السيد ياسين، يرون معه الأستاذ محمد حسين زيدان، وإن لم يترافقا حضوراً أو مشياً في دروب الحياة.. فإذا كان هناك من تزجى إليه كلمات عزاء، ورثاء وإشفاق وحبٍّ فهو السيد ياسين طه، مثالاً للوفاء، وأعجوبة الود، تسللت ولم

تهجر مضجعها الدافيء عبر علاقة الحب الموروث عن الآباء والأجداد.

وبعد:

فما أكثر ما ينبغي أن يقال في رثاء الراحل العظيم، ولكن ما أقل ما يتسع له الوقت، مع ما تذرفه العين من الدمع، وما يرتعد له القلب من الحزن والأسى، فالضراعة إلى الله سبحانه أن يتغشاه بالرحمة والرضوان، وأن يلهم المئات والألوف من عارفي فضله الصبر والسلوان.

أما الولد والأهل، فالعزاء لهم في ذكراه التي سوف تظل عطرة فوّاحة بالتقدير والتكريم .. رحمه الله.

ـ وقال عن عزيز ضياء:

ـ أبو ضياء عزيز يكتب بالموسيقى، لأن له أذناً أستغرب وهو يستعرب. له أسلوب علم نفسه فإذا هو من أهل الفوق.

ناثر جيد، ولكنه قد يصك أذنيه عن بعض ما يستجيده الآخرون!!

ـ وكتب الشاعر والأديب والصحافي «عبد الغني قستي»:

ـ كانت له بصيرة نافذة في بلورة أحداث التاريخ وتحليلات شخصياته من خلال السلوكيات والمبادئ في أي موقع من مواقع المسؤولية والريادة.. ولا شك أن اختياره في رئاسة مجلة «الدارة» كان تقديراً كريماً لهذه الموهبة التاريخية الفذة التي كان يتمتع بها يرحمه الله..

والزيدان قبل أن يشارك في مسيرة الصحافة بمقالاته وفي انطلاقته الإذاعية وأحاديثه التلفازية، فإنه أسهم قبل كل ذلك في الحركة التعليمية في مدينة المصطفى ﷺ كما أنه شغل كثيراً من المناصب في الدوائر الحكومية والمؤسسات الوطنية.

ومن هنا.. فإن الفقيد كان مكافحاً في أكثر من مجال، وكانت له مشاركات أدبية وإعلامية وتعليمية واجتماعية، وربما كانت له إسهامات أخرى في مختلف ميادين الحياة والعمل.

* * *

ـ وقال عن «عبد الغني قستي»:

ـ لو نصحت أي وزير لاقترحت أن يكون كاتم سره.. شاعر مقل يفقه الشعر ولا يتفيهق بالنثر.. صاحب خلق يحملك على الثقة به.

* * *

ـ وكتب الأستاذ «عبد الله عمر خياط»:

من خلال سهرة تجمع فيها رؤساء تحرير الصحف المرافقين للوفد الرسمي إلى مؤتمر القمة الذي عقد بالمغرب الشقيق في أعقاب نكسة ٦٧م.. دار الحوار حول من يمكن أن يكون من كتّابنا بين العشرة الأوائل.. وبالإجماع كان الأستاذ الكبير محمد حسين زيدان ـ يرحمه الله ـ أحد الخمسة الأوائل.

وفي اجتماع آخر بفندق اليمامة بالرياض.. ضم إلى جانب ذلك النفر من رؤساء التحرير، وهم كلاً من: الأستاذ عبد المجيد شبكشي ـ يرحمه الله ـ البلاد، عمران عمر العمران الرياض، عبد الله بن إدريس ـ الدعوة، حامد مطاوع ـ الندوة، عثمان حافظ ـ المدينة، «وفي المغرب كان الأستاذ محمد علاقي رئيس تحرير المدينة».. عبد الله عمر خياط ـ عكاظ ـ..

إلى جانب هؤلاء.. كان مشتركاً في الحوار كل من: معالي الشيخ

عبد الوهاب عبد الواسع، والأستاذ عبد الغني أشي، والأستاذ عبد الله أبو السمح، والدكتور يوسف نعمة الله.. وثانية تكرر الحوار لتسمية العشرة الأول من كتّابنا.. ورغم الاختلاف على بعض الأسماء، إلاَّ أن اختيار الأستاذ محمد حسين زيدان كان من بين الخمسة الأول لم يكن محل جدل على الإطلاق.

وفي مكتب رئاسة تحرير عكاظ.. جلس الأستاذ محمد حسين زيدان ـ رحمة الله عليه ـ ذات يوم يحدثني وأخي الأستاذ عبد الله جفري ـ وكان يومها يشغل منصب سكرتير تحرير عكاظ ـ عن رحلة الكلمة.. وما يلقاه الكاتب من العنت والمعاناة.

وبعد حوار طويل.. ونقاش متشعب تسيَّده الأستاذ الزيدان ـ يرحمه الله ـ بالكلمة المجنحة، والبيان المرهف، فقلت: إن الله جلَّ وعلا يقول في سورة التوبة: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: ١٢٠).. فإذا بالدمع يُذرف من عين الأستاذ يرحمه الله وهو يقول: «إن في القرآن شفاء.. ليس فقط من المرض.. وإنما حتى من الهوى والغرض»!!

* * *

ـ ثم فرك كفيه ببعضهما، وهو يتهيَّا لمغادرة المكتب وقال: إقرأوا القرآن.. تُجيدوا البيان، واعملوا به على الدوام تنالوا حسن الختام.. والسلام.

وبعدما تلقيت نبأ وفاة أستاذنا الكبير محمد حسين زيدان من أخي عبد الله الجفري هاتفياً وأنا بالخارج.. توقعت من محطة تلفزيون

(MBC)، وهي التي صنعناها لتكون صوتنا في الخارج وأداة تتولى تصوير ما حققناه من تقدم بالبناء والفكر.. أن تقدم برنامجاً عن هذا العلم الذي ملأ حياتنا فكراً، وعلماً.. وله في كل مناسبة صولة، وجولة بالبيان المعبر.. ولكن أملي خاب!!

وعندما عدت مع مطلع هذا الأسبوع سألت إن كانت الإذاعة، أو التلفاز قد قدما شيئاً عن الأستاذ الزيدان وحياته الحافلة بالعطاء.. فلم أسمع إلاَّ الحسرة.

وتناولت الصحف والمجلات.. فوجدتها ملأى بالرثاء ـ في صحافتنا ـ غير أن عكاظ قد بزت الجميع بتصدير خبر انتقال الأستاذ الزيدان إلى رحمة الله في مطلع صفحتها الداخلية وفي ذا وذاك ما يؤكد صدق مشاعر أخي الدكتور هاشم عبده هاشم وإحساسه الصحفي النابض الذي يعطي عكاظ تفرداً دائماً ويجعلنا نفخر بأننا ننتسب لهذا الجريدة المتفوقة.

وعدت إلى الصحف والمجلات أقرأ رثاء المسؤولين، والصحفيين والأدباء والكتّاب لأستاذنا الكبير محمد حسين زيدان ـ يرحمه الله ـ، فوجدتهم بالإجماع يؤكدون إعترافهم جميعاً بالمكانة السامية التي كان يحتلها الزيدان ـ عليه رحمة الله ـ وعطاءه الثر الذي أثرى به صحفنا، ومكاتبنا، ومنتدياتنا.. بالبارع من الكلم، والطيب من القول.. حتى قيل فيه كما قرأت: (أن الزيدان أمة)، وهذا حق.. فلقد حفل تاريخ الزيدان بالعطاء في دنيا الحرف بما لا مثيل له من جميع أنداده ومعاصريه من الأدباء، والكتّاب.

ولكن... ما أقسى كلمة: ولكن!

هل هذا كل ما يمكن أن يناله الزيدان من الحياة وقد وهبها عمره مجاهداً في دنيا الحرف؟!

أو أن الأمر سيقتصر على تسمية شارع باسمه؟ ـ وبالمناسبة ـ فإن اسم الزيدان موضوع على شارع لم يتعرف عليه في حياته، ولم نصل إليه أو نمر منه لأنا لا ندري أين هو؟!

ليتنا نعترف بالتقصير في تكريم الأستاذ الزيدان يرحمه الله في حياته، ونسارع إلى تجسيد الاعتراف بمكانته بما يليق من الأعمال التي توفيه حقه وتحفظ ذكراه للأجيال القادمة.

رحم الله الأستاذ الزيدان، فقد كان علماً، ولا بد لتكريمه من عمل يكون معلماً لكفاحه.

❊ ❊ ❊

ـ وقال عن «عبد الله عمر خياط»:

ـ هو رئيس تحرير كحسن قزاز أعرف قدرهما، فالخياط يفرح بالمقال من أجل الجريدة ينشره وكأنه كاتبه..

هو والقزاز لم أرض بعاطفة وعقل غيرهما كرئيسي تحرير.

❊ ❊ ❊

ـ وقال الشاعر الكبير «محمد حسن فقي»:

ـ إن نبأ ارتحال الأستاذ الكبير محمد حسين زيدان من دنيانا الفانية إلى رحاب ربه.. كان نبأً فادحاً لمكانة الأستاذ الأدبية والتاريخية والثقافية بوجه عام في بلادنا.. وهي مكانة رفيعة قلَّ أن تعوض: لقد سئلت مراراً

عديدة من الصحافة ومن التلفاز والإذاعة عن الفقيد الراحل، فقلت عنه: أنه مكتبة حافلة متحركة، وأنه يكتب بتفوق في الأدب، وفي التاريخ، وفي السير، وفي تراجم الرجال، فيطرب الأسماع والأفكار ويحوز على إعجاب قارئيه.

إن الزيدان موهبة أدبية تاريخية رائعة.. وهو إلى جانب قلمه المتمكن خطيب مرتجل من الطراز الأول، وكثير من الناس يقولون عنه إنه في خطابته أروع منه حينما يكتب، وأنا أقول أنه مبرز في كليهما.

لقد سعدت بمزاملة الصديق الزيدان بوزارة المالية والاقتصاد الوطني، وكان معنا ثلة من الرفاق تزدهي بهم دنيا الأدب والثقافة، وكنا في قسم من تلك الوزارة العتيدة، هو قلم التحرير أذكر من هؤلاء الرفاق الكرام: السيد حسن محمد كتبي، وحسن عبد الله القرشي أمد الله في حياتهما.. وأحمد قنديل، وحامد كعكي يرحمهما الله، وكثيراً ما كنا نتحاور في الأدب والشعر، ونتغنى بأعلامهما في الداخل وفي الخارج، لا سيما في الشقيقات مصر وسوريا والعراق ولبنان.. وكان أكثر ما يميز الزيدان عنا جميعاً مع وافر علمه وفضله أنه يتمتع بحافظة قوية تؤازرها ذاكرة ممتازة تكاد أن تكونا خارقتين.

* * *

ـ وكتب الشيخ «أبو تراب الظاهري»:

ـ ورد على أذني النبأ الفاجع، والخبر الجازع، بالمصاب القاصم للظهور، والمشجي للصدور، وهوى هذا الطود الشامخ، والعلم الباذخ، «محمد حسين زيدان» فأطار لبي، وهد ركني، وأكبت زندي، وفل حدي،

واستكت منه مسامعي، واستهلت له مدامعي، وأوصل إلى قلبي كلماً لا يندمل وثلماً لا يلتئم، وصدعاً لا ينشعب، وثأياً لا يرأب، وحرقة لا تداوى، وارتماضاً لا يدانى، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإنا بفراقك لمحزونون.

وعلم الله أن جفوني لم تذق طعم النوم ثلاث ليالٍ متواليات، انثالت فيها عليَّ ذكريات نصف قرن مع صديقي الراحل، طوراً في كلمة له أقرؤها، ويرسلها منحوتة من فكره الثاقب، وذوقه الرائق، وطوراً في شخصه بعينه أعاشره في العمل يؤديه نسجاً منمنماً، وإتقاناً محكماً، وفي حاليه كان رحمه الله بارعاً لامعاً، مدرهاً مفوهاً، يقضي منه رائيه شدهاً إذا خطب، وعجباً إذا كتب.

فلما التقينا والنقا موعد لنا تعجب رائي الدر منا ولاقطه
فكم لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها وكم لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وشبهت ذاكرته الحاضرة بآلة التسجيل إذا غمزها لتسمع ما حواه الشريط فسبحان واهب القوى، الذي أودع رأسه خزانة ما طواه التاريخ، وما اقتبس من تجارب الزمان، ومخالطة الأقران.

فكما علَّمه الرافعي الأسلوب في الكتابة، وطه حسين الارتجال في الخطابة، علمه فقه الأئمة استنباط الحلول لما يعتاص من مسائل تقع في الوقت والحال ملتفة كالحرجة، ثم علمته سير الصحابة والسلف دماثة الخلق، وحسن التعامل مع الناس، ولطف المعشر، وسماحة النفس، وعلمته التقوى والإحسان إلى ذوي الخلة والسعي في مصالحهم، وكان موحداً لله، متبعاً للسنة، يختار في الأحكام عند خلاف الفقهاء ما يؤيده

الدليل، ولا يقلد واحداً بعينه، وإن هذه لعمري أمارة نضج العقل عنده، ورجاحة الحجى لديه، وقد حل في نجوة سامية، ورهوة رابية، وأوفى على قذفات الجبال، وسما إلى شرفات التلال، وتأطم وربا فوق المراقب.

ورحيل مثله من الدنيا رزء فادح للأحبة، وحادثة ممضة للأمة، على إيمان منا بأن الموت حق، وكل نفس ذائقته، لا يحجزه وزر ولا تنفع منه شفاعة الشافعين، ولا طبابة الحكماء النطس، ولكن انقشاع مزن كهذا يؤذن بالجدب وزوال الخصوبة، فكان عماداً تزعزع، وبناناً انجذم، وجبلاً هقاً، وبحراً سبحى.

وما كان عمر هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدَّما

فالأسف عليه أليفنا، والأسى حليفنا، والغم كميعنا، والهم ضجيعنا وهذا لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر، وإنما هو من سجايا النفس البشرية وقد قال عليه الصلاة والسلام: القلب يحزن، والعين تدمع (وفي الصبر مسلاة الهموم اللوازم).

ودمعة العين من الرحمة، والتعزي مشروع، والمؤمن يسأل الله إذا استرد ما أعار، واسترجع لما وهب، المغفرة لمن تقدمه، «وكل على حوض المنية وارد».

وإنما نتذكر محاسن فقيدنا العظيم، فقد كان ساد البرعاء، وبزَّ البلغاء وشأي الفهماء، ورأس الحكماء في عصره ووطنه، وكان المقدم على نظرائه، والأثير على أكفائه، وهو الأديب الذهن والعارف الفطن، والمفضل على أضرابه، وسيد أصحابه، وقد فات المدى، وتعدى الزبى،

وبلغ في بيانه المبتغى الأعلى، والمرتقى الأنأى.

مضى غير مذموم وأصبح ذكره　　حلى القوافي بين راث ومادح

أليس «الزيدان» غيب في الجنن، وسامر الجنادل، وغطاه هابي التراب؟ بلى أنتزعته من بيننا يد الأقدار، ولله ما أراد وما اختار، وأجن في لحده ماسوفاً عليه فهل سيعود مكروراً منه، أكرم الله منزلته، لقاء ما كان يحسن إلى من يحتاج إلى وجاهته وشفاعته، وبرَّد مضجعه ونور ضريحه.

وما كان إلاَّ كالسحابة أقلعت　　وقد تركت في الناس مؤعى ومشربا

وكان مما جبل عليه رحمه الله حب العلم والعلماء، وتكريمهم ندى الكف، رحب الفناء، إذا اعتصر عوده، وهزَّ جذعه، وكذا حب الأدب والأدباء، والتظرف معهم، وتمكينهم من حاجهم، إذا استماحو نهره، واستمدوا سيبه، ويطرب للشعر الجيد الجميل، رقيق الحواشي، لطيف الكلمات، غير غامض المعاني، كأنه يشور لك من لسانه عسلاً مصفى، وترنحه الكلمة الشاعرة، بمطبوعته السليقة، وربما تقهقه لها مستأنساً، وتمايل كأنه عقير العقار ولوّح بيده يعبر عن سرور خاطره، بإشارة ظاهرة.

وفي موقف وجدان كان يبكي، وينشج وهو شج يستعذب العذاب، ويرى الوصل في الموافقة على المخالفة، وترى الدمعة تتحدر على خديه حبات جمان لا ينتظمها سلك الجوهر، ويتأوه كالرجل الحزين، كأن نار الحب تتقد في أحشائه، وأوار الوجه يتلهب في جوانحه، وهو عفيف يفن جاوز الثمانين عاماً.

ما درى نعشه ولا حاملوه　　ما على النعش من عفاف وجود

إن الحب الذي تغلغل في جلجلان فؤاده كان علوياً ذا عنصر زاك، تحالف معه وهو في مسرحه يرتع، وفي منادحه يسيم، مطنب الخيمة، منجم الأدب، أرهف إحساسه فانحاز بوقاره، محمود الشاكلة، ممدوح الدخلة، ومضى على مذاهبه المستحسنة، وطرائفه الجميلة، وهو مدرب مجرب، محنك محكك، وناوشته الكماة فقارع كل قرين مرهج واحتدقت به الفوارس فأنحى على كل بطل مدجج، فارتجفت هامات الرجال حين أذهل النهى، وتزلزلت الأقدام حين نزع الشوى، فكان الأغلب الوقاص، والصارم المعقاص.

فتى كسماك الغيث والناس دونه إذا أجدبوا جادت عليهم سحائبه

وداعاً يا خليلي وقد هيل عليك التراب، ووسدت في رمسك حتى نتلاقى يوم البعث والنشور، وسأمسي مثلك دفين ثرى، ورهين بلى، ضيف اللحود، قرى لبنات الأرض والدود، وسأظل وأنا حي واجم القلب، ذابل النفس، متقسم الفكر، متقلقل الحشاء، موقناً بأنه مصرع لا بد من وروده، وحال لا بد من شهوده، وسبيل مسلوك لا تقي منه بروج مشيدة ولا قصور ممردة، فنزع لباس البقاء هو غاية كل حي، ومصير كل شيء، ليس له دافع، ولا دونه مانع.

حسب الخليلين نأي الأرض بينهما هذا عليها وهذا تحتها فان

اسأل الله لك الرحمة والرضوان وأن يتلقاك بالعفو والغفران وينلك من كرامته أجلَّها، ومن رأفته أكملها، وينزلك منازل الأبرار، ويبوئك غرف الجنان، ويورثك النعيم المقيم، والأجر الجسيم والثواب التميم، ويمنحك

العيشة الراضية، منحى من ورطة الهاوية، ويعينك من أن تذل وتشقى، وأن تهان وتخزى.

يا رب إن العبد يخفى عيبه فاستر بحلمك ما بدا من عيبه
ولقد أتاك وماله من شافع لذنوبه فاقبل شفاعة شيبه

اللَّهم شفِّع فينا نبيك ولا تحرمنا من كرمك، واجعلنا من جملة المعفو عنهم.

قال أبو تراب: ذكرياتي مع الفقيد الغالي، الرزين العقل، الطيب النجار، حبالي لو أستعرضها ما وسعها حيز هذه الكلمة المقتضبة، ولعلّ محبيه وهم كثر ينهضون لإصدار كتاب يترجم عنه فأكون أحد رافديه بما عندي من لطائفه ونوادره، تجالسنا فيها زمناً طويلاً تارة، وتهاتفنا بها أخرى، وما يمر بنا يوم إلاَّ وقد تذاكرنا في مسألة بحثاً وتنقيباً، ألا ما أحلى تلك الأويقات مضت كالشهاب وضوئه، وحارت اليوم رماداً اللَّهم إلاَّ الارتسامات اللطاف، عن أجلى ذلك المطاف.

* * *

ـ وقال عن الشيخ «أبو تراب الظاهري»:

ـ أستاذي ولا فخر أرجع إليه إذا ما جهلت.. إن علم الإجابة صدع بها وإن لم يعلمها تريث ليراجع حديثه.

في شواهد القرآن أعاد لنا ذكرى أئمة المربدين: مربد البصرة والكوفة.

هو تلميذ المربدين: مربد البصرة والكوفة.

هو تلميذ المربدين، وتلميذ المسجدين، ويكفيه أن يكون كذلك.

❊ ❊ ❊

ـ وكتب الأستاذ «أمين عبد الله القرقوري»:

كيف أنعي «البيان» وهو خلود كيف أرثي «البديع» وهو بقاء؟
يا أمير البيان ذكرك باقٍ بعد موت للجسم فيه فناء

ومات محمد حسين زيدان..

مات الجسد، وصمت اللسان، ولكن الجانب الأدبي الرائع في شخصية الزيدان الإنسان لم يمت، لأن الكلمة البليغة لا تفنى ولا تموت.

سيظل أدب الزيدان للأجيال مصدر إثراء للفكر وللوجدان، وستبقى افكاره ينبوع نقاش وجدل ومصدراً للبحث عن الحقيقة.

سيبقى أدب الزيدان للعربية كما بقيت آثار البلغاء من أدباء العربية مثلاً للإبداع ورمزاً للجمال.

أجل، مات محمد حسين زيدان.

وفقدت البلاغة العربية بموته علماً من أعلامها، وفقد المنبر خطيباً بارعاً لا ينسى، وفقد الحوار رجل الحوار الذي يزرع الأفكار الصعبة المعقدة ـ حين يحولها إلى مسلَّمات ـ في عقول محاوريه.

وفقد التاريخ المؤرخ الأديب الذي يكتب التاريخ بأسلوب أدبي رائع، يذكِّر القارئ بالمؤرخ العظيم «جيبون» الذي كتب تاريخ الإمبراطورية الرومانية بأروع الأساليب الأدبية وأعمقها.

أجل مات محمد حسين زيدان وترك فراغات لا يملؤها أحد.

لقد اجتمعت في الزيدان الأديب خصائص قلما اجتمعت في أديب: إنه محدث رائع، وخطيب لا ينسى، وكاتب يذكِّرك بالبلغاء من كتاب العربية، وصاحب ذاكرة كانت رمزاً للحضور الدائم الذي يبعث الإعجاب في كل نفس.

والزيدان الأديب خليق بأن يدرس آثاره النقاد، وأن تكتب عنها المجلدات.

وبعد: إن الحديث عن الزيدان الأديب الكبير رحب متعدد الجوانب، وهيهات لي أن أقدم شيئاً من هذا الحديث، فهو طويل طويل وجميل وجميل.

رحم الله كاتب العربية البليغ رحمة الأبرار، وألهم أهله والمعجبين به الصبر، وعسى أن تجد البلاغة العربية بعده من يذكر القراء به، كما كان يُذكِّرنا بالكتَّاب الرائعين في اللغة العربية الجميلة والشاعرة والعظيمة الخالدة.

* * *

ـ وكتب الدكتور «هاشم عبد هاشم» رئيس تحرير صحيفة (عكاظ):

ـ بعض الناس يموت جسداً، ويعيش وجوداً كاملاً في أذهان الأجيال.

ومن هؤلاء القلّة القليلة، الرجل الكبير الكبير في عقله، وأدبه، وفكره، وإنسانيته/محمد حسين زيدان ـ يرحمه الله ـ ويسكنه فسيح جناته.

فقد ترك لنا إرثاً ضخماً من الآراء، والأفكار، والمقولات، والمشاعر، سيظل إلى مدى طويل من الزمن. يمثل رصيداً هائلاً للأجيال المتعاقبة.

بين كل الأجيال، فهو وإن عاش هذا الجيل إلاَّ أنه كان، محصلة أمينة لأجيال وثقافات ورؤى ماضية، وقد كانت له القدرة على أن يعيش ثلاثة أجيال كاملة.. الجيل الذي سبقه، والجيل الذي يعيش فيه والجيل الذي يخترقه كل لحظة بما أوتي من قدرة على القفز المتوازن إلى الغد.

لقد كان الزيدان تاريخاً متحركاً، ورحلة ممتدة بين كل العصور.. كان كلمة حيَّة مجنحة، وفكراً متسامقاً ومتجدداً باستمرار، يكره التوقف عند اللحظة.. عند المشهد، لأنه ينتمي إلى جيل ولود ومعطاء.. كما يتميَّز ـ دون غيره ـ بروح متوثبة وشابة، وعاطفة جياشة جعلته قريباً من كل النفوس.

والذين عرفوا الزيدان لفترات طويلة.. عرفوا ـ من خلاله ـ كل معاني الالتزام، والقوة، والصمود، حتى في أيامه الأخيرة كان قوياً، وشامخاً، لأنه عاش ومات وهو يكره الضعف، والتراخي، والتهاون.

لقد كان الزيدان كبيراً.. لأنه لم يتغلب على شيخوخته فقط، ولم ينتصر على العزلة فحسب، ولكنه ظل صامداً أمام تحديات الزمن، وتقلباته، وعاش حياته كل حياته.. بِمثُله وقيمه، ومواقفه، وآرائه الخاصة، ولم يتنازل عن أي منها فكان محل احترام الجميع.

والزيدان الذي أحب جيله.. عشق الأجيال الجديدة، ومد لها جسور العون والمساعدة والدعم، وكان يقول ـ رحمه الله ـ:

لئن كان جيلنا هو جيل الصبر، فإن الجيل الجديد هو جيل اختبار الصبر.. إنه الجيل الذي ينمو في أرض رخوة ولكنها رغم تحركها من تحت قدميه إلا أنه قادر على ترسيخ هويته، وتأكيد شخصيته المستقلة.

والزيدان الذي يحبُّ الغد، ويتعاطف مع صانعي المستقبل.. لم يعش

منفصلاً عن هذا الغد، ولا ذلك المستقبل، حتى أنك تحسُّ وكأنه يعيش مجنحاً.. في آفاق أخرى باستمرار، رغم ثبات قدميه، وصلابة إرادته، وانتمائه الأصيل إلى ماضيه وحاضره.

والذين يحبون بعمق، ويتفانون بإخلاص، ويضحون بكبرياء نادرون، ومحمد حسين زيدان من هذه القلة النادرة.. فقد عرفت فيه الكثير من الخلال والمزايا التي تدفعك إلى تقديره، وإكبار خطاه، والإعتزاز به، وتذكر مآثره، وتصرفاته، والاحتفاظ بها، وحثُّ الأجيال المتعاقبة على الاستفادة منها، والتأسي بها.

أجل.. إن الرجال الذين يمنحون الحب للناس، بصفاء وصدق، هم الذين يعيشون في جوانح الناس وبين طوايا نفوسهم، ومن هؤلاء، أب الكلمة المجنحة، والصوت المؤثر، والإرادة الفولاذية، والتاريخ الحي المتحرك على لسانه، وبين ثنايا ذاكرته.. ذاكرته الحية والمتيقظة والمستوعبة بكل ما وعت، وقرأت، وشاهدت، وسمعت.

لقد كنت أمنِّي نفسي بأن نسجل فترات مشرقة في تاريخ هذه البلاد من خلال ذاكرة الزيدان الحية، ومعاصرته الأمينة، ووعيه المدرك للكثير من تلك الأحداث، لكن التاريخ الشفهي يموت مع أصحابه، حين لا يجد من يعتنون به ويلتقطونه من بين ثنايا ذاكرة الكبار.

لكن محمد حسين زيدان نفسه، يشكل تاريخاً موصولاً، سيكون من الوفاء للرجل أن نسجله، أو نرصده، أن نتتبَّعه، أن نصنع منه قاعدة انطلاق جديدة، نحو غد مضيء.. لأجيال تعترف بالفضل لأصحابه.

* * *

ـ وقال عن الدكتور «هاشم عبده هاشم»:

ـ رئيس تحرير عكاظ احترف الموهبة فإذا هو واهبها للعاملين معه. عمق الود فيه يحمل على الثقة به.

* * *

ـ وكتب عنه الشاعر الكبير «محمود عارف» هذه المرثية في الفقيد:

مات زيدان.. والمرارة تَبْدو   في لسان الكتّاب.. والشعراءِ
في ضحى السبت.. فارق الروح حتى   عرف الناس.. منتهى الأحياءِ
والحياة العناء.. والكلُّ يلقى   حظَّه من شقائها والعناءِ
لا تدوم الحياة.. ما دام فيها   جسد.. قدْ أصيبَ بالإِعياءِ
ذاق زيدان.. قسوة الدَّاء شهراً   راضياً بالسكوت والانطواءِ
كان في مجلس الصفاء.. أنيساً   يُمتع الجالسين حُلّو الصفاءِ
وهو في المنتدى.. أديب مُجلِّي   يتوخى شعائرَ الفضلاءِ
مُلهم في البيان.. حلو المعاني   كل حرف.. يصوغه باعتناءِ
قلم بارع.. يخط كنوزاً   وكنوز التاريخ أصل الثراءِ
وكنوز الأسفار.. تُثْبتُ حقاً   جُهده.. والمحك في الاحتواءِ
وإلى جانب التميز يبدو   حاضراً في القلوب رمز وفاءِ
لست وحدي أقول هذا، ولكنَّ   صداه.. في الفضل فوق السَّواءِ
ما علينا، وكنت ألقاه يوماً   بعد يوم.. في الساحة البيضاءِ
هو هذا «زيدان» رائد جيل   بعد جيل.. والسِّبْق للنبلاءِ
وإذا مات لا تقولوا توارى   صاحب العلم.. خالد الانتماءِ

* * *

ـ وكتب الناقد الدكتور «معجب الزهراني» :

ـ أثارت وفاة الأديب الكبير الأستاذ محمد حسين زيدان هزَّة قوية في الوسط الاجتماعي والثقافي في المملكة، إذ إنه كان ـ يرحمه الله ـ أحد الرموز الهامة في مجال الكتابة الثقافية الموسوعية التي ميزت جيلاً بكامله، ولا أدلُّ على هذه الحقيقة من كلمات التأبين التي امتلأت به صحفنا بمجرد انتشار الخبر الفاجع، إذ عبَّر نخبة من رجال الأدب والفكر والثقافة في المملكة عن أعمق مشاعر الأسى لفقد هذا الكاتب الكبير، والذي تميَّز بحسن الخلق، وسعة الأفق، ورهافة الذوق، وتسامح الفكر، وتفتُّح الذهن وغير ذلك من الخصال التي عرفها البعض منا عن طريق الاتصال المباشر، وعرفه الآخرون عبر الكتابة «الزيدانية» المتميِّزة بكل المقاييس.

ورغم أهمية الوفاء للرموز حين تتخطفهم أيادي الأجل المحتوم، إلاَّ أن هناك وسائل وطرائق أخرى ربما كانت أكثر قدرة على تجسيد مشاعر الوفاء والعرفان تجاه روّادنا وبشكل يتجاوز الآراء والمواقف الشخصية.

فمن واجب جامعاتنا مثلاً أن تخصص بعض قاعات الدراسة الكبرى التي تمتلئ بها لتحمل اسم محمد حسين زيدان، أو أحمد السباعي، أو حمزة شحاته، أو العواد، أو الأنصاري، وغيرهم من الأعلام الذين كرسوا جل حياتهم لخدمة وتنمية الخطاب المعرفي والأدبي والثقافي في هذا الوطن، هذه الفكرة البسيطة والمعروفة جيداً كأحد التقاليد الثابتة في الجامعات الغربية العريقة، لن تكلفنا شيئاً يذكر وسيكون مردودها على الذاكرة الثقافية الوطنية دائماً ومتجدداً، ولعلّه من المحزن والعبثي حقاً أن يحمل الكثير من القاعات أرقاماًغفلاً، أو تسميات لا تتضمن أيِّ قيمة من وجهة النظر الفكرية والعلمية، بينما يمكن لبعض أسماء كتّابنا الرواد أن

تجمل جامعة بأكملها! وحين أتكلم عن الجامعة فما ذلك إلاَّ لأنني أحد منسوبيها الذين يرون الإعلانات عن انعقاد هذه الندوة أو ذلك اللقاء في القاعة رقم كذا وكذا، وإلا فلا بد أن في النوادي الأدبية والرياضية وفي الفنادق الكبيرة وفي الكثير من المؤسسات الرسمية و غير الرسمية الأخرى الكثير من القاعات التي نأمل أن تحمل اسم زيدان أو غيره من الروَّاد، إذ ينطبق عليها ما ينطبق على القاعات في الجامعات.

كما أعتقد أنه من واجبنا جميعاً، في الجامعات وخارجها، أن نفكر في تنظيم حلقات دراسية أو ندوات يكون موضوعها الأساسي: مناقشة أعمال أحد هؤلاء الكتّاب الموسوعيين، ويشارك فيها المتخصصون في الأدب واللغة والتاريخ والاجتماع والإعلام.. وتأتي أهمية مثل هذه الحلقات والندوات من كونها تمثل مساهمة حقيقية في درس وتمحيص عطاءات الروّاد وتحويلها من خلال الجهد المعرفي المنظم إلى رافد مستمر ومتجدد في ثقافتنا، وإلى مكوّن رئيسي في الوعي الثقافي الوطني.. فمن المؤكد أن المعرفة والثقافة نتاج تراكم الجهود واتصالها، وأن الوعي هو محصلة لسيرورات ثقافية جماعية يلعب فيها بعض الكتّاب المبرزين أدواراً تتجاوز بكثير ما كتبوه فعلاً في مجال محدد من مجالات الأدب والفكر.

كما أن هناك بالتأكيد وسائل أخرى للاحتفال بهؤلاء الروّاد وتخليد أسمائهم وإنجازاتهم في ذاكرة الأجيال القادمة، لكني لست بصدد قول كل ما يمكن قوله في هذا السياق، ولعلّه من الخطأ ومن قبيل الخطر علينا جميعاً أن تسود بيننا الثقافة الاستهلاكية المسطحة التي تجعل شبابنا في الابتدائية أو في الجامعة يعرفون «كل» نجوم الرياضة أو الفن، وقد يعلمون من الأسرار المتعلقة بحيواتهم الشخصية الكثير بينما يجهلون أن محمد

حسين زيدان، مثله مثل غيره من جيل الروّاد، ألَّف عشرات الكتب، وحرر آلاف الدراسات والمقالات، وكل ذلك من أجل خدمة الإنسان في هذا البلد، وتطوير وعيه بلغته، وعقيدته، وهويته الحضارية.

ـ وكتب الدكتور «عبد العزيز شرف» في صفحة الأدب والثقافة بصحيفة الأهرام/ العدد الصادر بتاريخ ٩٢/٥/١٥م، يقول:

ـ نودع هذه الأيام رمزاً من رموز «الوفاء العقلي» في أمتنا العربية، هو الأديب والكاتب السعودي محمد حسين زيدان، الذي رحل عن عالمنا في الأسبوع المنصرم.

فوفاؤه لأمته العربية، ولمملكته، ولمصر، تسجله سطوره المدوّنة في الصحف والكتب، على النحو الذي يجعل من الوفاء شارة على علم كبير من أعلام أمتنا العربية، بدأ حياته مدرساً للتاريخ والمواد الدينية في المدينة المنورة عام ١٣٤٦هـ، ثم مدرساً للعقيدة السلفية في دار الأيتام، فمديراً مساعداً لها، إلى أن عمل سكرتيراً للمجلس المالي بوزارة المالية، ورئيساً لمحاسبة اللوازم، ومديراً عاماً لشؤون الرياضة، ومفتشاً عاماً للحج، ومنذ عام ١٣٧٤هـ تفرغ للأدب والكتابة، فعُيِّن مديراً لتحرير «البلاد»، ثم رئيساً لتحريرها، وانتقل للعمل رئيساً لتحرير جريدة «الندوة»، ثم تفرغ بعدها للكتابة في الصحف مُعْرباً عن وفائه العقلي لقضايا أمته ألعربية.

وقد شارك في تاسيس الرابطة الإسلامية كمساعد للأمين العام، وعُيِّن عضواً بمجلس دارة الملك عبد العزيز لمكانته الأدبية والتاريخية، ورئيساً لتحرير «الدارة» المجلة الدورية المتخصصة ذات الطابع الأكاديمي، والتي ظل يشرف على تحريرها حتى اللحظات الأخيرة من حياته، وأذكر أنني حينما طلبت منه تقديماً لكتاب «عبد العزيز آل سعود وعبقرية الشخصية

الإسلامية سجل «أحب العرب غرب السويس إسلاماً، ولغة، وأنسالاً» على حد تعبيره، «فالعرب غرب السويس من شاطيء القنال، وأرض البرزخ وطأة عمرو بن عاص ـ من ساحل بحر الظلمات «الرباط» وطأة القدم ـ قدم عقبة بن نافع ـ كل هؤلاء الناس العرب المسلمين بهذا التحديد الذي حددتْ ـ يحبون أرضنا وإنسانها».

ويؤكد هذا المعنى الكبير في كتبه وثمرات قلمه، فيكتب تحت عنوان: «إن هذه أمتكم أمة واحدة»، يستشرف آفاق المستقبل لتعود أمتنا سيرتها الفعَّالة، ذلك أن «حقائق التاريخ ترفض الانفرادية، وتثبت بها وحدة الأمة»، وإذا يشارك في ندوة عقدتها جامعة عين شمس يقول: «إن إنفرادية التاريخ تنفيها حقائق التاريخ بل وترفضها، فالذين نحتوا الجبل في حجر ثمود، إتخذوا منه بيوتاً، ما أحسنها، وما أشد عراقتها في القدم! والذين نحتوا الجبل في البتراء/سلع، في أرضنا العربية البلقاء هم آباء، إخوان الذين بنوا الجبل إهرامات في مصر، فالحضارة واحدة، لا يسقطها الترديد المنحرف يختص بها شعباً من شعوب هذه الأمة دون الشعوب الأخرى».

إن العروبة في الرؤيا الإبداعية عند زيدان: لسان قرآن، وأرض جنان، كالتزام وإلزام بحتمية تاريخ هذه الأمة.. فلئن كانت أمة العرب قد صنعت التاريخ المشرِّف، والأمجاد العظيمة، فإنها من صناعة التاريخ.. تاريخ الإسلام، هذا الدين الحنيف.

وفي استقرائه التاريخي، يتجه العقل المفكر نحو اللغة الشاعرة، فيقول زيدان: وبقيت إمبراطورية اللغة العربية منتشرة في كل أقطار الأرض، فما دام القرآن يُتلى في المساجد، والمحاريب، والمدارس، والجامعات،

وعلى لسان كل المصلين، فإن هذه اللغة باقية بحفظها الذكر كأنما هي قد دخلت في حفظ الله حافظ الذكر.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

ـ وكتب القاص المبدع (حسين علي حسين):

ـ قبل سنوات سيطرت عليَّ فكرة واحدة هي: أن أكتب مذكرات محمد حسين زيدان!

وفاتحته في رغبتي، لكنني وجدت الرجل ملولاً.. فقد كان من النوع الذي إذا زارك لن يمكث في مجلس أكثر من دقائق، ثم ينطلق إلى عمله أو منزله أو أي مكان آخر.. لكنه في كل مرة كان يملي عليَّ مجموعة من الذكريات، كنت أنشرها فوراً في مجلة «اليمامة»، ثم انقطعت عن زيارة الزيدان، أو قل قلَّتْ رحلاته إلى الرياض، كان ذلك منذ أكثر من عشر سنوات، وقد كتبت في الصحف أطالبه بتسجيل ذكرياته، لكنه كعادة مبدعي الكلمة، يفضل أن لا تكون ذكرياته من ذلك النوع المدرسي الجاف.

كان أسلوبه سلساً ومتراقصاً، مفعماً بالموسيقى والحنان.

كان من الممكن أن يكون الزيدان شاعراً، لكنه فضل أن يعيش كالعصفور طائراً فوق كافة ألوان الشجر!

لقد فرحت بكتابه الذي صدر قبل سنوات «ذكريات العهود الثلاثة»، فقد وجدت فيه بعضاً من رائحة أهلي ومدينتي، وكان بودي أن يكون لهذا الكتاب أجزاء متتالية، فذكريات الزيدان تشبه العطر فواحة وندية، وغالباً ما تعلق في النفس لأيام وشهور متتالية!

والآن تيقنت أن الزيدان لن يفي بوعده ويكمل ما تبقَّى من ذكرياته، فقد فتحت الصحف هذا الصباح لأقرأ نعي محمد حسين زيدان، لم يكن ما في الصحف محزناً فقط، فقد تعودنا على الحزن، وتعوّدنا على مفارقة الخلان، الذين يرحلون واحداً إثر واحد، وكأنهم يهربون من هذا الزمن الصعب، المليء بالغلط وعدم التقدير والأنانية، المليء بالمنغصات.

لكن مع ذلك الحزن الصباحي كانت وفاة رجل ملء القلب والنفس، فالزيدان ليس أي راحل، إنه من ذلك النوع الذي عندما يصلك نعيه تتوقف الدمعة في عينيك، ذهولاً وهلعاً، مع أن هذا درب الجميع، الكبير والصغير، فالجميع تأتيه فرصة الموت وليس له خيار في عدم اهتبال هذه الفرصة، لكن هناك من يموتون كما تموت الأبقار، وهناك من يموتون كما تموت الفيلة، وهناك من يموتون كما يموت الفرسان، ولكل موت خصائصه ومزاياه!

كنت أعد الزيدان أباً، فهو عاطفي تماماً، لا يستحي من دمعته، ولا يستحي من الحنو على الصغير وتقريبه وتلمُّس حاجته إلى العون والمساعدة، سواء كانت هذه الحاجة مادية أو معنوية، مع ذلك فإن هذا الرجل العاطفي الحنون، تكاد تتخيَّله أحياناً في قمة الغطرسة والكبرياء، وهو كذلك دائماً في مواجهة من يظنون به ضعفاً أو حاجة إليهم!

ومحمد حسين زيدان كان فناناً في عباراته، حتى لتظن أن مقالاته عقداً متواصلاً من اللآلئ!!

لقد خلَّف لنا الزيدان ثروة لا تنضب، فقد علَّم أبناءه وبناته وتلاميذه معنى الحب، وأخرج لنا من قبل ذلك وبعده مئات المقالات والخواطر والأحاديث والمؤلفات التي سوف تظل شاهدة على أن رجلاً من مدينة

المصطفى ومن هذه الأرض الطيبة حفر اسمه في دفتر التاريخ بشكل ناصع ومتألق!!

رحم الله معلِّم الأجيال عدد ما هلَّ المطر.

* * *

ـ وكتب الأستاذ «عبد المقصود خوجه»:

ـ فقدت بلادنا والأدب طوداً شامخاً برحيل الأستاذ الكبير محمد حسين زيدان.. لم أعرف له صنْواً بقدر ما أتيح لي أن أختلط بكثير من أدباء العالم العربي، فخلفيته «المدينة» جعلته يتشرب أريج طيبة الطيبة، ونهل من بيئتها الطاهرة، وطبَّع بعادات أهلها الخيّرة، ثم جلس على حصير المسجد النبوي، وأخذ العلم عن كبار الشيوخ، وفي الوقت نفسه تخرج من المدرسة الراقية الهاشمية، وبدأ حياته العملية «معلم صبيان»، كما يحلو له أن يقول رحمه الله.. فقد عمل أستاذاً في مدرسة دار الأيتام بالمدينة المنورة، غير أنه لم يقتنع بما حصَّله من علم لم يظفر الكثيرون بمثله في ذلك الوقت، فطلب العلم مجدداً.. لم يسافر كغيره إلى الأزهر أو الشام.. بل قال بكل فخر واعتزاز: « أتعرفون أول من علّمني القراءة؟ لقد علمني سوق (الحراج) وجريدة «ألف باء».. كنا نفتش في الحراج لنجد بعض الكتب التي يعرضها أصحابها للبيع نتيجة الفقر والعوز والجوع الذي ألَّم بهم، فيبيعونها بمبالغ زهيدة لا تتجاوز قيمة القرش الواحد أو القرشين، فأنقِّب عن كتاب ينفعني، فأشتريه وأقرؤه، ومن هنا تعلمت القراءة من هذا السوق، ثم تعلمت القراءة في مكتبة كنت أبيت فيها، حوت أمهات الكتب».

منتهى الصدق، والعفوية، وقوة التعبير، وسهولته التي استطاع بها دائماً أن يعبر الحواجز ويصل مباشرة إلى قلوب محبيه الكثُر.. رجل عصامي علَّم نفسه بدافع داخلي أملى عليه حب العلم وجعله يبحث عن كتاب ينفعه في سوق (الحراج).. تطاول عملاقاً بإنجازاته ومؤلفاته التي ارتفعت به إلى مصاف كبار الأدباء والخطباء.

إن عقله الجبار، واطلاعه الواسع، وذاكرته القوية، وخلفيته التي نسجها من مجتمع المدينة وامتزجت بثقافته العالية.. أهَّلته ليكون عبقري زمانه، ويشكل مدرسة قائمة بذاتها لها كل مقوّمات المدرسة الأدبية، فأسلوبه مميَّز خاص له إيقاع يختلف عن جميع الأدباء، وعبارته فخمة مجنحة تنطوي على حكمة، أو قول ماثور، أو طرفة مليحة، أو كلام بين السطور.

أما التاريخ والأنساب ومعرفة قبائل العرب، فتلك مجالاته المفضلة، أو التي يجد فيها نفسه إذا صح التعبير.. وبالأصح تنساب ذكرياته بطلاقة ليس لها مثيل باسلوبه المتفرد ونبوغه الذي عرف عنه منذ بواكير صباه عندما يتطرق لهذه المواضيع.

إن رحلة الفقيد الأستاذ الزيدان طويلة، ومعاركه هادئة، رزينة.. تنم عن أصالة معدنه وحبه للحوار الهادئ، سواء عن طريق الصحافة أو غيرها، وقد كان على حق في معظم الأحيان، وبالحق انتصر.

رحم الله استاذنا الزيدان على قدر ما قدَّم لوطنه وأمتَّه، وأسبغ عليه شآبيب غفرانه، وأفسح له جناته مع الصدِّيقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقاً.

ـ وقال الزيدان عن عبد المقصود خوجه:

ـ قبل أن يكون ثرياً كان ثرياً، فمن ثرواته: الوفاء لأصدقاء أبيه.

أكرم الذين «يستاهلون» التكريم، فغذا هو وكأنه كرَّم نفسه بالعطاء والوفاء.

ـ وكتب الأستاذ «تركي عبد الله السديري» رئيس تحرير صحيفة (الرياض):

ـ محمد حسين زيدان.. أشوفه كثيراً، وأشوفه قليلاً**!!**

فهو يأتي عبر أزمنة متباعدة، وحين يأتي يخاف أن يثقل على الآخرين، فلا يمكث إلاَّ دقائق.

عرفته قبل أن يعرفني.. كنت طالباً أذهب مع الأصدقاء في رحلات إلى الخرج، عندما كانت الخرج هي كل شيء لنا خارج حدود مدينة الرياض، وفي الطريق أصغي بعناية إلى صوته يأتي عبر برنامج إذاعي يختتمه بقوله: «قدَّمها وبرْمجها لكم أخوكم القديم محمد حسين زيدان».

رجل يجمع بين أشياء كثيرة وجميلة:

فهو المؤرخ، والمثقف، والمحدث، والصحفي... ينساب من بين شفتيه حرف الراء المخفف الأنيق، كما هو في لهجة مكة، مثلما يندفع في شرح التعابير البدوية الموجودة عند حروب المدينة أو حُرَّث الطائف.

لم يركن إلى شيخوخته أبداً.

ولم أستطع أن أراه ذات يوم عاجزاً عن أي شيء.

كان دائم الحضور.. قريباً إلى كل الناس.

يخاطب كل من هو أصغر منه بنداء: «يا إبني»، ويستعمل الطُّرْفة الأدبية أو الاجتماعية في كل حوار مرح يفتحه مع الآخرين.

كان لديَّ موظف في القسم الفني بالجريدة، مولع بالمخالفات، لكن لا أكاد أنهي علاقته بالعمل حتى أجد من يحدَّثني عنه، فأعيده إلى العمل، حيث يختار من يتحدَّثون إليَّ بعناية، ممن لا أستطيع أن أرد لهم طلباً، لأنني لا أستطيع أن أشرح لهم جميع مخالفاته، حتى وصل إلى الزميل عثمان العمير في لندن بعد أن استنفد كل الموجودين في الرياض.

ذات يوم وقد استنفد كل من أعرفهم، فوجئت بجرس التليفون يرنُّ، وكان المتحدث الأستاذ الزيدان.. قال بكلمات مختصرة: أحدثك عن فلان، ولا تحدثني عنه، لكن لا تحرمني من أن يكون لي دور في استقامته بعمله وشكراً.

وانتهت المحادثة، وعاد الموظف إلى عمله.. وما زال فيه.

للمرحوم محمد حسين زيدان حضور محبب لدى الكثير ممن يعرفونه، وكان عفُّ اللسان.. فرغم انتشار الخصومات الأدبية بين الشيوخ، إلاَّ أنه لم يتعرض لأحد أمامي ذات يوم بسوء.. وكان رغم تقدمه في العمر، وعجزه عن الكتابة، أحرص على أن يفي بالتزامه مع الجريدة كل يوم جمعة، حيث يبعث بفراغات الغرابيل التي ينتقها.

رحم الله محمد حسين زيدان.. أباً للكثيرين، وصديقاً لكثيرين، وفقيداً لصحافة بدأ معها منذ مرحلة الصغر، وتركها وهي شامخة منتشرة.

* * *

ـ وكتب الشاعر «سعد الحميدين»:

ـ قال لي مرة المرحوم محمد حسين زيدان حول سؤال عابر مؤداه: لماذا هذا الانتشار الكتابي.. حيث لا تخلو صحيفة، أو مجلة إلا من موضوع لكم؟!

ـ قال بمرارة: أيش نسوِّي لأمة دفانة/إما أن تكون متواجداً ومُعلناً عن نفسك، وإلا فإن أحداً لن يسأل عنك.

قال ذلك، أو معناه، وهو يضحك، ويبتسم بابتهاج بأنه يستطيع أن يكتب، وأن يشارك في كل محفل وشؤون الحياة الثقافية، والاجتماعية.. حيث لا يصل إلى الرياض، وهو الرجل المسن، إلا ويذهب إلى الصحف زائراً، وإلى الأصدقاء متفقداً، حتى بدون الدعوات، معلّلاً ذلك بالتواجد والحضور لكي يكون محمد حسين زيدان الشاب المتحرك دائماً حتى في شيخوخته، لأن الشيخوخة في رايه هي شيخوخة الروح لا الجسد.. وكان يؤكد ذلك دائماً في كتاباته، وجلساته، وأحاديثه.. مما يضفي عليه حيوية دائمة، إذ يشغل نفسه دائماً بالفكر الذي نذر نفسه له.. مؤرخاً، وناقداً وكاتباً إجتماعياً، ومتحدثاً بارعاً إذاعياً، وتلفزيونياً.. وفي المحافل، ولسان حاله يقول: لو لم أفعل ذلك (لنساني الناس وأنا حيٌّ، وقُبرت وأنا حيٌّ).. وقد قال كثيراً هذا الموقف الذي كنت أُكبر فيه أستاذي الزيدان من أجله.

فما أن أطلب منه (سبعة أيام) متوالية وفي أصعب وقت، إلاَّ واسمع كلمة: «إن شاء الله».. وما أن يمضي من الوقت ساعة وأقل إلاَّ ويهاتفني قائلاً: «هاه.. وصل الشغل» فما أن أجيب بنعم إلاَّ ويقول: شكراً ويقفل سماعة الهاتف قبل أن يسمع كلمة شكراً.

وكذلك في «غرابيل» التي كنت أعجب من حرصه عليها، ونظامه في هذا السن.. ولا أجد ذلك عند الشباب إلاَّ بعد إلحاح ومناشدة.. وهنا كان الفرق، وكان التقدير الذي أكنُّه للرجل منذ أن عرفته كاتباً، ثم شخصاً يزداد، ويزداد.

ـ لقد تملكتني الحيرة، والحسرة ذات يوم قريب عندما هاتفته مستفسراً عن صحته، وعن حاله، ولماذا انقطعت «غرابيل الجمعة».. فكان جوابه: «خلاص.. مالي ومال الكتابة» وكنت أظنُّه مازحاً تبعاً لمقولته السابقة: «الأمة دفَّانة» ولكن لم يكن يدور بخلدي أن الرجل قد سئم الكتابة، والظهور الاجتماعي، والثقافي، كما عُهد عنه، وعهدته كمتعامل معه كأب لي، وأخ كبير، ومربٍ، ومعلِّم.

ـ أسال عنه فيقال: في المستشفى.

وأسأله وهو في المستشفى فيقول: «والله شويه فحوصات»، وتكون العودة إلى المنزل، وأطلب الكتابة، فيقول: «خلاص.. خلاص يا سعد.. إني أموت»، فلم أحاول تذكيره عن ضرورة التواجد لكيلا أزيد من ألمه، ولكن أُلمِّح.. فما يكون منه إلاَّ الصدود ومحاولة إنهاء المكالمة بأيِّ شكل فلا أحاول أن أتعبه، أو أزيد من حالته.

ـ وكتب الأستاذ «عبد الله باجبير»:

ـ مات عالم وعلاَّمة، واختفت علامة من علامات زمننا، وانطفأ في شارع التاريخ أحد أنواره العالية.. مات محمد حسين زيدان، وليس في السعودية كلها من لم يتتلمذ على يد الراحل الكبير، ومؤرخ الجزيرة الأديب المثقف الصحفي.

أجيال من المثقفين، والصحافيين، والمؤرخين دقوا بابه، واستظلوا

بظله العريض.. إنسانياً وثقافياً.

أجيال بعد أجيال نشأت على وجود الرجل الذي ظل يعمل ويكتب ويؤرخ ويراجع حتى أشرف على التسعين، وبهذا العمر المديد عاصر محمد حسين زيدان شبه الجزيرة العربية، وشهد مولد المملكة العربية السعودية على يد مؤسسها خالد الذكر الملك عبد العزيز آل سعود، رحمه الله.

وقد عرف ولاة الأمر فضل الرجل، وقُلِّد منصب رئيس تحرير مجلة «الدارة» التي تصدر عن دارة الملك عبد العزيز.

أحاول منذ سمعت خبر وفاته أن أستعيد شريط ذكرياتي عنه ومعه، وفي زحمة مشاغل كثيرة لا ترحم، تذكرت زيارات له، وهي بحكم بعدي المتواصل عن الوطن كانت قليلة، ولكن أتذكر البدايات، عندما كان جيلي كله يذاكر في مدرسة محمد حسين زيدان.. نحمل كتبه، ونردد أفكاره، ونستلهم تاريخه وأبحاثه، ونستمع لخطبه وحواراته، ونتباهى بأننا رأيناه وقابلناه.. ثم أُصبح من المعجبين بشخصيته، والمتابعين لكتبه.. وأكتب عنه وعنها فيتصل بي شاكراً، وهو صاحب الفضل، ويشجعني ويصحح بعض أخطائي.

وبعض الأسماء اللامعة، عندما تقترب منها ينطفئ اللمعان، وتجد فارقاً شاسعاً بين ما يقول وما يفعل، وترى صورة البطل مختلفة عن الأصل، ولكن الراحل الكبير، كان يزداد لمعانه كلما اقتربت منه.. ويزداد حبك كلما تعرفت عليه.

كان نبعاً صافياً من الحنان والرقة والحب والوفاء.. وقد تألمت عندما علمت أنه كان يفتقد هذه المعاني كلها من بعض أصدقائه في أيامه الأخيرة، ولعلّنا جميعاً سنحمل نفس المرارة في أيامنا الأخيرة.

العالم لم يعد هو العالم الذي كان..

رحم الله محمد حسين زيدان.

* * *

ـ وكتب الأديب «محمد عبد الواحد»:

ـ ما كانت مواقع الخطى عبر تاريخنا الطويل تعرف رجلاً فذاً كما كانت تعرف الأستاذ «محمد حسين زيدان».

كان عرَّافاً، وعرَّاباً ماهراً تلعب الكلمات كالسيوف على شفتيه، وتعجز كل بلاغة الزمن المرُّ أن تلحق بحافر الزيدان، إن هو كرَّ أو فرَّ، وها أنتم تخضعون الجيل لمن يقرأ في ملامحه كنه صلابة الصخور، وهذا عيب أيما عيب، فكل علمائكم النفسيين وصمودهم، ومن استدعيتموهم لفحص مسام جلد الزيدن لن يتسنى لهم فحص «...» لا اكثر**!!**

هذا هو رأيي.. فالرجل أكبر من أن يُحلِّل، ويُخضع لمشارط وأبضعة بليدة وقاصرة.

من هنا ينبغي أن يتعظ من هو مثلي، ونحن أقل من القليل، إذا ما جاء ذكر أكثر من الكثير محمد حسين زيدان.

إن رسالتي هذه ليست مواساة.. فالمأساة مأساتنا، وطعم المرارة على لسان الشيخ.. هي علقم على كل ألسنتنا.

كنت إخال أن الزيدان، ولا زلت، أنه جمجمة ستبقى أبداً.. أبداً في ضوء الشمس، فمثله لا يرثى حياً، ولا يرثى ميتاً.. فحروفه أكبر من أن تموت**!!**

خذوا من الشيخ ما يقول!!

ودوَّنوا عنه ما يقول.. فكلماته صادقة واضحة جريئة.. وضوح نفسه الطاهرة.. الشجاعة.

وعجبي أنه جاء زمن يُفسَّر فيه وجه الشمس.

كان صوته يشق وديان النحاس..

كان يأتي كالرعد، ويسقط كالبرق على قمم جبال السراة!

ـ وكتب الأستاذ «عمر أبو زيد» مدير مكتب مؤسسة (اليمامة) الصحافية بالمنطقة الغربية:

ـ محمد حسين زيدان: إسم بارز في سماء الفكر والأدب والقلم في المملكة العربية السعودية... فقد حلق في سماء الأدب كاتباً، ومؤرخاً، وصحفياً، ومؤلفاً، وخطيباً بارعاً، حافظاً للتاريخ يرويه بطريقة عجيبة تتغلغل إلى عقل وقلب القارئ والسامع، وكأنه جرعة يتلقاها بلذة ما بعدها لذة.

بالطبع فإنها لذة روحية وعقلية، كذلك هي رحلة الزيدان الطويلة الجميلة الممتعة.. مَنْ منَّا لم يعايشها؟ ومنْ منَّا لم يتتلمذ في جامعة الزيدان؟... جميعنا كنا عشاق الحرف والمعرفة والثقافة والتاريخ.. تتلمذنا وتخرجنا على يد الزيدان ومعينه الذي لا ينضب.

وقد كان الزيدان يواصل شموخه، بالرغم من معاناته من المرض والشيخوخة.. فقد ظلَّ يناضل فكراً وتاريخاً، ويتفنن بشكل عجيب في مفردات اللغة العربية.. تظن وأنت تستمع إليه وتقرأ له أنك أمام قطعة موسيقية متكاملة مستمتعاً بها ذهنياً.. تدخل البهجة على النفس، وتربط

الذهن بأدغال التاريخ العربي والإسلامي والإنساني.

هكذا كان الزيدان عملاقاً منذ بدايته وحتى وفاته، وبموت هذا الرجل فقد فقدت المملكة العربية السعودية رجلاً من خيرة أبنائها الذين أعطوا الشيء الكثير لهذا البلد، وخدموا الثقافة في شتى علومها: أديباً، ومفكراً، وصحفياً، ومؤرخاً، وكان دوره بارزاً.. كما فقدت الساحة الأدبية والتاريخية في اللملكة العربية السعودية بموت الزيدان أحد رجالاتها الأوفياء، من الصعوبة بمكان أن نجد شخصاً يملأ الفراغ الذي تركه الزيدان.

مع عيد الفطر المبارك اتصلت به هاتفياً، وكان معافى من المرض الشديد، ورد عليَّ بصوته الجهوري: «أهلا يا عمر.. إيش أخبار الرياض الجريدة؟.. بلغ تحياتي لهم جميعاً... وأنا يا عمر أوقفت نشاطي حالياً لجريدة الرياض من خلال الزاوية الظريفة الجميلة (غرابيل)، فلم تعد صحتي تسمح بأكثر من ذلك، وعسى الأيام تسعفنا بتقديم أكثر من ذلك...».

وتمنيت له صحة وعافية، وهنأته بالعيد السعيد، وقلت له: إن ما قدمته كافٍ، ليس لهذا الجيل فقط، ولكن للأجيال القادمة في هذا البلد الطيب.

عندما استضافته الرياض كاتباً كبيراً لامعاً مخضرماً، بدعوة من سعادة رئيس التحرير الأستاذ تركي عبد الله السديري، ليقدم عطاء التاريخ، وحكمته وثقافته، وعظاته، وأمجاده، عبر زاوية (غرابيل)، وعبر زاوية سبعة أيام، برع كصاحب فكر، وصاحب اطلاع، وصاحب تجارب وصاحب أسلوب مميز ندر من يجاريه فيه أو ينافسه عليه، فغربل في

التاريخ، وصفحاته، ورسم أبعاداً من الحكمة والثقافة والتجارب والآمال في أيام الرياض.

رحم الله الجامعة المتحركة التي توقفت عن العطاء والبذل، رحم الله محمد حسين زيدان، الأديب، المؤرخ الكاتب، المثقف، أستاذ الكتاتيب، وأستاذ الجيلين، وأستاذ الكلمة المجنحة، الطائرة الخاطفة المليئة بعبق التاريخ وتراثه، وأمجاده.

* * *

ـ وكتب الأستاذ «علي محمد الرابغي»:

ـ (آنَ للفارس أن يترجل) عبارة شقت عنان التاريخ، إقترنت بالبطل التاريخي عبد الله بن الزبير، وأطلقتها سيدة من سيدات العالم الإسلامي أسماء بنت أبي بكر، لتستقر في مسمع العالم، ولتكون أداة تعبير تسعف في مثل هذه الحالة.

نعم.. الزيدان يرحمه الله، كان فارساً من فرسان الحكمة والكلمة، ذو نكهة متميِّزة فاق بها أقرانه، فلقد كان صاحب أسلوب متميز، وهو فوق ذلك أستاذ في التاريخ لا يدانيه أحد من معاصريه، خاصة وأنه أجاد التعبير في تاريخ الشخصيات.

الأستاذ الزيدان كان يقرِّبُك من الشخصية الإسلامية حتى وكأنك تعيش معها وجهاً لوجه، وأحسب أن ذلك تفوُّق لا يشك فيه أحد.

ألتقيته قبل نحو ٣٥ عاماً، عندما كان مسؤولاً عن تحرير البلاد، وكان يلتقي بلطفه وأبوَّته بالكثير من جيل هذه الأيام بمطابع الأصفهاني.. كنا نتجمهر حوله فيتسيّد المكان والزمان والحديث.

ولـم يكـن الأستاذ الزيدان، رغـم إرثه التاريخي الطويل، تقليدياً.. وإنما كان متجدداً في ثقافته، وفي عطائه.. يسخِّر أرثه، وكنوزه من الثقافة التاريخية العريقة، لتبلور الحاضر بكل معطياته وإبداعاته الجديدة.. من هنا كان يحتوي كل المواقف، ولا يجد الشباب حرجاً لمحاورته.. فلقد كان الأستاذ الزيدان يمتلك قدرة فائقة على السيطرة على الأجواء.

الزيدان كان لا يستخدم قلمه، وإنما كان لسانه قلمه.. كانت الآلات تنصت بحب له: متحدثاً من خلال التلفاز، أو من خلال المذياع.. فيتحدث وكأنما يغرق في بحر.. كانت العبارة الزيدانية تمتاز بالرشاقة، وبالتوافق وبالطباق.. وكان يسعدنا في كثير من الأحيان إذا ما لجأنا إليه سائلين عن أي مسألة لغوية أو بلاغية، وكان لا يجد غضاضة في أن يطلب الوقت ليلجأ إلى المراجع ليبحث عن تفسير لما نسأل، وكأنه بذلك يلقن طلبته درساً في كيفية البحث والتعامل مع أمهات المراجع.

لقد كان الزيدان بحقٍّ كنزاً علمياً معرفياً متحركاً، له سحره وجاذبيته، يسود المجالس، ويجيد إستقطاب اهتمام الناشئة وإعجابهم.

لقد افتقدت الساحة الأدبية، والساحة الثقافية والفكرية، فارساً من أبرز فرسان الكلمة، وأحد الذين عقدوا صداقة متينة مع التاريخ.

كان كتاباً مفتوحاً للتاريخ ـ تاريخ الأمة الإسلامية ـ بما يحفل به من أمجاد، وبالذات تاريخ الشخصيات التي ضربت جذورها في تربة هذا الوطن، منذ أشرقت أنوار الرسالة المحمدية.. وتاريخ الفكر السياسي والثقافي بالمنطقة.

* * *

ـ وكتب الأستاذ «علي محمد حسون»:

ـ قبل أقل من شهرين على ما أذكر.. أتاني صوته هادئاً وهو يقول: إنني أكلمك من البيت.. لقد تركت المستشفى بعد أن انتهت الفحوص.. ثم أردف قائلاً في لهجة عَشِقَها من بعض مشائخه فأحبها ليقولها لمن أحب، قال: يا واد، لقد قرأت كلمتك المنْشورة عني اليوم في جريدة البلاد، وكأنك تنعاني! قلت وأنا لا أكاد أمسك ما يجيش في نفسي لحظتها، وأنا أسمعه يقول ذلك: لك طولة العمر يا أستاذ.

ـ قال بصوت مليء بكل الرضا: لقد أحسست براحة وأنا أقرأ ما قلته عن مواطن الذكرى والشجن، عن قباء والعوالي والعيون وقربان، تلك العامرة بالود والحب.. لقد ذكرتني بما سبق أن قلته ذات يوم وأنا في الباخرة في أول رحلة إلى الهند.. وكان الفجر قد بزغ والصبح قد تنفس.. بعين الذكرى تهزُّني هزًّا حينما أسمع صوتين: صوت المؤذن، وتغريد القُمْري.. كانت قمرية تغرد على فنن.

وأحسبني أعجبت بكلمة تُغَرْهِد أكثر من «تُغرِّد»، غرْهدت القمرية فانتزعني إلى مكان آخر.. كان المكان «قباء» وكم لقُباء من ذكريات، تذكرت فجراً في قباء الحبيبة في الجزع على حافة «رانوناء»، سمعت، القمري فسرقت نفسي من حمأة المادة إلى حمى الذكريات، بكيت ساعتها وأنشدت:

رُبَّ ورقاء هتوف في الضحى ... ذات شجو هتفت في فنن
فبُكائي ربما أرقها ... وبكاها ربَّما أرَّقني
غير أنِّي بالجوى أعرفها ... وهي أيضاً بالجوى تعرفني

ثم قطع كلامه ليقول لي في صوت هامس: بشرني كيف حال أهلنا عندك؟!

ـ قلت: في خير، وعلى خير.

ـ قال: بصوت أكثر حميمية: بلّغهم سلامي!!

قلت: وقد أحسست أن الكلام يكاد يعصيني: متى نراك هنا في المدينة المنورة؟!

ـ قال: في استسلام لم أعهده فيه: أرجو أن يكون ذلك قريباً.. إنني أرى النهاية تقترب مني، فالذي بقي أقل من الذي ذهب.

ـ وفجأة سادنا صمت، خلته طال، عندما قطعه قائلاً:

ـ إيه فين رحت؟!

وكأنني أصبت برعشة، فسارعت قائلاً: أبداً، إنني معك.

ـ قال بصوت ضاحك: «يا واد»، بلا فرائخ، إنت تكتب كلامي الآن!

ـ قلت: وهل تمانع؟!

ـ أبداً لك كل الحرية في هذا.

ـ قلت: يا أستاذي.. لم أرك هكذا من قبل مستسلماً؟!

ـ قال بصوت حاول أن يجعله ضاحكاً: ألم يقل الشاعر القديم، وأظنه عمران بن حطان:

أفي كل عام مرضَة ثم نَقْهة

وينعي، ولا ينعي، متى ذا؟ إلى متى؟!

ولا بد من يوم يجيء وليلة

يسوقان حتفاً راح نحوك أوغدا

ـ قلت: وقد أخذني كلامه إلى البعيد: أراك تتحدث عن النهاية، وكأنها ماثلة بين عينيك؟!

ـ فردَّ سريعاً: هو ذاك، إسمع واكتب:

ولقد علمْتُ بأن قصري حفْرة ... غبراء يحملني إليها شرجع

فبكى بناتي شجْوهنَّ وزوجتي ... والأقربون إلى مآتم تصدعُ

وتُركْت في غبراء يكره وِرْدها ... تسفي عليَّ الريح، ثم أودِّع

إن الحوادث يخترقن، وإنما ... عُمْر الفتى في أهله مستودع!

ـ قلت: لمن هذه الأبيات؟

ـ قال: أظن أنها لعبدة بن الطيب.

وفجأة إنقطع الحوار.. أحسست أنه تعب فصمت.

وغاب عني صوته، وأصبح قليل الكلام.. نادراً ما يسمح بزيارته.. لقد أنهكته الأيام، وإن لم تسلبه حيوية روحه، أو إتقاد ذهنه. لقد ظلَّ على اتصال بمن يحبُّ.. رغم كل ما يشعر به من ألم.

أستاذي الكبير محمد حسين زيدان: في يوم رحيلك لا نجد إلاَّ نتفاً من الكلام عنك، ولا نملك في هذه اللحظة إلاَّ مزيداً من الصبر.. فأنت واحد من هؤلاء الكبار في نفوسهم، في طيبة معدنهم، في سموِّ أخلاقهم، في كرم طبعهم.. فأنت يا سيدي أحد المشائين بالخير، والفاعلين له، والمتحرِّضين عليه. ولولا كثيراً من الحرج يتلبسني الآن

لذكرت بعضاً يسيراً مما كنت تفعل، وتبذر من أعمال الخير.

ـ وكنت تقول في هذا: «إذا لم تستطع أن تنفع.. فلا تضر». أتوقف الآن.. وفي العين دمعة، وفي الصدر آهة، وفي الحلق شجى.

رحمك الله وأسكنك فسيح جناته.. أيها «المعلم» الكبير، المحب لكل هذا الكيان الكبير.

* * *

ياسين طه . . صديق العمر

ـ . . . والحزن يفيض عليَّ حقاً في الكلمة، ويتحول مزماراً. .

نتَّجه إلى: صديق عمر «زوربا» القرن العشرين، ورفيق أكثر مشاويره على درب الحياة، وهو الأستاذ السيد «ياسين طه» كاتب العبارة الرشيقة، والمتأمل اليوم الذي تحوَّلت كلماته ـ في رحيل رفيقه، وصديقه، وزميله (محمد حسين زيدان) ـ إلى: وجد له دموع، ونبرة حزن، ووحدة عزَل نفسه في داخلها صامتاً مغذًّا في تأملاته.

ـ فكيف يسترجع السيد «ياسين طه» ذلك الشريط الطويل من رفقة العمر مع الأستاذ «محمد حسين زيدان»؟!

ـ قال بنبرة الشجن والفقد: ماذا أتذكر من رفقة العمر كلِّه؟!

وما هو الذي يجب أن أبوح به.. وما لا يجب أن أقوله؟!

مهما قلت، أو كتبت، أو كُتِب عنه... فهو لا يعبِّر عن الأستاذ «محمد حسين زيدان» إلاَّ بمنحى من مناحي المعرفة التي عُرف بها، ومجالات الثقافة التي اتصف بها.

لهذا... فإنِّي أقرُّ، وأعترف بأنِّي عاجز كل العجز أن أكتب عن هذا

العالَم العالِم الضخم.. عن الأستاذ، الزميل، والرفيق، والصديق.

* * *

ـ بداية التعارف معه:

ـ كان أستاذي من أول يوم التحقت فيه بالمدرسة الفيصلية بالمدينة المنورة، وحتى تخرُّجي منها.

وفي الوقت نفسه.. كان زميلي في الدراسة!

كنَّا ـ أنا وهو ـ ندرس على الأستاذ «محمود الحمصي»: النسبة والتناسب، والربح البسيط، والربح المركب، واللغرتمات، ومبادئ الجبر.

فهو أستاذي في الدراسة، وزميلي في الدراسة، وصديقي في المُدارسة.

* * *

ـ مفاتيح شخصيته:

ـ كان القول المأثور عنده: (والعافين عن الناس).

ـ كان ـ يرحمه الله ـ يُفلسف المصائب، والمشاكل، والإساءات.. فتتلاشى بعد فلسفته لها.

ـ كان يقول لي: كبِّرها تكبر.. وصغِّرها تصغر!

ـ كان سبَّاقاً لمساعدة الناس.. لم يبخل قط بجاهه على من يطلب المساعدة.

ـ يفخر بتلامذته.. ويقول: هم الآن أساتذتي!

ـ تجرَّد تماماً من الكِبر.. فهو ضعيف أمام الضعيف، وواثق من نفسه أمام القوي.

* * *

ـ اختلاف الرأي:

ـ لا تظن أننا كنَّا متَّفقين في وجهات النظر!

بالعكس.. فكثيراً ما اختلفنا في وجهات النظر، وكنَّا: نتحاور، ونتناقش.. وربما نصل إلى حدِّ (النِّقار)، فإما أن يقنعني بوجهة نظره ـ وكثيراً ما أقنعني ـ وإما أن أقنعه، وقليلاً ما كنت أقنعه!

وكان ـ يرحمه الله ـ حينما يأتي بالدليل على صحة وجهة نظره.. يقول:

ـ إشْتَ كتاب مُذهَّب!

ويعني: الدليل القاطع من المراجع.

* * *

ـ متابعة الأخبار:

ـ عُرف عنه ـ يرحمه الله ـ حرصه الشديد على متابعة نشرات الأخبار، وحفظه لمواعيد إذاعتها من محطات الإذاعة المحلية، والعربية، والأجنبية الناطقة باللغة العربية.. حتى لو كان في زيارة لصديق، فإنه يستأذن منه في الخروج، وإمتطاء سيارته ليصغي إلى الأخبار!

ـ ويضيف السيد «ياسين طه» قائلاً:

ـ كلُ واحد منَّا يحلل بينه وبين نفسه تلك الأخبار، فإذا ما اجتمعنا: أبْدى كل واحد منَّا ما توصَّل إليه من تحليل، ثم يتم الربط والتنسيق بين تحليلي وتحليله.. ونتوقع ما سيكون، وكثيراً ما أصبنا في توقعاتنا.

ـ من ذلك مثلاً: توقعنا السوء من «صدام حسين» وقد كان يلهث إن تحمل عليه، وإن تتركه يلهث!

وكم كنا مشفقين ومتألمين من مساعدته في حربه مع إيران.

وكنا على يقين.. لو انتصرت إيران، فإنها لا تستطيع الإساءة إلى العرب، باعتبارها ليست عربية.. أما إذا انتصر «صدام حسين».. فإذا أساء إلى العرب، فإن شرذمة من الهلافيت تنضم إليه... وبذلك تحدث البلبلة!

ـ وتوقعنا السوء من «القذافي».. وقد كان ولو متأخِّراً، لأن تصرفاته كانت تدل على ذلك.

ـ وتوقعنا السوء من آخرين، وقد كان... وكنا نعجب من الذين يثقون بكل هؤلاء!!

* * *

ـ ذاكرته.. وعلمه:

ـ لقد وهب الله «محمد حسين زيدان» ذاكرةً، حافظة فوق المعتاد... حافظة تحفظ ما يسمع، وما يقرأ.. وذاكرة لا تخطئ إلاَّ نادراً.

ـ كان ـ كما قال الأستاذ عبد الله الجفري عنه ـ دائرة معارف.. تمشي على قدمين!

ـ كنا نقضي أكثر الأوقات مع سِيَر الصحابة رضي الله عنهم... وكان ـ يرحمه الله ـ ذوباع طويل في ذلك.

* * *

ـ من إعترافاته:

ـ أعترف: أنَّني لا أبذر في عواطفي، وإنما أكرم نفسي حين أكون متعاطفاً.

لهذا.. قالت لي إحدى حفيداتي:

ـ أنت كريم في عطائك.. جَبَان في أخذك!

* * *

ـ أعترف: أنَّني أسير لروعة في كل شيء.. ولو كلَّفني ذلك بعض الارتياع!

ـ أعترف: لا أحسب أن دمعة من عيني ذرفتها عن حزن.. فأكثر الدموع ما كانت إلاَّ عن: رحمة، أو عن: ألم حبٍّ!!!

* * *

ـ أعترف: أنَّني عندما أجلس.. يكون معي في أفكاري وأحلامي!

عندما كنت شاباً.. كانت معي أفكاري.

وعندما أصبحت الطفل/العجوز.. صارت معي: أحلامي.

وقد بقي لي من الطفولة: بسمة لا تضحك، وزفرة لا تبكي، وألم لا يشكو، وشكوى راقصة!!

كأنَّما الألم: عازف الكمان.

وكأنما الأمل: في خبرِ كان**!!**

❊ ❊ ❊

ـ أعترف: أنَّني عشت المتعبات... فإذا أنا بهذه المتعبات قادر أن أحيلها إلى مسعدات.

❊ ❊ ❊

ـ أعترف: أنَّه كان في إمكاني أن أكون ثريًّا.. ولكني لم أحترف مهنة الثراء**!**

أردت أن أكون ثريًّا مع نفسي على الأقل.. ولا تقدر نفسي على الثراء، لأن بعض الثراء جعل أصحابه من الـ «تحت» رغم البهارج**!!**

❊ ❊ ❊

ـ أعترف: أنَّني لم أخسر نفسي بدفعها إلى الجري وراء ما تشتهي..

طلب العيش: متعة.. لكن اللقمة التي آكلها بهذا القلب: لها طعم لذيذ.

❊ ❊ ❊

ـ أعترف: أنَّ راحة الضمير... إرتفعت بي إلى الأعلى دائماً.

❊ ❊ ❊

ـ أعترف أنه كلما ارتفع إحساس الوجدان في إنسان مُحِس: زاد ألمه.. وهو يعيش مشكلته، وأحزانه، وتبعاته.. ويفهم الأسباب، وينكر الوسائل.. وكل ما يتمناه: أن يكون واقعه غير هذا، لأنه لا يريد أن يعيش المشكلة والأحزان، ليتفرغ للتبعات!

* * *

ـ أعترف: أنَّني لم أشْكُ لأحد، ولم أتبرَّم.. لأن كبريائي يمنعني دائماً.

أخشى الإشفاق أكثر من خشيتي للشماتة.. فالشماتة: صراحة واضحة، قد أستطيع رفضها، أو تجنبها، أو حتى هضمها!!

أمَّا الإشفاق.. فهو: شماتة مقنَّعة.. فيها إذلال من مواجهة لا أستطيع لها رداً، لأنها: باسم الصداقة!!

من مشعل السديري . .

يا رحمة الله. . إنزلي

ـ أخي الحبيب/عبد الله:

لست أدري ماذا أقول لك وسط هذا الركام من (سقْط المتاع)؟!

الأعذار كثيرة، وسهلة، وجاهزة، ومعلَّبة. . وأنا وسطها (على قلق). . لا أبرح المكان وإن طرت. . ولا أنزل وإن دفنت نفسي تحت التراب!!

مُشتَّت، مفتت، مغصوب على شيء، أنا لا أفهمه ولا أعرفه، وهذه هي الكارثة.

أنت في عيني تظل بكامل أبعادك وألوانك.

وسأصل إليك بأي طريق كان. . وبأي وسيلة كانت. . المهم هو أن لا نضع (عصا الترحال)!!

عندما سمعت عن غياب (الزيدان) كنت في قرية بين حائل والمدينة. . فتملَّكني ساعتها شعور من الغضب والحزن. . والحزن معروف. . ولكن للغضب روافد عديدة، ولا أريد أن أتكلم عنها، ولكني أخصُّ نفسي بواحدة منها.

كنت غاضباً على نفسي بدرجة (لا تصدق) لأنني سافرت من جدة، ولم تتحقق فكرتك التي طرحتها، لنقتحم عليه عزلته في زيارة جماعية إجبارية.

كنت أعتقد أن الزمان سوف يمهله ويمهلني.. وما عرف الزمان أنه بفعله هذا أصبح غريمي.. ولكن الزمان لم يهتم بذلك، ولم يلتفت.. بل راح يجرجر عجلاته الثقيلة في دربه الوعر، مخلفاً وراءه قرقعة الأصوات، وغيوم الغبار، وشيء من الذكريات الموجعة.

ومن أول يوم هممت بإمساك القلم للتحدث إليه غائباً.. وللتحدث عنه حاضراً.. ولكن ـ ويا للغرابة ـ ما وجدت قلماً!!

وإن وجدته ما وجدت كلاماً.. وإن وجدته ما وجدت تصديقاً.. وإن وجدته ما وجدت عزاء!!

ويمر اليوم تلو الأسبوع، وها نحن نجتاز شهراً.. فيأتي القلم، والكلام، والتصديق، والعزاء.. كلهم يأتون على استحياء، وإشفاق، وإخفاق، بطريقة متدافعة متصادمة، هي أقرب (للملاسنة) من الرثاء.

فيا لهذا الشوق يا عبد الله:

ويا لهذا التوق المتغلغل في أحداق من هبّوا، ومن حبُّوا، ومن داهمو جحافل الحزن بصدورهم العارية، وقلوبهم الراعفة الواجفة.

وسيمتد اليوم طويلاً.. والظلال طويلاً.. والعمر قصيراً، ثم قصيراً، ثم قصيراً.

ولتصدح كل (صنجات) العالم.. فاليوم أمر.. وغداً أمر آخر.

(أخوك/مشعل)

الزيدان. . الزيدان. . الزيدان!!

ـ ذهب الزيدان. . وترك لنا غُصَّة في الحلوق. . ما كان لها أن تزول. . وما ينبغي لها أن تزول.

ذلك الرجل الدامع العينين أبداً. . الطافح بالوجد. . والمتورط بقراءة التاريخ الماضي نحو المستقبل الصعب.

كان ولوعاً، وشغوفاً، ومثابراً حتى مع العكَّاز. . حتى مع ترنُّح الخطوة. . حتى مع المرض، والكآبة، والصمت، والعزلة، والموت الذي تأخر قليلاً، ثم تقدم أكثر وأكثر، فحسم الموضوع بطريقة لا تمتُّ للفروسية بصلة. . لأن الزيدان سقط في ميدان الصمت. . وهو الفارس في ميدان الكلمة المسموعة، الثاقبة، والمفجرة لطبلات الآذان المترهلة الصماء.

سجن نفسه بطوع نفسه. . وكأنما هو قد سجن العالم كله في داخله. . حاصره الحزن، وحاصر هو الحزن وحيداً، لا سلاح، ولا مال، ولا أحباب. . رغم أن العالم من حوله مدجج بالسلاح. . والمال يجري في عروق الناس، مجرى الدم. . والأحباب ـ كل الأحباب ـ يتهافتون عليه. . ولكن (لا حياة ولا موت أيضاً لمن تنادي)!! وتلك كانت أقسى، وأبلغ، وأعنف، وأشقى، وألعن، وأمضى فواجع الإنسان في عمره. . إنها

اللحظة الحاسمة، والواقفة على حد السيف.. وعلى شعرة الضمير ـ إن صح التعبير ـ !

لحظة ليس فيها خيار، ولا مقارنة، ولا تفكير، وأيضاً ليس فيها تردد.. لأنها صنعت الإنسان الذي صنعها.. وقدَّته بخنجرها المصقول قدًّا من الوريد إلى الوريد.. فكان الموت عذاباً، وبهجة، وإحباطاً، وترفعاً يتخبط في كل المتناقضات، فيصهرها صهراً، لتتوحَّد في كتلة ليس لها حجم ولا وزن، ولكن لها حضور يخترق الزمن، ليكون منه وفيه ظلالاً، أو شعاعاً، أو ظلاماً، أو غراماً، أو بكاءًا.. يشهد للناس، ويشهد عليهم!

ـ ما صبر الزيدان على الضيم يوماً..

وما توجع أو تفجَّع، ولا لعق جراحه بلسانه..

ولا طوى كبده المحروقة في جوفه، كما يطوي الليل البهيم شُهب النيازك..

ولكنه تقاطر على الحياة والناس، وأوغل فيهم «الحب» الذي لا يعرف الموارِبة..

فكان هو الشَّدْو، والفخر، والمداخلة بين أحلامنا ومآسينا..

وكان هو القفز في كل شيء، في حياته الحافلة، وفي علاقاته الاجتماعية، وفي أسلوبه الخطابي، والكتابي، والفكري، والعاطفي..

نعم كانت شخصية متميِّزة لا تراها إلاَّ مرة واحدة، وفي جيل واحد، شخصية قافزة على الحواجز أنَّى كانت الحواجز.

كان معلم صبيان ورجال ونساء وأجيال.. مات البعض منها، وسيولد ـ حتماً ـ البعض منها ويتعلم.

لقد أحببتُ الزيدان مرتين: مرة لفكره المتقدم.. ومرة لشخصيته الآسرة..

ولـم أر إنساناً تندمج شخصيته بعطائه إلى حدِّ الذوبان أكثر من الزيدان..

وقد قال أخي عبد الله الجفري: إنه موسوعة تمشي على قدمين.. وأنا أزيد عليه، وأقول: وأيّ قدمين؟!

* * *

ـ فيا رحمة الله انزلي، فما أكثر المساكين..

ويا أيها الراحل عنا: نحن الراحلون، مثلما قال صديقك أبا الطيب..

فتمهل أيها الصبر والسلوان، ولا تتمهل..

وتبختر أيها (الفقد).. فقد أصبحتَ أميراً على أيامنا، ولياليناً.

والعزاء لك أيها السيد اليتيم: (ياسين طه).. الذي ما أن رأيتك في العزاء، حتى لجلج في كياني صائح البين.. فلم أجد كفاً لأصفقها بكف!!

لم أجد يا سيدي غير هذا الذي كان!!

* * *

عندما اكتمل نداؤه

ـ في الأيام الأجمل من وعي فكري، ومن أصالة وجداني.. كان يمنحني ضوء الفكر، وكان يهدهد وجداني ويسقيه من شجون تجاربه، ومن رحابة نفسه!

لم أكن جاحداً فضله في يوم ما..

ولن أكون في تذكُّره اليوم.. إلاَّ هذا الثراء الكبير الذي شذَّب أفكاري، وأترف أحلامي بالأمل، وغذَّى طموحاتي: متكلماً في أذنه، ومصغياً إلى حكمته وتجاربه.. حتى صار العمر محشوداً في (لحظة) واحدة: تضيق بنا إلى درجة الاستفزاز، أو الانفعال، أو.. الغضب!

وحتى صار العمر مزدحماً (بلحظة) واحدة: نضيق بها.. لأنها فاضت بالجراح، واكتوت بالجحود، وطافت في أرجائها أصداء الوحدة المترددة كموسيقى الحزن الجليل!!

وعندما أقام له «نادي جدة الأدبي» حفلاً لتكريمه، لم أذهب إلى حفل (شفهي)!

وبعدها بأيام.. قال لي صديقي/الأديب «الدكتور عبد الله مناع»:

ـ لقد افتقدتك كثيراً في الحفل.. وهو تكريم لأستاذنا الذي وحَّد الكثير من أفكارنا، وحتى مشاعرنا: «محمد حسين زيدان»!!

ـ أجبته يومها: حتى أنا افتقدت نفسي هناك، بعد أن تفقَّدتها في داخلي، وفي داخل أستاذي، ومعلمي، وأبي الروحي «محمد حسين زيدان».. لكني رأيت أن (قيمته) في وطنه أكبر من ذلك بكثير جدًّا!!

ولكن أستاذنا، ومعلمنا ـ في تاثير ذلك الحفل داخل نفسه الشفافة ـ قد فرح بما أسماه وهو يبتسم حزيناً: مبادرة كريمة!

ـ وقال يومها: أشعر أن هذا التكريم لي.. هو حفل «وداع».. ترثونني فيه قبل موتي الذي أزف!!

* * *

ـ حقاً... لم أكن أرغب يومها في هذه الخاطرة/اللمحة التي أشار إليها أستاذنا «الزيدان».. فوصف التكريم له، بأنه «وداع»!!

حتى الذين تنتهي أعمارهم ويرحلون نهائياً عن حياتنا.. نحن لا نودِّعهم لأنهم بما تركوه، وبحبنا لهم.. لا نشعر بمعنى «الوداع»، أو الغياب النهائي عنا.. بل نشعر بآلام الفراق، وبأن حوارنا «الصوتي» معهم قد انقطع، أما صلتنا معهم ـ روحياً وفكرياً ـ فهي تُشكِّل الحياة الجديدة.. الأكثر رسوخاً، والأكثر إلتصاقاً، والأنقى والأكثر صفاء!!

إننا في حياتنا، ونحن نمشي، ونتحرك، وننبض، قد لا نلتقي وجهاً لوجه.. قد نخاصم، ونحتجب، ونغضب، ونقاطع من أحببناهم بسبب تافه، أو لسبب يتصل بالكرامة، أو بعزَّة النفس، أو لموقف جازم... لكننا لا نقدر أن ننسى، إذا كنا لا نقدر أن نكره، أو نحقد، أو لا نقدر أن نتنازل عن الحبِّ!!

إن «الزيدان» مدرسة فريدة، وعصر «أستاذيٌّ» متميز، ونكهة ـ في

أسلوب الكتابة، وفي أسلوب التعامل أيضاً ـ وهذه النكهة تُجسِّد قيمة هذا الطراز من المعلمين، المثقفين، الحكماء، المجربين، العاطفيين أيضاً!

وأستطيع أن أقول عن «أبي» الزيدان:

ـ إننا وقفنا أمام «إنسان».. عاطفي جداً، ولكن ليس في صناعاته: الكراهية!

علَّمني مرة هذه «الرؤية»، فقال لي:

ـ لا تقل أنني أكره فلاناً.. لأنك بهذا الوصف تعني أنك تحبُّه، أو تفكر فيه، أو تحسب له حساباً.. ولكن قل: إنني أحتقر فلاناً!!

إن الكراهية: عاطفة أيضاً مثل الحب، ولكن «لإحتقار»: إسقاط تام!!

ـ قلت: إن الاحتقار لن يكون معنى، ولكنه ممارسة وتصرُّف.. أما الكراهية فتحمل المعنى!

ـ قال ضاحكاً: الأفضل لمثلك ومثلي.. أن نتحدث عن الحب دائماً، فنسقِّط الكراهية، ولن نحتاج أو نضطر للاحتقار!!

* * *

ـ ذات يوم... دخل إلى مكتبي ـ يوم كان لي مكتب يعرفه ويعودن فيه! ـ وشعرت أنه قد أصيب «بنوبة» ترف!!

والحوار معه يبدأ هادئاً حتى يسخن.. فإذا سخن، سقطت من عينيه الدموع فجأة، ويبقى ترف العبارة.. هو وميض الدموع!!

ولاح لي أن في ذهنه فكرة تلوب، ولا تكاد تستقر حتى تتقافز.. أما لأنها تريد أن تخرج على الورق، أو لأنها تعاني!

ـ قلت له: ما بك.. هل تعاني اليوم من ترف الكلام، أم من فيضان الكلام... بينما نحن في حاجة إلى صدق الكلام؟!

ـ أجاب: صرنا نعاني من الثرثرة، ومن فيضان الكلام.

ولكن.. إسمع: إن الكلمة البيانية عند الرافعي ـ مثلاً ـ تبدو في ذكاء الترف من حضارة الحب، أو هي ترف الذكاء من الغلو في العفة!!

والأستاذ «الزيدان» يعشق أسلوب الرافعي وصُوره، ويمتح من عطائه مثل كل ذوَّاقة للكلمة، وإن أطلقوا على أسلوب «الزيدان» بأنه «زيَّاتي» نسبة إلى الزيات!

ويفرك الأستاذ يديه، وهو يتذكر حياة الرافعي العريضة/ المنكمشة في آن واحد!

ـ قلت له: إن الترف لم يتمخض عنه ذكاء مطلقاً، ولا تقف الأمثلة الشواذ لتكون مدلولات وحُجَّة!!

إن العبارة التي تنعكس عليها ملامح الترف.. هي كما «السندويتش».. يقرأها القارئ في لحظتها ويطرب لها، ويعبر بها أجواء ذاتيته ومشاعره، ثم يتلاشى بذوبان الشعور الطاغي الذي يتحكم آنذاك!

إن الرافعي ـ في رأيي ـ لم يكن يكتب العبارة المترفة، بقدر ما كان ينحت من وجدانه: سطوره وكلماته، ويرسمها على الورق.. وكأنَّ وجدانه يفيض بالأسى والمرارة.. مثلك أنت تماماً!

ودمعت عيناه من جديد.. وعقَّب قائلاً:

ـ أراك تستمرئ مشاكستي.. حتى أضطر إلى ضربك!!

* * *

ـ ويحلو «للزيدان» أن تُحدِّثه عن «مي زيادة».. كأنها ترمز ـ في امتداد سيرتها ـ إلى عدة (ميَّات) في حياة الزيدان.. بدون زيارة (!!)

ـ قلت له: كان واقع «مي» هو الترف، والأرستقراط، ومجتمع النبلاء والسادة، والمفكرين.. لكنها كانت تطمر آلامها في أعماقها، وكانت تُهيل على تلك الأحزان طبقة من الترف المصنوع الذي تعيشه ولا تحياه.. علَّها بذلك تصنع التغيير في حياتها!

لكنَّ أعماقها كانت حافلة بالشجون وهي: عاشقة ومتألمة.. فأرادت أن تكتب العبارة المترفة بذلك الإيقاع الحزين، تحت إلحاح التغيير الذي تطمح إليه!

ولقد جنى الترف عليها، حتى اتهموها بالجنون!

وجنى الطموح عليها، حتى حملوها قسراً إلى مصحة للأمراض النفسية!

ـ قال: لكنها في كل ذلك.. لم تخسر صدقها مع قلبها ووجدانها، وإن أنفض من حولها الترف!

ـ قلت: هناك منْ بالغ في السخرية ـ فأتهم «الجاحظ» بالترف أيضاً!!

ـ قال: إننا لم نختلف، ولكن الترف الأخطر.. هو ذلك الذي يصيب الضمائر، ويصيب الذاكرة، ويصيب السلوك والتعامل... حينما يتحول إلى «بطر»!!

ـ قلت: إن كثيراً من العبارات المترفة.. كتبت في كوخ، أو في ظلال شمعة!

ونحن في هذا العصر نبحث عن عبارات تكتب تحت وهج

الشمس.. حينذاك نتذوق الترف، لأنه سيكون حصيلة عرق ومعاناة!

ـ قال: دعني أسألك.. ماذا نفعل بسمو الأخلاق؟!

ـ قلت: إنك تُحرج زمني بهذا السؤال!!

ولكني أجيبك: إننا نتعلم بهذا السُّمو كيف نعيش، ونعرف به ماذا نصنع، ونلتزم في إطاره بالمثل، وبالنظافة، وبنقاء النفس... وبذلك نفرح!!

ـ قال: هل تكتب موضوعاً إنشائياً؟!!

ـ قلت: لماذا تشتمني؟!

ـ قال: ألا ترى أن سموَّ الأخلاق.. يسقط أمام رغيف العيش؟!

ـ قلت: بلى... عند أصحاب النفوس الضعيفة، والذين يقبلون القهر، والأذهان القاصرة، والظروف الرطيئة!

ـ قال: إن واقع الحياة يا بُنيَّ.. قد أفسد فينا أخلاق الكتب!!

* * *

ـ ذات يوم... دخلت إلى سمعه بعبارة قالها الشاعر «نزار قباني»، وهي:

ـ «الحلم.. هو الشيء الوحيد الذي لا يعار للآخرين»!

ـ فقلت له بعد قراءة العبارة:

ـ ألم تُعِرْ حلمك يوماً للآخرين؟!

ـ قال ضاحكاً: بلى.. لكل الذين أحببتهم، حتى لو لم يحبُّوني!

ـ قلت: لذلك... فقد ملأت أيام أعيادك في الحلم بعدوى الفرح.. لا بالفرح ذاته، وأردت أن تقود أحزانك ومواقفك إلى أفراحك في الحلم، وتغمسها في مسرات من أحببتهم!

إن الذي يفرحك.. قد لا تستطيع أن تقوله لمن حولك.. والذي يحزنك قد لا تستطيع أن تُخفيه عن الذين أحببتهم.

إن مقاييس الفرح والحزن.. لم تعد في ضميرك بفلسفة الشعور، بقدر ما هي إغفاءة التعب.. التي يصعب أن يرفضها الإنسان!

لذلك ـ أيضاً ـ فمن الصعب أن تنتمي إلى حالة معينة.. ولا إلى استكناه متفرد.. ولا إلى موقف تجعله ينتصب في صدرك كالرمح!!

إن ما يهمك هو أن تحقق زمن التعب الذي لا ترفضه!

إنك تطلب من نفسك أن تتوغل في أحراش الحياة.. لتصل إلى كل الناس.

وما دُمت قد توصلت إلى كل الناس.. فإنك تعطي فلسفة حكيمة لهذا العالم المؤلم.. بقدر ما فيه من فرحة!

ـ قال: لقد أرغدتني أحلامي كثيراً.. أحلام اليقظة بالذت، وأحلام الوجدان.

إنها النفس التي لا تعرف الكراهية، وعشت بها حتى بلغت هذه السن.

ولذلك.. لا بد أن تعرف أنني حين أضع رأسي على الوسادة كل ليلة.. أستغرق مباشرة في النوم العميق، لأنني أمتلك تلك القدرة التي يبحث عنها الكثيرون: قدرتي أن أطرد كل الأفكار من رأسي، وكل

رواسب اليوم الطويل، والمواقف. . . وأنام!

***

ـ وبقيتُ أفكر ـ بعد حوارنا هذا ـ في أبعاد سؤال:

ـ هل كان يعيش «الزيدان» العزلة التي يطلبها مع نفسه؟!

ربما كان يفعل ذلك أمام حميمياته، ووجدانه، وأحلامه أيضاً. . وهو في هذا السن!

ذلك. . . لأن الأحلام لا تشيخ، طالما بقيت روح الإنسان حيوية، ومتدفقة العطاء.

ويذكرني الأستاذ الزيدان بشاعر إيطاليا الكبير الراحل «أوجينيو مونتال». . الذي قال وهو يبلغ الرابعة والثمانين من العمر:

ـ «إنني أعيش في عزلة روحية. . كأسلوب وحيد يُمكنني من تَحمُّل حقائق الحياة»!!!

وحياة «مونتال» مع الحياة. . قضاها: إبداعاً، وفلسفة، ورؤية، وحلماً. . فقد حصل على جائزة «نوبل» (الزيدان حصل على تكريم لنادي الأدبي بجدة!!) ووصفه النقاد يوم حصل على تلك الجائزة: بأنه: «حرب على الحياة ويخلو من الأحلام»!!

وأول ديوان شعر أصدره «مونتال» أطلق عليه هذا العنوان: «عظام سمكة»، أو رفات سمكة، وكأنه يمزج الحياة بالموت، أو كأنه يبتكر حياة من أحلامه، وتصوراته الخاصة من بين هجمات الموت!!

و «الزيدان» أطلق هذا العنوان على أوائل كتبه: «تمر وجمر»، وفسر

هذا المزج بين الغذاء/الحياة، وبين الاحتراق/الموت.. فقال:

ـ «إن النخلة كانت الزاد، دعامة المسيرة، وركيزة العبر للصابرين الطامحين.. غذاء في عام جائع، وزاداً لجيش فاتح!

فالثمرة، والجمل، والحصان، والسيف، والجمرة: مادة الحضارة العربية، لأنها عدة الصحراء»!!

ولكن.. أي إنسان لن يقدر أن يعطي الحياة أمل البقاء، بل هو الذي يستمد دائماً من الحياة. جمال البقاء، والشعور به»!! المهم أن لا نكون مثل «مونتال» : قدرة على هجرة الحياة، وضعفاً أمام الموت الذي يعلمنا دائماً شجاعة المواجهة لما نخاف منه!!

أما الأب «زيدان».. فقد كان يهدهد أحلامه، ولا يهجو الحياة، ويدعو إلى الحب مبتسماً.. ويحدثك عن الأحلام، ويبدو أكبر بكثير من جائزة «نوبل» المشبوهة، ويقول مبتسماً:

ـ أي رمز هذا.. الذي جعل «القلب» مهد الحب؟!

لأنه أول ما يخفق.. ولأنه آخر ما يسكت!

* * *

ـ إنه «محمد حسين زيدان»: الرائد، المؤرخ، النسَّابة، المفكر، الأديب، العاشق، المنتمي... الذي تفيض عيناه بالدمع فجأة عندما يذكر تاريخ أمته الوضيء، والحزين!!

وعندما كرَّمه «النادي الأدبي» بجدة.. فقد أراد أن يتزوَّد هذا النادي بإضاءة الوفاء منه.

وإذا فرحنا بتكريمه يومها ـ نحن أبناءه، وتلاميذه، ومريديه ـ فإنَّ فرحنا يمثِّل: «ترانيم تناهت من نواقيس قصية»!!

إن دموع «الزيدان».. كانت دماء أشواقه الدائمة!

إنه ومشاعره، وفكره: عهد قديم مشيناه معه، ومشاه قبلنا، ونمشيه أجيالاً بعده.

إن عطاءه ـ على امتداد عمره ـ قد شق أرضيَّة الدهشة، والحلم، والقدرة.. ومنحنا نحن قرَّاءه: زماناً مميزاً، ورؤية إلى الأبعد.. ما زالت تُمحِّض سفرنا إلى الحقيقة، والوعي، وتُطلعنا فنارات من الإدراك، والوجدان، والإنتماء!!

وعندما أسلم الروح لخالقها... فقد كان: نداؤه يكتمل.. والفم يصبح كلمة واحدة له، ومنه، وعنه!!

كأننا ـ في حديثنا عنه دائماً ـ نتجه جميعاً خطوة واحدة نحو شجرة وارفة، شامخة، متكاتفة.. ظلالها تفرش الأرض!!

* * *

مــن أقــوالــه

ـ من أقوال الأستاذ «محمد حسين زيدان» التي رصدها في حوار معه الأديب القاص «محمد علي قدس».. هذه الكلمات:

ـ تمنَّيت أن أعرف كل أديب في وطني، وهو ليس الحوش الذي ولدت فيه، أو المدينة التي ولدتني، أو المملكة التي حفظتني.. بل وطني كل هذا العالم العربي!

وتمنَّيت أن أجري وراء الكثير.. لأعرف الكثير، وأتعلم من الكثير.. وقد عرفت الكثير والحمد لله.

* * *

ـ الأديب وفق ما عرفناه من القدامى، هو: الذي ياخذ من كل شيء بطرف.

والمثقف أخذ هذا التعريف، بل أخذ الأكثر: هو الذي يعرف كل شيء، عن أيِّ شيء.. فهو كيف للعلم، فالعلم كم، والثقافة والتثقيف كيف!

* * *

ـ الذين جنَّدوا المثقف ليؤدي ما عليه، ليكون مسموعاً ومقروءاً.. لا بد أن تتوفر له الإمكانيات: حرية التعبير، ولا نعني الإباحة بكل شيء، وإنما بعض الراحة في القول!!

* * *

لا بد أن يُعطى للمثقف قيمة في مجتمعه... وهي قيمة الزهادة في كل ما يغري به، ليكون حراً في تفكيره.. لا يُقيَّد بعطاء، ولا يُقيَّد بتبعية.

فإذا أردنا أن يكون عليه واجباً، فيجب أن نعطيه ما يستحق من التكريم: أن نقرأ له.. أن نفهمه.. أن نعطيه شيئاً من الحرية.. شيئاً من الإعزاز والتكريم، فهو له حق وعليه واجب.

* * *

ـ هل اتُّهم العرب كما اتَّهم موشي ديان بأن العرب لا يقرأون؟!!

معنى لا يقرأون: ليسوا مثقفين!!

هذه النهاية المُرَّة يجب أن نعرف أن الثقافة لها قدر ولها رُجحان، وهي الأخذ من العلم، والاستيعاب من التجارب.

* * *

ـ أنا عربي.. سواء كنت من ذوي الأعراق، أو من ذوي الاستعراق!

ـ أحارب الحيف، وأُكرم الضيف.

ـ يطعني السيف، أتمرد على العدالة ويأخذني الظلم إلى الاعتدال.

ـ أصبر على الجوع، وأتستَّر على الشبع.

ـ بالشظف أسُود، بالترف أُستعبد..

ـ لا يستعبدني أحد.. وأنا بالترف تستعبدني الشهوات.

وهذا حالي أصف به نفسي، كأيٍّ نفس عربية تعيش اليوم!!

❊ ❊ ❊

ـ الارتجال كان طبيعة الشاعر العربي حين كان أُميًّا يسمعه الرواية.. فالارتجال عطاء، والرواية سجله.

ـ أنكر طه حسين الارتجال في أول أمره، ليُثبت الانتحال.

مُعلَّقة الحارث بن حلزه البكري استكبرها طه حسين.. استصعب أن تكون ارتجالاً، مع أنه يرحمه الله من أول المرتجلين في عصره، فهو أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فهو لا يقرأ وإنما يستقرئ، وهو لا يكتب وإنما يرتجل فيملي.. وقد كنت كذلك!!

❊ ❊ ❊

ـ تاريخنا يقرر: أن أدبنا أدب أمة.. أدب شعوب تتلاقح وتتصل مع بعضها، فليس في الأدب العربي أدب إقليمي، بدليل أن الشعر العربي نشأ في نجد، فإذا مصر والأندلس والشام والمغرب تلتهم كل الشعر وتعتبره شعرها، ثم انتقل إلى الحجاز.

❊ ❊ ❊

ـ أنا مع العقاد في قوله: الشعر جَرْس، وميزان، ولفظ مشرق، ليس كلمات ترمي بالمسطرة.

لقد انتشر الشعر الحديث بانتشار مدرسة صلاح عبد الصبور الذي كتب الشعر التقليدي.

وصلاح وكل أصحاب الشعر الحر، عجزوا عن النظم والوزن الشعري، وعن الشعر العمودي.. فأحترفوا الأسلوب، لا يُمنح سواهم.

مصطفى حمام رحمه الله: كان آخر ظرفاء مصر بعد عبد العزيز البشري.. وكان ضدَّ الشعر الحرِّ!

رأيت إعلاناً في البلدية عن الهدم فسويته شعراً: عشت تنك.. تنك عشت.. مثل الشعر المنثور.. قلته لحمام فمات من الضحك!

* * *

ـ هزَّتني تلك البنت الأسدية الغامدية من السراة.

أعجبني كلامها عن عزيز ضياء في تكريمه.

وأنا كنت رجعياً، وأكره تعليم البنات.. ولكني علَّمت بناتي ولله الحمد.

وهذه الغامدية جعلتني أكون معها ليرتفع تعليم البنات مثلها.. إرتفعت هي في هذا التحدي وهذا التعدي لمناقشة عزيز.. كأنها عشقت بيانه.

مثقفة معززة، بناتنا يتقدَّمن ويسِرن الهوينى بما تحكمه التقاليد، وأنا بها فخور.

ـ أبو الضياء عزيز: صوت العزيز الذي يحكمني أن أركب بعيري

لأمتار من فيضه.. فليس هو يوسف عليه السلام، ولا أنا أحد إخوة يوسف، هم أمتار ما يكال، وأنا أمتاروا نظيم الكيل..

ـ حمزة شحاته: أستاذ كبير، أجمل ما فيه ليس شعره، أجمل ما فيه نثره. أجمل ما فيه تلك النرجسية.. أحمد ما فيه أنه محدث لبق، فإذا ما جلس الأستاذ عزيز وجلست وجلس غيرنا ومحمد عمر توفيق أو حمزة شحاته يتكلم: كنَّا نطرب لحديثهما، كان نديداً يعاملنا بالندادة، ونعامله بالندادة أيضاً.

* * *

ـ في شخصية أحمد السباعي إزدواجية.. فيها التزاوج، فلا انفصام بين شخصيته.. شخصية (إبن الحارة)، وشخصية (الأديب).

مارس الصحافة، وألَّف، وكتب.. لذلك فهو نابغة، لم يكن نبوغ العبقرية، فلذلك لم يرضه لنفسه.. وإنما هو نابغة في أدبه وفكره.. ولم يكن فلاحيًا، ولا صولتيًا، وإنما درس دراسة ذاتية.

* * *

ـ عبد الوهاب آشي: تزاوج السلوك والخلق، فما شذَّ سلوكه عن خلقه.

وعلى طول معاشرتي له لم أسمعه يعيب أحداً.. إما يثني وإما يسكت.

ما ذكر اسم شاعر أو ناثر عنده إلاَّ استطاب ذكره.

ما عرفت قيمة حسين سرحان وشحاته إلاَّ منه، كان صديقاً وفيًّا لأصدقائه.

* * *

ـ شكيب أرسلان: أبو غالب بن ماء السماء الأمير شكيب.. جمع المتناقضات ولكنها تناسقت.

هو أمير البيان.. فلو وضعناه أمام المرآة تتقصى مسيرته.. تتضح بها سيرته، لوجدناه العربي نسباً، الإسلامي جماعة، الدرزي سنيًّا، الإسلامي قومياً.

هكذا عرفته على أكثر صوره.. حين قدم إلى المدينة.. أعلنت له إعجابي، وحفظت له صنيعه مع العربية والعرب.

* * *

ـ محمد حسين هيكل: عندما زارنا في المدينة المنورة، كرَّمته بكلمة قلت فيها: نحن نحترمك ونعجب بك، ولكنا ما كنَّا نحبُّك.. لأنك كنت تدعو للفرعونية، ولكنا أصبحنا نحبك عندما أخرجت لنا (حياة محمد)، وعندما دافعت عن اللغة العربية أمام طه حسين!

هيكل: هضم ثقافة الغرب، فحوَّلها بتراثه إلى ثقافة عربية إسلامية.

* * *

ـ طه حسين: أوغل في الثقافة الفرنسية، وأوغل في الثقافة اللاتينية اليونانية، فإذا هو يكتب «على هامش السيرة» و «الوعد الحق» و«الفتنة الكبرى»، ويكتب عن الإسلاميات، ويعتزُّ بالقرآن الكريم.. لذلك نحن نعتزُّ به.

* * *

ـ محمد حسن عواد: ليس له نديد.. كما أنه ليس لديه أتباع!!

* * *

ـ محمود عارف: له من اسمه نصيب.

هل سمعتم في يوم أنَّه مذموم؟ إلاَّ أنه المحمود؟

وهل سمعتم من اتهمه بالجهل؟ ذلك لأنه عارف، ونعم الأخ والصديق.

* * *

ـ الشيخ محمد حافظ: كان يقتني التاريخ كتاباً، فهو صديق الكتاب وجليس المكتبة.

أسأله عن أيٍّ شيء تجده، وهو مثله مثل الشيخ أبو تراب، والظاهري أبو عبد الرحمن، وابن عثيمين، وابن عقيل، وحمد الجاسر.. هؤلاء الذين أعرفهم أحلاس الكتب، لا تسألهم عن كتاب إلاَّ دلوك عليه.

* * *

ـ عبد الله الجفري: أنا له، وهو لي...

كنتُ الأذن، وكان اللسان..

وكنتُ اللسان، وكان الأذن، فلست محمد عبده ولا هو حافظ إبراهيم، وإنما هو الشيء من الشيء.

* * *

ـ عبد الله الغذامي: ما خرج من طبعه وإنما أخرجني من انطباع، بعد الذين لا يعرفون قدر هذا الأستاذ، حين كرَّموه.. قلت أنَّه يستحقُّ، وقد أنالني التكريم بتكريمه.

* * *

ـ كرَّمني نادي جدة الأدبي.. فإذا أنا آتيه زهواً، ولا آتيه ضياعاً.

أتاوَّه من كلمة رقصت، ومعنى أشجاني، ومنعني الحياء أن أتراقص بها.

ولكن الحياة ما زالت راقصة، كأنها قد أعادت الناعية: «ويموت الكتكوت، وعينه في الدشيشه»!!